تفسير القرآن العظيم

للإمام المحدث ابن كثير
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق
د. محمد ابراهيم البنا

الجزء الأول
سورة الفاتحة - سورة البقرة
الآية ١٨٩

مؤسسة علوم القرآن
شركة دار القبلة
دار ابن حزم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار القبلة للثقافة الإسلامية
المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - ت: .... ٦٧١ - تلكس: ٤٠٠٨٠ - دلة . س ج

مؤسسة علوم القرآن
سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - ت ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١٣/٥٢٨١

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

تفسير القرآن العظيم

ابنُ كثير في ميزان العلماء :

« الإمامُ المُفتي، المحدِّثُ البارعُ، فَقِيهٌ مُتَفَنّن، ومُفَسّرٌ نَقّادٌ، له تصانيفُ مفِيدَةٌ» .

مُؤَرِّخُ الإسلامِ الذهبيُّ

«أَحْفَظُ من أدركناه لِمُتونِ الحديثِ، وأعرفُهم بِجَرْحها وَرِجالها، وصَحِيحِها وسَقِيمِها» .

ابنُ حجّي

«برَع في الفقه والتفسير والحديث، وجَمَع وصَنَّفَ، ودرَّس وحَدَّث وألَّفَ» .

ابن تَغْرِي برْدِي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة التَّحقِيق

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ المُرسَلين، سَيِّدِنا محمدٍ المبعُوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ أجمعين.

وبعدُ فإنَّ القرآن الكريم هو كلام ربِّ العالمين، أَوحاه إلى نَبِيِّه الكريم محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بشيراً للعالمين ونَذيراً ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقال جلَّ شأنه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾. وقد شاءت إرادته تعالى أن يكون القرآن الكريم كذلك شاهداً على صدق نبوته ﷺ في دَعْوتِه، لخروجه عن وُسْع الثَّقلين وطاقتهم، يقول تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، وقال جل شأنه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، وقال ﷺ: «ما من الأنبياء نَبِيٌّ إلا أُعطِيَ ما مثلهُ آمن عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتِيتُ وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». رواه الشيخان، يقول ابن كثير: «وفي هذا الحديث فضيلةٌ عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أُعطِيَها نَبِيٌّ من الأنبياء، وعلى كُلِّ كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نَبِيٍّ إلا أُعطِيَ ـ أي: من المعجزات ـ ما آمن عليه البشرُ، أي: ما كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به، واتَّبعه مَن اتَّبعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم تَبْقَ لهم معجزةٌ بعدهم إلا ما يحكيه أتباعُهم عما شاهدوه في زمانه. وأما الرسولُ الخاتَمُ للرسالة محمد ﷺ فإنَّه كان مُعظَمُ ما آتاه الله وحياً منه إليه، منقولاً إلى الناس بالتواتر، ففي كُلِّ حين هو كما أُنزِلَ، وكذلك وَقَع، فإنَّ أتباعَه أكثرُ من أتباع الأنبياء، لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته».

وقد اقتضت حكمتُه تعالى أن يكونَ خِتامُ وَحْيِهِ على خاتَم رُسُله بهذا اللسان العربي المُبين، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾، وذلك لحكمة ترجع إلى هذا اللسان، يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: «وقد اختار الله ـ تعالى ـ أن يكون اللسان العربي مظهراً لوحيه، ومُستَوْدعاً لمراده، وأن يكون العربُ هم المُتلَقِّين أوَّلاً لشرعه وإبلاغ مُرادِه لحكمةٍ عَلِمَها، منها: كونُ لسانِهم أفصَحَ الألسُنِ وأسهلَها انتشاراً، وأكثَرَها تَحمُّلاً للمعاني مع إيجاز لفظه، ولتكونَ الأُمَّةُ المُتلَقِّيةُ للتشريع والناشرةُ له أُمَّةً قد سَلِمَت من أَفَنِ الرأي عند المجادلة، ولم تقعُد بها عن النهوضِ أغلالُ التكالُبِ على الرفاهية، ولا عن تَلَقِّي الكمال الحقيقيِّ، إذ يُسَبِّب لها خَلْطُه بما يَجُرُّ إلى اضمحلاله. فيجب أن تعلموا قطعاً أن ليس المرادُ من خطاب العرب بالقرآن أن يكون التشريعُ مقصوراً عليهم، أو مراعياً لخاصَّةِ أحوالهم، بل إنَّ عمومَ الشريعة ودَوامَها، وكَوْنَ القرآن معجزةً دائمةً مستمرةً على تعاقُبِ السنين، يُنافي ذلك. نعم، إنَّ [مِن] مقاصده تصفيةَ نُفُوسِ العرب الذين اختارهم كما قلنا لِتَلَقِّي شريعته وبَثِّها ونَشْرِها، فهم المخاطبون ابتداءً قبل بقيَّة أُمَّة الدعوة، فكانَت أحوالهم مَرْعِيَّةً لا محالَةَ، وكان كثيرٌ من القرآن مقصُوداً به خطابُهم خاصَّةً، وإصلاحُ أحوالِهم».

ومن هنا كان على كلِّ مسلم كما قال الإمام الشافعيُّ: «أن يتعلَّم من لسان العرب ما بَلَغَه جَهْدُه، حتّى يشهدَ به أن لا إلّه إلا الله، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، ويتلُوَ به كتاب الله». وقال: «لا يعلَمُ من إيضاح جُمَلِ عِلْمِ الكتاب أحدٌ جَهِلَ سَعَةَ لسان العَرَبِ، وكَثْرَةَ وجوهه، وجماعَ معانيه وتَفَرُّقَها. ومَن عَلِمه انتفَتْ عنه الشُّبَهُ التي دَخَلت على من جَهِل لسانها».

وَلِعِظَمِ مكانةِ هذا اللِّسان، وما امتاز به أهلُهُ من طرائِقَ في التعبير، وكانت هذه الطرائقُ تَهدِفُ إلى توفير المعاني بأوجز عبارة وأوضح بيانٍ، يُمكِنُ أن نَتَبيَّنَ مكانة القرآن في نُفُوسهم من عَجزِهم عن معارضته والإتيان بمثله، أو بمثل سورةٍ منه، كما تَتَبيَّنَ كذلك أنه كان من الأمْرِ الواجب أن يَنْهَضَ نَفَرٌ من هذه الأمة للكشف عن أسرار بيانه، وتوضيح مقاصده، خاصَّةً أنَّ الزمن يُباعِدُ بين المسلمين وبين أصحاب هذا اللسان. ولا شَكَّ أنَّ هذه غايةٌ تتقاصرُ دونها الهِمَمُ، بَيْدَ أن ذلك لم يمنع من أن يظهر في كُلِّ جيلٍ صفوةٌ من العلماء الذين نَذَرُوا أنفُسَهم لها، على الرغم من وعُورة الطريق، حتى قال بعضهم: «وإن كان تفسير القرآن أمراً لا يُطاق، وما تعرَّض له أحدٌ فاستقلَّ به خلا محمد بن جرير الطبري، فإنه بَدَأه وأتَمَّه، ومن جاء بعده فهو عِيالٌ عليه فيه، وفهمه حيالٌ».

التفسير والتأويل:

وردت كلمةُ التفسير في القرآن الكريم مَرَّةً واحدة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. ويقال: فَسَر القرآن وفَسَّره، والفَسْرُ والتفسير: كشف المعنى المعقول، وللعلماء أقوالٌ في تعريف التفسير تَتَّفق كما يقول الشيخ محمد الذهبي على أن التفسير: «علمٌ يبحثُ عن مُرَادِ الله تعالى بقدر الطاقة البشرية». فأما التأويل فقد تَرَدَّد في كتاب الله العزيز غير مَرَّةٍ، وفي معانٍ مُختلِفَةٍ، ومنها ما يرادُ به التفسير كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: «جرت عادة المفسّرين بالخَوْضِ في بيان معنى التأويل وهل هو مُساوٍ للتفسير، أو أخصُّ منه، أو مُباينٌ؟ وجِماعُ القول في ذلك أن من العلماء من جعلهما متساويَيْن، وإلى ذلك ذهب ثعلبٌ وابنُ الأعرابيِّ وأبو عُبَيدةَ، وهو ظاهرُ كلام الراغب. ومنهم من جعل التفسير للمعنى الظاهر والتأويلَ للمتشابه... وهناك أقوالٌ أُخَرُ، إلا أن اللغةَ والآثارَ تشهدُ للقول الأول، لأنَّ التأويل مصدر أوَّله إذا أرجعه إلى الغاية المقصودةَ والغاية المقصودة من اللفظ هو معناه، وما أراده منه المتكلِّمُ به من المعاني، فساوى التفسير، على أنه لا يُطلَق إلاَّ على ما فيه تفصيلُ معنىً خَفِيٍّ معقولٍ».

التفسير بالمأثور، ومنهج ابن كثير:

تعدّدت طُرُق المفسّرين ومناهجهم في تفسير كتاب الله العزيز، فمنها ما قام على التفسير بالآثار، ومنها ما قام على الاجتهاد بعد الأخذ بأسبابه من المعرفة بكلام العرب، ودلالات اللغة، ودرايةٍ بالناسخ والمنسوخ، وإحاطةٍ بأسباب النزول، إلى غير ذلك من الأدوات التي ينبغي توافرها في المُفَسِّر.

ولابن تيمية مقدّمة في أصول التفسير نبّه فيها على أصحِّ طرق التفسير، وقد ارتضى الحافظ ابن كثير ما رسمه ابن تيمية، ونقل كلامه بلفظه، ويقول ابن تيميّة: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أنَّ أصحَّ الطرق في ذلك أن يُفَسَّر القرآنُ بالقرآنِ، فما أُجمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخَرَ، وما اختُصِر في مكان فإنه قد بُسِط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فَعَليكَ بالسنَّةِ فإنها شارحةٌ للقرآن ومُوضِّحةٌ له، بل لقد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريسَ الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ: كلُّ ما حَكَم به رسولُ الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال

الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾، وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الا إني أوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه»، يعني السُنَّة، والسُنَّةُ أيضاً تنزِلُ عليه بالوحي كما يَنزِلُ القرآنُ، إلا أنَّها لا تُتْلَى كما يُتْلى القرآن. وقد استدلَّ الإمام الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ وغيره من الأئمَّةِ على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك».

«والغرضُ أنَّك تطلبُ تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السُنَّةِ، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: بم تحكُم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تَجِدْ؟ قال: بِسُنَّةِ رسول الله. قال: فإن لم تَجِدْ؟ قال: أجتهدُ رأيي، قال: فَضَرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: الحمدُ لله الذي وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضِي رسول الله». وهذا الحديثُ في المسانيد والسُّنَن بإسنادٍ جيِّد».

«وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصُّوا بها، وبما لهم من الفهم التامِّ، والعِلْمِ الصحيحِ، والعَمَلِ الصالحِ، لا سيَّما علماؤُهم وكُبَراؤُهم، كالأئمَّةِ الأربعةِ الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديِّين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه».

ثم ذكر ابن تيميَّةَ ما رُوِي عن ابن مسعود من قوله: «والذي لا إلَه غيرهُ ما نَزَلَتْ آيةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلمُ فيم نَزَلَتْ؟ وأَين نزلت؟ ولو أَعلم مكان أحدٍ أعلم بكتابِ الله منّي تناله المطايا لأتيتُه». وقوله: «كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آياتٍ لم يجاوزهُنَّ حتى يعرف معانيهنَّ والعَمَلَ بهنَّ». وذكر كذلك دعاء رسول الله ﷺ لابن عباس، وهو قوله: «اللهُمَّ، فَقِّهه في الدِّين، وعلِّمه التأويل». وما روي عن ابن مسعود من قوله: «نِعْمَ تَرْجُمانُ القرآن ابنُ عَبَّاسٍ».

ثم يقول ابن تيميَّة: «إذا لم تَجِدِ التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدت عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جَبْرٍ، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرِمَةَ مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رَبَاح، والحسنِ البصريِّ، ومَسرُوقِ بن الأجدع، وسعيد بن المُسَيّب، وأبي العاليةِ، والربيع بن أَنَسٍ، وقتادةَ، والضحَّاكِ بن مُزَاحِمٍ، وغيرهم من التابعين، وتابعيهم، ومَن بَعْدَهم».

وقد نبَّه ابن تَيميَّةَ أنه قد يقع في عبارات التابعين تباينٌ في الألفاظ، فَيَظنُّ مَنْ لا عِلْمَ عنده أنهم قد اختلفوا في تفسير الآي، فيحكيها أقوالاً. وليس كذلك، فإن منهم من يُعَبِّر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من يَنُصُّ عليه بعينه، والكل بمعنىً واحدٍ في كثير من الأماكن.

وقد تعرَّض الشيخ الذهبي في كتابه «التفسير والمفسِّرون» لهذه الأقوال، وارتضى مقالة ابن تيميَّة من أن لا تنافي ولا تَبايُنَ بين أغلب هذه الأقوال، فأمَّا ما تعذَّر الجمعُ بينه فرأى أن يحتكم في الترجيح بينها إلى الرواية، ووضع أُسساً يرجع إليها في ذلك.

أما عن حُجِّيَّة هذا التفسير المنسوب إلى التابعين فقد رُوِي عن شعبة بن الحجاج [ت ـ ١٦٠ هـ] أنه قال: «أقوال التابعين في الفروع ليست حجَّةً فكيف تكون حجَّةً في التفسير؟». وقد بَيَّن ابن تَيميَّةَ مُراد شُعبةَ بقوله: «يعنى أنها لا تكون حُجَّةً على غيرهم مِمَّن خالَفَهُم. وهذا صحيح، أمَّا إذا اجتمعُوا على الشيءِ فلا يُرتاب في كونِهِ حُجَّةً، فإن اختلفوا فلا يكونُ قولُ بعضهم حُجَّةً على بعضٍ ولا على مَن بعدهم، ويُرجَعُ في ذلك إلى لُغَةِ القرآنِ، أو عُمومِ كلامِ العرب، أو أقوال الصحابة».

ويَعرِضُ ابنُ تَيميَّةَ بعد ذلك إلى التفسير بالرأي فيقول: «فأما تفسير القرآن بمجرَّد الرأي فحرام». وقدَّم الشواهد على ذلك من الأحاديث والآثار ونَقَل عن أئمَّةِ السَّلَفِ أنهم كانوا يتحرَّجُون عن الكلام في التفسير بما لا عِلْمَ لهم به، فأمَّا مَن تكلَّم بما يعلمُ من ذلك لُغَةً وشرعاً فلا حَرَج عليه.

ساق ابن كثير هذا المنهج في مُقَدِّمة تفسيره، وأَخَذَ به والتزمه، وعُدَّ تفسيره من التفاسير التي قامت على الآثار، فرأيناه في تفسير قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، ينقلُ ما قاله الضحَّاك في تفسير «الرَّبْوَةِ» وهو أنَّها بيتُ المَقدِسِ، ويُعقِّب ابن كثيرٍ بقوله «فهذا ـ والله أعلم ـ هو الأظهَر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يُفَسِّر بعضه بَعْضاً، وهو أولى ما يُفَسَّر به، ثم الأحاديثُ الصحيحة، ثم الآثار». ولذا كان من الواجب أن نَعْرِضَ للتفسير في هذه المرحلة المتقدِّمة من مراحل التفسير لِنَتَبيَّن ملامحه، ونعني بذلك عصر الرسول ﷺ وصحابته، ثم عصر التابعين، رضوان الله عليهم أجمعين:

أوَّلاً: عصرُ الرسول ﷺ وصحابته:

لقد تكفَّل الله ـ تبارك وتعالى ـ لنبيِّه بحفظ كتابه، وفَهمِ بيانه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾، ولما كان النظمُ المُعجِزُ يخاطب العرب أجمعين بما تداولته ألسنةُ الفُصَحاءِ والبُلَغاءِ كان من الطبيعي أن يفهم أصحابُ النبي ﷺ القرآن في جملته، وكان من الطبيعيِّ كذلك أن يكون هناك من أساليب القرآن ومفرداته ما هو موضع تساؤل ومراجعة، يقول ابن قُتَيبة: «إنَّ العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إنَّ بعضها يَفْضُل في ذلك على بعض». وقد ورَدَت بذلك الآثارُ في سؤال الصحابة رسول الله ﷺ عن هذه المفردات والأساليب، وسؤال الصحابة بعضهم بعضاً وكذلك التابعون. بَيْدَ أنَّ الوارد من ذلك عن رسول الله ﷺ محدود، نحو ما أخرجه الترمذي والبيهقيّ في سُنَنهما، وغير واحد، عن أبي هُرَيرة قال: «قال رسول الله ﷺ ﴿اليومِ الموعُودِ﴾: يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عَرَفَةَ». ثم زادت الآثار الواردة عن الصحابة في تفسير آي الذكر الحكيم، وكانت مصادرهم التي يرجعون إليها القرآن الكريم، وحديث النبي ﷺ، والاجتهاد، وما أثر عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وقد ذكر السيوطي في الإتقان أن أعلام الصحابة المشهورين في مجال التفسير عشرة: الخلفاء الراشدون، وابن عباس، وابن مسعود، وأُبيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزُّبير. وهناك صحابة آخرون رُوِيت عنهم آثار في التفسير مثل: أنس بن مالك، وأبو هريرة، وابن عُمَر، وجابر ابن عبدالله، وعبدالله بن عَمْرو بن العاص، وعائشة، لكنَّ الروايةَ قد استفاضت عن عبد الله بن عباس، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، رضي الله عنهم أجمعين.

منزلة المأثور عن الصحابة:

هذا وقد أطلق الحاكم في المستدرك أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي له حكم المرفوع، فكأنَّه رواهُ عن النبيِّ ﷺ. على أنَّ ابن الصلاح والنوويَّ وغيرهما قيَّدُوا هذا الإطلاقَ بما يرجعُ إلى أسباب النزول وما لا مَجَالَ للرأي فيه. فأمَّا سائر هذا التفسير الذي لا يشتمل على إضافة شيءٍ إلى الرسول ﷺ فمعدودٌ في الموقوف. وقد اختلفَت أنظارُ العلماء إلى هذا الموقوف، فذهب فريقٌ إلى أنه لا يجب الأخذ به لأنه لمَّا لم يرفَعْهُ أنه اجتهَدَ فيه، والمجتهدُ يخطىء ويُصِيبُ. وذهب آخرون إلى أنه يجب الأخذُ به لِظَنِّ سماعهم له من رسول الله صلواتُ الله وسلامهُ عليه، ولأنهم إنما فسَّروا برأيهم، فرَأيُهم صوابٌ، لأنهم أدرى الناس بكتاب الله تعالى.

وقد امتاز تفسير هذه المرحلة بأنه لم يُفَسَّر القرآنُ جميعُه، وإنما الذي غَمَضَ منه، كما امتاز بقلّة الاختلاف بين الصحابة في فهم المعنى، وأنه لم يُدَوَّن شيءٌ منه، لأنَّ التدوين كان في القرن الثاني.

الروايات عن الصحابة :

هذا ولما كان تفسير الحافظ ابن كثير قد قام على الآثار المرويّة عن الصحابة وتابعيهم، رأينا أن نُفَرِّق بسَنَدِ هذه الآثار، حتى يَعْرِضَ عليه قارئو هذا السِّفر الجليل من تفسير كتاب الله العزيز تلك المرويّات. ومعتمدنا الأول في ذلك ما ذكره الدكتور الذهبي في كتابه: «التفسير والمُفَسِّرون».

الرواية عن ابن عباس :

أكثر من الرواية عن ابن عباسٍ ثلاثةٌ من الثقات: مولاه عِكْرِمةُ، ومجاهدُ بنُ جَبْرٍ، وسعيدُ بن جُبَيْرٍ. كما روى عنه طاوسُ اليمانيُّ، وهو ثقةٌ مُقِلٌّ في رواية التفسير عنه، وعطيّةُ العَوْفيُّ، وقد أكثر من النقل عنه، وهو ضعيف. وإليك أشهرَ الطرق عنه:

١ـ طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباس. وهذه هي أجودُ الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمدُ: «إنَّ بمصر صحيفةً في التفسير رواها علي بن أبي طَلْحَةَ، لو رَحَل رجُلٌ فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً». يقول الحافظ ابن حَجَر: «وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاويةَ بن صالح، عن عليٍ بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وهي عند البخاري عن أبي صالح. وقد اعتمد عليها في صحيحه فيما يُعَلِّقه عن ابن عباس».

وقد طَعَن بعضُهم في هذه الطريق فقال: «ابن أبي طَلْحَةَ لم يسمع من ابن عباس التفسير، وإنما أَخَذَه عن مجاهد أو سعيد بن جُبَير. وعلى هذا فهي طريق منقطعة لا يُرْكَنُ إليها». وردَّ ابن حجر هذا النقد بأنه «بعد أن عرفَت الواسطة، وهو ثِقَةٌ، فلا ضَيْرَ في ذلك».

٢ـ طريقُ قيس بن مُسلمٍ الكوفيِّ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس.
وهذه الطريق صحيحة على شرط الصحيحين.

٣ـ طريق ابن اسحق صاحب السِّيَر، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبَير، عن ابن عباس.

وهي طريق جيّدة، واسنادها حَسَنٌ. وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج منها الطبراني في معْجَمِه.

٤ـ طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّيّ الكبير، تارةً عن أبي مالك، وتارةً عن أبي صالح عن ابن عباس.
وإسماعيل السُّدِّيّ مُخْتَلَف فيه، وحديثه عند مسلم وأهل السُّنَن الأربعة، وهو تابعيٌّ شيعيٌّ، وقال السيوطي: روى عن السُّدِّيّ الأئمة مثل الثَّوري وشُعبةَ، لكن التفسير الذي جمعه رواه أَسباطُ بن نصر، وأسباطُ لم يتفقوا عليه، غير أنَّ أمثلَ التفاسير تفسيرُ السُّدِّيّ».

هذا وابن جَريرٍ يُورِدُ في تفسيره كثيراً من تفسير السُّدِّيّ عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس. ولم يخَرِّج منه ابن أبي حاتم شيئاً، لأنه التزم أن يخرِّج أصحَّ ما وَرَد. وللسُّدِّيّ كتاب في التفسير أفاد منه الطبري والثعلبي.

٥ـ طريق عبد الملك بن جُرَيج، عن ابن عباس.

وهي تحتاج إلى دقَّةٍ في البحث لِيُعرَفَ الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يَقصِد الصحَّة فيما جَمَع. وقد رَوَى عن ابن جريج هذا جماعة كثيرة منهم:

بكر بن سهل الدمياطي، عن عبد الغني بن سعيد، عن موسى بن محمد، عن ابن جُرَيجٍ، عن ابن عباس.

وهي ـ كما يقول الدكتور الذهبي ـ: أطول الروايات، وفيها نظر.

ومحمد بن ثور، عن ابن جُريج، عن ابن عباس. رَوَى ثلاثة أجزاء كبارٍ.

والحجاج بن محمد، عن ابن جُريج. رَوَى جزءاً، وهو صحيح متَّفق عليه.

٦ـ طريق الضحّاك بن مزاحم الهلالي، عن ابن عباس.

وهي غير مَرْضِيَّةٍ لأنه وإن وثَّقه نفَرٌ فطريقه إلى ابن عباس منقطعة، لأنه رَوَى عنه ولم يلقه. فإن انضمَّ إلى ذلك رواية بِشْر بن عُمارة، عن أبي رَوْقٍ، عن الضحاك، فَضَعِيفةٌ لِضَعْفِ بِشْرٍ. وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ. وإن كان من رواية جُوَيبر، عن الضحّاك، فأشدُّ ضعفاً لأنَّ جويبراً شديدُ الضعفِ متروك. ولم يخرِّج ابن جرير ولا ابن أبي حاتم من هذه الطريق شيئاً، إنما خرَّجها ابن مَرْدويه وأبو الشيخ ابن حيَّان. وللضحاك كتاب في التفسير، كان معروفاً للثعلبي.

٧ـ طريقُ عَطيَّةَ العَوْفيِّ، عن ابن عباس.

وهي غَير مَرْضيَّةٍ لأن عطيَّة ضعيفٌ ليس بواهٍ، وربَّما حَسَّن له الترمذيّ. وهذه الطريق قد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً. وللعَوْفيِّ كتابٌ في التفسيرَ ذكره الثعلبي في الكشف والبيان، وكذلك ابن كثير.

٨ـ طريق مقاتل بن سليمان.

وهو المفسّر الذي يُنْسَبُ إلى الشافعي أنه قال فيه: «إنَّ الناس عيال عليه في التفسير». ومع ذلك ضعَّفوه وقالوا: إنَّه يروي عن مجاهد وعن الضحّاك، ولم يسمع منهما. وقد كذَّبه غيرُ واحدٍ، ولم يوثقه أحد. على أن من استحسن تفسيره كان يُضَعِّفه ويقول: ما أحسن تفسيرَه لو كان ثِقَةً!

٩ـ طريق محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

وهذه أوهى الطُّرُق، والكلبيُّ مشهور بالتفسير، وليس لأحدٍ تفسيرٌ أطولُ منه ولا أَشْبَعُ. ومن العلماء من رضيه في التفسير، على أن منهم من قال: أجمعوا على ترك حديثه، واتَّهمه جماعة بالوضع؛ وللكلبي كتاب في التفسير بأيا صوفيا وغيرها.

كان ما تقدم أشهر الطرق عن ابن عباس، وقد تَبَيَّن أن فيما نُسب إليه ما هو صحيح، وما هو ضعيفٌ، بل وما هو مكذوبٌ عليه. ومما يُميِّز تفسير الحافظ ابن كثير أنه كان يُنَبِّه على الروايات الضعيفة إذا كان موضوعها مُهِمّاً كآيات العقائد والأحكام.

الروايات عن ابن مسعود:

يُعَدُّ ابن مسعود أكثرَ من رُوي عنه في التفسير بعد ابن عباس، وقد حمل الرواية عنه أهل الكوفة، وأشهرُ الطرق عنه ما يأتي:

١ـ طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

وهذه أصحّ الطرق، وقد اعتمدها البخاريُّ في صحيحه.

٢ـ طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.
وهي طريق صحيحةٌ، واعتمدها البخاري.
٣ـ طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود.
وهي أيضاً صحيحة، وخرج منها البخاري.
٤ـ طريق السُّدِّي الكبير، عن مُرَّةَ الهَمْدانيِّ، عن ابن مسعود.
وقد خرَّج الحاكم من هذه الطريق في مُستَدركه، والطبري في تفسيره. وقد تقدَّم الحديثُ عن السُّدِّي في الطريق الرابعة عن ابن عباسٍ.

الرواية عن علي بن أبي طالب:

لقد كثرت مرويَّات التفسير عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على أن ما صحّ منها قليلٌ، فقد كثُر الوضعُ عليه، ولهذا لم يعتمد أصحابُ الصحيح منها إلا ما كان من طريق الأثبات، وأهم الطرق ما يأتي:
١ـ هشام، عن محمد بن سيرين، عن عَبِيدةَ السَّلْمانيِّ، عن علي.
وهي طريق صحيحة، وخرَّج منها البخاري وغيره.
٢ـ ابن أبي الحسنِ، عن أبي الطُّفيل، عن علي.
وهي صحيحة، خرَّج منها ابن عُيينَةَ في تفسيره.
٣ـ الزُّهرِيُّ، عن علي زين العابدين، عن أبيه الحُسَين، عن أبيه عليٍّ. وهي صحيحة جداً.

الرواية عن أُبَيِّ بن كعب الأنصاريِّ الخزرجيِّ:

أشهر الطرق عنه:
١ـ أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيٍّ.
وهي طريقٌ صحيحةٌ. وقد خرَّج منها ابن جرير، وابنُ أبي حاتم، والحاكم، والإمام أحمد.
٢ـ وَكِيعٌ، عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيلٍ، عن الطُّفَيل بن أُبَيِّ بن كعب، عن أبيه.
وقد خرَّج منها الإمام أحمد.

ثانياً: التفسيرُ في عصر التابعين:

يبدأ هذا العصر من حيث انتهى عصر الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وقد اشتهر بالتفسير أعلامٌ من التابعين، وقام تفسيرهم لكتاب الله على ما في القرآن نفسه، وما رَوَوه عن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وعن الصحابة، وما رَوَوه عن أهل الكتاب، وما أدّاهم إليه الاجتهادُ والنظرُ في كتاب الله تعالى.

هذا وقد سبَق أن بيَّنا مذاهب العلماء في الأخذ بهذا التفسير، عند بداية الحديث عن التفسير بالمأثور، ونقلنا كلام ابن تيميَّة في ذلك.

أما عن مميِّزات تفسير التابعين فقد دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيّات، بما حمله مسلمو أهل الكتاب من أخبار لا تتَّصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بَدْءِ الخليقة والقصص، وأكثر من رَوَى من مسلمي أهل الكتاب: عبدُ الله بن سَلَام، وكعبُ الأحبار، ووَهْبُ بن مُنَبِّه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيج.

وقد لُوحِظَ كثرةُ الخلاف بين التابعين على ما كان الأمر عليه بين الصحابة، وهو قليل بالقياس إلى ما وقع بين المتأخرين من المفسّرين.

كما غلب على التفسير في هذه المرحلة طابع الرواية، وكان لكلّ مصرٍ إمامهم الذي يروون عنه، فالمكيُّون يَروُون عن ابن عباسٍ، والمدنيّون عن أُبيٍّ، والعراقيون عن ابن مسعود.. وهكذا.

التفسير بمكة:

كان ابن عباس إمام المفسِّرين بمكة، ومن أشهر تلاميذه:

١ـ أبو محمد سعيد بن جُبَير (ت ٩٥هـ)، وكان من متقدِّمي التابعين في التفسير والفقه والحديث والقراءات، وكان له كتاب في التفسير «كان يتعهّده بالتعديل والتهذيب»، كما في طبقات ابن سعدٍ. وقد قتله الحجاج صبراً.

٢ـ أبو الحجاج مجاهدُ بن جَبْرٍ (ت ١٠٤هـ)، كان أوثق أصحاب ابن عبَّاسٍ في التفسير، وكان فقيهاً وَرِعاً عابداً، صاحب اجتهادات في التفسير. له كتاب في التفسير وصل إلينا برواية عبد الله بن أبي نجيح.

وعن ابن أبي مُلَيكَةَ قال: «سمعتُ مجاهداً سأل ابن عبَّاسٍ عن تفسير القرآن ومعه ألواحُه، فيقول ابن عباس: اكتُب، حتى سأله عن التفسير كلِّه».

٣ـ أبو عبد الله عِكْرِمةُ مولى ابن عباسٍ، (ت ١٠٤هـ). وقد اختلفوا في منزلته ففريقٌ كان يَسِمهُ بالجرأة ويقولون: إنه كان يدَّعي معرفة كلِّ شيءٍ في القرآن، وأنه كان يكذبُ على ابن عباسٍ، وأنه كان خارجيًا. وقد ردَّ المحققون ذلك، وقال الإمام أحمد فيه: يُحتَجُّ بحديث عِكْرِمَةَ. وقال البخاري: ليس أحدٌ من أصحابنا إلا وهو يَحتجُّ بعكرمة.

٤ـ أبو عبد الرحمن طاوسُ بن كيسانَ اليَمَانيُّ (ت ١٠٦هـ). روى عن العبادلة، وكان معروفاً بالأمانة والوَرَعِ، وأخرج له أصحاب الكتب الستة.

٥ـ عطاء بن أبي رباح (٢٧-١١٤هـ) كان ثقةً فقيهاً، كثير الحديث، وانتهت إليه فتوى أهل مكة. كان أعلم التابعين بالمناسك. ولم يكثر من الرواية عن ابن عباس، وقد عُزِي ذلك إلى تحرّجه في القول بالرأي. ويُنسَبُ إليه كتاب أفاد منه الثَّعلَبيُّ والطبريُّ.

التفسير بالمدينة:

كان أُبي بن كعب إمام أهل المدينة، وأشهر تلاميذه:

١ـ أبو العالية رُفَيع بن مِهْرانَ الرِّياحيُّ (ت ٩٠هـ)، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بعامين. روى عن عليّ، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عُمر، وأبيّ بن كعب، وغيرهم. وكان من ثِقاتِ التابعين المعروفين بالتفسير وروى عن أُبيٍّ نسخةً كبيرةً في التفسير.

٢ـ أبو حمزة محمد بن كعب القُرَظيُّ (ت ١١٨هـ). روى عن علي، وابن مسعود، وابن عباسٍ. وعن أُبَيٍّ بن كعب بالواسطة. وكان ثقةً وعدلاً ورعاً، كثير الحديث، وتأويل القرآن. له كتاب في التفسير أفاد منه الثَّعلبي في الكشف والبيان.

٣ـ أبو أُسامَةَ زيد بن أَسْلَم المَدَنيُّ (ت ١٣٦هـ)، كان معروفاً بالفقه والتفسير، ثقةً لا يتحرَّج من التفسير بالرأي،

وكانت له حَلْقَةٌ في مسجد رسول الله ﷺ ، وله كتاب فيه تفسير القرآن. وأشهر من أخذوا عنه من علماء المدينة ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس.

التفسير بالعراق:

كان عبد الله بن مسعودٍ إمام أهل العِراقِ لِكَثْرَةِ ما رُويَ عنه . وقد عُرِفَ أهل العراق بالرأي، ويُعزَى ذلك إلى أثر ابن مسعودٍ، فهو الذي وَضَع أساس الاستدلال، ومن العراقيِّين المشهورين بالتفسير: ٧

١ـ أبو شِبْلٍ علقمة بن قيس النَّخَعِيُّ الكوفي (ت ٦١هـ). ولد في حياة النبي ﷺ ، وروى عن عُمَر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود. وهو من أشهر رواة عبد الله بن مسعود، إماماً في التفسير، وَرِعاً.

٢ـ أبو عائشة مسروق بن الأَجْدَعِ الهَمْدَاني (ت٦٣هـ). روى عن الخلفاء الأربعة وابن مسعود، وأُبَيِّ بن كعب، وغيرهم. وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، إماماً في التفسير، وَرِعاً.

٣ـ أبو عَمْرو الأسود بن يَزيد النَّخَعِيُّ (ت ٧٤هـ). روى عن أبي بكر، وعمر، وعليٍّ، وبلال، وغيرهم وكان من رواة ابن مسعودٍ، ثِقَةً صالحاً، وعلى جانب عظيم من الفهم لكتاب الله تعالى.

٤ـ أبو إسماعيل مُرَّةُ بن شراحيلَ الهَمْدَانيُّ (ت ٧٦هـ)، يُعرَف بمُرَّة الطَّيِّب، ومرَّة الخير، لِوَرَعِهِ وكثرة صلاحه. رَوَى عن أبي بكر، وعُمَرَ، وعليٍّ، وابن مسعودٍ. وكان ثِقَةً.

٥ـ أبو عَمْرو عامر بن شراحيلَ الشَّعْبِيُّ (٢٠-١٠٩هـ). روى عن عُمَر، وعليٍّ، وابن مسعودٍ، ولم يسمع منهم. وروى عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعائشة، وأبي موسى وغيرهم. وكان من جلَّة السلف، إماماً في فنون كثيرة. وكان من الذين يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه، تورُّعاً وحَيْطَةً لأنفسهم.

٦ـ أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصريّ (٢٨-١١٦هـ). روى عن العبادلة، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله. كان غَزير العلم فصيحاً، وَرِعاً زاهداً. له كتاب في التفسير أفاد منه الثَّعلَبِيُّ في الكشف والبيان.

٧ـ أبو الخطاب قتادةُ بن دِعامةَ السَّدوسيُّ (٦١-١١٧هـ)، عَرَبيٌّ أصيلٌ، كان أَكْمَهَ. رَوَى عن أنسٍ، وأبي الطُّفَيل، وابن سِيرينَ، وعكرمةَ، وعطاء بن أبي رَبَاح، وغيرهم. وكان قويَّ الحافظةِ، بصيراً بالشعرِ، وأيَّامِ العرب والأنساب، ضَلِيعاً في اللغة. له كتاب في التفسير أفاد منه الطبريّ والثعلبيُّ في الكشف والبيان.

الإسرائيليات:

رأينا ونحن نُعَرِّف بالتفسير في عصر الصحابة أنه كان من مصادرهم في التفسير ما أُثِر عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى من أخبار لا تتَّصل بالأحكام الشرعيَّة.

ولابن تيميَّة حديث عن هذه المرويَّات في مُقَدِّمته في أصول التفسير، وقد نقله ابن كثير بلفظه في أول تفسيره، يقول ابن تيميَّة وقد ذكر السُّدِّي الكبيرُ وروايته عن الصحابة: «ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكُونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بَلِّغوا عني ولو آيةً، وَحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج، ومن كذب عليَّ مُتَعمِّداً فَلْيَتَبوَّأ مقعده من النار». رواه البخاري عن عبد الله بن عَمْرو. ولهذا كان عبد الله ابنُ عَمْرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يُحدِّث منهما بما فَهِمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك. ولكن هذه الأحاديث تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحَّته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذلك صحيح.

الثاني: ما علمنا كَذِبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل. فلا نؤمن به ولا نكذّبه، وتجوز حكايته لما تقدَّم».

هذا وكثيراً ما كان يسوقُ ابن كثير هذه المرويّات، ويُنَبِّه على ما فيها من الغرائب مما لا حاجة بنا إليه، يقول عند تفسير الآية ٤٤ من سورة النمل وقد ساق أثراً عن ابن عباس من رواية أبي بكر بن أبي شيبة، وقال عنه ابن أبي شيبة: «ما أحسنه من حديث!»، قال ابن كثير: «بل هو غريب جداً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم. والأقرب في مثل هذه السياقات أنها مُتلقَّاةٌ عن أهل الكتاب مما يوجد في صحفهم، كروايات كعب وَوَهْبٍ ـ سامحهما الله تعالى ـ فيما نقلا إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، ومن الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حُرِّف وبُدِّل ونُسِخَ. وقد أغنانا الله ـ سبحانه ـ عن ذلك بما هو أصحّ منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنَّة».

ويقول عند تفسير آية العنكبوت ٤٦: «وقوله: ﴿وقولوا آمنا بالذي أُنزِلَ إلينا وأنزِلَ إليكم﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يُعلَمُ صِدقُه ولا كذبُه، فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه يكون حقاً، ولا على تصديقه فلعلَّه أن يكون باطلاً. ولكن نُؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرطٍ وهو أن يكون مُنزَّلاً لا مُبَدَّلاً ولا مُؤوَّلاً».

هذا مَثَلٌ من تنبيهاته على هذه الإسرائيليات، ولهذا كان تفسير ابن كثير من أهم التفاسير لما حَفَلَ به من أحكام على مأثورات أهل الكتاب وغيرها من الروايات.

مصادر ابن كثير في تفسيره:

تعدَّدت مصادر ابن كثير في تفسيره بين التفاسير، وكتب الحديث والآثار، وكان جلُّ اعتماده من التفاسير على ما يأتي:

١ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ)، ويُعَدُّ أهمَّ مصادر ابن كثير، فلا تكاد تخلو آية من كتاب الله من سوق أثر من آثاره، أو ذكر اختياره، وقد وَصَفه ابنُ تيميّة بقوله: «أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحّها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعةٌ، ولا ينقل عن المتّهمين كمقاتل والكلبي». وقال عنه ابن كثير في البداية والنهاية: «وله التفسير الكامل الذي لا يُوجَد له نظير». وقد قدمنا مقالة أحد الأوائل عن تفسير القرآن وعظم التصنيف فيه:

«وإن كان تفسير القرآن أمراً لا يطاق، وما تعرَّض له أحد فاستقلَّ به، خلا محمد بن جرير الطبري، فإنه بدأه وأتمه، ومن جاء بعده فهو عيال عليه فيه». وعلى الرغم من إشادة ابن كثيرٍ به وجدناه ينقده في غير موطن، ومن ذلك ما تجده في تفسير الآية ١٦ من سورة الذاريات، والآية ٦-٧ من سورة النجم.

٢ـ تفسير القرآن العظيم مسنداً عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم (٢٤١-٣٢٧هـ).

ويلي هذا التفسيرُ تفسيرَ الطبري من حيث الاعتمادُ عليه، وفيه يقول ابن كثير في البداية والنهاية: «وله التفسير الحافل الذي اشتمل على النقل الكامل، الذي يربوا فيه على تفسير ابن جرير الطبري وغيره من المفسِّرين إلى زماننا». وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: «وله تفسير كبير في عدَّة مُجَلَّداتٍ، عامّتهُ آثار بأسانيد، من أحسن التفاسير». وقد أفاد منه ابن كثير في ذكر الروايات التي خلت من أسانيدها، وذلك كما قال ابن كثير

عند آية البقرة: «قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن أبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، بنحوه. . . ومثل هذا يتردد كثيراً دون أن يُعزَى إلى ابن أبي حاتم، ومن ذلك ما رواه البخاري عن ابن عُمَر في تفسير آية البقرة ١٩٧ (الحج أشهر معلومات)، قال ابن كثير: «قلت: وهو مَرْوِيٌّ عن عُمَر، وعلي، . . . ». وذكر سبعةَ عشرَ صحابياً وتابعياً، وهو في الحقيقة قولُ ابن أبي حاتم عند هذه الآية. هذا وقد كان ابن كثير يتبع مَرْوِيَّاتِهِ مبيِّناً ما فيها من غرابة، وذلك كما في آية المائدة ٦، ٣٥، ١١٠.

٣ـ تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى مَرْدُوَيه بن فُورَك بن موسى بن جعفر الأصبهاني (٣٢٣-٤١٠هـ)، وقد كثر اعتمادُ ابن كثير عليه أول تفسيره، ثم ندر ذلك فيما بعدُ. ولم يذكر ابن كثير في البداية والنهاية عنه شيئاً غير نسبه مختصراً وسنة وفاته. وقد ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء، فقال: «صاحب التفسير الكبير، والتاريخ، والأمالي الثلاثمائة مجلس، وغير ذلك. . . وكان من فرسان الحديث، فَهِماً يقظاً متقناً، كثير الحديث جدًّا، ومن نظر في تواليفه عرف محلَّه من الحفظ. . . وتفسيره للقرآن في سبع مُجَلَّداتٍ». وكان ابن كثير أيضاً يعقب على مروياته، ويتكلم على أسانيدها، ذاكراً ما فيها من غرابةٍ.

٤ـ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ).

كثر اعتماد ابن كثير على تفسير القرطبي في بعض النسخ، كما في نسخة الحرم المكي. وإن كان ذلك الإعتماد لم يتجاوز منتصف سورة البقرة، وقد تجردت نسخة الأزهر من هذه النصوص المقتبسة. ولا ندري أكانت نسخة الحرم تمثل النسخة الأخيرة لابن كثير ولذلك حَفَلت بزيادات تفسير القرطبي أم كانت نسخةُ الأزهر تُمثِّل الصورةَ الأخيرة التي رَضِيَها بن كثير فجرّدها من هذه الإضافات، وقد قيل: إن المحدثين كانوا يميلون في مصنفاتهم إلى تجريدهالا إلى الإضافة إليها، فالله أعلم. على أن ابن كثير كان يرجع أحياناً إلى تفسير القرطبي، كما هو واضح من تعليقاتنا.

٥ـ مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عُمَر، الرازي، الملقَّب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعي (٥٤٤-٦٠٦هـ).

ماقلناه عن تفسير الطبري يقال أيضاً عن تفسير الفخر الرازي سواءً، على أنه من النادر أن نجد للرازي ذكراً في تفسير ابن كثير بعد منتصف سورة البقرة.

٦ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمود بن عُمَر الزمخشري المعتزلي، جار الله (٤٦٧-٥٣٨هـ).

هذا ثالث التفاسير التي احتفل ابن كثير أول تفسيره ثم عَدَل عن الاعتماد عليها، ولعل ابن كثير تأثر في ذلك برأي شيخه ابن تيميّة فقد قال في مقدمته في أصول التفسير: «وأما الزمخشري فتفسيره محشوٌّ بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات، والرؤية، والقول بخلق القرآن، وأنكر أنَّ الله مُرِيدٌ للكائنات، وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة». وأضاف ابن تيميّة بعد ذلك أن عباراته لا يهتدي أكثر الناس إليها، ولا لمقاصده فيها، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة، ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين.

٧ـ تفسير الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه (٩٣-١٧٩هـ).

وتفسيره لا يتجاوز بضع عشرة ورقة، وقد وقع لي مخطوطاً. وقد أفاد منه ابن كثير.

٨ـ تفسير أبي الحسن آدم بن أبي إياس العسقلاني (١٣٢-٢٢٠هـ). تَرَدَّد هذا غير مَرَّةٍ عند ابن كثير.

٩ـ تفسير أبي الحسن عطيّة بن سعد العَوْفيّ.

تقدَّم ذِكْرُ العَوْفي ونحن نذكر الرُّواة عن ابن عباس. وقد تَرَدَّد غير مَرَّة قول ابن كثير: «وقال العَوْفي في تفسيره». ولا ندري أأفاد منه مباشرةً أم بواسطةٍ؟

١٠ـ تفسير أبي محمد عَبْد بنِ حُمَيدٍ الكَشيِّ (ت ٢٤٩هـ). تَرَدَّد ذكره كثيراً.

١١ـ تفسير أبي علي الحُسَين بن داود المِصِّيصي، الملقب بِسُنَيدٍ (ت ٢٢٦هـ). تردد ذكره كثيراً.

١٢ـ تفسير أبي إسحق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت ٤٢٧هـ). وَرَدَ ذكرهُ غير مَرَّة، وقال عنه ابن كثير في البداية والنهاية: «له التفسير الكبير... وكان كثير الحديث واسع السماع، ولهذا يوجد في كتبه من الغرائب شيء كثير». ولعلَّ هذا هو السببُ في قلة الأخذ عنه. وقد ذكر شيخهُ ابن تيميَّة تفسير البَغَوِيِّ فقال: إنه مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأشياء الموضوعة، والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك».

١٣ـ معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود البَغَوِيِّ (ت ٥١٦هـ). أفاد منه ابن كثير. وقد قدَّمنا الحديث عنه في التفسير الذي قبله.

١٤ـ المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحقّ بن غالب بن عطية الأندلسي (٤٨١-٥٤٦). رجع إليه ابن كثير في غير موضع.

هذا ما تيسر لي جمعه الآن من التفاسير التي رجع إليها ابن كثير، على أنك تَجِدُ من مصادره المتصلة بالتفسير فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، والناسخ والمنسوخ له، والتبيان للنَّوَوِيِّ، والمصاحف لأبي بكر بن أبي داود. وغير ذلك.

كتب الحديث والآثار:

لا يكاد يخلو تفسير آية من حشد الأحاديث والآثار المتصلة بها، والتنبيه على مواضعها، والحكم عليها وبيان منزلتها، ويطول الحديث لو أفردنا كل مصدر بالذكر، على أن في صدر هذه المصادر: الكتب السِّتَّةَ، ومسند الإمام أحمد، وأبي داود الطَّيَالسيِّ، والشافعيِّ، والبزَّار، وأبي يَعْلَى، وعبد بن حُمَيد، والهيثم بن كُلَيبٍ، والمستدرك للحاكم، وسنن الدارقطني، والسُّنَن الكبرى، والأسماء والصفات، والخلافيات للبيهقي، والموطأ لمالك، وصحيح ابن حِبَّان، والأربعين للآجُرِّي، واليوم والليلة للنسائي، والمعجم الكبير للطبراني، والعجائب لمحمد بن المنذر المعروف بِشَكَّرَ، ودلائل النبوة للبيهقي، وأبي نُعيم، ومصنف ابن أبي شيبة.

هذا إلى كتب الفقه وغيره كالأم للشافعي، والرسالة له، وكتاب الخلاَّل أبي بكر أحمد بن محمد بن هارون في مذهب الإمام أحمد، والتذكرة بأمور الآخرة للقرطبي، والسيرة لابن إسحق، وكتب الرجال وتخريج الآثار كالجرح والتعديل لابن أبي حاتم، وتحفة الأشراف لشيخه الإمام الحافظ يوسف بن عبد الرحمن المزِّي.

هذا وقد تَحَدَّث ابن كثير في مقدمة جامع المسانيد ١/ ٦١ بعد أن ذكر مصادره فيه من الكتب العشرة، قال: «وقد وضعت كُلَّ حديث مما يتعلق بالأحكام، والتفسير، والتاريخ في موضعه من كتبنا الثلاثة، ولله الحمد والمنَّة، وما فيه وَهْنٌ شَديدٌ بَيَّنتُه، وموضع تحرير ذلك وتقريره والتفسير عنه في كتابي الأحكام الكبرى». ويبدو أنه قد أفاد فائدة كبرى من جامعه هذا في تفسيره.

ولقد قَصَدنا بِسَرْدِ هذه المصادر ـ وهي لا شكَّ بعضٌ من كلٍّ ـ التنبيه على ما بَذَل الإمامُ الحافظُ ابن كثير من جَهْدٍ في تفسيره، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

أبو الفداءِ بنُ كَثِيرٍ [(١)]

٧٠١ ـ ٧٧٤ هـ

١٣٠٢ ـ ١٣٧٣ م

حياتـه :

ولد الحافظ ابن كثير في مفتتح القرن الثامن الهجري، قال في البداية وهو يذكر أحداث سنة ٧٠١ : «وفيها وُلِد كاتبهُ إسماعيلُ بن عُمَر بن كثير القُرَشيّ البُصرَويّ الشافعيّ، عفا الله عنه». وكان مولده في «مُجَيدل القرية» التابعة لِبُصْرَى الشام، وهي قرية والدته مَرْيَمَ بنتِ فَرَج بن عليّ، وكان والدُه قد أُسنِد إليه الخطابة بها، «فأقام بها مُدَّةً طويلة في خَيْرٍ وكفاية وتلاوةٍ كثيرةٍ». وقد حدثنا ابن كثير عن نَسَبه وبعض أخباره وهو يذكر وفاة والده سنة ٧٠٣ فقال: «وفيها تُوفِّي الوالد وهو الخطيب شهاب الدين أبو حَفْصٍ عُمَر بن كثير بن ضَوٍّ بن دِرْعٍ القُرَشيِّ، من بني حصلة، وهم ينتسبون إلى الشرف، وبأيديهم نَسَبٌ، وقف على بعضها شيخُنا المِزّي فأعجبَه ذلك وابتهج به، فصار يكتب في نَسَبي بِسَبَبِ ذلك: «القُرَشِيّ»». ثم يذكر أنّ الأسرة انتقلت بعد ذلك إلى دمشق صُحبَةَ شَقِيقِهِ عبد الوهاب سنة ٧٠٧هـ، يقول ابن كثير: «وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه في العلم، فَيَسَّر الله تعالى منه ما يَسَّر، وسَهَّل منه ما تعَسَّر».

وفي دمشق لَقِيَ ابنُ كَثِيرٍ عالَماً من الشيوخ، وكانت دمشقُ آنذاكَ مركزاً أَصِيلاً من مراكز العِلْمِ في العالم الإسلامي، كانت تَحفِلُ بدور القرآن، ومعاهد العلم من المدارس والمساجد، ولقد أفاد ابن كثير من لقاء أعلام عصره، وكان أعظمُ شيوخه أثراً في حياته واتجاهه شيخه الحافظ أبا الحجاج المِزِّي، الذي أَصْهر إليه، وَتَزَوَّج ابنته زينب، وكان لصحبته له وقُرْبِهِ منه أثر واضِحٌ في مؤلفاته. هذا ولم يمض وقت حتى صار علماً من أعلام دمشق، وأقبل عليه الطلبة، ثم تولّى كما قال النُّعَيمي مشيخة أم الصالح بعد موت شيخه الذهبي (٧٤٨ هـ)، ومشيخة دار الحديث الأشرفية بعد وفاة شيخها تقي الدين السبكي (٦٨٣ ـ ٧٥٦ هـ)، وكان ذلك لمدَّةٍ يسيرة، ثم أُخِذَت منه.

هذا ولابن كثير أربعة من الولد: عُمَر (ت ٧٨٣)، وأحمد (ت٧٦٥-٨٠١)، ومحمد (٧٥٩-٨٠٣هـ)، وعبد الوهاب (ت ٧٦٧-٨٤٠)، ترجم للثلاثة الأول ابنُ حَجَرٍ في إنباء الغُمر ٢/ ٧٥، ٤/ ٣٩، ٣٢١-٣٢٢، وترجم السخاوي في الضوء اللامع للثلاثة الأخر في ١/ ٢٤٣، ٧/ ١٣٨، ٥/ ٩٨. ولم يكن لأحمد شأنٌ في العلم، فأما الآخرون فكانت لهم سماعات، ورُوِي عنهم. وعلّق محمد تاريخاً للحوادث التي كانت في زمنه.

أما عن عقيدته فقد ذكروا أنه كان صحيح الدين، سَلَفِيَّ العقيدة، ولعلّ ذلك من آثار صحبته المتقدمة لشيخه

---

(١) مصادر ترجمته: البداية والنهاية لابن كثير، وشذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٢٣١ـ ٢٣٢، والدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٣-٣٧٤، وإنباء الغُمْرِ بأنباء العُمْر له ١/ ٤٥-٤٧، والبدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣، وذيل تذكرة الحفاظ لأبي المحاسن الحسيني ٥٧-٥٨، وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥٣٠، والدارس في تاريخ المدارس للنُّعَيمي ١/ ٣٦-٣٧، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١١/ ١٢٣-١٢٤.

أبي العباس أحمد بن تيميّة، وملازمته لشيخه وصهره أبي الحجاج المِزّي، ولغير هذين الشيخين، حتى عُرِفَ بذلك. على أنه قد جَرَى بينه وبين برهان الدين ابن الشيخ شمس الدين المعروف بابن القيم (٧١٩-٧٦٧هـ) ما حكاه النُّعَيمي بقوله: «وكانت له أجوبة مسكتةٌ، وقد وقع بينه وبين ابن كثير في بعض المحافل، فقال ابن كثير: أنت تكرهني لأني أَشْعَرِيٌّ. فقالَ له: لو كان في رأسك إلى قَدَمِكَ شعر ما صَدَّقك الناس أنكَ أشْعَرِيّ». (الدارس ١/ ٨٩). وينبغي أن يُفْهَم كلام ابن كثير على أنه ليس اعترافاً منه بأنه أشعري، وإنما على معنى: أنني لا أجد سبباً يَحملك على كراهيتي إلا أن تكون قد ظننتني أَشْعَرِيّاً! فقال له برهان الدين: ومن يظن ذلك بك؟!

وأما عن مذهبه في الفروع فكان شافعيَّ المذهبِ، وسيتبين ذلك عند الحديث عن مصنفاته.

هذا وقد ذكروا أنه كان ينظم الشعر، وهو القائل:

تَمُـرُّ بنـا الأيـام تَتْـرَى وإنمـا ... نُسـاقُ إلـى الآجـالِ والعيـنُ تَنظُـرُ
فـلا عـائـدٌ ذاك الشبـابُ الـذي مضـى ... ولا زائـلٌ هـذا المَشيـبُ المكـدِّرُ

وقد وافاه الأجل - رحمه الله - في شعبان سنة ٧٧٤هـ، ودُفِن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيميّة. ورثاه بعض طلبته بقوله:

لِفَقْـدِكَ طـلابُ العلـوم تـأَسَّفُـوا ... وجـادوا بِـدَمْـعٍ لا يَبِيـدُ غَـزيـرِ
ولـو مَـزَجُـوا مـاء المـدامـع بـالـدِّمـا ... لكـان قليـلاً فيـك يـا ابـن كَثِيـرِ

رحمه الله رحمةً واسعةً.

شيوخه:

غلب على ابن كثير علمُ الحديث، فقد لَقِي شيوخه، ودارت عليها مُصَنَّفاتُه فَطُبِعت بطابع المحدِّث وإن كانت في التفسير أو الفقه، كما سَنُبيِّنُه ونحن نعرض كتبه ورسائِلَه، وقد وصفُه ابن حِجِّي تلميذه فقال: «كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها، وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك. وكان يستحضرُ شيئاً كثيراً من [التفسير] والتاريخ، قليل النسيان. وكان فقيهاً جيِّد الفهم، صحيح الدين، ويحيي الليل إلى آخر وقت، ويشارك في العربية مشاركة جَيِّدةً، ونظم الشِّعر، وما أعرف أني اجتمعت به، على كثرة تَرَدُّدِي إليه، إلا وأخذتُ منه».

وسوف نذكر هؤلاء الشيوخ مُرَتَّبين حسب وَفَياتهم:

١- أبو يحيى زكريا بن يوسف بن سليمان بن حَمّاد البَجَليُّ الشافعي نائب الخطابة ومُدَرِّس الطَيِّبَةِ والأسديَّة. قال ابن كثير: «بقيَّةُ السلف، وله حَلْقَةٌ للاشتغال بالجامع الأُمَوِيِّ يحضُر بها عنده الطلبة. وكان يشتغلُ بالفرائض وغيرها». توفي في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٧٢٢هـ.

٢- أبو نَصر محمد بن محمد بن مُمِيل (٦٢٩-٧٢٣)، قال ابن كثير سمع الكثير، وأسمع وأفاد».

٣- أبو محمد القاسم بن عساكر (٦٢٩-٧٢٣هـ)، قال ابن كثير: «شيخنا الجليل المُعَمَّر الرُّحْلَةُ». سمع منه بدمشق.

٤- أبو زكريا يحيى بن الفاضل (٦٤٥-٧٢٤هـ)، قال ابن كثير: «سمع كثيراً وخرَّج له الذهبي شيئاً، وسمعنا عليه

الدارقطني وغيره».

٥ـ محمد بن عُمَر بن عثمان بن عُمَر الصِّقِلِّي ثم الدمشقي (ت ٧٢٥هـ)، قال ابن كثير: آخر من حَدَّث عن ابن الصلاح ببعض سُنَن البَيْهقيِّ، سمعنا عليه شيئاً منها.

٦ـ إسحق بن يحيى الآمدي (٦٤٠-٧٢٥هـ). قال ابن كثير كما في الدارس في تاريخ المدارس: «شيخنا المُعَمَّر المسند الرُّحْلَةُ». سمع منه بدمشق.

٧ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء، المعروف بابن الزرَّاد سمع منه بدمشق.

٨ـ أبو محمد عبد الوهاب بن ذُؤَيب، ابن قاضي شَهْبَةَ (٦٥٣-٧٢٦)، قال النُّعَيميُّ: «وتفقه على كمال الدين ابن قاضي شَهْبَةَ».

٩ـ شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، ابن تيميّة (٦٦١-٧٢٨)، صَرَّح ابن كثير بأخذه عنه في البداية ١٤/ ١١٤، ١٢٧. وقال ابن قاضي شهبة في طبقاته: «كانت له خُصُوصيّةٌ بابن تيميّة ومناضلة عنه، وأتباع له في آرائه».

١٠ـ أبو اسحق إبراهيم بن عبد الرحمن الفَزَاريّ برهان الدين المعروف بالفركاح (٦٦٠-٧٢٩) قال ابن كثير: «سمعنا عليه صحيح مسلم وغيره»، وقال: «لم أَرَ شافعياً من مشايخنا مثله». وقال النُّعَيميُّ: «وتفقه على الشيخ برهان الدين الفَزَارِيِّ».

١١ـ أبو يعلى حمزة بن أبي المعالي أسعد بن المظفّر القَلاَنِسيُّ (٦٤٩-٧٢٩هـ)، قال ابن كثير «وسمع الحديث من جماعة ورواه وسمعنا عليه».

١٢ـ أبو عبيد الله محمد بن أبي الحسن بن حُسَين بن غيلان البعلبكي (ت ٧٣٠)، قال ابن كثير: «شيخنا الصالح العابد الناسك الخاشع، سمع الحديث وأسمعه، وعليه ختمت القرآن في سنة إحدى عشرة وسبعمائة».

١٣ـ أبو العباس أحمد بن أبي طالب، الحجار، المعروف بابن الشحنة، قال ابن كثير: «سمعنا عليه بدار الحديث الأشرفيّة نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع».

١٤ـ مؤرخ الشام أبو محمد بن محمد البرزالي (٦٦٥-٧٣٩هـ). ذكر ابن كثير في آخر حوادث ٧٢٨هـ مشيخته له، وأنه ذَيَّل على تاريخه.

١٥ـ الحافظ الكبير أبو الحجَّاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف المِزِّي (٦٥٤-٧٤٢هـ). لازم ابنُ كثير الحافظ المِزِّي، وسمع عليه أكثر تصانيفه، وبه انتفع وتخرَّج. وتزوج ابنته، وقد كان المِزِّي حيّاً عندما ألف ابن كثير تأليفه، قال عند تفسير الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء تعقيباً على حديثٍ: «وقد صرّح جماعة من الحفاظ بوضعه، منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المِزِّي، فسح الله في عُمُره، ونَسَأَ في أَجَله، وخَتَم له بصالح عمله».

١٦ـ الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ)، قرأ عليه ابن كثير، وقال: «وقد ختم به شيوخ الحديث وحفاظه». روى عنه في موضعين من تفسيره، عند آية النساء ١٦٥، وفي مقدمة سورة الصف.

١٧ـ محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني (٦٧٤-٧٤٩)، قال النُّعَيمي: «وقرأ الأصول على الشيخ الأصفهاني».

هؤلاء بعض شيوخه، وقد أجاز له بمصر أبو موسى القرافي، والحسيني، وأبو الفتح الدبُّوسي، وعلي بن عمَر الواني، ويوسفُ الخَتَني.

تلاميذه:

أما تلاميذه فكثيرون، ويمكن لمن أراد أن يتعرّفهم الرجوعُ إلى أنباء الغُمر، والدرَر الكامنة لابن حجر، والضوء اللامع للسخاوي.

مؤلفاته:

١ـ تفسير القرآن العظيم: وهو مانُقَدِّمه مُحَقَّقاً. وقد سبق التعريف بمنهجه، وسنُفرِدُ حديثاً النُّسخَة التي اعتمدناها.

٢ـ البداية والنهاية: وقد صَدَّره ابنُ كثير بالحديث عن منهجه بقوله: «هذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحُسْنِ توفيقه ما يَسَّره الله تعالى بحوله وقُوَّته من ذكر مبدأ المخلوقات، من خَلْقِ العَرْش والكرسيّ والسموات والأَرَضين، وما فيهنَّ من الملائكة والجانّ والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النَّبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل، وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوّة إلى أيام نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فنذكر سيرته كما ينبغي... ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا. ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ثم البعث... ثم صفة النار، ثم صفة الجنان. وما وَرَد في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة عن العلماء وورثة الأنبياء».

مضى ابن كثير على هذا النهج إلا ما كان من حديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة والبعث والجنة والنار فقد طبع مستقلاً تحت عنوان: النهاية، وكان قد توقف عن سَرْد الأحداث عند سنة ٧٦٧هـ، أي قبل وفاته بسبع سنين. وقد نقل صاحب كشف الظنون عن ابن شهبة قوله عن هذا الكتاب: «وهو ممن جمع بين الحوادث والوفيات، وأجود ما فيه السيرة النبوية. وقد أخلَّ بذكر خلائق من العلماء. والمشهور أن تاريخه انتهى إلى آخر سنة ٧٣٨، وهو آخر ما لخصه من تاريخ البرزالي، وكتب حوادث إلى قبل وفاته بسنتين». كذا قال ابن شهبة، والذي بين أيدينا إلى ما قبل الوفاة بسبع سنين. وقد اعترف ابن كثير بإفادته من تاريخ البرزالي، ويقول في أواخر سنة ٧٣٨: «وها آخر ما أَرَّخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي ذَيَّل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي. وقد ذَيَّلتُ على تاريخه إلى زماننا هذا. وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة، من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة إلى زماننا هذا».

وقد يبدو من إحالة ابن كثير في البداية ١/ ٣٠ على تفسيره، وذلك في الفصل الذي تحدث في عن البحار والأنهار، أنه كان قد فَرَغَ من تفسيره قبل تاريخه. ويدفع ذلك أنا قد وجدناه في التفسير يُحيلُ في غير موضع على تاريخه، وذلك في أواخر تفسير سورة الطلاق والتحريم والنصر. والذي نميل إليه أنه كان يُصَنِّفُ في التفسير والتاريخ في آن واحد، ويَرْجُح عندنا أنه سَبَق إلى الكتابة في التفسير بدليل إحالته إلى التفسير في صَدْرِ كتابه البداية.

٣ـ الكواكب الدراري، قال في كشف الظنون: «انتخبه من تاريخه الكبير» ولم نطلع عليه.

٤ـ كتاب السيرة المطول. أحال عليه ابن كثير عند تفسير الآية العاشرة من سورة الجن، والآية ٧٩ من سورة الإسراء.

٥ـ «اختصار السيرة النبوية». طبع مَرَّتين أولاهما باسم: «مختصر سيرة الرسول» سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٥٧م، والثانية في سنة ١٣٩٩ بتحقيق الدكتور محمد عيد الخطراوي، والأستاذ محيي الدين مستو.

٦ـ سيرة أبي بكر رضي الله عنه :

قال في البداية ٧/ ١٨ : «وقد ذكرنا ترجمة الصديق ـ رضي الله عنه ـ وسيرته وأيامه، وما رَوَى من الأحاديث، وما رُوِي عنه من الأحكام في مجلد، ولله الحمد والمنة». ولم نَقِفْ عليه.

٧ـ سيرة عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ المفردة :

ذكرها ابن كثير في آخر تفسير الآية ٤٣ من سورة الحاقة. وقال في البداية ٧/ ١٤٥ : «وقد ذكر ابن جرير ترجمة طويلة لعمر بن الخطاب، وكذلك أطال ابن الجوزي في سيرته، وشيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في تاريخه. وقد جمعنا متفرقات كلام الناس في مجلد مفرد». ولم نقف عليه أيضاً

٨ـ مسند الشيخين أبي بكر وعُمَر رضي الله عنهما :

ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ. ويبدو أن هذا المسند قد جُمِعَ فيه بين ما رواه الصديق وما رُوِي عنه، وهو المذكور في الكتاب السادس، وما أفرده ابن كثير عن عُمَر رضي الله عنه، فقد قال ابن كثير أيضاً في ٧/ ١٤٥ : «وأفردنا لما أَسْنَدَه [أي : عُمَر] ورُوِي عنه من الأحكام مجلداً آخر كبيراً مُرَتَّباً على أبواب الفقه».

على أنه قد انتهى إلينا بسند عُمَر مفرداً، وحققه الدكتور مطر أحمد ناصر الزهراني في رسالته التي نال بها درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى، وَبَيَّن أنه جُزءٌ من «جامع المسانيد» إلا أنه أفرده بالتصنيف، وعنوانه : مسند الفاروق عُمَر بنَ الخطاب.

٩ـ طبقات الفقهاء الشافعيين :

ذكره في البداية ١٠/ ٢٦٢ ، وهو يتحدث عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي : «وقد أفردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا طبقات الشافعيين». ومنه نسخة في معهد المخطوطات العربية في القاهرة، وأخرى في شستر بتي ورقمها ٣٣٩٠، وقد كتبت سنة ٧٤٩ في حياة ابن كثير.

١٠ـ الواضح النفيس في مناقب ابن إدريس :

ذكره في كشف الظنون. ولعله ما ذكره أول طبقات الفقهاء الشافعيين.

١١ـ شرح التنبيه :

التنبيه في فقه الشافعية لأبي إسحق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت٤٧٦). وقد ذكره ابن كثير فقال في البداية ١٢/ ١٣٣ : «وقد ذكرت ترجمته مستقصاة في أول شرح التنبيه».

وقد ذكر ابن حجر في إنباه الغمر ١/ ٤٥-٤٦ أنَّ ابن كثير «أَلَفَ في صِغَرِه أحكام التنبيه، فقال : إن شيخه البرهان أعجبه وأثنى عليه» فهل هو شرح التنبيه أو غيره؟ كما نسب إليه السيوطي في طبقات الحفاظ أن له : تخريج أحاديث أدلَّة التنبيه في فقه الشافعية. ولهذا الكتاب نسختان بمكتبة فيض الله، ودار الكتب المصرية، وعنوانه إرشاد الفقيه إلى معرفة أسباب التنبيه.

١٢ـ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب :

ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ، وقال ابن كثير في البداية١٣/ ١٨٨ : «ومختصره في الفقه من أحسن المختصرات، انتظم فيه فوائد ابن شاشٍ. ومختصره في أصول الفقه استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمدي. وقد مَنَّ الله ـ تعالى ـ عليّ بحفظه، وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية ولله الحمد». وقد حقق هذا الكتاب في رسالة ماجستير تقدم بها عبد الغني الكبيسي، وعنوانها تحفة الطالب بمعرفة مختصر ابن الحاجب.

١٣ـ اختصار علوم الحديث:

ذكره حاجي خليفة، وقال إن ابن كثير اختصر فيه علوم الحديث لابن الصلاح، وأضاف إلى ذلك الفوائد الملتقطة من المدخل إلى كتاب السنن، كلاهما للبيهقي وقد طبع غير مَرَّة. وشرحه الأستاذ الشيخ أحمد شاكر، ونشره بعنوان: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث.

١٤ـ جامع المسانيد:

قال حاجي خليفة: «وهو كتاب عظيم جمع فيه أحاديث الكتب العشرة في أصول الإسلام، أعني الستة والمسانيد الأربعة». وقال أبو المحاسن في ذيل التذكرة: «وكتاب الهَدْي والسَّنَن في أحاديث المسانيد والسُّنَن، جمع مسند الإمام أحمد، والبزار، وأبي يعلى، وابن أبي شيبة إلى الكتب الستة وقد صدر حتى الآن الجزء الأول من هذا الكتاب بعنوان: «جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَنٍ»، بتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، سنة ١٤١٠ ـ ١٩٨٩م بمكة المكرمة. وقد بَيَّن ابنُ كثير مصادِرَه فيه فقال ١/ ٦٠ الكتب الستة، وهي الصحيحان: البخاري ومسلم، والسنن الأربع لأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ومن ذلك مسند الإمام أحمد، ومسند أبي بكر البزار، ومسند الحافظ أبي يعلى الموصلي، والمعجم الكبير» ومن هذا يعلم ما في كلام تلميذه أبي المحاسن من خطأ حين ذكر مصنف ابن أبي شيبة مكان المعجم الكبير للطبراني.

على أن الحافظ ابن حجر يذكر في إنباه الغمر ١/ ٤٧ ما نَصُّه: «ولما رَتَّب الحافظ شمسُ الدين بن المُحِبِّ المعروف بالصامت مسند أحمد على ترتيب حروف المعجم، أعجب ابن كثير فاستحسنه، ورأيت النسخة بدمشق بخط ولده عُمَر، فألحق ابن كثير ما استحسنه في الهوامش من الكتب الستة، ومسندَي أبي يعلى والبزار ومُعجَمَي [كذا] للطبراني ما ليس في المسند. وسمى الكتاب: جامع المسانيد والسُّنَنِ. وكُتِبَت منه عدّة نسخ نُسِبت إليه، وهو الآن في أوقاف المدرسة المحمودية، المتن بترتيب ابن المحب، والإلحاقات بخط ابن كثير في الهوامش والعصافير.

وقد كنت رأيت منه نسخاً بيَّضها عُمَر بن العماد بن كثير مما في المتن والإلحاق، وكتب عليه الاسم المذكور».

هذا ومُعجَمُ المسانيد مُرَتَّب على مسانيد الصحابة وهؤلاء مُرَتَّبون على حروف المعجم.

١٥ـ التكميل في معرفة الثقات والضُعَفاء والمجاهيل:

كذا ذكره ابن كثير في جامع المسانيد ١/ ٦٠، وقال: «في عِدَّة عشر مُجَلَّدات هو كالمقدمة بين كتابي هذا».

وقد ذكره في البداية ١١/ ٧٠، وهو يترجم للترمذي، وفي ترجمة أبي العباس محمد بن يونس ١١/ ٨٨.

وقال تلميذه أبو المحاسن في ذيل تذكرة الحفاظ: «جمع بين التهذيب والميزان، وهو خمس مجلدات».

وقال السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ٥٨٩ «وللعماد ابن كثير: التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل، جمع فيه بين تهذيب المزِّي وميزان الذهبي، مع زيادات وتحرير عليها في الجرح والتعديل. وقال: من أنفع شيء للفقيه البارع، وكذا المحدث». وقد ذكر محقق جامع المسانيد أنه يوجد منه الجزء التاسع وهو الأخير في مجلدين كبيرين بدار الكتب المصرية ٢٤٢٢٧ب.

١٦ـ الأحكام الصغرى في الحديث: كذا ذكره حاجي خليفه.

١٧ـ الأحكام الكبرى :

ذكره ابن كثير مراراً، ومنها عند تفسير الآية الرابعة من سورة القتال، وفي مقدمة سورة تفسير سورة الملك، وأشار إليه في مقدمة جامع المسانيد، وقال السيوطي في طبقات الحفاظ : «كتاب كبير في الأحكام لم يتمه. وصل فيه إلى الحج». وقد ذكره محققُ مسند الفاروق عمر بن الخطاب بعنوان: الأحكام الكبير، وقال: ومنه جزء مخطوط في ٣٨٩ ورقة في دار الكتب الوطنية بتونس، رقم ١٦٨ .

١٨ـ شرح صحيح البخاري :

أحال عليه ابن كثير مراراً في تفسيره، انظر تفسير الآية ٢٢ من سورة الأحزاب، ٤٩ من سورة القمر، ٧ من سورة الحديد، ١١ من سورة المجادلة، والثانية من سورة الصف. وقال ابن كثير في البداية ١١/ ٢٧ عند حديثه عن الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: «وَقد ذكرنا له ترجمة حافلةً في أول شرحنا لصحيحه». قال حاجي خليفة: «شرح قطعةً من أوله». ولم نقف مع هذا الشرح.

١٩ـ المقدِّمات :

ذكره ابن كثير عند تفسير الآية ٨٥ من سورة مريم وقال في الباعث الحثيث ٤٦ عن حديثه عن المرسل: «وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا المقدِّمات».

٢٠ـ الاجتهاد في طلب الجهاد :

قال حاجي خليفة: «كتبها للأمير منجك لما حاصر الفرنج قلعة إياس». وقد طبع في سنة ١٣٤٧هـ، وصدر في نشرةٍ محققةٍ للدكتور عبد الله العسيلان.

٢١ـ سيرة منكلي بغا :

قال السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ٥٤٤ : «وللعماد ابن كثير سيرة مِنْكِلي بغا».

٢٢ـ مسألة في السماع، سماع الغناء بالألحان :

ذكرها حاجي خليفة ٢/ ١٠٠٢ .

٢٣ـ مولد رسول الله ﷺ :

وهو رسالة صغيرة نشرها الدكتور صلاح الدين المنجد، عن مخطوطة ضمن مجموع في مكتبة برنستن بالولايات المتحدة الأمريكية.

٢٤ـ أحاديث التوحيد والردّ على الشرك :

ذكره بروكلمان ٢/ ٤٨، وأنه طبع في دلهي سنة ١٢٩٧ . هذا وفي مكتبة الأوقاف العامة في بغداد رسالة من خمس ورقات بعنوان: رسالة في أحاديث الإشراك.

٢٥ـ كتاب العقائد :

وهو مخطوط بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز.

٢٦ـ كتاب في الصيام :

ذكره عند تفسير الآية ١٨٤، ١٨٧ من سورة البقرة.

هذا وله أجزاء مفردة أشار إليها في البداية والنهاية، أما ما ذكره منها في التفسير فكثير نذكر منه:

جزءٌ في بناء المساجد وتطهيرها، قال عند تفسير الآية ١٢٥ من سورة البقرة: «وقد جمعتُ في ذلك جزءاً على حِدَةٍ». وانظر في تفسير الآية ٣٦ من سورة النور.

جزءٌ في فضل يوم عرفة، ذكره عند تفسير الآية ١٩٩ من سورة البقرة.
جزء في الصلاة الوسطى، ذكره عند تفسير الآية ٢٣٨ من سورة البقرة.
جزء في حُكْم الأخَوَين مع الأُمّ في الميراث، ذكره عند تفسير الآية ١١ من سورة النساء.
جزء في إسناد حديث الصُّورِ، ذكره عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
جزء في طرق الأحاديث الواردة في تفسير الأيام المعلومات. ذكره عند تفسير الآية ٢٨ من سورة الحج.
مسألة كفارة المجلس، ذكرها في التفسير آخر سورة الطور، وفي سورة النصر.
مسألة دخول الجنّ الجنة، ذكرها عند تفسير الآية ٣١ من سورة الأحقاف.

التحقيق

أُتيح لهذه النَّشْرَةِ من الأصول ما اقتضى إعادة التحقيق، فقد كنا أخرجنا هذا التفسير من قبل معتمدين على نسخة مكتبة الجامع الأزهر رقم ١٦٨، ولقد أفدنا منها في ذلك الوقت بقدر ما أسعفتنا مصادرُ التحقيق. ولقد هَيَّأَ الله ـ تعالى ـ في جوارنا بمكة المكرمة أن نطلع على أصول أخرى رأينا فيها من الإضافات ما فرض علينا أن ننظر في نشرتنا الأولى، ثم إنه كان لما أخرجته المطبعة العربية من كتب السنة والرجال، وهو كثير، أكبرُ حافزٍ على بَذْلِ الجهدِ في إخراج هذا السفر الحافل.

النسخ المعتمدة:

أولاً: مخطوطة مكتبة الحرم المكي:

تتكون من أجزاء من نسخ مختلفة، وتمتاز بما فيها من زيادات، وقد أشرنا إليها ونحن نتحدث عن مصادر ابن كثير في تفسيره. وأغلب هذه الزيادات في سورة البقرة. وقد أبقى الزمن منها الأجزاء التالية:

الجزء الأول: ويشتمل على أول التفسير حتى منتصف الآية ٢٥٥ من سورة البقرة. ويقع هذا الجزء في ٣٢٧ ورقة، وفي كل صفحة ٢٠ سطراً، وكتب بخط نسخيٍّ جيِّد، وقال ناسخهُ: «وكان الفراغ من نسخ هذا الجزء يوم. . . المبارك في ثمانية وعشرين مضين من شهر جمادى الآخرة، من شهور ستة وعشرين ومائتين وألف من الهجرة النبوية، على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام».

الجزء الثالث: ويشتمل على تفسير سورة الأعراف والأنفال والتوبة. ويقع في ٢٢٨ ورقة، وفي كل صفحة ٢٥ سطراً، وكتب أوله بخط نسخي جميل، وسائره بخط متوسط، وقال ناسخه: «الحمد لله وحده، رابع عشر ربيع الأول سنة. . . ثمانين وسبع مئين من الهجرة النبوية، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

الجزء الخامس: ويشتمل على التفسير من سورة النحل حتى آخر سورة الأحزاب، ويقع في ٢٣٦ ورقة، وفي كلّ صفحةٍ ٣٥ سطراً، بخط نسخيٍّ دقيقٍ وليس عليه تاريخ نسخ.

الجزء السادس: ويبدأ من سورة سبأ إلى آخر سورة فُصِّلت. ويقع في نحو ١٥٠ ورقة، ومسطرته مختلفة. وقد كتب بخط نسخي جيّد. وقال ناسخه في آخر سورة الصافات: «وكان الفراغ من كتابتها بخط مالكها محمد بن بهادر بن عبد الله السجاعي ـ غفر الله له ـ نهار الإثنين سادس عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وستين

وسبعمائة». وكان يكتب نحواً من هذا في آخر كل سورة. فهذا الجزء منسوخ في حياة ابن كثير.

الجزء التاسع: ويبدأ من سورة الشورى إلى آخر سورة الطلاق. ويقع في ٢٧٥ ورقة، في كل صفحة ٢١ سطراً، وقد كُتِبَ بخط نسخي جميل، وقال ناسخه: «نجز على يد أفقر العباد إلى الله الغني محمد بن أحمد بن معمر المقري البغدادي، في أوائل شهر ربيع الآخر من سنة تسع وخمسين وسبعمائة». فهو منسوخ في حياة ابن كثير، وأقدم من الجزء السابق.

الجزء العاشر: ويبدأ من تفسير سورة التحريم إلى آخر القرآن الكريم. ويقع في ١٩٢ ورقة، في كل صفحة ٢١ سطراً. مثل الجزء التاسع، وكاتبهما واحد، وقد خلا من تاريخ النسخ.

ثانياً: أجزاء مصورة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وقد رجعنا إليها في أثناء التحقيق عند اختلاف النسخ، وتتمثل فيما يأتي:

١ـ المجلد الأول من تفسير القرآن، ويبدأ من أول التفسير إلى آخر تفسير الآية ٢١٨ من سورة البقرة. وهو من مصورات مكتبة تشستربتي، وكتبه: أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب، لعله المترجم في البدر الطالع ٢/ ٨٩، والمتوفى في سنة ١٩٠ هـ، قال: «آخر الجزء التاسع من أجزاء المؤلف». ويقع في ٢٢٤ لوحة، وفي كل صفحة ٢٧ سطراً، وكتب بخط نسخي ممتاز

٢ـ الجزء الأول من التفسير، وقد نَقَصَ شيئاً من أوله وآخره. ويبدأ من قول ابن كثير: «فإن قال قائل: فما أحسنُ طرق التفسير؟». وينتهي في آخر تفسير الآية ١٢١ من سورة البقرة. ويقع في ١٧٧ لوحةٍ، وعدد أسطُرِه ١٩ سطراً، وكُتِب بخط نَسخِيٍّ جيِّد. وهو كسابقه عن مكتبة تشستربتي.

٣ـ جزء ناقِصٌ من أوله، ويبدأ من أول التفسير حتى تفسير الآية ٧٠ من سورة النساء. ويقع في ٢٥٥ لوحة، وفي كل صفحة ٢٢ سطراً، وكتب بخطٍّ نَسخيٍّ معتاد. وعليها وقف لسعد بن محمد آل كران.

٤ـ جزء يبدأ من تفسير الآية الثانية من سورة النساء حتى آخر تفسير سورة الأعراف. ويقع في ٢٣٦ لوحة، في كل صفحة ٢٦ سطراً. وهو وسابقه هدية من فضيلة الشيخ محمد بن سليمان آل سليمان.

٥ـ جزء يبدأ من تفسير سورة الأنعام، وينتهي بتفسير الآية ٦٠ من سورة الأنفال. ويقع في ٢٣٠ لوحة. في كُلِّ صفحةٍ ٢١ سطراً. وكُتِبَ بخطٍّ نسخيٍّ جميل. وهذا الجزء مما تكمل به نسخة الجزءين التاسع والعاشر من مخطوطة الحرم المكي، فخطه كخطهما، وكذلك المسطرة، وغلافه كغلافهما فهو يرجع إلى القرن الثامن. وهو من مصوّرات مكتبة تشستربتي.

هذا وقد يَسَّر الله تعالى لنا الاستدراك على طبعتنا السابقة بما أضفناه من تلك الزيادات التي حَفَل بها الجزء الأول من مخطوطة الحرم، على أنا قد وجدنا في الأجزاء الأخرى زياداتٍ كذلك، ولكنها محدودة.

ومن زيادات الجزء الأول من مخطوطة الحرم أنه قد صُوِّر بكتاب فضائل القرآن الكريم لابن كثير، وكانت بعض النسخ تجعله في آخر التفسير. وقد رأينا ابن كثير في غير موضع يُحيل عليه في صدر التفسير، أحال عند تفسير الآية ٧٩ من سورة الإسراء، والآية ١٧ من سورة القمر على حديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»، ولم يتقدَّم إلا في كتاب الفضائل. وكذلك أحال عند تفسير الآية ٨٨ من سورة الحجر على حديث: «ليس منا من لم يتَغَنَّ بالقرآن»، وقال: تقدم في أول التفسير، ولم يتقدَّم إلا في كتاب الفضائل كذلك. وأحال على هذا الحديث

أيضاً عند تفسير الآية الرابعة من سورة المزمّل .

وهناك أشياء أخرى ـ هدانا الله تعالى إليها ـ تتمثل في تصويبات وتخريجات لم نتمكن منها في نشرتنا الأولى .

وبعدُ فلا نَدَّعي الكمال فيما قَدَّمنا ، وحسبُنا هنا أن نُرَدِّد مقالة الإمام مالك بن أنس : «كل أحد يُؤخَذُ من كلامه ويُرَدُّ غير صاحب هذا القبر» . صلوات الله وسلامه عليه .

ونسأل الله تعالى أن يتقبَّل هذا العمل ، وأن ينفع به ، إنه سَمِيعٌ مُجِيبٌ ، والحمد لله ربِّ العالمين .

وكتب محمد إبراهيم البنا

في مكة المكرمة بعد مغرب يوم الإثنين لثلاثٍ بقين في شهر ذي الحجة
من عام أحدَ عشرَ وأربعمائة وألف من الهجرة النبويّة، الموافق ٨/٨/ ١٩٩١ م

(غلاف الجزء الأول من نسخة الحرم المكي)

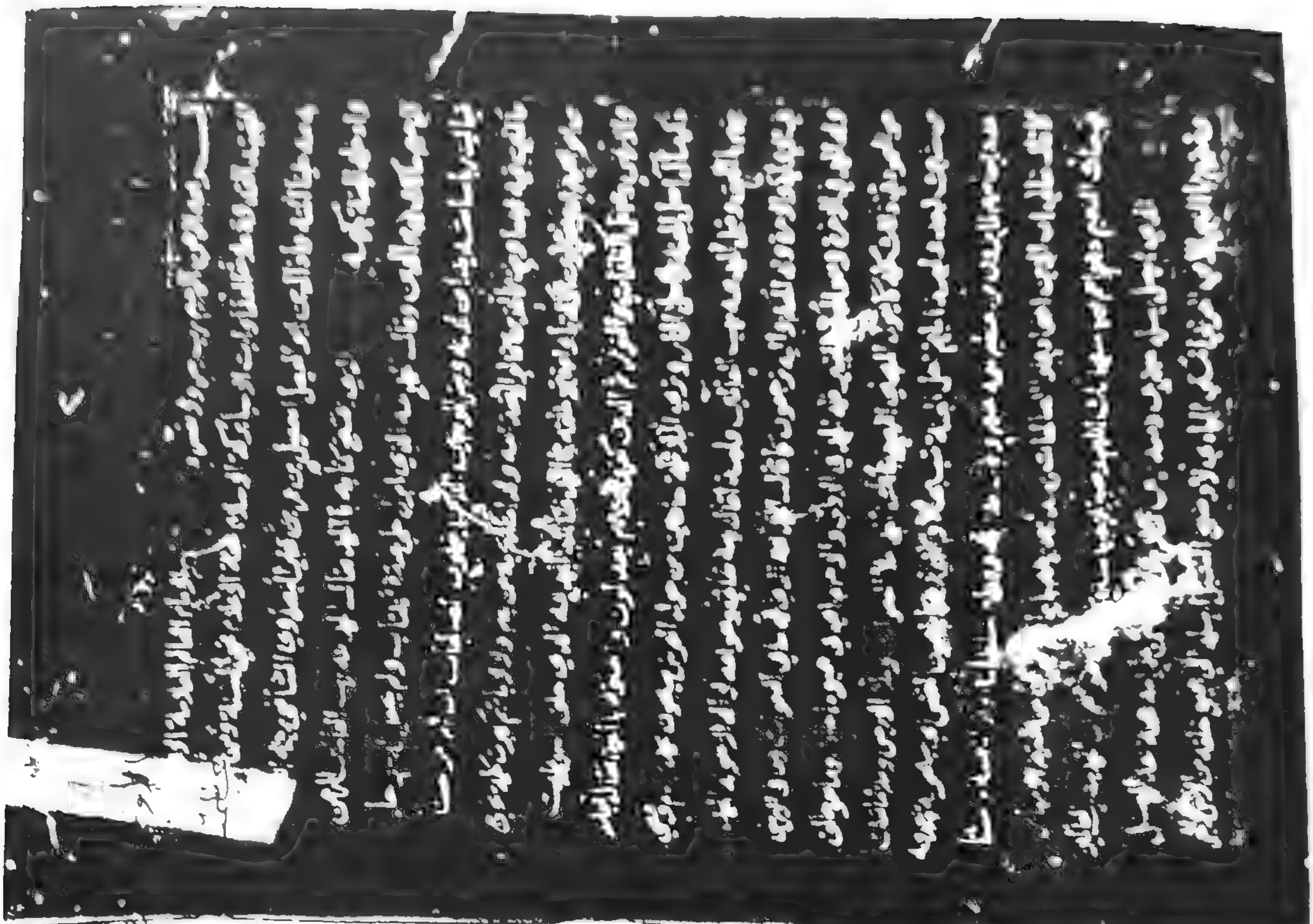

(الورقة الأولى من الجزء الأول من نسخة الحرم المكي)

(غلاف الجزء الثالث من نسخة الحرم المكي)

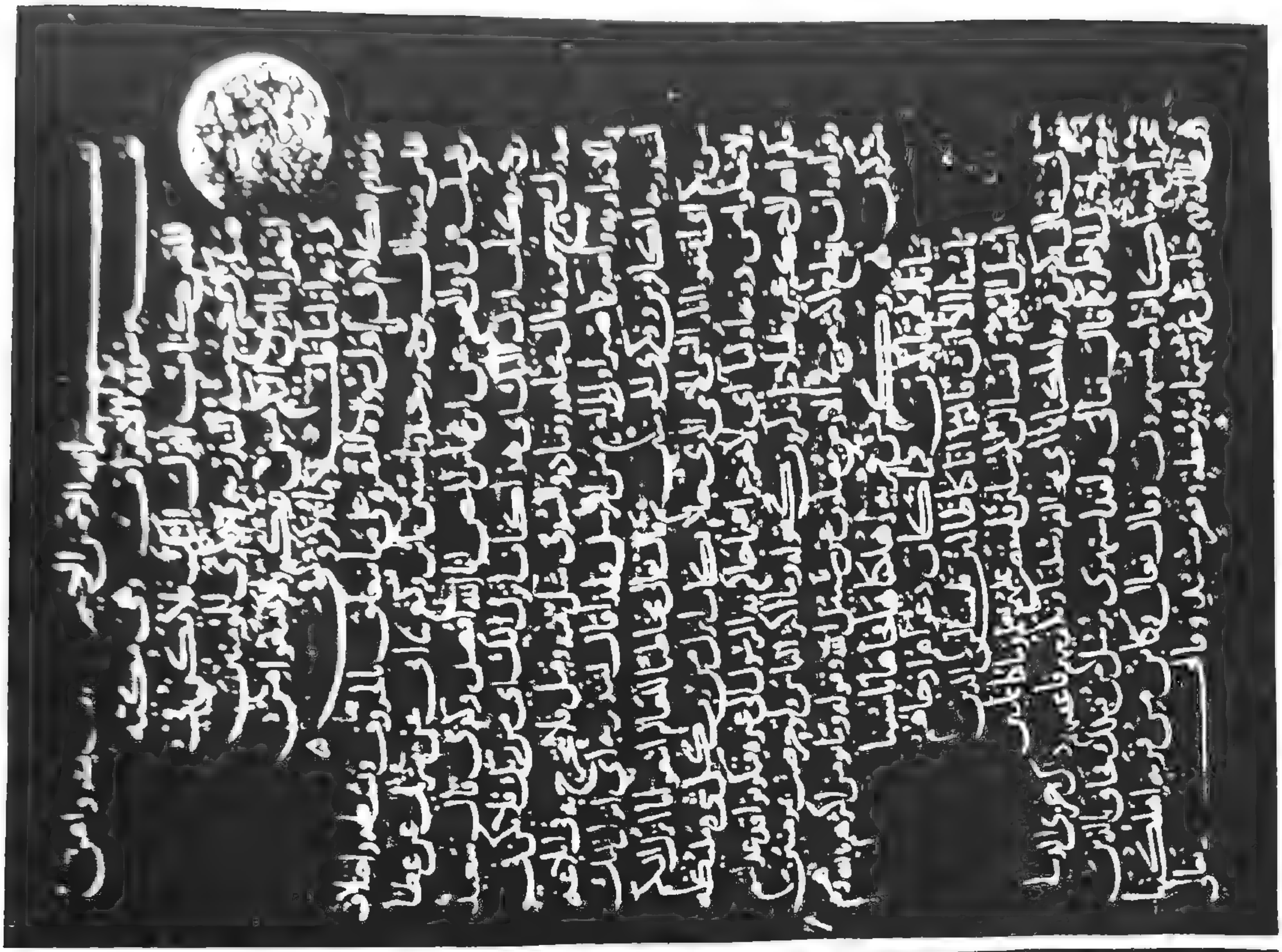

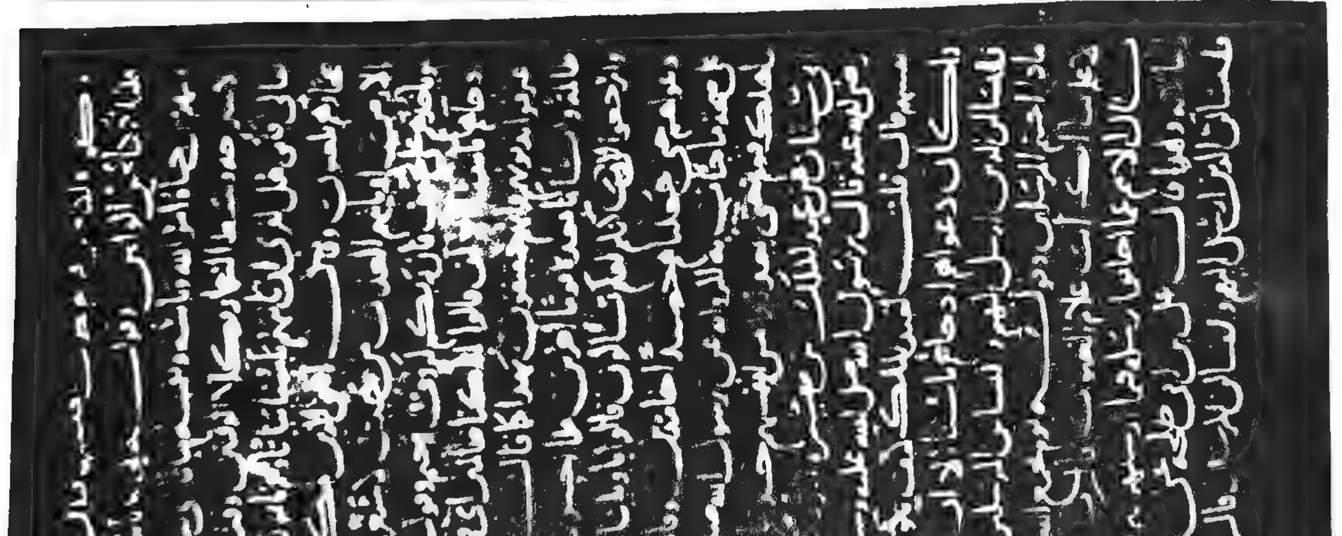

(الورقة الأولى من الجزء الثالث من نسخة الحرم المكي)

(الورقة الأولى من الجزء الرابع من نسخة الحرم المكي)

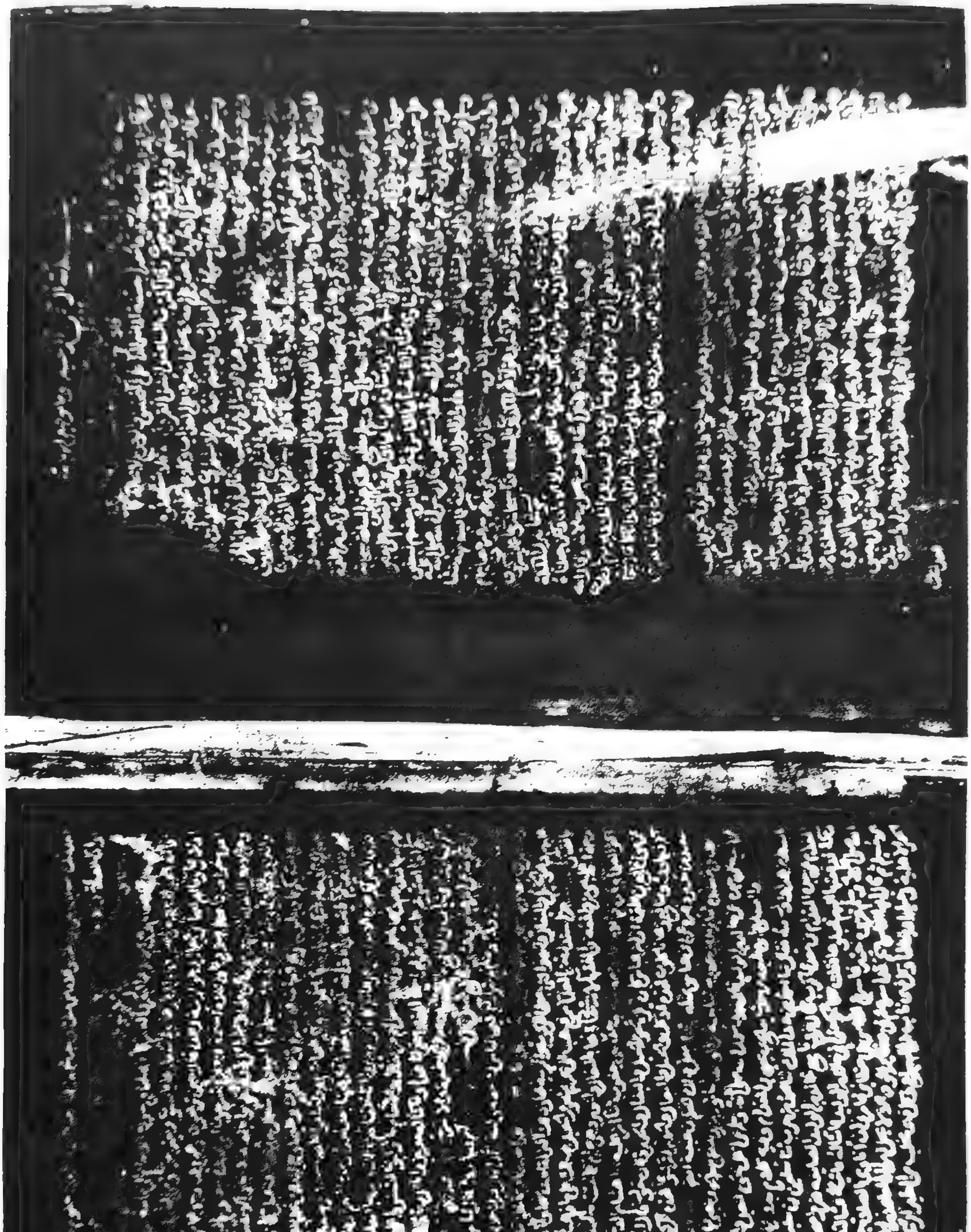

(الورقة الأولى من الجزء الخامس من نسخة الحرم المكي)

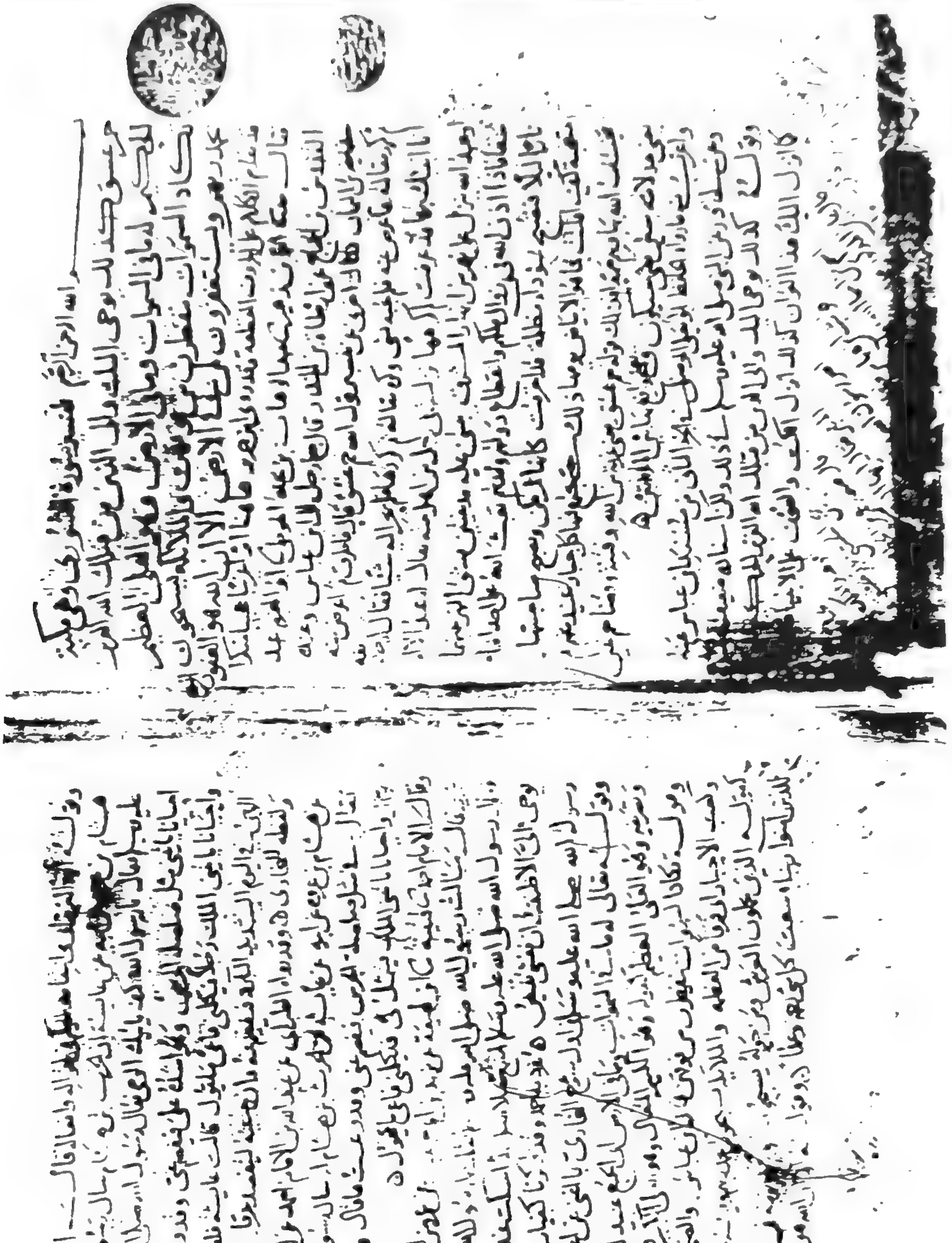

(الورقة الأولى من الجزء التاسع من نسخة الحرم المكي)

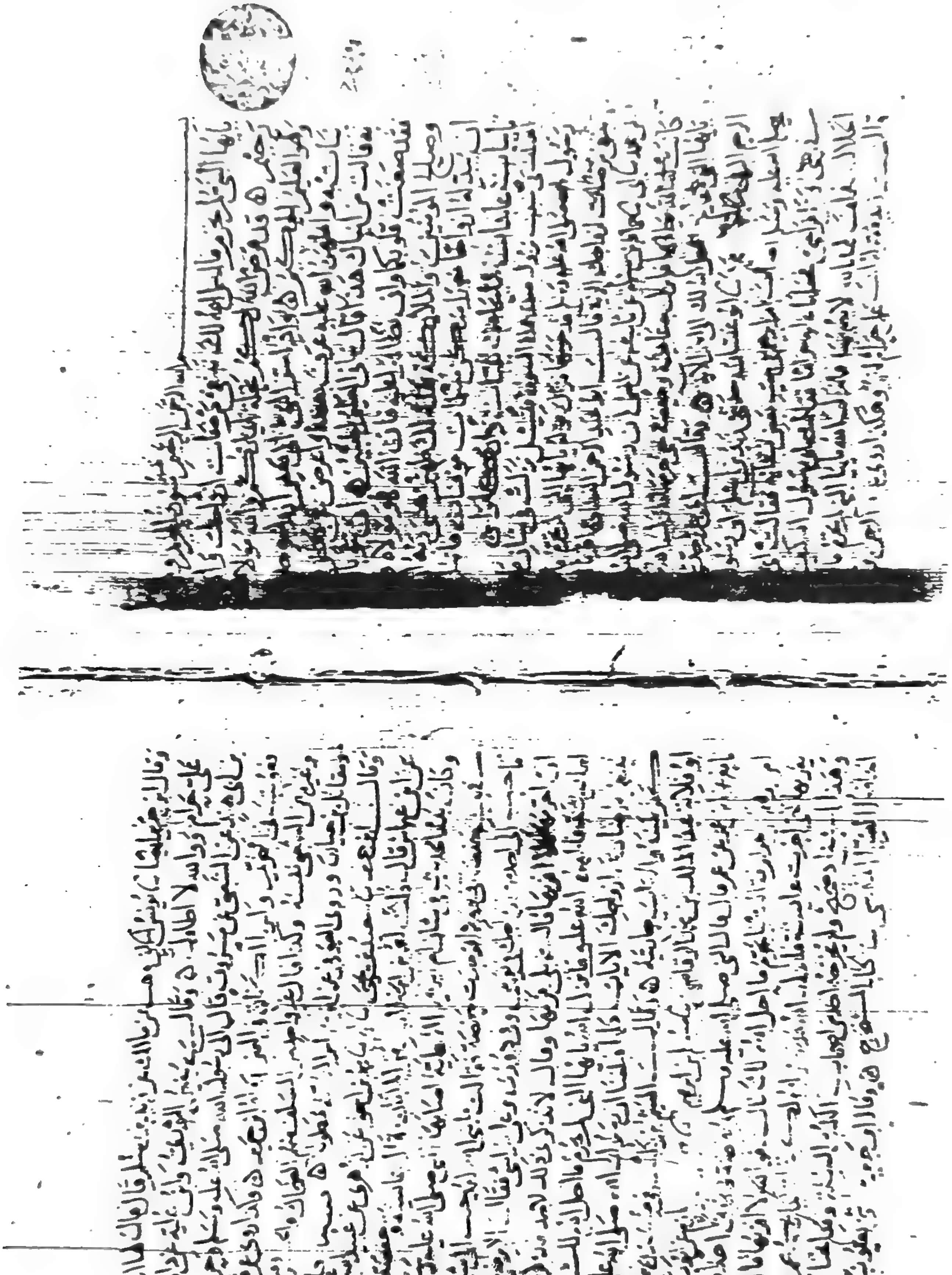

(الورقة الأولى من الجزء العاشر من نسخة الحرم المكي)

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّر ولا تُعَسِّر

قال الشيخُ الإمامُ العالم العلامة الأوحدُ الحافظ المجتهدُ القدوةُ، عَلّامة العلماء، وارثُ الأنبياء، بركة الإسلام، حُجَّة الأعلام، مُحيِي السنَّة، ومن عَظُمت به لله علينا المِنَّة، عماد الدين أبو الفِداء[1] إسماعيلُ بن عُمَر بن كثير البُصراوي الشافعي ـ رحمه الله ـ وأدخله الجنة بكرمه:

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الحمد لله ربِّ العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين﴾ وقال: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوَجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كَبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾. وافتتح خَلْقه بالحمد، فقال: ﴿ الحمد لله الذي خَلق السموات والأرض وجعلَ الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون ﴾ واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿ وترى الملائكة حافِّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقُضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وهو الله لا إلٰه إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ كما قال: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾.

فله الحمد في الأولى والآخرة، أي: في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله، كما يقول المصلي: «اللهم ربنا لك الحمد، مِلْءَ السموات ومِلْءَ الأرض، ومِلْءَ ما شئت من شيء بعد». ولهذا يُلْهَم أهلُ الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلْهَمون النَّفَس، أي: يُسَبِّحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم، لما يرون من عظيم نِعَمِه عليهم، وكمال قدرته ودوام سلطانه، وتوالي مِنَنه وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾.

---

(١) في الأصل: أبو الفضل.

والحمدُ لله الذي أرسلَ رسله مُبَشِّرين ومُنذِرين لئلا يكونَ للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرسل، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خَلقه من الإنس والجن، من لَدُن بَعْثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾. وقال تعالى: ﴿لأنذركم به ومن بَلَغ﴾.

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسودَ وأحمرَ، وإنس وجانٍّ، فهو نذير له، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بِنَصِّ الله تعالى، وكما قال: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود»(١). قال مجاهد: يعني الإنس والجن. فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رسولٌ إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مُبَلِّغاً لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تَفَهُّمه، فقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾. وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبيِّنُنّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ وقال تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾.

فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المُنْزَلِ إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا ـ أيها المسلمون ـ أن ننتهي عما ذمَّهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا الله تعالى به؛ مِن تَعَلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وَتَفَهُّمه وتَفهيمه، قال الله تبارك تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيّنا لكم الآيات لعلّكم تعقلون﴾. ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما أنّه يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمَّلُ المسئولُ أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم.

* * *

(١) مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ٣٧١، ومسند الإمام أحمد ١/٢٥٠، ٣٠١، ٤/٢١٦، ٥/١٤٥، ١٤٨، ١٦٢.

فصـــل

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟[١].

فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخَر، وما اختِصُرَ في مكان فإنه قد بُسِط في موضع آخر. فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه الله ـ: كل ما حكم به رسول الله ـ ﷺ ـ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾. وقال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾. وقال تعالى: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

ولهذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألَا إني أُوتيتُ القرآن ومثلَه معه»[٢]، يعني السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تُتلى كما يُتْلَى القرآن، وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجدْه فمن السنة، كما قال رسولُ الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد برأيي. قال: فضرب رسول الله ـ ﷺ ـ في صدره، وقال: الحمد لله الذي وفَّق رَسُولَ رسولِ الله لما يُرضِي رسول الله». وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسناد جيد[٣]، كما هو مقرر في موضعه.

وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختُصُّوا بها، وبما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبدالله بن مسعود، رضي الله عنه.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير: حدثنا أبو كُريب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبدالله ـ يعني ابن مسعود ـ: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم: فيم نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيتُه.

وقال الأعمش أيضاً، عن أبي وائل، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمي: حدثنا الذين كانوا يُقرِئُوننا أنهم كانوا يَستقرِئُون من النبي ـ ﷺ ـ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ابن عم رسول الله ـ ﷺ ـ وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ـ ﷺ ـ له حيث قال: «اللهم، فَقِّهه في الدين، وعلمه التأويل»[٤].

---

(١) هذا الفصل والذي يليه مأخوذ من كلام ابن تيميَّة في مقدمته في أصول التفسير ٤٢ ـ ٤٥.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/١٣١.

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢، وسنن أبي داود، كتاب الأقضية ٣/٣٠٣.

(٤) البخاري، كتاب الوضوء ١/٤٨، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٢٧.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مُسْلم[١]، قال: قال عبدالله بن مسعود: نِعْم ترجمانُ القرآن ابنُ عباس.

ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحق الأزرق، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس.

ثم رواه عن بُنْدار، عن جعفر بن عون، عن الأعمش، به كذلك.

فهذا الإسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال الأعمش، عن أبي وائل: استخلف عليّ عبدالله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا.

ولهذا غالبُ ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السُدِّي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: ابن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ـ ﷺ ـ حيث قال: «بَلِّغوا عني ولو آية، وَحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج، ومن كذب عليّ متعمداً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار».

رواه البخاري عن عبدالله. ولهذا كان عبدالله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتقاد[٢]، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدهـا: ما علمنا صِحَّته مما بأيدينا مما شهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كَذِبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، ولا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعِدَّتهم. وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُرِب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كَلَّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم. ولكن نَقْلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال، أَضْعَفَ القولين الأولين وسكَت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلاً لردَّه كما رَدَّهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عِدَّتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿ قل ربي

---

(١) في الأصل: «عن مسلم عن مسروق». والرواية عن مسروق ستأتي، وانظر الطبري ١/ ٤٠.

(٢) في النسخ: للاعتضاد. والمثبت عن مقدمة ابن تيميَّة.

أعلم بعدتهم ﴾ فإنه ما يَعلمُ ذلك إلا قليل من الناس ، ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صَحَّحَ غير الصحيح عامداً فقد تَعَمَّد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، وكذلك من نَصَب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين مَعنىً، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبَيْ زور، والله الموفق للصواب.

قال سفيان بن عُيَيْنَة، عن عُبَيد الله بن أبي يزيد: كان ابنُ عباسٍ إذا سُئِلَ عن الأمر فكان في القرآن قال به، فإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله ـ ﷺ ـ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فإن لم يكن اجتهد رأيه[١].

فصـــل

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جَبْر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحق: حدثنا أبانٍ بن صالح، عن مجاهد، قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أُوقِفُه عند كل آية منه، وأسأله عنها.

وقال ابنِ جرير: حدثنا أبو كُريب، حدثنا طَلْقُ بن غَنَّام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مُلَيكة: قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب. حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين، وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، فيحسبها [بعض][٢] من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإن منهم من يعبّر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فَلْيتفطَّن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شُعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني[٣] أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم. وهذا صحيح؛ أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون [قَوْلُ][٢] بعضهم حجةً على بعضٍ، ولا على من بعدهم، ويرجَعُ في ذلك إلى لغةِ القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

(١) هذا الأثر عن الأصل.
(٢) عن الأصل.
(٣) في الأصل: بمعنى.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير ـ رحمه الله ـ حيث قال:

حدثنا محمد بن بشار، حدثني يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فَلْيتبوَّأ مقعده من النار»[(١)].

وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي، من طرق، عن سفيان الثوري، به. ورواه أبو داود[(٢)]، عن مُسَدَّد، عن أبي عوانة، عن عبد الأعلى، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وهكذا رواه ابن جرير أيضاً، عن يحيى بن طلحة اليربوعي، عن شريك، عن عبد الأعلى، به مرفوعاً. ولكن رواه عن محمد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس المُلاَئي، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن ابن عباس، فوقفه. وعن محمد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس من قوله، فالله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبري، حديث حَبَّان بن هلال، حدثنا سهيل أخو حزم، حدثنا أبو عمران الجَوني، عن جندب: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ».

وقد روى هذا الحديث أبو داود والترمذي، والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القُطَعي. وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعضٌ [من][(٣)] أهل العلم في سهيل. وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ». أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به؛ فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس بجهلٍ فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جُرْماً ممن أخطأ، والله أعلم. وهكذا سمى الله القذفة كاذبين، فقال: ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه [قد][(٣)] تكلف ما لا علم له به، والله أعلم.

ولهذا تَحَرَّج جماعةٌ من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبدالله ابن مُرَّة، عن أبي معمر، قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أيُّ أرض تُقِلُّني؟ وأي سماء تُظِلُّني؟ إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام بن حَوْشَب، عن إبراهيم التيمي: أن أبا بكر الصديق سُئِل عن قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبّا﴾، فقال: أيُّ سماء تُظِلُّني؛ وأي أرض تُقِلُّني؟ إنْ قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم. منقطع.

وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وفاكهة وأبّا﴾. فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر.

وقال محمد بن سعد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا

---

(١) تفسير الطبري ١/٣٤. وتحفة الأحوذي ٨/٢٧٧ ـ ٢٧٨. وأخرجه النسائي في فضائل القرآن من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٤/٤٢٣.

(٢) سنن أبي داود، كتاب العلم ٣/٣١٩ ـ ٣٢٠، وتحفة الأحوذي أبواب التفسير ٨/٢٧٩ ـ ٢٨١.

(٣) عن الأصل.

عند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفي ظهر قميصه أربعُ رِقاعٍ، فقرأ: ﴿ وفاكهة وأبًّا ﴾ فقال: ما الأبُّ؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف يا عُمَرُ، فما عليك ألاّ تدريه[١].

وهذا كله محمول على أنهما، رضي الله عنهما، إنما أرادا استكشاف علم كيفيَّةِ الأبِّ، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً ﴾ . . . الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها. إسناده صحيح.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن ﴿ يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ فقال ابن عباس: فما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس: «هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما». فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

وقال أيضاً ابن جرير: حدثني يعقوب، يعني ابن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن مهدي بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طَلْقُ بن حبيب إلى جندب بن عبدالله، فسأل عن آية من القرآن؟ فقال له: أُحرِّجُ[٢] عليك إن كنت مسلماً لَمَّا قمت عني، أو قال: أن تجالسني[٢].

وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سُئِل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً.

وقال الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن.

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، قال: سأل رجل سعيد بن المسيب، عن آية من القرآن فقال: لا تسألني عن القرآن، وسَلْ من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء. يعني عكرمة.

وقال ابن شَوْذَب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسألُ سعيدَ بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عَبْدَة الضبيُّ، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عُبَيد الله بن عمر، قال لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبدالله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع.

وقال أبو عُبَيد: حدثنا عبدالله بن صالح، عن الليث، عن هشام بن عروة، قال: ما سمعت أبي تَأَوَّل آية من كتاب الله قط.

وقال أيوب، وابن عون، وهشام الدَّسْتَوائي، عن محمد بن سيرين: سألت عَبِيدة ـ (يعني) السَّلْمانيّ ـ عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أُنزِل القرآن؟ فاتّق الله، وعليك بالسداد.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/١/٢٣٧.

(٢) تفسير الطبري ١/٣٨. والتحريج: التضييق والتحريم، والمعنى: لا أسألك شيئاً إلا البعد عني، ولا أحرم عليك شيئاً إلا مجالستي.

وقال أبو عُبَيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبدالله بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حَدَّثت عن الله [حديثاً](١) فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده.

حدثنا هُشَيم، عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه.

وقال شعبة، عن عبد الله بن أبي السَفَر، قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية على الله عزّ وجلّ.

وقال أبو عُبَيد: حدثنا هشيم، حدثنا عُمَرُ بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية على الله عَزَّ وجَلَّ.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تَحَرُّجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم، فكتمه، أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار»(٢).

فأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير:

حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمة، حدثنا جعفر بن محمد الزبيري(٣)، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما كان النبي - ﷺ - يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً تُعَدُّ(٤)، علمهن آيّاه جبريل عليه السلام.

ثم رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي، عن معن بن عيسى، عن جعفر بن خالد، عن هشام، به.

فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو (ابن)(٥) محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري، قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث.

وتكلّم عليه الإمام أبو جعفر [بن جرير](١) بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يُعْلَم إلا بالتوقيف عن الله تعالى، مما وقفه عليها جبريل. وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يُعذَر أحدٌ في جهله، كما صرح بذلك ابن عباس، فيما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذَر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله(٦).

---

(١) عن الأصل.

(٢) سنن أبي داود، كتاب العلم ٣/٣٢١، وتحفة الأحوذي، أبواب العلم، ٧/٤٠٧ - ٤٠٨، وابن ماجه، المقدمة ٩٨.

(٣) في الأصل: محمد بن جعفر، والمثبت عن تفسير الطبري ١/٣٧، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٤٨٧.

(٤) في الأصل: بعدد.

(٥) سقط من الأصل.

(٦) تفسير الطبري ١/٣٤.

قال ابن جرير: وقد رُوِي نحوهُ في حديثٍ في إسناده نظر:

حدثني يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفِيُّ، أنبأنا ابنُ وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي، عن أبي صالح مولى أم هانىء، عن عبدالله بن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به. وتفسير تُفَسِّره العرب، وتفسير تُفَسِّره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب[١].

والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما قد تَوَهّم في رفعه. ولعله من كلام ابن عباس، كما تقدم، والله ـ تبارك وتعالى ـ أعلم.

(١) تفسير الطبري ١/٣٤.

كتاب فضائل القرآن

ـ ١ ـ

[كيف نزل الوحي]؟

قال البخاري ـ رحمه الله ـ: كيف نزولُ الوحي وأول ما نزل. قال ابن عباس: المُهَيْمِنُ الأمينُ، القرآن أمينٌ على كلِّ كتاب قبله: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن شيبان [١]، عن يحيى، عن أبي سَلَمَة قال: أخبرتني عائشة وابن عباس قالا: لبث النبي ـ ﷺ ـ بمكة عشر سنين يُنْزَلُ عليه القرآنُ، وبالمدينة عشراً [٢].

ذكر البخاري ـ رحمه الله ـ كتاب فضائل القرآن بعد كتاب التفسير، لأن التفسير أهمّ فلهذا بدأ به، «[٣]ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير، وذكرنا فضل كُلِّ سورةٍ قبل تفسيرها لِيكون ذلك باعثاً على حفظ القرآن وفهمه، والعملِ بما فيه، واللَّهُ المستعانُ[٣]».

وقول ابن عباس في تفسير المهيمن، إنما يريد به البخاري قوله تعالى في المائدة، بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿ وأنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ مُصَدِّقاً لما بينَ يَدَيه مِنَ الكتابِ ومُهَيمِناً عليه ﴾ [٤].

قال الإمام أبو جعفر بن جرير ـ رحمه الله ـ: حدثنا المُثَنَّى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية، عن علي ـ يعني ابن أبي طلحة ـ عن ابن عباس، قوله: ﴿ ومُهَيمِناً عليه ﴾، قال: المهيمنُ الأمينُ، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله[٥]. وفي رواية: شهيداً عليه[٦].

وقال سفيانُ الثوريُّ، وغيرُ واحدٍ من الأئمة، عن أبي إسحاقَ السَّبيعي، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿ ومُهَيْمِناً عليه ﴾، قال: مُؤْتَمَناً [٦].

وبنحو ذلك قال مجاهد، والسُّدِّي، وقتادة، وابن جُرَيج، والحَسَن البصري، وغير واحد من أئمة السَّلَفِ.

وأصلُ الهيمنةِ الحفظ والارتقابُ؛ يقال، إذا رقب الرجلُ الشيءَ وحَفِظه وشَهِده: قد هَيْمَنَ فلان عليه، فهو يُهَيمن هيمنةً، وهُوَ عليه مُهَيمن؛ وفي أسماء الله تعالى: المُهَيمن، وهو الشهيد على كل شيء الرقيب الحفيظ بكلّ شيء.

---

(١) في الأصل: سفيان، وهو شيبان بن عبد الرحمن التميمي. انظر تهذيب التهذيب ٣٧٣/٤.

(٢) البخاري: كتاب فضائل القرآن ٢٢٣/٦.

(٣) مكانه في الطبعة المستقلة لفضائل القرآن: «فجرينا على منواله وسنته مقتدين به».

(٤) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٥) تفسير الطبري ٢٦٧/٦.

(٦) المرجع نفسه ٢٦٦/٦.

وأما الحديث الذي أسنده البخاري : « أنه - عليه الصلاة والسلام - أقام بمكة عَشْر سِنين ينزل عليه القرآن ، وبالمدينة عشراً » ؛ فهو مما انفرد به البخاريُّ دون مسلم ، وإنما رواه النسائي من حديث شيبان - وهو ابن عبد الرحمن - عن يحيى - وهو ابن كثير - عن أبي سلمة ، عنهما .

وقال أبو عُبَيد القاسم بن سلام : حدثنا يَزِيدُ ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ، ثم قرأ : ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾ (١) .

هذا إسناد صحيح . أما إقامته بالمدينة عشراً فهذا ممَّا لا خلاف فيه ، وأما إقامته بمكة بعد النبوة ، فالمشهور ثلاثَ عَشرَةَ سَنَةً ، لأنه - عليه الصلاة والسلام - أُوحِي إليه وهو ابن أربعين سنة ، وتُوُفِّي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح . ويَحْتَمِل أنه حذف ما زاد على العشرة اختصاراً في الكلام ، لأن العرب كثيراً ما يحذفون الكسور في كلامهم . أو أنهما (٢) إنما اعتبرا قَرْنَ جبريل - عليه السلام - به - عليه الصلاة والسلام - فإنَّه قد رَوَى الإمامُ أحمدُ : أنه قُرِن به - عليه السلام - ميكائيلُ في ابتداء الأمر يُلْقِي إليه الحكمة والشيء ، ثم قُرِنَ به جبريلُ .

ووجه مناسبة هذا الحديث لفضائل القرآن أنه ابتدأ نزوله في مكان شريف ، وهو البلد الحرام ، كما أنه كان في زمان شريف ، وهو شهر رمضان ، فاجتمع له شرف الزمان والمكان ، ولهذا يُستَحَبُّ إكثارُ تلاوةِ القرآن في شهر رمضان، لأنه ابتُدِىء نزوله فيه ؛ ولهذا كان جبريل يُعارِض به رسول الله - ﷺ - في كل سنة في شهر رمضان، فلما كان في السنة التي تُوُفِّي فيها عارضه به مرتين تأكيداً وتثبيتاً . وأيضاً ففي هذا الحديث بيان أنه من القرآن مكيٌّ ، ومنه مدنيٌّ . فالمكيُّ ما نَزَلَ قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ، سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أي البلاد كان ، حتى ولو كان بمكة أو عرفة ، وقد أجمعوا على سُوَرٍ أنها من المكي ، وأُخَرَ أنَّها من المدني ، واختلفوا في أُخَر. وأراد بعضهُم ضبطَ ذلك بضوابط في تقييدها عُسْرٌ ونَظَرٌ . ولكن قال بعضهم : كل سورة في أولها شيء من الحروف المقطَّعَةِ فهي مكيَّة إلا البقرة وآل عمران كما أن كل سورة فيها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فهي مدنية ، وما فيه : ﴿ يا أيها الناس ﴾ فيحتمل أن يكون من هذا ومن هذا ، والغالب أنه مكي ، وقد يكون مدنياً كما في البقرة : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾، ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طَيِّباً ولا تَتَّبِعوا خطوات الشيطانِ إنه لكم عدو مبين ﴾ .

قال أبو عُبَيد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا من سمع الأعمش يُحدِّث عن إبراهيم ، عن عَلْقَمة : كلُّ شيء في القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فإنه أنزل بالمدينة ، وما كان ﴿ يا أيها الناس ﴾ فإنه أنزل بمكة . ثم قال :

حدثنا علي بن معبد ، عن أبي المَلِيح ، عن ميمون بن مِهْرانَ قال : ما كان في القرآن ﴿ يا أيها الناس ﴾ و﴿ يا بني آدم ﴾ فإنه مكي ، وما كان ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فإنه مدني .

ومنهم من يقول : إن بعض السور نزل مرتين ، مرة بالمدينة ومرة بمكة - والله أعلم . ومنهم من يستثني من المكي آيات يدّعي أنها من المدني كما في سورة الحج وغيرها .

---

(١) الإسراء : ١٠٦ .

(٢) أي : عائشة وابن عباس .

والحقُّ ما دلَّ عليه الدليلُ الصحيحُ ـ والله أعلم .

وقال أبوعُبَيد: حَدَّثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة قال : نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والحج ، والنور ، والأحزاب ، والذين كفروا ، والفتح ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والحواريون ، والتغابن ، ويا أيها النبي إذا طلّقتم النساء ، ويا أيها النبي لِمَ تحرم ، والفجر ، والليل إذا يغشى ، وإنا أنزلناه في ليلة القدر ، ولم يكن ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله ، وسائر ذلك بمكة .

هذا إسناد صحيح عن ابن أبي طلحة مشهور ، وهو أحد أصحاب ابن عباس الذين رَوَوا عنه التفسيرَ . وقد ذكر في المدني سُوَراً في كونها مَدَنِيَّة نظرٌ ، وفاته الحجرات والمعوِّذات.

الحديث الثاني : وقال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا مُعْتَمِرْ ، [قال [١]] : سمعت أبي ، عن أبي عثمانَ قال : أُنْبِئْتُ أَنَّ جبريل ـ عليه السلام ـ أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ وعنده أمُّ سلمة [فجعل يتحدث [١]] فقال النبي ـ ﷺ ـ لأم سلمة : من هذا ؟ ـ أو كما قال ـ قلت : هذا دِحيَةُ . فلما قام قالت : والله ما حَسِبتُه إلا إياه حتى سمعتُ خطبة النبيِّ ـ ﷺ ـ بخَبَرِ جبريل ، أو كما قال . قال أبي : فقلت لأبي عثمانَ : ممن سَمِعْتَ هذا؟ فقال : من أسامة بن زيد [٢].

وهكذا رواه أيضاً ، في علامات النبوة ، عن عباس بن الوليد النَرْسِي [٢]، ومسلم في فضائل أم سلمة ، عن عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن عبد الأعلى ، كُلُّهم عن معتمر بن سليمانِ ، به [٣].

والغرض من إيراده هذا الحديث ههنا أن السفير بين الله وبين محمد ـ ﷺ ـ جبريل ـ عليه السلام ـ وهو مَلَكٌ كريم ، ذو وَجاهة وجلالة ومكانة ، كما قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ * ذي قُوَّةٍ عند ذي العرش مَكِينٍ * مطاعٍ ثَمّ أمين * وما صاحبكُم بمجنونٍ ﴾ . الآيات . فمدح الرب تبارك وتعالى عَبْدَيه ورسولَيْه جبريل ومحمدا ، صلوات الله وسلامه عليهما . وسنستقصي الكلام على تفسير هذا المكان [٤] في موضعه إذا وصلنا إليه [إن شاء الله تعالى]. وبه الثقة . وفي الحديث فضيلةٌ عظيمة لأمِّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ كما بَيَّنه مسلم ـ رحمه الله ـ لِرُؤْيَتِها لهذا المَلَكِ العظيمِ ، وفضيلةٌ أيضاً لدِحْيَةَ بن خليفةَ الكلبي ، وذلك أن جبريلَ ـ عليه السلام ـ كثيراً ما كان يجيء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ على صُورَتِه ، وكان جميلَ الصورةِ ـ رضي الله عنه ـ وكان من قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكَلْبِي ، كلهم يُنْسَبون إلى كلب بن وَبَرة ، وهم قبيلة من قُضَاعةَ ، وقضاعةُ ، قيل : إنهم من عدنان ، وقيل : من قحطانَ ، وقيل : بطنٌ مستقلٌ بنفسه [٥] ، والله أعلم .

الحديث الثالث : حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثنا سعيدُ المَقْبُري ، عن أبيه ، عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « ما من الأنبياء نبي إلا أُعْطِيَ ما مثلُه آمنَ عليه البشرُ ،

---

(١) عن البخاري .

(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٢٣ ـ ٢٢٤، وعلامات النبوة ٤/٢٥٠.

(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ١٩٠٦ .

(٤) أي: على هذه المنزلة.

(٥) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٤٠ .

وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[١].

ورواه أيضاً في كتاب الاعتصام[١]، عن عبد العزيز بن عبدالله. ومسلم النسائي. عن قُتَيْبة جميعاً، عن الليث بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، واسمه كيسان المقبُري، به[٢].

وفي هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أُعطِيَها نبيٌّ من الأنبياء ، وعلى كل كتاب أنزله ، وذلك أنَّ معنى الحديث ما من نبيٍّ إلا أُعطِيَ ، أي من المعجزات ، ما آمن عليه البشر ، أي : ما كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به ، واتَّبعه من اتَّبعه من البشر ، ثم لمّا مات الأنبياءُ لم تَبْقَ لهم معجزةٌ بعدهم إلاّ ما يحكيه أتباعهم عما شاهدوه في زمانه. وأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ـ ﷺ ـ فإنه كان معظم ما آتاه الله وحياً منه إليه، منقولاً إلى الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أُنْزِلَ. فلهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً». وكذلك وقع، فإنَّ أتباعه أكثرُ أكثرُ من أتباعِ الأنبياءِ، لعموم رسَالته ودَوَامِها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته. ولهذاقال تبارك وتعالى: ﴿ تبارك الذي نَزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[٤]؛ ثم تقاصر معهم إلى عَشْرِ سُوَرٍ منه فقال: ﴿ أم يقولون أفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[٥]، ثم تحدَّاهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا فقال: ﴿أم يقولون أفتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعُوا من استطعتم من دُونِ الله إن كنتُم صادقينَ﴾[٦]، وقصر التحدي على هذا المقام في السُّوَر[٧] المكية كما ذكرنا، وفي المدنية أيضاً كما في سورة البقرة حيث يقول تعالى: ﴿ وإن كنتم في رَيْبٍ مما نَزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتَّقُوا النارَ التي وقُودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّت للكافرينَ﴾[٨]، فأخبر أنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لا يفعلون ذلك في المستقبل أيضاً، هذا وهُم أفصَح الخلق، وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقَريضِ الكلام وضُرُوبه، لكِن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ من البشرِ به، من الكلام الفصيحِ البليغِ الوجيز، المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيب الماضية والآتيةَ والأحكام العادلة المحكمة كما قال تعالى: ﴿ وتَمَّت كلماتُ ربك صدقاً وعدلاً ﴾[٩].

وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن إسحاق قال : ذكر محمد بن كعب القُرَظِيّ، عن الحارث بن عبد الله الأعور قال : قلت : لآتيَنّ أمير المؤمنين فلأسألَنَّه عما سَمِعْتُ العشية . قال : فجئته بعد العشاء ، فدخلت عليه فذكر الحديث ، [قال[١٠]] ثم قال : سمعت

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٢٤ . والاعتصام ٩/١١٣ .
(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ١/١٣٤ .
(٣) أول سورة الفرقان .
(٤) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ١٣ من سورة هود .
(٦) الآية ٣٨ من سورة يونس .
(٧) في الأصل : السورة .
(٨) الآيتان ٢٣، ٢٤ من سورة البقرة.
(٩) من الآية ١١٥ من سورة الأنعام، و﴿كلمات﴾ ـ هكذا بالجمع ـ قراءة ابن كثير وأبي عمرو ونافع وابن عامر، انظر السبعة لابن مجاهد ٢٢٦ .
(١٠) عن المسند .

رسول الله - ﷺ - يقول : « أتاني جبريل فقال : يا محمد ، أمتك مختلفة بعدك . قال : فقلت له : فأين المخرج يا جبريل ؟ قال : فقال : كتاب الله ، به يَقْصِم الله كلَّ جبار ، من اعتصم به نجا ، ومن تَركَه هَلَكَ . مرتين ، قول فصل ، وليس بالهزل ، لا تُخْلِقُه الألْسُن ، ولا تَفْنَى عجائبُه ، فيه نَبأُ ما كان قبلكم ، وفصل ما بينكم ، وخبر ما هو كائن بعدكم »[١]. هكذا رواه الإمام أحمد .

وقال أبو عيسى الترمذيّ : حدثنا عَبْدُ بن حُمَيد ، حدثنا حُسَين بن علي الجُعْفي ، حدثنا حمزةُ الزياتُ ، عن أبي المختـار الطائيّ ، عن ابن أخي الحارث الأعور ، عن الحارثِ الأعور قال : مررتُ في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث ، فَدَخَلْتُ على عليٍّ فقلت : يا أمير المؤمنين ، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث ؟ قال : وقد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أما إنِّي سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ : « إنها ستكون فتنةٌ». فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نَبأُ ما قبلكم ، وخبَرُ ما بعدكم ، وحُكْمُ ما بينكم ، هو الفصلُ ليس بالهَزْلِ ، من تركه من جَبَّارٍ قَصَمه الله ، ومن ابتَغَى الهُدَى في غيره أَضَلَّه الله ، وهو حبلُ اللَّهِ المتينُ ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يَشْبَعُ منه العلماء ، ولا يَخْلُق عن كثرة الرَّدِّ[٢]، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذْ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ﴾ ، من قال به صدق ، ومن عمل به أُجِرَ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم » . خذها إليك يا أعور[٣].

ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات ، وإسنادُه مجهول ، (و) في حديث الحارث مقال .

قلت : لم ينفرد بروايته حمزةُ بن حبيب الزياتُ ، بل قد رواه محمد بن إسحاقَ ، عن محمد بن كعب القُرَظِي ، عن الحارث الأعور ، فبرىءَ حمزةُ من عهدته ، على أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام في القراءة ؛ والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور ، وقد تكلموا فيه ، بل كَذَّبه بعضُهم من جهة رأيه واعتقاده ، أما أنه يتعمد الكذب في الحديث فلا ، والله أعلم .

وقُصَارَى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي - رضي الله تعالى عنه - وقد وَهِمَ بعضهُم في رفعه ، وهو كلام حسن صحيح . على أنه قد رُوِي له شاهدٌ عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي - ﷺ - قال الإمام العَلَم أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - في كتابه فضائل القرآن:

حدثنا أبو اليقظان عمار بن محمد الثوري أو غيرُه ، عن أبي إسحاقَ الهجَري ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي - ﷺ - قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، وهو النور المبين والشفاء النافع ، عِصْمةٌ لمن تَمسَّك به ونجاة لمن تَبعه ، لا يَعْوجُّ فيُقَوَّمَ ، ولا يزيغ فَيُسْتَعْتَبَ، ولا تَنْقَضِي عجائبه ولا يَخْلَقُ عن كَثْرة الرَّدِّ ، فاتْلُوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكُلِّ حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول لكم: الٓمٓ، ولكن ألِفٌ عَشْرٌ ، ولام عشر ، وميم عشر » .

---

(١) المسند ١/٩١ .

(٢) لا يَخْلَق : لا يبلى . والرد : التكرار . أي : لا تزول لذة قراءته وطراوة تلاوته من كثرة تكراره .

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب فضائل القرآن ٨/٢١٨ - ٢٢١ .

وهذا غريب من هذا الوجه ، قد رواه محمد بن فُضَيل، عن أبي إسحاق الهَجَري ـ واسمه إبراهيم بن مسلم ، وهو أحد التابعين ـ ولكن تكلموا فيه كثيراً . وقال أبو حاتم الرازي : ليِّنٌ ليس بقوي . وقال أبو الفتح الأزدي : رَفّاع كثير الوهم . قلت : فَيَحتمِلُ ـ والله أعلم ـ أن يكون وَهِمَ في رفع هذا الحديث ؛ وإنما هو من كلام ابن مسعود . ولكن له شاهد من وجه آخر ـ والله أعلم .

وقال أبو عُبَيدٍ أيضاً : حدثنا حجاج ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمٰن بن يَزِيدَ ، عن عبد الله بن مسعود قال : لا يَسْأَلُ عبد عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآنَ فإنه يحبُّ الله ورسوله .

الحديث الرابع : قال البخاري : حدثنا عَمْرُو بن محمد ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا أبي ، عن صالح بن كيسانَ ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرني أنس بن مالك أنَّ اللّهَ تابَعَ الوحْيَ على رسوله ـ ﷺ ـ قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحيُ . ثم تُوُفِّي رسول الله ـ ﷺ ـ بعدُ [١].

وهكذا رواه مسلم عن عمرو بن محمد هذا ـ وهو الناقد ـ وحسن الحُلْوَانِيّ ، وعبد بن حُمَيد ، والنسائي عن إسحاقَ بن منصور الكَوْسَج ، أَرْبعَتهُم عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري ، به [٢]. ومعناه أن الله تعالى تابع نزول الوحي على رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً بعد شيء كلّ وقت بما يحتاج إليه ، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التي كانت بعد نزول الملك أول مَرَّة بقوله : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾، فإنه استلبث الوحيُ بعدها حيناً ـ يقال قريباً من سنتين أو أكثر ـ ثم حَمِي الوحيُ وتتابع ، وكان أول شيء نزل بعد تلك الفترة : ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾ [٢].

الحديث الخامس : حدثنا أبو نُعيم ، حدثنا سفيان ، عن الأسود بن قيس قال : سَمِعْتُ جُنْدَباً يقولُ : اشتكى النبيُّ ـ ﷺ ـ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتته امرأةٌ فقالت : يا محمد ، ما أُرَى شيطانَكَ إلا تَرَكَكَ . فأنزل الله تعالى : ﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما وَدَّعك ربك وما قلى﴾[٣].

وقد رواه البخاري في غير موضع أيضاً [٣]، ومسلم والترمذي والنسائي ، من طرق أُخَرَ ، عن سفيان ـ وهو الثوري ـ وشعبة بن الحجاج ، كِلاهما عن الأسود بن قيس العَبْدِي ، عن جُنْدَب بن عبد الله البَجَلِيِّ ، به . وسيأتي الكلام [٤] على هذا الحديث في تفسير سورة الضحى ـ إن شاء الله تعالى . والمناسبة في ذكر هذا الحديث والذي قبله في فضائل القرآن : أن الله تعالى له برسوله عنايةٌ عظيمةٌ ، ومحبة شديدة ، حيث جعل الوحي متتابعاً عليه ، ولم يقطعه عنه ، ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مُفَرَّقاً ليكون ذلك أبلغ في العناية والإكرام .

ـ ٢ ـ
[القرآن بلسان قريش والعرب]

قال البخاري ـ رحمه الله ـ: نَزَلَ القرآن بلسان قريش والعربِ، قرآناً عربياً بلسان عربي مبين .

---

(١) البخاري ، كتاب الفضائل ٦/٢٢٤ .

(٢) مسلم ، كتاب التفسير ٢٣١٢ .

(٣) البخاري ، كتاب الفضائل ٦/٢٢٤ ، وتفسير سورة الضحى ٦/٢١٣ ، وكتاب التهجد ، باب ترك القيام للمريض ٢/٦٢ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب ما لقي النبي ـ ﷺ ـ من أذى المشركين والمنافقين ١٤٢١ ـ ١٤٢٢ ، وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة الضحى ٩/٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٤) في فضائل القرآن المطبوعة : « وقد تقدم الكلام . . . » .

حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شُعَيب (١)، عن الزهري ، أخبرني (٢) أنس بن مالك قال : فأمر عثمانُ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ زيدَ بن ثابتٍ وسعيدَ بن العاص ، وعبد الله بن الزُّبَير ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، أن ينسَخُوها في المصاحف ، وقال لهم : إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربية من عربية القرآنِ فاكتبوها بلسان قريش ، فإن القرآن أُنْزِلَ بلسانهم . ففعلوا (٣).

هذا الحديث قطعة من حديث سيأتي قريباً الكلامُ (٤) عليه ، ومقصود البخاري [منه] (٥) ظاهر ، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش ، وقريش خلاصةُ العَرَب ، ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود :

حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد ، حدثنا يزيد ، حدثنا شيبان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سَمُرة قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لا يُمْلِينَّ أحد (٦) في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش ، أو غلمان ثقيف (٧)، وهذا إسناد صحيح .

وقال أيضاً : حدثنا إسماعيل بن أسد ، حدثنا هَوذَة، حدثنا عوف، عن عبد الله بن فضالة قال : لما أراد عُمَر أن يكتب الإمام (٨) أقعد له نفراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر(٧) ـ ﷺ ـ وقد قال الله تعالى: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾(٩)، وقال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين ﴾(١٠). وقال تعالى : ﴿ وهذا لسان عربي مبين ﴾(١١)، وقال تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي ﴾(١٢)الآية . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك .

ثم ذكر البخاري ـ رحمه الله ـ حديث يَعْلَى بن أمية أنه كان يقول : ليتني أرى رسول الله ـ ﷺ ـ حين يُنْزَل عليه [الوحي](١٣) . فذكر الحديث الذي سأل عمن أحرم (١٤)بعمرة وهو مُتَضَمِّخ بطيب ، وعليه جبة قال : فنظر رسول الله ـ ﷺ ـ ساعة(١٥) ثُمَّ فَجـأَهُ الوحي ، فأشار عمر إلى يعلَى أي : تعال . فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا هو مُحْمَرُّ الوجهِ يَغِطّ كذلك ساعة ، ثم سرى عنه ، فقال : أين الذي سألني عن العمرة آنفاً ؟ فذكر أنه أمره بنزع الجبة وغسل الطيب . وهذا الحديث رواه الجماعةِ من طرق عديدة ، والكلام عليه في كتاب الحج ، ولا تظهر

(١) في الأصل : سفيان .
(٢) في البخاري : وأخبرني . وفي نسخة : فأخبرني .
(٣) البخاري ، كتاب الفضائل ٦/٢٢٤ .
(٤) في الأصل : والكلام .
(٥) عن مطبوعة الفضائل .
(٦) ليست في كتاب المصاحف .
(٧) كتاب المصاحف ١١ .
(٨) في الأصل : أن يكتب المصاحف ـ والمثبت من كتاب المصاحف .
(٩) الآية ٢٨ من سورة الزمر.
(١٠) الآيات ١٩٢ ـ ١٩٥ من سورة الشعراء .
(١١) الآية ١٠٣ من سورة النحل .
(١٢) الآية ٤٤ من سورة فصلت .
(١٣) عن البخاري ٦/٢٢٥ .
(١٤) في الأصل : أخبره .
(١٥) لفظ البخاري : « . . . ساعةً فجاءه الوحي » .

مناسبة ما بينه وبين هذه الترجمة، ولا يكاد، ولو ذُكِر في الترجمة التي قبلها لكان أظهر وأبين ، والله تعالى أعلم .

- ٣ -

جمع القرآن

قال المؤلف - رحمه الله - فيما وجد على ظهر الجزء الأول من تفسيره : فائِدَةٌ جَلِيلَةٌ حَسَنَةٌ . ثبت في الصحيحَين عن أنس - رضي الله عنه - قال : جَمَع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة كلهم من الأنصار : أُبَيُّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، فقيل له : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي . وفي لفظٍ للبخاريِّ عن أَنَسٍ قال : ماتَ النبيُّ ﷺ ولم يجمع القرآن غيرُ أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، ونحن ورثناه [١].

قلت : أبو زيد هذا ليس بمشهور لأنه مات قديماً ، وقد ذكروه في أهل بدر ، وسماه بعضهم سعيد [٢] بن عبيد . ومعنى قول أنس : ولم يجمع القرآن ، يعني من الأنصار سوى هؤلاء ، وإلا فمن المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن كالصِدِّيق ، وابن مسعود ، وسالم مولى أبي حُذَيفة وغيرهم .

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري - رحمه الله -: قد عُلِم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ قَدَّم أبا بكر في مرض الموت ليصلي بالناس ، وقد ثبت في الخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ قال : « ليؤمَّ القوم أقرؤهم » [٣]. فلو لم يكن الصديق أقرأ القوم لما قدمه عليهم . نقله أبو بكر بن زَنْجُويه في كتاب فضائل الصديق عن الأشعري .

وحكى القرطبيُّ في أوائل تفسيره عن القاضي أبي بكر الباقلَّاني أنه قال ، بعد ذكره حديث أنس بن مالك هذا : فقد ثبت بالطريق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلي وتَمِيم الداريُّ وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقول أنس: لم يجمعه غير أربعة، يَحْتَمِلُ أنه لم يأخذه تَلَقِّياً مِن في رسول الله - ﷺ - غير هؤلاء الأربعة ، وإن بعضهم تلقى بعضه عن بعض . قال : وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام وإعظام الرسول لهم . قال القرطبي : لم يذكر القاضي ابنَ مسعود وسالماً مولى أبي حذيفة ، وهما ممن جمع القرآن . آخر الفائدة .

حدثنا [٤] موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن عُبَيدِ بن السَّبَّاقِ : أن زيد بن ثابت قال : أرسل إليّ أبو بكر مَقْتَلَ أهلِ اليمامة فإذا عُمَرُ بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر بن الخطاب أتاني فقال : إن القتل قد استحرّ بقُرَّاءِ القرآن وإني أخشى أن يَسْتَحِرَّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعُمَرَ : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا[٥] - والله - خير. فلم يزل عُمَرُ يُراجِعُني حتى شَرَح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٠.
(٢) يقال له أيضاً : سعدٌ . انظر أسد الغابة ٢/٣٥٩.
(٣) البخاري ، كتاب الأذان ١/١٧٨.
(٥)هذا حديث للبخاري ، وسنخرجه بعدُ .
(٦)في الأصل : « والله هذا خير » . والمثبت عن البخاري .

الوحي لرسول الله ـ ﷺ ـ فتتبّع القرآن فاجمَعْه. فواللّه لو كلّفوني نَقْلَ جَبَلٍ من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جَمْعِ القرآن . قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير . فلم يزل أبو بكر يُرَاجعني حَتّى شرح الله صدري للذي شَرَحَ له صدر أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فتتبَّعْتُ القرآن أجمعه من العُسُب[١] واللِّخاف وصُدُورِ الرِّجال ، ووجدت[٢] آخر سورة التوبة مع أبي خُزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثُمَّ عند عمر حياتَه ، ثم عند حفصةَ بِنْتِ عمر ـ رضي الله عنهم ـ[٣].

وقد روى البخاري هذا الحديث في غير موضع من كتابه[٤]. ورواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي ، من طرق ، عن الزهري ، به[٥].

وهذا من أحسنِ وأجلِّ وأعظمِ ما فعله الصديق ـ رضي الله عنه ـ فإنه أقامه الله بعد النبيِّ ـ ﷺ ـ مُقاماً لا ينبغي لأحد من بعده ، قاتل الأعداء من مانعي الزكاة والمرتدِّين والفرسِ والروم ، ونفَّذ الجيوش ، وبعث البعوث والسرايا، وردَّ الأمر إلى نصَابه بعد الخَوْفِ من تَفرُّقه وذَهَابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكن القارىء من حفظه كُلِّه . وكان هذا من سر قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٦]. فجمع الصديق الخير ، وكشف الشر ، رضي الله عنه . ولهذا روى غيرُ واحدٍ من الأئمةِ ، منهم وكيعٌ ، وابن مهدي ، وقَبيصَة عن سفيان الثوري ، عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن عَبْدِ خيرٍ، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كانَ أول من جمع القرآن بين اللوحين. هذا إسناد صحيح.

وقال أبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف : حدثنا هارون ابن إسحاق ، حدثنا عَبْدَةُ[٧]، عن هشام ، عن أبيه : أن أبا بكر هو الذي جمع القرآن بعد النبي ـ ﷺ ـ يقول : ختمه[٨]. صحيح أيضاً .

وكان عمر بن الخطاب هو الذي تنبّه لذلك لما استحرَّ القتل بالقراء، أي: اشتد القتل، وكثُر في قراء القرآن يوم اليمامة ، يعني يوم قتال مسيلمة الكذاب وأصحابه من بني حَنِيفَة بأرض اليمامة في حديقة الموت ، وذلك أن مسيلمة التف معه من المرتدين قريب من مائة ألف ، فجهز الصديق لقتاله خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ في قريب من ثلاثة[٩] عشر ألفاً ، فالتقوا بهم ، فانكشف الجيش الإسلامي لكثرة من فيه من الأعراب ، فنادى القراء من كبار الصحابة : يا خالد أخلصنا ، يقولون : مَيِّزنا من هؤلاء الأعراب . فَمُيِّزُوا منهم وانفردوا فكانوا قريباً من ثلاثة آلاف ، ثم صَدَقُوا الحملةَ وقاتلوا قتالاً شديداً وجعلوا يتنادون : يا أصحاب سورة البقرة . فلم يزل ذلك دأبَهم حتى فَتَحَ الله عليهم ، وولّى جيشُ الكفرِ فاراً ، واتبعتهم السيوف المسلمة في أقفيتهم قتلاً

(١) العُسُب ـ بضمتين ـ: جمع عَسِيب ، وهي السَّعَفَة مما لا ينبتُ عليه الخوصُ . واللِّخاف : حجارة بيضٌ عريضة رقاق ، واحدتها : لَخْفَة.

(٢) في البخاري : « حتى وَجَدْت ».

(٣) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٤) انظر كتاب الأحكام ٩/٩٢ ـ ٩٣، وتفسير سورة براءة ٦/٨٩ ـ ٩٠.

(٥) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة التوبة ٨/٥١١ ـ ٥١٦. ومسند الإمام أحمد ١/١٣، ٥/١٨٨.

(٦) الآية ٩ من سورة الحجر .

(٧) في الأصل : عبيدة . وعبدة هو ابن سليمان الكلابي أبو محمد الكوفي . روى عن هشام بن عروة . انظر تهذيب التهذيب ٦/٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٨) في الأصل : حديثه وانظر الأثر في كتاب المصاحف ٦.

(٩) الأصل : ثلاث .

وأسراً ، وقتل الله مسيلمة ، وفَرَّقَ شمل أصحابه ثم رجعوا إلى الإسلام ، ولكن قُتِل من القراء يومئذ قريبٌ من خَمْسِمائةٍ ـ رضي الله عنهم ـ فلهذا أشار عمر على الصديق بأن يجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك في مواطن القتال ، فإذا كُتِبَ وحُفِظَ صار ذلك محفوظاً ، فلا فَرْقَ بين حياةِ من بَلَّغَه أو مَوْتِهِ ، فراجعه الصديق قليلاً ليتثبت في الأمر ثم وافقه ، وكذلك راجعهما زيد بن ثابت في ذلك ، ثم صار إلى ما رأياه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وهذا المقام من أعظم فضائل زيد بن ثابت الأنصاري ، ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود :

حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد ، حدثنا يزيد ، حدثنا مبارك بن فضالة ، عن الحسن [١] أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله فقيل : كانت مع فلان فَقُتِل يوم اليمامة . فقال : إنا لله ، فأمر بالقرآن فجمع ، فكان أول من جمعه في المصحف [٢].

هذا منقطع فإن الحسن لم يدرك عُمَرَ ، ومعناه أنه أشار بجمعه فَجُمِع . ولهذا كان مهيمناً على حفظه وجمعه، كما رواه ابن أبي داود حيث قال:

حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، حدثنا عُمَر[٣] بن طلحة الليثي، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمٰن بن حاطب أن عمر لما جمع القرآن كان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان[٢]. وذلك عن أَمْرِ الصديق له في ذلك كما قال أبو بكر بن أبي داود.

حدثنا أبو الطّاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزِّنَادِ، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: لما استحرَّ القتل بالقراء يومئذ فَرِقَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أن يضيع، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه. منقطع حسن[٤].

ولهذا قال زيد بن ثابت: وجدت آخر سورة التوبة ـ يعني قوله تعالى : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخر الآيتين ـ مع أبي خُزَيمة الأنصاري ـ وفي رواية : مع خزيمة بن ثابت[٥] الذي جعل رسول الله ـ ﷺ ـ شهادته بشهادتين، لم أجدها مع غيره فكتبوها عنه لأنه جعل رسول الله ـ ﷺ ـ شهادته بشهادتين في قصة الفَرَس التي ابتاعها رسول الله ـ ﷺ ـ من الأعرابي، فأنكر الأعرابي البيع، فشهد خزيمة هذا بتصديق رسول الله ـ ﷺ ـ فأمضى شهادته وقبض الفرس من الأعرابي. والحديث رواه أهل السنن، وهو مشهور[٦].

وروى أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أبي العالية أن أُبَيّ بن كعب أملاها عليهم مع خزيمة بن ثابت[٧]. وقد روى ابن وهب، عن عُمَر[٨] بن طلحة الليثي ، عن محمد بن عمرو بن علقمة ، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عثمان شهد بذلك أيضاً[٢].

(١) في كتاب المصاحف : الحسين . ومبارك بن فضالة ، يروي عن الحسن البصري ، انظر تهذيب التهذيب ٢٨/١٠ .

(٢) كتاب المصاحف ١٠ .

(٣) في الأصل : عمرو . والمثبت عن كتاب المصاحف ، وتهذيب التهذيب ٤٦٦/٧ .

(٤) كتاب المصاحف ٦ .

(٥) البخاري ، تفسير سورة براءة ٨٩/٦ ـ ٩٠ . وانظر أسد الغابة ٩٠/٦ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الأقضية ٣٠٨/٣ ، والنسائي ، كتاب البيوع ٣٠١/٧ ـ ٣٠٢ ، ومسند أحمد ٢١٥/٥ ـ ٢١٦ ، وأسد الغابة ١٢٣/٢ .

(٧) مسند أحمد ١٣٤/٥ .

(٨) الأصل : عمرو . وقد نبهنا على ذلك من قريب .

وأما قول زيد: فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال. وفي رواية: من العُسُب والرِّقاع[(١)] والأضلاع، وفي رواية: من الأكتاف والأقتاب وصدور الرجال. أما العُسُب فجمع عسيب، قال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: وهو من السعف فُوَيق الكَرَب لم ينبت عليه الخوص، وما نبت عليه الخوصُ فهو السَّعَفُ.

واللِّخاف: جمع لَخْفَةٍ، وهي القطعة من الحجارة مستدِقة كانوا يكتبون عليها وعلى العُسُب وغير ذلك مما يمكنهم الكتابة عليه مما يناسب ما يسمعونه من القرآن من رسول الله ﷺ.

ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثِقُ[(٢)] بحفظه فكان يحفظه، فتلقاه زيد بن ثابت من هذا من عَسِيبه، ومن هذا من لِخافه، ومن صدر هذا، أي: من حفظه، وكانوا أحرص شيء على أداء الأمانات، وهذا أعظم الأمانة، لأن رسول الله ﷺ أودعهم ذٰلك ليبلِّغوه إلى مَن بعده كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ﴾[(٣)]، ففعل - صلوات الله وسلامه عليه - ما أُمِرَ به، ولهذا سألهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد، والصحابةُ أوفرُ ما كانوا مجتمعين فقال: إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟ فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجعل يشير بإصبعه إلى السماء ويَنْكُبُها[(٤)] عليهم ويقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد. رواه مسلم، عن جابر[(٥)]. وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب. وقال: «بلِّغوا عنِّي ولو آيةً»[(٦)] - يعني ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فَلْيُؤَدِّها إلى مَنْ وراءَه - فبلَّغوا عنه ما أمرهم به فأدَّوُا القرآن قرآناً والسنة سنة، لم يلبسوا هذا بهذا. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كتب عني سوى القرآن فَلْيَمْحُه»[(٧)]. أي لئلا يختلط بالقرآن، وليس معناه ألَّا يحفظوا السنة ويرووها - والله أعلم -.

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أداه الرسول ﷺ إليهم إلَّا وقد بلغوه إلينا، ولله الحمد والمنة، فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حِفظهما كتاب الله في الصُّحُف[(٨)] لئلا يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده فكانت عنده محروسةً معظمة مكرمة، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين - رضي الله عنها - لأنها كانت وصيته من ولده على أوقافه وتركته، وكانت عند أم المؤمنين حتى أخذها منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال البخاري - رحمه الله -: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حُذَيفة بن اليمان قدم على عثمان - وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزعَ حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حُذَيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن

---

(١) في الأصل: «في الرقاع».
(٢) في الأصل: أوثق.
(٣) الآية ٦٧ من سورة المائدة.
(٤) أي: يُميلها إليهم، يريد بذلك أن يشهد الله عليهم.
(٥) كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ.
(٦) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢٠٧/٤.
(٧) مسلم، كتاب الزهد ٢٢٩٩.
(٨) الأصل: المصحف.

يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهودِ والنصارى . فأرسلَ عثمانُ إلى حفصةَ أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردُها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزُّبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما أنزل بلسانهم . ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصُّحُفَ إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفقٍ بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرَقَ . قال ابن شهاب الزهري : فأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت [سمع زيد بن ثابت] (١) قال : فَقَدْتُ آيةً من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ـﷺـ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خُزيمة بن ثابت الأنصاري : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾، فألحقناها في سورتها في المصحف(٢).

وهذا أيضاً من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء ، وهو جمع الناس على قراءة واحدة لئلا يختلفوا في [القرآن ، ووافقه على ذلك جميع الصحابة . وإنما رُوي عن عبد الله بن مسعود شيء من التغضب بسبب] (٣) أنه لم يكن ممّن كتب المصاحف ، وأمر أصحابه بغَلِّ (٤) مصاحفهم لما أمر عثمان بحرق ما عدا المصحف الإمام ، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق ، حتى قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا . فاتفق [الأئمة (٣)] الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ على أن ذلك من مصالح الدين ، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله ـﷺـ: « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » (٥). وكان السبب في هذا حُذَيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ فإنه كان غازياً في أرمينية وأذربيجان ، وكان قد اجتمع هناك أهل الشام والعراق ، وجعل حُذَيفة يسمع منهم قراءاتٍ على حروف شتى، ورأى منهم اختلافاً وافتراقاً؛ فلما رجع إلى عثمان أعلمه ، وقال لعثمان : أَدْرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . وذلك أن اليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب، فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة، والسامرة يخالفونهم في ألفاظٍ كثيرة ومعان أيضاً، وليس في توراة السامرة حرف الهمزة ولا حرف الهاء ولا حرف الياء، والنصارى أيضاً بأيديهم توراة يسمونها العتيقة، وهي مخالفة لنسختي اليهود والسامرة، وأما الأناجيل التي بأيدي النصارى فأربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل متى، وإنجيل يحيى، وهي مختلفة أيضاً اختلافاً كثيراً. وهذه الأناجيل الأربعة كل منها لطيف الحجم، منها ما هو قريب من أربع عشرة ورقة بخط متوسِّط، ومنها ما هو أكثر من ذلك إما بالنصف أو الضعف، ومضمونها سيرة عيسى وأيامه وأحكامه وكلامه، وفيه شيء قليل مما يدعون أنه كلام الله، وهي مع هذا مختلفة كما قلنا، وكذلك التوراة مع ما فيها من التبديل والتحريف، ثم هما منسوخان بعد ذلك بهذه الشريعة المحمدية المطهرة. فلما قال حذيفة لعثمان ذلك أفزعه، وأرسل إلى حفصة أم المؤمنين

---

(١) عن البخاري .

(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٢٥ ـ ٢٢٧ .

(٣) عن الطبعة السابقة .

(٤) الأصل : بغسل . والمثبت عن الطبعة السابقة ، وانظر الآثار التالية .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب السنة ٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠١ ، وتحفة الأحوذي ، أبواب العلم ٧/٤٣٨ ـ ٤٤٢ ، وابن ماجه ، المقدمة ١٥ ـ ١٦ ، ومسند الإمام أحمد ٤/ ١٢٦ ، ١٢٧ .

أن تُرسِلَ إليه بالصُّحُفِ التي عندها مما جمعه الشيخان ليكتب ذلك في مصحف واحد، وينفذه إلى الآفاق، ويجمع الناس على القراءة به وتَرْكِ ما سواه، ففعلت حفصة، وأَمر عثمان هؤلاء الأربعة، وهم زيد بن ثابت الأنصاري أحد كُتَّاب الوحي لرسول الله - ﷺ - وعبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أحد فقهاء الصحابة ونجبائهم علماً وعملاً وأصلاً وفضلاً، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي، وكان كريماً جواداً ممدَّحاً، وكان أشبه الناس لهجة برسول الله - ﷺ - وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم القرشي المخزومي؛ فجلس هؤلاء النفر يكتبون القرآن نسخاً، وإذا اختلفوا في وضع الكتابة على أيِّ لغةٍ رجعوا إلى عثمان، كما اختلفوا في التابوت أيكتبونه بالتاء أو الهاء، فقال زيد بن ثابت: إنما هو التابوه. وقال الثلاثة القرشيون: إنما هو التابوت. فترافعوا إلى عثمان فقال: اكتبوه بلغة قريش فإن القرآن نزل بلغتهم[1].

وكان عثمان - والله أعلم - رتب السور في المصحف، وقدم السبع الطُّوَل وثَنَّى بالمئين. ولهذا روى ابن جرير وأبو داود والترمذي من حديث غير واحد من الأئمة الكبار، عن عوف الأعرابي، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أَنْ عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمٰن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطُّوَل؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ ممّا[2] يأتي عليه الزّمان وهو ينزل عليه السُّور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات فى السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. فإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحُسِبت أنها منها، وقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يُبيِّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قَرَنْتُ بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمٰن الرحيم، فوضعتها في السبع الطُّوَل[3].

فَفُهِمَ من هذا الحديث أَنَّ ترتيب الآيات في السور أَمْرٌ توقيفي مُتَلَقَّى عن النبي ﷺ وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان - رضي الله عنه - ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلّا مرتباً آياته، فإن نَكَّسَه أخطأ خطأً كبيراً. وأما ترتيب السور فمستحب اقتداء بعثمان - رضي الله عنه - والأولى إذا قرأ أن يقرأ متوالياً كما قرأ - عليه الصلاة والسلام - في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، وتارة بسبِّح وهل أتاك حديث الغاشية، فإن فرق جاز كما صح أن رسول الله ﷺ قرأ في العيد بـ: قٓ واقتربتِ الساعةُ. رواه مسلم[4] عن أبي واقدٍ[5]. وفي الصحيحين عن أبي هُرَيرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: الٓمٓ السجدة، وهل أتى على الإنسان. وإن قَدَّم بعض السُّوَرِ على بعض جاز أيضاً؛ فقد روى حذيفة أن رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران، أخرجه مسلم. وقرأ عمر في الفجر بسورة النحل ثم بيوسف. ثم إنَّ عثمان رد الصحف إلى حفصة فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مَرْوان بن الحكم يطلبها فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها لئلا يكون فيها شيء يخالف المصاحف التي نفذها عثمان إلى الآفاق، مصحفاً إلى مكة، ومصحفاً إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن،

(١) انظر كتاب المصاحف ١٩.

(٢) أي: ربما.

(٣) تفسير الطبري ١/٤٥، وتحفة الأحوذي، تفسير سورة براءة ٨/٤٧٧ - ٤٨٠. والمصاحف لأبي بكر ٣١ - ٣٢.

(٤) مسلم، كتاب صلاة العيدين ٦٠٧.

(٥) في الأصل: قتادة.

وآخر إلى البحرين ، وترك عند أهل المدينة مصحفاً. رواه أبو بكر بن أبي داود، عن أبي حاتم السجستاني، سمعه يقوله [١]. وصَحَّح القرطبي أنه إنما نَفَذَ إلى الآفاق أربعة مصاحف . وهذا غريب . وأمر بما عدا ذلك من مصاحف الناس أن يحرق لئلا تختلف قراءات الناس في الآفاق ، وقد وافقه الصحابة في عصره على ذلك ، ولم ينكره أحد منهم ، وإنما نَقِمَ عليه ذلك أولئك الرهط الذين تمالئوا عليه وقتلوه ـ قاتلهم الله ـ وذلك في جملة ما أنكروا مما لا أصل له ، وأما سادات المسلمين من الصحابة ومن نشأ في عصرهم ذلك من التابعين فكلهم وافقوه. قال أبو داود الطيالسي وابن مهدي وغُنْدَر عن شعبة ، عن علقمة بن مَرْثَد ، عن رجل ، [عن] [٢] سُوَيد بن غَفَلَة ، قال عليٌّ حين حَرَّقَ عثمانُ المصاحف : لو لم يصنعه هو لصنعتُه .

وقال أبو بكر بن أبي داود : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمٰن ، حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق [٣]، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك. أو قال[٤]: لم ينكر ذلك منهم أحد [٥]. وهذا إسناد صحيح .

وقال أيضاً : حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف ، حدثنا يحيى بن كثير ، حدثنا ثابت بن عمارة الحنفي : سمعت غُنَيم بن قيس المازني قال : قرأت القرآن على الحرفين جميعاً ، والله ما يسرني أن عثمان لم يكتب المصحف ، وأنه وُلِدَ لكل مسلم كلما أصبح غلام فأصبح له مثل ما له . قال : قلنا له : يا أبا العَنْبَر ، لم ؟ قال : لو لم يكتب عثمان المصحف [٦] لطفق الناس يقرأون الشعر[٥].

حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا محمد بن عبد الله ، حدثني عمران بن حُدَيرٍ ، عن أبي مِجْلَزٍ قال : لولا أن عثمان كتب القرآن لألفيت الناس يقرأون الشعر[٥].

حدثنا أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدي يقول : خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر، صَبْرُه نفسَه حتى قُتِل مظلوماً، وجَمْعُه الناس على المصحف[٥].

وأما عبد الله بن مسعود فقد قال إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن حُمَيدٍ بن مالك قال : لما أمر عثمان بالمصاحف ـ يعني بتحريقها ـ ساء ذلك عبد الله بن مسعود وقال : من استطاع منكم أن يَغُلَّ مصحفاً فَلْيَغْلُلْ ، فإنه[٧] من غَلَّ شيئاً جاء بما غل يوم القيامة[٨].

ثم قال عبد الله : لقد قرأت القرآن من في رسول الله ـ ﷺ ـ سبعين سورةً، وزيدٌ صبي ، أفأترك ما أخذت من [في] [٩] رسول الله ﷺ[٨]؟

وقال أبو بكر : حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان ، حدثنا سعيد بن سلمان ، حدثنا أبو شهاب ، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: خَطَبَنا ابنُ مسعود على المنبر فقال: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ غُلُّوا

(١) المصاحف ٣٤.
(٢) سقط من الأصل .
(٣) في الأصل : عن أبي الضحى .
(٤) في كتاب المصاحف : وقال .
(٥) المصاحف ١٣ .
(٦) في الأصل : المصاحف .
(٧) في الأصل : وإنه .
(٨) المصاحف ١٥ .
(٩) عن المصاحف.

مصاحفكم ، وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت؟ وقد قرأت مِنْ فِي رسول الله ـ ﷺ ـ بضعاً وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت [ليأتي][1] مع الغلمان له ذؤ ابتان ، والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أيِّ شيء نزل ، وما أحد أعلم بكتاب الله مني ، وما أنا بخيركم ، ولو أعلم مكاناً[2] تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيته . قال أبو وائل : فلما نزل عن المنبر جلست في الحَلَق فما أحد ينكر ما قال[3].

أصلُ هذا مُخَرَّج في الصحيحين . وعندهما : ولقد علم أصحاب محمد أني من أعلمهم بكتاب الله .

وقولُ[4] أبي وائل: فما أحد ينكر ما قال، يعني من فضله وعلمه وحفظه والله أعلم. وأما أمره بغَلّ المصاحف وكتمانها فقد أنكره عليه غير واحد . قال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة قال : قَدِمْتُ الشامَ فلقيت أبا الدرداء فقال : كنا نعدُّ عبد الله جباناً فما باله يواثب الأمراء؟!.

وقال أبو بكر بن أبي داود : باب رِضَى عبد الله بن مسعود بجمع عثمان المصاحف بعد ذلك :

حدثنا عبد الله بن سعيد ومحمد بن عثمان العجلي قالا : حدثنا أبو أسامة ، حدثني زهير ، حدثني الوليد بن قيس ، عن عثمان بن حسان العامري ، عن فُلْفُلَةَ الجُعفِيِّ قال : فَزعت فيمن فَزِع إلى عبد الله في المصاحف ، فدخلنا عليه ، فقال رجل من القوم : إنا لم نأتك زائرين وتكنا جئنا حين راعنا هذا الخبرُ . فقال : إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب ، على سبعة أحرف ـ أو حروف ـ وإن الكتاب قبلكم كان ينزل ـ أو نزل ـ من باب واحد ، على حرف واحد[5].

وهذا الذي استدل به أبو بكر ـ رحمه الله ـ على رجوع ابن مسعود ، فيه نظر من جهة أنه لا يظهر من هذا اللفظ رجوع عما كان يذهب إليه ، والله أعلم .

وقال أبو بكر أيضاً : حدثنا عمـي ، حدثنا أبو رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن مصعب بن سعد قال : قام عثمان فخطب الناس ، فقال : أيها الناس ، عهدكم بنبيِّكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن ، وتقولون : قراءة أبي وقراءة عبد الله ، يقول الرجل : والله ما تقيم قراءتك ، وأَعْزِمُ على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لَمَّا جاء به . فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم : لَسَمِعْتَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهو أَمَلَّهُ عليك؟ فيقول : نعم ، فلما فرغ من ذلك عثمان قال : مَن أَكْتَبُ الناس؟ قالوا : كاتب رسول الله ـ ﷺ ـ زيدُ بنُ ثابت . قال : فأيُّ الناس أعربُ ؟ قالوا : سعيد بن العاص . قال عثمان : فَلْيُمْلِ سعيد وليَكْتُبْ زيد . فكتب زيد مصاحف[6] فَفَرَّقها في الناس ، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : قد أحسن[7].

إسناد صحيح .

وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن كثيرِ بن أفلَحَ قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش

---

(١) عن المصاحف .

(٢) كذا في الأصل وكتاب المصاحف . وقد ثبت فوقه في الأصل : أحداً .

(٣) كتاب المصاحف ١٥ ـ ١٦ .

(٤) في الأصل : « وقال أبي » . ثم عُدِّل « أبي » إلى « أبو » .

(٥) كتاب المصاحف ١٨ .

(٦) في كتاب المصاحف : « وكتب مصاحف » .

(٧) كتاب المصاحف ٢٣ ـ ٢٤ .

والأنصار، فيهم أُبَيُّ بن كعب وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الرَّبْعَةِ التي في بيت عُمَرَ فجيء بها. قال[١]: وكان عثمان يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارءوا [٢] في شيء أخَّروه، قال محمد: فقلت لكثير ـ [وكان فيهم فيمن يكتب ـ: هل تدرون لِمَ كانوا يؤخرونه؟ قال: لا. قال محمد: فظننتُ إنما كانوا يؤخرونها] [٣] لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله[٤]. صحيح أيضاً.

قلت : الرَّبْعَةُ هي الكتب المجتمعة ، وكانت عند حفصة ـ رضي الله عنها ـ فلما جمعها عثمان ـ رضي الله عنه ـ في المصحف ، رَدَّها إليها ، ولم يُحَرِّقها في جملة ما حرَّقهُ مما سواها إلا أنها هي بعينها الذي [٥] كتبه ، وإنما رَتَّبه . ثم إنه كان قد عاهدها على أن يردها إليها فما زالت عندها حتى ماتت ، ثم أخذها مروان بن الحكم فحرَّقها ، وتأول في ذلك ما أوَّل عثمان كما رواه أبو بكر بن أبي داود :

حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني سالم بن عبد الله : أن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصُّحُفَ التي كُتِب منها القرآن ، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها . قال سالم : فلما تُوُفِّيت حفصة ورجعنا من دَفْنِهَا أرسل مَرْوَانُ بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ لَيُرسِلَنَّ [إليه] [٦] بتلك الصحف . فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر ، فأمر بها مروان فَشُقِّقَتْ ، وقال مروان : إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف ، فَخَشِيتُ إن طال بالناس زمانٌ أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتابٌ ، أو يقول : إنه قد كان شيء منها لم يكتب [٧]. إسناد صحيح .

وأما ما رواه الزُّهرِيُّ عن خارجة عن أبيه في شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إياها في سورتها [٨]، فذِكْرُه لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر ، وإنما هذا كان حالَ جَمْعِ الصديق الصحفَ، كما جاء مصرَّحاً به في غير هذه الرواية عن الزهري ، عن عبيد بن السباق ، عن زيد بن ثابت [٩]، والدليل على ذلك أنه قال : « والحقناها في سورتها من المصحف ». وليست هذه الآية ملحقة في الحاشية في المصاحف العثمانية . فهذه الأفعال[١٠] من أكبر القربات التي بادر إليها الأئمة الراشدون أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ حَفِظا على الناس القرآن وجمعاه لئلا يذهب منه شيء ، وعثمان ـ رضي الله عنه ـ جمع قراءات الناس على مصحف واحد، ووضعه على العَرْضَةِ الأخيرة التي عارض بها جبريلُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في آخر رمضان من عمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنه عارضه [به][١١] عامئذٍ[١٢] مرَّتين، ولهذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ لفاطمة ابنتهِ لما مَرِض: «وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجَلي ». أخرجاه في الصحيحين . وقد روي أن علياً ـ رضي الله عنه ـ أراد أن يجمع القرآن بعد رسول الله ـ ﷺ ـ مُرَتَّباً بحسب نزوله أولاً فأولاً ، كما رواه ابن أبي داود حيث قال :

(١) في الأصل: « وقال : كان ».
(٢) في الأصل : بدءوا .
(٣) عن كتاب المصاحف .
(٤) كتاب المصاحف ٢٥ ـ ٢٦ .
(٥) في الأصل : التي .
(٦) عن كتاب المصاحف .
(٧) كتاب المصاحف ٢٤ ـ ٢٥ .
(٨) كتاب المصاحف ١٩ .
(٩) كتاب المصاحف ٧ ـ ٨ .
(١٠) الأصل : الآيات . والمثبت عن الطبعة السابقة .
(١١) عن الطبعة السابقة .
(١٢) في الأصل : عامه يومئذ ـ والمثبت عن الطبعة السابقة .

حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسيُّ، حدثنا ابن فُضَيل، عن أشعث، عن محمد بن سيرين قال : لما توفي النبي ﷺ أقسم عليّ ألاّ يرتدي برداءٍ إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مُصْحَف ، ففعل ، فأرسل إليه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد أيام : أكَرِهْتَ إمارتي يا أبا الحسن ؟ فقال : لا والله إلا أني أقسمتُ أني لا أرتدِيَ برداءٍ إلا لجمعة . فبايعه ثم رجع (١).

هكذا رواه ، وفيه انقطاع . ثم قال : لم يذكر المصحف أحد إلا الأشعثُ، وهو لَيِّنُ الحديث (٢) وإنما رَوَوا (٣) : حتى أجمع القرآن . يعني أُتِمّ حِفْظَه ، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن : قد جمع القرآن .

قلت : وهذا الذي قاله أبو بكر أظهر ـ والله أعلم ـ فإن علياً لم يُنْقَلْ عنه مُصْحَفٌ على ما قيل ولا غير ذلك ، ولكن قد تُوجَدُ مصاحف على الوضع العثماني ، يقال : إنها بخط علي ـ رضي الله عنه ـ وفي ذلك نظر، فإنه في بعضها: [كَتَبَه علي بن أبي طالب]. وهذا لحن من الكلام ، وعلي ـ رضي الله عنه ـ من أبعد الناس عن ذلك ، فإنه ـ كما هو المشهور عنه ـ هو أول من وضع علم النحو ، فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدُّؤَلِيّ ، وأنه قَسَّم الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، وذكر أشياء أُخَرَ تممها أبو الأسود بعده ، ثم أخذه الناس عن أبي الأسود فوسعوه وَوَضّحوه ، وصار علماً مستقلاً .

وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد كـانَ قديماً بمدينة طبريَّة ، ثم نُقل منها إلى دمشق في حدود ثماني عشر وخمسمائة ، وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم في رَقٍّ أظنه من جلود الإبل، والله أعلم. زاده الله تشريفاً وتكريماً وتعظيماً . فأما عثمان ـ رضي الله عنه ـ فما يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف ، وإنما كتبها زيد بن ثابت في أيامه ، ربما وغيره ، فَنُسِبَتْ إلى عثمان لأنها بأمره وإشارته ، ثم قُرِئَتْ على الصحابة بين يَدَي عثمان ، ثم نَفَذَت إلى الآفاق ، رضي الله عنه ، وقد قال أبو بكر بن أبي داود :

حدثنا علي بن حرب الطائي ، حدثنا قُرَيش (٤) بن أنس ، حدثنا سليمان التيمي ، عن أبي نَضْرَة ، عن أبي سعيد مولى أبي أسيد قال : لما دخل المصريُّون على عثمان ضربوه بالسيف على يده فوقعت على : ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، فَمَدَّ يده وقال : والله إنَّها لأول يد خَطَّت المُفَصَّل (٥) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو طاهر ، حدثنا ابن وهب : سألت مالكاً عن مصحف عثمان ، فقال لي : ذَهَبَ . يَحْتَمِلُ أنه سأله عن المصحف الذي كتبه بيده ، ويحتمل أن يكون سأله عن المصحف الذي تَرَكه في المدينة ، والله أعلم(٥) .

قلت : وقد كانت الكتابة في العرب قليلة جداً ، وإنما أوَّلُ ما تعلموا ذلك كما ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبي وغيره : أن بشر بن عبد الملك أخا أُكيدِر دُومَة تعلم الخط من الأنبار ، ثم قدم مَكَّة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان صخر بن حرب ، فَعَلَّمه حَرْبَ بن أمية وابنَه سفيان ، وتعلمه عُمَر بن الخطاب من حرب بن أمية ، وتعلمه معاوية من عمه سفيان بن حرب ، وقيل : إن أول من تعلمه من الأنبار قوم

---

(١) كتاب المصاحف ١٠.

(٢) في الأصل : ابن الحرث .

(٣) في الأصل : وإنما رووا غيره . والمثبت عن كتاب المصاحف .

(٤) في الأصل : يونس . وانظر التهذيب ٣٧٤/٨.

(٥) لم أعثر على هذا الأثر في كتاب المصاحف، وانظر فيه ٤ ـ ٥.

من طَيِّءٍ من قرية هناك يقال لها : بَقَّة [١]، ثم هَذَّبوه ونشروه في جَزيرة العَرَبِ فتَعَلَّمه الناس . ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود :

حدثنا عبد الله بن محمد الزهري ، حدثنا سفيان ، عن مجاهد ، عن الشعبي قال : سألنا المهاجرين ، من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : من أهل الحيرة . وسألنا أهل الحيرة من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : من أهل الأنبار [٢].

قلت : والذي كان يغلب على زمان السلف الكتابة **المُتَكَوِّفَةُ**، ثم هذبها أبو علي بن مقلةَ الوزير ، وصار له في ذلك منهج وأسلوب في الكتابة ، ثم قَرّبَها علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب ، وسلك الناس وراءه ، وطريقته في ذلك واضحة جيدة ، والغرضُ أن الكتابة لما كانت في ذلك الزمان لم تحكم جيداً، وَقَعَ في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى ، وصنف الناس في ذلك ، واعتنى بذلك الإمام الكبير أبو عُبَيدٍ القاسم بن سلام ـ رحمه الله ـ في كتابة فضائل القرآن ، والحافظ أبو بكر بن أبي داود ـ رحمه الله ـ فبوَّبا على ذلك ، وذَكَرَا قطعة صالحة هي من صناعة القرآن ، ليست مقصدنا ههنا ، ولهذا نص الإمام مالك ـ رحمه الله ـ على أنه لا تُوضَع المصاحفُ إلا على وضع كتابة الإمام ، ورخَّصَ في ذلك غيرُه . واختلفوا في الشكل والنقط فمن مُرَخِّصٍ ومن مانع . فأما كتابة السور وآياتها والتعشير والأجزاء والأحزاب فَكَثُر في مصاحِفِ زماننا ، والأولى اتِّباعُ السلف الصالح .

ـ ٤ ـ
[كُتَّاب النبي ﷺ]

ثم قال البخاري : ذِكْرُ [٣] كُتَّاب النبي ﷺ. وأَوْرَدَ فيه من حديث الزهري ، عن ابن السَّبَّاق ، عن زيد بن ثابت : أنّ أبا بكر الصديق قال له : « وكنت [٤] تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ». وذكر نحو ما تقدم في جَمْعِهِ القرآن، وقد تقدم؛ وأورد حديث زيد بن ثابت في نزول: ﴿ لا يستوي القاعدُون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر ﴾ [٥]، وسيأتي الكلام عليه في سورة النساء ـ إن شاء الله ـ ولم يذكر البخاري أحداً من الكتَّاب في هذا الباب سوى زيد بن ثابت، وهذا عَجَبٌ، وكأنه لم يقعْ له حديث يورده سوى هذا، **والله أعلم**. وموضع هذا في كتاب السيرة عند ذكر كتَّابه ـ عليه الصلاة والسلام .

ـ ٥ ـ
[أُنزل القرآن على سبعة أحرف]

ثم قال البخاري رحمه الله : أُنْزِل القرآن على سبعة أحرف : حدثنا سعيد بن عُفَير ، حدثنا الليث ، حدثني عُقَيلٌ ، عن ابن شهاب : حدثني عُبَيْدُ الله بن عبد الله أنّ عبد الله بن عباس حَدّثه : أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « **أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيدُه ويَزِيدُني حتى انتهى إلى سبعة أحرف** » [٦].

(١) في كتاب المصاحف ٤. « وقال أبو بكر : وبَقَّة ، قرية وراء الأنبار ».
(٢) كتاب المصاحف ٤ .
(٣) لفظ البخاري ٦/٢٢٦ ـ ٢٢٧ : « باب كاتب النبي ﷺ ».
(٤) لفظ البخاري : « إنك كنت . . . ».
(٥) الآية ٩٥ من سورة النساء .
(٦) البخاري ، كتاب الفضائل ٦/٢٢٧ .

وقد رواه أيضاً في بَدْءِ الخلق [١]، ومسلم من حديث يونس ، ومسلم أيضاً عن معمر ، كلاهما عن الزهري نَحْوه ، ورواه ابن جرير من حديث الزهري به ، ثم قال الزهري : بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكونَ واحداً لا يختلف في حلال ولا في حرام ، وهذا مبسوط في الحديث الذي رواه الإمام أبو [عبيد] [٢] القاسم بن سلام حيث قال :

حدثنا يزيد ويحيى بن سعيد كلاهما ، عن حُمَيْدِ الطويلِ ، عن أَنَسِ بن مالك، عن أُبَيِّ بن كعب قال : ما حاكَ في صدري شيء منذ أسلمت إلا أنني قرأت آية ، وقرأها آخر غير قراءتي ، فقلت : أقرأنيها رسولُ الله ﷺ. فقال : أقرأنيها رسولُ الله. فأتينا رسول الله -ﷺ- فقلت : يا رسول الله ؛ أقرأتني آية كذا وكذا ؟ قال : « نعم ». وقال الآخر : أليس تقرئني آية كذا وكذا ؟ قال : « نعم ». فقال : « إن جبريل وميكائيل أتياني فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري ، فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزِدْه. حتى بلغ سبعةَ أحرُفٍ ، وكلُّ حرف كافٍ شافٍ ».

وقد رواه النسائي من حديث يزيد ـ وهو ابن هارون ـ ويحيى بن سعيد القطان كلاهما عن حميد الطويل ، عن أنس ، عن أبي بن كعب بنحوه . وكذا رواه ابن أبي عدي ومحمد بن ميمون الزعفراني ويحيى بن أيوب ، كلهم عن حُمَيْدٍ ، به .

وقال ابنُ جَريرٍ : حدثنا محمد بن مرزوق ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا حماد بن سلمة، عن حُمَيد، عن أنس ، عن عبادة بنَ الصامت ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله -ﷺ- : « أُنْزِل القرآن على سبعة أحرف » [٣]. فأدخل بينهما عبادة بن الصامت .

وقال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، حدثني عبد الله بن عيسى ، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى ، عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فقمنا جميعاً فدخلنا على رسول الله -ﷺ- فقلت : يا رسول الله ، إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل [٤] هذا فقرأ غير قراءة صاحبه ، فقال لهما النبي ـ ﷺ ـ : اقرآ. فقرآ، فقال: أصبتما. فلما قال لهما النبي ـ ﷺ ـ الذي قال كَبُر عليّ، ولا إذْ كنت في الجاهلية ، فلما رأى الذي غَشِيني ضَرَب في صدري ، فَفِضْتُ عَرَقاً ، وكأنما أنظر إلى الله [٥] فرقاً ، فقال : « يا أُبَيّ، إنَّ ربِّي أرسل إليَّ أن اقرَأ القرآن على حرف . فَرَدَدْتُ إليه أن هَوِّن على أمتي ، فأرسل إلي أن اقرأه على حرفين ، فَرَدَدْتُ إليه أن هَوِّن على أمتي ، فأرسل إلي أن اقرأه على سبعة أحرف ، ولك بكل رَدَّةٍ مسألة تسألنيها . قال : قلت : اللهم اغفر لأمتي ، اللهم اغفر لأمتي . وأَخَّرتُ الثالثة ليوم يرغب إليَّ فيه الخلق حتى إبراهيم عليه السلام » [٦].

وهكذا رواه مسلم من حديث إسماعيل بن أبي خالد ، به[٦].

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيب ، حدثنا محمد بن فُضَيل ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن

(١) البخاري ، كتاب بدء الخلق ١٣٧/٤، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٦١ .

(٢) سقط من الأصل .

(٣) تفسير الطبري ١٨/١ ـ ١٩ .

(٤) في الأصل : ثم دخل الآخر هذا .

(٥) في الأصل : إلى رسول الله . والمثبت عن المسند .

(٦) مسند الإمام أحمد ١٢٧/٥ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٦١ ـ ٥٦٢ .

عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الله أمرني أن اقرأ القرآن على حرف واحد ـ فقلت : خَفِّف عن أمتي ، قال : اقرأه على حرفين ؛ فقلت : [اللهم ، ربِّ] (١) خفف عن أمتي ، فأمرني أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة ، كلها شافٍ كافٍ»(٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، عن ابن وهب ، أخبرني هشام بن سعد ، عن عبيد الله بن عمر ، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى ، عن أُبيّ بن كعب أنه قال : سمعت رجلاً يقرأ في سورة النحل قراءة تخالف قراءتي ، ثم سَمِعتُ آخر يقرؤ ها بخلاف ذلك ، فانطلقت بهما إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقلتُ : إني سَمِعتُ هذين يقرآن في سورة النحل فسألتهما : من أقرأهما ؟ فقالا : رسول الله ﷺ . فقلت : لأذهبَنَّ بكما إلى رسول الله ـ ﷺ ـ إذ خالفتما ما أقرأني رسولُ الله ﷺ . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأحدهما : « اقرأ » . فقرأ ، فقال : « أحسنت » . ثم قال للآخر : « اقرأ » . فقرأ ، فقال : « أحسنت » . قال أُبيّ : فوجدتُ في نفسي وسوَسَة الشيطان حتى احمرَّ وجهي ، فعرف ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ في وجهي ، فضرب يده في صدري ثم قال : « اللَّهم ، أذهب (٣) الشيطان عنه ؛ يا أُبَيّ ، أتاني آت من ربي فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : رب خفف عني . ثم أتاني الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : رب خَفِّف عن أمتي . ثم أتاني الثالثة فقال مثل ذلك ، وقلت مثل ذلك ، ثم أتاني الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل رَدَّةٍ مسألة . فقلت : يا رب ، اغفرْ لأمتي ، يا رب ، اغفر لأمتي ، واختبأتُ (٤) الثالثة شفاعة لأمتي يوم القيامة »(٥) إسناد صحيح .

قلت : وهذا الشك الذي حصل لأُبَيّ في تلك الساعة هو ـ والله أعلم ـ السبب الذي لأجله قرأ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ قراءَةَ إبلاغٍ وإعلامٍ ودواءٍ لما كان حصل له سورةَ : ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ إلى آخرها ، لاشتمالها على قوله تعالى : ﴿ رسول من الله يتلو صُحُفاً مطهَّرةً فيها كتبٌ قيِّمة ﴾ (٦) . وهذا نظير تلاوته (٧) سورةَ الفتح حين أُنْزِلَتْ ، مرجعَه ـ عليه الصلاة والسلامُ ـ من الحُدَيبية على عُمَرَ بن الخطاب ، وذلك لما كان تَقَدَّم له من الأسئلة لرسول الله ـ ﷺ ـ ثم لأبي بكرٍ الصديق ـ رضي الله عنهما ـ وفيها قوله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤ يا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ (٨) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن أبي ليلى ، عن أبي بن كعب أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان عند أضاة بني غِفَارٍ فأتاه جبريل فقال : إن الله يأمرك أن تُقْرِىء أمتك القرآن على حرف . قال : « أسأل الله معافاتَه ومغفرتَه ، فإن أمتي لا تطيق ذلك . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تُقْرِىءَ أمتَك القرآن على حرفين . قال : أسأل الله معافاتَه ومغفرتَه ، إن

---

(١) عن الطبري .
(٢) تفسير الطبري ١/١٦ .
(٣) الطبري : أخسِىءْ .
(٤) في الأصل : وأخرت . والمثبت عن الطبري .
(٥) تفسير الطبري ١/١٧ ـ ١٨ .
(٦) البخاري ، تفسير سورة لم يكن ٦/٢١٦ ـ ٢١٧ ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ١٩١٥ . وتحفة الأحوذي ، أبواب المناقب ٣٩٧ ـ ٣٩٨ ، ومسند الإمام أحمد ٥/١٢٤ .
(٧) في الأصل : تلاوة .
(٨) لبخاري ، كتاب الجزية ٤/١٢٥ ـ ١٢٦ ، وكتاب الحج ٢/٢١٣ ، ومسلم ، كتاب الجهاد ١٤١١ ـ ١٤١٢ .

أمتي لا تطيق ذلك . ثم جاءه الثالثة قال : إن الله يأمرك أن تقرىء [أمتك] [(١)] القرآن على ثلاثة أحرف . قال: أسأل الله معافاته ومغفرته ، [وإن أمتي لا تطيق ذلك] [(١)]. ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء [أمتك] [(١)] القرآن على سبعة أحرف، فأيُّما حرف قَرَءوا عليه فقد أصابوا»[(٢)].

وأخرجه مسلم [(٣)] وأبو داود والنسائي من رواية شعبة ، به . وفي لفظ لأبي داود عن أُبَيّ بن كعب قال : قال لي رسول الله ـﷺ ـ : « يا أبي ، إني أُقرئْتُ القرآن فَقِيل [(٤)] لي : على حرف أو حرفين ؟ فقال المَلَك الذي معي : قل على حرفين . [قلت : على حرفين [(٥)]]. فقيل لي : على حرفين أو ثلاثة ؟ فقال المَلَكُ الذي معي : قل على ثلاثة . [قلت : على ثلاثة] [(٥)]. حتى بلغ سبعة أحرف . ثم قال : ليس منها [(٦)] إلا شاف كافٍ، [إنْ][(٥)] قلت : سميعاً عليماً ، عزيزاً حكيماً ، ما لم تخلط آية عذاب برحمة ، أو آية رحمة بعذاب » [(٧)].

وقد رَوَى ثابت بن قاسم نحواً من هذا ، عن أبي هريرة ، عن النبي ـﷺ ـ ومن كلام ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ نحو ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حُسَين بن علي الجُعْفِيّ ، عن زائدةَ ، عن عاصم ، عن زرٍّ ، عن أُبَيٍّ قال : لقي رسول الله ـﷺ ـ جبريل عند أحجار المِرَاءِ [(٨)]، فقال رسول الله ـﷺ ـ لجبريل : « إني بُعِثْتُ إلى أُمَّةٍ أُمِّيين ، فيهم الشيخ العَاسِي [(٩)] والعجوز الكبيرة ، والغلام». فقال : مُرْهُم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف [(١٠)].

وأخرجه الترمذي من حديث عاصم بن أبي النجود ، عن زِرٍّ ، عن أبي بن كعب [(١١)] ، به .وقال : حسن صحيح .

وقد رواه أبو عُبَيْدٍ ، عن أبي النضر ، عن شيبان ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن زِرٍّ ، عن حذيفة أن رسول الله ـﷺ ـ لقي جبريل عند أحجار المِراءِ ، فذكر الحديث . والله أعلم .

وهكذا رواه الإمام أحمد ، عن عفَّان [(١٢)]، عن حَمَّادٍ ، عن عاصمٍ ، عن زِرٍّ ، عن حُذَيفة أن رسول الله ـﷺ ـ قال : « لقيت جبريل عند أحجار المراءِ فقلت : يا جبريل ، إني أُرْسِلْتُ إلى أُمَّة أُمِّيَّةٍ ، الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتاباً قطُّ » . فقال : إن القرآن أنزل على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ[(١٣)].

---

(١) عن الطبري .
(٢) تفسير الطبري ١/١٧.
(٣) مسلم ، كتاب المسافرين ٥٦٢ ـ ٥٦٣ ، وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ٢/٧٦، والنسائي ، كتاب الافتتاح ٢/١٥٢ ـ ١٥٣ .
(٤) في الأصل : قيل .
(٥) عن سنن أبي داود .
(٦) في الأصل : ليس منها إلا حرف شاف .
(٧) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ٢/٧٦.
(٨) المِراء ـ بكسر الميم ـ : قُباء .
(٩) في المسند : العاصي . وعسا الشيخ : كبر أو أسنّ .
(١٠) مسند الإمام أحمد ٥/١٣٢ .
(١١) في الأصل : عن ابن مسعود ، وانظر تحفة الأحوذي ٨/٢٦١ ـ ٢٦٣ .
(١٢) في الأصل : عن حماد ، عن عفان .
(١٣) مسند الإمام أحمد ٥/٤٠٠ .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا وكيع وعبد الرحمٰن ، عن سفيان ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن رِبْعِي بن حِرَاش ، حدثني من لم يَكْذِبْني - يعني حذيفة - قال : لقي النبيُّ -ﷺ- جبريلَ عند أحجار المِرَاءِ فقال : إن أُمَّتَكَ يَقْرأون القرآن على سبعة أحرف ، فمن قرأ منهم على حرف فَلْيَقْرأ كما عُلِّم ولا يَرْجِعْ عنه . وقال عبد الرحمٰن : إن مِنْ أُمَّتِكَ الضعيفَ ، فمن قرأ على حرف فلا يتحول منه إلى غيره رغبةً عنه [(١)] . وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

حديث آخر في معناه عن سليمان بن صُرَد ، قال ابن جرير :

حدثنا إسماعيل بن موسى السُّدِّي ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن سليمان بن صُرَد - يرفعُه - قال : « أتاني مَلَكان فقال أحدهما : اقرأ . قال : على كم ؟ قال : على حرف . قال : زِدْه ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف » [(٢)] . ورواه النسائي في اليوم والليلة ، عن عبد الرحمٰن بن محمد بن سَلَّام ، عن إسحاق الأزرق ، عن العوام بن حوشب ، عن أبي إسحاق ، عن سليمان بن صُرَد قال : أتى أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ رسولَ الله -ﷺ- برجلين اختلفا في القراءة [(٣)] ، فذكر الحديث . وهكذا رواه أحمد بن منيع ، عن يزيد بن هارون ، عن العوام بن حوشب ، به . ورواه أبو عُبَيْدٍ ، عن يزيد بن هارون ، عن العوام ، عن أبي إسحاق ، عن سُليمان بن صُرَدٍ ، عن أُبَيٍّ أنه أتى النبي -ﷺ- برجلين : فذكره .

وقال ابن جرير : [حدثنا أبو كريب ، حدثنا يحيـى بن آدم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن فلان العَبْدِيِّ . قال ابن جرير] [(٤)] : ذهب عني اسمه ، عن سليمان بن صُرَدَ ، عن أُبَيّ بن كعب قال : رحتُ إلى المسجد فسمِعتُ رجلًا يقرأ ، فقلت : من أقرأك ؟ قال : رسول الله ﷺ . فانطلقت به إلى رسول الله -ﷺ- فقلت : استَقْرِئْ هذا . قال : فقرأ . فقال : «أحسنت» . قال : قلت : إنك أقرأتني كذا وكذا! فقال : «وأنت قد أحسنت» . فقلت : قد أحسنتَ قد أحسنتَ! [قال] [(٥)] : فضرب بيده على صدري ثم قال : «اللّهم أَذْهِبْ عن أُبَيٍّ الشكَّ» . قال : فَفِضْتُ عَرَقاً وامتلأ جوفي فَرَقاً . قال ثم قال : «إن الملكين أتياني فقال أحدهما : اقرأ القرآن [على حرف [(٥)]] . وقال الآخر : زِدْهُ . قال : قُلْتُ : زدني . قال : اقرأه على حرفين . حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال اقرأه على سبعة أحرف» .

وقد رواه أبو عبيد ، عن حجاج ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاقَ ، عن شُتَير العَبْدِيِّ ، عن سليمان بن صُرَدَ ، عن أُبيٍّ ، عن النبي -ﷺ- بنحو ذلك . ورواه أبو داود ، عن أبي الوليد الطيالسي ، عن همام ، عن قتادة ، عن يحيى بن يعمر ، عن سليمان بن صُرَدَ ، عن أبي بن كعب ، بنحوه .

فهذا الحديث محفوظٌ من حيث الجملة عن أُبَيٍّ بن كعب ، والظاهر أن سليمان بن صُرَدَ الخزاعي شاهَدَ ذلك ، والله أعلم .

حديث آخر عن أبي بَكْرَةَ ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي ، عن حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ ، عن علي بن زيدٍ [(٦)] ، عن عبد الرحمٰن بن أبي بكرة ، عن أبيه ، عن النبي -ﷺ- قال : «أتـاني جبريل وميكائيل

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٣٨٥ ، ٤٠١ .
(٢) تفسير الطبري ١/١٤ .
(٣) في الأصل : القرآن . والحديث في اليوم والليلة ٤٢٢ .
(٤) سقط من الأصل ، انظر تفسير الطبري ١/١٥ .
(٥) عن تفسير الطبري .
(٦) في الأصل : زيد بن علي . وهو علي بن زيد بن عبد الله بن أبي مليكة . انظر تهذيب التهذيب ٦/١٤٨ ، ٨/٣٢٢ .

ـ عليهما السلام ـ فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف واحد. فقال ميكائيل : استزده . فقال : اقرأ على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ ما لم تُخْتَم آية رحمة بعذاب ، أو آية عذاب برحمة » [١].

وهكذا رواه ابن جرير عن أبي [٢] كُرَيب، عن زيد بن الحباب ، عن حماد بن سلمة ، به . وزاد في آخره كقولك : هلم وتعال .

حديث آخر عن سَمُرة، قال الإمام أحمد :

حدثنا بَهْزٌ وعَفّان كلاهما ، عن حَمّاد بن سلمة ، حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سَمُرَة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «أُنزل القرآن على سبعة أحرف » [٣]. إسناد صحيح ولم يخرجوه .

حديث آخر عن أبي هُرَيرة . قال الإمام أحمد :

حدثنا أَنَس بن عياضٍ ، حدثني أبو حازم ، عن أبي سلمة ـ لا أعلمه إلا عن أبي هُرَيرَةَ ـ أنَّ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال : « نزل القرآن على سَبْعَةِ أَحرُفٍ ، مِرَاءٌ [٤] في القرآن كُفْرٌ ـ ثلاث مرات ـ فما علمتم [٥] منه فاعلموا ، وما جهلتم [منه] [٦] فردوه إلى عالمه » [٧].

ورواه النسائي عن قتيبة ، عن أبي ضمرة ، أنس بن عياض ، به .

حديث آخر عن أم أَيُّوبَ، قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عبيد الله ـ هو ابن أبي يزيد ـ عن أبيه ، عن أم أيوب ـ يعني امرأة أبي أيوب ـ الأنصارية أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، أَيُّها قرأتَ أجزأك » [٨].

وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة .

حديث آخر عن أبي جُهَيمٍ، قال أبو عُبَيد :

حدثنا إسماعيل بن جعفر ، عن يزيد بن خصيفة ، عن مسلم بن سعيد مولى الحضرميّ ـ وقال غيره ، عن بُسْر بن سعيد ـ عن أبي جُهَيمٍ الأنصاري : أن رجلين اختلفا في آية من القرآن ، كلاهما يزعمُ أنه تلقّاها من رسول الله ـ ﷺ ـ فمشيا جميعاً حتى أتيا رسـول الله ﷺ. فذكر أبو جُهَيمٍ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فلا تماروا، فإنَّ مِراءً فيه كفر ».

هكذا رواه أبو عُبَيد ، على الشك، وقد رواه الإمام أحمد على الصواب، فقال :

حدثنا أبو سلمة الخزاعي ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني يزيد بن خصيفة ، أخبرني بُسْرُ بن سعيد ، حدثني أبو جُهَيمٍ : أن رجلين اختلفا في آية من القرآن ، فقال هذا : تلقيتها من رسول الله ﷺ . وقال هذا :

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٤١.
(٢) في الأصل : عن أبي بن كريب ، وهو خطأ ، وانظر تفسير الطبري ١/١٨.
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/١٦.
(٤) في المسند : المراء .
(٥) في المسند : عرفتم .
(٦) عن المسند .
(٧) مسند الإمام أحمد ٢/٣٠٠.
(٨) مسند الإمام أحمد ٦/٤٣٣.

تلقيتها من رسول الله ﷺ. فسألا النبي ـ ﷺ ـ فقال : « القرآن يقرأ على سبعة أحرف ، فلا تماروا في القرآن ، فإن مراءً في القرآن كفر »(١).

وهذا إسناد صحيح أيضاً ولم يخرجوه . ثم قال أبو عُبَيدٍ :

حدثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن يزيد بن الهادي ، عن محمد بن إبراهيم ، عن بُسْر بن سعيد ، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص أن رجلاً قرأ آية من القرآن فقال له عمرو ـ يعني ابن العاص ـ : إنما هي كذا وكذا . بغير ما قرأ الرجل . فقال الرجل : هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ. فخرجا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أتياه فذكرا ذلك له ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فأيّ ذلك قرأتم أصبتُم ، فلا تماروا في القرآن فإنّ مراءً فيه كفر ».

ورواه الإمام أحمد عن أبي سلمة الخُزَاعي ، عن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد ، عن بُسْر بن سعيد ، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص به ، نحوه . وفيه : فإنّ المراءَ فيه كفرٌ ، أو آية الكفرِ(٢). وهذا أيضاً حديث جيد .

حديث آخر عن ابن مسعودٍ ، قال ابن جرير :

حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني حيوة بن شريح ، عن عُقَيل بن خالد ، عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن ، عن أبيه ، عن ابن مسعود ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « كان الكتابُ الأوَّلُ نَزَلَ من باب واحدٍ [و] على حرف واحدٍ ، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر ، وآمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فأحِلُّوا حلاله ، وحرِّموا حرامه ، وافعلوا ما أُمِرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا : آمنَّا به كل من عند ربنا »(٣).

ثم رواه عن أبي كريب ، عن المحاربي(٤)، عن ضمرة بن حبيب ، عن القاسم بن عبد الرحمٰن ، عن ابن مسعود ، من كلامه(٣)، وهو أشبه . والله أعلم .

فصل : قال أبو عبيد : قد تواردت هذه الأحاديث كلُّها على الأحرف السبعة إلا ما حَدَّثني عفان ، عن حماد بن سلمة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة بن جندب ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « نزل القرآن على ثلاثة أحرف » . قال أبو عبيد : ولا نرى المحفوظ إلا السبعة لأنها المشهورة ، وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه ، وهذا شيء غير موجود ، ولكنه عندنا أنه نزل سبعُ لغاتٍ متفرقةٍ في جميع القرآن ، من لغات العرب ، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة ، والثاني بلغة أخرى سوى الأولى ، والثالث بلغة أخرى سواهما ، كذلك إلى السبعة ، وبعض الأحياء أسعدُ بها وأكثر حظّاً فيها من بعض ، وذلك بَيِّنٌ في أحاديث تترى . قال : وقد روى الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العَجُز من هوازن . قال أبو عبيد : والعَجُز هم بنو سعد بن بكر ، وجُشَم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف هم عليا هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عُلْيا هوازن وسُفْلى

(١) مسند الإمام أحمد ٤/١٦٩ - ١٧٠ .
(٢) في الأصل : إنه الكفر به . والحديث في المسند ٤/٢٠٥ .
(٣) تفسير الطبري ١/٣٠ .
(٤) في تفسير الطبري : المحاربي عن الأحوص بن حكيم ، عن ضمرة بن حبيب .

تميم ، يعني بني دارم . ولهذا قال عمر : لا يُمْلي في مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف .

قال ابن جرير : واللغتان الأخريان : قريش وخزاعة . رواه قتادة ، عن ابن عباس ، ولكن لم يَلْقه (١) .

قال أبو عبيد : وحدثنا هُشَيم ، عن حُصَين بن عبد الرحمٰن ، عن عُبَيد الله بن عَبْدِ الله بن عُتْبَة ، عن ابن عباس : أنه كان يُسأل عن القرآن فيُنْشِدُ فيه الشعرَ . قال أبو عُبَيد : يعني أنّه كان يستشهدُ به على التفسير .

حدثنا هُشَيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد أو مجاهد ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ والليل وما وسق ﴾ ، قال : ما جمع ، وأنشد :

* قد اتَّسقْنَ لو يَجدن سائِقًا (٢) *

حدثنا هشيم ، حدثنا حُصَين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ . قال : الأرض ، قال : وقال ابن عباس : قال أمية بن أبي الصلت (٣) :

* عندهم لحم بَحْرٍ (٤) ولحم ساهرة *

حدثنا يحيى بن سعيد ، عن سفيان ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما ﴿ فاطر السمٰوات والأرض ﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئرٍ فقال أحدهما : أنا فطرتها . [يقول](٥): أنا ابتدأتها. إسناد جيد أيضاً.

وقال الإمام أبو جعفر بن جريرٍ الطبري ـ رحمه الله ـ بعدما أورد طرفاً مما تقدم : وصحَّ وثبت أنَّ الذي نزل به القرآن من ألسن العرب البعضُ منها دون الجميع ، إذ كان معلوماً أن ألسنتها ولغاتِها أكثر من سبع بما يُعْجَز عن إحصائه . ثم قال : وما برهانك على ما قلته دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك من أنه نزل بأمر وزجرٍ ، وترغيب وترهيب ، وقَصَص ومَثَل ، ونحو ذلك من الأقوال . فقد علمت قائِلَ ذلك من سلف الأمة وخيارِ الأئمة ؟ قيل له : إن الذين قالوا ذلك لم يَدَّعوا أن تأويل الأخبار التي (٦) تَقَدَّم ذكرها(٧)، هو ما زعمت أنهم قالوه في الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن دون غيره فيكون ذلك [لقولنا] (٨) مخالفاً ، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، يعنون بذلك أنه نزل على سبعة أوجه ، والذي قالوا من ذلك كما قالوا . وقد روينا بمثل الذي قالوا من ذلك ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ وعن جماعة من الصحابة ، من أنه نزل من سبعة أبواب الجنة كما تقدم . يعني كما تقدم في رواية أبي (٩) بن كعب وعَبْدِ الله بن مسعود : أن القرآن نزل من سبعة أبوابِ الجنة .

قال ابن جرير : والأبوابُ السبعةُ من الجنة هي المعاني التي فيها من الأمر والنهي والترغيب والترهيب

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٩ .

(٢) في الأصل : يجدن واسقاً . وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٩١ ، وتفسير الطبري ٣٠/ ١٢٠ .

(٣) كذا ، ومثله في الفضائل ، والطبري ٣٠/ ٣٦ . وهو غير مستقيم ، ورواية البيت كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٨٥ :

وفيها لحم ساهرة وبحر   وما فاهوا به لهم مقيم

(٤) في الأصل : لحم ونحر .

(٥) عن الفضائل .

(٦) في الأصل : الذي .

(٧) الطبري : ذكرنا لها .

(٨) عن الطبري .

(٩) في الأصل : عن أبي .

والقصص والمثل التي إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهي استوجب بها الجنة .

ثم بسط القول في هذا بما حاصله أنَّ الشارع رَخَّص للأمة التلاوة على سبعة أحرف . ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمانُ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ اختلاف الناس في القراءة ، وخاف من تفرُّق كلمتهم جمعهم على حرف واحد ، وهو هذا المصحف الإمام ، قال : واستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعةِ ، ورأت أن فيما فعله من ذلك الرُّشْدَ والهداية ، وتركت القِرَاْةُ الأحرفَ الستةَ التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعةً منها له ، ونظراً منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل مِلَّتها ، حتى دَرَسَتْ من الأمة معرفتها وتَعَفَّت آثارها ، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لدُثُورها وعَفْوِ آثارها . إلى أن قال : فإن قال من ضَعُفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأَمَرهم بقراءتها . قيل : إنَّ أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرضٍ ، وإنما كان أمر إباحةٍ ورخصةٍ ، لأنَّ القراءة بها لو كانت فَرْضاً عليهم لوجب أن يكون العلمُ بكل حرف من تلكَ الأحرف السبعة عند من يقوم بنقله الحجة ، ويقطع خَبَرُهُ العذر، ويزيل الشكَّ، من قراءة الأمة ، وفي تركهم نقلَ ذلك كذلك أوضحُ الدَّليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين . إلى أن قال : فأما ما كان من اختلاف القَرَأَةِ في رفع حرفٍ ونصبه وجَرِّه ، وتسكين حرف وتحريكه ، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة ، فمن معنى قول النبي ـ ﷺ ـ : « أُمِرتُ أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » بِمَعْزِلٍ ، لأن المراء في مثل هذا ليس بكفر ، في قول أحد من علماء الأمة ، وقد أوجب ـ ﷺ ـ بالمراء في الأحرف السبعة الكفر كما تقدم [١].

الحديث الثاني : قال البخاري رحمه الله :

حدثنا سعيد بن عُفَير ، حدثنا الليث ، حدثني عُقَيل ، عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير أن المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ وعبد الرحمٰن بن عبد القاريِّ أخبراه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : سَمِعت هشام بن حَكِيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ـ ﷺ ـ فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقْرِئنيها رسولُ الله ـ ﷺ ـ فكدت أساوِرهُ في الصلاة ، فَتَصَبَّرتُ حتى سَلَّم ، فَلَبَّبْتُه بردائه ، فقلتُ : من أقرأك هذه السورة التي سمعتُك تقرأ ؟ قال : أَقْرَأَنيها رسولُ الله ﷺ . فقلت: كَذَبْتَ، فإن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قد أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقتُ به أقودُه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت : إني سمعتُ هذا يقرأ سورةَ الفرقان على حروف لم تُقْرِئْنيها ! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أَرْسِلْه ، اقرأ يا هشام » . فَقَرَأَ عليه القراءة التي سمعتُه يقرأ ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « كذلك أُنْزِلَت » . ثم قال : « اقرأ يا عمرُ » . فقرأت القراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « كذلك أنزلت ؛ إن [١] القرآن أُنْزِل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه » [٢].

وقد رواه الإمامُ أحمد [٣] والبخاريّ أيضاً ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من طرق عن الزهري . ورواه الإمام أحمد أيضاً عن ابن مهدي ، عن مالك ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عبد الرحمٰن بن عبدٍ [٤] عن عمر ، فذكر الحديث بنحوه [٥]. وقد قال الإمام أحمد :

(١) انظر تفسير الطبري ١/٢٠ ـ ٢٩ .

(١) البخاري : إن هذا القرآن .

(٢) البخاري ، فضائل القرآن ٦/٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٤٢ ـ ٤٣ ، والبخاري ، كتاب الفضائل ٦/٢٣٩ ، ومسلم ، كتاب المسافرين ٥٦٠ ، وسنن أبي داود ، كتاب الوتر ٢/٧٥ ـ ٧٦ ، وتحفة الأحوذي ، أبواب القراءات ٨/٢٦٥ ـ ٢٦٦ ، والنسائي ، كتاب الافتتاح ٢/١٥٠ ـ ١٥٢ .

(٤) في الأصل : عبيد .

(٥) مسند الإمام أحمد ١/٤٠ .

حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حرب بن ثابت (١)، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قرأ رجل عند عمر فغَيَّر عليه فقال : قرأت على رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يُغيِّر عليّ . [قال(٢)]: فاجتمعا عند النبي ـ ﷺ ـ فقرأ الرجل على النبي ـ ﷺ ـ فقال له : « قد (٢) أحسنت » . قال : فكأن عمر وَجَدَ من ذلك . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يا عُمَر ، إنَّ القرآن كلَّه صواب ما لم يُجْعَل عذابٌ مغفرةً أو مغفرة عذابا » (٣).

وهذا إسناد حسن . وحرب بن ثابت هذا يكنى بأبي ثابت ، لا نعرف أحداً جَرَّحَهُ .

وقد اختُلِف في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال ، قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْحٍ الأنصاري القرطبي المالكي في مقدمات تفسيره: وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين(٤) قولاً ، ذكرها(٥) أبو حاتم محمد بن حِبَّان البُسْتِيُّ ، ونحن نذكر منها خمسة أقوال.

قلت : ثم سَرَدَهَا القرطبي ، وحاصلها ما أنا مورده ملخصاً (٦) :

فالأول : وهو قولُ أكثرِ أهل العلم ، منهم سفيان بن عُيينة، وعبد الله بن وهب ، وأبو جعفر بن جرير ، والطحاوي : أن المراد سبعةُ أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو : أقبل وتعال وهَلُمَّ . قال الطحاوي : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بَكْرَةَ قال : جاء جبريل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : اقرأ على حرف. فقال ميكائيل: استَزِدْه. فقال: اقرأ على حرفين، فقالَ ميكائيل: استزِدَه. حتى بلغ سبعةَ أحرف. فقال: اقرأ فكل شافٍ كافٍ إلاّ أن تخلِطَ آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هَلُمَّ وتعال وأقبل [واذهب](٧) وأسرع وعَجِّل. وروى وَرْقَاء، [عن](٨) ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي ابن كعب: أنه كان يقرأ: ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظُرُونا ﴾: « للذين آمنوا أمهلونا »، « للذين آمنوا أَخِّرُونا »، « للذين آمنوا ارقُبُونا »، وكان يقرأ: ﴿ كُلَّما أضاء لهم مشوا فيه ﴾: « مَرُّوا فيه »، « سعوا فيه ». قال الطحاوي وغيره: وإنما كان ذلك رُخْصة أن يقرأ الناس على سَبْعِ لغات، وذلك لما كان يتعسر على كثير من الناس التلاوة على لغة قريش، وقراءةِ رسول الله ـ ﷺ ـ لعدم علمهم بالكتابة والضَّبط وإتقان الحفظ. وقد ادَّعى الطحاوي والقاضي البلاقلاني والشيخ أبو عُمَر بن عبد البرِّ أن ذلك كان رخصة في أول الأمر، ثم نُسِخَ بزوال العذر، وتَيَسُّرِ الحفظ، وكثرة الضبط وتعلم الكتابة.

قلت : وقال بعضهم : إنما كان الذي جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أحد الخلفاء الراشدين المهديِّين المأمور باتِّباعهم ، وإنما جَمَعهم عليها لما رأى من اختلافهم في القراءة المُفْضِية إلى تَفَرُّق الأمّة وتكفير بعضِهم بعضاً ، فرتَّبَ لهم المصاحفَ الأئمة على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريلُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في آخر رمضانَ من عمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعزم عليهم ألاَّ يقرأوا بغيرها ، وألاَّ يتعاطوا الرخصة التي كانت لهم فيها سَعَة ولكنها أفضت إلى الفرقة والاختلاف ، كما ألزم عمر بن الخطاب الناس بالطلاق الثلاثة المجموعة حين تتايَعُوا (٩) فيها وأكثروا منها قال : فلو أنا أمضيناه عليهم .

(١) في الأصل : بن ثابت بن إسحاق . وانظر المسند .

(٢) عن المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٠.

(٤) في الأصل : وثلاثة.

(٥) في الأصل : ذكره .

(٦) انظر تفسير القرطبي ١/ ٣٦ وما بعدها .

(٧) عن القرطبي ١/ ٣٧.

(٨) سقط من الأصل .

(٩) في الأصل : تتابعوا ، بالباء الموحدة . والتتايع : الوقوع في الشر من غير فكر ولا رويّة ، والتهافت عليه .

فأمضاه عليهم ، وكان كذلك ينهى عن المتعة في أشهر الحج لئلا ينقطع زيارة البيت في غير أشهر الحج . وقد كان أبو موسى يفتي بالتَّمتُّع ، فترك فُتْياه اتباعاً لأمير المُؤْمنين ، وسمعاً وطاعةً للأئمة المهديين .

القول الثاني : القرآنُ نَزَلَ على سبعةِ أحْرُفٍ ، وليس المرادُ أنَّ جميعه يُقْرأ على سبعةِ أحرُفٍ ، ولكنه بعضُه على حرف ، وبعضُه على حرف آخر . قال الخطابي : وقد يُقْرأ بعضه بالسبع لغات كما في قوله : ﴿ وعَبَدَ الطاغوتَ ﴾ و﴿ يَرْتَعْ ويَلْعَبْ ﴾ . قال القرطبي : ذَهَبَ إلى هذا القول أبو عُبَيدٍ واختاره ابنُ عطيَّةَ . قال أبو عُبَيدٍ : وبعضُ اللُّغات أسعدُ به من بعض[(١)] . وقال القاضي الباقلاني : ومعنى قول عثمان : أنه نزل بلسان قريش ، أي : معظمه ، ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله . قال الله تعالى : ﴿ قرآناً عربياً ﴾ ، ولم يقل : قرشياً . قال : واسمُ العرب يتناول جميع القبائل تناوُلاً واحداً ـ يعني حجازَها ويمنها ـ وكذلك قال الشيخ أبو عُمَر بن عبد البر ، قال : لأن [غير][(٢)] لغة قريش موجودة في صحيح القراءات بتحقيق الهمزات ، فإن قريشاً لا تهمز . وقال ابن عطية : قال ابن عباس : ما كنت أدري ما معنى : ﴿ فاطر السمٰوات والأرض ﴾ ، حتى سَمِعْتُ أعرابياً يقول لبئر ابتدأ حفرها : أنا فَطَرْتُها .

القول الثالث : أن لغات القرآن السبع منحصرة في مضر على اختلاف قبائلها خاصة ، لقول عثمان : إن القرآن نزل بلغة[(٣)] قريش ، وقريش هم بنو النضر بن الحارث على الصحيح من أقوال أهل النسب ، كما نَطَق به الحديث في سنن ابن ماجه وغيره .

القول الرابع : وحكاه الباقلاني عن بعض العلماء أنَّ وجوه القراءات ترجع إلى سبعة أشياء ، منها ما تتغير حركته ولا تتغير صورته ولا معناه مثل : ﴿ ويضيقُ صدري ﴾ و﴿ يَضِيقَ ﴾ ، ومنها ما لا تتغيَّر صورته ويختلف معناه[(٤)] مثل : ﴿ وقالوا ربنا باعِدْ بين أسفارنا ﴾ ، و﴿ باعَدَ بين أسفارنا ﴾ وقد يكون الاختلاف في الصورة والمعنى بالحرف مثل : ﴿ نُنْشِزُها ﴾ و ﴿ ننشُرُها ﴾ أو بالكلمة مع بقاء المعنى : ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ ، أو ﴿ كالصوف المنفوش ﴾ ، أو باختلاف الكلمة واختلاف المعنى مثل : ﴿ وطلح منضود ﴾ و﴿ طلع منضود ﴾ ، أو بالتقدُّم والتأخر مثل : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ و﴿ سكرة الحق بالموت ﴾ ، أو بالزيادة مثل : ﴿ تسع وتسعون نعجة أنثى ﴾ ، ﴿ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين ﴾ . ﴿ فإن الله من بعد إكراههنَّ لهنَّ غفور رحيم ﴾ .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معاني القرآن وهي : أمر ، ونهي ، ووعد ، ووعيد ، وقصص ، ومجادلة ، وأمثال . قال ابن عطية[(٥)] : وهذا ضعيفٌ لأنَّ هذه لا تسمَّى حروفاً ، وأيضاً فالإجماعُ أنَّ التوسعةَ لم تقع في تحليل حلال[(٦)] ، ولا [في] تغيير شيء من المعاني ، وقد أورد القاضي الباقلاني في هذا حديثاً ، ثم قال : وليست هذه [هي] التي أجاز لهم القراءة بها .

فصل : قال القرطبي : قال كثير من علمائنا كالداودي وابن أبي صُفْرَةَ وغيرهُما : هذه القراءات السبع التي تنسبُ لهؤلاء [القراء][(٧)] السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما

(١) لفظ القرطبي ١/٤٣ ـ ٤٤ : « وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظّاً فيها من بعض » .
(٢) عن تفسير القرطبي ١/٤٤ .
(٣) في الأصل : بلسان . والمثبت عن تفسير القرطبي ١/٤٥ .
(٤) لفظ القرطبي ١/٤٥ : « ويتغيّر معناه بالإعراب » . وانظر القراءات في البحر المحيط ٧/٢٧٢ ـ ٢٧٣ .
(٥) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ١/٣٥ ـ ٣٧ ، وتفسير القرطبي ١/٤٥ ـ ٤٦ .
(٦) في الأصل : تحليل حرام ، والمثبت عن القرطبي .
(٧) عن تفسير القرطبي ١/٤٦ .

هي راجعة إلى حرف واحد من السبعة، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف، ذكره ابن النحاس وغيره.

قال القرطبي: وقد سَوَّغ كلُّ واحدٍ من القراء السبعة قراءة الآخر وأجازها، وإنما اختار القراءة المنسوبة إليه لأنه رآها أحسن والأولى عنده. قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأمصار على الاعتماد على ما صحَّ عن هؤلاء الأئمة فيما رووه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات، واستمر الإجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله من حفظ الكتاب (١).

- ٦ -

[تأليف القرآن]

قال البخاري رحمه الله: تأليف القرآن: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جُرَيجٍ أخبرَهُم قال: وأخبرني يوسف بن ماهَكٍ، قال: إني لعند عائشةَ أُمِّ المؤمنين - رضي الله عنها - إذ جاءها عراقيٌّ فقال: أيُّ الكفَنِ خيرٌ؟ قالت: ويحك! وما يضرُّك؟ قال: يا أُمَّ المؤمنين، أريني مصحفك. قالت: لِمَ؟ قال: لعلِّي أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلَّف. قالت: وما يضرُّك أيَّهُ قرأت قبلُ، إنما نزل (٢) أولَ ما نَزَلَ [منه] (٣) سورةٌ من المُفَصَّلِ فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام، نزل الحلالُ والحرامُ، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمرِ أبداً. ولو نزل: لا تَزْنُوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكَّة على محمدٍ (٤) - ﷺ - وإني لجارية ألعبُ: ﴿ بل الساعةُ موعدهم والساعة أدهى وأمرُّ ﴾، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عندَه. قال: فأخرجَتْ له المُصْحَفَ فأملت عليه آي السُّوَرِ (٥).

وهكذا رواه النسائي من حديث ابن جُرَيجٍ. والمرادُ به من التأليف هُهنا ترتيب سُوَرِه. وهذا العراقيُّ سَأَل أولاً عن أيِّ الكفن خير، أي: أفضل، فأخبرته عائشةُ أن هذا مما لا ينبغي أن يُعْتَنى بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الاستعداد، فإن في هذا تكلُّفاً لا طائل تحته، وكانوا في ذلك الزمان يصفون أهل العراق بالتعنُّت في الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عُمَر عن دَمِ البَعُوض يصيب الثوب، فقال عبد الله بن عمر: انظروا أهلَ العراقِ يسألون عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ! ولهذا لم تبالغ معه عائشة في الكلام لئلا يُظَن أن ذلك أمر مهم، وإلا فقد روى أحمد وأهل السنن من حديث سَمُرَةَ وابن عباس عن رسول الله - ﷺ - قال: البسُوا من ثيابكم البياض، وكَفِّنُوا فيها موتاكم، فإنها أطهرُ وأطيب (٦). وصحَّحه الترمذيُّ من الوجهين. وفي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كُفِّن رسول الله - ﷺ - في ثلاثة أثواب بيضٍ سُحُولية ليس فيها قميص ولا عمامة. وهذا محرَّر في باب الكفن من كتاب الجنائز (٧).

---

(١) تفسير القرطبي ١/٤٦ - ٤٧.

(٢) في الأصل: نزلت.

(٣) عن البخاري.

(٤) في الأصل: على محمد بمكة.

(٥) البخاري، كتاب الفضائل ٦/٢٢٨.

(٦) مسند أحمد ١/٢٤٧، ٣٢٨، ٥/١٠، ١٢، ١٣، وسنن أبي داود، كتاب الطب، باب في الأمر بالكحل ٤/٨، وتحفة الأحوذي، أبواب الجنائز، ٤/٧٢، والنسائي، كتاب الجنائز ٤/٣٤، وكتاب الزينة ٨/٢٠٥. وسنن ابن ماجه، كتاب الجنائز ١/٤٧٣، وكتاب اللباس ١١٨١.

(٧) البخاري ٢/٩٥ - ٩٦، ومسلم ٦٤٩ - ٦٥٠، والنسائي ٤/٣٥، وابن ماجه ٤٧٢.

ثم سألها عن ترتيب القرآن فانتقل إلى سُؤال كبير وأخبرها أنه يُقرَأُ غير مُؤلَّف، أي: غير مُرتَّب السُّور. وكأن هذا كان قبل أن يَبْعَثَ أميرُ المؤمنين عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلى الآفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم. ولهذا أخبرته: أنَّك لا يضرك بأيِّ سورة بدأت، وأنَّ أوَّل سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار. وهذه إن لم تكن ﴿ اقرأ ﴾ فقد يحتمل أنها أرادت اسم جِنْس لسور المفصَّل التي فيها الوعدُ والوعيدُ، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق أُمِروا ونُهُوا بالتدريج أوَّلاً فأوَّلاً، وهذا من حكمة الله ورحمته. ومعنى هذا الكلام أن هذه السورة أو السور التي فيها ذكر الجنة والنار ليست المَبْدَأة بها في أوائل المصاحف، مع أنها من أول ما نزل، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما في المصحف، وقد نزلت عليه في المدينة وأنا عنده.

فأما ترتيب الآيات في السور فليس في ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفي عن رسول الله ـ ﷺ ـ كما تقدم تقرير ذلك. ولهذا لم تُرَخِّص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه آي السُّوَر، والله أعلم.

وقول عائشة: «لا يضرك بأيِّ سورة بدأت»، يدل على أنه لو قدم بعض السور أو أخَّر كما دلَّ عليه حديثُ حُذَيفَةَ وابن مسعود ـ وهو في الصحيح ـ أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قرأ في قيام الليل بالبقرة ثم بالنساء ثم آل عمران (١). وقد حكى القرطبي عن أبي بكر بن الأنباري في كتاب الرد أنه قال: فمن أخر سورة مُقَدَّمَةً أو قدّم أُخرَى مؤخَّرةً كمن أفسد نظم الآيات وغيَّر الحروف والكلمات (٢). وكان مستنده اتباع مصحف عثمان ـ رضي الله عنه ـ فإنه مُرَتَّبٌ على هذا النحو المشهور. والظاهر أن ترتيب السور فيه، منه ما هو راجع إلى رأي عثمان، وذلك ظاهر في سؤال ابن عباس له عن ترك البسملة في أول براءة، وذكره الأنفال من الطُّوَل، والحديث في الترمذي (٣) وغيره بإسناد جيد قوي. وقد ذكرنا عن علي أنه كان قد عزم على ترتيب القرآن بحسب نزوله. ولقد حكى القاضي الباقلاني (٤) أن أول مصحفه كان: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وأول مصحف ابن مسعود: ﴿ مالك (٥) يوم الدين ﴾، ثم البقرة ثم النساء، على ترتيب مختلف، وأول مصحف أُبَيّ: ﴿ الحمد لله ﴾، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم المائدة ثم كذا، على اختلاف شديد. ثم قال القاضي: ويَحْتَمِلُ أن ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكذا ذكره مكي في تفسير [سورة] (٦) براءة. قال: فأما ترتيب الآيات والبسملة في الأوائل فهو من النبي ـ ﷺ ـ وقال ابن وهب في جامعه: سمعت سليمان بن بلال يقول: سُئِل ربيعة: لم قُدِّمَتَ البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قُدِّمتا وأُلِّف القرآن على عِلْمٍ ممن أَلَّفه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا (٧) مما يُنْتهى إليه ولا يُسْأَلُ عنه. قال ابن وهب: سمعتُ مالكاً يقولُ: إنما أُلِّفَ القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ.

قال أبو الحسن بن بطال: إنما يجب تأليف سُوَره في الرَّسْمِ والخَطِّ خاصةً، ولا يُعْلَم أن أحداً منهم

---

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٣٦ ـ ٥٣٧.
(٢) في الأصل: والآيات. انظر تفسير القرطبي ١/٦٠.
(٣) تحفة الأحوذي، أبواب التفسير ٨/٤٧٧ ـ ٤٨٠.
(٤) تفسير القرطبي ١/٥٩.
(٥) في الأصل: «ملك». والمثبت عن تفسير القرطبي، ومالك ـ على وزن فاعل ـ قراءة عبد الله بن مسعود. انظر البحر المحيط ١/٢٠.
(٦) عن تفسير القرطبي ١/٥٩.
(٧) في الأصل: «فابدأ بما انتهى إليك». والمثبت عن تفسير القرطبي ١/٥٩ ـ ٦٠.

قال : إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودَرْسِهِ ، وإنه لا يحل لأحد أن يقرأ [١] الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل [٢] الكهف ، ألا ترى إلى قول عائشة : « ولا يَضُرُّكَ أَيَّةً قَرَأْتَ قبلُ » . وقد كان النبي ـ ﷺ ـ يقرأ في الصَّلاَة السُّورَةَ في ركعةٍ ثُمَّ يقرأ في الركعة الأخرى بغير السورة التي تليها . قال : وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوساً [٣] ، وقالا : إنما ذلك منكوس القلب . فإنَّما عَنَيا بذلك من يقرأ السورةَ منكوسةً ، فيبتدىء بآخرها إلى أَوَّلها ، فإن ذلك حرامٌ محظور .

ثم قال البخاري : حدثنا آدم ، عن شعبة ، عن أبي إسحاق قال : سمعت عبد الرحمٰن بن يزيد قال : سمعت ابن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : إنهن من العتاق الأُوَلِ ، وهُنَّ من تِلَادِي [٤] .

انفرد بإخراجه البخاري . والمراد منه ترتيب هذه السور في مصحف ابن مسعود كالمصاحف العثمانية . وقوله : « من العتاق الأُوَل » ، أي : من قديم ما نَزَل . وقوله : « وهُنَّ من تلادي » ، أي : من قديم ما قَنيت وحَفِظْت ، والتالد في لغتهم قديم المال والمتاع ، والطارف حديثُه وجديدُه ، والله أعلم .

حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، حدثنا أبو إسحاقَ : سمع البراءَ بـن عازبٍ يقولُ : تعلمتُ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قبل أن يَقْدَم النبيُّ ﷺ .

وهذا متفق عليه ، وهو قطعة من حديث الهجرة . والمراد منه أن ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ مكية نزلت قبل الهجرة ، والله أعلم .

ثم قال : حدثنا عَبْدَانُ ، عن أبي حَمْزَةَ ، عن الأعمش ، عن شقيق ، قال : [قال] [٥] عبد الله : لقد علمت النَّظائر التي كان النبي ـ ﷺ ـ يقرأهن اثنين اثنين في [كلِ] [٥] ركعة ، فقام عبد الله ودخل معه [علقمة] [٥] وخرج علقمة فسألناه ، فقال : عشرونَ سورة [٦] من أَوَّلِ المُفَصَّل على [٧] تأليف ابن مسعود ، آخرهن [٨] مِنَ الحواميم ﴿حم﴾ الدخان و ﴿عَمَّ يتساءلون﴾ [٩] .

وهذا التأليف الذي عن ابن مسعود غريبٌ مخالفٌ لتأليفِ عثمان ـ رضي الله عنه ـ فإنَّ المُفَصَّلَ في مُصحَفِ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ من سورة الحجرات إلى آخره ، وسورة الدخان لا تدخل فيه بوجه ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا عبدُ الرحمٰن بن مهدي ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمٰن الطائفي ، عن عثمان بن عبد الله بن أوس الثقفي ، عن جده أوس بن حُذَيفَةَ قال : كنتُ في الوفدِ الذين أَتَوُا النبـيَّ ﷺ . فذكر حديثاً فيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يَسمُرُ معهم بعد العشاء ، فمكث عنا ليلة لم يأتنا ، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء ،

(١) في تفسير القرطبي : يتلقن .
(٢) في الأصل : بعد الكهف . والمثبت عن تفسير القرطبي .
(٣) في الأصل : مقلوباً .
(٤) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٢٨ .
(٥) عن البخاري .
(٦) في الأصل : أولها من المفصل .
(٧) في الأصل : عن .
(٨) في الأصل : وآخرهنّ .
(٩) البخاري، فضائل القرآن ٦/٢٢٩ .

قال : قلنا : ما أمكثك عنا يا رسول الله ؟ قال : طرأ عليَّ حِزبٌ من القرآن ، فأردت ألاَّ أخرج حتى أقضيه . قال : فسألنا أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ حين أصبحنا [قال] [١] قلنا : كيف تُحزِّبون القرآن ؟ قالوا : نحزِّبه ثلاث سُوَرٍ ، وخَمْسَ سور ، وسَبْعَ سُوَرٍ ، وتسع سُوَرٍ ، وإحدى عشرةَ سورةً ، وثلاث عشرة سورة ، وحزب المُفَصَّل من قاف حتى يختم [٢] .

ورواه أبو داود وابن ماجة[٣] من حديثِ عبدالله بن عبد الرحمٰن بن يعلى الطائفي ، به . وهذا إسناد حسنٌ .

فصل

فأما نقطُ المصحفِ وشكلُه ، فيقال : إنَّ أوَّل من أمَر به عبد الملك بن مروان ، فتصدَّى لذلك الحجاج وهو بواسط ، فأمر الحسن البصري ويحيى بن يَعْمَر ففعلا ذلك . ويقال : إن أول من نَقَطَ [المصحف] أبو الأسود الدؤلي ، وذكروا أنه كان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يَعْمَر [٤]، والله أعلم .

وأما كتابة الأعشار على الحواشي فَنُسِب إلى الحجاج أيضاً ، وقيل : بل أول من فعله المأمون ، وحكى أبو عَمْرو الداني ، عن ابن مسعود أنه كَرِهَ التعشير في المصحف ، وكان يَحُكُّه ، وكره مجاهد ذلك أيضاً .

وقال مالك : لا بأس به بالحبر فأما بالألوان المصبغة فلا ، وأكره [٥] تعداد آي السور في أولها في المصاحف الأُمَّهات، فأما ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرى به بأساً .

وقال قتادة : بدأوا فنقطوا ، ثم خَمَّسوا ثم عَشَّروا .

وقال يحيى بن أبي كثير : أول ما أحدثوا النقط [على الباء والتاء والثاء ، وقالوا : لا بأسَ به ، هو نورٌ له ، ثم أحدثُوا نقطاً] [٦] عند آخر الآي ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم .

ورأى إبراهيم النَّخعِيُّ : «فاتحةُ سورةِ كذا»، فأمر بمحوها وقال: قال ابن مسعود: لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس فيه .

قال أبو عمرو الداني : ثم قد أطبق المسلمون في سائر الآفاق على جواز ذلك في الأُمَّهاتِ وغيرها[٤] .

ـ ٧ ـ

[عَرْضُ جبريل القرآن على النبي ﷺ]

ثم قال البخاري : كان جبريلُ يعرض القرآن على النبي ﷺ. قال مسروق عن عائشة ، عن فاطمة ـ رضي الله عنهما ـ أسر إليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ أن جبريل كان يُعَارِضُني بالقرآن كل سنةٍ ، وإنه عارضني العام مرَّتين، ولا أُراه إلا حَضَر أجلي [٧] .

---

(١) عن المسند .

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٩.

(٣) سنن أبي داود ، أبواب قراءة القرآن ٣/٥٤، وابن ماجه ، كتاب الإقامة ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .

(٤) انظر تفسير القرطبي ١/٦٣.

(٥) في الأصل : وكره .

(٦) عن تفسير القرطبي .

(٧) البخاري ، فضائل القرآن ٦/٢٢٩.

هكذا ذكره مُعَلَّقاً. وقد أسنده في موضع آخر (١).

ثم قال : حدثنا يحيى بن قَزَعَة ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن الزهري ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس قال: كان النبي - ﷺ - أجود الناس بالخير، وأجودُ ما يكون في شهر رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلةٍ في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرِضُ عليه رسولُ الله -ﷺ- القرآنَ ، فإذا لقِيه جبريل كان أجودَ بالخير من الريح المرسلة(٢).

وهذا الحديث متفق عليه . وقد تَقَدَّم الكلام عليه في أول الصحيح ، وما فيه من الحِكَمِ والفوائِدِ ، والله أعلم .

ثم قال : حدثنا خالد بن يَزِيدَ ، حدثنا أبو بكرٍ ، عن أبي حُصَينٍ ، عن أبي صالح ، عن أبي هُرَيرَةَ ، قال : كان يعرض عليَّ النبيَّ -ﷺ- القرآنَ كُلَّ عامٍ مَرَّةً ، فعرَضَ عليه مرَّتين في العام الذي قُبِض فيه ، وكان يعتكف كلَّ عام عشراً فاعتكف عِشْرِينَ في العام الذي قُبِضَ (٢).

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، من غير وجه ، عن أبي بكر - وهو ابن عياش - عن أبي حُصَين - واسمه عثمان بن عاصم - به (٣).

والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة مقابلته (٤) على ما أوحاه إليه عن الله تعالى ، ليبقى ما بقي ، ويذهب ما نُسِخ توكيداً ، أو استثباتاً وحفظاً ، ولهذا عرضه في السنة الأخيرة من عمره - عليه الصلاة والسلام - على جبريل مَرَّتين ، وعارضه به جبريل كذلك، ولهذا فهم - عليه الصلاة والسلام - اقتراب أجله . وعثمان - رضي الله عنه - جمع المصحف الإمام على العرضة الأخيرة ، وخُصَّ بذلك رمضانُ من بين الشهور لأن ابتداء الإيحاء كان فيه ، ولهذا يُستَحَبُّ دراسة القرآن وتكرارُه فيه ، ومن ثَمَّ كَثُر اجتهادُ الأئمةِ فيه في تلاوة القرآنِ ، كما تقدم ذكرنا لذلك .

- ٨ -

باب القراء من أصحاب النبي ﷺ

حدثنا حفصُ بن عُمَرَ ، حدثنا شعبة ، عن عَمْرٍو ، عن إبراهيم ، عن مسروقٍ : ذَكَرَ عبدُ الله بن عَمْرو عَبْدَ الله (٥) بن مسعود ، فقال : لا أزال أُحِبّه (٦)، سمعت رسول الله -ﷺ- يقول : خذوا القرآن من أربعة : مِنْ عبد الله ، وسالمٍ ، ومعاذِ بن جَبَلٍ ، وأُبَيِّ بن كعب(٢). رضي الله عنهم .

وقد أخرجه البخاري في المناقب في غير موضع ، ومسلم والنسائي من حديث شعبةَ ، عن عمرو بن مُرَّةَ بهِ . وأخرجاه والترمذيُّ (٧) والنسائي أيضاً من حديث الأعمش ، عن أبي وائلٍ ، عن مسروق ، به .

(١) البخاري ، كتاب المناقب ٢٤٧/٤ - ٢٤٨.
(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٢٩/٦.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الصوم ٣٣٢/٢، وأخرجه النسائي في فضائل القرآن من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٤٣٧/٩، وسنن ابن ماجه، كتاب الصيام ٥٦٢.
(٤) في الأصل : مقابلة .
(٥) في الأصل : وعيد .
(٦) في الأصل : أحبهما .
(٧) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ٤٥/٥، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ١٩١٣، وتحفة الأحوذي ، أبواب المناقب ٣١٢/١٠.

فهؤلاء الأربعة اثنان من المهاجرين الأولين عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ، وقد كان سالم هذا من سادات المسلمين ، وكان يؤمُّ الناس قبل مقدم النبي ـ ﷺ ـ في المدينة . واثنان من الأنصار معاذ بن جَبَل وأُبَيُّ بن كعب ، وهما سيِّدان كبيران، رضي الله عنهم أجمعين.

ثم قال : حدثنا عُمَر بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، حدثنا شقيق بن سلمة قال : خَطَبنا عبد الله فقال : والله لقد أخذت مِنْ فِي رسول الله ـ ﷺ ـ بضعاً وسبعين سورةً ، و[الله] (١) لقد علم أصحاب محمد (٢) ـ ﷺ ـ أنِّي من أعلمهم بكتاب الله ، وما أنا بخيرهم . قال شقيق : فجلست في الحِلَق أسمعُ ما يقولون ، فما سمعت راداً يقول غير ذلك (٣).

حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة قال : كنا بحمص فقرأ ابن مسعود سورة يوسف ، فقال رجل : ما هكذا أنزلت . فقال : قرأتُ على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أحسنتَ . ووجدَ منه ريح الخمر ، فقال : أتجترىء (٤) أن تُكَذِّبَ بكتاب الله وتشرب الخمر؟! فجلده (٥) الحد (٦).

حدثنا عُمَر بن حفص ، حدثنا أبِي ، حدثنا [الأعمش ، حدثنا] (٧) مسلم ، عن مسروق قال : قال عبد الله : والله الذي لا إله غيره ما أُنْزِلت سورةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلَتْ ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمَنْ أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تُبَلِّغُهُ الإبلُ لركبتُ إليه(٦).

وهذا كلُّه حق وصدق ، وهو من إخبار الرجل بما يعلم من نفسه ما قد يجهله غيره ، فيجوز ذلك للحاجة ، كما قال تعالى إخباراً عن يوسف لما قال لصاحب مصر : ﴿ اجعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، ويكفيه مدحاً وثناءً قول رسول الله ـ ﷺ ـ : « استقرئوا القرآن من أربعة » فبدأ به .

وقال أبو عُبَيد : حدثنا مصعب بن المقدام ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عمر ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: « من أحبَّ أن يَقْرأَ القرآن غَضًّا كما أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ على حَرْفِ ابنِ أُمِّ عبدٍ ».

وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ (٨) ، عن أبي مُعاوية ، عن الأعمش ، به ، مُطَوَّلاً ، وفيه قصة . وأخرجه الترمذيُّ والنسائيُّ من حديث أبي معاويةَ ، وصحَّحَهُ الدارقطني . وقد ذكرته في مسند عُمَر (٩). وفي مسند الإمام أحمد أيضاً ، عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فَلْيَقْرَأْهُ على قراءة ابن أم عبد » (١٠). وابن أُمِّ عبدٍ هو عبد الله بن مَسْعُودٍ ، وكان يُعرَفُ بذلك .

ثم قال البخاري: حدثنا حفص بن عُمَر، حدثنا هَمّام، حدثنا قتادة، [قال](١): سألت أنس بن

(١) عن البخاري .
(٢) في البخاري : النبي .
(٣) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٤) في البخاري : أتجمع .
(٥) في البخاري : فضربه .
(٦) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٠ .
(٧) سقط من الأصل .
(٨) مسند الإمام أحمد ١/٢٦ . وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ١/٢٧٩ ـ ٢٨٠ ، وأخرجه النسائي في المناقب من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٨/٩١ .
(٩) في الأصل : في سند عن عمر . والمثبت عن الطبعة السابقة .
(١٠) مسند الإمام أحمد ٢/٤٤٦ .

مالك : من جَمَعَ القرآن على عهد رسول الله ﷺ ؟ قال : أربعةٌ كُلُّهم من الأنصار : أُبَيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيدُ بن ثابت ، وأبو زيد (١) .

ورواه مسلم (٢) من حديث هَمَّام .

ثم قال البخاري : تابعه الفضلُ ، عن حُسَين بن واقد ، عن ثمامة ، عن أنس .

حدثنا مُعَلَّى بن أسد ، حدثنا عبد الله بن المثنى قال : حدثني ثابت [البُنَاني] (٣) وثمامة، عن أنس بن مالك قال : مات النبي ـ ﷺ ـ ولم يجمَع القرآن غيرُ أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت [وأبو زيد] (٣)، قال : ونحن ورثناه .

فهذا الحديثُ ظاهرهُ أنه لم يَجْمَع القرآنَ من الصَّحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط ، وليس هذا هكذا ، بل الذي لا شَكَّ فيه أنه جمعه غير واحد من المهاجرين أيضاً ، ولعلّ مراده لم يجمع القرآن من الأنصار [ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار] (٤) وهم أُبيّ بن كعب في الرواية الأولى المتفق عليها ، وفي الثانية من أفراد البخاري : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . وكلهم مشهورون إلا أبا زيد هذا فإنه غيرُ معروفٍ إلا في هذا الحديث ، وقد اختُلِف في اسمه . فقال الواقدي : اسمه قيس بن السَّكَن بن [قيس بن] زعوراء بن حَرَام بن جُنْدَبِ بن عامر بن غَنْمٍ بن عدي بن النجّار (٥) . وقال ابن نُمَير : اسمه سعد بن عُبَيْدٍ بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أمية ، من الأوس . وقيل : هما اثنان جمعا القرآن . حكاه أبو عمر بن عبد البر . وهذا بعيد . وقول الواقدي [أصحّ](٦)، لأنه خزرجي لأن أنساً قال : ونحن ورثناه ، وهم من الخزرج ، وفي بعض ألفاظه : وكان أحد عمومتي . وقال قتادة ، عن أنس : قد افتخر الحيان الأوسُ والخزرجُ ، فقالت الأوس : منا غَسِيلُ الملائكة حنظلة بن أبي عامر ، ومنا الذي حَمَته الدَّبْرُ عاصم بن ثابت ، ومِنَّا الذي اهتزَّ لموته العرشُ سعد بن معاذ، ومنا من أُجيزت شهادته بشهادةِ رجلين خُزَيمةُ بن ثابت. فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ: أبي بن كعب، ومعاذ بن جَبَل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد(٧) .

فهذا كلُّه يدلُّ على صحة قول الواقدي . وقد شهد أبو زيد هذا بدراً فيما ذكره غير واحد . وقال موسى بن عقبة ، عن الزهري : قُتِل أبو زيد قيسُ بنُ السَّكَنِ يومَ جِسْرِ أبي عُبَيد على رأس خمس عشرة من الهجرة .

والدليل على أن من المهاجرين من جمع القرآن أنَّ الصديق ـ رضي الله عنه ـ قَدَّمه رسول الله ـ ﷺ ـ في مَرَضِه (٨) إماماً على المهاجرينَ والأنصارِ ، مع أنه ﷺ قال : «يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله » ، فلولا أنه كان أقرأهم لكتاب الله لما قَدَّمه عليهم . هذا مضمونُ ما قرره الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري . وهذا التقرير لا يُدْفَع ولا شَكَّ فيه . وقد جَمَع الحافظُ ابنُ السمعاني في ذلك جزءاً ، وقد بسطتُ (٩) تقرير ذلك في

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٠ .

(٢) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ١٩١٤ ـ ١٩١٥ .

(٣) عن البخاري.

(٤) عن الطبعة السابقة .

(٥) المغازي ١٦٤ .

(٦) عن الطبعة السابقة .

(٧) انظر أسد الغابة ٦/١٢٨ .

(٨) في الأصل : في زمنه . والمثبت عن الطبعة السابقة .

(٩) في الأصل : بسط .

كتاب مسند الشيخين، رضي الله عنهما .

ومنهم عثمان بن عفان ، وقد قرأه [١] في ركعة ـ كما سنذكره ـ وعلي بن أبي طالب ، يقال : إنه جمعه على ترتيب ما أنزل ، و[قد] قدمنا هذا . ومنهم عبد الله بن مسعود ، وقد تقدم عنه أنه قال : ما من آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت ؟ وفيم أنزلت ؟ ولو علمتُ أحداً أعلَمَ مِنّي بكتاب الله تبلغه المطيُّ لذهبت إليه . ومنهم سالمٌ مولى أبي حذيفة ، كان من السادات النجباء والأئمة الأتقياء ، وقد قُتِل يوم اليمامة شهيداً . ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ـﷺ ـ وترجمان القرآن ، قد تقدم عن مجاهد أنه قال: قرأت القرآن على ابن عباس مرتين أَقِفُه عند كل آية وأسأله عنها، ومنهم عبدالله بن عمرو[كما رواه النسائي وابن ماجه ، من حديث ابن جُرَيج ، عن عبد الله بن أبي مُلَيكة ، عن يحيى بن حكيم بن صفوان ، عن عبد الله بن عمرو] [٢] قال : جمعت القرآن فقرأت به كلّ ليلة فبلغ ذلك رسول الله ـﷺ ـ فقال : « اقرأه في شهر ». وذكر تمام الحديث [٣].

ثم قال البخاري : حدثنا صدقةُ بن الفَضْلِ ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، عن حَبيب بن أبي ثابت ، عن سعيد بن جُبَيرٍ ، عن ابن عباس قال : قال عُمَر : عليٌّ أقضانا [٤] وأُبَيٌّ أقرَؤُنا ، وإنا لندع من لحن أُبَيٍّ وأُبَي يقول : أخذتُه من فِي رسول الله ـﷺ ـ فلا أتركه لشيء . قال الله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾[٥]. وهذا يدل على أن الرجل الكبير قد يقول الشيءَ يظنُّه صواباً وهو خطأٌ في نفسِ الأمْر ، ولهذا قال الإمام مالك : ما من أحد إلا يُؤْخَذُ من قوله ويُرَدّ إلا قول صاحبَ هذا القبر . أي : فكلُّه مقبول، صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ذكر البخاري فضل فاتحة الكتاب وغيرها ، وسنَذْكُرُ فَضْلَ كل سورة عندها ليكون ذلك أَنْسَبَ .

ـ ٩ ـ

[نزولُ السكينةِ والملائكةِ عند القراءة]

ثم قال [٦] :

وقال الليث : حدثني يزيد بن الهادِ ، عن محمد بن إبراهيم ، عن أُسَيد بن الحُضَير قال : بينما هو يَقرأُ من الليل سورةَ البقرة وفرسُه مربوطةٌ عنده ، إذ جالت الفرسُ ، فسكت فسكنَتْ ، ثم قرأ [٧] فجالت ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشفق أن تُصيبَه ، فلما اجترَّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حَدَّث النبي ـﷺ ـ فقال : « اقرأ يا ابن حُضَيْر ، اقرأ يا ابن حُضَير » . قال : فأشفقت يا رسـول الله أن تَطَأَ يحيى ، وكان منها قريباً ، فرفَعْتُ رأسي وانصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثالُ المصابيح، فخرجت [حتى] [٨] لا أراها . قال : « أوَ

(١) في الأصل : قرأ .
(٢) عن الطبعة السابقة .
(٣) أخرجه النسائي في كتاب فضائل القرآن من سُنَنه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٣٨٨/٦، وسنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ٤٢٨ .
(٤) « علي أقضانا » ، ليست في البخاري في كتاب الفضائل . وهي في كتاب التفسير من رواية البخاري عن عمرو بن علي ، عن يحيى . انظر كتاب التفسير ٢٣/٦ ـ ٢٤ . وستأتي هذه الرواية عند آية البقرة ١٠٦ .
(٥) البخاري ، كتاب الفضائل ٢٣٠/٦ .
(٦) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٣٤/٦ .
(٧) في البخاري : فقرأ .
(٨) سقط من الأصل .

تَدْري (١) ما ذاك ؟» قال : لا . قال : « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظر الناسُ إليها ، لا تتوارى منهم » . قال ابن الهادِ : وحدثني هذا الحديث عبد الله بن خَبَّاب ، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ ، عن أُسَيْدِ بن الحُضَير (٢) .

هكذا أورد البخاري هذا الحديث مُعَلَّقاً ، وفيه انقطاع في الرواية الأولى ، فإن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيميَّ المدني تابعيٌّ صغيرٌ [لم يُدرِك أُسَيـداً لأنه مات سنة عشرين ، وصلى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما . ثم فيه غرابة] (٣) من حيث إنه قال : وقال الليث : حدثني يزيد بن الهادِ ، ولم أره بسند متصل عن الليث بذلك (٤)، إلا ما ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في الأطراف أن يحيى بن عبد الله بن بكير رواه عن الليث كذلك ، وقد رواه الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن . فقال :

حدثنا عبد الله بن صالح ويحيى بن بكير، عن الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهادِ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أُسَيد بن حُضَير. فذكر الحديث إلى آخره. ثم قال ابن الهادِ: وحدثني عبد الله بن خَبَّاب، عن أبي سَعِيدٍ، عن أُسَيد بن حُضَيرٍ بهذا.

وقد رواه النسائي في فضائل القرآن، عن محمد بن عبد الله بن [عبد](٥) الحكم، عن شعيب بن الليث، وعن علي بن محمد بن علي، عن داود بن منصور كلاهما، عن الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن يزيد بن عبد الله، وهو ابن الهادِ، عن عبد الله بن خبَّاب، عن أبي سعيد، عن أُسَيد، به. ورواه يحيى بن بُكَير، عن الليث كذلك أيضاً، فجمع بين الإسنادين. ورواه في المناقب عن أحمد بن سعيد الرباطي، عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن يزيد بن الهادِ، عن عبد الله بن خَبَّاب، عن أبي سعيد، أن أُسَيْدَ بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مِرْبَدِه . . . الحديث. ولم يقل: عن أُسَيد. ولكن ظاهره أنه عنه، والله أعلم.

وقال أبو عُبَيد : حدثني عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن ابن شهاب ، عن [ابن] (٦) أُبَيِّ بن كعب ، عن أُسَيد بن حُضَير : أنه كان على ظهر بيته يقرأ القرآن ، وهو حسن الصوت . ثم ذكر مثل هذا الحديث أو نحوه .

حدثنا قَبِيصَة ، عن حَمَّاد بن سَلَمَةَ ، عن ثابت البُنَاني ، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى ، عن أُسَيدِ بن حُضَير قال: قلت: يا رسول الله بينما أنا أقرأ(٧) البارحة بسورة، فلما انْتَهَيْتُ إلى آخرها سمعت(٨) وجبةً من خلفي حتى ظننت أنَّ فَرَسي تَطَلَّقُ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «اقرأ أبا عَتيكٍ»(٩). ⁽٦- قال: فالتفتُّ إلى أمثال المصابيح ملْءِ ما بين السماء والأرض. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «اقرأ أبا عتيك»]⁻⁶⁾ فقال: والله ما استطعت أن أمضي . فقال : « تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن ، أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب » .

---

(١) في البخاري : وتدري .
(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٤ .
(٣) عن الطبعة السابقة .
(٤) في الأصل : لذلك .
(٥) سقط من الأصل. وانظر تحفة الأشراف للمزي ١/٧١.
(٦) عن فضائل القرآن لأبي عبيد .
(٧) في فضائل القرآن : أقرأ القرآن .
(٨) في الأصل : سجدت . والمثبت عن الفضائل ، وفيه : سمعت رَجَّةً .
(٩) في الأصل : اقرأ فما عليك . والمثبت عن الفضائل .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، سَمِعَ البراء يقول : بينما رجل يقرأ سورة الكهف ليلة إذ رأى دابَّته تركض ـ أو قال : فرسه يركض ـ فنظر فإذا مثل الضبابة أو مثل الغمامة ، فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « تلك السكينة نزلت للقرآن أو تنزلت على القرآن » (١) .

وقد أخرجه صاحبا (٢) الصحيح من حديث شعبة . والظاهر أن هذا هو أُسَيد بن الحُضَير ، رضي الله عنه . فهذا ما يتعلق بصناعة الإسناد . وهذا من أغرب تعليقات البخاري رحمه الله . ثم سياقُه ظاهرٌ فيما تَرْجم عليه من نزول السكينة والملائكة عند القراءة . وقد اتفق نحو هذا الذي وقع لأسيد بن الحضير لثابت بن قيس بن شَمَّاس ، كما قال أبو عبيد :

حدثنا عَبَّادُ بنُ عَبَّادٍ ، عن جرير بن حازم ، عن عمه جرير بن يزيد ، أنّ أشياخ أهل المدينة حَدَّثُوه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قيل له : ألم تر ثابت بن قيس بن شَمَّاس لم تزل داره البارحة تُزْهِرُ (٣) مصابيح ؟ قال : « فلعله قرأ سورة البقرة » . قال : فسُئِل (٤) ثابت . فقال : قرأت سورة البقرة .

وفي الحديث المشهور الصحيح : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » . رواه (٥) مسلم عن أبي هريرة ولهذا قال الله تارك وتعالى : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ . وجاء في بعض التفاسير أن الملائكة تشهده . وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيعرج إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ـ وهو أعلم بهم ـ : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » (٦) .

ـ ١٠ ـ

باب في مَا تَرَكَ النبيُّ ـ ﷺ ـ إلاّ ما بينَ الدَّفَّتين

حدثنا قتيبة [بن سعيد] (٧)، حدثنا سفيان ، عن عبد العزيز بن رُفَيعٍ قال : دخلت أنا وَشَدَّادُ بن مَعْقِل على ابن عباس فقال له شداد بن معقل : أَتَرَكَ (٨) النبيُّ ـ ﷺ ـ من شيء ؟ قال : ما ترك إلا ما بين الدفّتين . قال : ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه ، فقال : ما ترك إلا ما بين الدفتين (٩) .

تفرَّد به البخاريُّ . ومعناه أنَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما تَرَكَ مالاً ولا شيئاً يُورَثُ عنه ـ كما قال عَمْرو بن الحارث ، أخو جُوَيرية بنت الحارث : ما ترك رسول الله ـ ﷺ ـ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً (١٠) .

(١) منحة المعبود ٢/٣ .
(٢) البخاري ، كتاب المناقب ٤/٢٤٥ ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٨ .
(٣) في الأصل : « تزهو مصابيح » . والمثبت عن الفضائل .
(٤) في الأصل : فسألت . والمثبت عن الفضائل .
(٥) مسلم ، كتاب الذكر ٢٠٧٤ .
(٦) البخاري ، كتاب المواقيت ١/١٤٥ ـ ١٤٦ ، ومسلم ، كتاب المساجد ٤٣٩ .
(٧) عن البخاري .
(٨) في الأصل : ما ترك .
(٩) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٤ .
(١٠) أسد الغابة ٤/٢١١ ـ ٢١٢ .

وفي حديث أبي الدَّرداء : « إنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دِيناراً ولا درهماً وإنما ورَّثوا العِلْم ، فمن أخذ أخذه بحظ وافر » (١). ولهذا قال ابن عباس : وأنما ترك ما بين الدَّفَّتين ـ يعني : القرآن ـ والسنةُ مفسِّرة له ومبيِّنة وموضحة له ، فهي تابعة له . والمقصودُ الأعظم كتابُ الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ (٢) الآية . فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يُخْلَقُوا للدنيا يجمعونها ويُوَرِّثونها ، وإنما خُلِقوا للآخرة يَدْعُون إليها ويُرَغِّبون فيها . ولهذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لا نُورَثُ ، ما تركنا فهو صدقة » (٣). وكان أولَ من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لما سُئِل ميراثَ رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبر عنه بذلك ، ووافقه على نقله عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ غير واحد من الصحابة ، منهم(٤) عمر وعثمان وعلي والعباس وطلحة والزبير وعبد الرحمٰن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم . وهذا ابن عباس يقولُه أيضاً عنه ، عليه الصلاة والسلام .

ـ ١١ ـ

باب فضل القرآن على سائر الكلام

حدثنا هُدْبَةُ بن خالد أبو خالدٍ ، حدثنا هَمَّام ، حَدَّثنا قتادةُ ، حدثنا أنس بنُ مالكٍ ، عن أبي موسى رضي الله عنهما ، عن النبي ـ ﷺ ـ : « مثل الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّةِ طعمُها طيبٌ وريحها طيبٌ ، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريحَ لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيبٌ وطعمها مُرٌّ . ومثلُ الفاجرِ الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلَةِ طعمُها مُرٌّ ولا ريح لها » (٥).

وهكذا رواه في مواضِعَ أُخَر (٦) مع بقية الجماعة [من طُرُقٍ] (٧) عن قتادة ، به .

ووجه مناسبةِ الباب لهذا الحديث أنَّ طيب الرائحة دار مع القرآن وجوداً وعدماً ، فدلَّ على شَرَفه على ما سواه من الكلام الصادرِ من البرِّ والفاجر ، ثم قال :

حدثنا مُسَدَّدٌ ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حَدَّثني عبدُ الله بن دينار ، [قال] : سمعتُ ابنَ عُمَرَ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « إنما أجلكم في أجل مَنْ خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومَغْرِبِ الشَّمْسِ ، ومثلُكم ومثلُ اليهودِ والنصارى كمثَلِ رَجُلٍ استعمل عُمَّالاً ، فقال : من يعملُ لي إلى نصفِ النهار على قيراط ؟ فعملت اليهود ، فقال : من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر ؟ فعملت النصارى ، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين . قالوا (٨) : نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً ! قال : هل ظلمتكم من حقكم ؟ قالوا : لا . قال : فذلك فضلي أُوتيه من شئت » (٩).

(١) سنن أبي داود ، كتاب العلم ٣/٣١٧ ، وتحفة الأحوذي ، أبواب العلم ٧/٤٥٠ ـ ٤٥٣ ، وابن ماجه ، المقدمة ٨١ .
(٢) الآية ٣٢ ، من سورة فاطر .
(٣) البخاري ، كتاب الخمس ٤/٩٧ ، ومسلم ، كتاب الجهاد ١٣٧٧ ـ ١٣٧٩ .
(٤) في الأصل : « منهم أبو بكر وعمر » .
(٥) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٤ ـ ٢٣٥ ، ٢٤٤ .
(٦) في الأصل : موضع آخر . وانظر البخاري كتاب الأطعمة ٧/٩٩ ـ ١٠٠ ، وكتاب التوحيد ٩/١٩٨ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٩ ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، والترمذي ، أبواب الأدب ٤/٢٥٩ ، والنسائي ، كتاب الإيمان ٨/١٢٤ ـ ١٢٥ ، وابن ماجه ، المقدمة ٧٧ .
(٧) عن الطبعة السابقة .
(٨) أي : أهل الكتابين ، وانظر فتح الباري ، كتاب المواقيت ٢/٣٨ .
(٩) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٥ .

تفرد به من هذا الوجه . ومناسبتُه للترجمة أن هذه الأمّة مع قصر مُدَّتها فَضَلَتِ الأمم الماضية مع طول مُدَّتها ، كما قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١) . وفي المسند والسنن عن بَهْز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جَدِّهِ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أنتم تُوفُون سبعين أُمَّةً ، أنتم خَيْرُها وأكْرمها على الله » (٢) . وإنما فازُوا بهذا بِبَرَكَةِ الكتاب العَظِيم القرآن الذي شَرَّفه الله على كل كتاب أنزله ، وجعله مهيمناً عليه ، وناسخاً له ، وخاتماً له ، لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملةً واحدة ، وهذا القرآن نَزَل مُنَجَّماً بحسب الوقائع لشدَّة الاعتناء به وبمن أُنزِلَ عليه . فكلُّ مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة ، وأعظمُ الأمم المتقدمة هم اليهودُ والنصارى . فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى ، والنصارى من ثَمَّ إلى أن بعث محمداً ـ ﷺ ـ ثم استعمل أُمَّته إلى قيام الساعة، وهو المشبه بآخر النهار . وأعطى الله المتقدمين قيراطاً قيراطاً ، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين ، ضِعْفَيْ ما أَعْطَى أولئك (٣) فقالوا : أَيْ ربنا ، ما لنا أكثرَ عملاً وأقلَّ أجراً ؟ فقال : هل ظلمتكم شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فذلك فضلي ـ أي : الزائد على ما أعطيتكم ـ أوتيه من أشاء ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفْلَيْن من رحمته ويجعل لكم ﴾ . . إلى أنْ قال : ﴿ لئلاّ يعلمَ أهلُ الكِتَابِ ألاَّ يقدرون على شيءٍ من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٤) .

ـ ١٢ ـ

بابُ الوَصَاةِ بكتاب الله

حَدَّثنا محمد بن يوسفَ ، حدثنا مالك بن مِغْوَلٍ ، حدثنا طلحةُ بن مُصَرِّفٍ قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى : آوْصَىٰ النبيُّ ﷺ ؟ قال : لا . فقلت : كَيْفَ كُتِب على النَّاسِ الوصيةُ ، أُمِرُوا بها وَلَمْ يُوصِ ؟ قال : أوصى بِكِتَابِ الله عز وجل (٥) .

وقد رواه (٦) في مواضع أُخَرَ مع بقيّة الجماعة، إلا أبا داود، من طرق عن مالك بن مِغْوَلٍ ، به . وهذا نَظِيرُ ما تَقَدَّم (٧) عن ابن عباس . ما ترك إلا ما بين الدَّفَّتَيْنِ . وذلك أن الناس كُتِبَ عليهم الوصيةُ في أموالهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عليكم إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ إن تَرَكَ خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين ﴾ (٨) وأما هو ـ ﷺ ـ فلم يترك شيئاً يُورث عنه ، وإنما ترك ماله صدقةً جاريةً من بعده ، فلم يحتج إلى وصيَّةٍ في ذلك ، ولم يوص إلى خليفة يكونُ بعدَه على التنصيص ، لأنَّ الأمر كان ظاهراً من إشارته وإيمائه إلى الصديق . ولهذا لمّا هَمَّ بالوصية إلى أبي بكر ثم عدل عن ذلك . فقال : « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر (٩) » . وكان كذلك . وإنما أوصى الناس باتباع كتاب الله تعالى .

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٤٤٧، والترمذي ، تفسير سورة آل عمران ٣٥٢/٨، وابن ماجه ، كتاب الزهد ١٤٣٣ .

(٣) في الأصل : إلى أولئك .

(٤) الآيتان ٢٨، ٢٩ من سورة الحديد .

(٥) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٣٥/٦ .

(٦) البخاري ، كتاب الوصايا ٣/٤، وكتاب المغازي ١٨/٦، ومسلم ، كتاب الوصية ١٢٥٦، والترمذي ، أبواب الوصايا ٣٠٧/٦، والنسائي ، كتاب الوصايا ٢٤٠/٦، وابن ماجه ، كتاب الوصايا ٩٠٠ .

(٧) في الأصل : « ما تقدم عن أنس ، عن ابن عباس » . وانظر الحديث في موضعه .

(٨) الآية ١٨٠ من سورة البقرة .

(٩) مسلم ، فضائل الصحابة ١٨٥٧ .

- ١٣ -

باب من لم يَتَغَنَّ بالقرآن

وقول الله تعالى : ﴿ أَوَلم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ :

حدثنا يحيى بن بُكَيرٍ ، حدثنا الليث ، عن عُقَيل ، عن ابن شهاب قال : أخبرني أبو سلمة بنُ عبد الرحمٰن ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « لم يأذنِ الله لشيءٍ ما أَذِن لنبيٍّ يَتَغَنَّى بالقرآن » . وقال صاحبٌ له : يُريد يجهر به (١) . فَرْدٌ من هذا الوجه .

ثم رواه عن علي بن عبد الله بن المَدِيني ، عن سفيان بن عُيَينَةَ ، عن الزهري ، به . قال سفيان : [تفسيره] (٢) يَسْتَغْنِي به . وقد أخرجه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عُيَينَةَ (٣) . ومعناه : أنَّ الله ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نَبيٍّ يجهر بقراءته ويُحَسِّنها ، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيبُ الصوتِ لكمالِ خَلْقِهم وتَمام الخشية ، وذلك هو الغايةُ في ذلك ، وهو سبحانَه وتعالى يَسْمَع أصواتَ العباد كلهم بَرِّهم وفاجرهم ، كما قالت عائشة رَضِي الله عنها : سبحان الذي وَسِعَ سمعُه الأصواتَ (٤) ؛ ولكن استماعه لقراءةِ عباده المؤمنين أعظمُ ، كما قال تعالى : ﴿ وما تكونُ في شأنٍ وما تَتْلُو منه من قرآنٍ ولا تعملون من عَمَلٍ إلَّا كُنَّا عليكم شهوداً إذْ تُفيضُونَ فيه ﴾ (٥) . الآية ، ثم استماعُه لقراءة أنبيائه أبلغُ كما دلَّ عليه الحديثُ العظيم ، ومنهم من فسر الأَذَنَ هٰهنا بالأمر ، والأول أولى لقوله : « ما أَذِنَ الله لشيءٍ ما أَذِن لنبي يَتَغَنَّى بالقرآن » ، أي : يجهر به ، والأَذَنُ الاستماع لدلالة السياق عليه ، وكما قال تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقت * وإذا الأرض مُدَّت * وألقت ما فيها وتَخلَّت * وأَذِنَتْ لربِّها وحُقَّت ﴾ ، أي : استمعت لربها وحُقَّت ، أي : وحُقَّ لها أن تستمع أمره وتطيعه . فالأَذَنُ هٰهنا هو الاستماع ، ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجه بسندٍ جَيِّدٍ عن فَضالة بن عُبَيدٍ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَلَّهُ أشدُّ أَذَناً إلى الرَّجُلِ الحَسَنِ الصَّوْتِ بالقرآنِ من صاحب القَيْنَةِ إلى قَيْنَتِه » (٦) .

وقول سفيان بن عُيَينَةَ : إنَّ المراد بالتغنِّي : يَسْتَغني به ، [فإن أراد أنه يستغني به] (٧) عن الدنيا - وهو الظاهر من كلامه الذي تابعه عليه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره - فخلافُ الظاهر من مراد الحديث ، لأنَّه قد فسره بعضُ رواته بالجهر ، وهو تحسينُ القراءة والتَّحْزِينُ بها .

قال حَرْمَلَةُ : سمعت ابن عُيَينة يقول : معناه يستغني به ، فقال لي الشافعي : ليس هو هكذا ، ولو كان هكذا لكان يتغانى به ، إنما هو يتحزَّن ويترنم به . ثم قال حرملة : وسمعت ابن وهب يقول : يترنم به . وهكذا نقل المُزَني والرَّبيعُ عن الشافعي ، رحمه الله .

وعلى هذا فتصديرُ البخاري الباب بقوله تعالى : ﴿ أَوَلم يَكْفِهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتْلَى عليهم إنَّ

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٣٥/٦ - ٢٣٦ .
(٢) عن البخاري .
(٣) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٥ ، والنسائي ، كتاب الافتتاح ١٨٠/٢ .
(٤) البخاري ، كتاب التوحيد ١٤٤/٩ ، وابن ماجه ، المقدمة ٦٧ .
(٥) الآية ٦١ من سورة يونس .
(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ٤٢٥ . وأذَناً - بفتحتين - أي : استماعاً .
(٧) عن الطبعة السابقة .

في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ ، فيه نظر ، لأن هذه الآية الكريمة ذُكِرَت رداً على الذين سألوا آيات تدل على صدقه حيث قال : ﴿ وقالوا لولا أُنزل عليه آية (١) من ربه قُلْ إنَّما الآياتُ عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ الآية . ومعنى ذلك : أولم يكفهم آيةً دالة على صدقك إنزالُنا القرآن عليك ، وأنت رجلٌ أُمِّيٌّ ، ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ أي : وقد جئت فيه بخَبَرِ الأولين والآخرين . فأين هذا من التَّغَنِّي بالقرآن ، وهو تحسينُ الصوتِ به أو الاستغناءُ به عَمَّا عداه من أُمورِ الدنيا؟! فعلى كُلِّ تقدير تصديرُ البابِ بهذه الآية الكريمة فيه نظر .

فصل
في إيراد أحاديثَ في معنى هذا البابِ وذِكْرِ أحكامِ التلاوة بالأصواتِ

قالَ أبو عُبَيدٍ : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن قُبَاث بن رَزِينٍ ، عن علي بن رَبَاح اللَّخْمِيِّ ، عن عُقْبَة بن عامر ، قال : خرج علينا رسولُ الله ـﷺـ يوماً ونحن في المسجد نتدارس القرآن فقال : « تعلموا كتاب الله واقتنوه». قال: وحَسِبْتُ أنه قال: «وتَغَنَّوا به، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتاً من المخاض من العُقُل».

وحدَّثنا عبدُاللهِ بنُ صالحٍ، عن موسى بن علي، عن أبيه، عن عُقْبَةَ بن عامرٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ مِثْلَ ذلك، إلاّ أنه قال: «واقتنوه وتَغَنَّوا به»، ولم يَشُكَّ. وهذا رواه أحمد(٢) والنسائي في فضائل القرآن، من حديث موسى بن علي، عن أبيه، به. ومن حديث عبدالله بن المبارك عن قُبَاث بن رَزِينٍ، عن علي بن رباح عن عُقْبَة. وفي بعض ألفاظه: خرج علينا ونحن نقرأ القرآن فسلَّمَ علينا، وذكر الحديث. ففيه دَلَالَةٌ على السلام على القارِىءِ.

ثم قال أبو عبيد : حدثنا أبو اليمانِ ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم ، عن المهاجر بن حبيب قال : قال رسول الله ـﷺـ : « يا أهل القرآن ، لا تَوَسَّدوا القرآنَ واتلُوه حَقَّ تِلَاوَتِهِ آناءَ الليل والنهارِ ، وتَغَنَّوه ، واقْتَنُوه ، واذكروا ما فيه لعلكم تُفْلِحون». وهذا مُرْسَلٌ .

ثم قال أبو عبيد : قوله : تغنوه يعني اجعلوه غَنَاءَكُم من الفقر ،ولا تَعُدُّوا الإقلال معه فقراً ، وقوله : واقتنوه ، يقول : اقتنوه كما تقتنون (٣) الأموال ، اجعلوه مالكم .

وقال أبو عبيد : حدثني هشام بن عمار ، عن يحيى بن حمزة ، عن الأوزاعي ، حدثني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المُهَاجر ، عن فضالة بن عبيد ، عن النبي ـﷺـ قال : « الله أشد أَذَناً إلى الرجل الحَسَن الصَّوْتِ بالقرآن من صاحِبِ القَيْنَةِ إلى قَيْنَتِه » .

قال أبو عبيد : هذا الحديث بعضهم يزيد في إسناده ، يقول : عن إسماعيل بن عبيد [الله] ، عن مولى فضالة ، عن فضالة . وهكذا رواه ابن ماجه (٤)، عن راشد بن سعيد بن راشد ، عن الوليد ، عن الأوزاعي ،

---

(١) كذا في الأصل بالتوحيد ، وهي قراءة سبعية ، انظر السبعة لابن مجاهد ٥٠١.

(٢) مسند الإمام أحمد ١٤٦/٤ . وتحفة الأشراف للمزي ٣١٣/٧.

(٣)في الأصل : تقتنوا .

(٤)تقدم تخريجه .

عن إسماعيل بن عبيد الله ، عن مَيْسَرة ـ مولى فضالة ـ عن فضالة ، عن النبي ـ ﷺ ـ : « للهُ أشدُّ أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » . قال أبو عبيد : يعني الاستماع . وقوله في الحديث الآخر : ما أَذِنَ الله لشيءٍ ، أي : ما استمع .

وقال أبو القاسم البغوي [١] : حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا سلمةُ بن الفضل ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ، [عن] ابن أبي مليكة ، حدثنا القاسم بن محمد ، حدثنا السائب قال : قال لي سعد : يا ابن أخي ، هل قرأت القرآن ؟ قلت : نعم . قال : غَنِّ به ، فإني سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « غنوا بالقرآن ، ليس منا من لم يُغَنِّ بالقرآن ، وابكوا فإن لم تقدروا على البكاء فتباكوا » .

وقد روى أبو داود من حديث الليث وعمرو بن دينار كلاهما عن عبدالله بن أبي مليكة ، عن عُبيد الله[٢] بن أبي نَهِيك ، عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ليس منا من لم يَتغَنَّ بالقرآن » [٣] .

ورواه ابنُ ماجه من حديث ابن أبي مُلَيكة ، عن عبد الرحمن بن السائب ، عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن هذا القرآن نزل بحَزَنٍ ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، وتغنوا به ، فمن لم يَتَغَنَّ [به] فليس منا » [٤] .

وقال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان بن حسان المخزومي ، عن [ابن] أبي مُلَيكة ، عن عَبْد الله [٢] بن أبي نَهِيك ، عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » . قال وكيع : يعني يستغني به [٥] .

ورواه أيضاً عن حجاج وأبي النضر كلاهما عن الليث بن سعد ، وعن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة ، به [٦] . وفي هذا الحديث كلام طويل يتعلق بسَنَدِه ، ليس هذا موضِعَه ، والله أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا عبد الأعلى بن حماد ، حدثنا عبد الجبار بن الورد : سمعت ابن أبيٍ مليكة يقول : قال عبيد الله بن أبي يزيد : مَرَّ بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته ، فدخلنا عليه ، فإذا رجل رَثُّ البيتِ ، رَثُّ الهيئةِ ، فانتسبنا له فقال : تجار كَسَبَةٌ . فسمعته يقول : سمعت [٧] رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ليس منا من لم يَتغَنَّ بالقرآن » . قال : فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمد ، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال : يُحَسِّنه ما استطاع [٨] .

تَفَرَّد به أبو داود . فقد فُهِم من هذا أنَّ السَّلَف ـ رضي الله عنهم ـ إنما فهموا من التغني بالقرآن ، إنما هو تحسينُ الصوتِ به ، وتحزينُه كما قاله الأئمةُ ـ رحمهم الله ـ ويدلُّ على ذلك أيضاً ما رواه أبو داود حيث قال :

حدثنا عثمان بن أبي شَيْبَةَ ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن طلحة ، عن عبد الرحمٰن بن عوسَجَةَ ،

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ، كان محدّث العراق في عصره [٢١٣ ـ ٣١٧هـ].
(٢) يقال : عَبْدُ الله ، وعُبَيد الله .
(٣) سنن أبي داود ، كتاب الوتر ٤/٧٤.
(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ٤٢٤ .
(٥) مسند الإمام أحمد ١/١٧٢ .
(٦) مسند الإمام أحمد ١/١٧٥ ، ١٧٩ .
(٧) في الأصل : قال رسول الله . والمثبت عن أبي داود .
(٨) سنن أبي داود ، كتاب الوتر ٢/٧٤ ـ ٧٥ . وقوله : « فانتسبنا له فقال : تجار كسبة » ليس في أبي داود .

عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « زَيِّنُوا القرآنَ بأصواتِكم »[(١)].

وأخرجه النسائيّ وابنُ ماجه من حَديثِ شُعْبَة ، عن طَلْحَة ـ وهو ابن مُصَرِّف ـ به . وأخرجه النسائي من طرق أُخَرَ عن طلحة . وهذا إسناد جيد[(٢)].

وقد وَثَّقَ النَّسائي وابن حِبَّان عبدَ الرحمٰن بن عوسَجَةَ هذا . ونقل الأزديّ عن يحيى بن سعيد [(٣- القطان أنه قال : سألت عنه بالمدينة فلم أرَهم يحمدونه .

وقال أبو عبيد القاسم بن سَلّام : حدثنا يحيى بن سعيد]-٣) عن شعبة قال : نهاني أيوب أن أُحدِّث بهذا الحديث : [(٣- زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم . قال أبو عبيد : وإنما كَرِهَ أيوب ـ فيما نرى ـ أن يتأول الناس بهذا الحديث]-٣) الرخصة من رسول الله ـ ﷺ ـ في الألحان المبتدعة ، فلهذا نهاه أن يحدث به .

قلت : ثم إن شعبة روى الحديث متوكلاً على الله ، كما رُوِي له ، ولو تُرِكَ كلُّ حديثٍ يتأوَّله مُبْطِلٌ لتُرِكَ من السُّنَّةِ شيءٌ كثيرٌ ، بل قد تَطَرَّقوا إلى تأويل آياتٍ كثيرةٍ من القرآن وحَمَلُوها على غير محاملها الشرعيَّةِ المرادة ، وبالله المستعانُ وعليه التكلانُ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله .

والمرادُ من تحسين الصوت بالقرآن تطريبُه وتحزينُه والتخشُّعُ به . كما رواه الحافظ الكبير بَقِيّ بن مَخْلَدٍ حيثُ قالَ :

حدثنا أحمد بن إبراهيم ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي ، حدثنا طلحة بن يحيى بن طلحة ، عن أبي بردة بن[(٤)] أبي موسى ، عن أبيه . قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لو رَأَيْتَنِي وأنا أستمعُ قراءتك البارِحَةَ »! قلت : أما والله لو علمت أنك تستمع قراءتي لحبَّرتُها لك تحبيراً .

ورواه مسلم[(٥)] من حديث طلحة ، به . وزاد : « لقد أُوتيتَ مزماراً من مزامر آل داود » . وسيأتي هذا في بابه حيث يذكره البخاري .

والغرضُ أنَّ أبا موسى قال : لو أعلَمُ أنك تستمع لَحَبَّرتُه لك تحبيراً[(٦)]. فَدَلَّ على جواز تعاطي ذلك وتكلّفه وقد كان أبو موسى ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ قد أعطي صوتاً حسناً ـ كما سنذكره ، إن شاء الله ـ مع خشية تامة ، ورقة أهل اليمن الموصوفة . فدل على أن هذا من الأمور الشرعية .

قال أبو عُبَيدٍ : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث، عن يونس، عن ابن شهاب ، عن أبي سلمة قال : كان عمر إذا رأى أبا موسى ، قال : ذَكِّرنا ربَّنا يا أبا موسى . فيقْرَأُ عنده .

وقال أبو عبيد : [حدثنا إسماعيل بن إبراهيم[(٧)]] ، حدثنا سليمان التَّيمِيُّ ـ أو نُبِّئْتُ عنه ـ حدَّثنا أبو

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الوتر ٢/٧٤.
(٢) سنن النسائي ، كتاب الافتتاح ٢/١٧٩، وابن ماجه ، كتاب الإقامة ٤٢٦.
(٣-٣) عن الطبعة السابقة.
(٤) في الأصل : عن أبي موسى .
(٥) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٦.
(٦) تكرر في الأصل بعده : « ورواه مسلم من حديث طلحة به ».
(٧) عن الفضائل .

عثمان النَّهديّ قال : كان أبو موسى يُصَلِّي بنا ، فلو قلت : إني لم أسمع صوت صَنْجٍ قطُ ولا بَرْبطٍ (١) قطُ ، ولا شيئاً قط أحسنَ من صوته .

وقال ابن ماجه : حدثنا العباس بن عثمانَ الدِّمشقي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثني حنظلة بن أبي سفيان أنه سمع عبد الرحمٰن بن سابط الجُمَحي يُحدِّث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : أبطأت على رسول (٢) الله ـ ﷺ ـ ليلةً بعد العشاء ، ثم جئتُ فقال : «أين كنتِ؟». قلت : كنت أستمع (٣) قراءة رجل من أصحابك ، لم أسمع مثل قراءَتِهِ وصوتِهِ من أحد . قالت : فقام فقمت (٤) معه حتى استَمَعَ له ، ثم التفت إليّ فقال : « هذا سالم مولى أبي حذيفة ، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا » (٥). إسناد جيد .

وفي الصحيحين ، عن جُبَير بن مُطْعِم قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً ، أو قال : قراءة منه (٦) . وفي بعض ألفاظه ، فلما سمعته قرأ : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ ، خِلْتُ أن فؤادي قد انصدع . وكان جُبَير لما سمع هذا بعدُ مشركاً على دين قومه ، وإنما قدم في فداء الأسارى بعد بدر ، وناهيك بمن تُؤَثِّر قراءتُه في المشرك المُصِرِّ على الكفر ! وكان هذا سبَبَ هدايته . ولهذا كان أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب ، كما قال أبو عُبَيد :

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن ليث ، عن طاوس قال : أحسن الناس صوتاً بالقرآن أخشاهم لله.

حدثنا قبيصة ، عن سفيان عن ابن جُرَيج ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ـ وعن الحسن بن مسلم ، عن طاوسٌ ـ قال : سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ : أيّ الناس أحسن صوتاً بالقرآن ؟ فقال : « الذي إذا سَمِعْته رأيته يخشى الله ».

وقد روي هذا متصلاً من وجه آخر . فقال ابن ماجه :

حدثنا بشر بن معاذ الضرير ، حدثنا عبد الله بن جعفر المَديني ، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن مُجَمِّعٍ ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حَسِبتُمُوه يخشى الله » (٧).

ولكن عبد الله بن جعفر هذا، [و] هو والد علي بن المديني، وشيخه ضعيفان. والله أعلم.

والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تَدَبُّر القرآن وتَفَهُّمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة . فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع المُلْهِيَة والقانون الموسيقائي ، فالقرآن يُنَزَّه عن هذا ويَجِلُّ ، ويَعْظُمُ أن يُسْلَكَ في أدائه هذا المذهب . وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك ، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام ـ رحمه الله ـ :

---

(١) الصَّنْج : صفيحة مُدَوَّرة من صُفْرٍ يُضْرَب بها على أخرى ، وصفائح صُفْرٌ صغيرة تثبت في أطراف الدفّ أو في أصابع الراقصة يُدَقّ بها عند الطرب . والبربط : الموسيقى .

(٢) في سنن ابن ماجه : « على عهد رسول . . . ».

(٣) في سنن ابن ماجه : اسمع .

(٤) في السنن : وقمت .

(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ١٧٦ .

(٦) بخاري ، كتاب الأذان ١/١٩٤ ، وتفسير سورة والطور ٦/١٧٥ ، ومسلم ، كتاب الصلاة ٣٣٨ .

(٧) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ٤٢٥ .

حدثنا نعيم بن حماد ، عن بقية بن الوليد ، عن حصين بن مالك الفزاري : سمعت شيخاً يُكنى أبا محمد ، يحدث عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله -ﷺ- : « اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحونَ أهل الفِسْق وأهل الكتابين ، وسيجيء قوم من بعدي يُرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنَّوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونةً قلوبُهم وقلوبُ الذين يعجبهم شأنهم ».

حدثنا يزيد ، عن شريك ، عن أبي اليقظان عثمان بن عُمير ، عن زاذان أبي عُمَرَ ، عن عُلَيمٍ ، قال : كنا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبي -ﷺ- قال يزيد : لا أعلمه إلا قال : عابسٌ [١] الغفاري ، فرأى الناس يخرجون في الطاعون ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يفرون من الطاعون ، فقال : يا طاعون ، خذني . فقالوا : تتمنّى الموت ، وقد سمعت رسول الله -ﷺ- يقول : « لا يتمنَّيَنَّ أحدُكم الموت » . فقال : إني أبادر خِصالاً سَمِعْتُ رسولَ الله -ﷺ- يتخوَّفُهُنَّ على أمته : « بيعُ الحُكْم ، والاستخفافُ بالدم ، وقطيعةُ الرحم ، وقومٌ يتخذون القرآن مزامير ، يقدمون أَحَدَهم ليس بأفقههم ولا أفضلهم إلا لِيُغَنّيهم غِناءً » . وذكر خَلَّتين أُخْرَيَيْنِ [٢].

وحدثنا يعقوب بن إبراهيم ، عن ليث بن أبي سليم ، عن عثمان بن عُمَير [٣]، عن زاذان ، عن عابس [١] الغفاري عن النبي -ﷺ- مثلَ ذلك أو نحوه .

وحدثنا يعقوب بن [٤] إبراهيم ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن أنس أنه سمع رجلاً يقرأ بهذه الألحان التي أحدث الناس ، فأنكر ذلك ، ونهى عنه .

هذه طرق حسنة في باب الترهيب . وهذا يدل على أنه محذور كبير ، وهو قراءة القرآن بالألحان التي يُسْلَك بها مذاهبُ الغناء . وقد نصَّ الأئمة -رحمهم الله- على النهي عنه . فأمَّا إن خَرَج به إلى التمطيط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفاً أو ينقص حرفاً فقد اتفق العلماء على تحريمه ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البَزَّارُ : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا روح ، حدثنا عبيد الله بن الأَخْنَسِ ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله -ﷺ- : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن ».

ثم قال : وإنما ذكرناه لأنهم اختلفوا على ابن أبي مليكة فيه ، فرواه عبد الجبار بن الوَرْد عنه ، عن ابن أبي مليكة ، عن أبي لبابة . ورواه عمرو بن دينار ، والليث عنه ، عن ابن أبي نَهيك ، عن سعد . ورواه عَسَل بن سفيان [عنه] [٥]، عن عائشة . ورواه نافع مولى [٦] ابن عمر [عنه] [٥]، عن ابن الزبير [٧] .

- ١٤ -

باب اغتباط صاحب القرآن

حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، حدثني سالم بن عبد الله : أن عبد الله بن عُمَرَ قال :

---

(١) في الأصل : عباس . ويقال فيه : عَبْسٌ . أيضا . انظر أسد الغابة ١٠٩/٣ ، ٥٢٠ .

(٢) هما إمرة السفهاء ، وكثرة الشُّرَط . انظر مسند الإمام أحمد ٤٩٤/٣ .

(٣) في الأصل : عثمان بن أبي عمير . وانظر التهذيب ١٤٥/٧ .

(٤) في الأصل : عن .

(٥) سقط من الأصل .

(٦) في الأصل : عن ابن عمر .

(٧) كشف الأستار عن زوائد البزار ، كتاب التفسير ٩٧/٣ .

سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « لا حَسَد إلا على اثنتين : رجل آتاه الله الكتاب فقام [١] به آناء الليل [٢] ، ورجلٌ أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل والنهار » .

انفرد به البخاري [٣] من هذا الوجه . واتفقا على إخراجه من رواية سفيان ، عن الزهري .

ثم قال البخاري :

حدثنا علي بن إبراهيم ، حدثنا روح ، حدثنا [٤] شعبة ، عن سليمان : سمعت ذكوانَ ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لا حسد إلا في اثنين [٥] : رجلٌ علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار ، فسمعه جار له فقال : ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان ، فعملت مثل ما يَعْمَلُ . ورجلٌ آتاه الله مالاً فهو يُهلِكه في الحق [٦] ، فقال رجل : ليتني أوتيت مثلَ ما أُوتِيَ فلانٌ فعمِلْتُ مثل ما يعمل » [٧] .

ومضمونُ هذين الحديثينِ أَنَّ صاحب القرآنِ في غِبْطَةٍ ، وهو حَسَنُ الحال ، فينبغي أن يكونَ شديدَ الاغتباطِ بما هو فيه ، ويستحبَ تغبيطُه بذلك . يقال : غَبَطَه يَغْبِطُه ـ بكسر الباء ـ غَبْطاً : إذا تمنى مثل ما هو فيه من النعمة . وهذا بخلاف الحَسَد المذموم ، وهو تمني زوال نعمة [المحسود] [٨] عنه ، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا . وهذا مذموم شرعاً ، مُهلِكٌ ، وهو أول معاصي إبليس حين حَسَد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ [على] ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام . والحسد الشرعي الممدوح هو تمني مثل حال ذلك الذي هو على حالة سارة . ولهذا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لا حسد إلا في اثنتين » ، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آناء الليل والنهار . والنعمةَ المتعديةَ ، وهي إنفاق المال بالليل والنهار ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ [٩] . وقد رُوِي نحو هذا من وجه آخر ، فقال عبد الله ابن الإمام أحمد : وجَدت في كتاب أبي بخط يده : كتب إليَّ أبو تَوْبَةَ الربيعُ بن نافعٍ فكان في كتابه :

حدثنا الهيثم بن حُمَيد ، عن زيد بنِ واقد ، عن سُلَيمان [١٠] بن موسى ، عن كثير بن مُرَّةَ ، عن يزيد بن الأخنس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لا تنافَسَ [١١] بينكم إلا في اثنتين : رجلٌ أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار [١٢] ، ويَتَّبع ما فيه ، فيقولُ رجلٌ : لو أَنَّ الله أعطاني مثل ما أعطى فلاناً فأقومَ به كما يقومُ به . ورجلٌ أعطاه الله مالاً فهو يُنْفِق ويَتَصَدَّق ، فيقول رجل : لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلاناً فأتصدقَ به » [١٣] .

وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد :

---

(١) في البخاري : وقام .

(٢) بعده في الأصل : يقول .

(٣) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٦ ، وكتاب التوحيد ٩/١٨٩ ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٥٨ .

(٤) في الأصل : عن شعبة .

(٥) في الأصل : اثنتين .

(٦) في الأصل : الخير .

(٧) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٦ .

(٨) عن الطبعة السابقة .

(٩) الآية ٢٩ من سورة فاطر .

(١٠) في الأصل : سليم . والمثبت عن المسند ، وانظر تهذيب التهذيب ٤/٢٢٦ .

(١١) في الأصل : تنافسوا .

(١٢) لفظ المسند : وآناء النهار .

(١٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٠٥ .

حدثنا عبد الله بن نُمير [١]، حدثنا عبادة بن مسلم ، حدثني يونُس بن خبَّاب [٢]، عن سعيد [أبي] [٣] البختري الطائيّ ، عن أبي كبشة قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ثلاثٌ [٤] أُقسِمُ عليهنَّ ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه . فأما الثلاث التي أُقسِمُ عليهن : فإنه ما نقص مال عبدٍ من صدقة ، ولا ظُلِم عبْدٌ مظلمةً [٥] فيَصْبِرُ عليها إلا زاده الله بها عزاً ، ولا يَفْتَحُ عبدٌ بابَ مسألةٍ إلا فَتَحَ الله له باب فَقْرٍ . وأما الذي أحدثكم حديثاً فاحفظوه ، فإنه قال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتّقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ، ويعمل للّه فيه حَقَّه . قال : فهذا بأفضل المنازلِ . وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو يقول : لو كان لي مال عملت بعملٍ فلان . [قال] [٦] : فأجرُهُما سواءٌ . وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يَتَقِي فيه ربه ، ولا يصل [فيه] [٣] رَحِمَه ، ولا يعمل لله فيه حقه ، فهذا بأخْبَثِ المنازلِ ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو كان لي مال لفعلت بعمل فلان ، قال : هي نِيَّتُه ، فوِزْرُهما فيه سواءٌ»[٦].

وقال أيضاً : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن أبي كبْشَةَ الأنماريّ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « مَثَلُ هذه الأُمَّةِ مَثَلُ أربعة نَفَرٍ ؛ رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل به في ماله ، يُنفقه [٧] في حقه . ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول : لو كان لي مِثْلُ مال[٨] هذا عَمِلت فيه مثل الذي يعمل . قال رسول الله ـ ﷺ ـ : فهما في الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالاً ولم يُؤْتِهِ علماً فهو يَخْبِطُ فيه ، يُنفِقه في غير حقه . ورجل لم يؤته [الله] مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو كان لي مثل هذا عملت فيه [مثل] الذي يعمل ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : فهما في الوِزْرِ سواء»[٩]. إسناد صحيح.

ـ ١٥ ـ

باب خَيرُكم من تَعَلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ

حدثنا حجاج بن مِنْهال ، حدثنا شعبة ، أخبرني علقمة بن مَرْثَدٍ ، سمعت سعد بن عُبَيْدَةَ ، عن أبي عبد الرحمٰن ، عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه » . وأَقْرَأَ أبو عبد الرحمٰن في إِمْرَةِ عثمان ـ رضي الله عنه ـ حتى كان الحجاج ، قال : وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا[١٠].

وقد أخرج الجماعةُ[١١] هذا الحديثَ سِوَى مُسْلِمٍ من رواية شُعْبَةَ ، عن عَلْقَمَةَ بن مَرْثَدٍ ، عن سَعْدِ بن

(١) في المسند : عبد الله بن محمد بن نمير . وانظر تهذيب التهذيب ٥٧/٦.
(٢) في الأصل والمسند : حباب ، بالحاء المهملة . وانظر تهذيب التهذيب ٤٣٧/١١.
(٣) عن المسند .
(٤) في المسند : ثلاثاً .
(٥) في المسند : بمظلمة .
(٦) مسند الإمام أحمد ٢٣١/٤.
(٧) في المسند : فينفقه .
(٨) لفظ المسند : ما لهذا .
(٩) مسند الإمام أحمد ٢٣٠/٤.
(١٠) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٣٦/٦.
(١١) سنن أبي داود ، كتاب الوتر ٧٠/٢، والترمذي ، أبواب ثواب القرآن ٢٢٢/٨ ـ ٢٢٣، وابن ماجه ، المقدمة ٧٦ ـ ٧٧.

عُبَيْدَةَ ، عن أبي عبد الرحمٰن ـ وهو عبد الله بن حَبيبِ السُّلَمِيُّ ـ رحمه الله .

وحدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مَرْثَدٍ، عن أبي عبد الحمٰن السُّلَمِيِّ، عن عثمان بن عفان، قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: « إن أفضلكم من تَعَلَّمَ القرآن وعَلَّمه »(1).

وهكذا رواه الترمذي (2) والنسائي وابن ماجه من طُـرُقٍ ، عن سفيان ، عن علقمـة ، عن أبي عبد الرحمٰن ، من غير ذكر سعد بن عُبَيدة، كما رواه شعبة ، ولم يختلف عليه فيه . وهذا المقام مما حكم لسفيان الثوري فيه على شعبة ، وخطأ بندار يحيى بن سعيد في روايته ذلك عن سفيان ، عن علقمة ، عن سعد بن عُبَيدة، عن أبي عبد الرحمٰن . وقال [رواه] (3) الجماعة من أصحاب سفيانَ عنه ، بإسقاط سعد بن عبيدة . ورواية سفيان أصحُّ في هذا المقام المتعلق بصناعة الإسناد ، وفي ذكره طول لولا الملالة لذكرناه ، وفيما ذُكِر كفاية وإرشاد إلى ما ترك ، والله أعلم .

والغَرَض أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »، وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسل ، وهم الكُمَّل في أنفسهم المكملون لغيرهم ، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي ، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون ، ولا يتركون أحداً ممن أمكنهم أن ينتفع كما قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ (4) وكما قال تعالى : ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾ (5)، في أصح قَوْلَي(6) المفسرين في هذا ، وهو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نَأيهم وبُعدهم عنه ، فجمعوا بين التكذيب والصدِّ ، كما قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴾ (7) . فهذا شأن شرار الكُفَّار ، كما أن شأن خيار الأبرار أن يَكْمُل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . وكما قال تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً مما دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ (8)، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة ، من تعليم (9) القرآن والحديث والفقه وغير ذلك مما(10) يبتغي به وجه الله ، وعمل هو في نفسه صالحاً ، وقال قولاً صالحاً ، فلا أحد أحسن حالاً من هذا . وقد كان أبو عبد الرحمٰن السُّلَمِيُّ ـ أحد أئمة الإسلام ومشايخهم ـ ممن رغب في هذا المقام ، فقعد يعلّم الناس من أمارة عثمان إلى أيام الحجاج ، قالوا : وكان مقدار ذلك الذي مكث فيه يُعَلِّم القرآن سبعين سنة ، رحمه الله وهنَّأه ما طلبه ، آمين .

ثم قال البخاري ـ رحمه الله ـ : حدثنا عمرو بن عون(11)، حدثنا حماد بن أبي حازمٍ ، عن سَهْلٍ بن سعدٍ قال : أتت النبي ـ ﷺ ـ امرأةٌ فقالت : إنها قد وَهَبَتْ نفسها للَّهِ ولرَسُوله . فقال : « ما لي في النساء من

---

(1) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٣٣٦/٦.
(2) الترمذي ، أبواب ثواب القرآن ٢٢٣/٨، وابن ماجه ، المقدمة ٧٧.
(3) عن الطبعة السابقة .
(4) الآية ٨٨ من سورة النحل .
(5) الآية ٢٦ من سورة الأنعام .
(6) في الأصل : قول . وانظر ما يأتي في تفسير هذه الآية .
(7) الآية ١٥٧ من سورة الأنعام .
(8) الآية ٣٣ من سورة فصلت .
(9) في الأصل : تعلم .
(10) في الأصل : فيما .
(11) في الأصل : عوف .

حاجة». فقال رجل: زَوِّجْنِيها. قال: «أعطِها ثوباً». قال: لا أجِدُ. قال: «أعطها ولو خاتماً من حديد». فاعتلَّ له، فقال: «ما معك من القرآن؟» قال: كذا وكذا. قال: «قد زَوَّجْتُكها بما معك من القرآن» (١).

وهذا الحديث مُتَّفقٌ على إخراجه من طرق عَديدةٍ، والغرضُ منه الذي قصَدَه البخاري أن هذا الرجل تَعلَّمَ (٢) الذي تعلمه من القرآن، وأمره النبي أن يُعَلِّمه تلك الامرأة، ويكون ذلك صَداقاً لها على ذلك. وهذا فيه نزاع بين العلماء: هل يجوز أن يُجْعَلَ مثلُ هذا صداقاً؟ أو هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصاً بذلك الرجل؟ وما معنى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «زَوَّجْتُكَها بما معك من القرآن؟» أبسبب ما معك من القرآن؟ كما قاله أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ: نُكْرِمُكَ بذلك. أو بِعِوَضِ ما معك، وهذا أقوى، لقوله في صحيح مسلم: «فَعَلِّمها» (٣)، وهذا هو الذي أراده البخاري هٰهنا، وتحرير ما في الخلاف مذكور في كتاب النكاح والإجارة، وبالله المستعان.

ـ ١٦ ـ
باب القراءة عن ظهر قلب

إنما أفرد البخاري في هذه الترجمة(٤) حديثَ أبي حازم، عن سهل بن سعد، الحديثَ الذي تقدم الآن، وفيه أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لرجل: «فما معك من القرآن؟» قال: معي سورة كذا وسورة كذا ـ لِسُوَرٍ عَدَّدها ـ قال: «أتقرؤهُنَّ (٥) عن ظهر قلبك؟». قال: نعم. قال: «اذهب فقد مَلَّكْتُكَها بما معك من القرآن» (٦).

وهذه الترجمة من البخاري ـ رحمه الله ـ [مشعرة] (٧) بأنَّ قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل ـ والله أعلم ـ ولكن الذي صَرَّح به كثيرون من العلماء أنَّ قراءة القرآن من المصحف أفضلُ، لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف، وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه، واستدلوا على فضيلة التلاوة في المصحف بما رواه الإمام العَلَمُ أبو عُبيدٍ في كتاب فضائِلِ القرآن حيث قال:

حدثنا نُعيم بن حماد، عن بَقِيَّة بن الوليد، عن معاوية بن يحيى، عن سُلَيم (٨) بن مسلم، عن عبد الله بن عبد الرحمٰن، عن بعض أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «فَضْلُ قراءةِ القرآنِ نظراً على من يقرأه ظهراً (٩) كفضل الفريضة على النافلة».

---

(١) البخاري، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٢) في الأصل: يعلمها.
(٣) مسلم، كتاب النكاح ١٠٤١.
(٤) في الأصل: الوجه.
(٥) في الأصل: أتقرأ عن ظهر.
(٦) البخاري، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٧.
(٧) عن الطبعة السابقة.
(٨) في الأصل: سليمان بن مسلم. والمثبت عن الفضائل، ولعله سليم بن مسلم الخشاب المكي، المترجم في الجرح لابن أبي حاتم ٤/٣١٤.
(٩) في الفضائل: ظاهراً

وهذا الإسنادُ ضعيفٌ ، فإنّ معاويةَ بن يحيى هو الصَّدَفِيُّ أو الأطرابلسي ، وأيُّهما كان فهو ضَعيفٌ.

وقال الثوري ، عن عاصم ، عن زِرٍّ ، عن ابن مسعود قال : أَدِيمُوا النَّظر في المُصْحَفِ .

وقال حَمَّادُ بن سَلَمَةَ ، عن علي بن زيد ، عن يوسُفَ بن ماهِكٍ ، عن ابن عباس ، عن عُمَرَ انه كان إذا دخل بيته نَشَر المصحف فَقَرَأ فيه .

وقال حماد أيضاً ، عن ثابت ، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى ، عن ابن مسعود أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانُه نَشَرُوا المصحف فقرءوا وفَسَّرَ لهم . إسناد صحيح .

وقال حماد بن سلمة ، عن حجاج بن أرطاة ، عن ثُوَيرِ بن أبي فاختَةَ ، عن ابن عُمَر ، قال : إذا رجع احدكم من سوقه فَلْيَنْشُرِ المصحَفَ وَلْيَقْرأ .

وقال الأعمش ، عن خَيْثَمَةَ : دخلت على ابن عُمَر وهو يقرأ في المصحف ، فقال : هذا جُزْئي الذي أقرأ به الليلة .

فهذه (١) الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوبٌ ، لئِلا يُعَطَّلَ المصحفُ فلا يقرأ منه ، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه ، أو تحريف كلمة أو آية ، أو تقديم أو تأخير ، فالاستثبات أولى ، والرجوعُ إلى المصحف أَثْبَتُ من أفواه الرجال ، فأما تلقينُ القرآنِ فمن فَم المُلَقِّن أحسنُ لأَنَّ الكتابة لا تدل على كمال الأداء ، كما أَنَّ المشاهد من كثير ممن يحفظُ من الكتابة فقط يَكْثُر تصحيفُه وغَلَطُه ، وإذا أَدَّى الحال إلى هذا مُنِعَ منه إذا وجد شيخاً يُوقِفه على لفظ القرآن . فأما عند العجز عَمَّنْ يُلَقِّن فلا يُكَلِّف الله نَفْساً إلا وُسْعَها ، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوزُ عند الرفاهية ، فإذا قرأ في المصحف والحالةُ هذه فلا حَرَجَ عليه ، ولو فُرِضَ أنه قد يُحرِّف بَعْضَ الكلمات عن لَفْظِها على لُغَتِهِ ولَفْظِه فقد قال الإمام أبو عُبَيد :

حدثني هشام بن إسماعيل الدمشقي ، عن محمد بن شُعَيب ، عن الأوزاعي أن رجلاً صحبهم في سَفَرٍ ، قال : فَحَدَّثنا حديثاً ما أعلمه إلا رَفَعه إلى رسول الله ـﷺـ قال : « إنّ العبد إذا قَرأ فَحرَّفَ أَوْ أخطأ كَتَبه المَلَكُ كما أُنزِلَ » .

وحدثنا حفص بن غياث ، عن الشيباني ، عن بُكَيْر بن الأخنس ، قال : كان يقال إذا قرأ الأعجميُّ والذي لا يُقِيم القرآنَ كتبه المَلَك كما أُنْزِلَ .

وقال بعض العلماء : المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة ، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل ، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضلُ ، فإن استويا فالقراءة نظراً أولى ، لأنها أثبت . وتمتازُ بالنظر في المصحف . قال الشيخ أبو زكريا النووي ـ رحمه الله ـ في التبيان : والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل (٢) .

تـنبيــه :

إن كان البخاريُّ ـ رحمه الله ـ أراد بِذِكْرِه حديثَ سهل للدّلالة على أن تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل منها في المصحف ، ففيه نظر ، لأنها قضية عَيْنٍ ، فَيَحْتَمِل أن ذلك الرجل كان لا يحسن الكتابة ، ويعلم ذلك

(١) هذه الآثار السابقة في فضائل القرآن لأبي عبيد .
(٢) لتبيان في آداب حملة القرآن ٥٣ .

رسول الله ـ ﷺ ـ منه ، فلا يدل على أن التلاوة عن ظهر قلب أفضلُ مطلقاً في حَقّ من يُحْسِن ومن لا يُحْسِنُ ، إذ لو دَلَّ هذا لكان ذكرُ حالِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وتلاوتِه عن ظهر قلب لأنه أمي لا يدري الكتابة أولى من ذكر هذا الحديث بمفرده .

الثاني : أن سياق الحديث إنَّما هو لأجل استثباتِ أنه يحفظ تلك السور عن ظهر قلب ليمكنه تعليمها لزوجته ، وليس المرادُ هُهنا أَنَّ هذا أفضلُ من التلاوة نظراً ، ولا عَدَمِه ، والله تعالى أعلم .

ـ ١٧ ـ

باب استذكار القرآن وتعاهده

حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن نافع ، عن ابن عُمَرَ أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المُعَقَّلَةِ ، إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت » (١).

هكذا رواه مسلم (٢) والنسائي من حديث مالك . وقال الإمام أحمد :

حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، حدثنا مَعْمَرٌ ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « مَثَلُ القرآنِ إذا عاهَدَ عليه صاحبُه فقرأه بالليل والنهار كمثل رجل له إبل ، فإن عَقَلَها حَفِظها ، وإن أطلَقَ عِقَالها ذَهَبَت ، فكذلك صاحب القرآن » (٣).

أخرجاه ، قال : ابن الجوزي في جامع الأسانيد : وإنما هو من أفراد (٤) مسلم ، من حديث عبد الرزَّاق ، به (٥).

وحدَّثنا محمد بن عَرْعَرَةَ ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن أبي وائل ، عن عبد الله ، قال : قال النبي ـ ﷺ ـ : « بئس ما لأحدهم أن يقول : نَسِيتُ آية كيت وكيت ، بل نُسِّيَ ، واستذكروا (٦) القرآن فإنه أشدُّ تَفَصِّياً من صدور الرجال من النَّعَم » (٧).

تابعه بِشْرٌ هو ابن محمد السَّخْتِياني، عن ابن المبارك ، عن شُعْبَةَ(٧).

وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان ، عن أبي داود الطيالسي ، عن شعبة، به، وقال : حسن صحيح . وأخرجه النسائي من رواية شعبة (٨).

وحدثنا عثمان ، حَدَّثنا جرير ، عن منصور ، مثله . وتابعه ابن جُرَيجٍ ، عن عَبْدَةَ (٩)، عن شقيق : سمعت عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ (١٠). وهكذا أسنده مُسْلِمٌ من حديث ابن جُرَيجٍ ، به . ورواه النَّسَائيُّ

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٧ ـ ٢٣٨ .
(٢) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٣ . والنسائي ، كتاب الافتتاح ٢/١٥٤ .
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٦ .
(٤) في الأصل : انفراد .
(٥) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٤ .
(٦) في الأصل : فاستذكروا .
(٧) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٨ .
(٨) الترمذي ، أبواب القرآن ٨/٢٦٢ ـ ٢٦٣ . والنسائي كتاب الافتتاح ٢/١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٩) في الأصل : عبيدة . انظر البخاري ٦/٢٣٨ .
(١٠) هذا لفظ البخاري ٦/٢٣٨ .

في اليوم والليلةِ من حَديثِ محمد بن جُحَادةَ ، عن عَبْدَة ـ وهو ابن أبي لُبَابَةَ ـ به . وهكذا رواه مُسْلِمٌ [(١)] عن عثمان وزهير بن حرب ، وإسحاق بن إبراهيم ، عن جرير ، به . وستأتي رواية البخاريّ له عن أبي نُعَيم ، عن سفيانَ الثوريّ ، عن منصورٍ ، به ؛ والنسائي من رواية ابن عُيَينة عن منصور ، [به]. فقد رواه هؤلاء عن منصور ، به ؛ مرفوعاً [في رواية هؤلاء كلهم . وقد رواه النسائي عن قتيبة ، عن حماد بن زيد، عن منصور ، عن أبي وائل ، عن عبد الله] [(٢)] موقوفاً ، وهذا غريب . وفي مسند أبي يعلى فإنما هو نَسِي بالتخفيف .

حدثنا مُحَمَّد بن العلاء ، حدثنا أبو أسامة ، عن بُرَيدٍ ، عن أبي بُرْدَة ، عن أبي موسى ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ تَفَصِّياً من الإبل من عُقُلِها » [(٣)] .

وهكذا رواه مُسْلِمٌ [(٤)]، عن أبي كُرَيب مُحَمَّد بن العلاء ، وعبد الله بن بَرَّادٍ [(٥)] الأشعري ، كلاهما عن أبي أسامة حَمَّاد بن أسامة ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إسحاق ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا موسى بن عُلَيٍّ : سمعت أبي يقول : سمعت عقبة بن عامر يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « تعلموا كتاب الله وتعاهدوه وتغَنَّوا به ، فوالذي نَفْسِي بيده لهو أَشَدُّ تَفَلُّتاً من المَخَاضِ في العُقُل » [(٦)] .

ومضمونُ هذه الأحاديثِ الترغيبُ في كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهُدِه لِئلا يُعَرِّضَه حافظُه للنسيان فإن ذلك خطر كبير ، نسأل الله العافية منه ؛ فإنه قال الإمامُ أحمدُ :

حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا خالد ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عيسى بن فائد ، عن رَجُلٍ ، عن سعد بن عبادة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من أمير عشرة إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يَفُكّه من ذلك الغُلِّ إلا العدل . وما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم » [(٧)] .

وهكذا رواه جرير بن عبد الحميد ، ومحمد بن فُضَيل ، عن يزيد بن أبي زياد، [كما رواه خالد بن عبد الله . وقد أخرجه أبو داود عن محمد بن العلاء ، عن ابن إدريس ، عن يزيد بن أبي زياد] [(٨)] عن عيسى بن فائد ، عن سعد بن عبادة ، عن النبي ـ ﷺ ـ بقصة نسيان القرآن ، ولم يذكر الرجل المبهم .

وكذا رواه أبو بكر بن عياش ، عن يزيد بن أبي زياد ، وقد رواه شعبة ، عن يزيد . فَوَهِمَ في إسناده . ورواه وكيع عن أصحابه ، عن يزيد، عن عيسى بن فائِدٍ عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً . وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت، فقال :

حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا يزيد بن أبي زياد ، عن عيسى بن فائد ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من أمير عشرة إلا يُؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه منها إلا

---

(١) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٤.
(٢) عن الطبعة السابقة ، ومكانه في الأصل : لعله .
(٣) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٨.
(٤) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٥.
(٥) في الأصل : بردة .
(٦) المسند ٤/١٤٦.
(٧) مسند الإمام أحمد ٥/٢٨٥، وسيأتي هذا الحديث عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة طه .
(٨) عن الطبعة السابقة .

عدله ، وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم »(١).

وكذا رواه أبو عَوَانَة ، عن يزيدَ بن أبي زياد (٢)، ففيه اختلافٌ ، لكنَّ هذا في باب الترهيب مقبولٌ ـ والله أعلمُ ـ لا سيَّما إذا كان له شاهدٌ من وجهٍ آخرَ . كما قالَ أبو عُبَيد :

حدَّثنا حجاجُ ، عن ابـن جُرَيج ، قال : حُدِّثت عن أَنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « عُرِضَت عليّ أجور أُمَّتي حتى القَذَاةُ والبعرةُ يخرجها الرجل من المسجد ، وعُرِضَتْ عليّ ذُنوبُ أمتي فلم أر ذنباً(٣) أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أُوتيها رجل فَنَسِيَها ».

قال ابن جريج : وحُدِّثت عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنّ (٤) أكبر ذنب توافي به أمتي يوم القيامة سورة من كتاب الله أُوتيها (٥) رجل فنسيها ».

وقد روى أبو داود والترمذي وأبو يعلى والبزار وغيرهم من حديث ابن أبي رَوَّادٍ، عن ابن جريج، [عن المطلب](٦) بن عبد الله بن حَنْطَب ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « عُرِضَتْ عليَّ أجورُ أُمَّتي حتى القَذَاةُ يُخرِجُها الرجلُ من المسجد ، وعُرِضَتْ عليَّ ذنوبُ أمتي فلم أرَ ذنباً أعظمَ من سورةٍ من القرآنِ أو آيةٍ أُوتِيَهَا رجلٌ ثم نَسِيها ».

قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وذاكرتُ به البخاريَّ فاستغربه . وحكى البخاريُّ عن عبد الله بن عبد الرحمن الدَّارِمي أنه أنكر سماع المُطَّلب من أنس بن مالك (٧).

قلت: وقد رواه محمد بن يزيد الأَدَمِيُّ (٨)، عن ابن أبي روَّاد ، عن ابن جُرَيج ، عن الزهري ، عن أنس ، عن النبي ـ ﷺ ـ به . فالله أعلم . وقد أدخل بعضُ المفسِّرينَ هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فَنَسِيتها وكذلك اليوم تُنْسَى ﴾ (٩). وهذا الذي قاله هذا وإن لم يكن هو المراد جميعه فهو بعضه ، فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير وتفريط شديد ، نعوذ بالله منه . ولهذا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : تعاهدوا القرآن وفي لفظ : « استذكروا القرآن ، فإنه أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم ».

التفصي : التخلص ، يقال : تَفَصَّى فلانٌ من البَلِيَّة : إذا تَخَلَّصَ منها ، ومنه تَفَصَّى النوى من التَّمْرةِ : إذا تخلص منها ، أي : إنَّ القرآن أشد تفلتاً من الصدور من النعم إذا أرسلت من غير عِقَالٍ .

وقال أبو عبيد : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم قال : قال عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ : « إني لأمقت القارىء أن أراه سميناً نَسِيّاً للقرآن .

(١) مسند الإمام أحمد ٣٢٣/٥.
(٢) المسند ٣٢٧/٥.
(٣) في الأصل : « فلم أر ذنباً أعظم أكبر ». والمثبت عن فضائل القرآن لأبي عبيد
(٤) في الفضائل : من أكبر .
(٥) في الفضائل : « كانت مع أحدهم فنسيها ».
(٦) عن هامش الأصل .
(٧) تحفة الأحوذي ، أبواب ثواب القرآن ٢٣٣/٨ ـ ٢٣٤ .
(٨) في الأصل : الأموي .
(٩) الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦ من سورة طه .

حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد ، سمعت الضحاك بن مزاحم يقول : ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بِذَنبٍ يُحدِثه لأن الله تعالى يقول : ﴿ وما أصابكم من مُصِيبَةٍ فبما كَسبت أيديكم ﴾ وإنَّ نسيان القرآن من أعظم المصائِب.

ولهذا قال إسحاق بن راهويه وغيره : يُكْرَه لرجلٍ أن يمرَّ عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن ، كما أنه يُكْرَه له أن يقرأه في أقلَّ من ثلاثةِ أيامٍ كما سيأتي هذا حيث يذكره البخاري بعد هذا ، وكان الأليق أن يتبعه هذا الباب، ولكن ذكر بعد هذا قوله:

- ١٨ -

القراءة على الدابة

حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة ، أخبرني أبو إياس ، [قال]: سمعت عبد الله بن مُغَفَّلٍ - رضي الله عنه - قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مَكَّة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح (١).

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن شعبة ، عن أبي إياس ، وهو معاوية بن قُرَّة (٢)، به . وهذا أيضاً له تعلق بما تقدم من تعاهد القرآن وتلاوته سفراً وحضراً ، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يَلْتَهِ القارىءُ في الطريق . وقد نقله ابن أبي داود ، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه كان يقرأ في الطريق . وقد رُوِي عن عمر بن عبد العزيز أنه أَذِنَ في ذلك . وعن الإمام مالك أنه كره ذلك . قال ابن أبي داود:

وحدثني أبو الربيع ، أخبرنا ابن وهب : سألتُ مالكاً عن الرجل يصلي في آخر الليل فيخرج إلى المسجد ، وقد بقي من السورة التي كان يقرأ فيها شيء . فقال : ما أعلم القراءة تكون في الطريق .

وقال الشعبي : تُكره قراءة القرآن في ثلاثة (٣) مواطن : في الحَمَّام ، و[في] الحُشُوشِ (٤)، وفي بيت الرَّحى وهي تدور .

وخالفه في القراءة في الحَمَّام كثير من السلف أنها لا تكره ، وهو مذهب مالك والشافعي وإبراهيم النَّخَعيِّ وغيرهم . وروى ابن أبي داود ، عن علي بن أبي طالب أنه كره ذلك ، ونقله ابن المنذر ، عن أبي وائل شقيق بن سلمة ، والشعبي ، والحسن البصري ، ومكحول ، وقبيصة بن ذُؤَيب - وهو روايةٌ عن إبراهيم النخعيِّ - ومحكيٌّ عن أبي حنيفةَ - رحمهم الله - أن القراءة في الحمام تُكْرَه . وأما القراءة في الحُشُوشِ فكراهتها ظاهرة ، ولو قيل بتحريم ذلك - صيانةً لشرف القرآن - لكان مذهباً . وأما القراءة في بيت الرحى وهي تدور فلئلا يعلُو غَيْرُ القرآن عليهِ ، والحقُّ يعلُو ولا يُعلى ، والله تعالى أعلم .

- ١٩ -

باب [تعليم الصبيان القرآن](٥)

حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانَةَ ، عن أبي بِشْرٍ ، عن سعيد بن جُبَيرٍ قال : إن الذي تَدْعُونه

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٣٨/٦.
(٢) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب ذكر قراءة النبي ﷺ سورة الفتح يوم فتح مكة ٥٤٧.
(٣) في الأصل : ثلاث .
(٤) الحشوش : مواضع قضاء الحاجة ، والواحد : حُشٌ ، وهو في الأصل البستان ، لأنهم كانوا كثيراً ما يتغوّطون في البساتين .
(٥) عن البخاري .

المُفَصَّل هو المُحْكَمَ . قال : وقال ابن عباس : تُوُفِّي رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا ابن عشر سنين ، وقد قرأت المحكم [١].

حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هُشَيم ، أخبرنا أبو بِشْرٍ ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : جمعتُ المحكم في عهد النبي ـ ﷺ ـ فقلتُ له : ما المحكم ؟ قال : المفصل [١].

انفرد بإخراجه البخاري ، وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن ، لأن ابن عباس أخبر عن سِنِّه حين موت رسول الله ـ ﷺ ـ وقد كان جمع المُفَصَّل ، وهو من الحجرات ـ كما تقدم ذلك ـ وعمره إذ ذاك عشر سنين . وقد روى البخاري [٢] أنه قال : توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا مختون ، وكانوا لا يَخْتِنُون الغلام حتى يحتلم . فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ احتلَم لِعَشْرِ سنين ، جمعاً بين هذه الرواية وتلك ، ويَحْتَمِلُ أنه تَجَوَّز في هذه الرواية بذكر العشر وترك ما زاد عليها من الكَسْر ، والله أعلم . وعلى كلِّ تقدير ففيه دلالةٌ على جوار تعليمهم القرآن في الصِّبَا ، وهو [٣- ظاهر ، بل قد يكون مستحباً أو واجباً ، لأن الصبيّ إذا تعلّم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلي به ، وحِفْظهُ في -٣] الصغر أولى من حِفْظِه كبيراً وأشدّ علوقاً بخاطره وأرسخ وأثبت ، كما هو المعهود من حال الناس . وقد استحبَّ بعضُ السَّلَفِ أن يُتْرَك الصبيُّ في ابتداء عمره قليلاً لِلَّعب ، ثم تُوَفَّرُ هِمَّتُه على القراءة لئلا يُلْزَم أَوَّلاً بالقراءة فَيَمَلَّها ويَعْدِلَ عنها إلى اللعب ، وكره بعضُهم تَعْليمه القرآن وهو لا يَعْقِل ما يقال له ، ولكن يترك ، حتى إذا عَقِلَ ومَيَّز عُلِّم قليلاً قليلاً بحسب هِمَّته ونَهْمَتِه [٤] وحفظه وجودة ذهنه ، واستحبَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن يُلَقَّن خَمْسَ آياتٍ . رويناه عنه بسند جيّد .

ـ ٢٠ ـ

باب نسيان القرآن

وَهَلْ يقول : نَسِيت [٥] آية كذا وكذا؟ وقَوْلِ [٦] الله تعالى : ﴿سَنُقْرِئُكَ فلا تَنْسَى . إلا ما شاء الله﴾ .

حدثنا الربيع بن يحيى ، حدثنا زائدة ، حدثنا هشام ، عن عُروَةَ ، عن عائشة قالت : لقد سمع النبي ـ ﷺ ـ رجلاً يقرأ في المسجد فقال : « يَرْحَمُه اللَّهُ ، لَقَدْ أذكرني كذا [٧] وكذا آية من سورة كذا» [١].

انفرد به .

وحدثني محمد بن عُبَيدٍ بن ميمون ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن هشام وقال : أسقَطْتُهُنَّ من سورة كذا [٨] . انفرد به أيضاً ، تابعَهُ علي بن مُسْهِرٍ وعَبْدَةُ ، عن هشام [٩] . وقد أسندهما البخاري في موضع آخر ، ومسلم [١٠] معه في عَبْدَةَ .

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٨ .

(٢) البخاري ، كتاب الاستئذان ٨/٨١ ـ ٨٢ .

(٣ ـ ٣) عن الطبعة السابقة .

(٤) النَّهْمَةُ : بلوغ الهمَّة في الشيء .

(٥) في الأصل : أنسيت . والمثبت عن البخاري .

(٦) في الأصل : قال . والمثبت أيضاً عن البخاري .

(٧) في الأصل : بكذا .

(٨) في الأصل : من سورة كذا وكذا .

(٩) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(١) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٣ .

وحدثنا أحمد بن أبي رجاء ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ [قالت] [١] : سمع رسولُ الله ـ ﷺ ـ رجلاً يقرأ في سورةٍ بالليل فقال : « يرحمه الله ، قد أذكرني كذا وكذا آية كنت أُنْسِيتُها من سورة كذا وكذا » [٢] .

رواه مسلم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة [٣] .

الحديث الثاني : حَدّثنا أبو نُعَيم، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن أبي وائل ، عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «بئس ما لأحدهم أن[٤] يقول: نَسِيت آية كيتَ وكيتَ، بل: هو نُسِّي»[٢].

ورواه مسلم والنسائي من حديث منصور به ، وقد تقدم . وفي مسند أبي يعلى : فإنما هو نسي ، بالتخفيف ، هذا لفظه .

وفي هذا الحديث [و] [٥] الذي قبله دليلٌ على أنَّ حصولَ النسيان للشخص ليس بنقصٍ له إذا كان بعد الاجتهاد والحِرْصِ ، وفي حديث ابن مسعود أدب في التعبير عن حُصول ذلك ، فلا يقول : نسيت آية كذا ، فإن النسيان ليس من فعل العبد ، وقد يصدر عنه أسبابه من التناسي والتغافل والتهاون المفضي إلى ذلك . فأما النسيان نفسه فليس بفعله . ولهذا قال : بل [هو] نُسِّي ، مَبْنيٌّ [٦] لما لم يُسَمَّ فاعله ، [و] [٥] أدب أيضاً في ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى . وقد أسند النسيان إلى العبد في قوله : ﴿ واذكر ربك إذا نَسِيت ﴾ [٧]، وهو ـ والله أعلم ـ من باب المجاز السائغ بذكر المسبَّب وإرادة السبب ، لأن النسيان إنما يكون عن سبب قد يكون ذنباً ، كما تقدم عن الضحاك بن مزاحم. فأمر الله تعالى بذكره ليذهب الشيطان عن القلب كما يذهب عند النداءِ بالأذان، والحسنةُ تُذْهِبُ السيِّئَةَ ، فإذا زال السبب للنسيان انزاح فحصل الذكر لشيء بسبب ذكر الله تعالى ، والله أعلم .

ـ ٢١ ـ

باب من لم ير بأساً أن يقول: سورةُ البقرةِ، وسورةُ كذا وكذا

حدثنا عمر بن حفص بن غِيَاثٍ ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، حدثني إبراهيم ، عن علقمة وعبد الرحمٰن بن يزيدَ ، عن أبي مسعود الأنصاري قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « الآيتان من آخر سورة البقرة ، من قرأ بهما في ليلة كَفَتاه[٨] » .

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة[٨] من حديث عبد الرحمٰن بن يزيد . وصاحبا [٩] الصحيح والنسائي

---

(١) عن البخاري .

(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٣٩/٦ ، ومسند أبي يعلى ٧٤/٥ .

(٣) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٣ .

(٤) ليست في البخاري .

(٥) سقطت الواو من الأصل .

(٦) في الأصل : سُمّي .

(٧) الآية ٢٤ من سورة الكهف .

(٨) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٥٤ ـ ٥٥٥ ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ٥٧/٢ ، والترمذي ، أبواب ثواب القرآن ١٧٧/٨ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ٤٣٦ .

(٩) في الأصل : وصاحب . وانظر البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٤٢/٦ ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٥٥ ، وسنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ٤٣٥ .

وابن ماجه من حديث علقمة ، كلاهما عن أبي مسعود عُقْبَة بن عامر الأنصاري البكري .

الحديث الثاني : ما رواه من حديث الزهري ، عن عُرْوَة ، عن المِسْوَرِ وعبد الرحمن بن عبدٍ القاريّ ، كلاهما عن عُمَرَ قال : سمعت هشام بن حكيم بن حِزَام يقرأ سورة الفرقان . . . فذكر الحديث بطوله كما تقدم ، وكما سيأتي [١] .

الحديث الثالث : ما رواه من حديث هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه ، عن عائشة : [قالت] [٢] : سمع رسول الله ﷺ قارئاً يقرأ من الليل في المسجد ، فقال : « يرحمه الله ، لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت [٣] أُسْقِطُهُنَّ من سورة كذا وكذا » .

وهكذا في الصحيحين ، عن ابن مسعود أنه كان يرمي الجَمْرَةَ من الوادي ويقول : هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة . وكره بعض السلف ذلك ، ولم يروا إلا أن يقال : السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، كما تقدم من رواية يزيد الفارسي [٤] ، عن ابن عباس ، عن عثمان أنه قال : إذا نزل شيء من القرآن يقول رسول الله ﷺ : « اجعلوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » . ولا شك أن هذا أحوطُ وأولى ، ولكن قد صَحَّت الأحاديثُ بالرخصةِ في الآخر ، وعليه عملُ الناسِ اليومَ في تَرْجَمة السور في مصاحفهم ، وبالله التوفيق .

- ٢٢ -

باب الترتيل في القراءة [٥]

وقولِهِ تعالى : ﴿وَرَتِّلِ القرآن ترتيلاً﴾ ، وقوله : ﴿وقرآناً فَرَقْناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ﴾ ، وما يكره أن يُهَذَّ كَهَذِّ الشِّعر . يُفْرَقُ : يُفَصَّل [٦] ، قال ابن عباس : ﴿فَرَقْناه﴾ : فَصَّلناه .

حدَّثنا أبو النعمان ، حدثنا مهديُّ بنُ ميمون ، حدثنا واصل ، عن أبي وائل ، [عن] [٢] عبد الله ، قال : غدونا على عبد الله فقال رجلٌ : قرأتُ المُفَصَّلَ البارحة . فقال : هذًّا كهَذِّ الشعر ، إنا قد سَمِعنا القراءة ، وإنّي لأحفظُ القُرَنَاءَ التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ ثمانَ عشرةَ سورةً من المُفَصَّلِ ، وسورتين من آل حمَ [٧] .

ورواه مسلم عن شيبان بن فَرُّوخ ، عن مهدي بن ميمون ، عن واصل - وهو ابن حَيَّانَ الأَحْدبِ - عن أبي وائل شَقِيقِ بن سَلَمَةَ ، عن ابن مسعود ، به [٨] .

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٩ .
(٢) عن البخاري .
(٣) لفظ البخاري : كذا وكذا آية أسقطتها . . .
(٤) في الأصل : الرقاشي . وانظر فيما تقدم ٣٣ .
(٥) في الأصل : القرآن .
(٦) في الأصل : ويفصل .
(٧) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤٠ .
(٨) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٦٤ .

وقال الإمام أحمد :

حدثنا قتيبة ، حدثنا ابنُ لهيعةَ ، عن الحارث بن يزيد ، عن زياد بن نُعيم ، عن مُسْلِم بن مِخْرَاقٍ ، عن عائشة، أنه ذُكِرَ لها أنَّ ناساً يقرءُون القرآنَ في الليل مرَّةً أو مرَّتين فقالت: أولئك قرءُوا ولم يقرءُوا، كنتُ أقوم مع النبي ﷺ ليلة التمام ، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء ، فلا يمرّ بآية فيها تخوُّفٌ إلا دعا الله واستعاذ ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغَّب إليه (١).

الحديث الثاني : حدثنا قُتَيبة ، حدثنا جرير ، عن مُوسَى بن أبي عائشة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسانك لتعجل به ﴾ ، كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي ، وكان مِمَّا يُحرِّك به لسانه وَشَفَتَيْه ، فيشتدُّ عليه (٢) . . وذكر تمام الحديث كما سيأتي ، وهو متفق (٣) عليه . وفيه والذي قبله دليلٌ على استحباب ترتيل القراءة ، والترسُّل (٤) فيها من غير هَذْرَمَة (٥) ولا سُرْعَةٍ مُفْرِطَةٍ ، بل بتأمُّلٍ وتفكُّرٍ، قال الله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدَّبَّروا آياته ﴾ (٦).

وقال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرحمٰن ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن زرٍّ ، عن عبد الله بن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارقَ (٧) ، ورتِّلْ كما كنت ترتِّلُ في الدنيا ، فإن مَنْزِلك عند آخر آية تقرؤُها (٨)».

وقال أبو عُبَيدٍ : حدثنا جرير ، عن مُغيرةَ ، عن إبراهيم قال : قرأ علقمة على عبد الله فكأنه عَجِل ، فقال عبد الله : فداك أبي ، رَتِّلْ ، فإنَّه زينُ القرآن . قال : وكان علقمة حَسَن الصوت بالقرآن .

وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، عن أبي جَمْرَة قال : قلت لابن عباس : إني سريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثلاث ، فقال : لأنْ أقرأ البقرة في ليلة فأَدَّبَّرها وأُرتِّلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول .

وحَدثنا حجاج ، عن شعبةَ وحَمَّاد بن سلمة ، عن أبي جَمْرَةَ ، عن ابن عباس نحو ذلك ، إلا أن في حديث حماد : أحب إليّ من أن أقرأ القرآن أَجْمَعَ هَذْرَمَةً.

- ٢٣ -

[مدُّ القراءة]

ثم قال البخاري رحمه الله:

حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم الأَزْدِيُّ ، حدثنا قتادة [قال] : سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال : [كان] يمدُّ مَدّاً (٩).

---

(١) مسند أحمد ٩٢/٦.

(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٤٠/٦.

(٣) انظر تفسير الآية ١١٣ من سورة طه ، والآية ١٦ من سورة القيامة .

(٤) في الأصل : والترتيل .

(٥) الهذرمة : السرعة في الكلام والمشي .

(٦) الآية ٢٩ من سورة صٓ.

(٧) أي : اصعد إلى درجات الجنة .

(٨) مسند الإمام أحمد ١٩٢/٢.

(٩) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٤١/٦.

وهكذا رواه أهلُ السُّنَن ، من حديث جرير بن حازمٍ ، به .

وحدثنا عمرو[1] بن عاصم ، حدثنا همام ، عن قتادة قال : سُئِل أنسُ بنُ مالك : كيف كانت قراءة النبيِّ ﷺ؟ فقال: كانت مَدّاً، ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾، يَمُدُّ بِبِسْمِ الله، ويَمُدُّ بالرحمٰنِ، ويمد بالرحيم[2].

انفرد به البخاري من هذا الوجه . وفي معناه الحديث الذي رواه الإمام أبو عُبَيد :

حدثنا أحمد بن عثمان ، عن عبد الله بن المبارك ، عن الليث بن سعد ، عن ابن أبي مُلَيكة ، عن يَعْلَى بن مَمْلَكٍ ، عن أم سَلَمَةَ أنها نَعَتَتْ قراءةَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ قراءة مُفَسَّرة حرْفاً حَرْفاً .

وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل ، عن يحيى بن إسحاق ، وأبو داود ، عن يزيد بن أبي خالد الرملي ، والترمذي والنسائي كلاهما عن قتيبة ، كلهم عن الليث بن سعد ، به . وقال الترمذي : حسن صحيح[3].

ثم قال أبو عُبَيد : حدثنا يحيى بن سعيد الأموي ، عن ابن جُرَيج ، عن ابن أبي مليكة ، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقطع قراءته لـ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمٰن الرحيم * مالك يوم الدين﴾. وهكذا. رواه أبو داود[4] والترمذي من حديث ابن جُرَيجٍ ، وقال الترمذي: غريب ، وليس إسناده بمتصل . يعني أن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة لم يسمعه من أمِّ سلمة ، إنما رواه عن يعلى بن مَمْلَكٍ، كما تقدم، والله أعلم.

ـ ٢٤ ـ

[التَّرجيعُ]

حدثنا آدم بن [أبي] إياس ، حدثنا شعبة ، حدثنا أبو إياس [قال] : سَمِعتُ عبد الله بن مُغَفَّلٍ قال : رأيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ وهو على ناقته أو جمله ، وهي تَسِير به ، وهو يقرأ سورةَ الفتح أو من سورةِ الفتحِ قراءة لَيِّنة وهو يُرجِّع[2] .

وقد تقدم هذا ، فهو الترديد في الصوت ، كما جاء أيضاً في البخاري : أنه جعل يقول[5] : آ آ آ . وكأن ذلك صَدَر من حركة الدابة تحته ، فدلَّ ذلك على جوازِ التلاوة عليها وإن أفضى إلى ذلك ، ولا يكون من باب الزيادة في الحروف ، بل ذلك مُغْتَفَرٌ للحاجة ، كما يُصَلي على الدابة حيث توجهت به ، مع إمكان تأخيرِ ذلك والصلاةِ إلى القبلة ؛ والله تعالى أعلم .

ـ ٢٥ ـ

باب حُسْنِ الصَّوتِ بالقراءة

حدثنا محمد بن خَلَف أبو بكر ، حدثنا أبو يحيى الحِمَّاني ، حدثنا بُرَيدُ بن عبد الله بن أبي بردة ، [عن

---

(١) في الأصل : عُمَر . وانظر تهذيب التهذيب ٥٨/٨، وهو : عمرو بن عاصم بن عبيد الله ، أبو عثمان .

(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٤١/٦.

(٣) الترمذي ، أبواب ثواب القرآن ٢٤٠/٨، والنسائي ، كتاب الافتتاح ١٨١/٢، ومسند الإمام أحمد٢٩٤/٦، ٣٠٠.

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الحروف والقراءات ٣٧/٤، والترمذي ، أبواب ثواب القرآن ٢٤١/٨.

(٥) البخاري ، كتاب التوحيد ١٩٢/٩.

جَدِّه أبي بُرْدَةَ] [(١)]، عن أبي موسى : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « يا أبا موسى ، لقد أُوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود»[(٢)].

[و] هكذا رواه التِّرْمِذِيُّ ، عن موسى بن عبد الرحمٰن الكندي ، عن أبي يحيى الحِمَّاني ـ واسمه عبد الحميد بن عبد الرحمٰن ـ وقال : حسن صحيح[(٣)] وقد رواه مسلم[(٤)] من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة ، عن أبي بردة ، [عن أبي موسى] ، وذكرنا هناك أحكاماً كافية عن إعادتها هٰهنا ، والله أعلم .

ـ ٢٦ ـ

باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره

حدثنا عُمَر بن حفص بن غِيَاثٍ ، حدَّثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عَبِيدَةَ ، عن عبد الله قال : قال لي النبي ـ ﷺ ـ : « اقرأ عَلَيَّ القرآن » . قلت : أقرأ عليك ، وعليك أُنزل ؟! قال : « إنّي أُحِبُّ أن أَسْمَعَهُ من غَيْري»[(٥)].

وقد رواه الجماعةُ[(٥)] إلَّا ابن ماجه، من طرق عن الأعمش. وله طرقٌ يطول ذِكْرُها وبَسْطُها وقد تَقَدَّم فيما رواه مسلمٌ من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال له : « يا أبا موسى ، لو رأيتني وأنا أستمعُ لقراءتك البارحة!». فقال : أما والله لو أعلم أنكَ تَسْتَمِعُ قراءتي لحبَّرْتُها لَكَ تحبيراً .

وقال الزهري ، عن أبي سلمة : كان عُمَر إذا رأى أبا موسى قال : ذَكِّرنا ربنا يا أبا موسى . فيقرأ عنده .

وقال أبو عثمان النَّهدي : كان أبو موسى يُصَلِّي بنا ، فلو قلت : إني لم أسمع صوت صَنْجٍ قط ولا بَرْبَطٍ قط ، ولا شيئاً قطُّ أحسنَ من صَوْتِه[(٦)].

ـ ٢٧ ـ

باب قول المقرىء للقارىء: حَسْبُكَ

حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عَبِيدَة ، عن عبد الله قال : قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ : « اقرأ عَلَيَّ » . فقلت : يا رسول الله ، آقرأ عليك وعليك أُنزل ؟! قال : « نعم » . فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيتُ إلى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ . قال: « حَسْبُكَ الآن » ، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تَذْرِفان [(٧)].

أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه ، من رواية الأعمش ، به . ووجه الدلالة ظاهر ، وكذا الحديثُ الآخر : « اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبُكم ، فإذا اختلفتم فقوموا » [(٧)].

---

(١) سقط من الأصل .

(٢) فتح الباري، كتاب فضائل القرآن ٩/٩٢.

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب المناقب ١٠/٣٥٧.

(٤) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٤٦.

(٥) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤١.

(٦) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٥١ ، وأبو داود ، كتاب العلم ٣/٣٢٤، وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة النساء ٨/٣٧٩.

(٧) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤١ ، ٢٤٤.

- ٢٨ -

باب في كَمْ يُقْرَأُ القرآن

وقولُ الله تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ .

حدثنا علي ، حدثنا سفيان قال : قال لي ابن شُبْرُمَةَ : نظرتُ كم يكفي الرجل من القرآن فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات ، [فقلت: لا ينبغي لأحدٍ أن يقرأ أقلَّ من ثلاث آياتٍ] (١) . قال سفيان : أَخْبَرنا منصور ، عن إبراهيم ، عن عبد الرحمٰن بن يزيد (٢) ، أخبره علقمة ، عن أبي مسعود ، فلقيته (٣) وهو يطوف بالبيت ، فَذَكر النبي ـ ﷺ ـ أن من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كَفَتاه .

قد تقدم (٤) أن [هذا] الحديث متفق عليه . وقد جمع البخاري فيما بين (٥) عبد الرحمٰن بن يزيد ، وعلقمة عن أبي مسعود . وهو صحيح لأن عبد الرحمٰن سمعه أولاً من علقمة ثم لقي أبا مسعود ، وهو يطوف فسمعه منه . وعليٌّ هذا هو ابن المديني ، وشيخه هو سفيان بن عيينة ، وما قاله عبد الله بن شُبْرُمَةَ ـ فقيه الكوفة في زمانه ـ استنباطٌ حسنٌ ، وقد جاء في حديث في السنن : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات » . ولكن هذا الحديث ـ أعني حديث أبي مسعود ـ أصحُّ وأشهرُ وأخصُّ ، ولكن وجه مناسبته للترجمة التي ذكرها البخاري فيه نظر ، والله أعلم .

والحديث الثاني أظهر في المناسبة وهو قوله :

حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانة ، عن مُغِيرَةَ ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عَمْرٍو ، قال : أنكحني أبي إمرأةً ذاتَ حسبٍ ، فكان يتعاهد كنَّتَه (٦) ، فيسألها عن بعلها ، فتقول : نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً ، ولم يُفَتِّشْ له كَنَفاً منذ أتيناه . فلما طال ذلك عليه ذَكَرَ للنبي ـ ﷺ ـ فقال : القَنِي به . فلقيتهُ بعدُ ، فقال : كيف تصوم ؟ قُلْتُ : كلَّ يوم . قال (٧) : [و] (٨) كيف تختم ؟ قال (٩) : كل ليلة . قال : صُمْ كلَّ شهر ثلاثة ، واقرأ القرآن في كل شهر . قال : قلت : أطيقُ أكثر من ذلك . قال : صم ثلاثة أيام في الجمعة . قلت : أُطِيقُ أكثر من ذلك . قال : أفطر يومين وصم يوماً . قلت : أُطِيقُ أكثر من ذلك . قال : صُمْ أَفْضَلَ الصوم ، صومَ داودَ ، صيامَ يومٍ وإفطارَ يومٍ ، واقرأ في كل سبع ليالٍ مرَّةً ، فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ ! وذلك أني كبرت وضعُفت . فكان يقرأ على بعض أهله السُّبْعَ من القرآن بالنهار ، والذي يقرؤهُ (١٠) يَعرضُه بالنهار (١١) ، ليكون أخفَّ عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً [وأحصى] (٨) وصام

(١) سقط من الأصل .
(٢) في الأصل : ابن أبي يزيد .
(٣) البخاري : ولقيته .
(٤) انظر باب من لم يرَ بَأْساً أن يقول: سورة البقرة.
(٥) في الأصل : فيما بين ثنا عبد الرحمٰن : وانظر البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب من لم ير بأساً أن يقول سورة البقرة ٢٣٩/٦ .
(٦) في الأصل : البيت . والكَنَّةُ : امرأة الابن.
(٧) في الأصل : ثم قال .
(٨) عن البخاري .
(٩) كذا ، ومثله في إحدى روايتي البخاري ، وفي الأخرى : قلت .
(١٠) في الأصل : والذي يقرؤه بالليل يعرضه .
(١١) البخاري : من النهار .

مثلهنَّ كراهيةَ أن يترك شيئاً فارق عليه النبيَّ ﷺ. [و] (١) قال بعضهم : في ثلاث وفي خمس ، وأكثرُهم على سَبْع (٢).

وقد رواه بعضهم في ثلاث وفي خمس وأكثرهم على سبع . وقد رواه في الصوم [و] النسائي أيضاً عن بندار ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن مغيرة (٣)، والنسائي من حديث حصين كلاهما عن مجاهد ، به (٤). ثم روى البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يحيى بن أبي كثير (٥)، عن محمد بن عبد الرحمٰن ـ مولى بني زُهْرَة (٦) ـ عن أبي سلمة ، قال : وأحسبني [قال](١) سمعت أنا(٧) من(٨) أبي سَلَمَةَ ، عن عبد الله بن عَمْرو قال : قال لي النبي ـﷺـ : « اقرأ القرآن في شهر » ، قلت : إني أجد قُوَّةً ، قال : « فاقرأه في سبع ولا تَزِدْ على ذلك»(٩).

فهذا السياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع . وهكذا الحديث الذي رواه أبو عبيد :

حدثنا حجاج وعمر(١٠) بن طارق ويحيى بن بُكَير ، كلهم عن ابن لهيعة ، عن حِبَّان بن واسع ، عن أبيه ، عن قيس بن أبي صعصعة أنه قال للنبي ـﷺـ يا رسول الله ، في كم أقرأ القرآن ؟ فقال : « في كل خمس عشرة». قال: إني أجدني أقوى من ذلك. قال: «ففي كل جمعة»(١١).

وحدثنا حجاج ، عن شعبة ، عن محمد بن ذكوان ـ رجل(١٢) من أهل الكوفة ـ [قال](١٣) سمعت عبد الرحمٰن بن عبدالله بن مسعود يقول : كان عبدالله بن مسعود يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة .

وعن حجاج ، عن شعبة ، عن أيوب : سمعت أبا قلابة ، عن أبي المهلب قال : كان أُبَيّ بن كعب يختم القرآن في ثمان .

[(١٣) - وحدثنا علي بن عاصم، عن خالد، عن أبي قلابة قال: كان أبي بن كعب يختم القرآن في كلّ ثمان](١٣) وكان تميم الداريّ يختمه في كل سبع .

وحدثنا هُشَيم ، عن الأعمش ، عن إبراهيم أنه كان يقرأ القرآن في كل سبع .

وحدثنا جرير ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : كان الأسود يختم القرآن في كل ست ، وكان علقمة يختمه في كل خمس .

---

(١) عن البخاري .
(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٤٢/٦ .
(٣) البخاري ، كتاب الصوم ٥٢/٣ ، والنسائي ، كتاب الصيام ٢١٤/٤ .
(٤) النسائي ، كتاب الصيام ٢١٠/٤ .
(٥) في الأصل : « يحيى أن بكير بن حصين ، عن محمد . . . » .
(٦) في الأصل : مولى أبي هريرة . انظر البخاري .
(٧) في الأصل : أنا سمعت .
(٨) في الأصل : من ابن أبي .
(٩) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٢٤٣/٦ .
(١٠) في فضائل القرآن : عمرو .
(١١) أخرجه ابن الأثير في ترجمة قيس بن أبي صعصعة ، انظر أسد الغابة ٤٢٩/٤ .
(١٢) في الأصل : قال رجل . وأثبتنا ما في الفضائل .
(١٣ - ١٣) عن الفضائل.

فلو تُركنا ومجرد هذا لكان الأمر في ذلك جلياً ، ولكن دلت أحاديث أخرجوها على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه الإمام أحمد في مسنده:

حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعَةَ ، حدثنا حِبَّان بن واسع ، عن أبيه ، عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال : يا رسول الله ، أقرأُ القرآن في ثلاث ؟ قال : « نعم » . وكان يَقرؤه حتى توفي .

وهذا إسنادٌ جيدٌ قويٌّ حسن ، فإن حسن بن موسى الأشيب ثقة مُتَّفق على جلالته ، روى له الجماعة . وابن لَهيعَةَ إنما يُخْشَى من تدليسه أو سوء حفظه ، وقد صرّح هُهنا بالسماع ، وهو من الأئمة العلماء بالديار المصرية في زمانه ، وشيخه حِبَّان بن واسع بن حِبّان ، وأبواه كلاهما من رجال مسلم ، والصحابي لم يخرج له أحد من أهل الكتب الستة ، وهذا على شرط كثير منهم ، والله أعلم .

وقد رواه أبو عُبَيد ـ رحمه الله ـ عن ابن بُكير ، عن ابن لَهيعَةَ ، عن حِبَّان بن واسع ، عن أبيه [1]، عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم، إن استطعت». قال : فكان يقرؤه كذلك حتى تُوُفي .

حديث آخر، قال أبو عبيد:

حدثنا يزيد ، عن هَمَّام ، عن قتادة ، عن يزيد بن عبد الله بن الشِّخِّير ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يفقه مَن قَرَأه في أقلَّ من ثلاث » .

وهكذا أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة ، به . وقال الترمذي : حسن صحيح [2] .

حديث آخر ، قال أبو عبيد :

حدثنا يوسُفُ بن الغَرق ، عن الطيب بن سليمان ، حدثتنا عمرة بنت عبد الرحمٰن أنها سمعت عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ لا يختم القرآن في أقل من ثلاث .

هذا حديث غريب جداً ، وفيه ضعف ، فإن الطّيب بن سليمان هذا بصري ضعفه الدارقطني ، وليس هو بذاك المشهور ، والله أعلَم .

وقد كره غير واحد من السلف قراءة القرآن في أقلَّ من ثلاث كما هو مذهب أبي عُبَيد ، وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الخلف أيضاً .

قال أبو عبيد : حدثنا يزيد ، عن هشام بن حسان ، عن حفصة ، عن أبي العالية ، عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث . صحيح .

وحدثنا يزيد ، عن سفيان ، عن علي [بن بَذِيمَةَ] [3]، عن أبي عُبَيدة قال : قال عبد الله : من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز .

وحدثنا حجاج ، عن شعبة ، عن [علي] [3] ابن بَذيمة ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله ، مثله سواء .

---

(١) في الفضائل : عن أمية ، وهو خطأ.
(٢) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ٢/٥٤، والترمذي ، أبواب القرآن ، ٨/٢٧١ ـ ٢٧٢، وابن ماجه ، كتاب الإقامة ٤٢٨، ومسند الإمام أحمد ٢/١٦٤، ١٦٥، ١٨٩، ١٩٣، ١٩٥.
(٣) عن الفضائل .

وحدثنا حجاج ، عن شعبة ، عن محمد بن ذكوان ، عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه أنه كان يقرأ القرآن في رمضان في ثلاث . إسناد صحيح .

وفي المسند عن عبد الرحمٰن بن شبل مرفوعاً : « اقرءوا القرآن ، لا تَغْلُوا فيه ولا تَجْفُوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به » [١] .

فقوله : لا تَغْلُوا فيه ، أي : لا تبالغوا في تلاوته بسرعة في أقصر مدة ، فإن ذلك ينافي التدبُّر غالباً ، ولهذا قابله بقوله : ولا تَجْفُوا عنه ، أي : لا تتركوا تلاوته .

فصل

وقد ترخص جماعة من السلف في تلاوة القرآن في أقلَّ من ذلك ، منهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي الله عنه .

قال أبو عُبَيد : حدثنا حجاج ، عن ابن جُرَيج ، أخبرني ابن خُصَيفة ، عن السائب بن يزيد : أن رَجُلاً سأل عبد الرحمٰن بن عثمان التيمي عن صلاة طلحة بن عبيد الله ، فقال : إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان رضي الله عنه. فقال: نعم. قال: قلت: لأُعلِيَنَّ الليلة على الحُجَر. فقمت، فلما قمت إذا أنا برجلٍ مُقَنَّعٍ يزحمني ، فنظرت فإذا عثمان بن عفان ، فتأخرت عنه ، فصَلَّى فإذا هو يسجد سجود القرآن ، حتى إذا قلت : هذه هوادي الفجر ، أوتر بركعة ، لم يُصَلِّ غيرها . وهذا إسناد صحيح .

قال . وحدثنا هشيم ، حدثنا منصور ، عن ابن سيرين قال : قالت نائلة بنت الفُرافصة الكلبية حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه : إنْ يقتلوه أو يدعوه فقد كان يحيي الليل كلَّه بركعة يجمع فيها القرآن . وهذا حسن . وقال أيضاً .

حدثنا أبو معاوية ، عن عاصم بن سليمان ، عن ابن سيرين أن تميماً الداري قرأ القرآن في ركعة .

حدثنا حجاج، عن شعبة،عن حماد ، عن سعيد بن جبير [أنه] قال : قرأت القرآن في ركعة في البيت ، يعني الكعبة .

وحدثنا جرير ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة أنه قرأ القرآن في ليلة ، طاف بالبيت أسبوعاً ، ثم أتى المقام فصلى عنده بالمئين ، ثم طاف بالبيت أسبوعاً ، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالطُّوَل ، ثم طاف بالبيت أسبوعاً ، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمئين ، ثم طاف أسبوعاً ، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمثاني ، ثم طاف بالبيت أسبوعاً ، ثم أتى المقام ، فصلى عنده ، فقرأ بقية القرآن . وهذه كلها أسانيد صحيحة .

ومن أغرب ما هٰهنا ما رواه أبو عبيد :

حدثنا سعيد بن عُفَير ، عن بكر بن مضر أن سليم بن عِتْرٍ التُّجيبي كان يختم القرآن في ليلةٍ ثلاثَ مرَّاتٍ، ويجامع ثلاث مرات . قال : فلما مات قالت امرأته : رحمك الله ، إن كنت لترضي ربك وترضي أهلك . قالوا : وكيف ذلك ؟ قالت : كان يقوم من الليل فيختم القرآن ، ثم يُلِمُّ بأهله ثم يغتسل ، ويعود فيقرأ حتى يختم ثم يُلِمُّ بأهله، ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم، ثم يُلِمُّ بأهله، ثم يغتسل ويخرج إلى صلاة الصبح.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٤٣٨، ٤٤٤.

قلت : كان سُلَيم بن عِتْرٍ تابعياً جليلاً ثقة نبيلاً ، وكان قاضياً بمصر أيام معاوية وقاصّها . قال أبو حاتم : روى عن أبي الدرداء ، وعنه [١] ابن زُحْرٍ . ثم قال :

حدثني محمد بن عَوْفٍ، عن أبي صالح كاتب الليث، حدثني حرملة بن عمران، عن كعب بن علقمة قال: كان سليم بن عِتْرٍ من خَيرِ التابعين. وذكره ابن يونس في تاريخ مصر.

وقد روى ابن أبي داود ، عن مجاهد أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء .

وعن منصور قال : كان علي الأزدي يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان [٢].

وعن إبراهيم بن سعد قال : كان أبي يحتبي فما يَحُلُّ حبوته حتى يَخْتِمَ القرآن .

قلت : ورُوِي عن منصور بن زاذان أنه كان يختم فيما بين الظهر والعصر ، ويختم أخرى فيما بين المغرب والعشاء ، وكانوا يؤخرونها قليلاً .

وعن الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه كان يختم في اليوم والليلة من شهر رمضان ختمتين ، وفي غيره ختمة .

وعن أبي عبد الله البخاري صاحب الصحيح أنه كان يختم في الليلة ويومها من رمضان ختمة .

ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ الصُّوفِيُّ [قال]: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربي يقول : كان ابن الكاتب يختم بالنهار أربع خَتَمَاتٍ ، وبالليل أربع خَتَمَاتٍ .

وهذا نادر جداً . فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إما على ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم ، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرءونه مع هذه السرعة ، والله أعلم .

قال الشيخ أبو زكريا النووي في كتابه التبيان [٣]، بعد ذكر طرفٍ مما تقدم : « والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، فمن كان [٤] له تدقيق الفكر للطائفة ومعارفه فَلْيَقْتَصِرْ على قدر يحصلٍ له معه كمالُ فهمِ ما يقرؤه ، وكذا من كان مشغولاً بتيسير [٥] العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فَلْيقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مُرْصَدٌ له ، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فَلْيَسْتكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حَدِّ المَلَلِ والهَذْرَمَة .

ثم قال البخاري ، رحمه الله :

ـ ٢٩ ـ

باب البكاء عند القراءة[٦]

وأورد فيه من رواية الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عَبِيدَة ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « اقرأ عليّ ». قلت : آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « إني أشتهي أن أسمعه من غيري » .

(١) في الأصل : وعن ابن زحر ، انظر الجرح ٤/٢١١ ـ ٢١٢.

(٢) تهذيب التهذيب ٧/٣٥٩.

(٣) التبيان ٣٢.

(٤) نصّ التبيان : « فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف ».

(٥) التبيان : بنشر .

(٦) لفظ البخاري : عند قراءة القرآن .

قال : فقرأتُ النِّساء ، حتى إذا بلغت : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ قال لي : كُفَّ ـ أو أَمْسِكْ ـ فرأيتُ عينيه تَذْرِفان [١] .

وهذا من المتفق عليه ـ كما تقدم ـ وكما سيأتي ، إن شاء الله .

ـ ٣٠ ـ

باب من رايا [٢] بقراءة القرآن أو تأكَّل به أو فَخَرَ به

حدثنا محمدُ بنُ كَثِيرٍ ، أخبرنا سفيان ، حدثنا الأعمش ، عن خَيْثَمَةَ ، عن سُوَيدِ بن غَفَلَةَ ، قال [٣] علي ـ رضي الله عنه ـ : سمعتُ النبي ـ ﷺ ـ يقول : « يأتي في آخر الزمان قوم حُدَثَاء الأسنانِ ، سفهاءُ الأحلام ، يقولون من خيرِ قولِ البريَّة ، يمرُقُونَ من الإسلام كما يمرُقُ السهمُ من الرميَّة ، لا يجاوزُ إيمانُهم حناجِرَهم ، فأينما لقيتموهمْ فاقتُلُوهم ، فإنَّ قَتْلَهم أجرٌ لمن قتلَهم يوم القيامة » [٤] .

وقد رُوِيَ في موضِعَينِ آخَرينِ [٥] ، ومسلمٌ وأبو داود والنسائي ، من طُرُق عن الأعمشِ ، به :

حدثنا عبد الله بن يوسُفَ ، حدثنا مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن إبراهيم [بن الحارث] [٦] التيميّ ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن ، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « يخرج فيكم قوم تَحْقِرُون صلاتَكم مع صلاتِهم ، وصيامَكم مع صيامِهم ، وعَمَلَكم مع عملهم ، ويقرأون القرآن لا يجاوزِ تَراقِيَهم [٧] ، يمرُقون من الدين كما يمرُقُ السَّهمُ من الرميَّة ، يَنْظُرُ في النصل فلا يَرَى شيئاً ، وينظُرُ في القِدْحِ فلا يرى شيئاً ، وينظر في الريش فلا يَرَى شَيئاً ، ويتمارى [٨] في الفُوقِ » [٩] .

ورواه في موضعٍ آخَرَ [١٠] ، ومسلم أيضاً والنسائي ، من طرق ، عن الزهري عن أبي سلمة ، [به] . وابنُ ماجَهْ من رواية محمد بن عَمْرِو بن علقمةَ ، عن أبي سَلَمَةَ ، به [١١] .

حدثنا مُسَدَّدُ بن مُسَرْهَدٍ ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادَةَ ، عن أَنس بن مالك ، عن أبي موسى ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال [٦] : « المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأُتْرُجَّةِ طعمُها [١٢] طيِّبٌ وريحُها طيِّبٌ . والمؤمنُ الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتَّمْرَةِ طعمُها طيب ، ولا ريحَ لها . ومثل

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤٣ .

(٢) يقال : راءى فلان الناس يرائيهم مُراءاةً ، ورايَاهم مراياةً ، على القلب ، بمعنى .

(٣) في الأصل : عن علي ـ رضي الله عنه ـ يقول : سمعت .

(٤) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٥) البخاري ، كتاب المناقب ٤/٢٤٤ ، وكتاب الاستتابة ٩/٢١ ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ٥٦٣ ، وكتاب الزكاة ٧٤٦ ـ ٧٤٧ ، وأبو داود ، كتاب السنة ٤/٢٤٤ ، والنسائي ، كتاب التحريم ٧/١١٩ .

(٦) عن البخاري .

(٧) في البخاري : حناجرهم .

(٨) التماري : تفاعل من المرية وهو الشك . والفوق والفُوقة : الحزّ الذي يجعل فيه الوتر . والمراد أن السهم نفذ من المرمى ولم يعلق به شيءٌ ، ولم يظهر أثره فيه ، فكذلك قراءتهم لا تحصل لهم منها فائدة .

(٩) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤٤ .

(١٠) البخاري ، كتاب الاستتابة ٩/٢١ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ٧٤٣ .

(١١) سنن ابن ماجه ، المقدمة ٦٠ .

(١٢) في الأصل : ريحها طيب وطعمها طيب .

المنافِق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحُها طيب وطعمُها مُرٌّ ، ومثل المنافِق الذي لا يقرأ القرآن كالحَنْظلة ، طعمُها مُرٌّ ـ أو خبيثٌ [١] ـ وريحها مرٌّ [٢] » .

ورواه في موضع آخر مع بقية الجماعة من طرق ، عن قتادة ، به [٣] .

[و] مضمونُ هذه الأحاديث التحذير من المراياة [٤] بتلاوة القرآن التي هي من أعظم القُرَب كما جاء في الحديث : « واعلم أنك لم تتقرب إلى الله بأعظم مما خرج [٥] منه » . يعني : القرآن . والمذكورون في حديث علي وأبي سعيد هم الخوارج ، وهم الذين لا يجاوز إيمانُهم حناجرَهم . وقد قال في الرواية الأخرى : «يَحقِرُ أحدكم قراءته مع قراءتهم ، وصلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم » . ومع هذا أمر بقتلهم لأنهم مراءون في أعمالهم في نفس الأمر ، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك ، إلا أنهم أُسّسوا أعمالهم على اعتقاد غير صالح ، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه على تَقْوى من اللّهِ ورِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم من أَسَّسَ بُنْيانَه على شَفا جُرُفٍ هارٍ فانهار به في نار جَهَـنَّم والله لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمين ﴾ [٦] . وقد اختلف العلماءُ في تكفير الخوارِج وتَفْسِيقهم وردِّ روايتهم ، كما سيأتي تفصيلُه في موضعه إن شاء الله . والمنافق المشبه بالريحانة التي لها ريح ظاهر وطعمها مُرٌّ هو المرائي بتلاوته ، كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهـم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون النـاس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ [٧] .

ـ ٣١ ـ

ثم قال البخاري: «اقرءوا القرآن ما ائتلفَتْ قلوبكم »

حدثنا أبو النعمان محمد بن الفَضْلِ [٨] عارمٌ ، حدثنا حَمَّاد بن زيد ، عن أبي عمران الجَوْني ، عن جُنْدب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم ، فإذا اخْتَلَفْتُم فقوموا عنه» [٢] .

حدثنا عمرو بن علي بن بَحْرٍ الفَلّاس ، حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي ، حدثنا سَلّام بن أبي مُطِيع ، عن أبي عمران الجوني ، عن جُنْدَبٍ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت [عليه] [٩] قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا» [١٠] .

تابعه الحارث بن عُبَيدٍ وسَعِيد بن زَيدٍ ، عن أبي عمران . ولم يرفعه حَمَّاد بن سلمة وَأَبَان .

---

(١) في الأصل : وخبيث .
(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤٤ .
(٣) تقدم تخريجه في باب: فضل القرآن على سائر الكلام.
(٤) أي : المراءاة . انظرْ ما ذكرناه أوّل الباب .
(٥) الترمذي ، أبواب ثواب القرآن ٨/٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٦) الآية ١٠٩ من سورة التوبة .
(٧) الآية ١٤٢ من سورة النساء .
(٨) في الأصل : ابن الفضيل بن عازم . انظر تهذيب التهذيب ٩/٤٠٢ .
(٩) عن البخاري.
(١٠) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

وقال غُنْدَرٌ ، عن شعبة ، عن أبي عمران قال : سمعت جُندَباً، قوله . وقال ابن عونٍ ، عن أبي عمران ، عن عبد الله بن الصامت ، عن عمر ، قوله . وجندَبٌ أكثر وأصح [١].

وقد رواه في موضع آخر ، ومسلم كلاهما عن إسحاق بن منصور ، عن عبد الصمد ، عن هَمَّام، عن أبي عمران به[٢]. ومسلم أيضاً [٣- عن يحيى بن يحيى ، عن الحارث بن عبيد أبي قادمة ، عن أبي عمران. ورواه مسلم أيضاً-٣] عن أحمد بن سعيد، عن حَبَّان بن هلال، عن أبان العطار، عن أبي عمران، به مرفوعاً . وقد حكى البخاري أَنَّ أبانَ وحماد بن سلمة لم يرفعاه فالله أعلم . ورواه النسائي والطبراني من حديث مسلم بن إبراهيم ، عن هارون بن موسى الأعور النحوي ، عن أبي عمران ، به . ورواه أيضاً النسائي من طرقٍ ، عن سفيانَ ، عن حجاج بن فُرافصَةَ ، عن أبي عمران ، به مرفوعاً . وفي رواية عن هارون بن زيد بن أبي الزرقاء ، عن أبيه ، عن سفيان ، عن حجاج ، عن أبي عمران، عن جُنْدَبٍ، موقوفاً. ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، عن إسحاقَ الأزرقِ ، عن عبد الله بن عون ، عن أبي عمران ، عن عبد الله بن الصامت ، عن عمر ، قوله .

قال أبو بكر بن أبي داود : لم يُخْطىء ابنُ عَوْنٍ في حديث قَطُّ إلا في هذا ، والصواب عن جُنْدَبٍ . [ورواه الطبراني ، عن علي بن عبد العزيز ، عن مسلم بن إبراهيم وسعيد بن منصور قالا : حدثنا الحارث بن عبيد ، عن أبي عمران ، عن جندب مرفوعاً] [٤]. فهذا ما تيسَّرَ من ذكر طُرُقِ هذا الحديث على سبيل الاختصار ، والصحيح منها ما أرشد إليه شيخ هذه الصناعة أبو عبد الله البخاري ـ رحمه الله ـ من أن الأكثر والأصح أنه عن جندب بن عبد الله مرفوعاً إلى رسـول الله ﷺ. ومعنى الحديث أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرشد وحَضَّ أُمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته متفكِّرة فيه متدبِّرَةً له ، لا في حال شُغْلها وملالها ، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك ، كما ثبت في الحديث أنه قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « اكْلَفُوا من العمل ما تُطِيقون ، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَملُّوا » [٥]. وقال : « أحَبُّ الأعمال ما داوم عليه صاحبه ، وإن قل ». وفي اللفظ الآخر : « أحب الأعمال إلى الله أدومها ».

ثم قال البخاري : حدثنا سليمان بن حَرْبٍ ، حدَّثنا شعبة ، عن عبد الملك بن مَيْسَرة ، عن النَّزَّال بن سَبْرَةَ، **عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ أنه سمع رجلاً يقرأ آية سَمِعَ النبيَّ ـ ﷺ ـ قَرَأَ خلافها، فأخذتُ بيده، فانطلقت إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: «كلاكما محسن فاقرآ»، أكبر علمي قال: «فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا فأهلكَهُم الله عز وجل»**[٦].

وأخرجه النسائي من رواية شُعْبَةَ ، به .

وهذا في معنى الحديث الذي تَقَدَّمه ، وأنه ينهى عن الاختلاف في القراءة والمنازعة في ذلك والمراء فيه ، كما تقدم النهي عن ذلك ، والله أعلم .

وقريب من هذا ما رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه:

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٢) البخاري ، كتاب الاعتصام ٩/١٣٦، ومسلم ، كتاب العلم ٢٣ .

(٣ ـ ٣) عن الطبعة السابقة .

(٤) عن الطبعة السابقة . وانظر المعجم الكبير ٢/١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٥) البخاري ، كتاب الرقاق ٨/١٢٢، وكتاب الصوم ٣/٥٠ .

(٦) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٤٥ .

حدثنا أبو محمد سعيد بن محمد الجرمي ، حدثنا يحيى بن سعيد الأُمَوي ، عن الأعمش ، عن عاصم ، عن زِرّ بن حُبَيش قال : قال عبد الله بن مسعود : تمارينا في سورة من القرآن فقلنا : خمس وثلاثون آية ، ست وثلاثون آية ، قال : فانطلقنا إلى رَسُول الله ـ ﷺ ـ فَوَجَدْنا عَلِيّاً يناجيه ، فقلنا له : اختلفنا في القراءة . فاحمرَّ وجهُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال علي : إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ يأمركم أن تقرءوا كما عُلِّمتم [١].

وهذا آخر ما أورده البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب فضائل القرآن ـ جلَّ مُنَزِّله وتعالَى قائِلُه ـ ولله الحمد والمنَّة .

(١) مسند الإمام احمد ١/١٠٥ ـ ١٠٦. وفي الأصل : « أن تقرءوا القرآن كما علمتم ».

كتاب

الجامع لأحاديث شتّى تتعلّق بتلاوة القرآن وفضائله وفَضْل أهله

قال أحمد : حدثنا معاوية بن هشام ، حدثنا شيبان [١] ، عن فِرَاسٍ ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : قال نبي الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « يقال لصاحب القرآن [٢] إذا دخل الجنة : اقرَأ واصعَدْ . فيقرأ ويصعدُ بكل آية درجةً حتّى يقرأ آخر شيء معه » [٣] .

وقال أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمٰن ، حدثنا حَيْوَةُ ، حدثني بَشِير بن أبي عمرو الخولاني أنَّ الوليد بن قيس التُّجيبِيَّ حَدَّثه أنه سمع أبا سعيد الخُدْرِيَّ يقول : سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول : « يكون خَلْفٌ من بعد الستين [٤] سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غياً ، ثم يكون خَلْف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيَهُم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ومنافق وفاجر » . قال بشير فقلت للوليد : ما هؤلاء الثلاثة ؟ قال : المنافق كافر به ، والفاجر يتأكَّلُ به ، والمؤمن يُؤمن به [٥] .

وقال أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا الليث ، حدثني يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي الخير ، عن أبي الخطاب ، عن أبي سعيد أنه قال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ عام تبوك خطب الناسَ وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال : « ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس ، إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه ـ أو على ظهر بعيره ـ أو على قَدَميه حتى يأتيه الموتُ ، وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً ، يقرأ كتاب الله لا يرعوي إلى شيء منه » [٦] .

قال الحافظ أبو بكر البزّار : حدثنا محمد بن عُمَر [٧] بن هياج الكوفي ، حدثنا الحسن بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن الحسن الهَمْدَانيّ ، عن عمرو بن قيس ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يقول الله تعالى : من شغله قراءة القرآن عن دعائي أعطيته أفضل ثواب السائلين » .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . ثم قال : تفرد به محمد بن الحسن ولم يتابع عليه .

---

(١) في الأصل : سفيان . والمثبت عن المسند .
(٢) في المسند : لصاحب القرآن يوم القيامة إذا دخل الجنة .
(٣) المسند ٣/٤٠ .
(٤) في المسند : ستين .
(٥) مسند الإمام أحمد ٣/٣٨ ـ ٣٩ .
(٦) مسند الإمام أحمد ٣/٥٧ ـ ٥٨ .
(٧) في الأصل : عمير . انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/٢٢ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثني عبد الرحمٰن بن بُدَيل بن مَيْسَرةَ، حدثني أبي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن للّه أهلين من الناس » . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » (١).

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار ، حدثنا خالد بن خداش ، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم (٢).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا عبدُ الله بن أحمدَ بن حَنْبلٍ ، حدثنا محمد بن عَبّاد المكي ، حدثنا حاتم بن إسماعيل ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن يزيدَ بن أبانَ ، عن الحسن ، عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « القرآن غِنىً لا فَقْرَ بعده، ولا غِنَى دُونه»(٣).

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا عبد الله بن المحرَّر ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «لكلِّ شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن » (٤). ابن المحرَّر . ضعيف .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا بكر بن سوادة ، عن وَفاءٍ الخولاني ، عن أنس بن مالك قال : بينما نحن نَفَراً فينا العربيّ والعجمِيّ والأسود والأبيض ، إذْ خرَجَ علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: « أنتم في خير، تقرءون كتاب الله وفيكم رسول الله ، وسيأتي على الناس زمان يَثْقَفُونه كما يُثْقَفُ القِدْحُ ، يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها » (٥).

وقد رواه الإمام أحمد أيضاً عن حسن ، عن ابن لهيعة ، عن بكر ، عن وَفاءٍ، عن سهل بن سعد ، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره (٣).

وقال الحافظ أبو بكر البَزّار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا عبد الله بن الجهم ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن عَبْدِ رَبِّه بن عبد الله ، عن عُمَرَ بن نَبْهَان ، عن الحسن ، عن أنس أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « إنَّ البيت الذي يُقْرأُ فيه القرآنُ يَكْثُرُ خيرُه ، والبيتَ الذي لا يُقْرأُ فيه القرآنُ يَقِلُّ خيرُه » (٦).

وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا أبو عُبيدةَ(٧)، عن مُحْتَسِبٍ(٨)، حدثني يزيد الرَّقاشي ، عن أنس قال : قعدَ أبو موسى في بيت واجتمع إليه ناس فأنشأ يقرأ(٩) عليهم القُرآن ، قال : فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ رجلٌ فقال : يا رسول الله ، ألا أعجبك [من](١٠) أبي موسى أنه قعد في بيت فاجتمع إليه

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٢٧/٣ ـ ١٢٨ .
(٢) المعجم الكبير ٢٤٢/١ .
(٣) المعجم الكبير ٢٥٥/١ .
(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار ٩٦/٣ .
(٥) مسند الإمام أحمد ١٤٦/٣ ، ٣٣٨/٥ . وفي المسند : كما يثقفون القدح .
(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار ٩٣/٣ ، وقال البزار : « لم يروه إلا أنس » .
(٧) هو عبد الواحد بن واصل أبو عبيدة الحداد .
(٨) هو محتسب بن عبد الرحمٰن الأعمى ، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤٣٩/٨ .
(٩) في الأصل : فقرأ .
(١٠) عن مسند أبي يعلى .

ناس ، فأنشأ يقرأ عليهم القرآن ! قال : فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أفتستطيع أن تُقعِدَني حيث لا يراني منهم أحد؟» . قال: نعم . قال : فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ فأقعده الرجل حيث لا يراه منهم أحد ، فسمع قراءة أبي موسى ، فقال : « إنه ليقرأ علي مزمار من مزامير داود ، عليه السلام » (١) .

هذا حديث غريب ، ويزيدُ الرَّقاشي ضعيف .

وقال الإمام أحمد : حدثنا مصعب بن سلام ، حدثنا جعفر ـ هو ابن محمد بن علي بن الحسين ـ عن أبيه ، عن جابر بن عبد الله قال : خَطَبَنا رسول الله ـ ﷺ ـ فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ، ثم قال : « أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وإن أفضل الهَدْيِ هَدْيُ محمد ، وشَرَّ الأمور محدثاتُها ، وكلُّ بدعة ضلالة » . ثم يرفع صوته وتحمرُّ وجنتاه ويشتد غضبه إذا ذكر الساعة كأنه مُنْذِرُ جيشٍ ، قال ثم يقول : « أتتكم الساعة، بعثت أنا والساعة هكذا ـ وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ـ صَبَّحَتْكُم الساعةُ ومَسَّتْكُم، من ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك ديناً أو ضَيَاعاً (٢) فإليّ وعليّ » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حَدَّثنا عبدُ الوهاب ـ يعني ابن عطاء ـ أنبأنا أسامة بن زيد الليثي ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : دخل رسول الله ـ ﷺ ـ المسجد فإذا قوم يقرءون القرآن فقال : « اقرءوا القرآن وابتغوا به وجه الله (٤) ـ عز وجل ـ من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه » (٥) .

وقال أحمد أيضاً : حدَّثنا خلف بن الوليد ، حدثنا خالد (٦)، عن حُمَيدٍ الأعرج ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن نقرأ القرآن ، وفينا العجمي والأعرابي قال : فاستمع قال : فقال : « اقرءوا فكل حسن ، وسيأتي قوم يُقِيمونَه كما يُقام القدح، يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه » (٧) .

وقال أبو بكر البزار : حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء ، حدثنا عبد الله بن الأجلح ، عن الأعمش ، عن المعلى الكندي ، عن عبد الله بن مسعود قال : إن هذا القرآن شافع مُشَفَّع ، من اتبعه قاده إلى الجنة ، ومن تركه أو أعرض عنه ـ أو كلمة نحوها ـ زُجَّ في قفاه إلى النار .

وحدثنا أبو كُرَيب ، حدثنا عبد الله بن الأجلح ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أحمد بن عبد العزيز بن مروان أبو صخر ، حدثني بكير بن يونس ، عن موسى بن علي ، عن أبيه ، عن يحيى بن أبي كثير اليمامي ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من قرأ ألف آية كتب الله له قنطاراً ، والقنطار مائة رطل ، والرطل اثنتاعشرة أُوقِيَّة، والوُقِيَّةُ ستة دنانير ، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً ، والقيراط مثل أحد . ومن قرأ ثلاثمائة آية قال الله لملائكته : نَصِب عبدي لي ،

---

(١) مسند أبي يعلى ١٣٣/٧ ـ ١٣٥ .

(٢) الضَّياع : ولده المساكين .

(٣) مسند الإمام أحمد ٣١٠/٣ ـ ٣١١ .

(٤) في المسند : وابتغوا به الله .

(٥) مسند الإمام أحمد ٣٥٧/٣ .

(٦) في المسند : خالد بن حميد ـ وهو خطأ ـ وخالد هو ابن عبد الله الطحان أبو الهيثم .

(٧) مسند الإمام أحمد ٣٩٧/٣ .

أشهدُكم يا ملائكتي أني قد غَفَرْتُ له ، ومن بلغه عن الله فضيلة فعمل بها [١] إيماناً به ورجاء ثوابه ، أعطاه الله ذلك ، وإن لم يكن ذلك كذلك ».

وقال أحمد : حدثنا جرير ، عن قابوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب [٢] ».

قال البَزّار : لا نعلمه يُروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثني أبي قال : وجدت في كتاب أبي بخطه عن عمران بن أبي عمران ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ، وذلك أن الله عز وجل يقول : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ » [٣].

وقال الطبراني : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، حدثنا [٤] أبي ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عمرو بن دينار ، عن طاوس ، عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزَّنُ به ».

وقال أيضاً : حدثنا أبو يزيد القراطيسي ، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبدة بن سليمان ، عن سعيد أبي سعد البقال ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أحسنوا الأصوات بالقرآن » [٥].

وروي أيضاً بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً : « أَشْرَفُ أمتي حملة القرآن ».

وقال الطبراني : حدثنا معاذ [٦] بن المثنى ، حدثنا إبراهيم بن [أبي سويد] الذارع ، حدثنا صالح المُرِّيّ ، عن قتادة ، عن زرارة بن أوفى ، عن ابن عباس قال : سأل رجل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أيُّ الأعمال أحبّ إلى الله ؟ فقال : « الحال المرتحل ». قال : يا رسول الله ، ما الحالِ المرتحل؟ قال : « صاحب القرآن يضرب في أوله حتى يبلغ آخره ، وفي آخره حتى يبلغ أوله ».

باب ذكر الدعاء المأثور
لحفظ القرآن وطرد النسيان

قال أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير : حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَري ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا محمد بن إبراهيم القرشي ، حدثني أبو صالح وعكرمة ، عن ابن عباس قال : قال علي بن أبي طالب: يا رسول الله، القرآن يتفلّت من [٧] صدري. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «أُعَلِّمُكَ كلماتٍ يَنْفَعُكَ الله بهنَّ

(١) في الأصل : به .
(٢) مسند أحمد ١/٢٢٣ .
(٣) المعجم الكبير ١٢/٤٨ .
(٤) في الأصل : يحيى بن عثمان بن صالح ، ابن أبي لهيعة . وانظر ترجمة يحيى بن عثمان بن صالح في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/١٧٥، وترجمة أبيه عثمان بن صالح ٦/١٥٤ . والحديث في المعجم الكبير ١١/٧، وفيه : حدثنا عثمان بن يحيى بن صالح . وهو خطأ .
(٥) المعجم الكبير ١٢/١١٩ .
(٦) في الأصل : موسى بن المثنى . والمثبت عن المعجم الكبير ١٢/١٦٨ .
(٧) في الأصل : في .

وينفع من عَلَّمته». قال: نعم بأبي أنت وأمي. قال: «صَلِّ ليلة الجمعة أربع ركعات، تقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب ويسٓ، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وبحمٓ الدخان، وفي الثالثة بفاتحة الكتاب و﴿الٓمٓ * تنزيل﴾ السجدة، وفي الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله، وأَثْنِ عليه، وصلِّ على النبيين، واستغفر للمؤمنين، ثم قل: اللهمَّ ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني من أن أتكلف ما لا يعنيني، وارزُقني حسن النظر فيما يرضيك عنّي، اللهم بديعَ السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزَّة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمٰن بجلالك ونور وجهك، أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني، وأسألك أن تنور بالكتاب بصري وتطلق به لساني، وتفرِّج به عن قلبي، وتشرح به صدري، وتستعمل به بدني، وتُقَوِّيني على ذلك،وتعينني على ذلك، فإنه لا يعينني على الخير غيرك، ولا يوفق له إلا أنت. فافعل ذلك ثلاث جُمَع أو خمساً أو سبعاً تحفَظْه بإذن الله، وما أخطأ مؤمناً قطُّ». فأتى النبيَّ ـ ﷺ ـ بعد ذلك بسبع جُمَع فأخبره بحفظ القرآن والحديث. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «مؤمنٌ وربِّ الكعبة، عَلِم أبو الحسن، عَلِم أبو الحسن». هذا سياق الطبراني [(١)].

وقال أبو عيسى الترمذي في كتاب الدعوات: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا سليمان بن عَبْدِ الرحمٰن الدِّمَشْقِي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابنُ جُرَيج، عن عطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ـ ﷺ ـ إذ جاءه علي بن أبي طالب فقال: بأبي أنت وأُمّي تَفَلَّت هذا القرآنُ من صَدْري فما أجِدُني أَقدِرُ عليه. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا أبا الحسن، أفلا أعلمك كلماتٍ ينفعُكَ الله بهنَّ وينفع بهنَّ من عَلَّمْتَه، ويُثَبِّتُ ما تَعَلَّمْتَ في صدرك»؟ قال: أجل يا رسول الله، فَعَلِّمْنِي. قال: «إذا كان ليلةُ الجمعةِ فإن استطعتَ أن تقومَ في ثُلُثِ الليل الآخرِ فإنها ساعةٌ مشهودة، والدعاء فيها مستجاب. قال [(٢)] أخي يعقوب لبنيه ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة. فإن لم تستطع فقم في وسطها، فإن لم تستطع فَقُمْ في أولها، فصلِّ أربع ركعات، تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب و[سورة] [(٣)] يسٓ، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحمٓ الدخان، وفي [الركعة] [(٣)] الثالثة بفاتحة الكتاب و﴿الٓمٓ * تنزيل﴾ السجدة، وفي الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارَكَ المفصَّل، فإذا فَرَغْت من التشهد، فاحمد الله وأحسن الثناء على الله، وصل عليَّ وأحسِنْ، وعلى سائر النبيين، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، ثم قل في آخر ذلك: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أَبْقَيْتَنـي، وارحمني أن أتكلف ما لا يَعْنِيني، وارزُقني حسنَ النظر فيما يرضيك عني. اللهم بديعَ السمٰوات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمٰن بجلالك ونور وجهك أن [(٣ - تُلْزِم قلبي حِفْظَ كتابك كما عَلَّمتني. وارْزُقني أن أتلوه على النَّحو الذي يُرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا تُرام، أسألك يا اللّٰهُ يا رحمٰن بجلالك ونور وجهك أن]٣) تنـوِّر بكتابك بَصَري، وأن تُطلِق به لساني، وأن تفرِّج به عن قلبي، وأن تشرح به صدري، وأن تَغْسِلَ [(٤)] به بدني، [فإنه] [(٣)] لا يُعينُني على الحق ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. يا أبا الحسن، تفعلُ ذلك ثلاث جُمَعٍ أو خمساً أو سبعاً تُجَبْ [(٥)] بإذن الله تعالى، والذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمناً قط». قال ابن عباس: فوالله

(١) المعجم الكبير ١١/٣٦٧ - ٣٦٩.

(٢) في الترمذي: وقد قال.

(٣ - ٣) عن الترمذي.

(٤) في نسخة للترمذي: وأن تُعمِل به بدني.

(٥) في الأصل: تجاب. والمثبت عن الترمذي.

[ما لبث عليٌّ] إلا خمساً أو سبعاً حتى جاء رسولَ الله ـ ﷺ ـ في مثل ذلك المجلس ، فقال : يا رسول الله ، والله (١) إني كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن ، فإذا قرأتهن على نفسي تَفَلَّتن ، وأنا أتعلم اليوم أربعين آية ونحوها ، فإذا قرأتها على نفسي فكأنما كتابُ الله بين عينيَّ ، ولقد كنت أسمعُ الحديث ، فإذا رددْتُه تَفَلَّت ، وأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا تحدَّثت بها لم أَخْرِم منها حرفاً . فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ عند ذلك : « مؤمنٌ وربِّ الكعبة أبا الحسن » (٢).

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم . كذا قال ! وقد تقدم من غير طريقه ، ورواه الحاكم في المستدرك من طريق الوليد ، ثم قال : على شرط الشيخين . ولا شك أن سنده من الوليد على شرط الشيخين ، حيث صرَّح الوليد بالسماع من ابن جُرَيج ـ فالله أعلم ـ فإنه في المتن غرابة، بل نكارة، والله أعلم.

[و] قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا العمري ، عن نافع، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «مثل القرآن مثل الإبل المُعَقَّلَةِ ، إنْ تعاهَدَها صاحبُها أمسكها ، وإن تركها ذَهَبت » (٣).

ورواه أيضاً عن محمد بن عبيد ويحيى بن سعيد ، عن عبيد الله العمري ، به . ورواه أيضاً عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر مرفوعاً نحوه (٤).

وقال البزار : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا حميد بن حماد بن أبي الخُوَار ، حدثنا مِسْعَرٌ ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال: سئل رسول الله ـ ﷺ ـ : أيُّ الناسِ أحسنُ قراءةً ؟ قال : « من إذا سمعته يقرأ رُؤيتَ أنه يخشى الله عز وجل » (٥).

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن زِرٍّ ، عن عبد الله بن عَمْرو ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق(٦)، [ورتِّل كما كنت تُرتِّل في الدنيا]، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤُها»(٧).

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعَةَ ، حدثني حُيَيٌّ بن عبد الله ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيّ ، عن عبد الله بن عَمْرو قال : جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله ، إني أقرأ القرآن فلا أجد قلبي يَعْقِلُ عليه ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن قلبك حُشِيَ الإيمانَ ، وإن العبد يُعطى الإيمانَ قبلَ القرآنِ » (٨).

وبهذا الإسناد أن رجلاً جاء بابن له فقال : يا رسول الله ، إن ابني هذا يقرأ المصحف بالنهار ، ويبيت بالليل ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما تَنْقِمُ أن ابنك يَظَلُّ ذاكراً ويبيت سالماً » (٩).

---

(١) ليست في الترمذي .
(٢) تحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ١٠/١٨ ـ ٢١ .
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٢٣ .
(٤) المسند ٢/١٧، ٣٠.
(٥) كشف الأستار ، كتاب التفسير ٣/٩٨.
(٦) في المسند : وارقاً ، ورقاً يرقاً بمعنى رَقِي : صعد .
(٧) مسند الإمام أحمد ٢/١٩٢ . وما بين القوسين عنه .
(٨) المسند ٢/١٧٢ .
(٩) المسند ٢/١٧٣ .

وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة ، عن حُيَيٍّ ، عن أبي عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عَمْرو أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « الصيامُ والقرآنُ يشفعَانِ للعَبْدِ يومَ القيامة ، يقول الصيامُ : أي ربِّ ، أنا [١] منعته الطعام والشهوات بالنهار فَشَفِّعْنِي فيه . ويقول القرآن : أنا [١] منعته النوم بالليل ، فَشَفِّعْنِي فيه . قال : فَيُشَفَّعَان » [٢].

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، [حدثنا دَرَّاج] [٣] عن عبد الرحمن بن جُبَير ، عن عبد الله بن عَمْرو قال : سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « أكثر منافِقِي أمتي قراؤُها » [٤].

وقال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثني همام ، عن قتادة ، عن يزيد بن عبد الله [بن] الشِّخِّير ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يَفْقَهْه » [٥].

ورواه أيضاً عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن قتادة ، به [٦]. وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه ، حدثنا أبي ، حدثنا عيسى بن يونس ، ويحيى بن أبي الحجاج التميمي ، عن إسماعيل بن رافع ، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ، عن عبد الله بن عَمْرو ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من قرأ القرآن فكأنما استُدْرِجَت النبوَّةُ بين [٧] جنبيهِ ، غير أنه لا يُوحَى إليه ، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُعْطِيَ أفضل مما أُعطيَ فقد عَظَّم ما صَغَّر الله وصَغَّر ما عظَّم الله ، لحامل القرآن أن يَسْفَه فيمن يَسْفَه ، أو يَغْضَب فيمن يَغْضَب ، أو يَحْتَدَّ [٨] فيمن يَحْتَدُّ [٨]، ولكن يعفو ويصفحْ ، لِفضل القرآن [٩] ».

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم [١٠]، حدثنا عباد بن ميسرة، عن الحَسَن ، عن أبي هُرَيرَةَ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال [١١]: « من استمع إلى آيةٍ من كتابِ الله كُتِبَتْ له حسنةٌ مضاعفةٌ ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة » [١٢].

وقال البزار : حدثنا محمد بن حرب ، حدثنا يحيى بن المتوكل ، حدثنا عنبسة بن مهران، عن الزهري، عن سَعِيدٍ وأبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ـ ﷺ ـ[قال : « مراءٌ في القرآن كفرٌ » . ثم قال : عنبسة هذا ليس بالقويّ . وعنده فيه إسناد آخر .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو بكر بن أبي إدريس ، حدثنا المقبري ، عن جدِّه ، عن أبي هريرة

---

(١) ليست في المسند .
(٢) المسند ٢/١٧٤ .
(٣) عن المسند . ودرّاج هو ابن سمعان .
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٥ .
(٥) المسند ٢/١٦٤ ، ١٩٣ .
(٦) المسند ٢/١٩٥ .
(٧) في الأصل : من .
(٨) في الأصل : يتحد فيمن يتحد .
(٩) مجمع الزوائد ٧/١٥٩ .
(١٠) في الأصل : هاشم بن عباد .
(١١) في الأصل : أنه قال .
(١٢) المسند ٢/٣٤١ .

قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه».

وقال الطبرانيّ : حدثنا موسى بن حازم الأصبهاني ، حدثنا محمد بن [بكير الحضرمي ، حدثنا إسماعيل بن] (١) عَيَّاش ، عن يحيى بن الحارث الذِّماري ، عن القاسم أبي (٢) عبد الرحمٰن ، عن فضالة بن عُبَيد ، وتَمِيم الداريّ ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « من قرأ عشر آيات في ليلة كُتِب له قنطار ، والقنطار خير من الدنيا وما فيها ، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك عز وجل : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهي إلى آخر آية معه ، يقول ربك : اقبض ، فيقول العبد بيده : يا رب أنتَ أعلم . فيقول : بهذه الخلد وبهذه النعيم » (١).

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة معفس (٣) بن عمران بن حطان قال : دخلت مع أبي على أم الدرداء ـ رضي الله عنها ـ فسألها أبي : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأ ؟ قالت : حدثتني عائشة قالت : جُعِلت دَرَجُ الجنة على عدد آي القرآن ، فمن قرأ ثلث القرآن ثم دخل الجنة كان على الثلث من دَرَجها ، ومن قرأ نصف القرآن كان على النصف من دَرَجها ، ومن قرأ كُلَّه كان في عِلِّيِّينَ ، لم يكن فوقه إلا نبي أو صديق أو شهيد .

وقال الطبراني : حدثنا مَسْعَدَةُ بن سَعْدٍ العطارُ المكي ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحِزَامي ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم مولى جميع [ابن حارثة] (٤) الأنصاري ، حدثنا عبد الله بن ماهان الأزدي ، حدثني فائد مولى عُبَيد الله بن أبي رافع ، حدثتني سُكينة بنت الحُسَين بن علي ، عن أبيها قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « حملة القرآن عُرَفاء أهل الجنة يوم القيامة » (٥).

وروى الطبراني من حديث بقيَّة ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، عن المهاجر بن حبيب ، عن عبيدة المليكي ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان يقول : « يا أهل القرآن لا توسَّدوا القرآن ، واتلوه حَقّ تلاوته من آناء الليل والنهار ، وتغنوه وتَقَنُّوه ، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون ، ولا تستعجلوا ثوابه ، فإن له ثَوَابًين » (٦).

وفي حديث عقبة بن عامر نحوه ، كما تقدم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا ابن لَهِيعَةَ ، عن مِشْرَحٍ ، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لو أن القرآن جُعِل في إهابٍ ثم ألقي في النار ما احترق » (٧).

تفرد به . قيل : معناه أن الجسد الذي يقرأ القرآن .

وفي سُنَن ابن ماجه من طريق المغيرة بن نَهِيكٍ ، عن عقبة بن عامر مرفوعاً : « من تعلم القرآن (٨) ثم تركه فقد عصاني » .

وفي حديث رواه أبو يعلى من طريق ليث ، عن مجاهد ، عن [أبي] سعيد مرفوعاً : « عليك بتقوى الله

---

(١) عن المعجم الكبير ٢/٥٠.
(٢) في الأصل : ابن أبي عبد الرحمٰن . وانظر تهذيب التهذيب ترجمة القاسم بن عبد الرحمٰن الشامي ، أبي عبد الرحمٰن ٣٢٢/٨.
(٣) في الأصل : معبس . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤٣٣/٨.
(٤) عن المعجم الكبير .
(٥) المعجم الكبير للطبراني ١٤٣/٣ ـ ١٤٤ .
(٦) انظر الإصابة ، الترجمة ٤٤٣/٢/٦٣٩٢ .
(٧) في الأصل : ما أحرق . والحديث في المسند ١٥١/٤.
(٨) كذا ، ولفظ ابن ماجه كما في كتاب الجهاد ٩٤١ : « من تعلم الرمي » .

فإنها رأس كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآنِ فإنَّه نورٌ لك في الأرضِ وذكرٌ لك في السماء ، واخْزُنْ[١] لسانَكَ إلا من خيرٍ فإنك بذلك تَغْلِب الشيطان ».

وهكذا أذكُرُ آثاراً مرويّةً عن ابن أمّ عَبْدٍ أحدِ قُرّاء القرآن مِنَ الصَّحابةِ المأمورِ بالتلاوة على نحوهم :

روى الطبراني ، عن الدَّبَرِيّ ، عن عبد الرزاق ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عن أبي إسحاق قال ابن مسعود : كل آية في كتاب الله خيرٌ مما في السماء والأرضِ .

ومن طريق شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن مرَّة قال ابن مسعود : من أراد العلم فلْيَتَبَوَّأْ من القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين .

ومن طريق سُفيان وشعبة ، عن ساعد بن كُهَيل ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله قال : إنّ هذا القرآن ليس فيه حرف إلاّ له حدٌّ ، ولكلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ.

ومن حديث الثوري ، عن إسماعيل بن أبي خالدٍ ، عن سيار أبي الحكم ، عن ابن مسعودٍ أنه قال : أعربوا هذا القرآن فإنه عربيٌّ ، وسيجيءُ قوم يُثَقِّفونه وليسوا بخياركم .

والثوري ، عن عاصمٍ ، عن زِرٍّ ، عن ابن مسعود قال : أديموا النظر في المصحف ، وإذا اختلفتم في ياءٍ أو تاءٍ فاجعلوها ياءً ، ذكّروا القرآن فإنه مذكّر .

وقال عبد الرزاق ، عن إسرائيل ، عن عبد العزيز بن رفيع ، عن شَدَّاد بن مَعْقِلٍ ، سَمِعْتُ ابن مسعودٍ يقول : أول ما تفقدونَ من دينكم الأمانة ، وآخر ما يبقى من دينكم الصلاة ، وَلَيُصَلِّيَنَّ قومٌ لا خَلاقَ لهم ، ولينزعنَّ قومٌ من بين أظهركم . قالوا : يا أبا عبد الرحمن : ألسنا نقرأُ القرآن وقد أثبتناه في مصاحفنا ؟ قال : يُسْرَى على القرآن ليلاً فَيُذْهَبُ به من أجوافِ الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء . وفي رواية : لا يبقى في مصحفٍ منه شيءٌ ـ ويصبح الناسُ فُقَراءَ كالبهائم ـ ثم قرأ عبد الله : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً ﴾[٢].

وقال الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا أبو نعيم ، حدثني شعبة ، عن علي بن بذيمة ، عن أبي عبيدة بن عبد الله ، عن أبيه قال : من قرأ القرآن في ؟ أَقَلَّ من ثلاثٍ فهو راجز[٢].

قال هشام عن الحسَنِ إنه بلغه عن ابن مسعود مثلُ ذلك .

ومن طريق الأعمش ، عن أبي وائلٍ قال : كان عبد الله بن مسعود يقل الصوم ، فيقال له في ذلك ، فيقول : إني إذا صُمْتُ ضَعُفْتُ عن القراءةِ والصلاة، والقراءة والصلاة أحبُّ إليَّ[٣].

مقدمة مُفيدة

قال أبو بكر بن الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاقَ القاضي، عن حجاج بن مِنْهالٍ، عن همام، عن قتادة قال : نزل في المدينة من القرآن: البقرة، وآل عمرانَ، والنساء، والمائدة، [والأنفال][٤]، وبراءة ،

(١) في الأصل : واخرس . والمثبت عن مسند أبي يعلى ٢/٢٨٤.

(٢) المعجم الكبير ١٥٣/٩، ١٥٤.

(٣) المعجم الكبير ١٩٥/٩.

(٤) عن القرطبي ٦١/١.

والرعد ، والنحل ، والحج ، والنُّور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد [١]، والرحمٰن ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، ويا أيها النبي لمَ تُحرِّم ، وإلى رأس العشر ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصرُ الله ، هؤلاء السور نزلت بالمدينة ، وسائر القرآن نزل بمكة .

فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية ، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال ، فمنهم من لم يزد على ذلك ، ومنهم من قال : ومائتا آية وأربع آيات ، وقيل : وأربع عشرة آية ، وقيل : ومائتان وتسع عشرة ، وقيل : ومائتان وخمس وعشرون آية ، وست وعشرون آية ، وقيل : ومائتا آية ، وست وثلاثون آية . حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتاب البيان [٢].

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان ، عن عطاءِ بن يسار : سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة .

وأما حروفُه فقال عبد الله بن كثير ، عن مجاهد : هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثُمائةِ ألفِ حرفٍ وواحدٌ وعشرون ألفَ حَرْفٍ ومائةٌ وثمانونَ حرفاً .

وقال الفضل ، عن عطاء بن يسار : ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً .

وقال سَلَّام أبو محمد الحمانيّ : إنّ الحجاج جمع القراء والحفاظ والكُتَّاب فقال : أخبروني عن القرآن كُلّه كم من حرفٍ هو ؟ قال : فحسبناه فأجمعوا أنه ثلاثُمائة ألفِ حَرْفٍ وأربعون ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً . قال : فأخبروني عن نصفه . فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف : ﴿ وليتلطف ﴾ ، وثُلُثه الأول عند رأس مائة آية من براءة والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء ، والثالث إلى آخره . وسُبُعُه الأول إلى الدال من قوله : ﴿ فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه ﴾ . والسُّبع الثاني إلى الباء من قوله في الأعراف : ﴿ حبطت ﴾ ، والثالث إلى الألف الثانية من ﴿ أكلها ﴾ في الرعد ، والرابع إلى الألف من قوله في الحج : ﴿ جعلنا منسكاً ﴾ والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ ، والسادس إلى الواو من قوله في الفتح ﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾ ، السابع إلى آخر القرآن . قال سلام أبو محمد : عملنا ذلك في أربعة أشهر .

قالوا : وكان الحجاج يقرأ في كلِّ ليلةٍ ربع القرآن ، فالأول إلى آخر الأنعام ، والثاني إلى ﴿ فليتلطف ﴾ من سورة الكهف ، والثالث إلى آخر الزمر ، والرابع إلى آخر القرآن . وقد ذكر الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه البيان خلافاً في هذا كله [٣]، والله أعلم .

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات في المدارس وغيرها ، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة القرآن ، والحديث في مسند أحمدَ وسُنَنِ أبي داودَ وابن ماجَةْ وغيرهما عن أوس بن حُذَيفة أنّه سَأَلَ أصحابَ رسولِ الله ﷺ في حياته : كيف يُحَزِّبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرةَ وثلاث عَشْرَةَ ، وحِزْبُ المُفَصَّل من قاف حتى يختم [٤].

---

(١) في تفسير القرطبي : والرحمٰن والحديد .
(٢) انظر تفسير القرطبي ١/٦٥.
(٣) انظر تفسير القرطبي ١/٦٤.
(٤) مسند الإمام أحمد ٤/٩، وسنن أبي داود ، كتاب رمضان ٢/٥٥ ـ ٥٦. وابن ماجه ، كتاب الإقامة ٤٢٨.

قال القرطبي : أجمعوا أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب (١) الأعجمية ، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط ، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية ، فأنكر ذلك الباقلاني والطبريّ (٢) وقالا : ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية ، فهو من باب ما توافقت فيه اللغات (٣) .

فصل

واختلفُوا في معنى السورة : مِمَّ هي مشتقة ؟ فقيل : من الإبانة والارتفاع . قال النابغة (٤) :

ألـم تـر أنَّ الله أعطـاكَ سـورَةً(٥) تَـرَى كُـلَّ مَلْـكٍ دُونهـا يَتَـذَبْـذَبُ

فكأن القارىء يتنقل بها من منزلة إلى منزلة ، وقيل : لشرفها وارتفاعها كسور البلد . وقيل : سميت سُورَةً لكونها قِطْعَةً من القرآن وجُزءاً منه، مأخوذ من أسآر الإناء وهو البقية ، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً ، وإنما خففت فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها . وقيل: لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سُورَةً .

قلت : وَيَحْتَمِل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّي سورُ البلد لإحاطته بمنازِله ودُوره ، والله أعلم .

وجمع السورة سُوَرٌ بفتح الواو ، وقد تُجمع على سُوْرَاتٍ وسُوَرَات .

وأما الآية فمن العلامَة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله ، أي : هي بائنةٌ من أختها، قال الله تعالى : ﴿ إنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ﴾ (٦)، وقال النابغة (٧) :

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فَعَرَفْتُها لستَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

وقيل : لأنها جماعةُ حروفٍ من القرآن وطائفة منه ، كما يقال : خرج القوم بآيتهم ، أي : بجماعتهم . قال الشاعر (٨) :

خَرَجْنَا من النَّقبين ، لا حَيَّ مِثلُنا بـآيتنـا نُـزجِي اللقاحَ المَطَافِلا

وقيل : سُمِّيت آيةً لأنها عَجَبٌ يَعجز البشر عن التكلّم بمثلها .

قال سيبويه : وأصلها أَيَيَة مثل أَكَمَة وشَجَرَة ، تحرَّكت الياءُ وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت آية ، بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائي : آيِيَة على وزن آمِنة (٩)، فَقُلِبت ألفاً ، ثم حُذفت لالتباسها . وقال الفَرَّاء :

---

(١) في الأصل : الكتب . ونصّ القرطبي : « لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركّب على أساليب على غير العرب » .

(٢) في الأصل : الطبراني .

(٣) تفسير القرطبي ١/٦٨ .

(٤) من قصيدته التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر ، والتي أولها :

أرسمـاً جـديـداً مـن سعـاد تـجـنَّـبُ عَفَتْ رَوْضَـةُ الأجـداد منهـا فَيَثْـقَبُ

(٥) ويُرْوَى : صورة . كل مَلْكٍ : كلّ جَمَالٍ .

(٦) من الآية ٢٤٨ من سورة البقرة .

(٧) من قصيدته التي يعتذر فيها إلى النعمان ، ومطلعها :

عـفـا حُسُـم مـن فَـرْتَـنَـى فـالـفـوارع فـجـنـبـا أريـكٍ فـأتـلاعُ الـدوافـعُ

(٨) البيت لبرج بن مسهر ، وهو من شواهد نتائج الفكر للسهيلي ٢٠٠ ، واللسان : أيا .

(٩) هذا النقل من القرطبي ١/٦٦ ، ونصه : « على وزن فاعلة مثل آمنة » .

أصلها أَيَّة ـ بتشديد الياء [١] ـ فَقُلِبَت الأولى ألفاً ، كِراهيةَ التشديد فصارت آية ، وجمعُها : آيٌ وآيايٌ [٢] وآياتٌ .

وأما الكلمة فهي اللفظ الواحد ، وقد تكون على حرفين مثل : ما ولا وله ولك ، وقد يكون أكثر ، وأكثر ما يكون عشرة أحرف : ﴿ليستخلفَنَّهم﴾ و﴿ أنلزمكموها ﴾ ، ﴿ فأسقيناكموه ﴾ ، وقد تكون الكلمة آية ، مثل: والفجر، والضحى، والعَصْر، وكذلك: الٓمٓ، وطه، و﴿يسٓ﴾، وحمٓ ـ في قول الكوفيين ـ و﴿حمٓ عٓسٓقٓ ﴾ عندهم كلمتان . وغيرهم لا يسمي هذه آياتٍ بل يقول : هي فواتح السُّوَرِ . وقال أبو عَمْرو الدانيّ : لا أعلم كلمةً هي وحدها آيةٌ إلا قوله : ﴿ مُدْهَامَّتَان ﴾ في سورة الرحمٰن [٣].

آخر المقدمة

---

(١) في الأصل والقرطبي : « بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفاً » . والصواب ما أثبتناه . وانظر المذاهب في آية في شرح الشافية للرضي ١١٨/٣ .

(٢) كذا في الأصل ، واللسان . ويقول ابن برّي : صوابه آياء بالهمز ، لأن الياء إذا وقعت طرفاً بعد ألفٍ زائدةٍ قلبت همزةً ، وهو جمع آي لا آية » .

(٣) انظر تفسير القرطبي ٦٧/١ .

تفسير

سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

[ويقال لها: الفاتحة، أي: فاتحة الكتاب خَطّاً، وبها تفتح القراءة في الصلاة، ويقال لها: أم الكتاب عند الجمهور، وكره أنسٌ والحسن وابن سيرين تسميتها بذلك، قال الحسنُ وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ. وقال الحسن: والآيات المحكمات هن أم الكتاب. كذا كره أيضاً أن يُقال لها أمُّ القرآن، وقد ثبت في الحديث عند الترمذي ـ وصَحَّحه ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: الحمدُ لله أمُّ القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني[١]. ويقال لها: السبع المثاني، والقرآن العظيم. ويقال لها: الحمد والصلاة، لقوله عليه السلام: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبدُ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله: حَمِدني عبدي»[٢]... الحديث. فَسُمِّيت الفاتحةُ صلاةً لأنها شرط فيها.

ويقال لها: الشفاءُ، لما رواه الدارِميُّ عن أبي[٣] سعيد مَرْفُوعاً: فاتحةُ الكتاب شفاءٌ من كل سم.

ويقال لها: الرقية، لحديث أبي سعيد في الصحيحين حين رقى بها الرجلَ السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟»[٤]. وروى الشعبي، عن ابن عباس أنه سماها أساسَ القرآن، قال: فأساسُها بسم الله الرحمن الرحيم.

وسماها سفيان بن عُيَينة الوافية، وسماها يحيى بن أبي كثير الكافية، لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة: «أم القرآن عِوَضٌ من غيرها، وليس غيرها عوضاً منها»[٥].

ويقال لها: سورة الصَّلاة والكنز، ذكرهما الزمخشري في كشافه[٦].

---

(١) تحفة الأحوذي، أبواب التفسير، تفسير سورة الحجر ٨/٥٥٢ ـ ٥٥٣.
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٢٨٥، ٤٦٠.
(٣) كذا، وهو في الدارمي عن عبد الملك بن عمير، انظر سنن الدارمي ٢/٤٤٥.
(٤) البخاري، كتاب الإجارة ٣/١٢١، ومسلم، كتاب السلام ١٧٢٧.
(٥) انظر تفسير القرطبي ١/٩٨.
(٦) الكشاف، أول سورة الفاتحة ١/١.

وهي مكية، قاله ابن عباس، وقتادة، وأبو العالية. وقيل: مدنية، قاله أبو هريرة، ومجاهد، وعطاء بن يسار، والزهري. ويقال: نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة. والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿ولقد أتيناك سبعاً من المثاني﴾. والله أعلم.

وحكى أبو الليث، السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة. وهو غريب جداً نقله القرطبي[1] عنه.

وهي سبع بلا خلاف. وقال عمرو بن عُبَيد: ثمان. وقال حُسَين الجُعْفي: ست. وهذان شاذان[2].

وإنما اختلفوا في البسملة: هل هي آية مستقلة من أولها[3]، كما هو المشهور عن جمهور قرّاء الكوفة، وقول جماعة من الصحابة والتابعين، وخلق من الخلف. أو بعض آية. أولاً تعد من أوّلها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القرّاء والفقهاء، على ثلاثة أقوال سيأتي تقريرها في موضعه، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

قالوا: وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثَةَ عَشَرَ حرفاً.

قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسُمِّيت أمَّ الكتاب أنَّه يُبدَأُ بكتابتها في المصاحف، ويُبدَأُ بقراءتها في الصلاة[4].

وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كُلِّه إلى ما تضمنته.

قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمراً أو مقدماً لأمر، إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع: أُمّاً، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: أُمُّ الرّأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أُمّاً، واستشهد بقول ذي الرّمة[5]:

على رأسه أُمٌّ لنا نقتدي بها جِمَاعُ أمور لا نُعاصِي لها أمرا

يعني الرمح، قال: وسُمِّيت مكة أُمَّ القرى لتقدمها أمام جميعها وجَمْعِها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دُحِيَتْ منها[6].

ويقال لها أيضاً: الفاتحة، لأنها يُفتَتَحُ بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تثنى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة، وإن كان للمثاني معنى آخر غير هذا كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا ابن أبي ذئب ـ وهاشم بن القاسم[7]، عن ابن أبي ذئب ـ عن المقبريّ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه قال في أم القرآن: «هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم الذي أُوتيته»[8].

---

(١) تفسير القرطبي ١/١٠٠.
(٢) انفرد الأصل بما تقدم، من قوله: «ويقال لها الفاتحة» إلى هنا.
(٣) في الأصل: «من أولها آيات».
(٤) البخاري، كتاب التفسير ٦/٢٠.
(٥) ديوانه ١٤٤٦، وفيه: أمٌّ له.. لا نعاصي له.
(٦) تفسير الطبري ١/٤٨، ٧/٢٧٢.
(٧) في الأصل: هاشم بن هاشم والمثبت من المسند، وانظر التهذيب ١١/١٨.
(٨) المسند ٢/٤٤٨.

ثم رواه عن إسماعيل بن عمر، عن ابن أبي ذئب، به.

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني».

وقال الحافظ أبو بكر ابن مَرْدُويَه في تفسيره: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، حدثنا محمد بن غالب بن حرب، حدثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلي، حدثنا المعافى بن عمران، عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن المقبريّ، عن أبيَ هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب، وفاتحة الكتاب».

وقد رواه الدارقطني أيضاً، عن أبي هريرة، مرفوعاً بنحوه أو مثله، وقال: كلهم ثقات.

وروى البيهقيّ عن علي وابن عباس وأبي هريرة: أنهم فسروا قوله: ﴿سبعاً من المثاني﴾ بالفاتحة، وأن البسملة هي الآية السابعة منها، وسيأتي تمام هذا عند البسملة.

وقد روى الأعمش، عن إبراهيم قال: قيل لابن مسعود: لِمَ لَمْ تكتب الفاتحة في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة. قال أبو بكر بن أبي داود ـ يعني حيث تقرأ في الصلاة. قال: واكتفيت بِحِفْظِ المسلمين لها عن كتابتها. قال: وقد قيل: إن الفاتحة أول شيءٍ نزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة[1]، ونقله الباقلاني، أحد أقوال ثلاثة، هذا أحدها، وقيل: ﴿يا أيها المدثر﴾، كما ورد في حديث جابر في الصحيح[2]، وقيل: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾. وهذا هو الصحيح[3]، كما سيأتي تقريره في موضعه وبالله المستعان.

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في مسنده: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المُعَلّى، رضي الله عنه، قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه حتى صلّيت وأتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» قال: قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي. قال: ألم يقل الله: ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد». قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله، إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن. قال: «نعم ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي: السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وهكذا رواه البخاري عن مُسَدِّدٍ، وعلي بن المَدِيني، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان، به. ورواه

(١) دلائل النبوة ١٥٨/٢ ـ ١٥٩.

(٢) البخاري، تفسير سورة المدثر ٢٠٢/٦. ومسلم كتاب الإيمان، باب بدء الوحي ١٤٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢٣٢/٦ ـ ٢٣٣. والبخاري، كتاب بدء الوحي ٣/١ ـ ٤، وكتاب التعبير ٣٨/٩، وتفسير سورة اقرأ ٢١٤/٦ ـ ٢١٥. ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي ٩٧/١٠ ـ ٩٨.

في موضع آخر من التفسير، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من طرقٍ عن شعبة، به[١]. ورواه الواقديّ عن محمد ابن معاذ الأنصاريّ، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المُعَلَّى، عن أُبَيّ ابن كعب، فذكر نحوه.

وقد وقع في الموطأ للإمام مالك بن أنس، ما ينبغي التنبيه عليه، فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقي: أن أبا سعيد مولى عامر بن كُرَيزٍ أخبره[٢] أن رسول الله ﷺ نادى أُبَيّ بن كعب، وهو يصلي في المسجد، فلما فرغ من صلاته لحقه، قال: فوضع النبي ﷺ يده على يدي، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، ثم قال: «إني لأرجو ألَّا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أُنزِلَ في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها». قال أبيّ: فجعلت أبطىء في المشي رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله، السورةَ التي وعدتني. قال: «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟». قال: فقرأت عليه: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ حتى أتيت على آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «هي هذه السورة، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُعطِيتُ»[٣].

فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المُعَلَّى، كما اعتقده ابنُ الأثير في جامع الأصول ومن تبعه، فإن ابن المُعَلَّى صحابي أنصاري، وهذا تابعي من موالي خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبيّ بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم، والله أعلم. على أنه قد رُوِي عن أبيّ بن كعب من غير وجه كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفَّان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ـ ﷺ ـ على أبيّ بن كعب، وهو يصلي، فقال: يا أُبَيّ. فالتفت[٤] ثم لم يجبه، ثم قال: أبي. فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أيْ رسول الله. قال: وعليك السلام، قال: ما منعك أيْ أُبيّ إذ دَعَوتُك أن تجيبني؟ قال: أيْ رسول الله، كنت في الصلاة. قال: أولست تجد فيما أُوْحى الله إليّ: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ قال: بلى يا رسول الله، لا أعود. قال: أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟ قلت: نعم أيْ رسول الله. قال رسول الله ﷺ: إني لأرجو ألا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني، وأنا أتبطأ، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضي الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أيْ رسول الله، ما السورة التي وعدتني؟ قال: ما تقرأ في الصلاة؟ قال: فقرأت عليه أم القرآن. قال: والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور (ولا في الفرقان) مثلها، إنها السبع المثاني[٥].

ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدَّرَاوَرْديّ، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكره، وعنده: إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح[٥].

وفي الباب، عن أنس بن مالك. ورواه عبدالله ابن الإمام أحمد، عن إسماعيل بن أبي معمر، عن أبي

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢١١، والبخاري، كتاب التفسير ٦/٢٠، ٧٧، وكتاب فضائل القرآن ٦/٢٣٠ ـ ٢٣١. وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٧١، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٣٩، وابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٤٤.
(٢) في الأصل: أخبرهم. والمثبت عن الموطأ.
(٣) الموطأ، كتاب الصلاة، باب ما جاء في أم القرآن ٧٣.
(٤) لفظ المسند: «فالتفت فلم يجبه ثم صلّي أبي وخفف».
(٥) مسند الإمام أحمد ٢/٤١٢ ـ ٤١٣، وتحفة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ٨/١٧٨ ـ ١٨٠.

أسامة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبيّ بن كعب، فذكره مطولاً بنحوه أو قريباً منه.

وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن أبي عمار حُسَين بن حُرَيث، عن الفضل بن موسى، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي، هذا لفظ النسائي. وقال الترمذي: حسن غريب(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا هاشم، يعني ابن البريد، حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل، عن ابن جابر، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهراق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ. فانطلق رسول الله ﷺ يمشي، وأنا خلفه حتى دخل رحله ودخلت أنا المسجد، فجلست كئيباً حزيناً، فخرج عليّ رسول الله ﷺ قد تَطَهَّرَ، فقال: عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير(٢) سورة في القرآن؟ قلت: بلى، يا رسول الله. قال: اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تختمها»(٢).

هذا إسناد جيد، وابن عقيل تحتج به الأئمة الكبار، وعبدالله بن جابر هذا هو الصحابي، ذكر ابن الجوزي أنه هو العبديّ، والله أعلم، ويقال: إنه عبدالله بن جابر الأنصاري البياضي، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر.

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكي عن كثير من العلماء، منهم: إسحق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، وابن الحصّار من المالكية. وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك، لأن الجميع كلام الله، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً، نقله القُرْطُبِيّ عن الأشعريّ، وأبي بكر الباقلاني، وأبي حاتم بن حبان البُسْتِيِّ، ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك [أيضاً](٣).

حديث آخر، قال البخاري في فضائل القرآن: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا وهب، حدثنا هشام، عن محمد، عن معبد، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نَفَرَنا غُيَّب، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل [ما كنا نأبُنه](٤) برقية، فرقاه، فَبَرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع(٥) قلنا له: أكنت تحسن رقية ـ أو كنت ترقى؟ ـ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب. قلنا: لا تُحدثُوا شيئاً حتى نأتي، أو نسأل رسول الله ﷺ. فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ـ ﷺ ـ فقال: «وما كان يُدْريه أنها رقية، اقسموا واضربوا لي بسهم».

---

(١) تحفة الأحوذي، أبواب التفسير ٥٥٣/٨، والنسائي، كتاب الافتتاح ١٣٩/٢.
(٢) مسند الإمام أحمد ١٧٦/٤ ـ ١٧٧. وفي الأصل: ما خير سورة؟ والمثبت عن المسند.
(٣) عن الأصل. وانظر تفسير القرطبي ٩٥/١.
(٤) ما بين القوسين ساقط من الأصل، والمعنى: ما كنا نعلم أنه يرقى فنعيبه بذلك.
(٥) في الأصل: رجعنا.

وقال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث، حدثنا هشام، حدثنا محمد بن سيرين، حدثني معبد بن سيرين، عن أبي سعيد الخدري بهذا(١).

وهكذا رواه مسلم، وأبو داود من رواية هشام ـ وهو ابن حسان ـ عن ابن سيرين، به. وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث، أن أبا سعيد هو الذي رقى ذلك السليم ـ يعني اللديغ ـ يسمونه بذلك تفاؤلاً(٢).

حديث آخر، روى مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه، من حديث أبي الأحوص سلام بن سليم، عن عمار بن رُزَيق، عن عبدالله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً(٣) فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فُتِحَ من السماء، ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ، فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته(٤). وهذا لفظ النسائي.

ولمسلم نحوه حديث آخر، قال مسلم: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، هو ابن راهويه، حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة، عن العلاء ـ يعني ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقي ـ عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمِّ القرآن فهي خِداج(٥) ثلاثاً غير تمام» فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، قال: اقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عزّ وجلّ: قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، وإذا قال العبد: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله: حَمِدني عبدي، وإذا قال: ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال: مجّدني عبدي، وقال مرة: فَوَّض إليّ عبدي، فإذا قال: ﴿ إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»(٦).

وهكذا رواه النسائي، عن إسحاق بن راهويه. وقد رواه أيضاً عن قتيبة، عن مالك، عن العلاء، عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة، عن أبي هريرة به، وفي هذا السياق: «فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل». وهكذا رواه ابن إسحاق، عن العلاء. وقد رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن العلاء، عن أبي السائب هكذا. ورواه أيضاً من حديث ابن أبي أويس، عن العلاء، عن أبيه، وأبي السائب، كلاهما عن أبي هريرة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وسألت أبا زرعة عنه فقال: كلا الحديثين صحيح، من قال: عن العلاء، عن أبيه، وعن العلاء، عن أبي السائب.

وقد روى هذا الحديث عبدالله ابن الإمام أحمد، من حديث العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبيّ بن كعب مطولاً(٦).

وقال ابن جرير: حدثنا صالح بن مسمار المروزي، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا عَنْبسة بن سعيد، عن

---

(١) البخاري، فضائل القرآن ٦/٢٣١.

(٢) مسلم، كتاب السلام ١٧٢٨.

(٣) أي: صوتاً كصوت الباب إذا فُتح.

(٤) مسلم، كتاب المسافرين ٥٥٤، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٣٨.

(٥) الخداج: النقصان.

(٦) مسلم، كتاب الصلاة ٢٩٦، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٣٥ ـ ١٣٦، وتحفة الأحوذي، أبواب التفسير ٨/٢٨٥ ـ ٢٨٦. ومسند الإمام أحمد ٢/٢٨٥.

مُطَرِّف بن طريف، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، وله ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال: أثنى عليّ عبدي. ثم قال: هذا لي وله ما بقي»(١).

وهذا غريب من هذا الوجه.

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بحكم الفاتحة من وجوه

أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ أي: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، عن ابن عباس، وهكذا في هذا(٢) الحديث: «قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل». ثم بيَّن تفضيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظم القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذْ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به في الصحيحين(٣)، من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنه [هل] يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزىء هي وغيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه في الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾، وبما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة في قصة المسيء صلاته: أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن»(٤). قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها، فدل على ما قلناه.

والقول الثاني: أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، ولا تجزىء الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة: مالك والشافعيّ وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج»(٥) ـ والخداج هو: الناقص كما فسَّر به في الحديث: «غير تمام» ـ واحتجوا أيضاً بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهريِّ، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصّامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»(٦). وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزىء صلاة لا

(١) تفسير الطبري ١/٨٦.
(٢) ليست في الأصل.
(٣) انظر تفسير الآية ٧٨ من سورة الإسراء.
(٤) البخاري، كتاب الاستئذان ٨/٦٨ ـ ٦٩، ومسلم، كتاب الصلاة ٢/١١.
(٥) مسلم، الكتاب السابق ٢/١٠.
(٦) البخاري، كتاب الصلاة ١/١٩٢، ومسلم، كتاب الاستئذان ٢/٩.

يقرأ فيها بأم القرآن». والأحاديث في هذا الباب كثيرة، ووجه المناظرة يطول ذكره، وقد أشرنا إلى مأخذهم في ذلك، رحمهم الله.

ثم إن مذهب الشافعيّ وجماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعة. وقال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات. وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات، أخذاً بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا يتعيَّنُ، لو قرأ بغيرها أجزأه، لقوله: ﴿فاقرءوا ما تيسَّر من القرآن﴾، كما تقدم، والله أعلم.

وقد روى ابن ماجه من حديث أبي سفيان السعدي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة، في فريضة أو غيرها»(١). وفي صحة هذا نظر، وموضح تحرير هذا كله في كتاب «الأحكام الكبير»، والله أعلم.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثاني: لا تجبُ على المأموم قراءةٌ بالكلية لا الفاتحةُ ولا غيرُها، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن جابر بن عبدالله، عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»(٢) ولكن في إسناده ضعف. ورواه مالك، عن وهب بن كيسان، عن جابر من كلامه(٣). وقد روي هذا الحديث من طرق، لا يصح شيء منها عن النبي ﷺ، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية، لما تقدم، ولا تجب في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبَّر فكبِّروا؛ وإذا قرأ فأنصتوا»(٤) وذكر بقية الحديث.

وكذا رواه أهل السنن: أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا»(٤) وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي رحمه الله، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل.

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهريّ، حدثنا غسَّان بن عبيد، عن أبي عمران الجَوْنِيِّ، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت «فاتحة الكتاب» و﴿قل هو الله أحد﴾، فقد أَمِنْتَ من كل شيء إلا الموت»(٥).

* * *

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٧٤.
(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٣٣٩، وسنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٧٧.
(٣) الموطأ، كتاب الصلاة، باب ما جاء في أم القرآن ٧٤، ولفظه: من صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فلم يصلّ، إلا وراء الإمام».
(٤) مسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة ٣٠٤، وأبو داود، كتاب الصلاة ١/١٦٥، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٤١ ـ ١٤٢، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٧٦.
(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الأذكار ٤/٢٦، وانظر مجمع الزوائد ١٠/١٢١.

الكلام في تفسيرها
أحكام الاستعاذة

قال الله تعالى: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾. وقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرونِ﴾ وقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾.

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليردَّه طبعهُ الطيِّب الأصيل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ وقال: ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وقال: ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾، وقد أقسم للوالد آدم إنه (له) لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴾؟ وقال تعالى: ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾.

قالت طائفة من القراء وغيرهم: يُتعوَّذُ بعد القراءة. واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة؛ وممن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره ابن قلوقا عنه، وأبو حاتم السجستاني، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جُبارة الهذلي المغربي في كتابه «الكامل». وروى عن أبي هريرة أيضاً وهو غريب.

ونقله فخر الدين بن محمد بن عمر الرازي في تفسيره، عن ابن سيرين في روايته عنه، قال: وهو قول إبراهيم النَّخَعِيّ، وداود بن علي الأصبهاني الظاهري.

وحكى القرطبي، عن أبي بكر بن العربي، عن المجموعة، عن مالك ـ رحمه الله ـ أن القارىء يتعوذ بعد الفاتحة. واستغربه ابنُ العربي (١).

وحُكِيَ قول ثالث، وهو الاستعاذة أولاً وآخراً، جمعاً بين الدليلين، نقله فخر الدين.

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، لدفع الوسواس فيها، ومعنى الآية عندهم: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ﴾ الآية، أي: إذا أردتم القيام. والدليل على ذلك في الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا محمد بن الحسن بن أنس، حدثنا جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرفاعي اليَشكري، عن أبي المُتوكِّل الناجي، عن أبي سعيد الخدريّ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبَّر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله

(١) تفسير القرطبي ١/٧٧.

غيرك» ويقول: لا إله إلا الله ثلاثاً، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونفْخه ونَفْثه»[١].

وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن علي بن علي، وهو الرِّفاعي. قال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب[١].

وقد فُسِّر الهمز بالموتة وهو الخَنْقُ، والنَّفخُ بالكِبْرِ، والنفثُ بالشعر.

كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن عاصم العَنَزيّ، عن نافع بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة، قال: «الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، الحمد لله كثيراً، ثلاثاً، سبحان الله بكرة وأصيلاً، ثلاثاً؛ اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه ونَفْخِه ونفثه».

قال عمرو: وهمزه الموتة، ونَفْخُه الكِبْر، ونَفْثُه الشعر[١].

وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر، حدثنا ابن فُضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ، عن ابن مسعود، عن النبيّ ﷺ، قال: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه.

قال: همزه الموتة، ونَفْثُه الشعر، ونفخه الكِبْر[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا شريك، عن يعلى بن عطاء، عن رجل حدثه: أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثلاثاً، ثم قال: لا إله إلا الله، ثلاث مرات، وسبحان الله وبحمده، ثلاث مرّات» ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه[٢].

وقال الحافظ أبو يَعْلَى أحمد بن علي بن المُثَنَّى الموصلي في مُسنَدِه: حدثنا عبدالله بن عمر بن أبان الكوفي، حدثنا علي بن هاشم بن البَرِيدِ، عن يزيد بن زياد، عن عبد الملك بن عُمَير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، قال: تلاحى رجلان عند النبي ﷺ، فَتَمزّع[٣] أنفُ أحدهما غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم شيئاً لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن يوسف بن عيسى المروزي، عن الفضل بن موسى، عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد[٤]، به.

وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل، عن أبي سعيد، عن زائدة، وأبو داود عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، والترمذي، والنسائي في «اليوم والليلة» عن بندار، عن ابن مهدي، عن الثوري، والنسائي أيضاً من حديث زائدة بن قدامة، ثلاثتهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل، قال: استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خُيِّل إليّ أن أحدهما يَتَمزّع أنفه من شدة غضبه، فقال النبيّ ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب». فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: يقول: «اللهم إني أعوذُ بِكَ من الشيطانِ الرجيمِ. قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ومَحَكَ وجعل يزداد غضباً. وهذا لفظ أبي داود[٥].

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٥٠، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/ ٢٠٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/ ٤٠ ـ ٤١، والنسائي في كتاب الافتتاح ٢/ ١٣٢، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٥٣.

(٣) أي: تقطع وتشقق غضباً.

(٤) اليوم والليلة ٣٠٦.

(٥) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٤٠، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩، وتحفة الأحوذي، أبواب الدعوات ٩/ ٤١٥.

وقال الترمذي: مرسل. يعني أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق معاذ بن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبيّ بن كعب، كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل، فإن هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم.

قال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، قال: قال سليمان بن صُرَد: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون.

وقد رواه أيضاً مع مسلم، وأبي داود، والنسائي، من طرق متعددة، عن الأعمش، به[1].

وقد جاء في الاستعاذة أحاديثُ كثيرةٌ يطول ذكرها ههنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال، والله أعلم. وقد رُوِيَ أن جبريل عليه السلام أوّل ما نزل بالقرآن على رسول الله ـ ﷺ ـ أمره بالاستعاذة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبدالله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ. قال: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم. ثم قال: قل: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾. ثم قال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾. قال عبدالله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد ـ ﷺ ـ بلسان جبريل[2].

وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

مسألــة:

جمهور[3] العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتِّمة يأثم تاركها. وحكي فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلَّما أراد القراءة، قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوَّذَ مَرَّةً واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب. واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية ﴿ فاستَعِذْ ﴾، وهو أمر ظاهرهُ الوجوبُ، وبمواظبة النبي ـ ﷺ ـ عليها، ولأنها تدرأ شرَّ الشيطان، وما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب، ولأنَّ الاستعاذة أحوطُ، وهو أحد مسالك الوجوب. وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي ﷺ دون أمته. وحُكِي عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة، ويتعوذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة.

وقال الشافعي في الإملاء: يجهَرُ بالتعوّذ وإن أسرَّ فلا يَضُرُّ، وقال في الأم بالتخيير، لأنه أسَرَّ ابن عُمَر، وجهر أبو هريرة. واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ؟ على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم. فإذا قال المستعيذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، كفى عند الشافعي وأبي حنيفة،

(١) البخاري، كتاب الأدب ٨/٣٤ ـ ٣٥، ١٩/٨. ومسلم، كتاب البرّ، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٢٠١٥، وأبو داود، كتاب الأدب ٣/٢٤٩.

(٢) تفسير الطبري ١/٥٠.

(٣) انفرد الأصل بهذا النصّ إلى آخر بيتي المتنبي.

وزاد بعضُهم: أعوذ بالله السميع العليم. وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم. قاله الثوري والأوزاعي. وحكى بعضهم أنه يقول: أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. لمطابقة أمر الآية، ولحديث الضحاك، عن ابن عباس المذكور.

والأحاديث الصحيحة ـ كما تقدم ـ أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسـألـة:

ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة، وهو قول أبو حنيفة ومحمد. وقال أبو يوسف: بل للصلاة. فعلى هذا يتعوذ المأمومُ وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ من العيد بعد الإحرام، وقبل تكبيرات العيد. والجمهور بعدها قبل القراءة.

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييب له، وتهيىءٌ لتلاوة كلام الله، وهي استعاذة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطن الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان، كما دلت على ذلك آياتُ القرآنِ في ثلاثٍ من المثاني. وقال تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدوُّ البشريُّ كان شهيداً، ومن قتله العدوُّ الباطن كان طريداً، ومن غلبه العدوُّ الظاهرُ كان مأجوراً، ومن قهره العدوُّ الباطن كان مفتوناً أو مأزوراً، ولما كان الشيطان يرمي الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

فصـــل

والاستعاذة: هي الالتجاءُ إلى الله والالتصاقُ بجانبه من شرِّ كل ذي شرٍّ، والعِياذُ لدفع الشرِّ، واللِّياذُ لطلب الخير، كما قال المتنبيّ(١):

يـا مـن ألـوذُ بـه فيـمـا أؤمِّلُهُ ... ومـن أعـوذُ بـه مـمـا أحـاذِرُهُ
لا يجبُرُ الناسُ عـظمـاً أنت كـاسِـرُهُ ... ولا يَهِيضُـون عـظمـاً أنت جابِـرُهُ

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يَضُرَّني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أُمرت به، أو يَحُثَّني على فعل ما نُهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عمَّا هو فيه من الأذى، وأُمِر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل، لأنه(٢) شريرٌ بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهنَّ رابعةً، قوله في الأعراف: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾. فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ وقال تعالى في سورة «قد أفلح المؤمنون»: ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ وقال تعالى في سورة «حمٓ السجدة»: ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك

(١) ديوانه ٢/٢٥٥.
(٢) في الأصل: إلا أنه.

وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم * وإما يَنْزَغَنَّكَ من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾.

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَن إذا بَعُد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط، لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان عليه السلام:

أيّما شاطِنٍ عَصَاه عَكَاه ... ثُمَّ يُلْقى في السِّجْن والأغلالِ

فقال: أيما شاطن، ولم يقل: أيما شائط.

وقال النابغة الذبياني ـ وهو: زياد بن عمرو بن معاوية[1] بن جابر بن ضِباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن ذُبيان ـ:

نَأَت بسعادَ عنك نَوَى شَطُونُ ... فبانت والفُؤَادُ بها رَهِينُ[2]

يقول: بعدت بها طريق بعيدة.

وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان: إذا فَعَل فِعل الشيطان. ولو كان من شاط لقالوا: تَشَيَّط[3].

فالشيطان مُشتَقٌ من البعد، وهو الصحيح، ولهذا يسمون كل ما تَمَرَّد من جنّي وإنسيٍّ وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾.

وفي مسند الإمام أحمد، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، ﷺ: «يا أبا ذرّ، تعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن. فقلت: أوَ للإنس شياطين؟ قال: نعم»[4].

وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود. فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: الكلب الأسود شيطان»[5].

وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رَكِب بِرْذوناً، فجعل يتبخْتر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه، وقال: ما حملتوني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرتُ نفسي. إسناده صحيح.

والرّجيم: فعيل بمعنى مفعول، أي: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿ ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ وقال تعالى: ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسَّمّعون إلى الملإ الأعلى ويُقذَفُون من كل جانبٍ * دحوراً ولهم عذاب

---

(١) نسبه كما في جمهرة أنساب العرب ٢٥٣: زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة.

(٢) ديوانه ٢٥٦.

(٣) عبارة سيبويه ٤/٢٨٦: «وشيطنته فتشيطن تشيطُناً». وانظر ٣/٢١٧ ـ ٢١٨. وما ذكره المؤلف هنا إنما هو عن القرطبي ١/٧٩.

(٤) المسند ٥/١٧٨.

(٥) مسلم، كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي ٣٦٥.

واصب * إلا من خَطِفَ الخَطْفة فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السَّمع فأتبعه شهاب مبين﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل: رجيم بمعنى راجم، لأنه يرجم الناس بالوساوس(١) والرفائث. والأول أشهر.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾

افتتح بها الصحابةُ كتاب الله، واتّفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثمّ اختلفوا: هل هي آيةٌ مستقلةٌ في أوّل كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أوّلها، أو أنها بعض آية من أوّل كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها كتبت للفصل لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سَلَفاً وخَلَفاً، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع.

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾(٢).

وأخرجه الحاكم أبو عبدالله النيسابوري في مستدركه أيضاً، وروي مُرْسَلاً عن سعيد بن جبير. وفي صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدّها آية. لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي، وفيه ضعف، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عنها.

وروى له الدارقطني متابعاً، عن أبي هريرة مرفوعاً. وروى مثله عن علي وابن عباس وغيرهما.

وممن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعليّ. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهري. وبه يقول عبدالله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن رَاهُوَيه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي في قول، في بعض طرق مذهبه: هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة. وهما غريبان.

وقال داود: هي آية مستقلة في أوّل كل سورة لا منها، وهذا رواية عن الإمام أحمد بن حنبل. وحكاه أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله.

هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا.

فأمّا الجهرُ بها فَمُفرَّعٌ على هذا؛ فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أوّلها، وأمّا من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاه ابن عبد البر، والبيهقي عن عمر وعليّ ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، وهو غريب. ومن التابعين عن سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبي قلابة، والزهري، وعليّ بن الحسين، وابنه محمد، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد،

(١) في الأصل: بالوسواس.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٠٩.

وسالم، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل، وابن سيرين، ومحمد بن المنكدر، وعلي بن عبدالله بن عباس، وابنه محمد، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، وعمر بن عبد العزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبي ثابت، وأبي الشعثاء، ومكحول، وعبدالله بن مَعْقِل بن مُقَرِّنٍ ـ زاد البيهقي ـ: وعبدالله بن صفوان، ومحمد ابن الحنفية. زاد ابن عبد البر: وعمرو بن دينار.

والحُجَّة في ذلك أنها بعضُ الفاتحةِ، فيُجهَرُ بها كسائر أبعاضها. وأيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خُزَيمة وابن حِبَّان في صحيحيهما، والحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة: أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاةً برسول الله ﷺ[1]. وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم.

ورَوَى أبو داود والترمذي، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم. ثمّ قال الترمذي: وليس إسناده بذاك[2].

وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح.

وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك: أنه سُئِل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مَدّاً، ثم قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، يَمُدّ بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم[3].

وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم، عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾[4]. وقال الدارقطني إسناده صحيح.

وروى الشافعيّ ـ رحمه الله ـ والحاكم في مستدركه، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسملة، فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرّة الثانية بسمل.

وفي هذه الأحاديث والآثار التي أوردناها كفاية ومَقْنَع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطريقها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبدالله بن مُغَفَّل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكلية، لا جهراً ولا سراً، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين. وبما في الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صلَّيْتُ خلف النبيّ، ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ في أوّل قراءة ولا في آخرها[5]، ونحوه في السنن عن عبدالله بن مُغَفَّل، رضي الله عنه.

---

(١) النسائي، كتاب الافتتاح ٢/١٣٤.

(٢) تحفة الأحوذي، أبواب المواقيت ٢/٥٦ ـ ٥٧.

(٣) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مدّ القراءة ٦/٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/٣٠٢، وسنن أبي داود، كتاب الحروف ٤/٣٦.

(٥) البخاري، كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير ١/١٨٩. ومسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة ٢٩٩، وتحفة =

فهذه مآخذ الأئمة ـ رحمهم الله ـ في هذه المسألة وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسرَّ، ولله الحمد والمنة.

فصل في فضلها

قال الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم ـ رحمه الله ـ في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا زيد بن المبارك الصنعاني، حدثنا سلام بن وهب الجَنَديّ، حدثنا أبي، عن طاوس، عن ابن عباس: أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر، إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب».

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدُويَه، عن سليمان بن أحمد، عن عليّ بن المبارك، عن زيد بن المبارك، به.

وقد روى الحافظ ابن مَرْدُويَه من طريقين ـ عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن مسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه، فقال له المعلم: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما باسم الله؟ قال المعلم: ما أدري. قال له عيسى: الباء بَهاءُ الله، والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إلَه الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة».

وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء الملقب: زِبْرِيق، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل ابن يحيى، عن ابن أبي مليكة، عمن حدثه، عن ابن مسعود، ومسعر، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبيِّ ﷺ: فذكره[1]. وهذا غريب جداً، وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول الله ـ ﷺ ـ ويكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات، والله أعلم.

وقد روى جُوَيبر، عن الضحَّاك، نحوه من قبله.

وقد روى ابن مَرْدُويَه، من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفي رواية عن عبد الكريم أبي[2] أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت عليَّ آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري، وهي بسم الله الرحمن الرحيم».

وروى بإسناده عن عبد الكريم بن المعافى بن عمران، عن أبيه، عن عمر بن ذَرّ، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هرب اليَمُّ إلى المشرق، وسكنت الرياح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بآذانها، ورُجمت الشياطين من السماء، وحلف الله تعالى بعزته وجلاله لا يُسَمَّى اسمُه على شيء إلا بارك فيه.

وقال وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: من أراد أن يُنَجِّيه الله من الزبانية التسعة عَشَر فَلْيقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، ليجعل الله له من كل حَرْفٍ منها جُنَّةً من كل واحد.

= الاحوذي، أبواب المواقيت ٢/٥٣، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(١) تفسير الطبري ١/٥٣.

(٢) في الأصل: ابن أمية. انظر التهذيب ٦/٣٧٦.

ذكره ابن عطية والقرطبي[(١)]، [و] وجَّهه ابن عطية ونَظَّره بحديث: لقد رأيت بضعةً وثلاثين ملكاً يتبدرون قول الرجل: ربنا ولك الحمد حمداً كبيراً طيباً مباركاً فيه، من أجل أنها بضعة وثلثون حرفاً، وغير ذلك.

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم، قال: سمعت أبا تميمة يحدث، عن رديف النبي ﷺ قال: عَثَر بالنبي ﷺ، فقلت: تَعِس الشيطانُ. فقال النبيّ ﷺ: «لا تَقُلْ تَعِس الشيطانُ؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم. وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب»[(٢)].

هكذا وقع في رواية الإمام أحمد، وقد روى النسائي في «اليوم والليلة»، وابن مَرْدُوَيه في تفسيره، من حديث خالد الحذاء، عن أبي تميمة ـ وهو الهُجَيمي ـ عن أبي المليح بن أسامة بن عمير، عن أبيه، قال: كنت رَدِيف النبي ﷺ، فذكره وقال: «لا تقل هكذا، فإنه يتعاظم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة»[(٢)].

فهذا من تأثير بركة باسم الله؛ ولهذا تستحب في أوّل كل عمل وقول، فتستحب في أوّل الخطبة لما جاء: «كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجذم»[(٣)] [وتستحب البسملة عند دخول الخلاء، ولما ورد من الحديث في ذلك]، وتستحب في أوّل الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن، من رواية أبي هريرة، وسعيد بن زيد، وأبي سعيد مرفوعاً: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»[(٤)]. وهو حديث حسن. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً. وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقاً في قول بعضهم، كما سيأتي بيانه في موضعه.

وقد ذكر الشيخ فخر الدين الرازي[(٥)] في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إذا أتيت أهلك فسمِّ الله، فإنه إن وجد لك ولد كُتب لك بِعَدِد أنفاسه وأنفاس ذُرِّيته حسناتٌ. أو كما قال. وهذا ما لا أصل له، ولا رأيتهُ في شَيءٍ من الكتب المعتمدة ولا غيرها.

وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عُمَر بن أبي سلمة: «قل: باسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»[(٦)]. ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدَّرْ بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً»[(٧)].

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قولك: باسم الله، هل هو اسم أو فعل، متقاربان، وكلٌّ قد وَرَدَ به القرآن؛ أما من قدره باسم، تقديره: باسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى:

---

(١) المحرر الوجيز ١/٨٢، والقرطبي ١/٩٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٥٩. وانظره في تفسير سورة الناس، واليوم والليلة ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٥٩.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٤١٨، ٣/٤١، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/٢٥، وتحفة الأحوذي، أبواب الطهارة ١/١١٣ ـ ١١٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب ما جاء في التسمية في الوضوء ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٥) تفسير الفخر الرازي ١/١٧١.

(٦) مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها ١٦٠٠، وقد كان عمر ربيب رسول الله ﷺ. انظر أسد الغابة ٤/١٨٣.

(٧) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٤/١٤٨ ـ ١٤٩. ومسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع ١٠٥٨.

﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾، ومن قدره بالفعل، فلقوله: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بُدّ له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة، فالمشروع ذكر الله في الشروع في ذلك كله، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم. ولهذا روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث بشر بن عُمَارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: إن أوّل ما نزل به جبريل على محمدﷺ قال: «يا محمد، قُلْ: أستعيذُ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم. ثم قال: قل: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. قال: قال له جبريل: قُلْ: باسم الله يا محمدُ، يقول: اقرأ بذكر الله ربِّك، وقم واقعُدْ بذكر الله، لفظ ابن جرير[1]

وأما مسألة الاسم: هل هو المسمَّى أو غيره؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال:

[أحدها[2]: أن الاسم هو المسمَّى، وهو قول أبي عُبَيدةَ وسيبويه. واختاره الباقلاني وابنُ فُوْرَكٍ، فقال فخر الدين الرازيُّ ـ وهومحمد بن عُمَر المعروفُ بابن الخطيب الرازي في مقدّمات تفسيره ـ: وقالت الحشوية والكرامية والأشعرية: هو الاسم نفسُ المسمَّى وغير التسمية. وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمَّى ونفسُ التسمية. والمختار عندنا أن الاسم غير المسمَّى وغير التسمية. ثم نقول: إن كان المرادُ بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصواتٌ مقطَّعةٌ وحروف مؤلَّفة فالعلم الضروريّ حاصلٌ أنه غير المسمَّى. ثم نقول: إن كان المراد بالاسم ذاتُ المسمَّى فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات، وهو عَبَثٌ. فثبت أن الخوض في هذا المبحث على جميع التقديرات يجري مجرى العَبَث[3].

ثم شرع يَسْتَدِلُّ على مغايرة الاسم للمسمَّى بأنّه قد يكون الاسم موجوداً والمسمَّى مفقوداً كلفظة المعدوم، وبأنه[4] قد يكون للشيء أسماءٌ متعدِّدة كالمترادفة، وقد يكون الاسم واحداً والمسمَّيات متعدِّدةً كالمشترك، وذلك دالٌّ على تغاير الاسم والمسمَّى. وأيضاً فالاسم لفظ، وهو عَرَضٌ، والمسمَّى قد يكون ذاتاً ممكنة أو واجبةً بذاتها. وأيضاً فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللافظ بذلك حرَّ النار أو بَرْدَ الثلج ونحو ذلك، ولا يقوله عاقل. وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾، وقال النبي ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً» فهذه أسماءٌ كثيرة والمسمَّى واحدٌ، وهو الله تعالى. وأيضاً فقوله: ﴿ولله الأسماءُ الحسنى﴾ أضافها إليه كما قال: ﴿فسبِّح باسم ربك العظيم﴾، ونحو ذلك، والإضافة تقتضي المغايرة، وقوله: ﴿فادعُوه بها﴾، أي: فالمدعُوُّ الله بأسمائه، وذلك دليل على أنه غيره.

واحتجَّ من قال: الاسم هو المسمَّى بقوله: ﴿تبارَكَ اسمُ ربِّك﴾، والمتبارك هو الله.

والجواب: أن الاسم يعظم لتعظيم الذات المقدسة.

وأيضاً فإذا قال الرجل: زينبُ طالقٌ ـ يعني امرأته طالق ـ طَلُقتْ. ولو كان الاسمُ غير المسمَّى لما وقع الطلاق.

والجواب: أنَّ المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق.

---

(١) تفسير الطبري عند الحديث عن تأويل الاستعاذة وبسم الله الرحمن الرحيم ١/٥٠، ٥٢.

(٢) من هنا عن الأصل.

(٣) تفسير الفخر الرازي ١/١٠٨ ـ ١٠٩.

(٤) في الأصل: لأنه. وانظر تفسير الفخر الرازي ١/١٠٩ ـ ١١٠.

قال الرازي: وأما التسمية فإنها فعل الاسم مُعَيَّناً لهذه الذاتِ، فهي غير الاسم أيضاً. والله أعلم(١).

﴿ ٱللَّهِ ﴾

الله عَلَمٌ على الرَّبِّ تبارك وتعالى، يقال: إنه الاسم الأعظم لأنه يُوصَفُ بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدّوسُ السلامُ المؤمِنُ المهيمن العزيزُ الجبار المتكبِّر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصوِّر له الأسماء الحسنى يُسبِّح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾. فأجرى الله الأسماء الباقية كُلَّها صفاتٍ له، كما قال تعالى: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعُوه بها ﴾، وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»(٢). وجاء تعدادها في رواية الترمذي ـ(٣)[وابن ماجه، وبين الروايتين اختلاف زياداتٍ ونقصانٍ. وقد ذكر فخر الدين الرازيّ في تفسيره(٤) عن بعضهم أنّ لله خمسة آلاف اسمٍ، ألفٌ في الكتاب والسنة الصحيحة، وألف في التوراة، وألف في الإنجيل، وألفٌ في الزَّبُور، وألف في اللوح المحفوظ]ـ(٣).

وهو اسمٌ لم يُسَمَّ به غيره تبارك وتعالى. ولهذا لا يُعرَفُ في كلام العرب له اشتقاقٌ من فعل ويفعل؛ فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامدٌ لا اشتقاق له، ـ(٣)[وقد نقل القرطبي(٥) عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم ـ ورُوِي عن الخليل وسيبويه ـ أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابي: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام]ـ(٣).

وقيل: إنه مشتق. واستدلُّوا عليه بقول رؤبة بن العجاج(٦):

لله دَرُّ الغَانِيَاتِ المُدَّهِ ... سَبَّحنَ واستَرجَعْنَ من تَألُّهِي

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التألُّه، من أَلِه يألَه إلاهةً وتَألُّهاً. كما رُوِي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿ ويَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ ﴾(٧)، قال: عبادتك. أي: إنه كان يُعْبَدُ ولا يَعْبُدُ. وكذا قال مجاهد وغيره.

[وقد(٨) استدلّ بعضهم على كونه مشتقاً بقوله: ﴿ وهو الله في السموات والأرض ﴾، أي: المعبود في السموات والأرض، كما قال: ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾. ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله: إلاه، مثلُ فِعَالٍ، فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه: مثلُ الناس، أصله: أُناسٌ.

(١) إلى هنا ينتهي النص الذي انفرد به الأصل، وبداية الحديث عن مسألة الاسم والمسمى.

(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب «لله مائة اسم غير واحد» ١٠٩/٨، ومسلم، كتاب الذكر، «باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها» ٢٠٦٢. وتحفة الأحوذي، أبواب الدعوات ٤٨٢/٩ ـ ٤٨٩. وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب «أسماء الله عزّ وجلّ» ١٢٦٩/٢ ـ ١٢٧٠.

(٣) هذا النصّ انفرد به الأصل.

(٤) تفسير الفخر الرازي ١٥٤/١.

(٥) تفسير القرطبي ١٠٣/١.

(٦) تفسير الطبري ٥٤/١.

(٧) انظر فيما يأتي تفسير الآية ١٢٧ من سورة الأعراف.

(٨) انفرد الأصلُ بهذا النَّصِّ.

وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم. وهذا اختيار سيبويه، قال الشاعر[١]:

لاهِ [ابنُ عمِّك لا][٢] أفضلْتَ في حَسَبٍ عَنّي ولا أنت دَيّاني فتخزوني

قال القرطبي: بالخاء المعجمة، أي: فتسُوسُني[٣].

وقال الكسائيُّ والفراءُ: أصله الإلَه، حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام الأولى في الثانية، كما قال: ﴿لكنّا هو الله ربِّي ولا أشركُ بربِّي﴾، أي: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحَسَنُ.

قال القرطبي: ثم قيل: هو مشتقٌّ من وَلِهَ: إذا تَحيَّرَ، والوَلَهُ: ذَهابُ العَقْلِ، يقال: رَجُلٌ والِهٌ، وامرأةٌ وَلْهى[٤]، وماءٌ مُوْلَهٌ: إذا أُرْسِلَ في الصحارى؛ فالله تعالى تتحيّر الألباب والفكر في حقائق صفاته. فعلى هذا يكون أصله: وِلَاهٌ، فأبدلت الواو همزةً، كما قالوا في وشاح: إشاح، ووسادة: إسادة.

وقال فخر الدين الرازي: وقيل: إنه مشتقٌّ من ألهت إلى فلان، أي: سكنت إليه. فالعقولُ لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تَعْرُج إلا بمعرفته، لأنه الكاملُ على الإطلاق دون غيره، قال الله تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

قال: وقيل: من لاه يلوه إذا احتجب. وقيل: من أَلَهَ[٥] الفصيلُ: إذا أُولِع[٦] بأمه. والمعنى: أن العباد مولهون مُولَعون بالتضرّع إليه في كل الأحوال.

قال: وقيل: مشتقٌّ من أله الرجل يأله: إذا فَزِعَ من أمرٍ نزل به فَأَلَهَهُ: أي أجاره. فالمجير لجميع الخلائق من كُلِّ المضارِّ هو الله سبحانه، لقوله: ﴿وهو يجير ولا يُجار عليه﴾، وهو المنعم لقوله: ﴿وما بكم من نعمةٍ فمن الله﴾، وهو المطعم لقوله: ﴿وهو يطعِم ولا يطعَم﴾، وهو الموجد لقوله: ﴿قل كلٌّ من عند الله﴾.

وقد اختار فخر الدين أنه اسمٌ علمٌ غيرُ مشتقٍّ البتّة. قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء. ثم أخذ يستدلّ على ذلك بوجوهٍ، منها: أنه لو كان مشتقّاً لاشترك في معناه كثيرون. ومنها: أن بقية الأسماء تُذْكَرُ صفاتٍ له، فنقول: الله الرحمن الرحيم، الملك القدوس، فدلّ على أنه ليس بمشتقٍّ. قال: فأما قوله تعالى: ﴿العزيز الحميد الله﴾، على قراءة الجر، فجعل ذلك من باب عطف البيان. ومنها قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾.

وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامداً غير مشتقٍّ نَظَرٌ. والله أعلم.

وحكى فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلى أنّ اسم الله تعالى عبراني لا عربي، ثم ضَعَّفَه. وهو حقيقٌ بالتضعيف كما قال. وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال: واعلم أن الخلق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الحيرة وتيه الجهالة، فكأنهم فقدوا عقولهم وأرواحهم. وأما

---

(١) ذو الإصبع العدواني. والبيت في أمالي القالي ٩٣/١، ٢٥٥، والخصائص ٢٨٨/٢. وشرح أبيات مغني اللبيب ٢٨٥/٣.

(٢) سقط من الأصل.

(٣) في الأصل: فتنسوني. يريد أنّ تخزوني مضارع خزاه خَزْواً: إذا ساسه وقهره وملكه.

(٤) لفظ القرطبي ١٠٢/١: «وامرأة والهة ووالِهٌ». وفي اللسان: «وامرأة ولهى ووالِه ووالهة وميلاه: شديدة الحزن على ولدها».

(٥) في الأصل: الاه. انظر تفسير الفخر الرازي ١٦١/١.

(٦) في الأصل والفخر الرازي: إذا ولع.

الواجدون فقد وصلوا إلى عَرْصَة النور وفُسْحَة الكبرياء والجلال، فتاهوا في ميادين الصمديَّة، وبادوا في عَرْصة الفَرْدانية. فثبت أن الخلق كلهم والهون في معرفته[١].

ورُوي عن الخليل بن أحمد أنه قال: كان الخلقُ يألهون إليه، بنصب اللام وجرها، لغتان.

وقيل: إنه مشتقٌ من الارتفاع، فكانت العربُ تقول لكل شيءٍ مرتفع: لاهاً، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت.

وقيل: إنه مشتق من أله: إذا تعبَّد وتألَّه وتنسَّكَ. وقرأ ابن عباس: «ويذرك وإلَهتك وعبادتك»[٢].

وأصل ذلك الإلّه، فَحُذِفَت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة، في أولها للتعريف، فأدغمت إحداهما في الأخرى، فصارتا في اللفظ لاماً واحدةً، وفُخِّمت تعظيماً فقيل: الله.

﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشدُّ مبالغةً من رحيم. وفي كلام ابن جرير ما يُفْهِم حكاية الاتفاق على هذا. وفي تفسير بعض السلف ما يَدُلُّ على ذلك، كما تقدَّم في الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال: والرحمن رحمان الدنيا والآخرة، والرحيم رحيمُ الآخرة.

[وقد[٣] زعم بعضهم أنه غير مشتق، إذ لو كان كذلك لاتـصل بذكر المرحوم، وقد قال: ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾.

وحكى ابن الأنباريّ في الزاهر عن المبرِّد أنَّ الرحمن اسم عبرانيٌ ليس بعربي. وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربي، والرحمن عبراني فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: هذا القول مرغوبٌ عنه.

وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما أخرجه الترمذي ـ وصححه ـ عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: قال الله تعالى: «أنـا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصَلْتُه، ومن قطعها قطعتـه». قال: «وهذا نصٌ في الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق». قال: «وإنكار العرب لاسم الرحمن بجهلهم بالله وبما وجب له»[٤].

قال القرطبي: هما بمعنىً واحد، كندمانَ ونديمٍ. قاله[٥] أبو عبيدة. وقيل: ليس فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفِعْلِ نحو قولك: رجلٌ غُضبان، وفَعِيلٌ قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول.

قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسمٌ[٦] عامٌ في جميع أنواع الرحمة يختصّ به الله تعالى. والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٥٩/١.

(٢) إلى هنا انتهى النص الذي انفرد به الأصل، من قوله: «وقد استدرك بعضهم».

(٣) انفرد الأصل بما يأتي إلى النصّ الذي رواه ابن جرير.

(٤) تفسير القرطبي ١٠٤/١.

(٥) في الأصل: «ثم قاله...». انظر تفسير القرطبي ١٠٥/١.

(٦) في الأصل: «اسم غاية». والمثبت عن القرطبي، وانظر اللسان: رحم.

وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي: أكثر رحمة. ثم حكى عن الخطابي وغيره أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق، كما جاء في الحديث: إن الله رفيقٌ يحبّ الرفق في الأمر كله، وأنه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف(١).

وقال ابن المبارك: الرحمنُ إذا سُئِل أعطى، والرحيم إذا لم يُسْأل غَضِب. وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي صالح الفارسي الخُوزِيِّ، عن أبي هريرةِ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»(٢). قال بعض الشعراء:

لا تَطْلُبنَّ بُنَيَّ آدَمَ حاجةً ... وَسَلِ الذي أبوابُه لا تُحْجَبُ
الله يغضب إن تركت سُؤَالَه ... وبُنَيُّ آدم حين يُسأَلُ يَغْضَبُ]

وقال ابن جرير: حدثنا السَّرِيُّ بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زُفَر، سمعت العَرْزَميّ يقول: ﴿الرحمن الرحيم﴾، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: ﴿ثم استوى على العرش. الرحمن﴾ وقال: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾. فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ فخصّهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

[واسمه تعالى الرحمن خاص به، لم يُسمَّ به غيرهُ، كما قال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو أدعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماءُ الحسنى ﴾ وقال تعالى: ﴿ واسأل من أرسلنا قبلك من رُسُلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون﴾ ولما تَجَهْرَمَ مُسَيلِمة الكذاب وسُمِّي برحمانِ اليمامة كساه الله جلباب الكذب، وشَهَرَه به، فلا يقال له إلا مسيلمة الكذاب، وصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر وأهل المدر وأهل الوبر، من البادية والأعراب](٣).

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكِّدَ به، والمؤكِّدُ لا يكون إلا أقوى من المؤكَّد. والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد، وإنما هو من باب النعت [بعد(٣) النعت]. ولا يلزم فيه ما ذكروه. وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي مُنِعَ من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾. وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك(٤) إلا من كان معه في الضلالة. وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾، كما وصف غيره بغير ذلك من أسمائه في قوله: ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾.

والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك، فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن، لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

---

(١) تفسير القرطبي ١/١٠٥ ـ ١٠٦.
(٢) سيأتي تخريجه عند تفسير الآية ٦٠ من سورة غافر.
(٣) عن الأصل.
(٤) في الأصل: «وعلى ذلك بدعوا الإ...».

فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشدَّ مبالغةً، فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد رُوِي عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾، ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلي: اكتب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري(١)، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾.

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنّت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير، وقد أُنشِدَ لبعض الجاهلية الجُهَّالِ(٢):

ألا ضَـرَبَتْ تلك الفتـاةُ هَجِينَهـا ... ألا قَضَبَ الـرحمنُ رَبّي يمينهـا

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عَجِلتم علينـا عَجلَتَينـا عليكُمُ ... ومـا يَشَأ الـرَّحْمَن يَعْقِدْ ويُـطْلِقِ

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبدالله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مسعدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تَسمَّى به تبارك وتعالى.

(٣-[وقد جاء في حديث أمّ سلمة أن رسول الله - ﷺ - كان يُقَطِّع قرآنه حرفاً حرفاً: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين﴾. فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة من الكوفيين، ومنهم من وصلها بقوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، وكسر الميم لالتقاء الساكنين، وهم الجمهور. وحَكَى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمز، فيقولون: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيمَ الحمد لله رب العالمين ﴾، فنقلوا حركة الهمزة إلى الميم بعد تسكينها كما قُرِىء قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ اللهُ لا إله إلا هو ﴾. قال ابن(٤) عطية: ولم تُرْوَ بهذا قراءةٌ عن أحد فيما علمت]-٣).

---

(١) البخاري، كتاب الشروط ٣/٢٥٥.

(٢) تفسير الطبري ١/٥٨.

(٣-٣) عن الأصل.

(٤) المحرّر الوجيز، ولفظه: «ولم تُرْوَ هذه قراءةً».

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

(١- [القراء السبعة على ضم الدال من قوله: ﴿ الحمدُ لله ﴾، وهو مبتدأ وخَبَر. ورُوي عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا: ﴿الحمد للهِ﴾ بالنصب، وهو على إضمار فِعْلٍ. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ الحمدُ للهُ ﴾، بضم الدال واللام، إتباعاً للثاني الأول. وله شواهد، لكنه شاذ. وعن الحسن وزيد بن علي: ﴿الحمدِ للهِ ﴾، بكسر الدال، اتباعاً للأول الثاني] -١).

قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿ الحمد لله ﴾ الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً.

[وقال(١ - ابن جرير: ﴿الحمد لله﴾ ثناءٌ أثنى الله به على نفسه، وفي ضمنه أمرُ عباده أن يُثْنُوا عليه، فكأنه قال: قولوا: الحمد لله]-١).

قال: وقد قيل: إن قول القائل: الحمد لله، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى، وصفاته العلى وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلًّا من الحمد والشكر مكان الآخر.

(١- [وقد نقل السلميّ هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية.

وقال ابن عباس: (الحمد لله) كلمةُ كلِّ شاكرٍ. وقد استدلَّ القرطبيّ لابن جرير بصحّة قول القائل: الحمد لله شكراً]-١).

وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكُمُ النعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبَا

ولكنهم اختلفوا: أيُّهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حَمِدتُه لفروسيته وحَمِدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان به؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية ـ كما تقدم ـ وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليّ. هذا حاصل ما حَرَّره بعض المتأخرين، والله أعلم.

وقال أبو نصر إسماعيل بن حَمّاد الجوهري: الحمدُ نَقِيضُ الذمِّ، تقول: حَمِدت الرجل أحمده حمداً ومحمَدَةً، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له: وباللام أفصح.

(١ - ١) عن الأصل.

(١- [وأما المدح فهو أعم من الحمد، لأنه يكون للحيّ والميت وللجماد أيضاً، كما يُمدَح الطعامُ والمالُ ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، على الصفات المتعدّية واللازمة أيضاً، فهو أعمّ]-١).

ذكر أقوال السلف في الحمد

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر القَطِيعي، حدثنا حفص، عن حجاج، عن ابن أبي مُلَيكة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال عُمَر: قد عَلِمْنا سبحان الله، ولا إلّه إلا الله، فما الحمد لله؟ فقال علي: كلمة رَضِيَها الله لنفسه.

ورواه غَيْرُ أبي معمر، عن حفص، فقال: قال عُمَر لعلي، وأصحابه عنده: لا إلّه إلا الله وسبحان الله، والله أكبر، قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال علي: كلمة أحبها لنفسه، ورَضِيها لنفسه، وأحب أن تقال.

وقال علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مِهْرانَ، قال: قال ابن عباس: ﴿الحمد لله﴾: كلمة الشكر، وإذا قال العبد: ﴿الحمد لله﴾، قال: شكرني عبدي.

رواه ابن أبي حاتم.

وروى أيضاً هو وابن جرير، من حديث بشر بن عُمارة، عن أبي رَوقٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس: أنه قال: ﴿الحمد لله﴾ هو الشكر لله والاستخذاء له، والإقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك(٢).

وقال كعب الأحبار: ﴿الحمد لله﴾ ثناء الله. وقال الضحاك: ﴿الحمد لله﴾ رداءُ الرحمن. وقد ورد الحديث بنحو ذلك.

قال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السَّكوني، حدثنا بقية بن الوليد، حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى ابن أبي حبيب، عن الحكم بن عُمَير ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال النبي ﷺ: إذا قلت: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، فقد شكرت الله، فزادك(٢).

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا رَوحٌ، حدثنا عوف، عن الحسن، عن الأسود بن سَرِيع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أُنشِدُك محامدَ حَمِدت بها ربي، تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد»(٣).

ورواه النسائي، عن علي بن حجر، عن ابن عُلَيَّة، عن يونس بن عُبَيد، عن الحسن، عن الأسود بن سَرِيع، به.

وروى الترمذي، والنسائي وابن ماجه، من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر: لا إلّه إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»(٤).

وقال الترمذي: حسن غريب.

(١- [وروى ابنُ ماجه، عن أنس بن مالك: قال: قال رسول الله ﷺ: ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أَعْطَى أفضل مما أخذَ(٥).

(١ ـ ١) عن الأصل.

(٢) تفسير الطبري ١/٦٠. واستخذى: خَضَع وذَلَّ.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٤٣٥.

(٤) عارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٢/٢٧٤، والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٤٩.

(٥) ابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٥٠. والمعنى: أن الذي أعطى، أي: أدّى من الحمد، أفضل مما أخذ من النعمة.

قال القرطبي في تفسيره: «في نوادر الأصول، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: لو أن الدنيا كلها بحذافيرها في يد رجل من أمتي، ثم قال: ﴿الحمد لله﴾، لكان الحمد لله أفضل من ذلك[١]. قال القرطبي وغيره: أي لكان إلهامه الحمدَ أكبرَ نعمةٍ عليه من النعم الدنيا، لأنَّ ثوابَ الحمد لا يفنى، ونعيم الدنيا لا يبقى. قال الله تعالى: ﴿المالُ والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾.

وفي سنن ابن ماجه، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حَدَّثهم أن عبداً من عباد الله قال: يا رب، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فَعَضَّلَتْ بالمَلَكين، فلم يَدْرِيا كيف يكتُبانها فَصَعِدا إلى السماء، فقالا: يا ربنا، إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها؟ قال الله ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ: ماذا قال عبدي؟ قالا: يا ربِّ، إنه قد قال[٢]: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها[٣].

وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا: قولُ العبد: ﴿الحمدُ لله رب العالمين﴾ أفضلُ من قول: لا إلَه إلا الله، لاشتمال ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ على التوحيد مع الحمد، وقال آخرون: بل لا إلَه إلا الله أفضل، لأنها الفصل بين الإيمان والكفر، وعليها يُقاتَل الناسُ، حتى يقولوا: لا إلَه إلا الله، كما ثبت في الحديث المتَّفَق عليه وفي الحديث الآخر في السنن: أفضلُ ما قلت: أنا والنبيُّون من قبلي لا إلَه إلا الله، وحده لا شريك[٤] له. وقد تقدم عن جابر مرفوعاً: أفضل الذكر لا إلَه إلا الله، وأفضل الدعاء ﴿الحمد لله﴾. وحسنه الترمذي][١].

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالى كما جاء في الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله»... الحديث.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

والربُّ هو: المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى.

(٥- [ولا يستعمل «الربُّ» لغير الله، بل بالإضافة، تقول: ربّ الدار، ربّ كذا، وأما الربُّ فلا يقال إلا لله عزّ وجلّ. وقد قيل: إنه الاسم الأعظم]-٥).

﴿العالَمِين﴾: جمع عالَمٍ (٥- [وهو كلّ موجودٍ سوى الله عز وجل]-٥) والعالَم: جَمْعٌ لا واحدَ له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات (٥- [في السموات والأرض، و]-٥) في البر والبحر، وكلُّ قرنٍ منها وجيلٍ يسمى عالماً أيضاً.

قال بشر بن عُمارة، عن أبي رَوْقٍ، عن الضحَّاكِ، عن ابن عباس: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله، السموات والأَرَضُون، ومن فيهن وما بينهن، مما نعلم، وما لا نعلم.

---

(١) تفسير القرطبي ١/١٣١.
(٢) في الأصل: «قال لك».
(٣) ابن ماجه، كتاب الأدب ٢/١٢٤٩. وعضَل الأمر: اشتدّ واستَغْلَق.
(٤) تفسير القرطبي ١/١٣٢.
(٥ ـ ٥) ما بين القوسين عن الأصل.

وفي رواية سعيد بن جُبَير، وعكرمة، عن ابن عباس: رب الجن والإنس. وكذلك قال سعيد بن جبير، ومجاهد وابن جريج، وروى عن عليّ [نحوه]، وقال ابن أبي حاتم: بإسناد لا يعتمد عليه.

(١-[واستدل القرطبي لهذا القول بقوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ وهم الجن والإنس. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارةٌ عمن يعقل(٢)، وهم الإنس والجن، والملائكة والشياطين. ولا يقال للبهائم: عالم. وعن زيد بن أسلم وأبي عمرو بن العلاء: كل ما له روح يرتزق(٣).

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ـ وهو آخر خلفاء بن أمية، يعرف بالجعدي، ويلقب بالحمار ـ أنه قال: خلق الله سبعة عشر ألف عالَمٍ، أهل السموات والأرض عالَمٌ واحد، وسائر ذلك لا يعلمهم إلا الله عزّ وجلّ]-١).

وقال قتادة: ﴿رب العالمين﴾، كل صنف عالم.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾ قال: الإنس عالَم، والجن عالَم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم ـ وهو يشك ـ [مِن] الملائكةِ على الأرض، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثةُ آلاف عالَم، وخمسُمائة عالَم، خلقهم لعبادته. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. (١-[وهذا كلام غريبٌ يحتاج مثله إلى دليل صحيح]-١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الفرات بن الوليد، عن مُعتِّب بن سُمَيٍّ، عن تُبَيع ـ يعني الحميري ـ في قوله: ﴿رب العالمين﴾ قال: العالمين ألف أمة، فستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. (١-[وحكى مثله عن سعيد بن المسيب]-١). وقد روى نحو هذا مرفوعاً كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى في مسنده:

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبدالله، قال: قلّ الجراد في سنة من سِني عمر التي وَلِيَ فيها فسأل عنه، فلم يُخبَر بشيء، فاغتم لذلك، فأرسل راكباً يضرب إلى اليمن، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق، يسأل: هل رؤي من الجراد شيء أم لا؟ قال: فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد، فألقاها بين يدَيه، فلما رآها كبر، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قُطِع سلكه».

محمد بن عيسى هذا ـ وهو الهلالي ـ ضعيف.

(١-[وحكى البَغَوِيُّ عن سعيد بن المسيب أنه قال: لله ألف عالَمٍ، ستمائةٌ في البحر، وأربعمائةٌ في البر. وقال وهب بن مُنَبِّه: لله ثمانية عشرَ ألفَ عالَم، الـدنيا عالَم منها. وقال مقاتل: العوالم ثمانون ألفاً. وقال كعب الأحبار: لا يعلم عدد العوالم إلا الله عزّ وجلّ، نقله كله البَغَوِيُّ(٤).

وحكى القرطبي، عن أبي سعيد الخُدْري أنه قال: إنّ لله أربعين ألف عالم، الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد منها.

(١ ـ ١) ما بين القوسين عن الأصل.
(٢) في الأصل: عما. والمثبت عن القرطبي.
(٣) تفسير القرطبي ١/ ١٣٨.
(٤) تفسير البَغَوِي ١/ ٤٠.

وقال الزجاج: العالمُ كلُّ ما خَلَقه الله في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنّه شامل لكل مخلوق، كقوله: ﴿قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾. والعالَم مشتق من العلامة.

قلت: لأن علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته، كما قال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يُعصَى الإلٰه ... أم كيف يَجْحَده الجاحد
وفي كلِّ شيء له آيةٌ ... تدل على أنه واحد]-(١)

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③﴾

وقولُه: ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ تقدَّم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن إعادته.

(١-[قال القرطبي(٢): وإنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله ﴿ رب العالمين ﴾، ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال: ﴿نَبِّىء عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ وقوله: ﴿ إن ربك لشديد العقاب وإنَّه لغفورٌ رحيم ﴾، قال: فالرب فيه ترهيب، والرحمن الرحيم ترغيب. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة لما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِط من جنَّتِهِ أحد»]-(١).

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ④﴾

قرأ بعض القراء: ﴿ مَلِك يوم الدين ﴾. وقرأ آخرون: ﴿ مالك ﴾.

وكلاهما صحيح متواتر في السبع.

(١-[ويقال: مَلْك ـ بكسر اللام وإسكانها ـ ويقال: مليك أيضاً، وأشبع نافع(٣) كسرة الكاف فقرأ: ملكي يوم الدين. وقد رجح كلًّا من القراءتين مُرَجِّحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة. ورجح الزمخشري ﴿مَلِك﴾ لأنها قراءة الحرمين(٤)، ولقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾، وقوله: ﴿الحق وله الملك﴾ وحَكَى عن أبي حنيفة أنه قرأ: ﴿ مَلَكَ يومَ الدين ﴾ على أنه فِعْلٌ وفاعلٌ ومفعول، وهذا غريب شاذ جداً]-(١).

وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال: حدثنا أبو عبد الرحمن الأَذْرَمِيُّ(٥)، حدثنا عبد الوهاب(٦)، عن عدي بن الفضل، عن أبي المطرف، عن ابن شهاب: أنه بلغه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرءون: ﴿ مالك يوم الدين ﴾. قال ابن شهاب: وأول من أحدث «مَلِك» مروان(٧).

(١ ـ ١) ما بين القوسين عن الأصل.
(٢) تفسير القرطبي ١/١٣٩.
(٣) هذه رواية عن نافع ذكرها المهدوي، ونقلها القرطبي ١/١٤٠.
(٤) عبارة الزمخشري: أهل الحرمين.
(٥) في الأصل: الأزدي. وهو خطأ.
(٦) في الأصل: عبد الوهاب بن عدي بن الفضل. والمثبت عن المصاحف لأبي بكر.
(٧) المصاحف ٩٣.

قلت: مروان عنده علم بصحة ما قرأه، لم يطلع عليه ابن شهاب، والله أعلم.

وقد روى من طرق متعددة أوردها ابن مَرْدُوَيه أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها: ﴿ مالك يوم الدين ﴾.

ومالك مأخوذ من المِلْك، كما قال: ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ وقال: ﴿ قل أعوذ برب الناس * ملك الناس ﴾ ومَلِك: مأخوذ من المُلْك، كما قال تعالى: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ وقال: ﴿ قوله الحق وله الملك ﴾ وقال: ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾.

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ وقال تعالى: ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ وقال: ﴿ يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿ مالك يوم الدين ﴾ يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا. قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة: يوم يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى أن تفسير ﴿مالك يوم الدين﴾ أنه القادر على إقامته. ثم شرع يضعفه.

والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم، وأن كلاً من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ والقول الثاني يشبه قوله: ﴿ ويوم يقول كن فيكون ﴾ والله أعلم.

⁽¹⁻ [والمَلِكُ في الحقيقة: هو الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى: ﴿ هو الله الذي لا إلّه إلا هو الملكُ القدوسُ السلامُ ﴾ وفي الصحيحين، عن أبي هريرة مرفوعاً: «أخنَعُ اسم عند الله رجل تَسَمَّى بملك الأملاك، ولا ملك إلا الله». وفيهما عن رسول الله - ﷺ - قال: يقبض الله الأرض - ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ وفي القرآن العظيم: ﴿ لمن الملكُ اليوم لله الواحد القهار ﴾ فأما تَسْمية غيره في الدنيا بمَلِكٍ فعلى سبيل المجاز، كما قال: ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت مَلِكاً ﴾، ﴿ وكان وراءَهم مَلِكٌ ﴾. وفي الصحيحين: «مثلُ الملوكِ على الأسرّة»، ﴿ إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ﴾.

والدِّينُ: الجزاءُ والحساب، كما قال: ﴿ يومئذ يُوَفِّيهم الله دينَهم الحقَّ ﴾ وقال: ﴿ أئنا لمدينون ﴾، أي: لمجزيون محاسبون. وفي الحديث: «والكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت»، أي: حاسب نفسه لنفسه، كما قال عمر: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وَزِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزَنُوا، وتأهَّبُوا للعرض الأكبر، يومئذٍ، تُعرَضُون لا تخفَى منكم خافية]⁻¹⁾.

(١ - ١) ما بين القوسين عن الأصل.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾

[(١)- قرأ السبع والجمهور بتشديد الياء من ﴿إيَّاك﴾، وقرأ عمرو بن فائد بتخفيفها مع الكسر، وهي قراءة شاذة مرذولة، لأن إياً ضوءُ الشمس. وقرأ بعضهم: ﴿أيَّاك﴾ نعبد بفتح الهمزة وتشديد الياء. وقرأ بعضهم ﴿هِيَّاك﴾، بالهاء بدل الهمزة، كما قال الشاعر(٢):

فَهِيَّـاكَ وَالأَمْـرَ الـذي إِنْ تَـراحَبَتْ مَـوَارِدُه ضَـاقـت علـيـكَ مَـصَـادِرُه

و﴿ نَسْتَعِين ﴾ بفتح النون في أول الكلمة، في قراءة الجميع، سوى يحيى بن وثاب والأعمش فإنهما كسراها، وهي لغةُ بني أسدٍ وربيعة، وبني تميمٍ وقيس](١).

العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق مُعَبَّد، وبعير مُعَبَّد، أي مُذَلَّل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.

وقُدِّم المفعول وهو «إيَّاك»، وكُرِّر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبدُ إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، فالأول تَبَرُّؤٌ من الشرك، والثاني تَبَرُّؤٌ من الحَول والقوة والتفويض إلى الله عزّ وجلّ. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿ فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾، ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾، ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلًا﴾، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾.

وَتَحوَّل الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسب؛ لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يَدَيِ الله تعالى، فلهذا قال: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾. وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده أن يثنوا عليه بذلك، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»(٣) وفي صحيح مسلم، من حديث العلاء بن عبد الرحمن، مولى الحُرَقة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿ الحمد لله رب العالمين﴾. قال: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾. قال: أثنى عليَّ عبدي. فإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾. قال الله: مجدني عبدي. وإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ۝ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»(٣).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿إياك نعبد﴾، يعني: إياك نُوحِّد ونخاف ونرجُو يا ربنا لا غيرك، ﴿ وإياك نستعين ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها.

وقال قتادة: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم.

---

(١) ما بين القوسين عن الأصل.

(٢) البيت لمضرِّس بن ربعي أو طفيل الغنويّ. انظر المحتسب ١/ ٤٠، وشواهد الشافية ٤٧٦.

(٣) تقدم هذان الحديثان عند ذكر فضل سورة الفاتحة، وخرجناهما هناك.

وإنما قدم: ﴿ إياك نعبد ﴾ على ﴿ وإياك نستعين ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم تقديمُ ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

[(١- فإن قيل فما معنى النون في قوله: ﴿إيّاك نعبدُ وإِياك نستعين﴾؟ فإن كانت للجمع فالداعي واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسبُ هذا المقامَ.

فقد أُجيبَ بأنّ المراد من ذلك الإخبارُ عن جنس العباد، والمصلي فرد منهم، ولا سيما إن كان في جماعة وإمامَهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوته المؤمنين بالعبادة التي خُلِقوا لأجلها، وتوسط لهم بخير.

ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، كأن العبد قيل له: إذا كنتَ في العبادة فأنت شريفٌ وجاهك عريض، فقل: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا، ولو كنت في مائة ألف، أو ألفِ ألفٍ، لافتقار الجميع إلى الله عزّ وجلّ.

ومنهم من قال: ﴿ إياك نعبد ﴾ ألطف في التواضع من إياك أعبد، لما في الثاني من تعظيمه نفسه، من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى التي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثني عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم تَشَرَّف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

لا تَـدْعُـنِـي إلاّ بِـيَـا عَـبْـدَهـا فـإنّـه أشـرَفُ أَسْـمـائِـي

وقد سَمَّى الله رسولهُ ـ ﷺ ـ بعبده في أشرف مقاماته: ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾، ﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعوه ﴾، ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾، فسماه عبداً عند إنزال الله عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدرُه من تكذيب المخالفين له، حيث يقول: ﴿ ولقد نعلم أنك يضيقُ صدرُك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾.

وقد حكى فخر الدين في تفسيره عن بعضهم أن مقام العبودية أشرفُ من مقام الرسالة، لكون العبادة تَصَرُّفٌ من الخلق إلى الحق، والرسالة من الحق إلى الخلق، قال: ولأنَّ الله متولى مصالح عبدهِ، والرسولَ متولى مصالح أمته.

وهذا القول خطأٌ، والتوجيه أيضاً ضعيف لا حاصل له، ولم يتعرض له فخر الدين بتضعيف ولا رَدِّه.

وقال بعض الصوفية: العبادةُ إما لتحصيل ثواب وردِّ عقاب، قالوا: وهذا ليس بطائل، إذ مقصوده تحصيل مقصوده، وإما للتشريف بتكاليف الله تعالى. وهذا أيضاً عندهم ضعيف، بل العالي أن يعبُد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال، قالوا: ولهذا يقول المصلي: أصلي لله، ولو كان لتحصيل الثوابِ ودَرْءِ العذاب لبطلَتْ صلاته.

وقد رد عليهم ذلك آخرون، وقالوا: كونُ العبادةِ لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ لا ينافي بأن يطلب معها ثواباً ولا تدفع عذاباً، كما قال ذلك الأعرابي(٢): أما إني لا أُحسِنُ دَنْدَنتك(٣) ولا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَأسألُ اللهَ الجنةَ، وأعوذُ به من النار. فقال النبي ﷺ: إنما حولها نُدَنْدِن-١)].

* * *

(١ ـ ١) عن الأصل.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الإقامة ٢٩٥، والدعاء ١٢٦٤.

(٣) أي مسألتك الخفية أو كلامك الخفيّ. والدندنة: أن يتكلّم الرجل بكلام تُسْمعُ نغمتهُ ولا يفهم. وقوله: حولها، أي حول الجنة.

﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾

[وقُرِىء (السِّراط)، وقُرِىء بالزاي. قال الفراء: وهي لغة بني عذرة وبَلْقين وبني كلب][١].

لما تقدم الثناء على المسئول، تبارك وتعالى، ناسب أن يُعَقَّب بالسؤال؛ كما قال: «فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مَسْئُوله، ثم يسأل حاجته لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رب إني لما أنزلتَ إلى من خير فقيرٌ﴾ وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسئول، كقول ذي النون: ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول، كقول الشاعر:

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني حَيَاؤُك إنَّ شيمتَك الحياءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً كفاه من تَعَرُّضه الثناءُ

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما ههنا: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فتضمن معنى أَلْهِمنا، أو وَفِّقنا، أو ارزُقنا، أو أعطِنا؛ ﴿وهديناه النجدين﴾ أي: بَيَّنا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى، كقوله تعالى: ﴿اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾، ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾، وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾، أي: وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً.

وأما ﴿الصراط المستقيم﴾، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن ﴿الصراط المستقيم﴾ هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه.

وكذلك ذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفي[٢]:

أميرُ المؤمنين على صِراطٍ إذا اعوج الموارِدُ، مُسْتَقيمِ

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه.

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروى أنه كتاب الله، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني يحيى بن يمان، عن حمزة الزيات، عن سعد ـ وهو أبو المختار الطائي ـ عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصِّراط المستقيم كتاب الله».

وكذلك رواه ابن جرير، من حديث حمزة بن حبيب الزيات، وقد [تقدّم في فضائل القرآن فيما][٣] رواه

---

(١) تفسير القرطبي ١/١٤٧.
(٢) من قصيدته التي يمدح بها هشام بن عبد الملك، ومطلعها:
أَتَصْحُو، أم فؤادُكَ غيرُ صاحِ عشيَّةَ همَّ صحبُكَ بالرَّواحِ
(٣) ما بين القوسين عن الأصل.

أحمد والترمذي من رواية الحارث الأعور، عن علي مرفوعاً: «وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم».

وقد روي هذا موقوفاً عن علي، وهو أشبه، والله أعلم.

وقال الثوري، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبدالله، قال: الصراط المستقيم كتاب الله. وقيل: هو الإسلام.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، قال: قال جبريل لمحمد عليهما السلام: «قل: يا محمد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، يقول: ألهمنا الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عِوَجَ فيه.

وقال ميمون بن مِهْران، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ قال: ذاك الإسلام.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السُدِّي الكبير، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرَّة الهَمْداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، قالوا[1]: هو الإسلام.

وقال عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، قال: الإسلام، [٢ - [وقال: هو أوسع مما بين السماء والأرض.

وقال ابن الحنفية في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. قال] ٢): هو دين الله، الذي لا يقبل من العباد غيره.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، قال: هو الإسلام.

وفي هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا الحسن بن سَوَّار أبو العلاء، حدثنا ليث ـ يعني ابن سعد ـ عن معاوية بن صالح: أن عبد الرحمن بن جبير بن نُفَير حَدَّثه، عن أبيه، عن النوَّاس بن سِمْعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سُوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب سُتور مُرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا. وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير من حديث الليث بن سعد، به[3].

ورواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن علي بن حجر، عن بقية، عن بَحِير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن جُبَير بن نُفَير، عن النوَّاس بن سِمْعَان، به.

وهو إسناد حسن صحيح، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، قال: الحق. وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم.

---

(١) في الأصل: قال.

(٢ ـ ٢) ما بين القوسين سقط من الأصل، وانظر الأثرين في تفسير الطبري ٧٤/١ ـ ٧٥.

(٣) مسند الإمام أحمد ١٨٢/٤، وتفسير الطبري ٧٥/١.

وروى ابنُ أبي حاتم وابنُ جرير، من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم؛ حدثنا حمزة بن المغيرة، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ قال: هو النبي ﷺ، وصاحباه من بعده. قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح(١).

وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ واقتدى باللَّذين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً، ولله الحمد.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الفضل السَّقَطِي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المِصِّيصي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبدالله، قال: الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسولُ الله ﷺ(٢).

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير. رحمه الله: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أن يكون معنياً به: وَفِّقْنا للثباتِ على ما ارتضيتَه ووفقتَ له مَنْ أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وُفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وُفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم.

فإن قيل: كيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها، وهو مُتّصف بذلك؟ وهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله، فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿ يأيها الذين آمَنوا، آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسولـه والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ الآية، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المُعِينة على ذلك، والله أعلم.

(٣- [وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾، وقد كان الصديق ـ رضي الله عنه ـ يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً، فمعنى قوله: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾، أي: استمر بنا عليه ولا تَعْدِل بنا إلى غيره، ولا تُضِلّنا عنه]-٣).

(١) تفسير الطبري ١/٧٥.
(٢) أخرجه في المعجم الكبير ١٠/٢٤٥.
(٣-٣) ما بين القوسين عن الأصل.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إلى آخرها أن الله يقول: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». وقوله: ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم.

و﴿الذين أنعمت عليهم﴾ هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ۞ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿صراط الذين أنعمت﴾ عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ۞ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ قال: هم النبيون.

وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: هم المؤمنون. وكذا قال مجاهد. وقال وكيع: هم المسلمون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي ﷺ ومن معه.

والتفسير المتقدم عن ابن عباس أعمُّ وأشملُ.

وقوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، [(١- قرأ الجمهور: ﴿غيرِ﴾، بالجر على النعت، وقال الزمخشري: وقرىء ﴿غيرَ المغضوب﴾ بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورُويت عن ابن كثير، وذو الحال الضمير في عليهم، والعامل ﴿أنعمت﴾-١)]، والمعنى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم﴾ ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا، ليدل على أن ثَمّ مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعضُ النحاةِ أنَّ غير ههنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم، وليسوا منهم. وما أوردناه أولى، لقول الشاعر(٢):

كـأنـك من جِمـال بني أُقَيشٍ يُقَعْقَعُ عند رِجْلَيْه بِشَنِّ

أي: كأنك جمل من جمال بني أقيش، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة، وهكذا، غير المغضوب عليهم. أي: غير صراط المغضوب عليهم. اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم﴾.

---

(١) ما بين القوسين عن الأصل.

(٢) النابغة الذبياني، من قصيدته التي مطلعها:

غَشِيتُ مَنازلاً بِعُرَيْتِناتٍ فَأَعلى الجِزْعِ للحيِّ المُبِنِّ

ثم قال تعالى: ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾. ومنهم من زعم أن ﴿لا﴾ في قوله: ﴿ ولا الضالين ﴾، زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، واستشهد ببيت العجاج[(١)]:

في بئْـرِ لا حُـورٍ سـرى ومـا شَعَـرْ

أي: في بئر حور. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عُمَر بن الخطاب، رضي الله عنه: أنه كان يقرأ: ﴿غير المغضوب عليهم وغير الضالين﴾. وهذا إسناد صحيح. [وكذا[(٢)] حُكِي عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك] وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جِيءَ بلا لتأكيدِ النَّفْي -(٢) [لئلا يُتَوَّهم أنه معطوفٌ على ﴿ الذين أنعمت عليهم﴾] -(٢)، وللفرق بين الطريقتين، لِتُجتَنَبَ كلّ منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه. لكن أخصّ صفات اليهود الغضب، كما قال فيهم: ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾، وأخصّ أوصاف النصارى الضلال كما قال: ﴿قد ضلُّوا من قبلُ وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل﴾. وبهذا جاءت الأحاديث والآثار[(٣)]، وذلك واضح فيما قال الإمام أحمد:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت سماك بن حرب، يقول: سمعت عَبَّاد بن حُبَيش، يحدث عن عدي بن حاتم، قال: جاءت خيلُ رسولِ الله ﷺ، فأخذوا عمتي وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صُفُّوا له، فقالت: يا رسول الله، ناء الوافد وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فمُنّ عليَّ مَنّ الله عليك. قال: من وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم، قال: الذي فر من الله ورسوله! قالت: فمنّ عليّ، فلما رجع، ورَجُلٌ إلى جَنْبه ـ تُرَى أنه عَلِيّ ـ قال: سليه حُمْلاناً. فسألته، فأمر لها، قال: فأتتني، فقالت: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبي، وذكر قربهم من النبيّ ﷺ، قال: فعرفت أنه ليس بِمُلْكِ كسرى ولا من قيصر، فقال: يا عدي، ما أفرَّكَ؟ أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ قال: ما أفرك؟ أن يقال: الله أكبر؟ فهل من شيء هو أكبر من الله عزّ وجلّ؟ قال: فأسلمتُ، فرأيتُ وجهه استبشر، وقال: المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى[(٤)].

وذكر الحديث، ورواه الترمذي[(٥)]، من حديث سماك بن حرب، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

---

(١) من أرجوزته التي أولها:

قـد جَبَـر الـديـنَ الإلَـهُ فَجَبَرْ

وانظر البيت في معاني القرآن لأبي عبيدة ١/٨، ومعاني القرآن للفرّاء ١/٨، والخصائص ٢/٤٧٧.

(٢) عن الأصل.

(٣) في الأصل: والآيات.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/٣٧٨.

(٥) تحفة الأحوذي، أبواب التفسير ٨/٢٨٦ ـ ٢٨٩.

قلت: وقد رواه حماد بن سلمة، عن سماك، عن مُرِّيّ بن قَطَريّ، عن عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ قال: هم اليهود ﴿ ولا الضالين ﴾ قال: النصارى هم الضالون. وهكذا رواه سفيان بن عُيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم، به.

وقد رُوِي حديث عدي هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرُها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بُدَيل العُقَيْلي، أخبرني عبدالله بن شقيق، أنه أخبره مَن سمع النبي ﷺ وهو بوادي القُرَى، وهو على فرسه، وسأله رجل من بني القَينِ، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: المغضوب عليهم، وأشار إلى اليهود، والضالون هم النصارى.

وقد رواه الجُرَيري وعروة وخالد الحَذَّاء، عن عبدالله بن شقيق، فأرسلوه، ولم يذكروا من سمع النبي ﷺ. ووقع في رواية عروة تسمية عبدالله بن عمر، فالله أعلم.

وقد روى ابن مَرْدُويه، من حديث إبراهيم بن طهمان، عن بُدَيل بن مَيْسَرَةَ، عن عبدالله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم، قال اليهود، قلت: الضالين، قال: النصارى.

وقال السُدِّي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرَّة الهَمْداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿غير المغضوب عليهم﴾: هم اليهود، ﴿ولا الضالين﴾: هم النصارى.

وقال الضحاك، وابن جُرَيج، عن ابن عباس: ﴿غير المغضوب عليهم﴾: اليهود، ﴿ولا الضالين﴾: النصارى.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿ بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴾ وقال في المائدة: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾ وقال تعالى: ﴿ لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾.

وفي البسيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ نَصِيبَكَ [من سَخطِ الله و][1] من غضب الله. فقال: أنا من غضب الله أفر. وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سَخَط الله. فقال: لا أستطيعه. فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل، حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي، رضي الله عنه.

---

(١) عن الأصل. وانظر فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ١٤٢/٧، ودلائل النبوة للبيهقي ١٢٢/١.

مسألة:

(١- [والصحيح من مذاهب العلماء أنه يُغتَفَرُ الإخلال بتحرير ما بين الضاء والظاء لقرب مخرجهما، وذلك أن الضاء مخرجها من أول حافَةِ اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلًّا من الحرفين من الحروف المجهورة، ومن الحروف الرخوة، ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتُفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يُميِّز بين ذلك، والله أعلم، فأما حديث: «فأنا أفصح من نطق بالضاد» فلا أصل له. والله أعلم]-١).

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذلك المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نَظِير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يُفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم﴾، وحذفَ الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ الآية، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره، كما قال تعالى: ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾. وقال: ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية(٢) ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»(٣). يعني في قوله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾. فليس - بحمد الله - لِمُبتَدِعٍ في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقُضٌ ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد.

فصل

يُستَحبّ لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين، - [مثل ياسين] - ويقال: أَمِين، بالقصرِ أيضاً - [مثل يمين](١) - ومعناه: اللهم استجب، والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، عن

(١ - ١) ما بين القوسين من الأصل.

(٢) يريد المعتزلة.

(٣) يأتي تخريجه عند تفسير الآية ٧ من سورة آل عمران.

وائل بن حُجْرٍ، قال: سَمِعتُ النبيّ - ﷺ - قرأ: ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فقال: آمين، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذي: هذا حديث حسن[١]. وروي عن علي، وابن مسعود وغيرهم.

وعن أبي هريرة، قال: كان رسول الله - ﷺ - إذا تلا: ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود، وابن ماجه[٢]، وزاد: يرتجُّ بها المسجد، والدارقطني، وقال: هذا إسناد حسن.

وعن بلال أنه قال: يا رسول الله، لا تسبقني بآمين. رواه أبو داود[١].

[٣-] [ونقل أبو نصر[٤] القُشَيري، عن الحسن وجعفر الصادق[٥] أنهما شدّدا الميم من «آمين»، مثل ﴿آمِّين البيت الحرام﴾][-٣].

قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفي جميع الأحوال، لما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا أمَّن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»[٦]. ولمسلم: أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه»[٦].

[٣-] [قيل من معنى «فمن وافق تأمينُه تأمين الملائكة» في الزمان، وقيل: في الإجابة، وقيل: في صفة الإخلاص][-٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً: «إذا قال، يعني الإمام: ﴿ولا الضالين﴾، فقولوا: آمين. يُجبكم[٧] الله».

وقال جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قلت يا رسول الله، ما معنى امين؟ قال: «رب، افعل».

[٣-] [وقال الجوهري: معنى «آمين»: كذلك فَلْيَكُن. وقال الترمذي: معناها لا تُخَيِّب رجاءنا. وقال الأكثرون: معناها اللهم استجب لنا. وحكى القرطبي عن مجاهد، وجعفر الصادق، وهلال بن كيسان أن آمين اسم من أسماء الله تعالى. ورُوِي عن ابن عباس مرفوعاً، ولا يصح. قاله أبو بكر بن العربي المالكي[-٣]].

وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويـؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سُمَيّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله - ﷺ - قال: «وإذا قال، يعني الإمام: ﴿ولا الضالين﴾، فقولوا: آمين»... الحديث[٨]. واستأنسوا أيضاً بحديث أبي موسى: «وإذا قرأ: ﴿ولا الضالين﴾، فقولوا: آمين».

وقد قدمنا في المتَّفق عليه: «إذا أمن الإمام فأمنوا»، وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا قرأ: ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾.

---

(١) انظر المسند ٣١٥/٤، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢٤٦/١، وتحفة الأحوذي، أبواب الصلاة ٦٥/٢ - ٦٨.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢٤٦/١، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٧٨.

(٣-٣) ما بين القوسين عن الأصل.

(٤) في الأصل: النّضر.

(٥) تفسير القرطبي ١٢٨/٨.

(٦) البخاري، كتاب الأذان ١٩٨/١، ومسلم، كتاب الصلاة ٣٠٧.

(٧) مسلم، كتاب الصلاة ٣٠٣.

(٨) الموطأ، كتاب الصلاة ٨٧/١.

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أمَّنَ الإمام جهراً فالجديد أنه لا يجهر المأموم، وهو مذهب أبي حَنيفة، ورواية عن مالك، لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما تقدم «حتى يرتج المسجد».

ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جَهَر ليبلُغَ التأمينُ مَنْ في أرجاء المسجد، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله - ﷺ - ذُكِرَت عنده اليهود، فقال: «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وأضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: «آمين»[١].

ورواه ابن ماجه، ولفظه: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين»[٢].

وله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول آمين، فأكْثروا من قول: آمين» وفي إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف[٢].

وروى ابن مَرْدُوَيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله - ﷺ - قال: «آمين: خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين».

وعن أنس، قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أعطيت آمين في الصلاة وعند الدعاء، لم يعط أحد قبلي إلا أن يكون موسى، كان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فاختموا الدعاء بآمين، فإن الله يستجيبه لكم».

قلت: ومن هنا نَزَع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال: قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾. فذكر الدعاء عن موسى وحده، ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمَّن، فنزل منزلة من دعا، لقوله تعالى: ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾، فدلّ ذلك على أن من أمَّنَ على دعاء فكأنما قاله، فلهذا قال من قال: إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها، ولهذا جاء في الحديث: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، [ورواه[٣] الإمام أحمد في مسنده][٤]. وكان بلال يقول: لا تسبقني بآمين. فدل هذا المنزع على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية، والله أعلم.

ولهذا قال ابن مَرْدُوَيه: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا عبدالله بن محمد بن سلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن ليث بن أبي سليم، عن كعب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الإمام: ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾، فقال: آمين، فوافَقَ آمين أهل الأرض آمين أهل السماء، غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه. ومَثَل من لا يقول: آمين، كمثل رجل غزا مع قوم، فاقترعوا، فخرجت سهامهم، ولم يخرُجْ سهمُهُ، فقال: لِمَ لَمْ يخرُجْ سهمي؟ فقيل[٥]: إنك لم تقل: آمين».

---

(١) المسند ٦/١٣٥.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٣) عن الأصل.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٧٧، ومسند الإمام أحمد ٣/٣٣٩.

(٥) في الأصل: فقال.

تفسير

سُورَةُ البَقَرَةِ

خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرفٍ، وستّة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمةً، ومائتان وستّة وثمانون آيةً في عدد الكوفي وعَدَدِ عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ذكر ما ورد في فضلها

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عارم، حدَّثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «البقرة سَنَام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون مَلَكاً، واستُخرجت: ﴿الله لا إله إلّا هو الحيّ القيوم﴾ من تحت العرش، فوُصِلَت بها، أو فوُصِلَت بسورة البقرة. ويسٓ: قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله، والدار الآخرة إلا غُفِرَ له، واقرءوها على موتاكم». انفرد به أحمد(١).

وقد رواه أحمد أيضاً، عن عارم عن عبد الله بن المبارك، عن سُلَيمان التيمي، عن أبي عثمان ـ وليس بالنَّهدي ـ عن أبيه، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرءوها على موتاكم». يعني: يسٓ(١).

فقد تبيَّن بهذا الإسناد معرفةُ المبهم في الرواية الأولى. وقد أَخْرَجَ هذا الحديث على هذه الصفة في الرواية الثانية أبو داود، والنسائي، وابن ماجه(٢).

وقد روى الترمذي من حديث حكيم بن جبير، وفيه ضعف، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ شيءٍ سنامٌ، وإنّ سَنَامَ القرآنِ البقرةُ، وفيها آيةٌ هي سيدةُ آيِ القرآن: آية الكرسي»(٣).

وفي مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قُبوراً، فإنّ البيتَ الذي يُقْرَأ فيه سورةُ البقرةِ لا يدخله الشيطانُ» وقال الترمذي: حسن صحيح(٤).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٦.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الجنائز ٣/١٩١، وابن ماجه، كتاب الجنائز ٤٦٦.
(٣) عارضة الأحوذي، أبواب ثواب القرآن ١١/١٠.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٢٨٤، ٣٨٨، ومسلم، كتاب المسافرين ٥٣٩، وتحفة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ٨/١٨٠ ـ ١٨١.

وقال أبو عُبَيدٍ القاسمُ بن سلام: حدَّثني ابن أبي مريم، عن ابن لَهِيعَةَ، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إنَّ الشيطان يخرُج من البيت إذا سَمِعَ سورة البقرة تُقرَأ فيه».

سِنانُ بن سَعْدٍ ـ ويقالُ بالعكس ـ وثَّقه ابن معين، واستنكر حديثَه أحمدُ بن حنبل وغيرُه.

وقال أبو عُبَيدٍ: حدَّثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سلمة بن كُهَيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، يعني ابن مسعود، قال: إن الشيطانَ يَفِرّ من البيت الذي[1] يسمع فيه سورة البقرة.

ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، وأخرجه الحاكم في مستدركِهِ من حديث شُعبةَ، ثم قال الحاكم: صحيحُ الإسناد، ولم يخرجاه[2].

وقال ابن مَرْدُوَيه: حدَّثنا أحمد بن كامل، حدَّثنا أبو إسماعيل الترمذي، حدَّثنا أيوب بن سليمان بن بلال، حدَّثني أبو بكر بن أبي أُويس، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن عجلان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لا أُلْفِيَنَّ أحَدَكم، يَضَع إحدى رجليه على الأخرى يتغنى، ويدع سورة البقرة يقرؤها؛ فإن الشيطان يفرّ من البيت تقرأ فيه سورة البقرة، وإن أصْفَر البيوت[3] الجَوْفُ، الصِّفْر من كتاب الله».

وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة»، عن محمد بن نصر، عن أيوب بن سليمان، به.

[4]-(وروى الدارمي[5] في سُننه، عن ابن مسعود قال: ما من بيت تُقْرَأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطانُ وله ضراط. وقال: إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن سورةُ البقرةِ، وإن لكل شيء لُباباً، وإن لُباب القرآن المُفَصَّل.

وروي أيضاً من طريق الشعبي[6] قال: قال عبد الله بن مسعود: مَن قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلةٍ لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها، وثلاث آيات من آخرها. وفي رواية: لم يَقْرَبْه ولا أهلَهُ يومئذٍ شيطانٌ ولا شيءٌ يكرهه، ولا يُقْرَأْنَ على مجنونٍ إلا أفاق)-[4].

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة» مَن قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام».

ورواه أبو القاسم[7] الطبراني)، وأبو حاتم بن حِبَّان في صحيحه، [4]-(وابن مردويه من حديث الأزرق بن علي، حدَّثنا حسان بن إبراهيم، حدَّثنا خالد بن سعد المدني، عن أبي حازم، عن سهل، به. وعند ابن حبان: خالد بن سعيد[8] المَدَنى)-[4].

---

(١) عن الأصل. وليست في فضائل القرآن لأبي عبيد.
(٢) المستدرك، تفسير سورة البقرة ٢/٢٥٩ ـ ٢٦٠.
(٣) أي: أخلاها.
(٤) عن الأصل.
(٥) سنن الدارمي، فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة ٢/٤٤٦.
(٦) سنن الدارمي، فضائل القرآن ٢/٤٤٨.
(٧) المعجم الكبير ٦/١٦٣.
(٨) في الأصل: سعد المزني، والمثبت عن موارد الظمآن في زوائد ابن حبان ٤٢٧.

وقد روى الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر، عن سعيد المَقْبُرِيّ، عن عطاء مولى أبي أحمدَ، عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ـ ﷺ ـ بعثاً وهم ذَوُو عَدَدٍ، فاستقرأهم، فاستقرأ كُلّ واحد منهم ـ يعني ما معه من القرآن ـ فأتى على رجل من أحدَثِهم سناً، فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا وسورةُ البقرةِ، فقال: أمعَكَ سورةُ البقرةِ؟ قال: نعم. قال: اذهب فأنت أميرُهُمْ. فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم البقرة إلا أني خَشِيت ألاّ أقوم بها. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «تَعَلَّمُوا القرآن واقرءوه؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقَرَأه وقام به كمثل جِرَابٍ محشو مسْكاً يفوحُ ريحُه في كُلِّ مكانٍ، ومثل مَن تَعَلَّمه، فيرقُدُ وهو في جوفه، كمثل جراب أُوكِي(١) على مِسْكٍ».

هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن. ثم رواه من حديث الليث، عن سعيد، عن عطاء مولى أبي أحمد مرسلاً، فالله(٢) أعلم.

باب ما ورد من فضلها مع آل عمران

قال البخاري: وقال الليث: حدَّثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أُسَيد بن حُضير، قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسُه مربوطةٌ عنده، إذ جالت الفرسُ، فسكت، فسكَنَتْ، فقرأ فجالت الفرسُ، فسكَت، فسكَنَتْ، ثم قرأ فجالت الفرسُ، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها. فأشفق أن تُصِيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حَدَّث النبي ـ ﷺ ـ فقال: اقرأ يا ابن حُضَير. قال: فأشفقتُ يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعتُ رأسي وانصرفتُ إليه، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثالُ المصابيح، فخرجتُ حتى لا أراها، قال: وَتَدري ما ذاك؟ قال: لا. قال: تلك الملائكةُ دَنَت لصوتكَ، ولو قَرَأْتَ لأصبحَتَ ينظرُ الناسُ إليها لا تَتوارَى منهم(٣).

وهكذا رواه الإمام العَالم أبو عُبَيد القاسم بن سلام، في كتاب فضائل القرآن، عن عبد الله بن صالح، ويحيى بن بكير، عن الليث، به.

وقد روي من وجه آخر، عن أُسَيد بن حُضَير ـ كما تَقَدَّمَ ـ والله أعلم.

وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس، رضي الله عنه، وذلك فيما رواه أبو عُبَيد:

حدَّثنا عَبَّاد بن عَبَّاد، عن جرير بن حازم، عن (عمِّه)(٤) جرير بن زيد(٥): أن أشياخ أهل المدينة حدّثوه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قيل له: ألم تـرَ ثابت بن قيس بن شماس؟ لم تزل داره البارحة تُزْهِرُ مصابيحَ، قال: فَلَعلَّه قرأ سورةَ البقرةِ. قال: فَسُئِلَ ثابتٌ، فقال: قرأتُ سورةَ البقرةِ.

وهذا إسنادٌ جيدٌ، إلا أَنَّ فيه إبهاماً، ثم هو مُرسَلٌ، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو نُعَيم، حدَّثنا بشير بن مهاجر، حدَّثني عبد الله بن بُرَيدَةَ، عن أبيه، قال: كنت جالساً عند النبي ـ ﷺ ـ فسمِعتُه يقول: تَعَلموا سورة البقرة، فإنَّ أخذها بركةٌ، وتركها حسرةٌ، ولا تستطيعها

---

(١) أي: ربط.

(٢) تحفة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١٨٦/٨ ـ ١٨٨، وابن ماجه، المقدمة ٧٨.

(٣) البخاري، كتاب فضائل القرآن ٢٣٤/٦.

(٤) عن الأصل.

(٥) في الأصل: يزيد. والمثبت عن التهذيب ٧٢/٢.

البطلة. قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: تعلموا سورة البقرة، وآل عمران، فإنهما الزُّهراوان، يُظِلَّان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان ـ أو غيايتان، أو فِرْقان ـ من طير صوَافّ، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين يَنْشقُّ عنه قبرُه كالرَّجُلِ الشاحِبِ، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرتُ ليلَكَ، وإنَّ كلَّ تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كلِّ تجارة. فيعطى المُلْكَ بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حُلَّتين، لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بِمَ كُسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال [له]: اقرأ واصعد في دَرَج الجنة وغرفها. فهو في صعود ما دام يقرأ هَذًّا كان أو ترتيلاً(١).

وروى ابن ماجه من حديث بَشِير بن المُهاجر بعضَه. وهذا إسنادٌ حسنٌ على شرط مسلم، فإنَّ بَشِيراً هذا أخرج له مسلم، ووثَّقَه ابن معين، وقال النسائي: ليس به بأس، إلا أن الإمام أحمد قال فيه: هو منكر الحديث، قد اعتبرتُ أحاديثه فإذا هي تجيء بالعجب. وقال البخاري: يخالف في بعض حديثه. وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه ولا يحتجّ به. وقال ابن عَدِيّ: رَوَى ما لا يتابع عليه. وقال الدارقطني: ليس بالقويِّ.

قلت: ولكن لبعضه شواهد؛ فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي؛ قال الإمام أحمد:

حدَّثنا عبد الملك بن عمرو حدَّثنا هشام، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: اقرءوا القرآن؛ فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة، اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ يحاجّان عن أهلهما(٢)، ثم قال: اقرءوا البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة(٣).

وقد رواه مسلم في الصلاة من حديث معاوية بن سَلَّام، عن أخيه زيد بن سَلَّام، عن جدّه أبي سَلَّام مَمْطور الحَبَشِيّ، عن أبي أمامة صُدَيّ بن عجلان (الباهلي)(٤)، به(٥).

الزهراوان: المنيران. والغيايَةُ: ما أظلَّك من فوقك. والفِرْقُ: القطعةُ من الشيء، والصوافُّ: المُصطَفَّة المتضامَّة. والبَطَلَةُ: السَحَرةُ. ومعنى لا تَسْتَطِيعها أي: لا يُمكِنُهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذَ في قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النَّوّاس بن سمْعانَ؛ قال الإمام أحمد:

حدَّثنا يزيدُ بن عبد ربِّه، حدَّثنا الوليدُ بن مسلم، عن محمد بن مُهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي، عن جُبَير بن نُفَير، قال: سمعتُ النواسَ بن سِمْعان الكلابيَّ، يقول: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يُؤتَى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يَعملُون به، تَقْدُمُهُمْ سورةُ البقرة وآلِ عمران. وضرب لهما رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثة أمثال ما نَسِيتُهنَّ بعدُ، قال: كأنهما غمامتان أو ظُلَّتان سوداوان بينهما شَرْق(٦)، أو كأنهما فِرْقَان من طير صَوَافّ يُحَاجَّان عن صاحبهما(٧).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٤٨/٥، وابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٤٢.

(٢) بعده في الأصل: يوم القيامة.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢٤٩/٥، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٥٣.

(٤) عن الأصل.

(٥) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٥٣.

(٦) أي: ضوء.

(٧) مسند الإمام أحمد ١٨٣/٤. والشرق: الضوء.

وورواه مسلم، عن إسحاق بن منصور، عن يزيد بن عبد ربه، به. والترمذي، من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، به. وقال: حسن غريب(١).

وقال أبو عُبَيدٍ: حدَّثنا حجاج، عن حماد بن سَلَمة، عن عبد الملك بن عمير، قال: قال حماد: أحسبُه عن أبي مُنِيب، عن عَمِّه: أن رجلاً قرأ البقرة وآل عمران فلما قضى صلاته قال له كعب: أقرأت البقرة وآل عمران؟ قال: نعم. قال: فوالذي نفسي بيده، إن فيهما اسم الله الذي إذا دعي به استجاب. قال: فأخبرني به. قال: لا، والله لا أُخبرك به، ولو أخبرتك لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت.

وحدَّثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر: أنه سمع أبا أمامة يقول: إن أخاً لكم أُرِيَ في المنام أن الناس يسلكون في صدع جبل وَعْر طويل، وعلى رأس الجبل شجرتان خَضْراوان تهتفان: هل فيكم مَن يقرأ سورةَ البقرة؟ وهل فيكم مَن يقرأ سورةَ آلِ عمران؟ قال: فإذا قال الرجل: نعم. دَنَتا منه بأَعْذَاقهما(٢)، حتى يتعلَّقَ بهمَا فَتَخْطِرَانِ به الجبلَ.

وحدَّثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن أبي عمران: أنه سمع أُم الدرداء تقول: إن رجلاً ممَّن قرأ القرآن أغار على جار له، فقتله، وإنه أُقِيدَ به، فقتل، فما زال القرآن يَنْسَلُّ منه سورة سورَةً، حتى بَقِيت البقرة وآل عمران جُمُعَةً، ثم إن آل عمران انسلّت منه، وأقامت البقرة جمعة، فقيل لها: (ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلاّم للعبيد) قال: فخرجت كأنها السحابة العظيمة.

قال أبو عُبيد: أراه، يعني أنهما كانتا معه في قبره تدفعان عنه وتؤنسانه، فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن.

وقال أيضاً: حدَّثنا أبو مُسْهِر الغساني، عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي: أن يزيد بن الأسود الجُرَشي كان يُحدِّث: أنه مَن قرأ البقرةَ وآلَ عمرانَ في يوم، بَرِىءَ من النِّفاق حتى يُمْسِي، ومَن قرأهما في ليلة بَرِىءَ من النفاق حتى يُصْبح، قال: فكان يقرؤهما كل يوم ولَيلة سوى جُزْئِهِ.

وحدَّثنا يزيد، عن ورقاء بن إياس، عن سعيد بن جُبَير، قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. مَن قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان ـ أو كتب ـ من القانتين.

فيه انقطاعٌ، ولكن ثبت في الصحيحين: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأ بهما في ركعة واحدة.

ما ورد في فضل السبع الطول

قال أبو عُبَيد: حدَّثنا هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمد بن شعيب، عن سعيد بن بَشِير، عن قتادةَ، عن أبي المُلَيح، عن وَاثِلَةَ بن الأسقَع، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أعطيت السبع الطُّوَل مكان التوراة، وأعطيت المِئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصَّل».

هذا حديثٌ غريبٌ، وسعيدُ بن بشيرٍ فيه لينٌ.

وقد رواه أبو عُبيد، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن سعد بن أبي هلال، قال: بلغنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال. . . فذكره، والله أعلم.

---

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٥٤، وعارضة الأحوذي، فضائل القرآن ١١/١٣.
(٢) العذق: كلّ غصن له شُعَبٌ.

ثم قال: حدَّثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، مولى المطلب بن عَبْدِ الله بن حنطب، عن حَبِيبِ بن هند الأسلمي، عن عروة، عن عائشة، عن النبي - ﷺ - قال: «مَن أخذ السبع فهو حَبْر».

وهذا أيضاً غريبٌ، وحَبِيبُ بن هند بن أسماء بن هندِ بن حارثة الأسلمي، روى عنه عمرو بن أبي عمرو وعبد الله بن أبي بكرة، وذكره أبو حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحاً، فالله أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، وحسين، كلاهما عن إسماعيل بن جعفر، به.

ورواه أيضاً عن أبي سعيد، عن سليمان بن بلال، عن حَبِيب بن هند، عن عروة، عن عائشة أن رسول الله - ﷺ - قال: «مَن أَخَذ السبع الأُوَلَ من القرآن فهو حَبْر»[1].

قال أحمد: وحدَّثنا حسين، حدَّثنا ابن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبي - ﷺ - مثله.

قال عبد الله بن أحمد: وهذا أرى فيه، عن أبيه، عن الأعرج، ولكن كذا كان في الكتاب فلا أدري أغفله أبي، أو كذا هو مرسل.

[2]-(وروى الترمذي[3]، عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله - ﷺ - بعث بعثاً وهم ذوو عَدَدٍ، وقَدَّم عليهم أحدثهم سنّاً لحفظه سورة البقرة، وقال له: اذهب فأنت أميرهم. وصحّحه الترمذي)-[2].

ثم قال أبو عُبَيد: حدَّثنا هُشَيم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبَير، في قوله تعالى: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال: هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس.

قال: وقال مجاهد: هي السبع الطول. وهكذا قال مكحول، وعطية بن قيس، وأبو محمد القاري شَدَّاد بن عُبَيد الله، ويحيىٰ بن الحارث الذِّماري في تفسير الآية بذلك، وفي تعدادها، وأن يونس هي السابعة[4].

فصـــل

والبقرةُ جميعها مَدَنِية بلا خلاف، [2]-(وهي من أوائل ما نزل بها، لكن قوله تعالى: ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾. الآية، يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن. ويحتمل أن يكون منها. وكذلك آيات الربا من أواخر ما نزل. وكان خالد بن معدان يسمّي البقرة فُسطاط القرآن)-[2]. قال بعض العلماء: وهي مشتَمِلَةٌ على ألف خَبَر، وألف أمر، وألف نهي.

وقال العادّون آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة، ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فالله أعلم.

قال ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس: نزلَتْ بالمدينةِ سورةُ البقرة.

وقال خُصَيف، عن مجاهدٍ، عن عبد الله بن الزبير، قال: أنزل بالمدينة سورة البقرة.

---

(١) المسند ٧٣/٦، ٨٢.

(٢) عن الأصل.

(٣) تحفة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١٨٦/٨ ـ ١٨٧.

(٤) انظر فضائل القرآن لأبي عبيد ١٥٨ ـ ١٥٩.

وقال الواقدي: حدَّثني الضَّحَّاك بن عثمان، عن أبي الزناد، عن خارجةَ بن زيدِ بن ثابت، عن أبيه، قال: نزلت البقرةُ بالمدينةِ.

وهكذا قال غيرُ واحدٍ من الأئمة والعلماء، والمُفسِّرين، ولا خلاف فيه.

وقال ابن مَرْدُوَيه: حدَّثنا محمد بن معمر، حدَّثنا الحسن بن علي بن الوليد الفارسي، حدَّثنا خلف بن هشام؛ وحدَّثنا عيسى بن ميمون، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تقولوا: سورةُ البقرة، ولا سورةُ آل عمران، ولا سورةُ النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورةُ التي يذكر فيها البقرةُ، والتي يذكر فيها آلُ عمرانَ، وكذا القرآنُ كلُّه».

هذا حديث غريب لا يصحّ رفعه، وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص، وهو ضعيف الرواية، لا يحتجّ به. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود: أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. أخرجاه(١).

وروى ابن مَرْدُوَيه، من حديث شعبة، عن عقيل بن طلحة، عن عتبة بن مرثد، قال: رأى النبي ﷺ تأخراً في أصحابه، فقال: يا أصحابَ سورةِ البقرةِ. وأظن هذا كان يوم حنين، حين ولّوا مدبرين أمر العباس فناداهم: يا أصحاب الشجرة، يعني أهل بيعة الرضوان. وفي رواية: يا أصحاب البقرة، لينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه. وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرّون لكثافة حَشْر بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحابَ سورةِ البقرةِ. حتى فَتَحَ الله عليهم. رَضِي الله عن أصحابِ رسولِ الله أجمعين.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الٓمٓ ①﴾

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطَّعة التي في أوائل السور، فمنهم مَن قال: هي مما استأثَر الله بعلمه، فَرَدُّوا علمها إلى الله، ولم يُفَسِّروها. (٢-(حكاه القرطبيّ(٣) في تفسيره عن أبي بكر، وعُمَر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ وبه قال عامر الشعبي، وسفيان الثوري، والربيع بن خُثَيم، واختاره أبو حاتم بن حبّان)-٢).

ومنهم مَن فسَّرها، واختلفَ هؤلاء في معناها، فقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: إنما هي أسماءُ السور (قال العلاّمة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره(٤): وعليه إطباق الأكثر. ونقل(٥) عن سيبويه أنه نصّ عليه) ويعتضد هذا بما ورد في الصَّحيحين، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: الٓمٓ السجدة، وهل أتى على الإنسان(٦).

---

(١) البخاري، كتاب الحج ٢١٨/٢، ومسلم، كتاب الحج ٩٤٢.
(٢) عن الأصل.
(٣) تفسير القرطبي ٥٤/١.
(٤) الكشاف ١٧/١.
(٥) في الأصل: ونقله.
(٦) فتح الباري، كتاب الجمعة، باب ما يُقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ٣٧٧/٢، ومسلم، كتاب الجمعة ٥٩٩.

وقال سفيانُ الثَّوريُّ، عن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد: أنه قال: الٓمٓ، وحمٓ، والٓمٓصٓ، وصٓ، فواتحُ افتتح الله بها القرآن.

وكذا قال غيره، عن مجاهد. وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود، عن شِبْلٍ، عن ابن أبي نَجِيحٍ، عنه، أنه قال: الٓمٓ، اسم من أسماء القرآن.

وهكذا قال قتادةُ، وزيد بن أسلَمَ. ولعلَّ هذا يرجعُ إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيدٍ: أنه اسم من أسماء السور، فإنَّ كلَّ سورةٍ يُطلَقُ عليها اسمُ القرآن، فإنه يَبعُدُ أن يكون الٓمٓصٓ اسماً للقرآن كله، لأن المتبادر إلى فهم سامع مَن يقول: قرأت الٓمٓصٓ، إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف، لا لمجموع القرآن. والله أعلم.

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى، ، فقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى. وكذلك قال سالم بن عبد الله، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، وقال شعبة عن السدي: بلغني أن ابن عباس قال: الٓمٓ اسم من أسماء الله الأعظم، هكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شعبة.

ورواه ابن جرير عن بندار، عن ابن مهدي، عن شعبة، قال: سألت السدي عن حمٓ وطسٓ والٓمٓ، فقال: قال ابن عباس: هي اسم الله الأعظم.

وقال ابن جرير: وحدَّثنا محمد بن المثنى، حدَّثنا أبو النعمان، حدَّثنا شعبة، عن إسماعيل السدي، عن مُرَّة الهمداني، قال: قال عبد الله. فذكر نحوه، (وحكى مثله عن عليٍّ وابن عبّاسٍ)[1].

وقال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو قَسَم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث ابن عُلَيّة، عن خالد الحذّاء، عن عكرمة أنه قال: الٓمٓ، قَسَم.

ورويا أيضاً من حديث شريك بن[2] عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضّحَى، عن ابن عباس: الٓمٓ، قال: أنا الله أعلم.

وكذا قال سعيد بن جبير. وقال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرّة الهمذاني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ: (الٓمٓ) قال: أما (الٓمٓ) فهي حروف استُفْتِحَتْ من حروف هجاء أسماء الله تعالى.

وقال أبو جعفر الرّازيُّ، عن الرّبيع بن أنس، عن أبي العاليةِ في قوله تعالى: الٓمٓ، قال: هذه الأحرفُ الثلاثةُ من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرفُ إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم. قال عيسى ابن مريم عليه السلام، وعَجِب، فقال: وَأَعْجَبَ أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون به، فالألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، فالألف آلاء الله، واللام لطف الله، والميم مجد الله، والألف سنة، واللام ثلاثون سنة، والميم أربعون.

هذا لفظ ابن أبي حاتم. ونحوه رواه ابن جرير، ثم شرع يوجِّه كل واحد من هذه الأقوال ويوفِّق بينها، وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر، وأن الجمع ممكن؛ فهي أسماء للسور، ومن أسماء الله تعالى

---

(١) عن الأصل.

(٢) في الأصل: شريك عن عبد الله. وهو خطأ، وشريك هو ابن عبد الله بن أبي شريك، وانظر الطبري ١/٨٨.

يفتتح بها السور، فكل حرف منها دَلّ على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، كما افتتح سوراً كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه، قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله، وعلى صفة من صفاته، وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الرّبيع بن أنس عن أبي العالية، لأن الكلمة الواحدة تطلق على معانٍ كثيرة، كلفظة الأُمة فإنها تطلق ويراد به الدين، كقوله تعالى: ﴿ إنّا وجدنا آباءنا على أُمة ﴾. وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله، كقوله: ﴿ إن إبراهيم كان أُمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله: ﴿ وجد عليه أُمة من الناس يسقون ﴾ وقوله: ﴿ ولقد بعثنا في كل أُمة رسولاً ﴾، وتطلق ويراد بها الحين من الدهر، كقوله: ﴿ وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أُمة ﴾ أي: بعد حين على أصح القولين، قال فكذلك هذا.

هذا حاصل كلامه موجهاً، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية، فإن أبا العالية زعم أن الحرف دلّ على هذا، وعلى هذا، وعلى هذا معاً، ولفظة الأُمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح، إنما دلّ في القرآن في كل موطن على معنىً واحد دلّ عليه سياق الكلام، فأما حمله على جميع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول، ليس هذا موضع البحث فيها، والله أعلم؛ ثم إن لفظ الأُمة يدل على كل معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها، وليس فيها إجماع حتى يحكم به.

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة، فإن في السياق ما يدل على حذف بخلاف هذا، كما قال الشاعر:

قلنا لها: قِفِي لنا. قالت(٢): قَافْ لا تَحْسَبي أَنّا نَسينا الإيجافْ

تعني: وقفت. وقال الآخر(٣):

ما للظليم؟ عَالَ، كَيْفَ لا يا ينقَدُّ عن جِلْدِه إذا يا

قال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول: إذا يفعل كذا وكذا، فاكتفى بالياء من يفعل، وقال الآخر(٤):

بالخيرِ خيراتٍ وَإنْ شَراً فا ولا أُريدُ الشرَّ إلا أن تا

يقول: وإن شرّاً فشر، ولا أُريد الشرّ إلا أن تشاء، فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام، والله أعلم.

(٥-(قال القرطبي(٦): في الحديث: مَن أعان على قتل مسلم بشطر كلمة. . الحديث، قال شقيق هو أن يقول في اقتل: اق)-٥).

(١) الوليد بن عقبة، انظر الرجز في المحتسب ٢/٢٠٤، والخصائص ١/٣٠، ٨٠، ٢٤٦.

(٢) في الأصل: فقالت.

(٣) هذا الرجز أنشده قطرب، كما في شرح شواهد الشافية ٢٦٧. وانظره في تفسير الطبري ١/٩٠. وفي النسخ: ما للظليم غال، بالغين المعجمة. وعال: دعاء عليه، من قولهم: عال عولة، أي ثكلته أمه.

(٤) هو لقيم بن أوس، والرجز من شواهد الكتاب ٢/٦٢.

(٥) عن الأصل.

(٦) تفسير القرطبي ١/١٥٦.

وقال خُصَيف، عن مجاهد، أنه قال: فواتح السور كلها (قٓ وصٓ وحمٓ وطسٓمٓ والٓر) وغير ذلك هجاء موضوع. وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها، التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب في: ا ب ت ث، أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير.

قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي: ا ل م ص ر ك، هـ ي ع ط س ح ق ن، يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك، وبيان ذلك من صناعة التصريف.

(1)-(قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعةَ عَشَرَ مشتملةٌ على أنصاف أجناس الحروف، يعني من المهموسة والمجهورة، ومن الرِّخوة والشديدةِ، ومن المُطْبَقَة والمفتوحةِ، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلةِ وقد سردها منفصلة ثم قال: فسبحان الذي دَقَّتْ في كل شيء حكمَتُه، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون[2] بالمذكورة منها، وقد علمت أنَّ معظم الشيء وجُلَّه يُنَزَّل منزلَة كُلِّه)-(1).

ومن ههنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلاماً، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدىً، ومَن قال من الجهلة: إنَّه في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيراً، فتعيّن أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صحّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: (آمنّا به كلٌ من عند ربنا).

ولم يجمع العلماء فيها على شَيْء معين، وإنما اختلفوا، فمَن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام.

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور، ما هي؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها. فقال بعضهم: إنما ذكرت ليُعرف بها أوائل السور. حكاه ابن جرير، وهذا ضعيف؛ لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه بالبسملة تلاوة وكتابة.

وقال آخرون: بل ابتدىء بها لتُفْتَحَ لاستماعها أسماعُ المشركين ـ إذ تواصَوا بالإعراض عن القرآن ـ حتى إذا استمعوا له تُلِي عليهم المؤلَّفُ منه. حكاه ابن جرير أيضاً، وهو ضعيف أيضاً؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك أيضاً لانبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة وآل عمران مدنيتان ليستا خطاباً للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه.

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه (تركَّبَ)[2] من هذه الحروف المقطّعة التي يتخاطبون بها (1)-(وقد حكى هذا المذهب فخر الدين الرازي في تفسيره عن المبرد وجَمْع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفرّاء وقطرب نحو هذا وقرره الزمخشري في كشّافه، ونصره أتَمّ نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام أبو العباس

---

(1) عن الأصل.

(2) كذا، وعبارة الزمخشري ١/ ٢٤ : «ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس مكثورة بالمذكورة منها. . .».

أحمد بن تيمية، وشيخنا الحافظ الجهبذُ أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية، قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كُرِّرت ليكون أبلغ من التحدّي والتنكيت، كما كُرِّرت قصص كثيرة وكُرِّر التحدّي بالتصريح في أماكن، قال: وجاء منها على حرف واحد كقوله: (صٓ)، (نٓ)، (قٓ)، وحرفين مثل: (حمٓ)، وثلاثة مثل: (الٓمٓ)، وأربعة مثل (الٓمٓر)، (الٓمٓصٓ)، وخمسة مثل (كٓهيعٓصٓ)، (حمٓ عٓسٓقٓ)، لأن أساليب كلامهم على أن من الكلمات ما هو على حرف، وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة، لا أكثر من ذلك)ـ[١].

قلت: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بُدَّ أن يذكر فيها الانتصارُ للقرآن وبيانُ إعجازه وعظمته، وهذا معلومٌ بالاستقراء، وهو الواقعُ في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى: ﴿ الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾. ﴿الٓمٓ. الله لا إله إلا هو الحيّ القيّوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه ﴾. ﴿ الٓمٓصٓ. كتاب أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾. ﴿ الٓر. كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النور بإذن ربهم ﴾. ﴿ الٓمٓ. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾. ﴿ حمٓ. تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾. ﴿ حمٓ. عٓسٓقٓ؛ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالّة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر. والله أعلم.

وأما مَن زَعَم أنها دالَّة على معرفة المُدَد، وأنه يُستخرَجُ من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادّعى ما ليس له، وطار في غير مطاره، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدلّ على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته. وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار، صاحب المغازي.

حدَّثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رئاب، قال: مرّ أبو ياسر بن أخطب، في رجال من يهود، برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ فأتى أخاه حُيي بن أخطبَ في رجال من اليهود، فقال: تعلمون ـ والله ـ لقد سَمِعتُ محمداً يتلو فيما أنزل الله عليه: ﴿ الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم. قال: فمشى حُيَيُّ بن أخطبَ في أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فقالوا: يا محمد، ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك: ﴿ الٓمٓ. ذلك الكتاب ﴾؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بلى». فقالوا: جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ فقال: «نعم». قالوا: قد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه[١] بيَّن لنبيٍّ منهم ما مدةُ ملكه وما أجلُ[٢] أمته غيرك. فقال حُيي بن أخطب ـ وأقبل على مَن كان معه فقال لهم ـ: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين نبي، إنما مدة ملكه وأجلُ أُمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ فقال: «نعم»، قال: ما ذاك؟ قال: «الٓمٓصٓ»، قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة. هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: «نعم». قال: ما ذاك؟ قال: «الٓر». قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان. فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم»، قال: ماذا؟ قال: «الٓمٓر». قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتان، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم

(١) في الأصل: «ما نعلمهم بين نبي».
(٢) في سيرة ابن هشام: «وما أُكُل».

كثيراً. ثم قال: قوموا عنه. ثم قال أبو ياسر لأخيه حُيـي بن أخطب، ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم؟ لعلَّه قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون[1] سنةً: فقالوا: لقد تشابه علينا أمره. فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمُّ الكتاب وأُخر متشابهات ﴾[2].

فهذا مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممّن لا يحتجُّ بما انفرد به، ثم كان مقتضى هذا المسلك - إن كان صحيحاً - أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت مع التكرر فأتمّ وأعظم، والله أعلم. [3-](قال الطبراني: حدَّثنا فضيل بن محمد، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا أبو العُمَيس، سمعت الشعبي يقول: مَن قرأ عشر آيات من البقرة في بيت لم يدخله شيطان تلك الليلة حتى يُصبح، أربعاً من أولها، وآية الكرسي، واثنتين بعدها، وخواتيمها)-[3].

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾

قال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: ﴿ذلك الكتاب﴾: هذا الكتابُ: وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد ابن جُبَير، والسدِّي، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وابن جُرَيج: أن ذلك بمعنى هذا. والعربُ تُقارِضُ بين هذين الاسمين [من أسماء] الإشارة، فيستعملون كلاًّ منهما مكان الآخر، وهذا معروفٌ في كلامِهم.

[3-](وقد حكاه البخاري[4] عن معمر بن المثنى أبي عُبيدَةَ. وقال الزمخشري: (ذلك) إشارة إلى الٓمٓ، كما قال: (لا فارضٌ ولا بِكْرٌ عَوانٌ بين ذلك)، وقال: (ذٰلكم حكم الله يحكم بينكم) وقال: (ذٰلكم الله)، وأمثال ذلك مما أُشير به إلى ما تقدم ذكره، والله أعلم. وقد ذهب بعض المفسرين مما حكاه القرطبي[4] وغيره أن (ذلك) إشارة إلى القرآن الذي وعده الرسول بإنزاله عليه، أو التوراة أو الإنجيل أو نحو ذلك، من أقوال عشرة، وقد ضعّف هذا المذهب كثيرون، والله أعلم)-[3].

و(الكتاب) القرآن. ومَن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، كما حكاه ابن جرير وغيره، فقد أبعد النُّجعَة وأغرَق في النزع، وتكلّف ما لا علم له به.

والرَّيب: الشك، قال السدِّي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مُرّة الهَمْدانيّ عن ابن مسعود، وعن أُناس من أصحاب رسول الله - ﷺ -: (لا ريب فيه) لا شك فيه.

وقاله أبو الدرداء، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، ونافع مولى ابن عمر، وعطاء، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، والسدِّي، وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد. وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافاً.

[3-](وقد يستعمل الريب في التُّهمة، قال جميلٌ:

بثينـةُ قـالت: يـا جميـل، أربتني فقلتُ: كلانا [يا][5] بُثَيْنُ مُريبُ

(١) في الأصل: وثلاثين.
(٢) سيرة ابن هشام ١/٥٤٥ - ٥٤٦.
(٣) عن الأصل.
(٤) انظر تفسير القرطبي ١/١٥٧.
(٥) سقط من الأصل.

واستعمل أيضاً في الحاجة كما قال بعضهم(١):

قضينا من تهامة كلَّ ريبٍ وخيبرَ ثم أجْمَمْنا السيوفا).

ومعنى الكلام أن هذا الكتاب - وهو القرآن - لا شك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى في السجدة: ﴿ الٓمٓ. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾. (٢-(وقال بعضهم: هذا خبرٌ، ومعناه النهي، أي: لا ترتابوا فيه)-٢).

ومن القرّاء مَن يقف على قوله: ﴿ لا ريب ﴾. ويبتدىء بقوله: ﴿ فيه هدىً للمتقين ﴾ والوقف على قوله تعالى: ﴿ لا ريب فيه ﴾ أولى للآية التي ذكرنا، ولأنه يصير قوله: ﴿ هدىً ﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: فيه هدىً.

وهدىً: يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت، ومنصوباً على الحال.

وخصّت الهداية للمتَّقين كما قال: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾. ﴿ وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ إلى غير ذلك من الآيات [الدّالـة] على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن، لأنه هو في نفسه هدىً، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: ﴿ يأيها الناس، قد جاءتكم موعظة من ربكم، وشفاء لما في الصدور، وهدىً ورحمة للمؤمنين ﴾.

وقد قال السدِّي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرّة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - ﴿ هدىً للمتَّقين ﴾ يعني: نوراً للمتَّقين.

(وقال الشعبي: هدىً من الضلالة. وقال سعيد بن جبير: تبيان للمتَّقين. وكل ذلك صحيح.

وقال السدِّي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله - ﷺ -: ﴿ هدىً للمتَّقين ﴾ قال: هم المؤمنـون.

وقال أبو رَوْق، عن الضحاك، عن ابن عباس ﴿ للمتَّقين ﴾ قال: المؤمنين الذين ﴿ يتَّقون ﴾(٣) الشرك بي، ويعملون بطاعتي.

وقال سفيان الثوري، عن رجل، عن الحسن البصري، قوله: ﴿ للمتَّقين ﴾ قال: اتَّقوا ما حرّم الله عليهم، وأدّوا ما افترض عليهم.

وقال محمد بن إسحق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ للمتَّقين ﴾: أي الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به.

وقال أبو بكر بن عياش: سألني الأعمش عن المتَّقين، قال: فأجبته. فقال: سَلْ عنها الكلبي، فسألته فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم. قال: فرجعت إلى الأعمش، فقال: نُرَى أنه كذلك. ولم ينكره.

---

(١) هو كعب بن مالك، انظر ديوانه ٢٣٤.
(٢) عن الأصل.
(٣) في الأصل: يتعوّذون. وانظر الأثر في تفسير الطبري ١/١٠٠.

وقال قتادة ﴿ للمتَّقين ﴾: هم الذين نَعَتهم الله بقوله: ﴿ الذين يُؤمنون بالغيبِ ويُقيمون الصلاة ﴾. الآية والتي بعدها.

واختار ابن جرير: أن الآية تَعُمّ ذلك كله، وهو كما قال.

وقد روى الترمذي وابن ماجه، من رواية أبي عَقِيل عبدَ الله بن عَقِيل، عن عبد الله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس، عن عطية السعدي، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس». ثم قال الترمذي: حسن غريب(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن عمران، حدَّثنا إسحق بن سليمان ـ يعني الرازي ـ عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون أبي حمزة، قال: كنتُ جالساً عند أبي وائل، فَدَخل علينا رجل، يقال له: أبو عفيف، من أصحابِ معاذ، فقال له شقيقُ بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدِّثُنا عن معاذِ بن جَبَلٍ؟ قال: بلى سمعتُه يقول: يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فينادي منادٍ: أين المتّقون؟ فيقومون في كَنَفٍ من الرّحمن لا يحتجب الله عنهم ولا يستتر. قلت: من المتَّقون؟ قال: قوم اتَّقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة، فيمرّون إلى الجنة.

(٢-ويُطلَقُ الهدى ويراد به (ما يَنْزل)(٣) القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عزّ وجل، قال الله تعالى: ﴿ إنك لا تهدي مَن أحببت ﴾، وقال: ﴿ ليس عليك هداهم ﴾، وقال: ﴿ مَن يُضْلِلِ الله فلا هادي له ﴾،وقال: ﴿مَن يهد الله فهو المهتد، ومَن يُضْلِلْ فلن تجد له وَليّاً مرشداً ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

ويطلق ويُراد به بيانُ الحقِّ وتوضيحُه، والدَّلالةُ عليه، والإرشادُ إليه، قال الله تعالى: ﴿ وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم ﴾، وقال: ﴿ إنما أنتَ منذرٌ ولكل قوم هادٍ ﴾، وقال: ﴿ وأما ثمودَ فهديناهم فاستحبّوا العَمَى على الهدى ﴾، وقال: ﴿ وهديناه النجدين ﴾ على تفسير مَن قال: المراد بهما الخير والشرّ. وهو الأرجح، والله أعلم.

وأصلُ التقوى التوقي مما يكره، لأنّ أصلها وقوىٰ من الوقاية، قال النابغة(٤):

سَقَط النصيفُ ولم تـرد إسقـاطـه ... فتنـاولـتـه واتـقـتـنـا بـالـيـد

وقال آخر(٥):

فـألقَتْ قِنـاعـاً دونـه الشمسُ واتَّقَتْ ... بـأحسنِ مَـوْصُـولَين كفٌ ومِعْصَمِ

وقد قيل: إنّ عمر بن(٦) الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سأل أُبيّ بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوكٍ؟ قال: بلى. قال: فما عملت؟ قال: شمّرْتُ واجتهدتُ. قال: فذلك. التقوى.

---

(١) تحفة الأحوذي، أبواب القيامة ١٤٧/٧، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٠٩.

(٢) عن الأصل.

(٣) مكانه بياض في الأصل. وما أثبت عن إحدى النسخ، وفي طبعة سابقة: «ويراد به ما يقرأ في القلب».

(٤) من قصيدته التي مطلعها:

أمِنَ آل ميـة رائـح أو مُغْتـدِ ... عجـلان ذا زادٍ وغيـر مـزوّدِ

(٥) البيت في تفسير القرطبي ١٦١/١.

(٦) انظر تفسير القرطبي ١٦١/١ ـ ١٦٢.

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خَلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها، فهو التُّقى
واصنع كماشٍ فوق أر ضِ الشوك يحذَرُ ما يرى
لا تحقرَنَّ صَغِيرةً إنّ الجبال من الحَصَى

وأنشد أبو الدرداء يوماً:

يريد المرءُ أن يُعطى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

وفي سنن ابن ماجه[١]، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً له من زوجةٍ صالحة، إن نظر إليها سرَّته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»[٢]

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾

قال أبو جَعفرٍ الرازيُّ، عن العلاء بن المسيب بن رافع، عن أبي إسحق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: الإيمانُ التصديقُ.

وقال عليّ بن أبي طلحة وغيرُه، عن ابن عباس، «يؤمنون»: يُصَدِّقون.

وقال مَعْمَر، عن الزُّهري: الإيمان العمل.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: «يؤمنون»: يخشون.

قال ابنُ جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعةٌ للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل.

(قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين ﴾ وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال؛ كقوله: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل[٢] قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عُبيد وغير واحد إجماعاً، أن الإيمان قول وعملٍ يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث وأفردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنّة.

ومنهم مَن فسّره بالخشية، كقوله تعالى: ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ وقوله: ﴿ مَن خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ والخشية خلاصة الإيمان والعلم، كما قال تعالى: ﴿ إنما يخشى الله من عباده

(١) سنن ابن ماجه، كتاب النكاح ٥٩٦.
(٢) في الأصل: قيل.

العلماء﴾. (١)-(وقال بعضهم: الذين يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة، وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزءُون﴾، وقال: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا: نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾، فعلى هذا يكون قوله: ﴿بالغيب﴾ حالاً، أي يؤمنون في حال كونهم غُيَّباً عن الناس)-(١).

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد:

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبيَ العالية، في قوله: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ قال: يُؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنتَه ونارِه ولقائِه، ويؤمنُون بالحياةِ بعدَ الموتِ وبالبعثِ، فهذا غيبٌ كله.

وكذا قال قتادة بن دعامة.

وقال السدّي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرّة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي -ﷺ-: أما الغَيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة، وأمر النار، وما ذكر في القرآن.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بالغيب﴾ قال: بما جاء منه، يعني: مِنَ الله تعالى.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زِرٍّ، قال: (الغيب) القرآن.

وقال عطاء بن أبي رباح: مَن آمن بالله فقد آمن بالغيب.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ قال: بغيب الإسلام.

وقال زيد بن أسلم: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ قال: بالقدر. فكل هذه متقاربة في معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به.

وقال سعيد بن منصور: حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن عبد الرحمن بن يزيد، قال: كنّا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فذكرنا أصحَاب رسول الله - ﷺ - وما سَبَقوا به، قال: فقال عبد الله: إن أمر محمد - ﷺ - كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحدٌ قطُّ إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الٓمٓ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب﴾ إلى قوله: ﴿المفلحون﴾.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه، والحاكم في مستدركه، من طرق، عن الأعمش، به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي معنى هذا الحديثُ الذي رواه أحمد.

حدَّثنا أبو المغيرة، أخبرنا الأوزاعي، حدَّثني أسِيد بن عبد الرحمن، عن خالد بن دُرَيك، عن ابن مُحَيْرِيز، قال: قلت لأبي جُمعةَ: حَدِّثنا حديثاً سَمِعته من رسول الله - ﷺ - قال: نعم، أحدِّثك حديثاً جيداً: تَغَدَّينا(٢) مع رسول الله - ﷺ - ومعنا أبو عبيدةَ بن الجَرّاح، فقال: يا رسولَ الله، هل أحدٌ خيرٌ منّا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم، قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»(٣).

---

(١) عن الأصل.
(٢) في الأصل: قعدنا.
(٣) مسند الإمام أحمد ١٠٦/٤، وانظر أسد الغابة ٥٢/٦.

وطريق أخرى. قال أبو بكر بن مَرْدُوَيه في تفسيره:

حدَّثنا عبد الله بن جعفر، حدَّثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثنا معاوية بن صالح، عن صالح بن جُبَير، قال: قَدِمَ علينا أبو جمعة الأنصاري، صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ ببيت المقدس، ليصلي فيه، ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة، فلما انصرف خرجنا نشيِّعه، فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزة وحقاً؛ أُحدِّثكم بحديث سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ قلنا: هات رحمك الله. قال: كنّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله، هل من قوم أعظم أجراً منّا؟ آمنا بك واتبعناك، قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول اللهِ بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً، مرتين.

ثم رواه من حديث ضمرة بن ربيعة، عن مرزوق بن نافع، عن صالح بن جُبَير، عن أبي جمعة، بنحوه.

وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوِجَادة[1] التي اختلف فيها أهل الحديث، كما قررته في أول شرح البخاري، لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحيثية لا مطلقاً.

وكذا الحديث الآخر الذي رواه الحسن بن عرفة العبدي.

حدَّثنا إسماعيل بن عياش الحمصي، عن المغيرة بن قيس التميمي، عن عَمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جدِّه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أيُّ الخلق أعجبُ إليكم إيماناً»؟ قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم»؟ قالوا: فالنبيّون. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم»؟ قالوا: فنحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم»؟ قال: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا إنَّ أعجبَ الخلقِ إليّ إيماناً لَقَوْمٌ يكونون من بعدكم يجدونَ صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها».

قال أبو حاتم الرازي: المغيرةُ بن قيس البصري منكرُ الحديث.

قلت: ولكن قد روى أبو يعلى في مسنده، وابن مَرْدُوَيه في تفسيره، والحاكمُ في مستدرَكِهِ، من حديث محمد بن حُمَيد ـ وفيه ضَعفٌ عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عُمَر، عن النبي ـ ﷺ ـ بمثله أو نحوِه. وقال الحاكم: صحيحُ الإسناد، ولم يخرجاه[2]. وقد رُوِي نحوُه عن أنس بن مالك مَرفوعاً، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن محمد المُسْنَدِيُّ، حدَّثنا إسحاق بن إدريس، أخبرني إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصاري، أخبرني جعفر بن محمود، عن جدّته نُوَيْلة بنت أسلم: قالت: صليتُ الظهرَ أو العصرَ في مسجدِ بني حارثة، فاستقبَلنا مسجد إيلياء، فَصلَّينا سجدتين، ثم جاءنا مَن يخبرنا: أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قد استقبل البيت الحرام، فتحوّل النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلّينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون البيت الحرام.

قال إبراهيم: فحدَّثني رجال من بني حارثة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ حين بلغه ذلك قال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب».

هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه.

---

(١) الوجادة: ما أُخذ من العلم من صحيفة من غير سماع ولا إجازة.

(٢) المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر فضائل الأمة بعد الصحابة والتابعين ٤/ ٨٥ ـ ٨٦.

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

قال ابن عباس: ﴿ ويُقِيمون الصلاةَ ﴾ أي: يُقِيمون الصلاةَ بفروضها.

وقال الضحّاك، عن ابن عباس، إقامةُ الصلاة إتمامُ الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع، والإقبال عليها فيها.

وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها، والتشهّد والصلاة على النبي ـ ﷺ ـ، فهذا إقامتها.

وقال علي بن أبي طلحة، وغيره عن ابن عباس، ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ قال: زكاة أموالهم.

وقال السدّي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرّة عن ابن مسعود، وعن أُناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ قال: نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة.

وقال جويبر، عن الضحّاك: كانت النفقات قُرُبات يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات: سبعُ آيات في سورة براءة، مما يذكر فيهنّ الصدقات، هنّ الناسخات المُثْبَتَات.

وقال قتادة: ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عواريّ وودائع عندك يا ابن آدم، يوشك أن تفارقها.

واختار ابنُ جرير أنّ الآية عامة في الزكاة والنفقات، فإنه قال: وأَولى التأويلاتِ وأحقُّها بصفة القوم: أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مُؤَدّين، زكاةً كان ذلك أو نَفَقَة مَنْ لزمته نفقتُه، من أهلٍ وعيالٍ وغيرهم، ممّن تجب عليهم نفقته بالقرابة والمِلْكِ وغير ذلك، لأن الله تعالى عَمَّ وصفهم ومدحهم بذلك، وكلٌّ من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه(١).

قلتُ: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال: فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكّل عليه؛ والإنفاق هو الإحسانُ إلى المخلوقين بالنفع المتعدّى إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكلٌّ من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت» والأحاديث في هذا كثيرة.

وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء، قال الأعشى(٢):

لها حارس لا يبرحُ الدهرَ بَيْتَها ... وإن ذُبحَتْ صَلّى عليها وَزَمْزَما

---

(١) تفسير الطبري ١/١٠٥.

(٢) من قصيدته التي مطلعها:

ألَمّ خيال من قُتَيلة بعدما ... وَهى حبلُها من حبلنا فتصرّما

وقال أيضاً(١):

وقـابـلـهـا الـريـح فـي دَنّـهـا وصـلّى عـلى دَنـهـا وارتـسـم

أنشدهما ابن جرير مستشهداً على ذلك.

وقال الآخر وهو الأعشى أيضاً(٢):

تَقُـولُ بِنْتِي وَقَـد قَـرَّبتُ مُرْتَحِـلاً يا رب جنب أبي الأوصابَ والوَجَعَا

عَلَيـكِ مِثلُ الـذي صَلَّيتِ فاغتَمِضِي نـوماً فـإنَّ لِجَنب المرءِ مُضْـطَجَعَـا

يقول: عليك من الدعاء مثل الذي دعيت(٣) لي. وهذا ظاهر، ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشهورة.

وقال ابن جرير: وإن الصلاة المفروضة سمِّيت صلاة، لأن المصلّي يتعرّض لاستنجاح طَلِبَته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه فيها من حاجته.

(٤-(وقيل: هي مشتقة من الصَّلَوين إذا تحرّكا في الصلاة عند الركوع، وهما عرقان ممتدان من الظهر حتى يكتنفا عَجَب الذَّنب، ومنه سُمِّي المصلّي، وهو الثاني للسابق في حلبة الخيل. وفيه نظر. وقيل: هي مشتقة من المصلّي وهو الملازمة للشيء، من قوله: ﴿ لا يصلاها ﴾، أي: يلزمها ويدوم فيها إلا الأشقى. وقيل: مشتقة من تصلية الخشبة في النار ليقوَّم، كما أن المصلّي يقوِّم عِوَجه بالصلاة، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر، والله أعلم)-٤).

وأما الزكاة فسيأتي الكلام عليها في موضعه، إن شاء الله.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾

قال ابن عباس ﴿ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ﴾ أي: يصدقونك بما جئت به من الله، وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين، لا يفرِّقون بينهم، ولا يَجْحدون ما جاءوهم به من ربهم ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾، أي: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان.

وإنما سُمِّيت الآخرةُ لأنها بعد الدنيا. وقد اختلَفَ المفسِّرون في الموصوفين هاهنا: هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ومَن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير.

أحدها: أن الموصوفين أوّلاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم، قاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة.

---

(١) من قصيدته التي مطلعها:

أتـهـجُـرُ غـانـيـةً أم تُـلِمّ أم الـحـبـل واوٍ بـهـا منـجـذم

(٢) من قصيدته التي مطلعها:

بـانـت سعـاد وأمسى حبلها انقـطـعـا واحتلّت الغَمْـرَ فـالجُدَّين فـالفَـرَعَـا

(٣) يقال في العربية: دعوت ودعيت.

(٤) عن الأصل.

والثاني: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات، كما قال تعالى: ﴿ سبِّح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوّى. والذي قدّر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى ﴾ وكما قال الشاعر[١]:

إلى الملك القَرْمِ وابن الهُمام وليثِ الكتيبة في المُزْدَحَم

فعطف الصفات بعضها على بعض، والموصوف واحد.

والثالث: أنَّ الموصوفين أولاً مؤمنو العَرَب، والموصوفون ثانياً بقوله: ﴿ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ﴾ الآية مؤمنو أهل الكتاب، نقله السدِّي في تفسيره، عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة، واختاره ابن جرير[٢]، ويُسْتَشْهَد لما قال بقوله تعالى: ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله ﴾ الآية، وبقوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنّا كنّا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وثبت في الصحيحين، من حديث الشعبي عن أبي بُردَةَ عن أبي موسى: أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: ثلاثةٌ يؤتَون أجرَهم مرَّتين، رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيِّه، وآمن بي، ورجلٌ مملوك أَدَّى حَقَّ الله وحَقَّ مواليه، ورجلٌ أدَّب جاريته فأحسنَ تأديبها، ثم أعتقها وتَزَوَّجها[٣].

وأما ابنُ جرير فما استشهد على صِحَّةِ ما قال إلا بمناسبةٍ، وهي أن الله تعالى وصف في أول هذه السورة المؤمنين والكافرين، فكما أنه صَنَّف الكافرين إلى صنفَين: منافقٍ وكافرٍ، فكذلك المؤمنون صنَّفهم إلى عربي وكتابي[٢].

قلت: والظاهر قولُ مجاهد ـ فيما رواه الثوري، عن رجل، عن مجاهد ـ ورواه غير واحد، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي، وكتابي من إنسي وجنّي، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصحُّ الإيمان بالغيب وإقامَ الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ وما جاء به مَنْ قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصحُّ إلا بذاك، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿ يأيها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أُنزل من قبل ﴾ الآية. وقال: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب، إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ يأيها الذين أُوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم ﴾ وقال تعالى: ﴿ قل: يا أهل الكتاب، لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربكم ﴾ وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك. فقال تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ الآية. وقال: ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرِّقوا بين أحد منهم أولئك سوف نؤتيهم أُجورهم ﴾ وغير ذلك من الآيات الدّالة على أمْر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه. لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم مفصّلاً، فإذا دخلوا في

---

(١) البيت في الإنصاف ٤٦٩، والخزانة ٤٥١/١. وهو مجهول القائل.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٠٢/١ ـ ١٠٥.

(٣) فتح الباري، كتاب العلم ١٩٠/١، ومسلم، كتاب الإيمان ١٣٥.

الإسلام وآمنوا به مفصّلاً كان لهم على ذلك الأجْر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملاً، كما جاء في الصحيح(١): (إذا حَدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذِّبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم) ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بُعِثَ به محمد ـ ﷺ ـ أتَمّ وأكملَ وأعمّ وأشملَ من إيمان مَن دخل منهم في الإسلام، فهم وإن حصل لهم أجْران من تلك الحيثية، فغيرهم يحصل له من التصديق ما يُنِيف ثوابه على الأجْرين اللذين حصلا لهم، والله أعلم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾

يقول الله تعالى: ﴿ أولئك ﴾: أي المتّصفون بما تقدم: من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أُنزل إلى الرسول ومَنْ قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات.

﴿ على هدىً ﴾: أي نور وبيان وبصيرة من الله تعالى: ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾: أي في الدنيا والآخرة.

وقال محمد بن إسحق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ أولئك على هدىً من ربهم ﴾: أي على نور من ربهم، واستقامة على ما جاءهم، ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾: أي الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شرّ ما منه هربوا.

وقال ابنُ جَرير: وأما معنى قوله: ﴿ أولئك على هدىً من ربهم ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم، وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم وتأويل قوله: ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾: أي المُنجِحُون المدرِكُون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسُلِه، من الفوز بالثواب، والخلود في الجنات، والنجاة مما أعدّ الله لأعدائه من العقاب(٢).

وقد حَكَى ابنُ جَرير قولاً عن بعضهم أنه أعاد اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ إلى مؤمني أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى: ﴿ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك ﴾ الآية، على ما تقدم من الخلاف؛ قال: وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك ﴾ منقطعاً مما قبله، وأن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾. واختار أنه عائد إلى جميع مَن تقدّم ذكره من مؤمني العرب وأهل الكتاب، لما رواه السدِّي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مُرّة الهمداني عن ابن مسعود وعن أُناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: أما الذين يؤمنون بالغيب، فهم المؤمنون من العرب، والذين يؤمنون بما أُنزل إليك [وما أُنزل من قبلك] هم المؤمنون من أهل الكتاب، ثم جمع الفريقين فقال: ﴿ أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ وقد تقدّم من الترجيح أن ذلك صفة للمؤمنين عامة، والإشارة عائدة عليهم. والله أعلم، وقد نقل هذا عن مجاهد، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، رحمهم الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري، حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابنُ

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٣٦/٤، والبخاري، كتاب الاعتصام ١٩٣/٩.
(٢) تفسير الطبري ١٠٧/١ ـ ١٠٨.

لَهيعة، حدَّثني عُبَيد الله[1] بن المغيرة، عن أبي الهيثم[2] واسمه سليمان [بن عَمْرو][3] بن عبدالله عن عبدالله بن عمرو، عن النبي - ﷺ - وقيل له: يا رسول الله، إنّا نقرأ من القرآن ونرجو، ونقرأ من القرآن فنكادُ أن نيأسَ، أو كما قال. قال: فقال: أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله. قال: ﴿ الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ المفلحون ﴾ هؤلاء أهل الجنة. قالوا: إنّا نرجو أن نكون هؤلاء. ثم قال: ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ﴾ إلى قوله: ﴿ عظيم ﴾ هؤلاء أهل النار. قالوا: لسنا هم يا رسول الله. قال: «أجل».

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ إنّ الذين كفروا ﴾ أي: غَطُّوا الحق وستروه، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وقال في حق المعاندين من أهل الكتاب: ﴿ ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾. . . الآية. أي[4]: إنه مَن كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسعِدَ له، ومَن أضلَّه فلا هادي له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلِّغهم الرسالة، فمَن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومَن تولى فلا تحزن عليهم [فلا يهمنَّك ذلك][5]؛ ﴿ فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ و﴿ إنَّما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ قال: كان رسول الله - ﷺ - يحرصُ أن يؤمن جميع النَّاس ويُتَابِعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا مَن سبق له من الله السعادةُ في الذكر الأوّل، ولا يضلّ إلا مَن سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأوّل.

وقال محمد بن إسحاق: حدَّثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي: بما أُنزل إليك، وإن قالوا: إنّا قد آمنّا بما جاءنا قبلك ﴿ سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾: أي إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك، وجحدوا ما أُخذ عليهم من الميثاق، وقد كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً، وقد كفروا بما عندهم من علمك.

وقال أبو جعفر الرّازي، عن الرّبيع بن أنس، عن أبي العالية، قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار. جهنّم يصلونها ﴾.

والمعنى الذي ذكرناه أوّلاً، وهو المروي عن ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة، أظهر، ويفسر ببقية الآيات التي في معناها، والله أعلم.

---

(١) في الأصل: عبد الله. وهو خطأ، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٣٣٣/٥.
(٢) في الأصل: أبي القاسم. وهو خطأ أيضاً، انظر تهذيب التهذيب ٢١٢/١٤ - ٢١٣.
(٣) عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٣١/٤.
(٤) في الأصل: «إلا».
(٥) سقط من الأصل.

وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً، فقال: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري، حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثني عُبيد الله[1] بن المغيرة، عن أبي الهيثم، عن عبد الله بن عمرو، قال: قيل يا رسول الله، إنَّا نقرأ من القرآن فنرجو، ونقرأ فنكاد أن نيأس، فقال: ألا أخبركم؟ ثم قال: «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ هؤلاء أهل النار. قالوا: لسنا هم يا رسول الله. قال: «أجل».

[2]-(وقوله: ﴿ لا يُؤمنون ﴾ محلُّه من الإعراب أنه جملة مؤكِّدة للتي قبلها ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ أي: هم كُفَّار في كِلا الحالين، فلهذا أكَّد ذلك بقوله: ﴿ لا يؤمنون ﴾ ويَحْتَمِل أن يكون ﴿ لا يؤمنون ﴾ خبراً لإن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ جملة معترضة)-[2].

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾

قال السدِّي: ختم الله: أي طبع الله. وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدىً ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

وقال ابن جريج: قال مجاهد ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ قال الطبع، ثبتت الذنوب على القلب فحَفَّت به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع.

قال ابن جريج: وحدَّثني عبد الله بن كَثِير، أنه سمع مجاهداً يقول: الرَّانُ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد ذلك كله.

وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يُرَون أن القلب في مثل هذه ـ يعني الكف ـ فإذا أذنب العبد ذنباً ضُمَّ منه وقال[3] بإصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضمّ، وقال بإصبع أخرى، فإذا أذنب ضُمّ، وقال بإصبع أخرى هكذا، حتى ضمّ أصابعه كلها، ثم قال: يطبع عليه بطابع.

قال مجاهد: كانوا يُرَون أن ذلك: الرين.

ورواه ابنُ جَرِيرٍ، عن أبي كُرَيب، عن وكيعٍ، عن الأعمش، عن مجاهد، بنحوه.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دُعوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلاناً لأصَمّ عن هذا الكلام، إذا امتنع عن سماعه، ورَفَعَ نفسه عن تفهمه تكبراً.

قال وهذا لا يصحّ؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم.

---

(١) في الأصل: عبد الله، عن أبي القاسم. وقد تقدم هذا الحديث بلفظه من قريب.
(٢) عن الأصل.
(٣) يطلق القول على كلّ فعل، والمراد به هنا: أشار. وقد تكرر ذلك في الحديث.

(١-(قلت: وقد أطنبَ الزمخشريّ في تقرير ما ردّه ابنُ جرير ههنا، وتأوّل الآية من خمسة أوجه كلُّها ضعيفة جداً، وما حداه على ذلك إلا اعتزاله، لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده. ولو فَهِم(٢) قوله تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾، وقوله: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾، وما أشبه ذلك من الآيات الدالّة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحالَ بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق، وهذا عَدْلٌ منه تعالى حَسَنٌ وليس بقبيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال، والله أعلم، قال القرطبي(٣): وأجمعت الأُمة على أن الله قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين، مجازاةً لكفرهم كما قال: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾، وذكر حديث تَقَلُّبِ القلوبِ، ويا مُقَلِّب القلوب ثَبِّت قلبي على دينك، وذكر حديث حذيفة(٤) الذي في الصحيح، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أشربها نُكِتَتْ فيه نكتة سوداء، وأيّ قلبٍ أنكرها نُكِتَتْ فيه نكتةٌ بيضاء حتى يصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضرّه فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسودُ مربادٌّ كالكوز مُجخِّياً(٥) لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً... الحديث)-١).

قال (ابن جرير)(١): والحق عندي في ذلك ما صَحّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ، وهو ما حدَّثنا به محمد بن بشار، حدَّثنا صفوان بن عيسى، حدَّثنا ابن عَجْلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نُكْتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونَزَع واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرّان الذي قال الله تعالى: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾.

وهذا الحديث من هذا الوجه قد رواه: الترمذي والنسائي، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، وابن ماجه عن هشام بن عمار، عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم، ثلاثتهم عن محمد بن عجلان، به(٦).

وقال الترمذي: حديث صحيح.

ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ـ ﷺ ـ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قِبَلِ الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذي ذُكر في قوله تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض(٧) ذلك عنها ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب مَن وصف الله أنه ختم على قلوبهم [وعلى سمعهم] إلا بعد فض(٧) خاتمه وحَلّه رباطه عنهما.

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾، وقوله: ﴿ وعلى

(١) عن الأصل.
(٢) في الأصل: ولونهم.
(٣) تفسير القرطبي ١٨٧/١.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣٨٦/٥.
(٥) مجخّى الكوز: أماله.
(٦) تحفة الأحوذي، أبواب التفسير ٢٥٣/٩ ـ ٢٥٤، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤١٨.
(٧) في الأصل: بنقض، نقض. وانظر تفسير الطبري ١١٣/١.

أبصارهم غشاوة﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة ـ وهي الغطاء ـ تكون على البصر، كما قال السدِّي في تفسيره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة الهَمْداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون ويقول: وجعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فلا يبصرون.

وقال ابن جرير: حدَّثني محمد بن سعد، حدَّثنا أبي، حدَّثني عمّي الحسين بن الحسن، عن أبيه، عن جدّه، عن ابن عباس: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ والغشاوة على أبصارهم.

وقال: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين ـ يعني ابن داود ـ وهو سُنَيد، حدَّثني حجّاج، وهو ابن محمد الأعور، حدَّثني ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى: ﴿فإن يشإ الله يختم على قلبك﴾، وقال: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾.

قال ابن جرير: ومَن نصب غشاوة من قوله تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ فيحتمل أنه نصبها بإضمار فعل، تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل أن يكون نصبها على الإتباع، على محل: ﴿وعلى سمعهم﴾ كقوله تعالى: ﴿وحورٍ عينٍ﴾، وقول الشاعر(١):

عَلَفْتُها تِبناً وماءً بارداً حتى شَتَتْ هَمَّالَةً عيناها

وقال الآخر(٢):

ورأيت زَوْجَكِ في الوغى متقلِّداً سيفاً ورُمْحاً

تقديره: وسقيتها ماءً بارداً، ومعتقلاً رمحاً.

لما تقدّم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كلٌ منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب مَن يتلبس بها أيضاً، فقال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتي تفصيله في موضعه، إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قَوْلُه فِعْلَهُ، وسِرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مَغِيبه.

وإنما نزلت صفات المنافقين في السّور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق. بل كان خلافه، [من الناس](٣) مَن كان يظهر الكفر مُسْتَكْرَهاً، وهو في الباطن مؤمن، فلمّا هاجر رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، وكان بها

(١) رجز ينسب إلى ذي الرمّة، وليس في ديوانه. وهو من شواهد النحو المشهورة.
(٢) عبد الله بن الزبعرى. انظر البيت في المقتضب ٥١/٢، والخصائص ٤٣١/٢، والأشموني ١٧١/٢.
(٣) سقط من الأصل.

الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلمّا قَدِمَ رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة، وأسلم مَن أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلّ مَن أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سَلام، رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً(١)، لأنّه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وَادَعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وكان رأساً في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا(٢) أمر قد تَوَجَّه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممّن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمّ وُجِد النفاق في أهل المدينة ومَن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرَهاً، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

قال محمد بن إسحاق: حدَّثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ ومن الناس مَن يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾، يعني المنافقين من الأوس والخزرج ومَن كان على أمرهم.

وكذا فسَّرها بالمنافقين أبو العالية، والحسن، وقتادة، والسدِّي.

ولهذا نبَّه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفّار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خَيْر، فقال تعالى: ﴿ ومن الناس مَن يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾: أي يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا: نشهد إنك لرسول الله ﴾: أي إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط، لا في نفس الأمر، ولهذا يؤكدون في الشهادة بإن ولام التأكيد في خبرها؛ كما أكّدوا قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وليس الأمر كذلك، كما أكْذبهم الله في شهادتهم، وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾، وبقوله: ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾، أي بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروّج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ يقول: وما يَغُرّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾.

ومن القرّاء من قرأ(٣): ﴿ وما يُخادِعُون إلا أنفسهم ﴾، وكِلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

---

(١) في الأصل: وأيضاً أنه.
(٢) يريد بالأمر الملك. وقد توجه: تولى وذهب.
(٣) قرأها من السبعة نافع وابن كثير وأبو عمرو انظر السبعة لابن مجاهد ١٣٩.

قال ابن جرير(١): فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً، وهو لا يُظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟

قيل: لا تمتنع العرب من أن تسمّي مَن أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تَقِيَّةً، لينجُوَ مما هو له خائف، مخادعاً، فكذلك المنافق، سمّي مخادعاً لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تَخلَّصَ به من القتل والسباء والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر، مستبطن، وذلك من فعلِه، وإن كان خداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا، فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يُظْهِر لها بفعله ذلك بها أنَّه يعطيها أُمنيّتها، ويُسقيها بكأس سرورها، وهو مُوردُها (به) حياض عَطَبها، ومُجَرّعها به كأس عذابها، ومُزيرها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قِبَلَ لها به، فذلك خديعته نفسه، ظناً منه ـ مع إساءته إليها في أمر معادها ـ أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ إعلاماً منه عِبادَهُ المؤمنين أنّ المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسْخَاطهم عليها ربهم بكفرهم، وشكّهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون.

وقال ابنُ أبي حاتِم: أنبأنا عليّ بن المبارك ـ فيما كتب إليّ ـ حدَّثنا زيد بن المبارك، حدَّثنا محمد بن ثور، عن ابن جريج، في قوله تعالى: ﴿ يخادعون الله ﴾ قال: يظهرون «لا إله إلاّ الله» يريدون أن يُحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك.

وقال سَعِيدٌ، عن قتادَةَ: ﴿ ومن الناس مَن يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ نعت المنافق عند كثير: خَنِعُ الأخلاق يصدّق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله، يصبح على حال ويُمسي على غيره، ويُمسي على حال ويصبح على غيره، يتكفأ تكفأ السفينة كلما هبَّت ريح هبّ معها.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قال السدِّيُّ، عن أبي مالكٍ وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرّة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ في هذه الآية: ﴿ في قلوبهم مرض ﴾، قال: شك، ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾، قال: شكاً.

وقال ابن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ قال: شك.

وكذلك قال مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وأبو العالية، والرّبيع بن أنس، وقتادة.

وعن عكرمة، وطاوس ﴿ في قلوبهم مرض ﴾: يعني: الرياء.

وقال الضحّاكُ، عن ابن عباس ﴿ في قلوبهم مرض ﴾، قال: نفاق. ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾: قال: نفاقاً، وهذا كالأول.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ قال: زادهم

(١) تفسير الطبري ١/١١٨.

رجساً، وقرأ: ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾، قال: شرّاً إلى شرِّهم وضلالة إلى ضلالتهم.

وهذا الذي قاله عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ حَسَنٌ، وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون. وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم﴾.

[قـوله]:

(١)-﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ وقرىء: (يُكَذِّبون)، وقد كانوا متّصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كَذَبَة يكذِّبون بالحق، يجمعون بين هذا وهذا.

وقد سُئِل القرطبيُّ وغيرُه من المفسِّرين عن حكمة كفِّه ـ عليه السلام ـ عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم. وذكروا أجوبةً عن ذلك، منها ما ثَبت في الصحيحين أنه قال لعمر: «أكره أن يتحدَّث العربُ أن محمداً يقتل أصحابه». ومعنى هذا خشية ألّا يقع بسبب ذلك تنفير لكثير(٢) من الأعراب عن الدخول في الإسلام، ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتلهم إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم يأخذون بمجرد ما يظهر لهم، فيقولون: إن محمداً يقتُل أصحابه.

قال القرطبي(٣): وهذا قولُ علمائنا وغيرهم، كما كان يعطي المؤلَّفة قلوبهم مع علمه بشرِّ اعتقادهم.

قال ابن عطيّة(٣): وهي طريقة أصحاب مالك، نصَّ عليه محمد بن الجهم، والقاضي إسماعيل، والأبهري، وابن الماجشون، ومنها ما قال مالك رحمه الله: إنما كفّ رسول الله ـ ﷺ ـ عن المنافقين ليسُنَّ لأمَّته أنَّ الحاكم لا يحكم بعلمه.

قال القرطبيُّ: وقد اتَّفقَ العلماء عن بَكْرَةِ أبيهم على أن القاضي لا يقتُلُ بعلمه، وإن اختلفوا في سائر الأحكام. ومنها ما قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: إنما مَنَع رسول الله ـ ﷺ ـ من قَتْلِ المنافقين ما كانوا يُظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم، لأنّ ما يُظهرونه يَجُبُّ ما قبله.

ويؤيد هذا قوله عليه السلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين، وغيرهما: «أُمِرْتُ أن أُقاتلَ الناس حَتَّى يَقُولوا لا إِلَه إِلاّ الله، فإذا قالوها عَصَموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابُهم على الله عزّ وجل». ومعنى هذا أنَّ مَن قالها جَرَت عليه أحكامُ الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدها وجب ثوابُ ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه في الآخرة جريانُ الحكم عليه في الدنيا، وكونه كان خليط أهل الإيمان: ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربَّصتم وارتبتم وغرتكم الأمانيّ حتّى جاء أمر الله ﴾ . . . الآية؛ فهم يخالطونهم من بعض المحشر فإذا حقَّت المحقوقيّة تميَّزُوا عنهم وتخلَّفوا بعدهم، وَحِيلَ بينهم وبينهم، ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم، كما نطقت بذلك الأحاديث.

ومنها ما قاله بعضهم: إنما لم يقتلهم لأنه كان لا يخاف من شَرِّهم مع وجوده ـ عليه السلام ـ بين أظهرهم يتلو عيهم آيات الله مبينات، فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعَلِمه المسلمون. قال مالك رحمه الله: المنافق في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ: الزنديق اليوم.

---

(١) عن الأصل.
(٢) في الأصل: تعير لكم من الأعراب. والمثبت عن إحدى النسخ.
(٣) تفسير القرطبي ١/١٩٩.

قلت: وقد اختلف العلماءُ في قتل الزّنديق إذا أظهر الكفر، هل يستتاب أم لا؟ أو يُفرّق بين أن يكون داعيةً أم لا؟ أو تتكرر منه ارتدادةٌ أم لا؟ أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظُهِر عليه؟ على أقوال موضع بسطها وعزوّها وتقديرها كتاب الأحكام.

تنبيه: قول مَن قال: كان عيه السلام يعلم أن أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسميته أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك، الذين هَمُّوا أن يَفتِكُوا برسول الله ـ ﷺ ـ في ظلماء الليل عند عقبة مالك، عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها، فأوحى إليه أمرُهم، وأطلع على ذلك حذيفة. ولعلّ الكفّ عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها، والله أعلم.

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهلِ المدينة مَرَدُوا على النِّفاق لا تعلَمُهم نحن نعلمهم ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ لئن لم ينته المنافقون والّذين في قلوبهم مَرَضٌ والمرجفُونَ في المدينة لنغرينّك بهم ثم لا يُجاوِرُونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثُقفوا أُخِذُوا وقُتّلوا تَقْتِيلاً ﴾ ففيها دليل على أنه لم يعرفهم ولم يُدَل على أعيانهم، وإنما كان يذكر صفاتهم فيتوسّمُها في بعضهم، كما قال: ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾. وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أُبيّ بن سَلُول، وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق من صفات المنافقين، ومع هذا لما مات صلى عليه رسول الله ـ ﷺ ـ وشهد دفنه كما يفعل ببقيّة المسلمين، وقد عاتبه عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فيه، فقال: إني أكره أن تتحدّث العرب أنَّ محمداً يقتل أصحابه، وفي رواية في الصحيح، إني خُيِّرت فاخترت. وفي رواية: «لو أعلم أنّي لو زدت على السبعين يغفر له لزدت».

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قال السدّي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرّة الطيب الهمداني، عن ابن مسعود وعن أُناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون ﴾، أما لا تفسدوا في الأرض، قال: الفساد هو الكفر، والعمل بالمعصية.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض ﴾ قال: يعني لا تعصُوا في الأرض. وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه مَن عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطّاعة.

وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿ وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض ﴾ قال: إذا ركبوا معصية الله، فقيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنما نحن على الهدى، مصلحون.

وقد قال وكيع، وعيسى بن يونس، وعَثّام بن علي، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن سلمان الفارسي: ﴿ وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ قال سلمان: لم يجىء أهل هذه الآية بعد.

وقال ابن جرير[(١)]: حدَّثني أحمد بن عثمان بن حَكيم[(٢)]، حدَّثنا عبد الرحمن بن شريك، حدَّثني أبي، عن الأعمش، عن زيد بن وهب وغيره، عن سلمان، في هذه الآية، قال: ما جاء هؤلاء بَعْدُ.

قال ابن جرير: ويحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمان النبي - ﷺ -، لا أنه عنى أنه لم يَمْضِ ممّن تلك صفته أحدٌ.

قال ابن جَرير: فأهلُ النفاق مُفسِدُون في الأرض بمعصيتهم فيها رَبَّهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكّهم في دينه الذي لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والرّيب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مُصلِحُونَ فيها.

وهذا الذي قاله حَسَنٌ، فإنه من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال: ﴿ يأيها الذين آمنوا، لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ ثم قال: ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غَرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، فلو أنه استمرَّ على حالته الأولى لكان شرّه أخفّ، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح، ولهذا قال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾، أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله: ﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرونَ بكونه فساداً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وإذا قِيلَ للمنافقين: آمنوا كما آمن الناس، أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنّة والنّار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾، يعنون - لعنهم الله - أصحابَ رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم. قاله أبو العالية والسدِّيُّ في تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الرّبيعُ بن أنيس، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ وغيرُهم، يقولون: أنصيرُ نحن وهؤلاء بمنزلةٍ واحدةٍ وعلى طريقةٍ واحدةٍ وهم سفهاء.

والسفهاءُ: جمع سَفيهٍ، كما أن الحُكَماء جمع حَكيم، والسَّفِيه: هو الجاهلُ الضعيف الرّأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، ولهذا سمّى الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى: ﴿ ولا تؤتوا

---

(١) في الأصل: جريج. وانظر تفسير الطبري ١/١٢٥.
(٢) في الأصل: الحكم.

السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ﴾ قال عامة علماء التفسير: هم النساء والصبيان.

وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال: ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم. ﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ يعني: ومن تَمام جَهْلِهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العَمَى، والبعد عن الهُدَى.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾

يقولُ تعالى: وإذا لَقِي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿ آمنّا ﴾ أي: أظهروا لهم الإيمانَ والموالاةَ والمصافاةَ، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانَعَةً وتَقِيَّةً، وليَشْرَكُوهم فيما أصابوا من خَيرٍ ومغنم ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ يعني: وإذا انصرفوا أو ذهبوا أو خلصوا إلى شياطينهم. فضمن ﴿ خلوا ﴾ معنى انصرفوا، لتعديته بإلى، ليدلَّ على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به. ومنهم مَن قال: «إلى» هنا بمعنى «مع»، والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير.

وقال السدِّي عن أبي مالك ﴿ خلوا ﴾ يعني مضوا. و﴿ شياطينهم ﴾ يعني: سادتهم وكبراءهم ورؤساءهم من أحبار اليهود ورءوس المشْركين والمنافقين.

قال السدِّي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة الهمداني عن ابن مسعود و[عن] ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ يعني هم رءوسهم في الكفر.

وقال الضحّاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول.

وقال مجاهد: ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقال قتادة: ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ قال: إلى رءوسهم، وقادتهم في الشرك، والشر.

وبنحو ذلك فسَّره أبو مالك، وأبو العالية والسدِّي، والرَّبيع بن أنس.

قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مَرَدَتُه، وتكون الشياطين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾.

وفي المسند عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نَعُوذُ بالله من شياطين الإنسِ والجنِّ» فقلت: يا رسولَ اللهِ، وللإنس شياطينُ؟ قال: «نعم»[١].

وقوله تعالى: ﴿ قالوا إنّا معكم ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس: أي إنّا على مثل ما أنتم عليه ﴿ إنما نحن مستهزِءُون ﴾ أي إنما نحن نستهزىء بالقوم ونلعب بهم.

(١) المسند ٥/١٧٨.

وقال الضحّاك، عن ابن عباس: قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد ـ ﷺ ـ.

وكذلك قال الرّبيع بن أنس، وقتادة.

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم: ﴿ الله يستهزىء بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾.

قال ابن جرير[1]: أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: انظرونا نقتبس من نوركم. قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً. فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهَم عذاب مهين ﴾. قال: فهذا وما أشبهه، من استهزاء الله، تعالى ذكره، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول، ومتأوّل هذا التأويل.

قال: وقال آخرون: بل استهزاؤه بهم وتوبيخه إياهم، ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه، والكفر به.

قال: وقال آخرون: هذا وأمثاله على سبيل الجواب، كقول الرّجل لمن يخدعه إذا[2] ظفر به: أنا الذي خدعتُك. ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذا صار الأمر إليه، قالوا وكذلك قوله: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ و﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ على الجواب، والله لا يكون منه المكر ولا الهزء، والمعنى أن المكر والهُزْء حَاقّ بهم.

وقال آخرون: قوله: ﴿ إنما نحن مستهزءُون. الله يستهزىء بهم ﴾، وقوله: يخادعون الله وهوخادعهم ﴾، وقوله: ﴿ فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾ و﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ وما أشبه ذلك، إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جَزَاءَ الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مُخْرَجَ خبره عن فعلهم الذي عليه استحقّوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فمَن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾، فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما.

قال: وإلى هذا المعنى وَجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك.

قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك: أنّ الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خَلَوا إلى مَرَدَتِهم قالوا: إنا معكم على دينكم، في تكذيب محمد ـ ﷺ ـ وما جاء به، وإنما نحن بما نظهر لهم ـ من قولنا لهم مستهزئون؛ فأخبر الله تعالى أنه يستهزىء بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلافَ الذي لهم عنده في الآخرة، يعني من العذاب والنكال.

ثم شرع ابن جرير يوجّه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منفيٌّ عن الله، عزّ وجل، بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك.

قال: وبنحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس: حدَّثنا أبو كريب، حدَّثنا عثمان، حدَّثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾، قال: يسخر بهم للنقمة منهم.

وقوله تعالى: ﴿ ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ قال السدّي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة، الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أُناس من الصحابة: يَمدّهم: يملي لهم.

---

(١) تفسير الطبري ١/١٣٢.

(٢) في الأصل: أو ظفر به.

وقال مجاهد: يزيدهم.

(١-وقال تعالى: ﴿ أيحسبون أنما نُمِدُّهم به من مال وبنين نُسارِعُ لهم في الخيرات، بل لا يشعرون ﴾، وقال: ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾، قال بعضهم: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمةً هي في الحقيقة نقمةٌ. وقال: ﴿ فلما نَسُوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة، فإذا هم مُبْلِسُون، فَقُطِعَ دَابِرُ القومِ الذين ظلموا والحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾-١).

قال ابن جرير: والصواب نزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوِّهم وتَمَرُّدهم، كما قال: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرّة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾.

والطغيان: هو المجاوزة في الشيء، كما قال: ﴿ إنّا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾، وقال الضحّاك، عن ابن عباس ﴿ في طغيانهم يعمهون ﴾: في كفرهم يترددون.

وكذا فسّره السدِّي بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبو العالية، وقتادة، والرّبيع بن أنس، ومجاهد، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد: في كفرهم وضلالتهم.

قال ابنُ جرير: والعَمَه: الضلال، يقال: عَمِه فلان يَعْمَه عَمَهاً وعُمُوهاً، إذا ضلّ.

قال: وقوله ﴿ في طغيانهم يعمهون ﴾: في ضلالهم، وكفرهم الذي غمرهم دَنَسُه، وعَلاهم رِجْسُه، يترددون ﴿ حيارى ﴾ ضُلالاً، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً، لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْداً، ولا يهتدون سبيلاً.

(١-وقال بعضهم: العَمَى في العين، والعَمَهُ في القلب. وقد يُستعمل العَمَى في القلب أيضاً، وقال الله تعالى: ﴿ فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصدور ﴾. ويقال: عَمِه الرجُلُ يَعْمَهُ عُمُوهاً فهو عَمِهٌ وعامِهٌ، وجمعه عُمَّهٌ. وذهبت إبلُه العُمَّهى: إذا لم يدرِ أي ذَهَبَتْ)-١).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

قال السدِّي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

وقال ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾: أي الكفر بالإيمان.

وقال مجاهد: آمنوا ثمّ كفروا.

وقال قتادةُ: استحبُّوا الضلالة على الهدى: وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: ﴿ فأمّا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾.

وحاصلُ قول المفسرين فيما تقدَّم: أن المنافقين عَدَلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾: أي بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، وسواء في ذلك مَن كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم: ﴿ ذلك بأنهم

(١) عن الأصل.

آمنوا ثمّ كفروا فطبع على قلوبهم ﴾، أو أنهم استحبّوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام، ولهذا قال تعالى: ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾. أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، وما كانوا مهتدين، أي: راشدين في صنيعهم ذلك.

قال ابن جرير: حدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سَعيد، عن قتادة ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾: قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنّة إلى البدعة(١).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة، بمثله سواء.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(٢-(يقال: مَثَلٌ، ومِثْلٌ، ومَثِيلٌ أيضاً. والجمعُ أمثال، قال الله تعالى: وتـلـك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)-٢).

وتقرير هذا المثل: أن الله سبحانه شبَّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمَن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتَأنَّس بها فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان قبل ذلك، كذلك هؤلاء(٣) المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغيّ على الرّشَد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع والله أعلم.

(٢-(وقد حكى هذا الذي قلناه فخر الدين الرازي في تفسيره عن السدّي، ثم قال: والتشبيه ههنا في غاية الصِّحة، لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نوراً ثم بنفاقهم ثانياً، أبطلوا ذلك النور، فوقفوا في حيرة عظيمة، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين)-٢).

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿ ومن الناس مَن يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾.

والصواب: أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سُلِبوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير رحمه الله هذه الآية ههنا وهي قوله تعالى: ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾؛ فلهذا وجّه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الإيمان في الدنيا، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة.

قال: وصَحّ ضَرْبُ مثل الجماعة بالواحد، كما قال: ﴿ رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾: أي كدوران عينيّ الذي يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا

(١) تفسير الطبري ١/١٣٩.
(٢) عن الأصل.
(٣) في الأصل: فكذلك هم المافقون.

كنفس واحدة﴾، (١-وقال تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾.

وقال بعضهم: تقدير الكلام مثل قصتهم كقصة الذي استوقد ناراً. وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه. وقال بعضهم: الذي ههنا بمعنى الذين، كما قال الشاعر:

وإن الذي حانَتْ بفلجٍ دماؤُهم هم القومُ كلُّ القومِ يا أُمَّ خالد-١).

قلت: وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع، في قوله تعالى: ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعون﴾ وهذا أفصح في الكلام، وأبلغ في النظام، وقوله تعالى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾: أي أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرّهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وتركهم في ظلمات﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لا يبصرون﴾: لا يهتدون إلى سبل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون خيراً ﴿بكمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عميٌ﴾ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

ذكرُ أقوالِ المفسِّرين من السَّلَف بنحوِ ما ذكرناه:

قال السدِّيُّ في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿فلما أضاءت ما حوله﴾: زعم أن ناساً دخلوا في الإسلام مَقْدَم نبيّ الله ـ ﷺ ـ المدينة، ثمّ إنهم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجُل كان في ظلمة، فأوقد ناراً، فأضاءت ما حوله من قذى، وأذى، فأبصره حتى عرف ما يَتّقي منه، فبينا هو كذلك إذ طُفِئت ناره، فأقبل لا يدري ما يتقي من أذىً، فكذلك المنافق: كان في ظلمة الشرك فأسلم وعرف الحلال والحرام، والخير والشر، فبينا هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر.

وقال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية، قال أما النور فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به، وأمّا الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به، وهم قوم كانوا على هدىً، ثمّ نزع منهم، فعتوا بعد ذلك.

وقال مجاهد: ﴿فلما أضاءت ما حوله﴾ أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين، والهدى.

وقال عطاء الخراساني في قوله: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ قال: هذا مثل المنافق، يبصر أحياناً ويعرف أحياناً، ثم يدركه عمى القلب.

وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عكرمة، والحسن، والسدِّي، والرّبيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ إلى آخر الآية. قال: هذه صفة المنافقين. كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا، ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه، كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل

(١) عن الأصل.

الذي استوقد ناراً ﴾ قال: هذا مثل ضربه للمنافقين أنهم كانوا يعتزّون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العزّ، كما سُلب صاحب النار ضَوءه.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الرّبيع بن أنس، عن أبي العالية ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾: فإنما ضوء النار ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، وكذلك المنافق، كلما تكلم بكلمة الإخلاص، بلا إلّه إلاّ الله، أضاء له، فإذا شك وقع في الظلمة.

وقال الضحّاك في قوله: ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾: فهو إيمانهم الذي تكلموا به.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ﴾ فهي لا إلّه إلا الله؛ أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمنوا في الدنيا، ونكحوا النساء، وحقنوا دماءهم، حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وقال سعيد، عن قتادة في هذه الآية: إن المعنى أن المنافق تكلم بلا إلّه إلا الله فأضاءت له الدنيا، فناكح بها المسلمين، وغازاهم بها، ووارثهم بها، وحقن بها دمه وماله، فلما كان عند الموت سلبها المنافق، لأنها لم تكن لها أصل في قلبه، ولا حقيقة في عمله[1].

﴿ وتركهم في ظلمات ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وتركهم في ظلمات ﴾ يقول: في عذاب إذا ماتوا.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ وتركهم في ظلمات ﴾: أي يبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفئوه بكفرهم ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدىً، ولا يستقيمون على حق.

وقال السدِّي في تفسيره بسنده ﴿ وتركهم في ظلمات ﴾: فكانت الظلمة نفاقهم.

وقال الحسن البصري: وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فذلك حين يموت المنافق، فيظلم عليه عمله عمل السوء فلا يجد له عملاً من خير عمل به يصدق به قول: لا إلّه إلا الله.

﴿ صمٌ بكمٌ عميٌ ﴾. قال السدِّي بسنده ﴿ صمٌ بكمٌ عميٌ ﴾: فهم عميٌ خُرسٌ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ صمٌ بكمٌ عميٌ ﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه. وكذا قال أبو العالية، وقتادة بن دعامة.

﴿ فهم لا يرجعون ﴾. قال ابن عباس: أي لا يرجعون إلى هدى، وكذلك قال الرّبيع بن أنس.

وقال السدِّي بسنده ﴿ صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ﴾ إلى الإسلام.

وقال قتادة ﴿ فهم لا يرجعون ﴾؛ أي لا يتوبون[2]، ولا هم يذكرون.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ

(١) في الأصل: في علمه.
(٢) في الأصل: أي: لا يؤمنون.

بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكّون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم (كصيِّب)، والصيب: المطر؛ قاله ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن البصري، وقتادة، وعطية العَوْفي، وعطاء الخراساني، والسُّدّي، والرّبيع بن أنس.

وقال الضحاك: هو السحاب.

والأشهر هو المطر نزل من السماء، في حال ظلمات، وهي الشكوك، والكفر والنفاق: و﴿ رعد ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، كما قال تعالى: ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم هم العدوُّ ﴾. وقال: ﴿ ويحلفون بالله ﴾ وهم كاذبون[(١)] ﴿ إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخَلًا لولَّوا إليه وهم يجمحون ﴾.

والبرق هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان، من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ [(٢-] والصواعق: جمع صاعقة، وهي نار تنزل من السماء وقت الرعد الشديد، وحكى الخليل بن أحمد عن بعضهم: ساعقة، وحكى بعضهم: صاعقة وصعقة وصاقعة. ونُقِل عن الحسن البصري أنه قرأ: ﴿ من الصواقع حذر الموت ﴾ بتقدم القاف وأنشدوا لأبي النجم:

يحكـوك بالمصقـولة القـواطع تَشَقُّقَ البَـرْقِ عن الصَّـواقِـعِ

قال النحاس: وهي لغة بني تميم وبعض بني ربيعة، حَرَّر ذلك القرطبي[(٣)] في تَفْسيره.

﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ [-٢)] أي: ولا يُجْزِىءُ عنهم حذرهم شيئاً، لأن الله محيط ﴿ بهم ﴾[(١)] بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود. بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط ﴾.

ثم قال: ﴿ يكاد البرقُ يخطفُ أبصارهم ﴾، [أي: [(٤-] لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ [-٤)]] يقول: يكاد مُحْكَمُ القرآن يدل على عورات المنافقين.

وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾: أي لشدة ضوء الحق، كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴿ وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾: أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وتارةً تَعْرِضُ لهم الشكوكُ أظلمت قلوبَهم فوقفوا حائرين.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من

---

(١) هذه الجملة المعترضة عن الأصل.
(٢) عن الأصل.
(٣) تفسير القرطبي ١/ ٢١٩.
(٤) سقط من الأصل.

عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله: ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خير اطمأن به ﴾ الآية.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ : أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم في قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر ﴿ قاموا ﴾، أي متحيرين.

وهكذا قال أبو العالية، والحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي بسنده، عن الصحابة وهو أصح وأظهر. والله أعلم.

وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يُطْفَأُ نوره تارة ويضيء له أخرى، فيمشي على الصراط تارة ويقف أخرى. ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخُلَّص من المنافقين، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم. قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ وقال في حق المؤمنين: ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾.

(ذكر الحديث الوارد في ذلك):

قال سعيد بن أبي عَرُوبة [عن قتادة][1] في قوله تعالى: ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ الآية: ذكر لنا أنّ نبيّ الله - ﷺ - كان يقول: من المؤمنين من يُضِيءُ نورُه من المدينة إلى عدن، أَبْيَنَ فَصَنْعاءَ، ودون ذلك، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه. رواه ابن جرير:

ورواه ابن أبي حاتم من حديث عمران بن داوَرَ القَطّان، عن قتادة، بنحوه.

وهذا كما قال المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبدالله بن مسعود، قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يُؤْتَى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً على إبهامه يُطْفَأُ مرة ويتقد مرة.

هكذا رواه ابن جرير، عن ابن مثنى، عن ابن إدريس، عن أبيه، عن المنهال.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي[2]، حدثنا ابن إدريس، سمعت أبي يذكر عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبدالله: ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم ﴾، قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره في إبهام يتقدُ مرة ويُطفَأُ أخرى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا أبو يحيى الحِمّاني، حدثنا عُتْبَةُ[3] بن اليقظان عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطي نوراً يوم القيامة، فأما المنافق

---

(١) عن تفسير الطبري ٢٧/٢٢٢.
(٢) في الأصل: الطيالسي. انظر تهذيب التهذيب ٧/٣٧٨.
(٣) في الأصل: عتيبة. وهو خطأ، انظر تهذيب التهذيب ٧/١٠٣.

فيطفأ نوره، فالمؤمن يُشْفِقُ مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم (يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا).

وقال الضحاك بن مزاحم: يعطي كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نوراً، فإذا[١] انتهى إلى الصراط طَفِيءَ نورُ المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا، فقالوا: (ربنا أتمم لنا نورنا).

فإذا تَقَرَّرَ هذا صار الناسُ أقساماً: مؤمنون خُلَّصٌ، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خُلَّصٌ وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون، وهم قسمان: خُلَّصٌ، وهم المضروبُ لهم المَثَلُ النارِيُّ، ومنافقون متردِّدُون، تارة يظهر لهم لُمَعٌ من الإيمان وتارة يخبو، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالاً من الذين قبلهم.

وهذا يُشْبِهُ من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور، من ضرب مثل المؤمن[٢] وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور، بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دُرّي، وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله، ثم ضرب مثل العُبّاد من الكفار، الذين يعتقدون أنهم على شيء، وليسوا على شيء، وهم أصحاب الجهل المركب، في قوله: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ الآية. ثم ضرب (مثل) الكفار الجُهَّال (الجَهْلَ) البسيط، وهم الذين قال فيهم: ﴿ أو كظلمات في بحر لجيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾. فقسم الكفار ههنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج: ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾، وقال: ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾[٣] وقد قسم الله المؤمنين في أول (سورة)[٤] الواقعة و(في)[٤] آخرها، وفي سورة الإنسان، إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخَّص من مجموع هذه الآيات الكريمات: أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين أيضاً صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق. كما جاء في الصحيحين، عن عبدالله بن عَمْرو، عن النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ واحدة منهن كانت فيه خَصْلَةٌ من النفاق. حتى يَدَعها: من إذا حدّث كذب، وإذا أوعد أخلف، وإذا اؤتُمِنَ خان»[٥].

استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق. إما عَمَلِيٌّ كهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء ـ كما تقدم ـ وكما سيأتي، إن شاء الله تعالى. قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية ـ يعني شيبان ـ عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلبٌ أجردُ، فيه مثل السراج يُزْهِرُ، وقلب أغلف مربوط

---

(١) في الأصل: وإذا.

(٢) في الأصل: المؤمنين.

(٣) ذكر مكانه في الأصل: ﴿ ويتبع كل شيطان مريد ﴾.

(٤) عن الأصل.

(٥) أخرجاه في كتاب الإيمان، البخاري ١/١٥، ومسلم ٧٨.

على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصفَّح؛ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر. [وأما القلب المنكوس فقلب المنافق]، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفَّحُ فقلب فيه إيمان ونفاق. ومَثَل الإيمان فيه كمثل البقلة، يَمُدّها الماءُ الطيبُ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يَمُدّها القيح والدم، فأي المدّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه. وهذا إسناد جيد[١] حسن.

وقوله: ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾، قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته.

﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾. قال ابن إسحاق: أي إنّ الله على كل ما أراد بعباده من نقمة، أو عفو، قدير.

وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بَأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وأنه على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى ﴿ قدير ﴾ قادر، كما [أن] معنى ﴿ عليم ﴾ عالم. -[٢](وذهب ابنُ جرير الطبريُّ ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثَلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين، ويكون أو من قوله: ﴿أو كصيِّب من السماء﴾، بمعنى الواو، كقوله: ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ أو يكون للتخيير، أي: اضربْ لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا قاله القرطبي، أو للتساوي مثل: جالس الحسن، أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشري، أن كلاًّ منهما مساوٍ للآخر من إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا، فهو مطابق لحالهم.

قلت: وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين، فإنهم أصناف، ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله من سورة براءة: ﴿ ومنهم ﴾، ﴿ ومنهم ﴾، ﴿ ومنهم ﴾[٣]، يذكر أحوالهم وصفاتهم، وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال، فجعل هذين المَثَلين لصنفين منهم أشدّ مطابقة لأحوالهم وصفاتهم، والله أعلم كما ضرب المَثَلين من سورة النور لصنفي الكُفّار الدعاة والمقلّدين من قوله: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ إلى أن قال: ﴿ أو كظلمات في بحر لُجّيٍّ يغشاه موج ﴾ الآية فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين، والله أعلم بالصواب)-[٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

-[٢](قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطي، حدثنا طلق بن غنام، حدثنا قيس، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله قال: كل شيء نزل ﴿يأيها الناس﴾ فهو بمكة وكل شيء نزل ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ فهو بالمدينة. ثم قال: لا يعلم أحد أسنده[٤] إلا قيس، وغيرُه يرويه مرسلاً)-[٢].

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٧/٣، وما بين القوسين عنه.

(٢) عن الأصل.

(٣) انظر الآيات: ٤٩، ٥٨، ٦١، ٧٥ من سورة التوبة.

(٤) في الأصل: إسناده. ولفظ البزار كما في كشف الأستار ٣٩/٣: «لا نعلم أحداً أسنده إلا قيساً، وغيره يرسله».

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي: مهداً كالفراش مُقَرَّرَة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، والسماءَ بناءً، وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ وأنزل لهم من السماء[١] ـ والمرادُ به السحابُ ههنا ـ ماءً في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقاً لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا في غير هذا الموضع من القرآن. ومِنْ أشبه آيةٍ بهذه قوله تعالى: ﴿اللهُ الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء، وصوركم فأحسن صوركم، ورزقكم من الطيبات، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فبهذا استحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به غيره. ولهذا قال: ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً، وهو خلقك. الحديث[٢]. وكذا حديث معاذ: أتدري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. الحديث[٣]، وفي الحديث الآخر: لا يقولن أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان. ولكن لِيقُلْ: ما شاء الله، ثم شاء فلان[٤].

وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير، عن رِبْعِيٍّ بن خراش، عن الطفيل بن سَخْبَرَة ـ أخي عائشة أم المؤمنين لأمها ـ قال: رأيت فيما يرى النائم، كأني أتيت على نفر من اليهود، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عُزَير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. قال: ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى: قلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها مَنْ أخبرت، ثم أتيت النبي ـ ﷺ ـ فأخبرته، فقال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. فقام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن طُفَيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده.

هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة، به. وأخرجه ابن[٥] ماجه من وجه آخر، عن عبد الملك بن عمير، بنحوه.

وقال سفيان بن سعيد الثوري، عن الأجلح بن عبدالله الكِنْدي، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس، قال: قال رجل للنبي ـ ﷺ ـ: ما شاء الله وشئتَ. فقال: أجعلت لله أنداداً؟ بل ما شاء الله وحده.

رواه ابن مردويه، وأخرجه النسائي، وابن ماجه[٦] من حديث عيسى بن يونس، عن الأجلح، به.

وهذا كلُّه صيانةٌ، وحمايةٌ لجنابِ التَّوحيدِ، والله أعلم.

---

(١) في الأصل: وأنزل لهم من السماء ماءً.
(٢) البخاري، تفسير سورة البقرة ٦/٢٢، ومسلم، كتاب الإيمان ٩٠.
(٣) البخاري، كتاب التوحيد ٩/١٤٠، ومسلم، كتاب الإيمان ٥٨.
(٤) مسند الإمام أحمد ٥/٣٨٤.
(٥) ابن ماجه، كتاب الكفارات ٦٨٥.
(٦) ابن ماجه، الكتاب السابق ٦٨٤.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.

وبه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾: أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق لا شك فيه. وهكذا قال قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، حدثنا أبي عمرو، حدثنا أبي الضحاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس، في قول الله، عزّ وجلّ: ﴿ فلا تجعلوا لِلَّهِ أنداداً وأنتم تَعلمون﴾، قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة[1] هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط[2] في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان» (لأنّ) هذا كله به شرك.

وفي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله نداً. وفي الحديث الآخر. نعم القوم أنتم، لولا أنكم تُنَدِّدون، تقولون ما شاء الله، وشاء فلان.

وقال أبو العالية، ﴿ فلَا تجعلوا لله أنداداً ﴾ أي عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدي، وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد.

وقال مجاهد: ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ قال: تعلمون أنه إلّه واحد في التوراة، والإنجيل.

(ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة):

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو خَلَفٍ موسى بنُ خلف، وكان يُعَدّ من البُدلاء[3]، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممطور، عن الحارث الأشعري: أن نبي الله ـ ﷺ ـ قال: إنَّ الله عزّ وجلّ أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كَلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فكاد[4] يُبْطِىءُ، فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أُمِرْت بخمس كلمات أن تعمل بهنَّ وتأمر بني إسرائيل أن يَعْمَلُوا بهنَّ، فإما أن تُبَلِّغَهُنَّ، وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخي، إني أخشى إن سبقتني أن أعذَّب أو يخسَفَ بي. قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد، فقعَدَ على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعملَ بهن، وآمُرَكم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مَثَلُ رجل اشترى عبداً من خالص ماله بوَرِق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي عَمَلَهُ إلى غير سيده، فأيكم يَسُرُّه أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأمركم بالصلاة؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

---

(١) في الأصل: كلمة.
(٢) في الأصل: النط.
(٣) البدلاء والأبدال: الأولياء والعباد، سُمُّوا بذلك لأنهم كلما مات واحدٌ منهم أُبدِل آخر.
(٤) في الأصل: وكان.

وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صُرَّةٌ من مِسْكٍ في عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خُلُوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. وأمركم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدوّ، فشدُّوا يديه إلى عنقه، وقدَّموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي (منكم)؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكَّ نفسه: وأمركم بذكر الله كثيراً؛ وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدوُّ سِرَاعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإنَّ العبد أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله؛ فإنه من خرج من الجماعة قِيدَ شِبْر فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه، إلا[1] أن يُراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جِثِيِّ جهنم. قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ فقال: وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم؛ فادعوا المسلمين بأسمائهم، على ما سماهم الله عزّ وجلّ: المسلمين المؤمنين عباد الله»[2].

هذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل بها كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع، فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها من طباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإنعامه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله! إنّ البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟!

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أنّ الرشيد سأله عن ذلك فاستدلّ باختلاف اللغات والأصوات والنغمات.

وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنّ بعض الزنادقة، سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم: دعوني فإني مفكِّر في أمر قد احترت فيه، ذكروا لي أن سفينةً من البحر مُوقَرَةٌ فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرُسها ولا يسُوقها، وهي مع ذالك تذهب وتجيءُ وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تَتَخلَّصَ منها، وتسير حيث شاءت بنفسها، من غير أن يَسُوقَها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل! فقال: ويحكم، هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟! فَبُهِتَ القومُ، ورَجَعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه سئل عن وجود الباري تعالى فقال: هذا ورق التوت طبيعة واحدة، يأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، ويأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً. وتأكله الظباء فيخرج منها المسك، وهو شيءٌ واحد.

وعن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه سُئِل عن ذلك فقال: ههنا حِصْنٌ حَصِين أملسُ ليس له باب ولا مَنْفَذ ظاهره كالفضَّة البيضاء، وباطنه كالذَّهَب الإبريز، فبينما هو كذلك إذا انصدع جدارُه، فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن وصوت مليح. يعني البيضة إذا خرجت منها الدجاجة.

---

(١) في المسند: إلى أن يرجع.
(٢) مسند الإمام أحمد: ٢٠٢/١٤.

وسُئِل أبو نُواس عن ذلك فأنشَدَ:

تـأمَّلْ في نبـات الأرض وانظُرْ إلى آثـار مـا صَنَـع المليـكُ
عيـونٌ من لُجَيْنٍ شـاخصـاتٌ بـأحداقٍ هي الـذهبُ السبيـكُ
على قُضُبِ الزَّبرجد شاهـداتٍ بـأنَّ الله ليس لـه شـريـكُ

وقال ابن المعتز رحمه الله:

فيا عجباً كيف يُعْصَى الإلـهُ أم كيف يـجحـدُه الجـاحـدُ
وفـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ عـلى أنَّـه واحـدُ

وقال آخرون: ومن تأمل هذه السموات وارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة والثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم، من كل يوم وليلة دورة، ولها في أنفسها سَيْرٌ يخصُّها ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة من الأرض لتقرَّ وتسكُن بساكنيها، مع اختلاف أشكالها وألوانها، كما قال: ﴿ ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْر مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سُودٍ ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك ﴾ وكذلك الأنهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد، وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوّعة، والنبات المختلف الطعوم والأرايح والأشكال والألوان، مع اتحاد طبيعة التربة والماء، عَلِمَ وجودَ الصانع وقدرته العظيمة، وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم، وإحسانه إليهم وبِرَّه بهم، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، عليه توكلت وإليه أنيبُ والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم شرع تعالى في تقريره النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ يعني محمداً ـ ﷺ ـ ﴿ فأتوا بسورة ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

قال ابن عباس: شهداءكم: أعوانكم، (١-(أي: قوماً آخرين يساعدونكم على ذلك)-١).

وقال السدي، عن أبي مالك: شركاءكم، (١-(أي: استعينوا بآلهتكم في ذلك، يمدونكم وينصرونكم)١).

وقال مجاهد: ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ قال: ناس يشهدون به، (١-(يعني حكام الفصحاء)-١).

وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة ﴿ القصص: قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾. وقال في سورة سبحان: ﴿ قل: لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾. وقال في سورة هود: ﴿ أم يقولون افتراه، قل: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾. وقال

(١) عن الأصل.

في سورة يونس: ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون: افتراه. قل: فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم (الله تعالى)(١) بذلك أيضاً في المدينة، فقال في هذه الآية: ﴿ وإن كنتم في ريب ﴾، أي: (في) شك ﴿ مما نزلنا على عبدنا ﴾ يعني: محمداً ﷺ. ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ يعني: من مثل القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير ‎-١(الطبري والزمخشري وفخر الدين الرازي، ونقله عن عُمَر، وابن مسعود، وابن عباس، والحسن البصري، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنه تحداهم كلّهم منفردين ومجتمعين، سواء في ذلك أميهم وكتابيّهم، وذلك أكمل في التحدي، وأشمل من أن يتحدّى آحادهم الأميين ممّن لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم)‎-١ بدليل قوله: ﴿ فأتوا بعشر سور مثله ﴾ وقوله: ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ وقال بعضهم: من مثل محمد ـ ﷺ ـ، يعني: من رجل أمي مثله. والصحيح الأول، لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه(٢)، ومع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ولن: لنفي التأبيد (في المستقبل)(١) أي: ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وَأَنَّى يَتَأَتَّى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟! وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين. ‎-١(ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفيةً مِنْ حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿ الر. كتاب أُحكِمت آياتهُ ثم فُصِّلَت من لدن حكيم خبير ﴾ فأحكمت ألفاظه وفصِّلت معانيه أو بالعكس، على الخلاف. فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يُجارى ولا يُدانى، فقد أخبر عن مغيّبات ماضية وآتيةٍ كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر، كما قال: ﴿وتَمَّت كَلِمَةُ ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً من الأحكام، فكله حق وصدق، وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يَحسُن شعرُهم إلا بها، كما يقال في الشعر: إن أعذبه أكذبه. وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استُعمل غالبها في وصف النساء والخيل والخمر، أو في مدح شخص معين، أو في فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة، أو سير أو مخافة، أو سبع أو شيء من المشاهدات المعينة التي لا تُفيد شيئاً إلاّ قدرة المتكلم المعبر على التعبير عن(٣) الشيء الخفي والدقيق وإبرازه إلى المعنى الواضح، ثم تجد له فيها بيتاً أو بيتين أو أكثر، وهي بيوت القصيد، وسائرها هَدَرٌ ولا طائل تحته. وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك إجمالاً وتفصيلاً، لمن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزةً، سواء تكررت أولاً، وكلما تكرر حلا وغلا، لا يخلقُ عن كثرة الردّ، ولا يَمَلّ منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعرّ منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات؟! وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام، ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾، وقال: ﴿ وفيها ما

---

(١) عن الأصل.

(٢) في الأصل: وبغضتهم على دينهم.

(٣) في الأصل: على.

تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾، وقال في الترهيب: ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ﴾، ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعملون كيف نذير ﴾، وقال في الزجر: ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه ﴾، وفي الوعظ: ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فَأَرْعِها سمعك فإنه خيرٌ يأمُرُ به أو شرٌ ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وبيان الأحوال، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما[١] لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم، والملاذّ والعذاب الأليم، بَشَّرت وحذرت، وأنذرت ودعت إلى فعل الخيرات، واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى، وثبتت على الطريق المثلى، وهَدَت إلى صراط الله المستقيم، وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم)-[١].

ولهذا ثبت في الصحيحين[٢]، عن أبي هُريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما من الأنبياء نبيّ إلا قد أُعْطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» لفظ مسلم. وقوله: «وإنما كان الذي أوتيته وحياً»: أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآنُ المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلٓهية، فإنها ليست معجزة، عند كثير من العلماء والله أعلم. وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته، وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، ولله الحمد والمنة.

[٣]-(وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة[٤]، فقال: إن كان هذا القرآن معجزاً من نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته فقد حصل المدَّعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلاً أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزُّل والمجادلة والمنافحة من الحق، وبهذه الطريقة أجاب فخر الدين الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر، وإنا أعطيناك الكوثر)-[٣].

وقوله تعالى: ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾، أما الوَقُود ـ بفتح الواو ـ فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه، كما قال: ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ وقال تعالى: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾.

والمرادُ بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهي أشد الأحجار جمراً إذا حَمِيَتْ، أجارنا الله منها.

(١) في الأصل: فيها.
(٢) تقدم الحديث في فضائل القرآن، انظر.
(٣) عن الأصل.
(٤) في الأصل: من الصوفية.

قال عبد الملك بن مَيْسَرَةَ الزرّادُ، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون، عن عبدالله بن مسعود، في قوله تعالى: ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾، قال: هي حجارةٌ من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا، يعدها للكافرين. رواه ابن جرير، وهذا لفظه. وابن أبي حاتم، والحاكم في مستدركه وقال: على شرط الشيخين.

وقال السّدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿ اتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾، أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود، يعذبون به مع النار.

وقال مجاهدٌ: حجارةٌ من كبريت أنتن من الجيفة. وقال أبو جعفر محمد بن علي: هي حجارة من كبريت. وقال ابن جُرَيج: حجارةٌ من كبريت أسودَ في النار، وقال عمرو بن دينار: أصلب من هذه الحجارة وأعظم.

(١-(وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله، كما قال: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ حكاه القرطبي وفخر الدين ورجَّحه علي الأول، لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمنكر، فجعلُها هذه الحجارة أولى وهذا ليس بقويّ، وذلك أنّ النار إذا أُضْرِمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت مُعَدَّةً لذلك. ثم إن أخذ النار في هذه الأحجار أيضاً مشاهدٌ، وهذا الجصُّ يكون أحجاراً يُعمل فيه النار حتى يصير كذلك، وكذلك سائر الأحجار تفجرها النار وتحرقها، وإنما سيق هذا في حر هذه النار التي أوعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال: ﴿ كلما خَبَت زدناهم سعيراً ﴾ وهكذا رَجَّح القرطبي أنها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمى ويشتد لهبها. قال: ليكون ذلك أشدَّ عذاباً لأهلها، قال: وقد جاء في الحديث عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «كل مُؤذٍ في النار»(٢).

قلت هذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف. ثم قال القرطبي: وقد فسر بمعنيين، أحدهما: أن كل من آذى الناس عُذِّب في النار. والآخر: كل ما يؤذي فهو في النار يتأذى به أهلها من السباع والهوام وغير ذلك)-١).

وقوله تعالى: ﴿ أعدت للكافرين ﴾ الأظهر أنّ الضمير في أعدت، عائد إلى النار التي وقودها الناسُ والحجارةُ، ويحتمل عوده إلى الحجارة، كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين في المعنى، لأنهما مُتَلازمانِ.

﴿ وأعدت ﴾، أي: أُرْصِدَت وحُصِّلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال (محمد)(٣) ابن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿ أعدت للكافرين ﴾: أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر.

---

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير القرطبي ٢٣٦/١.
(٣) عن الأصل.

(١)-(وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله: ﴿ أعدت للكافرين ﴾، أي: أرصدت وهُيِّئت. وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في ذلك، مثل «تحاجّت الجنة والنار»، ومنها «استأذنت النارُ ربَّها فقالت: أكل بعضي بعضاً فأذِنَ لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف». وحديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «سمعنا وجبةً فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها». وهو عند مسلم، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى.

وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا، ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس.

تَنْبيهٌ ينبغي الوقوفُ عليه قوله: ﴿ فأتوا بسورةٍ من مثله ﴾ تَعُمُّ كلَّ سورة في القرآن طويلةً كانت أو قصيرةً، لأنها نكرةٌ في سياق الشرط فتَعُمّ، كما هي في سياق النفي، عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً وقال الإمام العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره: فإن قوله ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ يتناول سورة الكوثر، وسورة العصر، ﴿ وقل يا أيها الكافرون ﴾، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن. فإن قلتم: إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر، كان ذلك مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق التهم إلى الدين. قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم عند المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزاً، وعلى كلا التقديرين يحصل العجزُ هذا لفظه بحروفه.

والصواب أنّ كلَّ سورةٍ من القرآن معجزة، لا يستطيع البشر معارضتها، طويلةً كانت أو قصيرةً، قال الشافعي رحمه الله، لو تَدَبَّر الناس هذه السور لكفتهم: ﴿ والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم فقال له مسيلمة: ماذا نزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ قال: ﴿ والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا ﴾ إلى آخرها ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليّ مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: ﴿ يا وبر، يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك جفر نقر ﴾. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب)-(١).

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين بالله تعالى وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين بالله تعالى وبرسله، الذين صَدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن «مثاني» على أصح أقوال العلماء، كما سنبسطه في موضعه، إن شاء الله، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله ذكر الشيء ومقابله. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك المتشابه، كما سنوضحه إن شاء الله، فلهذا قال تعالى: ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء في الحديث أن أنهارها تجري من غير أخدود، وجاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما،

وطينها المسك الأذفر[١]، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله تعالى من فضله وكرمه إنه هو البر الرحيم.

وقال ابن أبي حاتم: قرىء على الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء ابن قرّة عن عبدالله بن ضمرة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: أنهار الجنة تُفَجَّر من تحت تلال ـ أو من تحت جبال ـ المسك».

وقال أيضاً: حدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبدالله بن مرة، عن مسروق. قال: قال عبدالله: أنهار الجنة تفجر من جبل مسك».

وقوله تعالى: ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مُرّة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل﴾، قال: إنهم أتوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في دار الدنيا.

وهكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ونصره ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿ قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ﴾، قال: معناه مثل الذي كان بالأمس. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون ما أشبهه به.

قال ابن جَرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك: هذا الذي رُزِقنا من ثمار الجنة من قبل هذا، لشدَّة مشابهة بعضه بعضاً، لقوله تعالى: ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ قال سُنَيد بن داود: حَدّثَنا شَيْخٌ من أهل المصِّيصَة، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، قال: يؤتى أحدهم بالصَّحْفَةِ من الشيء، فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل. فتقول الملائكة: كُلْ، فاللون واحد، والطعم مختلف[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عامر بن يَسَاف، عن يحيى بن أبي كثير، قال: عشبُ الجنةِ الزعفرانُ، وكُثبانها المسكُ، ويطوفُ عليهم الولدانُ بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي أتيتُمونا آنفاً به. فيقول لهم الوِلدانُ: كلوا، فإن اللَّونَ واحدٌ، والطعمَ مختلفٌ. وهو قول الله تعالى: ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾، قال: يشبه بعضه بعضاً، ويختلف في الطعم.

وقال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن مجاهد، والربيع بن أنس، والسدِّيِّ، نحو ذلك.

وقال ابن جَرير بإسناده عن السدِّيِّ في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس. وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ يعني في اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم.

وهذا اختيارُ ابن جرير.

وقال عكرمة ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾، قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب.

وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: لا يُشبِه شَيْءٌ مما في الجنةِ ما في الدنيا إلا في الأسماء. وفي رواية ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. رواه ابن جريرٍ، من رواية الثوري،

(١) أي: الطيب الريح.

(١) تفسير الطبري ١٧/١.

وابن أبي حاتم من حديث أبي معاوية، كلاهما عن الأعمش، به.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾، قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابهاً، يعرِفُونه وليس هو مثله في الطعم.

وقوله تعالى: ﴿ ولهم فيها أزواجٌ مطهرة ﴾، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى.

وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد.

وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم. وفي رواية عنه: لا حيض ولا كلف. وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبي صالح وعطية والسدي نحو ذلك.

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: المطهرة التي لا تحيض. قال: وكذلك خُلِقت حواءُ ـ عليها السلام ـ حتى عَصَت، فلما عَصَت قال الله تعالى: إني خلقتُكِ مطهَّرة وسأُدميكَ كما أَدْمَيْتِ هذه الشجرةَ. وهذا غريب.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثني جعفر بن محمد بن حرب، وأحمد بن محمد الجُوزي[1]، قالا: حدثنا محمد بن عبيد الكندي، حدثنا عبد الرزاق بن عمر البَزيعيّ، حدثنا عبدالله بن المبارك، عن شعبة، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿ ولهم فيها أزواجٌ مطهَّرةٌ ﴾ قال: من الحيضِ والغائطِ والنُخامة والبُزَاقِ.

هذا حديث غريب. وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن محمد بن يعقوب، عن الحسن بن علي بن عفان، عن محمد بن عبيد، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وهذا الذي ادعاه فيه نظر؛ فإن عبد الرزاق بن عمر البزيعي هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البُسْتِي: لا يجوز الاحتجاج به.

قلت والأظهر أن هذا من كلام قتادة ـ كما تقدم ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ هذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم في مَقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم أبدي على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم، إنه جواد كريم، بر رحيم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود،

(١) في الأصل: الحواري.

وعن ناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ وقوله: ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: ﴿ هم الخاسرون ﴾.

وقال عبدُ الرزاق، عن مَعمرٍ، عن قتادَةَ: لما ذكر الله العنكبوتَ والذُّبابَ، قال المشركون: ما بالُ العنكبوت والذباب يُذكران؟ فأنزل الله: ﴿ إن الله لا يستَحْيي أن يضرِبَ مثلاً ما بعوضة فما فوقها ﴾.

وقال سعيدٌ، عن قتادَةَ: أي إنَّ الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئاً ما، قل أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: ﴿ إن الله لا يستَحْيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ﴾.

قلتُ: العبارةُ الأولى عن قتادةَ فيها إشعارٌ أن هذه الآية مكية، وليس كذلك، وعبارةُ رواية سعيد، عن قتادةَ أقربُ والله أعلم. وروى ابن جُرَيجٍ عن مجاهدٍ نحوَ هذا الثاني عن قتادة.

وقال ابنُ أبي حاتم: روى عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدي وقتادة.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثلٌ ضرَبَه الله للدنيا؛ إذ البعوضةُ تحيا ما جاعت، فإذا سَمِنت ماتَتْ. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلأوا من الدنيا رِيّاً أخذهم الله تعالى عند ذلك، ثم تلا: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾.

هكذا رواهُ ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية، بنحوه، فالله أعلم.

فهذا اختلافُهم في سبب النزول، وقد اختار ابنُ جرير ما حكاه السدي، لأنه أمس بالسورة، وهو مناسب، ومعنى الآية أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيي، أي: لا يستنكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلاً ما، أي: أيّ مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً.

وما ههنا للتقليل، وتكون بعوضة منصوبة على البدل، كما تقول: لأضربن ضرباً ما، فيصدق بأدنى شيء: واختار ابن جرير أن ما موصولة، وبعوضة معربة بإعرابها، قال: وذلك سائغ في كلام العرب، أنهم يعربون صلة ما ومن بإعرابهما لأنهما يكونان معرفة تارة، ونكرة أخرى، كما قال حسان بن ثابت[(١)]:

وَكَفَى بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حُـبُّ النَّبِيِّ مُـحَمَّـدٍ إِيَّـانَـا

قال: ويجوز أن تكون بعوضة منصوبة بحذف الجار، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين[(٢)] بعوضة إلى ما فوقها. (وهذا[(٣)] الذي اختاره الكسائي والفراء، وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبي عبلة ورؤبة: بعوضةٌ؟ بالرفع، قال أبو [الفتح] بن جني[(٤)] ويكون صلة لما وحُذِف العائد كما في قوله: تماماً على

---

(١) ليس في ديوانه، وهو من شواهد الكتاب ٢/١٠٥.

(٢) سقط من الأصل، وانظر البحر المحيط ١/١٢٢.

(٣) في الأصل: وهكذا.

(٤) في الأصل: أبو حيىٍّ. وابن كثير معتمد في هذا على القرطبي، وقال القرطبي ١/٢٠٨ قال أبو الفتح. وانظر المحتسب ١/٦٤.

الذي أحسن) أي: على الذي هو[١] أحسن وحكى سيبويه: ما أنا[٢] بالذي قائلٌ لك شيئاً. أي: بالذي[٣] هو قائل لك شيئاً.

وقوله: ﴿ فما فوقها ﴾ فيه قولان، أحدهما: فما دونها من الصغر والحقارة كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول القائل: نعم، وهو فوق ذلك، يعني فيما وصفت. وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة، قال الرازي: وأكثر المحققين وفي الحديث: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء والثاني: فما فوقها فما هو أكبر منها، لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة. وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير. ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما من مُسلمٍ يُشَاكُ شوكةً فما فوقها إلا كتبت له درجة ومُحِيت عنه بها خطيئة»[٤].

فأخبر أنه لا يَسْتَصْغِر شيئاً يَضْرب به مثلاً ولو كانَ في الحقارة والصِّغَر كالبعوضةِ، كما ضُربَ المثلُ بالذباب والعنكبوت في قوله: ﴿ يأيها الناس، ضُرِبَ مثلٌ فاستَمِعُوا له؛ إن الذينَ تدعونَ من دون الله لَن يَخلُقُوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يَسلُبهم الذبابُ شيئاً لا يَستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ وقال: ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ وقال تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة أصلُها ثابتٌ وفرعها في السماء. تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾. وقال تعالى: ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾. الآية، ثم قال: ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ﴾ الآية. كما قال: ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ الآية. وقال: ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركـاء متشاكسون ﴾. الآية. وقد قال تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾. وفي القرآن أمثال كثيرة.

قال بعضُ السلفِ: إذا سمعتُ المثلَ في القرآن فَلَم أَفْهَمْه بَكَيتُ على نَفْسِي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وتلك الأمثال نَضْرِبها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾.

وقال مجاهدٌ: في قوله تعالىٰ: ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فيما فوقها ﴾: الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها.

وقال قتادة: ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾: أي يعلمون أنه كلام الرحمن، وأنه من عند الله.

ورُوِي عن مجاهد والحسن والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك.

وقال أبو العالية: ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمونَ أنَّه الحقُّ من ربهم ﴾: يعني هذا المثلَ: ﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أرادَ الله بهذا مثلاً ﴾ كما قال في سورة المدَّثر: ﴿ وما جعلنا أصحابَ النارِ إلا ملائكةً وما جعلنا

(١) في الأصل: على الذي أحسن هو أحسن.
(٢) في الأصل: ما أتانا بالذي. وانظر بالكتاب ٢/٤٠٤.
(٣) في الأصل: أي: يعني بالذي...
(٤) مسلم، كتاب البرّ والصلة والآداب ١٩٩١.

عِدَّتهم إلا فتنةً للذين كفروا لِيَسْتَيقن الذين أُوتوا الكتاب وَيَزداد الذين آمنوا إيماناً، ولا يرتابَ الذين أُوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً، كذلك يُضِلُّ الله من يشاء ويَهْدِي من يشاءُ، وما يعلم جنودَ ربك إلا هو ﴾، وكذلك قال ههنا: ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾.

قال السُّدِّيُّ في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرَّة، عن ابن مسعود ـ وعن ناس من الصحابة: ﴿يُضِلّ به كثيراً ﴾ ـ يعني المنافقين ـ ﴿ ويهدي به كثيراً ﴾ ـ يعني المؤمنين ـ فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً، من المثل الذي ضربه الله بما ضربه لهم، وأنه ـ لِما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به ﴿ ويهدي به ﴾ يعني بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لِما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ قال: هم المنافقون.

وقال أبو العالية: ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ قال: هم أهل النفاق. وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال ابن جُرَيج عن مجاهد، عن ابن عباس ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ يقول: يعرفه الكافرون فيكفرون به.

وقال قتادةُ ﴿ وما يُضِلّ به إلا الفاسقين ﴾: فَسَقوا فأضلَّهم اللهُ على فسقهم.

وقال ابن أبي حاتم: حُدِّثتُ عن إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن عمرو بن مُرَّة، عن مُصعَب بن سعد، عن سَعدٍ ﴿ يُضِل به كثيراً ﴾: يعني الخوارج.

وقال شعبة، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن مُصعَب بن سَعْدٍ، قال: سألتُ أبي فقلت: قوله تعالى: ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ إلى آخر الآية، فقال: هم الحَرورية.

وهذا الإسناد إن صَحَّ عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ فهو تفسير على المعنى، لا أن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج، الذين خرجوا على علي بالنهروان، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل؛ لأنهم سموا خوارج على طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام.

والفاسق في اللغة: الخارجُ عن الطاعة أيضاً. وتقول العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ إذا خَرجت من قشرتها، ولهذا يقال للفأرة: فُوَيسِقَةٌ، لخروجها عن جُحْرِها للفساد. وثبت في الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «خمسٌ فواسقَ يُقتَلن في الحل والحرم: الغراب، والحِدَأَةُ، والعقرب، والفأرة، والكلبُ العقور»(١).

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسْق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل أنه وصفهم بقوله: ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾.

وهذه الصفاتُ صفاتُ الكفارِ المباينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟ إنما يتذكر أولو الألباب. الذين يوفُونَ بعهد الله ولا ينقضون

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق ٤/١٥٧، ومسلم، كتاب الحج ٥٨٦.

الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ الآيات، إلى أن قال: ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾.

وقد اختلف أهلُ التفسير في معنى العهد الذي وصفَ هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رسله. ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بُعِث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقول مقاتل بن حيان.

وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلى جميعهم في توحيده: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم الإقرار بما ثبتت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروي أيضاً عن مقاتل بن حيان نحو هذا، وهو حسن[(١)]- وإليه مال الزمخشريّ فإنه قال: فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز من عقولهم من الحجة، على التوحيد[(٢)] كأنه أمْرٌ وصَّاهم به ووثَّقه عليهم، وهو معنى قوله: ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى ﴾ أو[(٣)] أخذ الميثاق من الكتب المنزلة عليهم، لقوله: ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾-[(١)].

وقال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى ﴾ الآيتين ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به. وهكذا روي عن مقاتل بن حيان أيضاً، حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ إلى قوله: ﴿ الخاسرون ﴾ قال: هي ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظَّهْرَة[(٤)] على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حَدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظَّهْرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا.

وكذا قال الربيع بن أنس أيضاً. وقال السدي في تفسيره بإسناده، قوله تعالى: ﴿ الذين ينقضون عهد الله

---

(١) عن الأصل.

(٢) في الأصل: على التجويد. والمثبت عن الكشاف ١/٩٠.

(٣) في الأصل: إذ أخذ.

(٤) أي: القوة والغلبة.

من بعد ميثاقه ﴾ قال: هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه.

وقوله: ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات، كما فسره قتادة كقوله تعالى: ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ ورجحه ابن جرير. وقيل: أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه.

وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾. قال: في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾.

وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ الخاسرون: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم[١] بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها (الله) لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسر الرجل يخسر خَسْراً وخُسْراناً وخَساراً، كما قال جرير بن عطية:

إن سَلِيطاً في الخَسَارِ إنَّهْ أولادُ قومٍ خُلقُوا أقِنَّه

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ أي: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره! ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ أي: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ وقال: ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ والآيات في هذا كثيرة.

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبدالله بن مسعود، رضي الله عنه ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾. قال: هي التي في البقرة ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾.

وقال ابن جُرَيج[٢]، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿ كنتم أمواتاً فأحياكم ﴾: أمواتاً في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم موتة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم. قال: وهي مثل قوله: ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾. قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى. فهذه ميتتان وحياتان، فهو كقوله: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾.

وهكذا رُوي عن السدي بسنده، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن

---

(٢) في الأصل: وحظوظهم، ونص الطبري ١/١٨٥: حظوظها.
(١) في الأصل: ابن جرير. وانظر تفسير الطبري ١/١٨٦.

مسعود وعن ناس من الصحابة ـ وعن أبي العالية والحسن البصري ومجاهد وقتادة وأبي صالح والضحاك وعطاء الخراساني نَحْو ذلك.

وقال الثوري، عن السّدّي عن أبي صالح ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾. قال: يحييكم في القبر، ثم يميتكم.

وقال ابن جَرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. خلقهم من ظهر آدم فأخذَ[1] عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقول الله تعالى: ﴿ قالوا: ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾.

وهذا غريب والذي قبله. والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس، وأولئك الجماعة من التابعين، وهو كقوله تعالى: ﴿ قل: الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾، [1-](وعبّر عن الحال قبل الوجود بالموت بجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس كما قال في الأصنام: ﴿ أموات غير أحياء ﴾، وقال: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها، وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾[-1].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى دلالةً مِنْ خَلْقهم وما يشاهدونه في أنفسهم، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه مِنْ خلق السموات والأرض، فقال: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾: أي قصد إلى السماء، والاستواء ههنا تَضمَّن معنى القصد والإقبال، لأنه عدي بإلى ﴿ فسواهن ﴾ أي: فخلق السماء سبعاً. والسماء ههنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿ فسواهن ﴾. ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾. أي: وعلمه محيط بجميع الخلق كما قال: ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ وتفصيل هذه الآية في سورة حمّ السجدة وهو قوله: ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء، وهي دخان، فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا: أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها، وزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً، ثم خلق السموات سبعاً، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك. وقد صرح المفسرون بذلك ـ كما سنذكره بعد هذا ـ إن شاء الله. فأما قوله تعالى: ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها ﴾ فقد قيل: إن ﴿ ثم ﴾ ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل، كما قال الشاعر[3]:

قُلْ لمن سادَ ثُمَّ سادَ أبوه   ثم قد ساد قَبْلَ ذلك جَدُّه

(١) عن الأصل.
(٢) في الطبري ١/١٨٧: حين أخذ.
(٣) أبو نواس، ديوانه ٤٩٣.

وقيل: إن الدَّحْيَ كان بعد خلق السموات. رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس.

وقد قال السدِّيُّ في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس ـ وعن مُرّة، عن ابن مسعود ـ وعن ناس من الصحابة: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسماه سماء. ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين ـ في الأحد والاثنين، فخلق الأرض على حوت، والحوتُ هو الذي ذكره الله في القرآن: ﴿ نّ والقلم ﴾، والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر مَلَك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكر لقمان ـ ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب، فتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فَقَرّت، فالجبال تفخر على الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾. وخلق الجبالَ فيها، وأقواتَ أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين، في الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿ قل: أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ﴾. يقول: أنبت شجرها ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ لأهلها ﴿ في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ يقول: من سأل فهكذا الأمر. ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين، في الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض، ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال: خلق الله في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها، من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم، ثم زين السماء بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً، تُحْفَظُ من الشياطين. فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش، فذلك حين يقول: ﴿ خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ ويقول: ﴿ كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا عبدالله بن صالح، حدثني أبو معشر عن سعيد بن أبي سعيد، عن عبدالله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين في الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات في الخميس والجمعة، وفرغ[1] في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم على عَجَل، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ قال: الله خلق الأرض قبل السماء، لما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواهن سبع سموات ﴾. قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين، يعني بعضهن تحت بعض.

[2]-(وهذه الآية دالةٌ على أن الأرض خُلِقت قبل السماء، كما قال في آية السجدة: ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها وزيَّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾، فهذه وهذه دالّتان على أنّ الأرض خُلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه

(١) في الأصل: وآخر. وانظر تفسير الطبري ١/١٩٥.
(٢) عن الأصل.

نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خُلِقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سَمْكَها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءَها ومرعاها ﴾ قالوا: فذكر خلقَ السماء قبل الأرض. وفي صحيح البخاري(١): أن ابن عباس سُئِلَ عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خُلِقت قبل السماء، وأن الأرض إنما دُحِيت بعد خلق السماء. وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسَّر بقوله: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها ﴾ ففسر الدَّحْي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورةُ المخلوقات الأرضية ثم السماوية، دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وأشكالها وكذلك جَرَت الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة. والله تعالى أعلم)-٢).

وقد ذكر ابنُ أبي حاتم وابن مردُويه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير أيضاً، من رواية ابن جُرَيج (قال): أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هُرَيرة، قال: أخذ رسولُ الله - ﷺ - بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل.

وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم(٢)، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأبو هريرة إنما سمعه من كعب الأحبار وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً، وقد حرَّر ذلك البيهقي.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

أخبر تعالى بامتنانه على بني آدم، بتنويهه بذكرهم في الملإ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾، أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية، (وهو أبو عبيدة)(٣) أنه زعم أن إذ ههنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورده ابن جرير. (٣-(قال القرطبي: وكذا ردّه جميع المفسّرين حتى قال الزجاج: هذا اجتراء من أبي عبيدة)-٣).

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾. أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾. وقال: ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾. وقال: ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾. وقال: ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ (٣-(وقُرِىء في الشاذ: إني جاعل في الأرض خليقة حكاها الزمخشري وغيره، ونقلها القرطبي عن زيد بن علي)-٣) وليس المراد ههنا

(١) البخاري، تفسير سورة حمٓ. السجدة ٦/١٥٩ - ١٦٠. وانظر نصّه عند تفسير الآية ٩ - ١١ من سورة فصّلت، فيما يأتي.
(٢) مسلم، كتاب صفات المنافقين ٢١٤٩ - ٢١٥٠.
(٣) عن الأصل.

بالخليفة آدم عليه السلام فقط [١]-(كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس. وجميع أهل التأويل، وفي ذلك تطويل الخلاف في ذلك. حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً)-[١]. إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنّ الله أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صَلْصَال من حمإٍ مسنون [١]-(وفهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردَعُهم عن المحارم والمآثم. قاله القرطبي)-[١] أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض، ولا على وجه الحسد، كما قد يتوهمه بعض المفسرين [١]-(وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً - قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها - فقالوا: أتجعل فيها... الآية)-[١] وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾. أي: أعلم بالمصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

[١]-(وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة إذا صَعِدت إلى الربِّ تعالى بأعمال عباده سألهم - وهو أعلم -: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون، وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيمكث هؤلاء، ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه السلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، فقولهم: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون، من تفسير قوله: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾. وقيل: معنى قوله جواباً لهم: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾: إن لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء، والحالة ما ذكرتم، لا تعلمونها. وقيل: إنه جواب لقولهم: ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. فقال: إني أعلم ما لا تعلمون ﴾، أي: من وجود إبليس بينكم، وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تَضَمَّنَ قولُهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها فخر الدين مع غيرها من الأجوبة، والله تعالى أعلم)-[١].

(ذكر أقوال المفسرين وبسط ما ذكرناه):

قال ابن جرير: حدثني القاسم بن الحسن [قال: حدثنا الحسين قال][٢]: حدثني الحجاج، عن جرير بن حازم، ومبارك، عن الحسن وأبي بكر، عن الحسن وقتادة، قالوا: قال الله للملائكة: ﴿ إني جاعل في الأرض

---

(١) عن الأصل.
(٢) عن تفسير الطبري ١/٢٠٦.

خليفة ﴾ قال لهم: إني فاعل. وهذا معناه أنه أخبرهم بذلك.

وقال السدي: استشار الملائكة في خلق آدم: رواه ابن أبي حاتم، قال: ورُوِيَ عن قتادة نحوه. وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الأخبار ففيها تساهل، [وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير أحسن، والله أعلم](١).

﴿ في الأرض ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد، حدثنا عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط أن رسول الله ﷺ قال: دُحِيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت الملائكة، فقال الله: إني جاعل في الأرض خليفة، يعني مكة.

وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مُدْرَج، وهو أن المراد بالأرض مكة، والله تعالى أعلم؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك.

﴿ خليفة ﴾. قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً.

قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا: إني جاعل في الأرض خليفة منّي، يُخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله، والحكم بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه.

قال ابن جرير: وإنما كان تأويل الآية على هذا الخلافة التي ذكرها الله تعالى، إنما هي خلافة [قرن] منهم قرناً(٢).

قال: والخليفةُ الفعيلةُ من قولك، خَلَف فلانٌ فلاناً في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خَلِيفةٌ، لأنه خَلَفَ الذي كان قبله، فقام بالأمر [مقامه]، فكان منه خَلَفاً.

قال: وكان محمد بن إسحاق يقول في قوله تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ يقول: ساكناً وعامراً يسكُنُها ويعمُرُها خلفاً ليس منكم.

وحدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: أول من سكن الأرضَ الجنُّ، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقوهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. ثم خلق آدم وأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾.

وقال سُفيان الثوريُّ، عن عطاء بن السائب، عن ابن سابط ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ ﴾. قال: يعنون به بني آدم.

وقال عبد الرحمن (بن زيد) بن أسلَمَ: قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها

(١) عن الطبقة السابقة.
(٢) تفسير الطبري ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١. وما بين القوسين عنه.

خليفة، وليس لله، عزّ وجلّ، خلق إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء.

وقد تقدم ما رواه السدي، عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الله أعلم الملائكة بما: تفعل ذريّة آدم، فقالت الملائكة ذلك. وقد تقدم أيضاً ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: أن الجن أفسدوا في الأرض قبل بني آدم، فقالت الملائكة ذلك، فقاسوا هؤلاء بأولئك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن بُكَير بن الأخنس، عن مجاهد، عن عبدالله بن عمرو، قال: كان الجن مُوطَنِين(١) في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم، حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾. قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ إلى قوله: ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾. قال: خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة؛ فكفر قوم من الجن، فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم، فكانت الدماء بينهم، وكان الفساد في الأرض، فمن ثم قالوا: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ كما أفسدت الجن ﴿ ويسفك الدماء ﴾ كما سَفَكُوا.

قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مبارك بن فضالة، حدثنا الحسن، قال: قال الله للملائكة: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ قال لهم: إني فاعل. فآمنوا بربهم، فعلمهم علماً وطوى علماً عليهم فلم يعلموه، فقالوا: بالعلم الذي علمهم: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون ﴾.

قال الحسن: إن الجن كانوا يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله في قلوبهم أن ذلك سيكون، فقالوا بالقول الذي عَلَّمهم.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾: كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خَلْق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا: ﴿ أتجعل فيها مَن يفسد فيها ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام الرازي، حدثنا ابن المبارك، عن معروف ـ يعني ابن خَرَّبُوذ المكي ـ عمن سمع أبا جعفر محمد بن علي يقول: السِّجِلّ(٢) ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور، فأسَرّ ذلك إلى هاروت وماروت، وكانا من أعوانه، فلما قال تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ ﴾ قالا ذلك استطالة على الملائكة.

وهذا أثر غريب، وبتقدير صحته إلى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقر، فهو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده، والله أعلم. ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط، وهو خلاف السياق.

---

(١) في الأصل: موطآن. وفي تفسير ابن أبي حاتم: (كان الجن بنو الجان في الأرض).
(٢) انظر تفسير الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء.

وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم أيضاً حيث قال: حدثنا أبي: حدثنا هشام بن أبي عَبْدالله، حدثنا عبدالله ابن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: إن الملائكة الذين قالوا: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ ﴾. كانوا عشرة آلاف، فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم.

وهذا أيضاً إسرائيلي منكر كالذي قبله، والله أعلم.

وقال ابن جريج: إنما تكلموا بما أعلمهم الله (أنه) كائنٌ من خلق آدم، فقالوا: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾.

قال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك، بعدما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة، فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم!؟ فأجابهم ربهم: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾، يعني أن ذلك كائن منهم. وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض من ترونه لي طائعاً.

قال: وقال بعضهم: ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكأنهم قالوا: يا رب خبرنا ـ مسألة الملائكة استخبارٌ منهم ـ لا على وجه الإنكار[1]. واختاره ابن جرير.

-[2](قال سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿ وإذ قال ربكم للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ فاستشار الملائكة في خلق آدم، فقالوا: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ وقد عَلِمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء أكرهُ إلى الله من سفك الدماء والفساد في الأرض ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾، قال: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾، فكان من علم الله أنه سيكـون من تلك الخليفة أنبياء ورُسُلٌ وقومٌ صالحون وساكنو الجنة قال: وذكرنا عن ابن عباس أنه كان يقول إن الله لما أخذ في خلق آدم قالت الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا، ولا أعلم منّا. فابتُلوا بخلق آدم، وكل خلق مبتلًى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة، فقال: ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا: أتينا طائعين ﴾)-[2].

وقوله تعالى: ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة. التسبيحُ: التسبيحُ[1]، والتقديس: الصلاة.

وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ قال: ويقولون: نصلي لك.

وقال مجاهد: ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ قال: نعظمك ونكبرك.

وقال الضحاك: التقديس: التطهير.

وقال محمد بن إسحاق ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ قال: لا نعصي ولا نأتي شيئاً تكرهه.

وقال ابن جرير: التقديس هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سُبُّوح قُدُّوس، يعني بقولهم: سُبوح، تنزيه له، وبقولهم: قدوس، طهارة وتعظيم له. ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعني بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذاً: ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾، ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهلُ الشرك بك ﴿ ونقدس

(١) في الأصل: الاستنكار. ولفظ الطبري ٢٠٨/١: «مسألة استخبار منهم لله لا على وجه مسالة التوبيخ».

لك ﴾، ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك. -[١](ومن صحيح مسلم، عن أبي ذر أن رسول الله ـ ﷺ ـ سُئِل: أيُّ الكلام أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده. وروى البيهقي عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة أسري به سمع تسبيحاً في السموات العلى: سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى)-[١].

﴿ قالَ: إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ قال قتادة: فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، وسيأتي عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال في حكمة قوله تعالى: ﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾. -[٢](وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة؛ ليفصل بين الناس فيما يختلفون فيه، ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمَّة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنّة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقوله آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق في عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما أو تركه شورى في جماعة صالحين لذلك كما فعل عمر أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو مبايعة واحد منهم له، فيجب التزامها عند الجمهور، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله تعالى أعلم. أو يقهر واحد الناسَ على طاعته، فتجب لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف، وقد نص عليه الشافعي. وهل يجب الإشهادُ على عقد الإمامة؟ فيه خلاف، منهم من قال: لا يشترط، وقيل: بلى ويكفي شاهدان. وقال الجبّائي: يجب أربعة، وعاقد ومعقود له، كما ترك عمر الأمر شورى من ستة، فوقع الأمر على عاقد ـ وهو عبد الرحمن بن عوف ـ ومعقود له ـ وهو عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه، واستنبط وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين. وفي هذا نظر، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي، ولا المعصوم من الخطأ، خِلافاً لغلاة الروافض. ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح لا ينعزل، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إلاّ أن تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عندكم من الله فيه برهان».

وهل له أن يَعْزِلَ نَفْسه؟ فيه خلاف، وقد عزل الحسن بن علي نفسه وسلَّم الأمر إلى معاوية ـ رضي الله عنه ـ ولكن هذا لعُذر[٣]، وقد مدح على ذلك.

فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه السلام: «من جاءكم وأمركم جميعٌ يريد أن يُفرِّق بينكم فاقتلوه، كائناً من كان». وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماعَ على ذلك غَيْـرُ واحد، منهم إمام الحرمين. وقالت الكرّامية: يجوز نصب إمامين فأكثر، كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطاعة. قالوا: وإذا جاز بعثة نبيين في وقت واحد وأكثر، جاز ذلك في الإمامة، لأن النبي أعلى رتبة بلا خلاف. وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوَّز نصب إمامين وأكثر إذا تباعدت الأقطار، واتّسعت الأقاليم، وتردَّدَ إمام الحرمين في ذلك. قلت: وهذا شبه حال خلفاء بني العباس بالعراق، والفاطميين بمصر، وغيرهم بالمغرب)-[٢].

---

(١) ما بين القوسين عن الاصل.

(٢) عن الأصل.

(٣) في الأصل: «ولكن كان هذا العذر».

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شَرَف آدم على الملائكة، بما اختصه[١] به من عِلْم أسماء كلّ شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قدم هذا الفصل على ذلك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم الله تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون. ولهذا ذكر تبارك وتعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾.

قال السدي، عمن حدثه، عن ابن عباس ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾. قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً [إنساناً]، والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس.

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ قال: هي هذه الأسماء التي تتعارف بها الناس: إنسان، ودابةٌ [وسماء][٢] وأرض، وسهل، وبحر، وجمل[٣]، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديثِ عاصم بن كليب، عن سعيد بن معبد، عن ابن عباسَ ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾. قال: علمه اسم الصحفة والقدر، قال: نعم، حتى الفَسْوةِ والفُسَيَّة.

وقال مجاهد ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ قال: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء.

وكذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء. وقال الربيع في رواية عنه: أسماء الملائكة. وقال حميد الشامي: أسماء النجوم. وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم.

واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية، لأنه قال: ﴿ ثم عرضهم ﴾ وهذا عبارة عما يعقل: وهذا الذي رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي[٤] أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب. كما قال: ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾.

(٥-(وقد قرأ عبدالله بن مسعود: ﴿ثم عرضهُنَّ﴾. وقرأ أبي بن كعب: ﴿ثم عرضها﴾ أي: المسميات)-٥).

والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وأفعالِها؛ كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفُسَيّة. يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر؛ ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية، من كتاب التفسير، من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام، حدثنا[٦] قتادة، عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: ـ وقال لي خليفة: (حدثنا)[٢] يزيد بن زُرَيع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال:

---

(١) في الأصل: استخصّه.
(٢) ليست في الأصل.
(٣) في الأصل: وجبل.
(٤) في الأصل: لا ينبغي.
(٥) عن الأصل.
(٦) في الأصل: عن قتادة.

يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدَمَ فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لَسْتُ هُناكُمْ ويذكر ذنبه فيستحي؛ ائتوا نوحاً فإنه أول رسولٍ[١] بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هُناكُم. ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحيي. فيقول: ائتوا خليل الرحمن، فيأتونه، فيقول: لست هُناكم؛ فيقول: ائتوا موسى عَبْداً كَلَّمه الله، وأعطاه التوراة، فيأتونه، فيقول: لست هُناكُمْ. ويذكر قَتْلَ النفس بغير نفس، فيستحيي من ربه؛ فيقول ائتوا عيسى عَبْدَالله ورسولَه وكَلِمةَ الله وروحه، فيأتونه، فيقول: لست هُناكُمْ؛ ائتوا محمداً عبداً غَفَر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأنطلق حتى أستأذن على ربي، فيُؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعتُ ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يُسْمَع، واشفع تُشَفَّع، فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد[٢] يُعَلِّمُنِيه، ثم أشفع فَيَحُدُّ لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، فإذا رأيتُ ربِّي مثلَه[٣]، ثم أشفع فَيَحُدّ لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا مَنْ حبسه القرآن ووجب عليه الخلود[٤].

هكذا ساق البخاريُّ هذا الحديث ههنا. وقد رواه مسلم والنسائي من حديث هشام ـ وهو ابن أبي عبدالله الدَّسْتُوائي ـ عن قتادة، به. وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث سعيد ـ وهو ابن أبي عروبة ـ عن قتادة، به وجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام «فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء» فدل هذا على أنه علِمَ أسماء جميع المخلوقات. ولهذا قال: ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ يعني المسميات؛ كما قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة. قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة ﴿ فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾.

وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ ثم عرض الخَلْق على الملائكة.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿ ثم عرضهم ﴾ عرض أصحاب الأسماء على الملائكة.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج، عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة، عن الحسن ـ وأبي بكر، عن الحسن وقتادة ـ قالا: علمه اسم كل شيء، وجعل يسمي كل شيء باسمه، وعُرِضت عليه أمة أمة.

وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة، في قوله: ﴿ إن كنتم صادقين ﴾. إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

[وقال] الضحاك عن ابن عباس ﴿ إن كنتم صادقين ﴾: إن كنتم تعلمون[٥] لم أجعل في الأرض خليفة؟

وقال السدّيّ، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرَّة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

(١) في الأصل: نبي.
(٢) في الأصل: تحميداً.
(٣) في الأصل: فإذا رأيته عملت مثله.
(٤) البخاري، كتاب التفسير ٦/٢١ ـ ٢٢.
(٥) في الأصل: عالمين. وانظر الأثر في تفسير الطبري ١/٢١٩.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عَرَضْتُه عليكم أيتها الملائكة القائلون: أتجعل في الأرض من يفسد فيها(١) ويسفك الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قِيلكم: [أني] إنْ جعلتُ خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجودٍ من الأمور الكائنة التي لم تُوجَدْ أحرى أن تكونوا غير عالمين.

قالوا: ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾.

هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى، ولهذا قالوا: ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك، والعدل التام.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفصُ بن غياثٍ، عن حجاج، عن ابن أبي مُلَيكَةَ، عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. قال: ثم قال عُمَر لعلي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناها، فما سبحان الله؟ فقال [له] علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن تقال.

قال: وحدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا النضر بن عربي، قال: سأل رجلٌ ميمونَ بن مِهرانَ عن «سبحان الله» فقال: اسم يُعَظَّم الله به، ويُحَاشَى به من السوءِ.

وقولُه تعالى: ﴿ قال: يا آدم، أنبئهم بأسمائهم. فلما أنبأهم بأسمائهم، قال: ألم أقل لكم: إني أعلم غَيبَ السمواتِ والأرضِ، وأعلم ما تُبدون، وما كنتم تَكتُمُونَ ﴾.

قال زيد بن أسلم: قال: أنت جبريلُ، أنت ميكائيلُ، أنت إسرافيلُ، حتى عَدَّد الأسماءَ كُلَّها، حتى بلغ الغُرابَ.

وقال مجاهد في قول الله: ﴿ يا آدم، أنبئهم بأسمائهم ﴾ قال: اسم الحمامة، والغراب واسم كل شيء.

ورُوِيَ عن سَعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادةَ، نحوُ ذلك.

فلما ظهر فضلُ آدم ـ عليه السلام ـ على الملائكة عليهم السلام في سَرْده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿ ألم أقل لكم إني أعلمُ غيب السموات والأرض وأعلم ما تُبدونَ وما كنتم تَكتمون ﴾، أي: أَلَمْ أتقدَّم إليكم أني أعلمُ الغيبَ الظاهرَ والخفيَّ، كما قال تعالى: ﴿ وإن تَجْهَرْ بالقولِ فإنه يعلمُ السرَّ وأخفى ﴾ وكما قال تعالى إخباراً عن الهدهُد أنه قال لسليمان: ﴿ ألا يسجدُوا لله الذي يُخرِجُ الخَبْءَ في السمواتِ والأرضِ ويعلمُ ما تخفُونَ وما تُعلِنُونَ ◈ الله لا إله إلا هو ربُّ العرشِ العظيم ﴾.

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ غيرُ ما ذكرناه؛ فروى الضحاك، عن ابن عباس ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾. قال: يقول: أعلم السرَّ كما أعلم العلانية، يعني ما كَتَم إبليس في نفسه من الكِبْر والاغترار.

---

(٥) في الأصل: يفسد في الأرض.

وقال السّديُّ، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، قال: قولُهم: ﴿ أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾: يعني ما أسرّ إبليسُ في نفسه من الكبر. وكذلك قال سعيد بن جُبَير، ومجاهد، والسدّيُّ، والضحاك، والثوريُّ. واختار ذلك ابن جرير.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة: هو قولهم: لم يخلق ربّنا خلقاً إلا كُنّا أعلم منه وأكرم عليه منه.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿ وأعلم ما تبدونَ وما كنتم تكتمون ﴾ فكان الذي أبدوا قولهم: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ وكان الذي كتموا بينهم قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم، والكرم.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قصة الملائكة وآدم. فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندي قد علمتُه، ولذلك أخفيت عنكم أني أجعل فيها من يعصيني ومن يُطِيعني، قال: وسَبَقَ من الله: ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال: فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك قولُ ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿ وأعلم ما تبدون ﴾ وأعلم ـ مع علمي غيبَ السموات والأرض ـ ما تُظهرونه بألسنتكم (وما كنتم [تكتمون) وما كنتم][1] تخفونه في أنفسكم، فلا يخفى عَلَيّ شيء، سواء عندي سرائركم، وعلانيتكم. والذي أظهروه بألسنتهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذي كانوا يكتمون ما كان عليه منطوياً إبليس من الخلاف على الله في أوامره، والتكبر عن طاعته.

قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِل الجيش وهُزموا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهُزِم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين ينادونكَ من وراء الحجرات ﴾ ذُكِر أن الذي نادى إنما كان واحداً من بني تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى عليه السلام «ربِّ، أرني آدم الذي أخرجنا ونفسَه من الجنة، فلما اجتمع به قال: أنت آدم الذي خلقه [الله] بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته. قال: ـ وذكر الحديث كما سيأتي.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بِشْر بن عُمارة، عن أبي رَوق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: كان إبليس من حَيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجِنّ، خلقوا من نار السموم،

(١) عن تفسير الطبري ١/٢٢٣.

من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحي. قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة ـ وهم هذا الحي الذين يقال لهم: الجنّ ـ فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه، فقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. قال: فاطّلع الله على ذلك [من قلبه]، ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه، فقال الله تعالى للملائكة الذين معه: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾. فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ كما أفسدت الجن؛ وسفكت الدماء، وإنما بعثتنا عليهم لذلك؟ فقال: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾. يقول: إني قد اطلعت من(1) قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره قال: ثم أمر بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب ـ واللازب: اللزج الصلب ـ من حمإ مسنون منتن، وإنما كان حَمَأً مسنوناً بعد التراب. فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى. فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، فيصلصل، أي: فيصوت، قال: فهو قول الله تعالى: ﴿ من صلصال كالفخار ﴾. يقول: كالشيء المنفرج الذي ليس بمُصْمَت. قال: ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره، ويدخل من دبره ويخرج من فيه. ثم يقول: لست شيئاً ـ للصلصلة ـ ولشيء ما خلقتَ، ولئن سُلِّطتُ عليك لأهلكنك، ولئن سُلِّطتَ عليّ لأعصيَنَّك. قال: فلما نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً. فلما انتهت النفخة إلى سُرّته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى: ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ قال: ضَجِر لا صَبْرَ له على سراء ولا ضراء قال: فلما تمت النفخة في جسده عطس، فقال: «الحمد لله رب العالمين» بإلهام الله. فقال له: «يرحمك الله يا آدم». قال: ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات: اسجدوا لآدم. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر، لِمَا كان حدث نفسه من الكبر والاغترار. فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقاً، خلقتني من نار وخلقته من طين. يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله، أي: آيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً عُقُوبة لمعصيته ثم علم آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة، يعني الملائكة الذين كانوا مع إبليس، الذين خلقوا من نار السموم ـ وقال لهم: ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إن كنتم تعلمون لِمَ أجعل في الأرض خليفة. قال: فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب، الذي لا يعلمه غيره، الذي ليس لهم به علم قالوا: سبحانك، تنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره ـ وتبنا إليك ﴿ لا علم لنا إلاّ ما علمتنا ﴾ تبرّياً منهم من علم الغيب، إلاّ ما علمتنا كما علمت آدم، فقال: ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ يقول: أخبرهم بأسمائهم ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم ﴾ أيها الملائكة خاصة ﴿ إني أعلم غيب السموات والأرض ﴾ ولا يعلم غيري ﴿ وأعلم ما تبدون ﴾ يقول: ما تظهرون ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار(2).

هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر، يطول مناقشتها، وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور.

---

(1) في الأصل: على. والمثبت عن تفسير الطبري.

(2) تفسير الطبري ١/٢٠١ ـ ٢٠٢.

وقال السُّدّي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ: لما فَرَغ الله من خلق ما أحبَّ استوى على العرش، فجعل إبليس على مُلْك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سُمُّوا الجن لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع مُلْكه خازناً، فوقع في صدره[1] وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي على الملائكة. فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه. فقال الله للملائكة: ﴿ إني جاعلٌ في الأرض خليفة ﴾ قالوا: ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. قالوا: ربنا، ﴿ أتجعلُ فيها من يُفسِد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ يعني من شأن إبليس. فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني فرجع ولم يأخذ، وقال: ربِّ، إنها أعاذت بك فأعذتُها، فبعث ميكائيل، فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل فبعث مَلَك الموت فعاذت منه. فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض، وخَلَطَ ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعِد به فَبَلّ التراب حتى عاد طيناً لازباً ـ واللازب: هو الذي يلتزق بعضه ببعض ـ ثم قال للملائكة: ﴿ إني خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه، ليقول له: تتكبر عما عملت بيديّ، ولم أتكبر أنا عنه بخلقه بشراً، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم فزِعاً منه إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوِّت الجسد كما يصوت الفخار، يكون له صلصلة. فذلك حين يقول: ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ ويقول: لأمر ما خُلِقتَ. ودخل من فيه فخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا، فإن ربكم صَمَدٌ وهذا أجوف. لئن سُلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذي يريد الله عزّ وجلّ أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الروح فدخل الروحُ في رأسه، عَطِسَ، فقالت الملائكة قل: الحمدُ لله. فقال: الحمدُ لله. فقال له الله: رَحِمك ربك. فلما دخلت الروحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنة. فلما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثَب قبل أن تدخل الروح رجليه عجلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول تعالى: ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾، أبى واستكبر وكان من الكافرين. قال الله له: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدي؟ قال: أنا خير منه لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين. قال الله له: ﴿ اخرُج منها فما يكون لك ﴾ يعني ما ينبغي لك ﴿ أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ والصَّغار: هو الذل. قال: ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة ﴿ فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا: ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما عَلّمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾. قال الله: ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيبَ السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ قال: قولهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿ وأعلم ما تكتمون ﴾ يعني ما أسر إبليس في نفسه من الكبر.

فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السّدّي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مُدرَج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم. والحاكم يروي في

(١) في تفسير الطبري ١/٢٠٣: فوقع في صدره كبر.

مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء، ويقول: هو على شرط البخاري.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليسُ في خطابهم، لأنه ـ وإن لم يكن من عُنْصرهم ـ إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر. وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾.

ولهذا قال محمد بن إسحاق، عن خلاد، عن عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس: قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل(١)، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً؛ فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمون جِنًّا.

وفي رواية عن خلاد، عن عطاء، عن طاوس ـ أو مجاهد ـ عن ابن عباس، أو غيره، بنحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد ـ يعني ابن العوام ـ عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: كان إبليس اسمه عزازيل(١)، وكان من أشراف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعد.

وقال سُنَيد، عن حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس، سواء.

وقال صالح مولى التَّوْأمة، عن ابن عباس: إن من الملائكة قَبيلاً يقال لهم: الجن، وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً. رواه ابن جرير.

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عَدِيُّ بن أبي عَدِيٍّ، عن عوف، عن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَطُّ، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس. وهذا إسناد صحيح عن الحسن. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواءً.

وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، رواه ابن جرير.

وقال سنيد بن داود: حدثنا هشيم(٢)، أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى، عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد ابن كامل، عن سعد بن مسعود، قال: كانت الملائكة تقاتل الجن، فسبي إبليس وكان صغيراً، فكان مع الملائكة، فتعبد معها، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس. فلذلك قال تعالى: ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن سنان القزاز، حدثنا أبو عاصم، عن شَريك، عن رجل، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: إن الله خلق خلقاً، فقال: اسجدوا لآدم. فقالوا: لا نفعل. فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم ثم خلق خلقاً آخر، فقال: إني خالق بشراً من طين، اسجدوا لآدم. قال: فأبوا. فبعث الله عليهم ناراً

---

(١) في الأصل: عزرائيل.

(٢) في الأصل: هشام. انظر تهذيب التهذيب ٤/٢٤٤، وتفسير الطبري ١/٢٢٦.

فأحرقتهم. ثم خلق هؤلاء، فقال: اسجدوا لآدم. قالوا: نعم. وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم(١).

وهذا غريب، ولا يكاد يصح إسناده، فإن فيه رجلاً مبهماً(٢)، ومثله لا يحتج به، والله أعلم.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم أكرم الله تعالى آدم أن أسجد له ملائكته.

(٣-(وقال بعض الناس، كان هذا سجودَ تحيةٍ وسلام وإكرام، كما قال تعالى: ﴿ ورفع أبويه على العرش وخَرُّوا له سجداً، وقال: يا أبت، هذا تأويل رؤياي من قبل، قل جعلها ربي حقاً ﴾ وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا. قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحَقُّ أن أسجد لك. فقال: «لا، لو كنتُ آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»(٤)، من عظم حقه عليها، ورجحه الرازي.

وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها، كما قال: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾. وفي هذا التنظير نظر، والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراماً وتعظيماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله عزّ وجلّ، لأنها امتثال أمره تعالى. وقد قَوَّاه فخر الدين الرازي في تفسيره، وضعَّف ما عداه من القولين الآخرين، وهو كونه قبلةً، إذ لا يظهر فيه شرف؟

والآخر أن المراد بالسجود الخَضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض. وهو ضعيف، كما قال)-٣).

وقال (قتادة)(٣) في قوله تعالى: ﴿فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾(١) حَسَد عدوُّ الله إبليسُ آدمَ عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. وكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

(٣-(قلت: قد ثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنةَ منَ في قلبه مثقالُ حَبَّة خردلٍ من كبر». وقد كان في قلب إبليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحظيرة القدس)-٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا صالح بن حيان، حدثنا عبدالله بن برَيدة: قوله تعالى: ﴿ وكان من الكافرين ﴾ من الذين أبوا، فأحرقتهم النار.

وقال أبو جعفر عن الربيع، عن أبي العالية ﴿ وكان من الكافرين ﴾ يعني من العاصين.

وقال السدي ﴿ وكان من الكافرين ﴾: الذين لم يخلقهم الله [يومئذ] يكونون بعد.

وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصيره إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر، قال الله تعالى: ﴿ وكان من الكافرين ﴾. (٣-(قال محمد بن نصر

---

(١) تفسير الطبري ١/٢٢٧.
(٢) في الأصل: متهماً.
(٣) عن الأصل.
(٤) انظر تفسير الآية ١٠٠ من سورة يوسف.

المروزي: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن رافع البَجَلي، حدثنا كنانة بن جبلة، عن سهل بن أبي حسنة[١] عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن الله أمر آدم بالسجود، فسجد، فقال: لك الجنة ولمن سجد من ولدك. وأمر إبليس بالسجود، فأبى أن يسجد، فقال: لك النار ولمن أبى من ولدك أن يسجد.

وقال بعض المُعْربين[٢] ﴿ وكان من الكافرين ﴾، أي: وصار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال: ﴿ فكان من المغرقين ﴾. وقال: ﴿ فتكونوا من الظالمين ﴾، وقال الشاعر[٣]:

بتيهاء قَفْرٍ والمطيُّ كأنها قطا الحَزْنِ قد كانت فِراخاً بيوضُها

أي: وقد صارت.

وقال ابن فَوْرك: تقديره وكان في علم الله من الكافرين ورجَّحه القرطبي[٤]، وذكر ههنا مسألة فقال: قال علماؤنا ـ رحمهم الله ـ: من أظهر الله على يديه ممن ليس بذي[٥] دين كراماتٍ. وخوارق للعادات، فليس ذلك دالاً على ولايته خلافاً لبعض الصوفية والرافضة. هذا لفظه، ثم استدل على ما قال بأنا لا نقطع لهذا الذي جرى الخارق على يديه أنه يوافي الله بالإيمان، ولا هو يقطع لنفسه بذلك ـ يعني: والذي هو ولي يُقْطَع له بذلك في نفس الأمر.

قلت: وقد استدلّ بعضهم على أن الخارق قد يكون على غير يد الولي، بل قد يكون على يدي الفاجر أيضاً، بما ثبت عن ابن صيَّاد أنه قال: هو الدُّخ، حين خَبَأ له رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾[٦].

وربّما كان يصدر عنه من أنه يملأ الطريق إذا غضب، حتى ضربه عبدالله بن عمر. وبما ثبت من[٧] الأحاديث عن الدجال، وما يكون على يديه من الخوارق الكبيرة، من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تُنْبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة. وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي قلت للشافعي ـ رحمه الله ـ: كان الليث بن سعد: يقول إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغترّوا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة. فقال الشافعي قصَّر الليث ـ رحمه الله ـ: بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

وقد[٨] حكى فخر الدين وغيره قولين للعلماء هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض، أو عام في ملائكة السموات والأرض؟ فقد رجح كلاً من القولين طائفة، وظاهر الآية الكريمة العمومُ ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ﴾ فهذه أربعة أوجه تقويةٍ للعموم، والله أعلم.

(١) كذا في الأصل ونسخة أخرى. ولم أجد سهل بن أبي حسنة هذا، ولعله: سهيل بن أبي حزم، وهو يروي عن ثابت البناني، ويروي عنه كنانة بن جبلة، انظر تهذيب الكمال ٣٤٥/٤، والجرح لابن أبي حاتم ١٦٩/٧.

(٢) في صلب النص: المقرئين. والمثبت عن الهامش.

(٣) البيت لابن أحمر. وهو من شواهد ابن يعيش ١٠٢/٧، وفي الخزانة ٢٠١/٩.

(٤) تفسير القرطبي ٢٩٧/١٠.

(٥) لفظ القرطبي: ممن ليس بنبي.

(٦) انظر تفسير الآية ١٠ من سورة الدخان.

(٧) في الأصل: ثبت به.

(٨) هذه الفقرة مكررة في الأصل بعد التي تليها.

وقد تكلم كثير من المفسرين عن هذه الآية، وهي الأمر بسجود الملائكة لآدم على مسألة تفضيل البشر على الملك، أو بالعكس، وقد بسط الكلام فيها ههنا فخر الدين الرازي في تفسيره، وحكى عن أكثر أهل السنة أن الأنبياء أفضل من الملائكة، إلا أبا بكر الباقلاني وأبا عبدالله الحُلَيمي، فإنهما ذهبا إلى تفضيل الملائكة على الأنبياء. ثم شرع يذكر دلائل كل قول من الأقوال. وهذه المسألة مقررة في علم الأصول، وفيها أقوال كثيرة منتشرة، ولم يتكلم كثير من السلف فيها، فرأينا الإضراب عن أصل بسط الكلام فيها ههنا، والله أعلم بالصواب)[١].

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء، رَغَداً، أي: هنيئاً واسعاً طيباً.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردُويه، من حديث محمد بن عيسى الدامغاني، حدثنا سلمة بن الفضل، عن ميكائيل، عن ليث، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، قال: قلت يا رسول الله؛ أرأيتَ آدم، أنبياً كان؟ قال: نعم، نبياً رسولاً، كلمه الله قِبَلاً[٢]. فقال: ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾.

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم، أهي في السماء أو في الأرض؟ والأكثرون على الأول، وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف، إن شاء الله تعالى. وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة. وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق، حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس، أقبل على آدم وقد عَلَّمه الأسماء كلها، فقال: «يا آدم، أنبئهم بأسمائهم» إلى قوله: ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾. قال: ثم ألقيت السِّنَةُ على آدم ـ فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره ـ ثم أخذ ضِلعاً من أضلاعه من شِقّه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يَهُبّ[٣] من نومه، حتى خلق الله من ضِلَعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كُشِف عنه السِّنَة وهَبَّ من نومه، رآها إلى جنبه، فقال ـ فيما يزعمون والله أعلم ـ: لحمي ودمي وزوجتي فسكن إليها. فلما زوَّجه الله، وجعل له سكناً من نفسه، قال له قِبَلاً: ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾.

ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخوله الجنة، كما قال السدي في خَبَرٍ ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ. قالت له الملائكة ـ ينظرون ما بلغ من علمه ـ: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حي. قال الله: ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة * وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾.

---

(١) راجع المصدر السابق.
(٢) أي: عياناً ومقابلةً.
(٣) في الأصل: لم ينتبه. انظر تفسير الطبري ١/ ٢٣٠.

وأما قوله: ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف في هذه الشجرة: ما هي؟.

فقال السدّي، عمن حَدَّثه، عن ابن عباس: الشجرةُ التي نهيَ عنها آدم ـ عليه السلام ـ هي الكَرْمُ.

وكذا قال سعيد بن جُبَير، والسدِّيُّ، والشعبيُّ، وجَعْدة بن هُبَيرة، ومحمد بن قيس.

وقال السُّدّي أيضاً في خبر ذكره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصحابة: ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ هي الكَرْمُ. وتزعمُ يهودُ أنها الحِنطَةُ.

وقال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي حدثنا أبو يحيى الحماني، حدثنا النضر أبو عمر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: الشجرة التي نُهِي عنها آدم عليه السلام هي السنبلة.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابنِ عباس، قال: هي السنبلة.

وقال محمد بن إسحاق، عن رجل من أهل العلم، عن حجاج، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: هي البر.

وقال ابن جرير: وحدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا القاسم، حدثني رجل من بني تميم، أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم، والشجرة التي تاب عندها آدم. فكتب إليه أبو الجلد: سألتني عن الشجرة التي نهي عنها آدم، وهي السنبلة، وسألتني عنْ الشجرة التي تاب عندها آدم، وهي الزيتونة.

وكذلك فَسّره الحسنُ البصري، وَوَهْبُ بن مُنَبِّه، وعطيةُ العَوفِيُّ، وأبو مالك، ومحارب[1] بن دِثار، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل اليمن، عن وهب بن مُنَبِّه: أنه كان يقول: هي البر، ولكن الحبة منها في الجنة ككُلَى البقر، أليـن من الزبد وأحلى من العسل.

وقال سفيان الثوري، عن حُصَين، عن أبي مالك: ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ قال: النخلـة.

وقال ابن جَرير، عن مجاهد ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾: قال: تينة. وبه قال قتادةُ وابنُ جُرَيج.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: كانت الشجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغي أن يكون في الجنة حَدَثٌ.

وقال عبد الرزاق: حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مُهْرب[2]، قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة، ونهاه عن أكل الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكةُ لخلدهم، وهي الثمرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته.

فهذه أقوال ستة في تعيين هذه الشجرة.

---

(١) في الأصل: ومجاهد. انظر تهذيب التهذيب ٤٩/١٠.
(٢) في الأصل: مهدي. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٢١/٦.

قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير ـ رحمه الله ـ: والصوابُ في ذلك أن يُقال: إن الله جلّ ثناؤه نهى آدم وزوجَته عن أكل شجرةٍ بعينِها من أشجارِ الجنَّة، دون سائر أشجارِها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؟ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك عِلْمٌ، إذا علم لم ينفع العالمَ به علمهُ، وإن جهله جاهلٌ لم يضرَّه جهله به. والله أعلم. (١-(وكذلك رجح الإبهام فخر الدين الرازيّ في تفسيره، وغيره، وهو الصواب)-١).

وقوله تعالى: ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾: يصح أن يكون الضمير في قوله ﴿ عنها ﴾ عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قرأ (حمزة[١] و) عاصم[٢] بن بَهْدَلة ـ وهو ابن أبي النَّجُود ـ: «فأزالهما» أي فنجَّاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادةُ «فأزلهما» أي: من قَبِيلِ الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾، أي: بسببها، كما قال تعالى: ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ أي: يصرف بسببه من هو مأفوك، ولهذا قال تعالى: ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾، أي: من اللباس والمنزل الرحْب والرزق الهنيء والراحة.

﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾. أي: قرار وأرزاق وآجال ﴿ إلى حين ﴾ أي: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

وقد ذكر المفسرون من السلف كالسُدّي بأسانيده، وأبي العالية، ووهب بن مُنَبِّه وغيرهم، ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحَيَّة، وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس الجنة ووسوسته، وسنبسط ذلك، إن شاء الله، في سورة الأعراف، فهناك القصة أبسط منها ههنا، والله الموفق.

وقد قال ابن أبي حاتم ههنا: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن الله خلق آدم رجلاً طُوَالاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سَحُوق[٣]، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يَشْتَدُّ[٤] في الجنة، فأخذته من شَعْره شجرةٌ، فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم، مني تَفِرُّ! فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب، لا، ولكن استحياء.

قال: وحدثني جعفر بن أحمد بن الحكم القرشي سنة أربع وخمسين ومائتين، حدثنا سليمان بن منصور ابن عمار، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: لما ذاق آدم من الشجرة فرَّ هارباً؛ فتعلقت شجرة بشعره، فنودي: يا آدم، أفِراراً مني؟ قال: بل حَيَاء منك، قال: يا آدم، أخرج من جواري؛ فبعزتي لا يساكنني فيها من عصاني، ولو خلقت مِثْلَكَ ملء الأرض خَلْقاً ثم عصوني لأسكنتهم دار العاصين.

هذا حديث غريب، وفيه انقطاع، بل إعضال بين قتادة وأبي بن كعب، رضي الله عنهما.

وقال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن بَالُويه، عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائدة،

---

(١) عن الأصل.

(٢) نسبت هذه القراءة إلى حمزة وحده من السبعة، انظر السبعة لابن مجاهد ١٥٣، والبحر المحيط ١٦١/١.

(٣) أي: طويلة.

(٤) في الأصل: يستدير. ويشتد: يعدو.

عن عَمَّار بن أبي معاوية البَجَلي، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: ما أُسْكِنَ آدمُ الجنةَ إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[١].

وقال عبد بن حُمَيد في تفسيره: حدثنا رَوح، عن هشام، عن الحسن، قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعةُ ثلاثون ومائةُ سنةٍ من أيَّام الدنيا.

وقال أبو جَعفر الرازيّ، عن الربيع بن أنس، قال: خرج آدم من الجنة للساعة[٢] التاسعة أو العاشرة، فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة، على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الإكليل من ورق الجنة.

وقال السُّدِّي: قال الله: ﴿ اهبطوا منها جَميعاً ﴾ فهبطوا فنزل آدم بالهند، وأنزل معه الحجر الأسود، وقبضة من ورق الجنة فبثه بالهند، فنبتت شجرة الطيب، فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب من قبضة الورق التي هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم حين أخرج من الجنة، أسفاً على الجنة.

وقال عمران بن عُيَينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: أهبط آدم من الجنة بِدَحْنا، أرض بالهند.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها دَحْنا، بين مكة والطائف.

وعن الحسن البصري، قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدَسْتُمِيسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو ابن أبي قيس، عن الزبير[٣] بن عدي، عن ابن عمر، قال: أهبط آدم بالصفا، وحواء بالمروة.

وقال رَجاء بن سَلَمة: أُهبِطَ آدم ـ عليه السلام ـ يَدَاهُ على ركبتيه مُطَاطِئاً رأسه، وأُهبِطَ إبليسُ مُشَبِّكاً بين أصابعِهِ، رافعاً رأسَه إلى السماءِ.

وقال عبد الرزّاق: قال معمر: أخبرني عَوْفٌ، عن قَسَامة بن زُهَير، عن أبي موسى، قال: إنَّ الله حين أهبَطَ ادمَ من الجنة إلى الأرضِ، عَلَّمه صنعةَ كلِّ شيء، وزَوَّده من ثمار الجنة، فثمارُكم هذه من ثمارِ الجَنَةِ، غير أن هذه تَتَغيَّر وتلك لا تَتَغيَّرُ.

وقال الزُّهري، عن عبد الرحمن بن هُرمُز الأعرج، عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «خيرُ يومٍ طَلَعت فيه الشمس يومُ الجمعة، فيه خلقَ آدمُ، وفيه أدخِلَ الجنة، وفيه أخرج منها» رواه مسلم[٤] والنسائي.

---

(١) المستدرك، كتاب التاريخ ٥٤٢/٤.
(٢) سقط من الأصل.
(٣) في الأصل: عن عديّ. وانظر ترجمة عمرو بن أبي قيس، والزبير بن عديّ في التهذيب ٩٣/٨، ٣١٧/٣. وفي تفسير ابن أبي حاتم: «عن أبي عديّ، يعني الزبير بن عديّ».
(٤) أخرجاه في كتاب الجمعة، مسلم ٥٨٥، والنسائي ٨٩/٣ ـ ٩٠.

(٥)ـوقال فخر الدين: اعلم أن هذه الآيات تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه، الأول: أن من تَصَوَّر ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يرنو بعينَيْ راقد ومُشاهداً للأمر غير مُشاهِد
تصلُ الذنوبَ إلى الذنوب وتَرْتجي دَرَجَ الجِنَانِ ونَيْل فَوْزِ العابد
أنسِيتَ رَبّك حين أخرج آدماً منها إلى الدُنيا بِذَنْبٍ واحد

قال فخر الدين: وعن فتح المُوصلي أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فَسَبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهمّ والحزن حتى نُرَدَّ إلى الدار التي أخرجنا منها[٢].

فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أسكنها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف تَمَكَّن إبليس من دخول الجنة وقد طُرِد من هناك طرداً قَدَرياً، والقَدَرِيّ لا يخالف ولا يمانع؟ فالجوابُ أنَّ هذا بعينه استدلَّ به من يقولُ: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء. وقد بَسَطنا هذا في أول كتاب البداية والنهاية. وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه مُنِع من دخول الجنة مُكَرَماً، فأما على وجه الرَّدْع والإهانة فلا يمتنع، ولهذا قال بعضهم، كما جاء في التوراة: إنه دخل من فم الحية إلى الجنة. وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره. وقد أورد القرطبي ههنا أحاديث في الحيات وقتلهنَّ، وبيان حكم ذلك، فأجاد وأفاد)ـ[١].

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

قيل: إنَّ هذه الكلماتِ مُفسَّرة بقوله تعالى: ﴿ قالا ربنا ظَلَمنا أنفُسَنا وإن لم تَغْفِرْ لنا وترحَمْنا لنكونن من الخاسرين ﴾؛ روي هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القُرَظي، وخالد بن مَعْدان، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال أبو إسحاق السَّبيعيُّ، عن رَجُل من بني تميم، قال: أتيت ابن عباس، فسألته: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: عُلِّم آدمُ شأنَ الحج.

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رُفَيع، أخبرني من سمع عبيد بن عُمَير، وفي رواية: أخبرني مجاهد، عن عبيد بن عمير، أنه قال: قال آدم: يا ربِّ، خطيئتي التي أخطأتُ شيء كتبتَه عليَّ قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدعتُه من قبل نفسي؟ قال: بل كتبتُهُ عليك قبل أن أخلقك. قال: فكما كتبته عليَّ فاغفره لي. قال: فلذلك قوله تعالى: ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾.

وقال السدّي، عمن حَدَّثه، عن ابن عباس: فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ، قال: قال آدم ـ عليه السلام ـ: يا رب، ألم تخْلقني بيدِكَ؟ قيل له: بلى. ونَفَخْتَ فِيَّ من روحك؟ قيل له: بلى. وعَطِستُ فقلتَ: يرحمُكَ الله. وسَبَقَتْ رحمتُكَ غَضَبك؟ قيل له: بلى، وكتبتَ عليّ أن أعملَ هذا؟ قيل له: بلى قال: أفرأيت إن تبتُ هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم.

وهكذا رواه العوفي، وسعيد بن جبير، وسعيد بن مَعْبَد، عن ابن عباس، بنحوه. وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وهكذا فسره السدّي وعطية العَوْفي.

(٥) عن الأصل.
(١) تفسير الفخر الرازي ١٨/٣.
(٢) المستدرك، كتاب التاريخ ٥٤٥.

وقد رَوَى ابنُ أبي حاتمٍ ههنا حديثاً شبيهاً بهذا فقال: حدثنا علي بن الحُسَين[1] بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادَةَ، عن الحَسَن، عن أُبَي بن كعب، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: قال آدم عليه السلام: أرأيت ـ يا رب ـ إن تبتُ ورجعتُ، أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله: ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾.

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وفيه انقطاع:

وقال أبو جَعفرٍ الرازيّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: يا رب، أرأيتَ إن تبتُ وأصلحت؟ قال الله، إذن أرجعَك إلى الجنة فهي من الكلمات. ومن الكلمات أيضاً: ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد أنه كان يقولُ في قول الله تعالى: ﴿ فتلقى آدمُ من رَبِّه كلماتٍ ﴾ قال الكلماتُ: اللهمَّ لا إلَه إلا أنت، سبحانَك وبحمدك، رَبِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنك خَيرُ الغافرين، اللهمّ لا إلَه إلا أنتَ سبحانَكَ وبحمْدِكَ، ربِّ إني ظلمتُ نفسي فارحمني، إنك خيرُ الراحمين. اللهم لا إلَه إلا أنتَ سبحانَكَ وبحمدِكَ، ربِّ إني ظلمتُ نفسِي فَتُبْ عليَّ، إنك أنت التوابُ الرحيمُ.

وقولُه تعالى: ﴿ إنَّه هو التوابُ الرحيم ﴾، أي: إنَّه يتوبُ على من تابَ إليه وأنابَ، كقوله: ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ وقوله: ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وقوله: ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إلَه إلا هو التواب الرحيم.

⁽²⁻(وذكرنا في المسند الكبير من طريق سليمان بن سُلَيم، عن ابن بُرَيدة ـ وهو سليمان ـ عن أبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض طاف بالبيت سبعاً وصلّى خلف المقام ركعتين، ثم قال: اللهم إنك تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل مَعْذِرَتي، وتعلَمُ حاجتي فأعطني سُؤْلي، وتعلَمُ ما عندي، فاغفر ذُنوبي، أسألك إيماناً يباشرُ قلبي، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلاّ ما كتبت لي. قال: فأوحى الله إليه: إنك قد دعوتني بدعاء استجبت لك فيه ولمن يدعوني به، وفرَّجْتُ همومه وغمومه، ونزعْتُ فقره من بين عينيه، واتَّجَرْتُ له من وراء كل تاجر، وأتته الدنيا وهي كارهةٌ وإن لم يُرِدها. رواه الطبراني في معجمه الكبير)⁻²⁾.

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يَقُولُ تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حتى أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل؛ كما قال أبو العالية: الهُدَى الأنبياء والرسل والبيان. وقال مقاتل بن حَيَّان: الهدى محمد ﷺ. وقال الحسن: الهدى القرآن. وهذا القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعَمّ.

﴿ فمن تبع هداي ﴾ أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ فلا خوف عليهم ﴾

(١) في الأصل: الحسن. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم، والجرح له ١٧٩/٦.
(٢) عن الأصل.

أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه: ﴿ قال: اهبطا منها جميعاً [بعضكم لبعض عدو] فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾. قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ كما قال ههنا: ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها، ولا محيص.

وقد أورد ابنُ جرير ـ رحمه الله ـ ههنا حديثاً ساقه من طريقين، عن أبي مَسْلَمة سعيد بن يزيد، عن أبي نضرة المنذر بـن مالك بن قُطْعَة، عن أبي سعيد ـ واسمه سعد بن مالك بن سِنَان الخُدْري ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم، أو بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أُذنَ في الشفاعة».

وقد رواه[1] مسلم من حديث شعبة عن أبي مسلمة، به.

[2]-(وذكر هذا الإهباط الثاني لما تعلَّق به بعده من المعنى المغاير للأولِ، وزعم بعضهم أنه تأكيد كما تقول: قُم قُم. وقال آخرون: بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض. والصحيح الأول، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه)-[2].

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد ـ عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ـ ومُهَيِّجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبيُّ الله يعقوبُ ـ عليه السلام ـ وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مِثْلَ أبيكم في متابعةِ الحقِّ، كما تقولِ: يا ابن الكريم، افعل كذا. يا ابنَ الشجاعِ، بارِزِ الأبطالَ. يا ابنَ العالم، اطلب العلم، ونحو ذلك.

ومن ذلك أيضاً قولُه تعالى: ﴿ ذُرِّية من حَملنا مع نوحٍ، إنَّه كان عَبداً شكوراً ﴾ فإسرائيلُ هو يعقوب ـ عليه السلام ـ بدليلٍ ما رواه أبو داود الطيالسي:

حدثنا عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوشب، قال: حدثني عبدالله بن عباس قال: حضرت عصابةٌ من اليهود نبيَّ الله ـ ﷺ ـ فقال لهم: هل تعلمون أن إسرائيلَ يعقوبُ؟ قالوا: اللهم نعم. فقال النبي ـ ﷺ ـ: اللهم فاشهد[3].

وقال الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن ابن عباس أن إسرائيل كقولك عبدالله.

وقوله تعالى: ﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾. قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سِوى ذلك؛ فَجَّر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون.

(١) مسلم، كتاب الإيمان ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٢) عن الأصل.
(٣) مسند أبي داود الطيالسي ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب.

قلت: وهذا كقول موسى ـ عليه السلام ـ لهم: ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ يعني في زمانهم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾، أي: بلائي[١] عندكم وعند آبائكم لِمَا كان نجاهم به من فرعون وقومه ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي[٢] محمد ـ ﷺ ـ إذا جاءكم، أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، يوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم. [٣-](وقال الحسن البصري: هو قوله: ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً، وقال الله: إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وآمنتم برسلي، وعَزَّرتموهم، وأقرضتم الله قرضاً حسناً، لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم، ولأدخلنكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ﴾. . . الآية.

وقال آخرون: هو الذي أخذه الله عليهم في التوراة، وأنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميعُ العرب الشعوب والقبائل، والمراد به محمد ـ ﷺ ـ فمن اتّبعه غُفِر له ذنبه، وأدخل الجنة، وجُعل له أجران. وقد أورد فخر الدين الرازي ههنا بشاراتٍ كثيرة عن الأنبياء عليهم السلام بمحمد ـ ﷺ ـ)[-٣].

وقال أبو العالية ﴿ وأوفوا بعهدي ﴾. قال: عهده إلى عباده: دينه الإسلام أن يتبعوه.

وقال الضحَّاكُ، عن ابن عباس: ﴿ أوف بعهدكم ﴾ (قال): ﴿ أَرْضَ عنكم وأدخلكم الجنة ﴾.

وكذا قال السدِّي، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿ وإياي فارهَبُونِ ﴾ أي: فاخشَون؛ قاله أبو العالية، والسدِّيُّ، والربيعُ بن أَنَسٍ، وقتادةُ.

وقال ابنُ عباسٍ في قولِهِ تعالى: ﴿وإيَّايَ فارهبون﴾، أي: أُنزِلُ بكم ما أنزلتُ بمن كان قبلكم من النَّقِمَات التي قد عَرَفْتم من المَسْخِ وغيره.

وهذا انتقالٌ من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة، لعلَّهم يرجعون إلى الحقِّ واتباعِ الرسول والاتعاظِ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره، وتصديق أخباره، والله الهادي لمن يشاء إلى صراطه المستقيم؛ فلهذا قال: ﴿ وآمنوا بما أنزلت مُصَدِّقاً لما معكم ﴾.

[٤-][مُصَدِّقاً: منصوبٌ[٥] على الحال من (ما)، أي: بالذي أنزلت مُصَدِّق. أو من الضمير المحذوف من قوله: بما أنزلته مصدقاً. ويجوز[٦] أن تكون (ما) مصدرية، و (مصدقاً) حال من ضمير الفعل، وهو قوله: بما أنزلتُ مصدقاً به][-٤].

(١) في تفسير الطبري ٢٤٩/١: آلائي. والبلاء يستعمل بمعنى النعمة.
(٢) في الأصل: من أعناقكم بالنبي. والمثبت عن تفسير الطبري.
(٣) عن الأصل.
(٤) عن الأصل. وكانت العبارة مضطربة جداً، وقد أصلحناها ما أمكننا.
(٥) في الأصل: مضيا منصوباً. وابن كثير ـ فيما يبدو ـ معتمد على القرطبي الذي قال ٣٣٣/١: «مصدقاً: حال من الضمير في أنزلت، التقدير: بما أنزلته مصدق، والعامل فيه أنزلت. ويجوز أن يكون حالاً من (ما)، والعامل فيه آمنوا، التقدير: آمنوا بالقرآن مصدقاً. ويجوز أن تكون مصدرية، التقدير: آمنوا بإنزال».
(٦) في الأصل: «ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل». ولعل ما أثبتناه هو الصواب. وهو الإعراب الثالث الذي ذكره القرطبي في التعليق =

القرآن الذي أُنزِل على محمد النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله تعالى، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

قال أبو العالية ـ رحمه الله ـ في قوله: ﴿ وآمنوا بما أنزلتُ مصدِّقاً لما معكم ﴾ يقول: يا معشرَ أهلِ الكتابِ، آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم يقول: لأنهم يجدونَ محمداً ـ ﷺ ـ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك:

وقوله: ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ قال بعض المفسرين: أول فريق كافر به. ونحو ذلك.

قال ابن عباس: ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم.

وقال أبو العالية: يقول: ﴿ ولا تكونوا أول كافرٍ به ﴾ أول من كفر بمحمد ـ ﷺ ـ. يعني من جنسكم أهلَ الكتاب بعد سماعهم به وبمبعثه.

وكذا قال الحسن، والسدي، والربيع بن أنس.

واختار ابنُ جَريرٍ بأنّ الضمير في قوله ﴿ به ﴾ عائد على القرآن، الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿ بما أنزلت ﴾.

وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان، لأن مَنْ كَفَر بالقرآن فقد كَفَر بمحمد ـ ﷺ ـ ومن كَفَر بمحمد ـ ﷺ ـ فقد كفر بالقرآن.

وأما قولُه: ﴿ أول كافر به ﴾ فيعني به أوَّل من كفر به من بني إسرائيل، لأنه قد تَقَدَّمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بَشَر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به مستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله: ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾. يقول: ولا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما قال عبدالله بن المبارك: أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن هارون بن زيد، قال: سُئِلَ الحسنُ ـ يعني البصريّ ـ عن قوله تعالى: ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ قال: الثمنُ القليلُ الدنيا بحذافيرها.

وقال ابن لَهيعَةَ: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَير، في قوله تعالى: ﴿ ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾: وإن آياته: كتابه الذي أنزل إليهم، وإن الثمن القليل: الدنيا وشهواتها.

وقال السدِّي: ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلاً، ولا تكتموا اسم الله بذلك الطمع، وهو الثمن.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العاليةِ في قولِه تعالى: ﴿ ولا تشتَرُوا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾. يقول: لا تأخذوا عليه أجراً. قال: وهو مكتوب عِندَهم في الكتابِ الأول: يا ابنَ آدَمَ، عَلِّم مَجّاناً كما عُلِّمت مَجّاناً.

(وقيل: معناه، لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللَّبس، لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب.

= السابق. ويعني بضمير الفعل الضمير المرفوع وهو تاء المتكلم، وقد جعله الألوسي في تفسيره ١/٢٤٤ وجهاً بعيداً.

وفي سنن أبي داود، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من تَعَلَّم علماً مما يُبْتَغى به وجهُ الله، لا يتعلّمه إلا ليُصيبَ به عَرَضاً من الدنيا لم يُرِحْ رائحة الجنة يوم القيامة»(١).

وأمّا تعليم العلم بأجرة فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقومُ بحاله وعيالِهِ، فإن لمْ يَحصُلْ منه شيءٌ، وقطعَه التعليمُ عن التكسب، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعيَّن عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة. وعند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء كما في صحيح البخاري، عن أبي سعيد، في قصة اللديغ: «وإن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»(٢). وقوله في قصة المخطوبة: «زوجتكها بما معك من القرآن»(٣). فأما حديث عبادة بن الصامت: أنه عَلَّم رجلاً من أهل الصُفَّة شيئاً من القرآن، فأهدى له قوساً، فسأل رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال له: إن أحببت أن تُطَوَّق بقوسٍ من نارٍ فاقبله فتركه. رواه أبو(٤) داود. ورُوِيَ مثلُه عن أبيّ بن كعب مرفوعاً، فإن صَحَّ إسنادهُ فهو محمولٌ عند كثيرٍ من العلماء ـ منهم أبو عُمَر بن عبد البر ـ على أنه لما عَلَّمه لله(٥) لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح، كما في حديث سَهْلٍ في المخطوبة والله أعلم)-(١).

﴿ وإياي فاتقون ﴾ قال ابن أبي حاتم.

حدثنا أبو عمر الدّوري، حدثنا أبو إسماعيل المؤدِّب، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية، عن طَلْقِ بن حَبيب، قال: التقوى أن تعمَل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله.

ومعنى قوله: ﴿ وإياي فاتقون ﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه، من تَلْبيسِهِمُ الحق بالباطل، وتمويههم به، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿ ولا تلبسوا الحقَّ بالباطل وتكتموا الحقَّ وأنتم تعلمون ﴾؛ فنهاهم عن الشيئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ ولا تلبسوا الحقَّ بالباطِلِ ﴾: [لا](٦) تخلطوا [الصدق بالكذب](٦).

وقال أبو العالية ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمر محمد ـ ﷺ ـ.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب العلم ٣/٣٢٣.
(٢) فتح الباري، كتاب الإجارة ٤/٤٥٢، وكتاب الطب ١٠/١٩٨ ـ ١٩٩.
(٣) فتح الباري، كتاب فضائل القرآن ٩/٧٤.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الإجارة ٣/٢٦٤ ـ ٢٦٥.
(٥) في الأصل: «لما علّمه اللديغ وحديث لم يجز بعد...». وعبارة القرطبي ١/٣٣٦: «وحديث عبادة وأُبيّ يحتمل التأويل، لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجراً.
(٦)عن تفسير الطبري ١/٢٥٤.

ورُوِي عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس، نحوه.

وقال قتادة ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾، قال لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام؛ إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية[١] بدعة ليست من الله.

وروي عن الحسن البصري نحو ذلك.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾: أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم. وروي عن أبي العالية نحو ذلك.

وقال مجاهد، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس ﴿ وتكتموا الحق ﴾: يعني محمداً ـ ﷺ ـ. [٢-](قلت: ﴿ وتكتموا الحق ﴾، يحتمل أن يكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً، أي: لا تجمعوا بين هذا وهذا، كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. قال الزمخشري: وفي مصحف ابن مسعود: ﴿ وتكتمون الحق ﴾، أي: في حال كتمانكم الحق. ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ حال أيضاً، ومعناه: وأنتم تعلمون الحق. ويجوز أن يكون المعنى، وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق، لتروجوه عليهم. والبيان والإيضاح عكس الكتمان وخلط الحق بالباطل)[-٢].

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب: ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾؛ أمرهم أن يصلوا مع النبي ـ ﷺ ـ ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أي: يدفعونها إلى النبي ـ ﷺ ـ، ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ـ ﷺ ـ يقول: كونوا منهم ومعهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ وآتوا الزكاة ﴾: يعني بالزكاة طاعة الله والإخلاص.

وقال وكيع، عن أبي جَنَاب، عن عكرمة عن ابن عباس، في قوله ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ قال: ما يوجب الزكاة؟ قال: مائتان فصاعداً.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن، في قوله تعالى: ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ قال: فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن أبي حيان التيمي، عن الحارث العُكلي في قوله: ﴿ وآتوا الزكاة ﴾. قال: صدقة الفطر.

وقوله تعالى: ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ أي: كونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة.

[٢-][وقد استدلّ كثير من العلماء بهذه الآية، على وُجُوب الجماعة، وبسطُ ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله، وقد تكلّم القرطبي[٣] على مسألة الجماعة والإمامة وأجاد][-٢].

---

(١) عن تفسير الطبري ١/٢٥٤.

(٢) عن الأصل.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١/٣٤٨ ـ ٣٥٨.

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى: كيف يليق بكم - يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قَصّر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنتبهوا من رَقدتكم، وتتبصروا من عمايتكم. وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾. قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه، وبالبر، ويخالفون، فَغَيَّرهم الله، عزَّ وجلَّ. وكذلك قال السدي.

وقال ابن جُرَيج: ﴿ أتأمرون الناس بالبر ﴾ أهلُ الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، وَيَدَعُونَ العمل بما يأمرون به الناس، فعيرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾: أي تتركون أنفسكم. ﴿ وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾، أي: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعَهْد من التوراة، وتتركون أنفسكم أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عَهْدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية، يقول: أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد - ﷺ - وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة، وتنسون أنفسكم.

وقال أبو جعفر بن جرير - رحمه الله -: حدثني علي بن الحسن، حدثنا مُسلم الجَرْمي، حدثنا مخلد بن الحسين، عن أيوب السَّخْتياني، عن أبي قِلَابَة في قول الله تعالى: ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ﴾. قال: قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كلَّ الفقه حتى يمقُت الناس في ذاتِ الله، ثم يرجعَ إلى نفسِه فيكون لها أشد مقتاً[1].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: هؤلاء اليهودُ إذا جاء الرجلُ يسألُهم عن الشيء ليس فيه حَقٌّ ولا رشوةٌ ولا شيء أمَرُوه بالحقِّ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أتأمرونَ النَّاسَ بالبرِّ، وتنسَوْنَ أنفسكم، وأنتم تتلون الكتابَ أفلا تعقلون ﴾.

والغرضُ أنَّ الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطاياهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف وهو واجب على العالم، ولكن (الواجب و)[2] الأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾. فَكُلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية، فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه[2]-(قال مالك، عن ربيعة، سمعت سعيد بن جبير يقول[3]. لو كان المرء

(١) تفسير القرطبي ١/٢٥٨.
(٢) عن الأصل.
(٣) في الأصل: يقول له. وانظر تفسير القرطبي ١/٣٦١ - ٣٦٨.

لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أَمَرَ أحدٌ بمعروف ولا نَهى عن منكر. وقال مالك: وصدق: من ذا الذي ليس فيه شيء؟

قلت[٢]: ولكنه ـ والحالة هذه ـ مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك، كما قال الإمام أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير:

حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي والحسن بن علي المعمري، قالا: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا علي ابن سليمان الكلبي، حدثنا الأعمش، عن أبي تَمِيمة الهُجَيمي، عن جندب بن عبدالله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: مثل العالم الذي يُعَلِّم الناس الخير ولا يَعْمَلُ به كمثل السِّراج يُضِيء للناس ويُحْرِقُ نفسه.

هذا حديث غريب من هذا الوجه. حديث آخر.

قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا وكيع، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد[١] ـ هو ابن جدعان ـ عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مررت ليلة أسري بي على قوم تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من نار. قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خُطَباء من أهل الدنيا، ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون[٢]؟!.

ورواه عبد بن حميد في مسنده، وتفسيره، عن الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، به. ورواه ابن مردويه في تفسيره، من حديث يونس بن محمد المؤدب، والحجاج بن منهال، كلاهما عن حماد بن سلمة، به، وكذا رواه يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة (به).

ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبدالله بن إبراهيم، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن إبراهيم التستري ببلخ، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا عمر بن قيس، عن علي (بن) زيد، عن ثُمامة، عن أنس، قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه أيضاً من حديث هشام الدَّسْتَوائِيّ، عن المغيرة ـ يعني ابن حبيب ـ خَتَنُ مالك بن دينار، عن مالك بن دينار، عن ثُمَامة، عن أنس بن مالك، قال: لما عُرِج برسول الله ـ ﷺ ـ مرّ بقوم تُقْرَضُ شفاهُهم[٣]، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؛ أفلا يعقلون[٤]؟.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي وائل، قال: قيل لأسامة ـ وأنا رديفه ـ: ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم تَرَون ألا أُكَلِّمه إلا أُسْمِعُكم. إني لا أكلمه فيما بيني وبينه ما دون أن أفتتح أمراً

(١) في الأصل: ابن يزيد. انظر التهذيب ٣٢٢/٨.
(٢) مسند الإمام أحمد ١٢١/٣.
(٣) في الأصل: من شفاههم.
(٤) نص ابن أبي حاتم: «ويتلون الكتاب ولا يعقلون».

ـ لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل: إنك خير الناس. وإن كان عليّ أميراً ـ بعد إذ سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق به أقتابه[١]، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهلُ النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه[٢].

ورواه البخاري ومسلم، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به نحوه[٣].

[٤]-(وقال أحمد: حدثنا سيّار بن حاتم[٥]، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن الله يعافي الأمّيين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء[٦].

وورد في بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم، وقال تعالى: ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ وقد روى ابن عساكر في ترجمة الوليد بن عقبة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: إن أناساً من أهل الجنة يطّلعون[٧] إلى أناس من أهل النار، فيقولون: بم دخلتم النار، فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم؟ فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل. رواه من حديث الطبراني عن أحمد بن يحيى بن [خالد بن حبان][٨] الرقي عن زهير بن عباد الرواسيّ، عن أبي [بكر][٩] الداهري، عن عبدالله بن حكيم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن الوليد بن عقبة[١٠]، فذكره)-[٤].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أنه جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أوَ بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: إن لم تخش أن تُفْتَضَح بثلاث آيات من كتاب الله فافعلْ. قال: وما هن؟ قال: قوله عزّ وجلّ: ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾. أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني. قال: قوله تعالى: ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾. أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك.

رواه ابن مَرْدوَيه في تفسيره.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا زيد[١١] بن الحَريش، حدثنا عبدالله بن مِحرَاش، عن العوام بن حوشب، عن المسيب بن رافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من دعا الناس إلى قول

(١) في الأصل: شفتاه. والاندلاق: خروج الشيء من مكانه. والأقتاب: الأمعاء.
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٠٥.
(٣) البخاري، كتاب بدء الخلق ٤/١٤٨، ومسلم، كتاب الزهد ٢٢٩٠ ـ ٢٢٩١.
(٤) عن الأصل.
(٥) في الأصل: يسار. وهو خطأ، انظر تهذيب بالتهذيب ٤/٢٩٠.
(٦) لم يقع لنا في مسند الإمام أحمد، وهو في جامع الأحاديث للسيوطي ٢/٣٥٣ عن حلية الأولياء والضياء للمقدسي.
(٧) في المعجم الكبير: ينطلقون.
(٨) في الأصل: حماد. والمثبت عن المعجم الصغير ٢٣، والمعجم الكبير.
(٩) عن المعجم الكبير للطبراني.
(١٠) المعجم الكبير ٢٢/١٥٠.
(١١) في الأصل: يزيد. انظر الجرح لابن أبي حاتم ٣/٥٦١.

أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال أو دعا إليه»[١]

إسناده فيه ضعف، وقال إبراهيم النَّخَعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات، قوله تعالى: ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾، وقوله: ﴿ يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾، وقوله إخباراً عن شُعيب: ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعتُ، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أُنيب ﴾. وما أحسن ما قال سَلْمُ[٢] بن عمروٍ:

مـا أقبـحَ التَّـزهيـدَ من واعظ ... يُـزَهِّـدُ النـاسَ ولا يَـزْهَـدُ
لـو كـان في تَـزْهيدِه صادقـاً ... أضحى وأمسى بيتُـهُ المسجدُ
إن رَفَض النـاسَ[٣] فما بـاله ... يستمـخُ[٤] النـاسَ ويَسْتَـرْفِـدُ
والـرزقُ مقسـومٌ على من تـرى ... يسعـىٰ لـه الأبيـض والأسـودُ

وقال بعضهم: جلس أبو عثمان الحيري الزاهد يوماً على مجلس التذكير فأطال السكوت، ثم أنشأ يقول[٥]:

وغيـر تَقِيٍّ يأمرُ الناس بالتُّقى ... طبيبٌ يُداوي، والطبيب مريض

قال: فَضجَّ الناسُ بالبكاء. وقال أبو العتاهية الشاعر:

وَصفْتَ التُّقى حتى كأنك ذو تُقىً ... وريحُ الخطايا من ثيابك تسطَعُ

وقال أبو الأسود الدؤلي:

لا تَنْـهَ عن خُلُق وتـأتي مثله ... عـار عليـك إذا فعلت عظيـمُ
فابدأ بنفسك فانههـا عن غيِّهـا ... فـإذا انتهـتْ عنه فـأنت حكيمُ
فهنـاك يُقْبَل إن وَعَظْ ويقتـدى ... بـالقـول منـك وينفـع التعليم

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد بن زيد البصري العابد الواعظ قال: دعوتُ الله أن يُريني رفيقي في الجنة، فقيل له في المنام: هي امرأةٌ في الكوفة، يقال لها: ميمونة السوداء: فقصدتُ الكوفة لأراها فقيل لي: هي ترعى غنماً بواد هناك. فجئت إليها فإذا هي قائمةٌ تصلِّي، والغَنَمُ تَرْعَى حولها، وبينهن الذئاب، لا ينفرن منهن، ولا يسطو الذئاب عليهن، فلما سَلَّمت قالت: يا ابن زيد، ليس الموعد هنا، إنما الموعد ثَمَّ. فسألتها عن شأن الذئاب والغنم، فقالت: إني أصلحتُ ما بيني وبين سَيِّدي، فأصلح ما بين الذئاب والغنم. فقلت لها: عظيني، فقالت: يا عجباً من واعظٍ يُوعَظ! ثم قالت: يا ابن زيد، إنك إنْ وَضَعْتَ موازين القسط على جوارحك لخبَّرتك بمكتوم مكنون ما فيها. يا ابن زيد، إنه بلغني ما من عبد أعطي من الدنيا شيئاً فابتغى إليه إلا سَلَبه الله حُبَّ الخلوة، وبدَّله بعد القرب البعد، وبعد الأنس الوحشة، ثم أَنْشأَتْ تقولُ:

يـا واعـظاً قـام لاحتسـاب[٦] ... يَـزْجُـرُ قـومـاً عن الـذنـوب
تـنهـى وأنْتَ الـسقـيـمُ حـقـاً ... هـذا من المنكـر العجيـب

(١) عن الأصل.
(٢) البيت الأول والثاني والرابع في الأغاني ٧٦/٤، منسوبةٌ إلى الحجاز ابن أخت سَلْم بن عمرو الخاسر.
(٣) في تفسير القرطبي: إن رفض الدنيا.
(٤) في الأصل: يستفتح. والمثبت أيضاً عن القرطبي ونسخة أُخرى.
(٥) تفسير القرطبي ٣٦٧/١.
(٦) في الأصل: لا حساب. ولعل ما أثبتناه هو الصواب.

تنهى عن الغيِّ والتمادي وأنت في النهي كالمريب
لو كنت أصلحت قبل هذا [غيَّك][(١)] أو تُبْتَ من قريب
كان لما قُلْتَ: يا حبيب موضعُ صدقٍ مِنَ القلوب)-(١)

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى [(٢)] آمراً عبيده، فيما يؤمّلون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حَيَّان في تفسير هذه الآية: واستعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة.

فأما [(٣)] الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد (٤-(وقال القرطبي وغيره: ولهذا سمِّي رمضان شهر الصَّبر، كما نطق به الحديث)-٤).

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن جُرَيّ بن كُلَيب، عن رجل من سُلَيم، عن النبي - ﷺ -، قال: الصوم نصف الصبر.

وقيل: المرادُ بالصبر الكفُّ عن المعاصِي، ولهذا قَرَنه بأداءِ العباداتِ وأعلاها فعلُ الصلاةِ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد الله بن حمزة [بن إسماعيل]، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

قال: رُوِيَ عن الحسن البصري نحوُ قولِ عُمَر.

وقال ابن المبارك، عن ابن لَهِيعة، عن مالك بن دينار، عن سعيد بن جُبَير، قال: الصبرُ اعترافُ العبد بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل فهو يتجلد، فلا يرى منه إلا الصبر.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله.

وأما قوله: ﴿ والصلاة ﴾ فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾. الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا خَلَف بن الوليد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبدالله الدؤلي، قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة، قال حذيفة - يعنيْ ابن اليمان -: كان رسول الله - ﷺ - إذا حَزَبَه أمر صلى [(٥)].

ورواه [(٥)] أبو داود (٤-(عن محمد بن عيسى، عن يحيى بن زكريا، عن عكرمة بن عمار، كما سيأتي)-٤).

وقد رواه ابن جرير، من حديث (ابن) جريج، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبيد بن أبي قدامة، عن عبد العزيز بن اليمان، عن حذيفة، قال: كان رسول الله - ﷺ - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

---

(١) سقط من الأصل، وأثبتناه عن إحدى النسخ.
(٢) في الأصل: مخبراً آمراً.
(٣) في الأصل: قال الصبر.
(٤) عن الأصل.
(٥) مسند الإمام أحمد ٣٨٨/٥، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٣٥/٢.

(⁽¹⁾وَرَواه بعضُهم، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة ـ ويقال: أخي حذيفة ـ مرسلاً، عن النبي ـ ﷺ ـ.

وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: حدثنا سهل بن عثمان بن مسعود العسكري، حدثنا يحيى بن زكريا ابن أبي زائدة، قال: قال عكرمة بن عمار، قال محمد بن عبدالله[2] الدؤلي، قال عبد العزيز: قال حذيفة: رجعت إلى النبي ـ ﷺ ـ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمرٌ صلى.

وحدثنا عُبَيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا شعبَة عن أبي إسحق، سمع حارثة بن مُضَرِّب، سمع علياً يقول: «لقد رأيتنا ليلة بدرٍ وما فينا إلا نائم، غير رسول الله ـ ﷺ ـ يصلي ويدعو حتى أصبح»)⁽¹⁾.

قال ابن جرير: ورُوِي عنه عليه الصلاة والسلام أنه مر بأبي هريرة، وهو منبطح على بطنه، فقال له: اشكنِبْ درد[3]؟ (قال[1]: نعم) قال: «قم فصلِّ فإن الصلاة شفاء» (ومعناه[1]: أيوجعك بطنك؟ قال: نعم).

قال ابن جَرير: حدثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم، قالا: أنبأنا ابن عُلَيَّة، حدثنا عُيَينة بن عبد الرحمن، عن أبيه: أنَّ ابن عباس نُعِي إليه أخوه قُثَم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحَّى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾[3].

وقال سُنَيد، عن حجاج، عن ابن جريج: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾، قال: إنهما مَعُونتان على رحمة الله.

والضمير في قوله: ﴿ وإنها ﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير[4].

ويحتمل أن يكون عائداً إلى ما دلّ عليه الكلام، وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون: ﴿ وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ وقال تعالى: ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسنُ، فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولي حميم * وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ (أي): وما يُلَقَّى[5] هذه الوصية إلا الذين صبروا وما يلقاها أي: يؤتاها ويلهمها إلا ذو حَظ عظيم.

وعلى كُلِّ تقديرٍ، فقولُه تعالى: ﴿ وإنها لكبيرةٌ ﴾ أي: مشقّةٌ ثقيلةٌ إلا على الخاشعين، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني المصدِّقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين. وقال مُقاتل بن حَيَّان: ﴿ إلا على الخاشعين ﴾، يعني المتواضعين. وقال الضحاك. ﴿ وإنها لكبيرة ﴾ قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته الخائفين سَطَواته، المصدقين بوعده ووعيده.

هذا يُشْبِه ما جاء في الحديث: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه».

قال ابن جَرير: معنى الآية واستعينوا، أيُّها الأحبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته.

(١) عن الأصل.
(٢) عن هامش الأصل، وانظر تهذيب التهذيب ٩/١٢٧١.
(٣) في الأصل: إليّ.
(٤) تفسير الطبري ١/٢٦١.
(٥) في الأصل: «وما يلقاها هذه...».

هكذا قال، والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم، ولغيرهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي: وإن الصلاة أو[1] الوَصَاة لثقيلة إلا على الخاشعينَ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أي: ﴿ يعلمون أنهم ﴾[2] محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهُل عليهم فِعلُ الطاعات وترك المنكرات.

فأما قوله: ﴿ يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾. قال ابن جرير، رحمه الله: العرب تسمي اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سُدْفة، والضياء سُدْفة، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يُسَمَّى بها الشيءُ وضدّه، كما قال دُرَيدُ بن الصِّمَّة[3]:

فقلتُ لهم: ظُنُّوا بِألفي مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ في الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ

يعني بذلك تيقنوا بألفي مدجج يأتيكم، وقال عَمِيرة بن طارق[4]:

بأنْ تَعْتَزُوا قومي وأقعُدَ فيكم وأجعلَ مني الظنَّ غيباً مرجَّما

يعني: وأجعل مني اليقين غيباً مُرَجَّماً، قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين، أكثر من أن يُحصَرَ، وفيما ذكرنا كفاية لمن وفق لفهمه، ومنه قول الله تعالى: ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ﴾.

ثم قال ابن جَرير: حدثنا محمَّد بن بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان، عن جابر، عن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن يَقين. أي: ظننت وظَنوا.

وحدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا أبو داود الحَفَرِيّ، عن سفيان، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن فهو علم. وهذا سند صحيح.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾، قال: الظن ههنا يقين.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة نحو قول أبي العالية.

قال سُنَيد، عن حجاج، عن ابن جريج ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾ كقوله: ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ يقول: علمت.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قلت: وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: (ألم أزوِّجْكَ، ألم أُكْرِمْك، ألم[5] أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك تَرْأسُ وتَرْبَع[5]؟) فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: (أفظننت أنك ملاقِيّ؟)

(١) في الأصل: «أوضح الوصاة».
(٢) عن الأصل.
(٣) مجاز القرآن والمحتسب ٢/٣٤٢، واللسان: ظن.
(٤) تفسير الطبري ١/٢٦٢.
(٥) في الأصل: وأسخر.

فيقول: لا. فيقول الله: (اليوم أنساك كما نسيتني)[١]. وسيأتي مبسوطاً عند قوله: ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[٢]. والله ـ تعالى ـ أعلم.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يذكرهم تعالى سَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه: يا قوم، اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾.

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾، قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالماً.

ورُوي عن مجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد نحوُ ذلك. ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾. وفي السنن والمسانيد عن معاوية بن حَيْدَة القُشَيري، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنتم تُوفُونَ سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»[٣]. والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾.

[٤]ـ(وقيل: المراد تفَضُّل بنوعٍ ما من الفضل على الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً، حكاه فخر الدين الرازي. وفيه نظر. وقيل: إنهم فُضلوا على سائر الأمَمِ لاشتمال أُمتهم على الأنبياء. حكاه القرطبي في تفسيره، وفيه نظر، لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومَن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم، وهو أفضل من سائر أنبياءهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين)ـ[٤].

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

[٤]ـ(بحث فخر الدين الرازي ههنا مع المعتزلة في إثبات الشفاعة، وأورد لهم شُبَهاً، وأجاب عليها.

قلت: وقد بسطت الكلام على الأحاديث المتواترة في الشفاعة وأقسامها وتعدادها وأنواعها في كتابنا في البعث والنشور، ولله الحمد والمنة)ـ[٤].

لما ذكَّرهم تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من حُلُول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿ واتقوا يوماً ﴾ يعني يوم القيايمة ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ أي لا يغني أحد عن أحد كما قال: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وقال: ﴿ لكلِّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾، وقال: ﴿ يأيها الناس، اتقوا رَبَّكم واخشَوا يوماً لا

---

(١) مسلم، كتاب الزهد ٢٢٧٩ ـ ٢٢٨٠. وترأس تكون رئيساً. وتربع: تأخذ ربع الغنيمة، يقول تعالى: الم أجعلك رئيساً مطاعاً.

(٢) بل عند قوله تعالى: ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾، الآية ٥١ من سورة الأعراف.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤٤٧/٤.

(٤) عن الأصل.

يَجزِي والدٌ عن ولده، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً﴾. فهذه أبلغ المقامات: أن كُلّاً من الوالد وولده لا يُغنِي أحدُهما عن الآخر شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ يعني عن الكافرين. كما قال: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾. وكما قال عن أهل النار: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾، وقوله: ﴿ولا يُؤخَذُ منها عدل﴾ أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾. وقال: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾. وقال تعالى: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾. وقال: ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ الآية. فأخبر تعالى أنَّهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا تنفعهم قرابةُ قريبٍ ولا شفاعَةُ ذِي جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ وقال: ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾.

[1]-(وقال سُنَيد: حدثني حجاج، حدثني ابن جُرَيج، قال: قال مجاهد: قال ابن عباس: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾، قال: بدل، والبدلُ الفَدية.

وقال السُّدِّيُّ: أما عدل فيعدلها من العذاب، يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدى به ما قُبِل منها. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم)-[1].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله ﴿ولا يؤخذ[2] منها عدل﴾ يعني: فداء.

قال ابن أبي حاتم: وَرُوِي عن أبي مالك، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه عن علي رضي الله عنه في حديث طويل، قال: والصرف والعدل: التطوع والفريضة.

وكذا قال الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبي العاتكة[3]، عن عمير بن هانيء.

وهذا القول غريب ههنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، وقد ورد حديث يقويه، وهو ما قال ابن جرير: حدثني نجيح بن إبراهيم، حدثنا علي بن حكيم، حدثنا حميد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عَمْرو بن قيس المُلائي، عن رجل من بني أمية ـ من أهل الشام أحسن عليه الثناء ـ قال: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: العدل الفدية.

وقولُه تعالى: ﴿ولا هم ينصرون﴾. أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فما له من قوة ولا ناصر﴾ أي: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به

---

(١) عن الأصل.

(٢) في الأصل: (ولا يقبل منها عدل).

(٣) في الأصل: العالية. انظر ترجمة عثمان في تهذيب التهذيب ١٢٤/٧.

فدْيَة ولا شفاعة، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾. وقال: ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾. وقال: ﴿ ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون ﴾. وقال: ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم ﴾ الآية.

قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ ما لكم اليوم لا تَمانَعُونَ منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم.

قال ابن جَرير: وتأويلُ قوله ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يَشفَعُ لهم شافعٌ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بَطَلت هنالكَ المحاباة واضمحلت الرُّشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر وصار الحكم إلى عدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها وذلك نظير قوله تعالى: ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون، ما لكم لا تناصرون، بل هم اليوم مستسلمون ﴾.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(١-(آل الرجل: مِن ينتمي إليه بنسب(٢) أو سبب. وقيل: هم أتباعه وأشياعه. وقيل: من هو على دينه وملته. وقد يطلق على الرجل نفسه، ويضاف إلى المعظم، فيقال: آل فلان، ولا يضاف إلى البلدان على المشهور. وجوَّز بعضُهم إلى المدينة كما يقال: أهل المدينة. وحكى أبو عبيد: آل مكة، آل الله. وهكذا يضاف إلى المضمر على الأشهر، قال عبد المطلب:

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك(٣)

وقال غيره(٤):

أنا الفارسُ الحامي حقيقةَ والدي وآلي كما تحمي حقيقةَ آلكا)-١)

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون، أي: خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب. وذلك أن فرعون ـ لعنه الله ـ كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل. ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء في حديث (الفُتُون)، كما سيأتي في موضعه (في سورة طه)(٥)، إن شاء الله، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذَكَر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها.

(١) عن الأصل.
(٢) في الأصل: نسب.
(٣) الروض الآنف ١/٤٥.
(٤) في تفسير القرطبي ١/٣٨٣. وقال ندبة.
(٥) انظر تفسير سورة طه، الآية ٤٠.

وهٰهنا فُسِّر العذاب بذبح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾. وسيأتي تفصيل ذلك في أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد.

(١-(ومعنى: يسومونكم، أي: يولونكم، قاله أبو عبيدة(٢)، كما يقال سامه خطَّة خسفٍ: إذا أولاه إياها، قال عمرو بن كلثوم(٣):

إذا ما المَلْكُ سام الناس خَسْفا   أبينا أنْ يُقِرَّ الخَسْفَ فينا

وقيل: معناه: يديمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم، مِن إدامته الرعي. نقلها القرطبي(٤)، وإنما قال ههنا(٥) ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنقمة عليهم في قوله: ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ ثم فَسَّره بهذا لقوله هنا: ﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ وأما في سورة إبراهيم فلما قال: ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾، أي: بأياديه ونِعَمه عليهم، فناسب(٦) أن يقول هناك: ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويُذَبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾، فعطف عليه الذبح، لِيدل عَلى تَعْدَادِ النعم والأيادي)-١).

وفرعون علم على كل مَنْ مَلَكَ مصر، كافراً من العمالقة وغيرهم، كما أن قيصر علم (على) كل من ملك الروم مع الشام كافراً، وكذلك كسرىٰ لكل من مَلَكَ الفرس، وتُبَّع لمن ملك اليمن كافراً. (١-(والنجاش لمن ملك الحبشة وبطلميوس لمن ملك الهند)-١) ويقال: كان اسم فرعون الذي كان في زمان موسى عليه السلام: الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: مصعب بن الريان وأياً ما كان فعليه لعنة الله. (١-(وكان من سلالة عِمْلِيقِ بن الأود بن إرم بن سام بن نوح، وكنيته أبو مرَّة، وأصله فارسي من إصطخر)-١).

وقوله تعالى: ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾. قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم. أي: نعمة عليكم عظيمة في ذلك.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾. قال: نعمة. وقال مجاهد: ﴿ بلاء من ربكم عظيم ﴾ قال: نعمة من ربكم عظيمة. وكذا قال أبو العالية، وأبو مالك، والسدي، وغيرهم.

وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾. وقال: ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾.

قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشر: بلوته أبلوه بَلَاء، وفي الخير: أبليه إبلاء وبلاء، قال زهير بن أبي سلمى(٧).

جَزَى الله بالإحسان ما فَعَلا بِكُم   وأبلاهما خَيْرَ البلاءِ الذي يَبْلُو

---

(١) عن الأصل.
(٢) في الأصل: أبو عبيد. انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٤٠.
(٣) شرح القصائد السبع لابن الأنباري ٤٢٥.
(٤) تفسير القرطبي ١/٣٢٧.
(٥) في الأصل: ويذبحون.
(٦) السياق يقضي بأن يقال: ناسب، جواباً للمّا.
(٧) ديوانه ١٠٩، وتفسير القرطبي ١/٣٣٠.

قال: فجمع بين اللغتين، لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التي يَخْتَبِرُ بها عباده.

(١-وقيل: المراد بقوله: ﴿ وفي ذلكم ﴾ أنه إشارةٌ إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين، من ذبح الأبناء واستحياء النساء. قال القرطبي: وهذا قول الجمهور، ولفظه(٢) بعدما حكى القول الأول ثم قال، وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا في الشر(٣)، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان)-١).

وقوله تعالى: ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى عليه السلام، وخَرَج فرعون في طلبكم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى مفصلاً عن ذلك كما سيأتي في مواضعه، ومن أبسطها في سورة الشعراء إن شاء الله.

﴿ فأنجيناكم ﴾: أي: خلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن أبي إسحاق الهَمْداني، عن عمرو بن ميمون الأَوْدي في قوله تعالى: ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ إلى قوله: ﴿ وأنتم تنظرون ﴾. قال: لما خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال: لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة. قال: فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا؛ فدعا بشاة فَذُبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط. فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه، يقال له: يوشع بن نون: أين أَمَرك ربك؟ قال: أمامك يُشير إلى البحر - فأقحم يوشع فرسَه في البحر حتى بلغ الغَمْرَ، فذهب به الغَمْر، ثم رجع. فقال: أين أَمَرَكَ ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبتَ ولا كُذِّبتَ. فعل ذلك ثلاث مرات، ثم أوحى الله إلى موسى: ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ فضربه ﴿ فانفلق فكان كل فِرْق كالطود العظيم ﴾ يقول: مثل الجبل. ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم فلذلك قال: ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾.

وكذلك قال غير واحد من السلف، كمَا سيأتي بيانه في موضعه. وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما قال الإمام أحمد.

حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عبدالله بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: قَدِم رسولُ الله - ﷺ - المدينة فرأى اليهودَ يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عزّ وجلّ فيه بني إسرائيل من عدوهم(٤)، فصامه موسى عليه السلام. فقال رسول الله - ﷺ -: «أنا أحق بموسى منكم». فصامه رسول الله - ﷺ -، وأمر بصومه(٥).

وروى هذا الحديث البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه من طرق، عن أيوب السختياني، به نحو ما تقدم.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو الربيع، حدثنا سلام - يعني ابن سليم - عن زيد العَمِّيّ، عن يزيد

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير القرطبي ١/٣٨٧.
(٣) في الأصل: والبلاء هناك الشر. والمثبت عن القرطبي.
(٤) في الأصل: من الفرق. والمثبت عن المسند.
(٥) مسند الإمام أحمد ١/٢٩١.

الرقاشي، عن أنس، عن النبي - ﷺ - قال: «فلق (الله) البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء».

وهذا ضعيف من هذا الوجه فإن زيداً العَمّيّ فيه ضعف، وشيخه يزيد الرقاشي أضعف منه.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي ﴿ التي أنعمت ﴾[١] عليكم في عفوي عنكم، لَمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه، عند انقضاء أَمَد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، وهي المذكورة في الأعراف، في قوله تعالى: ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ قيل: إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم وإنجائهم من البحر.

وقوله: ﴿ وإذا آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ والفرقان ﴾ وهو ما يَفْرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿ لعلكم تهتدون ﴾. وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف. ولقوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس، وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾. [١-وقيل: الواو زائدة، والمعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب الفرقان. وهذا غريب. وقيل: عطفه عليه وإن كان المعنى واحداً كما في قول الشاعر[٢]:

وَقَـدَّمَـتِ الأديـم لـراهـشـيـه   وألـفى قـولـهـا كـذبـاً ومـيـنـا

وقال الآخر[٣]:

ألا حبَّـذا هنـدٌ وأرضٌ بهـا هِنْـدٌ   وهنـدٌ أتى من دُونها النـأيُ والبعـدُ

فالكذبُ هو المينُ، والنَّأْيُ هو البعدُ. وقال عنترة[٤]:

حُـيِّـيـتَ مـن طَـلَـلٍ تـقـادَمَ عـهـدُه   أقـوى وأقـفـر بـعـد أمِّ الـهـيـثـم

فعطف الإقفار على الإقواء[٥]، وهو هو-١].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤ ﴾

هذه صفةُ توبته - تعالى - على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري - رَحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه: يا قوم، إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾. فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجلَ ما وقع حين قال الله تعالى: ﴿ ولما سُقِط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا،

(١) عن الأصل.
(٢) عديّ بن زيد، ديوانه ١٨٣، وهو من شواهد مغني اللبيب.
(٣) الحطيئة، ديوانه ٣٩، وهو من شواهد ابن يعيش ١/١٠، ٧٠.
(٤) ديوانه ١٦.
(٥) في الأصل: فعطف الأقوى على الإقفار.

قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ﴾ الآية. قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾.

وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس: ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾. أي: إلى خالقكم.

قلت: وفي قوله ههنا: ﴿ إلى بارئكم ﴾ تنبيه على عظَم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره.

وروى النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن هارون، عن الأصبغ بن زيد الورّاق، عن القاسم ابن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير، عَن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: إنَّ توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من ولد ووالد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قَتَل في ذلك الموطن. فتاب أولئك الذين كان خَفِيَ على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا به، فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول. وهذه قطعة من حديث الفُتُون، وسيأتي في تفسير سورة طه بكماله[1]، إن شاء الله.

وقال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن بَشّار، حدثنا سفيان بن عُيَينة، قال: قال أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: ﴿ توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾. قال: أمر موسى قومه ـ من أمْر رَبِّه ـ عَزَّ وجلَّ ـ أن يقتلوا أنفسهم قال: واحتبى[2] الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظُلْمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة.

وقال ابن جريج: أخبرني القاسمُ بن أبي بَزَّة أنه سَمِعَ سعيدَ بن جُبَير ومجاهداً يقولان في قوله تعالى: ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ قالا: قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضُهم بعضاً، لا يحنو رجلٌ على قريبٍ ولا بعيدٍ، حتى ألوى[3] موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم، فكُشِفَ عن سبعين ألف قتيل. وإن الله أوحى إلى موسى: أنْ حَسْبي، فقد اكتفيتُ، وذلك حين ألوى موسى بثوبه. -[4](وروي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ نحو ذلك)-[4].

وقال قتادة: أمر القوم بشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل، فجعله لحيهم توبة، وللمقتول شهادة.

وقال الحسن البصري: أصابتهم حنْدِس، فقتل بعضهم بعضاً، ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك.

وقال السدي في قوله: ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ قال: أي فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قُتِل من الفريقين شهيداً، حتى كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قُتِل منهم سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا، البقيةَ البقيةَ. فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً، ومن بقي مُكَفَّراً عنه؛ فذلك قوله: ﴿ فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾.

---

(١) عند الآية ٤٠.

(٢) في الأصل: واجتبى. والاحتباء: أن يضمّ الرجل رجليه إلى بطنه بيديه أو بثوب.

(٣) أي: أشار.

(٤) عن الأصل.

وقال الزهري: لما أُمِرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها، بَرزُوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم قالوا يا نبي الله، ادع الله لنا. وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قَبِل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله، جلّ ثناؤه، إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قتل منكم[١] فحي عندي يرزقون، وأما من بقي فقد قبلت توبته. فسُرّ بذلك موسى، وبنو إسرائيل.

رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه.

وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه، وأحرق العجل وذرّاه في اليم، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، (فأخذتهم الصاعقة)[٢]، ثم بُعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل. فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى: نَصبر لأمر الله. فأمر موسى مَن لم يكن عَبَدَ العجل أن يَقْتُل من عبده؛ فجلسوا بالأفنية وأَصْلَتَ عليهم القومُ السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكى موسى، وبَهَشَ[٣] إليه النساء والصبيان، يطلبون العفو عنهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم وأمر موسى أن تُرْفَع عنهم السيوف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه، وكان سبعون[٤] رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال (لهم) موسى: انطلقوا إلى موعد[٥] ربكم. فقالوا: يا موسى، ما من توبة؟ قال: بلى، ﴿ اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ﴾ الآية، فاخترطوا السيوف والجِرَزَة[٦] والخناجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضبابة. قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويَلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدري. قال: ويتنادون فيها: رحم الله عبداً صبر حتى يبلغ الله رضاه، قال: فقتلاهم شهداء، وتِيبَ على أحيائهم، ثم قرأ: ﴿ فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذْ سألتم رؤيتي جَهْرَةً عياناً، مما لا يستطاع[٧] لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جُرَيج، قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ قال: علانية.

وكذا قال إبراهيم بن طهمان، عن عباد بن إسحاق، عن أبي الحُوَيرث، عن ابن عباس، أنه قال في قول الله تعالى: ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ أي: علانية، أي حتى نرى الله.

وقال قتادةُ، والربيع بن أنس: ﴿ حتى نرى الله جهرة ﴾ أي: عياناً.

---

(١) في الأصل: فهم: والمثبت عن تفسير الطبري ١/٢٨٧، وإحدى النسخ.

(٢) مكانه في الأصل: فأخذتم. والمثبت عن تفسير الطبري.

(٣) في الأصل: وأنعش.

(٤) في الأصل: وكانوا سبعون، ومثله في تفسير الطبري ١/٢٨٨.

(٥) في الأصل: موعدكم.

(٦) الجِرَزة ـ بكسر ففتح ـ جمع جُرز ـ بضم فسكون ـ وهو: العمود من الحديد.

(٧) في الأصل: «مما لا يتطلع عليكم ولأمثالكم».

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم[١] موسى فساروا معه. قال: فَسَمعوا[١] كلاماً، فقالوا: ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾. قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول: ماتوا.

وقال مَرْوان بن الحكم ـ فيما خطب به على منبر مكة ـ: الصاعقةُ: صيحةٌ من السماء.

وقال السدّي في قوله: ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ الصاعقةُ: نار.

وقال عُروةُ بن رُوَيم في قوله: ﴿ وأنتم تنظرون ﴾، قال: فصَعِق بعضُهم وبعضٌ ينظر، ثم بُعِث هؤلاء وصعِق هؤلاء.

وقال السدي: ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت[٢] خيارهم ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾. فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذ العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رَجُلاً[٣] رَجُلاً، ينظر بعضهم إلى بعض. كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾[٤].

وقال الربيع بن أنس: كان موتُهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت لِيُستوفى أجَلُهم وكذا قال قتادة.

وقال ابن جَرير: حدثنا محمد بن حُمَيد، حدثنا سَلَمَة بن الفضل، عن محمَّد بن إسحاق، قال: لما رجَع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحَرَّق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً الخَيِّرَ فالخَيِّرَ، وقال: انطلقوا إلى الله وتُوبوا مما صنعتم، وسَلُوه التوبةَ على من تركتم وراءكم من قومكم[٥]، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وَقَّتَه له ربّهُ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعِلْم، فقال له السبعون ـ فيما ذكر لي ـ حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تَغَشَّى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه[٦] بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سُجَّداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ فأخذتهم الرجفة، (وهي) الصاعقة، فماتوا جميعاً. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ قد سَفِهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أي: إن هذا لهم هلاك. اخترتُ منهم سبعين رجلاً، الخيّر فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿ إنا هُدْنا إليك ﴾ فلم يزل موسى يناشد ربه، عزّ وجلّ، ويطلب إليه، حتى ردّ إليهم أرواحهم، فَطَلَب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم[٧].

(١) في الأصل: «أصابهم»، «قال: يسمعون». المثبت عن تفسير ابن أبي حاتم.
(٢) في الأصل: وقد هلكت. والمثبت عن تفسير الطبري.
(٣) في الأصل: وعاش رجل رجل. والمثبت أيضاً عن الطبري.
(٤) تفسير الطبري ١/٢٩٢.
(٥) في الأصل: قومه.
(٦) في الأصل: دونها.
(٧) في الأصل: تقتلوا أنفسكم. انظر تفسير الطبري ١/٢٩١.

هذا سياق محمد بن إسحاق.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً كما أمرهم به، أمر الله موسى أن يأتيه في كل أناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موسى، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عَينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. وساق البقية.

(١)-(هذا السياق يقتضي أن الخطاب توجَّه إلى بني إسرائيل في قوله: ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾، والمراد السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسرين سواه، وقد أغرب فخر الدين الرازي في تفسيره، حين حكى في قصة هؤلاء السبعين أنهم بعد إحيائهم قالوا: يا موسى، إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك، فادعه يَجْعَلْنا أنبياء. فدعا بذلك، فأجاب الله دعوته. وهذا غريب جداً، إذ لا يُعْرَفُ في زمان موسى نبي سوى هارون، ثم يوشع بن نون، وقد غَلط أهل الكتاب أيضاً في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عزّ وجلّ، فإن الكليم موسى وقد سأل ذلك فمنع منه، فكيف يسأله هؤلاء السبعون؟!.

القول الثاني في الآية-(١).

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى ـ لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، (فيه أمره)(٢) الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى! وقرأ قول الله: ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾. قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصَعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾: فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم حَيينا. قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم.

(١)-(وهذا السياق يدلّ على أنهم كُلِّفوا بعدَما أُحيوا، وقد حكى الماوردي في ذلك قولين، أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة، حتى صاروا مضطرين إلى التصديق(٣). والثاني أنهم مكلفون لئلا يخلُو عاقل من تكليف. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم الأمور العظيمة لا يمنع تكليفهم، لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً من خوارق العادات، وهم في ذلك مكلفون، وهذا واضح، والله تبارك وتعالى أعلم)-(١).

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾. وهو جَمْعُ غمامة، سُمّي بذلك لأنه يَغُمّ السماء أي يواريها ويسترها. وهو السحاب الأبيض،

(١) عن الأصل.
(٢) سقط من الأصل.
(٣) عبارة الماوردي ـ كما ذكرها القرطبي ـ: سقوط تكليفهم معتبراً بالاستدلال دون الاضطرار. انظر تفسير القرطبي ١/٤٠٥.

ظُلّلوا به في التيه ليقيهم حر الشمس. كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس في حديث الفُتُون، قال: ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام.

قال ابن أبي حاتم: ورُوِيَ عن ابن عُمَر، والرّبيع بن أنس، وأبي مِجْلَز، والضحاك، والسدي، نحو قول ابن عباس.

وقال الحسن وقتادة: ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾: كان هذا في البرية، ظلل عليهم الغمام من الشمس.

وقال ابن جرير: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا، وأطيب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ قال: ليس بالسحاب، وهو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم.

وهكذا رواه ابن جَرِير، عن المثنى بن إبراهيم، عن أبي حذيفة.

وكذا رواه الثوري، وغيره، عن ابنْ أبي نَجيح، عن مجاهد. وكأنه يُريد ـ والله أعلم ـ أنه ليس من زِيِّ هذا السحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظراً، كما قال سنيد في تفسيره عن حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيج قال: قال ابن عباس: ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾. قال: غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه (في) قوله: ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: وكان معهم في التيه.

وقوله: ﴿ وأنزلنا عليكم المن ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المن: ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا.

وقال مجاهد: المن صمغة. وقال عكرمة: المن شيء أَنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرُّبِّ الغليظ.

وقال السدي: قالوا: يا موسى، كيف لنا بماءٍ ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على الشجرة[١] الزنجبيل.

وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلتهم سُقُوطَ الثلج، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى ذلك فسد أو لم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه، لأنه كان يوم عيد لا يشخَص[٢] فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء، وهذا كله في البرِّية.

وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العَسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

وقال وهب بن منبه ـ وسئل عن المن ـ فقال: خُبز الرُّقاق مثل الذرة أو مثل النَّقيِّ[٣].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن جابر، عن عامر وهو الشعبي، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل.

(١) في الأصل: الشجر والزنجبيل. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم.
(٢) في الأصل: يرخص. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم، وأثر قتادة فيه.
(٣) خبز الرُّقاق: المنبسط. والنَّقي: الذي نُخِل مرةً بعد أُخرى.

ووقع في شعر أمية بن أبي الصلت، حيث قال[١]:

فَرأى الله أنهم بمَضيع لا بذي مَزرَع ولا مَثمُورَا
فَسَناها عَليهِمُ غاديات وَمَرَى مُزنهم خلايا وخورًا
عَسَلاً ناطفاً وماء فراتا وحليباً ذا بهجة مَرمُورَا

فالناطف: هو السائل، والحليب المرمور: الصافي منه.

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر، والله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمَن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مُزج معه الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غَيره صار نوعاً آخر، وليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول البخاري[٢].

حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سفيان، عن عبد الملك، عن عمرو بن حُرَيث، عن سَعيدٍ[٣] بنِ زيدٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «الكَمْأة من المَنّ، وماؤها شفاء للعين».

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، عن سُفيانَ بنِ عُيَينة، عن عبد الملك ـ وهو ابن عمير ـ به[٤].

وأخرجه الجماعة في كتبهم، إلا أبا داود، من طرق عن عبد الملك بن عمير، به. وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه البخاري ومسلم والنسائي من رواية الحكم، عن الحسن العُرَني، عن عَمْرو بن حريث، به[٥].

وقال الترمذي: حدثنا أبو عُبَيدَةَ بن أبي السفر ومحمود بن غيلانَ، قالا: حدثنا سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «العَجْوَةُ من الجنة، وفيها شفاء من السّمِّ، والكمأة من المَنِّ وماؤها شفاء للعين»[٦].

تفرد بإخراجه الترمذي، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا[٧] من حديث محمد بن عمرو، وإلّا من حديث سعيد بن عامر، عنه، وفي الباب عن سعيد بن زيد، وأبي سعيد وجابر».

كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه في تفسيره، من طريق آخر، عن أبي هريرة، فقال:

حدثنا أحمد بن الحسين بن أحمد البَصْرِيّ، حدثنا أسلم بن سهل، حدثنا القاسم بن عيسى، حدثنا طلحة بن عبد الرحمن، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الكَمْأة من المنِّ، وماؤها شفاءٌ للعينِ».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وطلحة بن عبد الرحمن هذا سلمي واسطي، يكنى بأبي محمد، وقيل: أبو سليمان المؤدب، قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي: روى عن قتادة أشياء لا يتابع عليها.

---

(١) ديوان أمية ٤٠٣ ـ ٤٠٤.
وفي الأصل: «وصرى منهم»، تحريف. ومَرَى الناقة: مسح ضرعها لتدرّ. وفي الديوان: «وحليباً ذا نهجة»، بالنون.
(٢) البخاري، كتاب التفسير ٢٢/٦.
(٣) في الأصل: عن سفيان. وهو خطأ.
(٤) المسند ١٨٨/١.
(٥) البخاري، كتاب الطب ١٦٤/٧، ومسلم، كتاب الأشربة ١٦١٩ ـ ١٦٢٠، وعارضة الأحوذي، أبواب الطب ٢٢٦/٨ ـ ٢٢٧.
(٦) تحفة الأحوذي، أبواب الطب ٢٣٣/٦ ـ ٢٣٥.
(٧) لفظ التحفة: لا نعرفه من حديث محمد بن عمرو إلا من حديث سعيد بن زيد».

ثم قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة: أن ناساً من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قالوا: الكَمْأة جُدَري الأرض. فقال نبي الله ـ ﷺ ـ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السُم»(١).

وهذا حديث قد رواه النسائي، عن محمد بن بشار، به. وعنه، عن غندر، عن شعبة: عن أبي بشر جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، به. وعن محمد بن بشار، عن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء، عن شهر بن حوشب. بقصة الكمأة فقط.

وروى النسائي أيضاً وابن ماجه عن محمد بن بشار، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن مطر الوراق، عن شهر: بقصة العجوة عند النسائي، وبالقصتين عند ابن ماجه(٢).

وهذه الطريق منقطعةٌ بين شهر بن حَوْشَبٍ وأبي هُرَيرة، فإنه لم يسمعه منه، بدليل ما رواه النسائي في الوليمة من سُنَنه، عن علي بن الحسين الدِّرهمي، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ـ ﷺ ـ وهم يذكرون الكمْأة، وبعضهم يقول(٣): جدري الأرض، فقال: الكمْأة من المن وماؤها (شفاء) للعين.

وروي عن شهر، عن أبي سعيد وجابر، كما قال الإمام أحمد.

حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن شِهر بن حوشب، عن جابر بن عبدالله وأبي سعيد الخدري، قالا: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السم»(٤).

وقال النسائي في الوليمة أيضاً:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين».

ثم رواه أيضاً وابن ماجه من طرق، عن الأعم، عن أبي بشر، عن شهر عنهما(٥)، به.

وقد روياه ـ أعني النسائي (من حديث جرير)(٦) وابن ماجه ـ من حديث سعيد بن مسلمة ـ كلاهما عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، زاد النسائي: وجابر(٧)، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين.

ورواه ابن مَرْدُوَيه، عن أحمد بن عثمان، عن عباس الدوري، عن لاحق بن صواب، عن عمار بن رُزَيق، عن الأعمش، كابن ماجه.

(١) تحفة الاحوذي، أبواب الطب ٢٣٦/٦.
(٢) ابن ماجه، كتاب الطب ١١٤٣.
(٣) في الأصل: وبعضهم يذكرون.
(٤) مسند الإمام أحمد ٤٨/٣.
(٥) سنن ابن ماجه، كتاب الطب ١١٤٢.
(٦) عن الأصل.
(٧) في الأصل: وحديث جابر.

وقال ابن مَرْدُويه أيضاً: حدثنا أحمد بن عثمان، حدثنا عباس الدوري، حدثنا الحسن[1] بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ وفي يده كمآت، فقال: الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين.

وأخرجه النسائي، عن عمرو بن منصور، عن الحسن بن الربيع، به. ثم رواه ابن مردويه أيضاً عن عبدالله بن إسحاق عن الحسن بن سلام، عن عبيد الله بن موسى، عن سفيان عن الأعمش، به، وكذا رواه النسائي عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن عبيد الله بن موسى، به.

وقد روي من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، كما قال ابن مَرْدُويه:

حدثنا محمد بن عبدالله بن إبراهيم، حدثنا حمدون بن أحمد، حدثنا حوثرة بن أشرس، حدثنا حماد، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن أصحاب النبي ـ ﷺ ـ تذاكروا في الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، فقال بعضهم: نحسبه الكمأة. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم».

وهذا الحديثُ محفوظٌ أصلُه من روايةِ حَمَّاد بن سلمة. قد روى الترمذي والنسائي من طريقه شيئاً من هذا والله ـ تبارك وتعالى ـ أعلم.

ورُوي عن شهر، عن ابن عباس، كما رواه النسائي أيضاً في الوليمة، عن أبي بكر أحمد بن علي بن سعيد، عن عبدالله بن عون الخَرّاز، عن أبي عبيدة الحداد، عن عبد الجليل بن عطية، عن شهر، عن عبدالله بن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ، قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين».

فقد اختلف كما ترى فيه على شهر بن حوشب، ويحتمل عندي أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها، وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم، فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يتعمد الكذب، وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ـ ﷺ ـ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد، رضي الله عنه.

وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السلوى طائر شبيه السُّمَّانى، كانوا يأكلون منه.

وقال السدي في خَبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن أُناس من الصحابة: السلوى طائر يشبه السُّمَّانَى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا قرّة بن خالد، عن جهضم، عن ابن عباس، قال: السلوى هو السُّمَّانى.

وكذا قال مجاهد، والشعبي، والضحاك، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة، أكبر من العصفور، أو نحو ذلك.

وقال قتادة: السلوى كان من طير إلى الحُمْرة، تحشُرها عليهم الريحُ الجَنوبُ. وكان الرجلُ يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى تفسُد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه، لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء، ولا يطلبه.

وقال وهب بن منبه: السلوى طيرٌ سَمِينٌ مثلُ الحمام، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت. وفي

(١) في الأصل: الحسين. وهو خطأ. انظر تهذيب التهذيب ٢ /٢٧ ـ ٢٧٨.

رواية عن وهب، قال: سألَتْ بنو إسرائيل موسى عليه السلام اللحم، فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحاً، فأذرت عند مساكنهم السلوى، وهو السمانى، مثل ميل في ميل قيدَ رمح في السماء فخبأوا للغد فنتن اللحم وخَنِز(١) الخبز.

وقال السدِّيُّ: لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعامُ؟ فأنزل الله عليهم المَنّ فكان يسقط على الشجر الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمِر موسى فضرب بعصاه الحجر، (فانفجرت) منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كل سِبْط من عين، فقالوا: هذا الشراب، فأين الظل؟ فَظَلّل عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يَنْخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾، وقوله: ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم ﴾.

وروي عن وهب بن منبه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدي.

وقال سنيد، عن حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: خُلق لهم في التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن، قال ابن جريج: وكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد، إلا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً.

(٢-(قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهُذَليّ(٣) في قوله: إنه العَسَلُ، وأنشد في ذلك مستشهداً:

وقاسمها بالله جهداً لأنتما ... ألذُّ من السلوى إذا ما نشورها

قال: فظنَّ أن السلوى عسلٌ.

قال القرطبي: دعوى الإجماع لا يصح، لأن المؤرِّج أحد العلماء باللغة والتفسير قال: إنه العسل، واستدل ببيت الهذلي هذا، وذكر أنه في لغة كنانة، لأنه يُسْلى(٤)، ومنه عين سلوان. وقال الجوهري: السلوى العسل، واستشهد ببيت الهذلي أيضاً، والسُّلوانة ـ بالضم ـ: خَرَزَة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربه(٥) العاشق سلا، قال الشاعر:

شربت على سلواةٍ ماء مزنةٍ ... فلا وجديد العيش يا مرُّ ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوانُ. وقال بعضهم: السلوانُ دواء يُسْقى الحزينَ فيسلو. والأطباء يسمونه المُفَرِّح. قالوا: والسلوى جمع بلفظ الواحد أيضاً، كما يقال: سُمَّانى للمفرد والجمع، ودِفْلَى(٦) لذلك. وقال الخليل: واحده سلواة، وأنشدوا:

---

(١) خنِزَ الخبز: أنتن.

(٢) عن الأصل.

(٣) هو خالد بن زهير، والبيت في ديوان الهذليين ١٥٨/١.

(٤) في الأصل: سبلى.

(٥) في الأصل: فشربها. وانظر الصحاح.

(٦) الدِّفلى: نبت مرّ.

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض السُّلواة من بَلَلِ القطر

وقال الكسائي: السلوى واحدة، وجمعه سلاوي. نقله كله القرطبي[١])-[٢].

وقوله تعالى: ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان. وقوله: ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾، أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ـ ﷺ ـ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على الرسول ـ ﷺ ـ ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم، فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم. وكذلك لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في الاتباع: المشي مع قدر الله، مع متابعة الرسول ـ ﷺ ـ.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضَعُفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبةً لهم، كما ذكره تعالى في سورة المائدة، ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، كما نص على ذلك السدي، والرّبيع ابن أنس، وقتادة. (٢-(وأبو مسلم الأصفهاني، وغير واحد، وقد قال تعالىٰ: ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾... الآيات)-٢).

وقال آخرون: هي أريحا (٢-(ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد)-٢) وهذا بعيد، لأنها ليست على طريقهم، وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا. (٢-(وأبعد من ذلك قول من ذهب أنها مصر، حكاه فخر الدين في تفسيره، والصحيح الأول، أنها بيت المقدس)-٢) وهذا[٣] كان لمّا خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حُبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح. ولما فتحوها أُمِرُوا أن يدخلوا الباب باب البلد (سجداً) أي: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلادهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال.

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله: ﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾ أي: ركعاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن

---

(١) تفسير القرطبي ١/٤٠٧ ـ ٤٠٨.
(٢) عن الأصل.
(٣) في الأصل: ولهذا.

المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾، قال: ركعاً من باب صغير.

ورواه الحاكم من حديث سفيان، به. ورواه ابن أبي حاتم من حديث سفيان، وهو الثوري، به. وزاد: فدخلوا من قبل أستاههم. (١-(وقال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، واستبعده الرازي، وحكي عن بعضهم أن المراد بالسجود ههنا الخضوع لتعذر حمله على حقيقته)-١).

وقال خصيف: قال عكرمة، قال ابن عباس: كان الباب قِبَل القبلة.

وقال ابن عباس ومجاهد، والسدي، وقتادة، والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء من بيت المقدس.

(١-(وحكى الرازي عن بعضهم أنه عنى باب جهة من جهات القرية)-١).

وقال خصيف: قال عكرمة: قال ابن عباس: فدخلوا على شَق. وقال السدي، عن أبي سعيد الأزدي، عن أبي الكنُود، عن عبدالله بن مسعود: وقيل لهم ادخلوا الباب سجداً، فدخلوا مقنعي رؤوسهم، أي: رافعي رؤوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله:

﴿ وقولوا حطة ﴾ قال الثوري عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وقولوا حطة ﴾.

قال: مغفرة، استغفروا.

وروي عن عطاء، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿ وقولوا حطة ﴾ قال: قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم.

وقال عكرمة: قولوا لا إله إلا الله.

وقال الحسن وقتادة: أي احطط عنا خطايانا.

وقال الأوزاعي: كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه يسأله عن قوله تعالى: ﴿ وقولوا حطة ﴾، فكتب إليه: أن أقروا بالذنب.

﴿ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ هذا جواب الأمر، أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصل الأمر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نُعي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أجله فيها، وأقره على ذلك عمر رضي الله عنه. ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روي أنه كان

---

(١) عن الأصل.

يوم الفتح فتح مكة داخلاً إليها من الثنية العليا، وإنَّه الخاضع لربه حتى إن عُثْنُونه[١] ليمس مَوْرِك رَحله، يشكر الله على ذلك. ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضُحَى، فقال بعضهم: هي صلاة الضحى، وقال آخرون: بلِ هي صلاة الفتح، فاستحبوا للإمام والأمير إذا فتح بلداً أن يصلي فيه ثماني ركعات [١]-(عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني)-[١] (ركعات)[٢] والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم؛ وقيل: يصليها كلها (بتسليم)[٢] واحد.

[٣]-(وقد تكلم القرطبي[٤] ههنا على مسألة رواية الحديث بالمعنى، وأطال الكلام فيها، وحكى عن الجمهور، وعن محمد بن سيرين، والقاسم بن محمد، ورجاء بن حيوة المنع، واختار ابنُ العربيّ المالكي أن ذلك يجوز في المطابقة ومن الصحابة والتابعين لعلمهم باللغة وقدرتهم على المطابقة، وأما من بعدهم فلا يجوز. وقد أنكر بعضُ العلماء على ابن العربي هذه التفرقة، والله أعلم. قال وكيع إن لم تكن الرواية بالمعنى جائزة، فقد هلك الناس. وصدق وكيع. وقال الحسن البصري: إذا أصبت المعنى أجزأك. وقال قتادة، عن زُرَارة: لقيت عدّةً من الصحابة فاختلفوا عليّ في اللفظ، واجتمعوا في المعنى)-[٣].

وقوله تعالى: ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾.

قال البخاري: حدثني محمد[٥]، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدي، عن ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن هَمَّام ابن مُنَبِّه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: قيل لبني إسرائيل: ﴿ ادخُلُوا الْباب سُجّداً وقولوا: حطة ﴾، فدخلوا يزحفون على أستاهم، فبدّلوا وقالوا: حِطّة حبَّةٌ في شَعَرَةٍ[٦].

ورواه النسائي، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن[٧] عبد الرحمن بن مهدي موقوفاً. وعن محمد ابن عبيد بن محمد، عن ابن المبارك ببعضه مسنداً، في قوله تعالى: ﴿ حِطَّة ﴾، قال: فبدلوا. فقالوا[٨]: حبة.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن هَمَّام بن مُنَبه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: قال الله لبني إسرائيل: ﴿ ادخلوا الباب سجداً وقولوا: حِطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ فبدلوا، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حَبّة[٩] في شعيرة.

وهذا حديث صحيح، رواه البخاري عن إسحاق بن نصر، ومسلم عن محمد بن رافع. والترمذي عن عبد بن حميد، كلهم عن عبد الرزاق، به. وقال الترمذي حسن صحيح[١٠].

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، وعمن لا أتَّهِم عن ابن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: دخلوا الباب ـ الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً ـ يزحفون علىٰ أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعيرة.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، وحدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبدالله بن وهب، حدثنا هشام بن

---

(١) ما بين القوسين موضعه في نهاية الفقرة، وقبل كلام القرطبي.
(٢) عن الطبقة السابقة.
(٣) عن الأصل.
(٤) تفسير القرطبي ١/٤١١ ـ ٤١٢.
(٥) في الأصل: حدّثني محمد بن عبد الرحمن.
(٦) البخاري، كتاب التفسير ٦/٢٢ ـ ٢٣.
(٧) في الأصل: إبراهيم بن عبد الرحمن. وهو خطأ.
(٨) مكانه في الأصل: فقال.
(٩) في الأصل: حنطة. والمثبت عن تفسير الطبري ١/٣٠٣.
(١٠) البخاري، تفسير سورة الأعراف ٦/٧٥ ـ ٧٦. وتحفة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ٨/٢٩١ ـ ٢٩٢، وفيهما: حبة في شعيرة.

سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ: قال الله لبني إسرائيل: ﴿ ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾.

ثم قال أبو داود: حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا ابن أبي فَدِيك، عن هشام بن سعد، مثله.

هكذا رواه منفرداً به في كتاب الحروف مختصراً[١].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبدالله بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن فهد، حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القَزّاز، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فُدَيك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدرِيِّ، قال: سرنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا كان من آخر الليل اجْتَزنا[٢] في ثنية يقال لها: ذات الحنظل، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل: ﴿ ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾».

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن البراء: ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾، قال اليهود: قيل لهم ادخلوا الباب سجداً، قال: ركعاً، وقولوا: حطة أي مغفرة فدخلوا على أستاههم، وجعلوا يقولون: حنطة حمراء فيها شعيرة، فذلك قول الله تعالى: ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾.

وقال الثوري، عن السدي، عن أبي سعد الأزدي، عن أبي الكنود، عن ابن مسعود ﴿ وقولوا حطة ﴾ فقالوا: حنطة، حبة حمراء فيها شعيرة، فأنزل الله: ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾.

وقال أسباط، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود أنه قال: إنهم قالوا: «هُطِّي سمعاتا أزبة مزباً» فهي بالعربية: حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء، فذلك قوله: ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد، عن ابن عباس: في قوله: ﴿ ادخلوا الباب سجداً ﴾ ركعاً من باب صغير، فدخلوا من قبل أستاههم، وقالوا: حنطة فهو قوله تعالى: ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾.

وهكذا روي عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن رافع.

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق من الحديث أنهم بَدَّلوا أَمْرَ الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فَأُمِروا أن يدخلوا سجداً، فَدَخلوا يَزْحَفُون على أستاههم من قِبَلِ أستاههم رافعي رؤوسِهم، وأُمِرُوا أن يقولوا: حِطَّة، أي: احطُطْ عنا ذنوبنا. فاستهزؤوا فقالوا: حِنْطَةٌ في شعرة. وهذا في غاية ما يكونَ من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بَأْسَه وعذابه بِفِسْقِهم، وهو خُرُوجُهم عن طاعته، ولهذا قال: ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾.

وقال الضحاك عن ابن عباس: كلُّ شيء في كتاب الله من «الرِّجْز» يعني به العذاب.

وهكذا رويَ عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي، والحسن، وقتادة، أنه العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال الشعبي: الرجز إما الطاعون، وإما البرد. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد ـ يعني ابن أبي وقاص ـ عن سعد بن مالك، وأسامةَ بن زيد، وخُزَيمة بن ثابت ـ رضي الله

(١) سنن أبي داود، كتاب الحروف ٤/٣٨.
(٢) في الأصل: في سرية.

عنهم ـ قالوا: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الطاعون رِجزٌ عذاب عُذِّبَ به مَن كان قبلكم».

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به. وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت: «إذا سَمِعتم بالطعونِ بأرضٍ فلا تدخلوها»[١] الحديث.

قال ابن جرير: أخبرني يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهري، قال: أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أسامة بن زيد عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إن هذا الوجع والسقم رجْزٌ عُذِّب به بعض الأمم قبلكم. وهذا الحديث أصله مخرَّج في الصحيحين[٢]، من حديث الزهري، ومن حديث مالك، عن محمد بن المنكدر، وسالم أبي النضر، عن عامر بن سعد، بنحوه.

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى ـ عليه السلام ـ حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماءَ، وإخراجَه لكم من حَجَرٍ يُحمل معكم، وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكُلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد، واعبدوا الذي سُخر لكم ذلك. ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾: ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها: وقد بسطه المفسرون في كلامهم. كما قال ابن عباس: وجُعِل بين ظهرَانَيْهم حجر مربَّع وأمر موسى ـ عليه السلام ـ فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأُعْلَمَ كل سِبْطٍ عينهم، يشربون منها لا يرتحلون من مَنْقَلَة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول.

وهذا قطعة من الحديث الذي رواه النسائي، وابن جرير[٣]، وابن أبي حاتم، وهو حديث الفُتُون الطويل.

وقال عطية العوفي: وجُعِل لهم حجر مثل رأس الثور يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فإذا ساروا حملوه على ثور، فاستمسك الماء.

وقال عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه: كان لبني إسرائيل حجر، فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا.

وقال قتادة: كان حجراً طورياً، من الطور، يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه.

وقال الزمخشريُّ: وقيل كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع وقيل مثل رأس الإنسان، وقيل كان من أس الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسىٰ له شعبتان تتقدان في الظلمة، وكان يُحمل على حمار، قال: وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا؛ وقيل هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة؛ فحمله في مخلاته.

قال الزمخشريّ: ويحتمل أن يكون اللام للجنس لا للعهد؛ أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر.

وعن الحسن: لم يأمره بضرب حجر بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة، فكان يضرب الحجر بعصاه فيتفجر، ثم يضربه فييبس، فقالوا: إن فقد موسىٰ هذا الحجر عطشنا. فأوحىٰ الله إليه أن يكلم

---

(١) البخاري، كتاب الطب ١٦٨/٧، ومسلم، كتاب السلام ١٧٣٩.

(٢) البخاري، كتاب الحيل ٣٤/٩، ومسلم، كتاب السلام ١٧٣٨ ـ ١٧٣٩.

(٣) تفسير الطبري ٣٧/١.

الحجارة فتنفجر ولا يمسُّه بالعصا لعلهم يقرّون والله أعلم. وقال يحيى بن النضر: قلت لجُوَيبر: كيف عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبهم؟ قال: كان موسى يَضَعُ الحَجَر، ويقوم من كُلِّ سِبْطٍ رجل، ويضرب موسى الحَجَر، فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، فتنفتح من كل [جهةٍ][1] عينٌ على رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين[2].

وقال الضحاك: قال ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهاراً.

وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سِبْط منهم عين يشربون منها.

وقال مجاهد نحو قول ابن عباس.

وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقص ذلك على رسوله ـ ﷺ ـ عما فعل بهم. وأما في هذه السورة، وهي البقرة فإنها مدنية، فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا، وذاك هناك، والله أعلم.

-[3](وبين السياق تباينٌ من عشرة أوجه لفظيةٍ ومعنوية، قد سأل عنها الرازي[4] في تفسيره، وأجاب عنها بما عنده، والأمر في ذلك قريب، والله ـ تبارك وتعالى ـ أعلم بأسرار كتابه)-[3].

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المَنّ والسَّلْوَى، طعاماً طيباً هنيئاً سهلاً، واذكروا دُبْركم وضَجَركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيّة من البقول ونحوها مما سألتم.

وقال الحسن البصري رحمه الله: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقول وفوم، فقالوا: ﴿ يا موسى لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ﴾ -[3](وهم يأكلون المنَّ والسلوى، لأنه لا يَتَبدَّل، ولا يَتَغيَّر كل يوم، فهو كأكلٍ واحدٍ)-[3]. فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما «الفوم» فقد اختلف السلف في معناه، فوقع في قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، وكذلك فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم، عنه، بالثوم. وكذا الربيع بن أنس، وسعيد بن جبير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصري، عن يونس، عن الحسن، في قوله: ﴿ وفومها ﴾ قال: قال ابن عباس: الثوم.

قالوا: وفي اللغة القديمة: فَوِّموا لنا بمعنى اختبزوا.

---

(١) عن الأصل.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٣) عن الأصل.
(٤) انظر تفسير الفخر الرازي ٩٦/٣.

قال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم: وقعوا في «عاثور شَرّ، وعافور شر. وأثافي وأثاثي. ومعافير ومعاثير». وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما[١]، والله أعلم.

وقال آخرون: الفوم الحنطة، وهو البر الذي يعمل منه الخبز.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب قراءة، حدثني نافع بن أبي نعيم: أن ابن عباس سُئِل عن قول الله ﴿ وفومها ﴾، ما فومها؟ قال: الحنطة. قال ابن عباس: أما سَمِعْتَ ابن الجُلاح وهو يقول[٢]:

قد كنتُ أغنى الناس شخصاً واحداً ... وَرَدَ المدينة عن زراعة فُومِ

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن الحسن، [حدثنا مسلم الجرمي][٣]، حدثنا عيسى بن يونس، عن رشدين ابن كُرَيب، عن أبيه، عن ابن عباس، [في قول][٣] الله تعالى: ﴿ وفُومها ﴾] قال: الفُومِ الحنطةُ [بلسان بني هاشم][٣].

[٣]-[وكذا قال علي بن أبي طلحة، والضحاك، وعكرمة عن ابن عباس أن الفوم: الحنطة]-[٣].

وقال سفيان الثوري، عن ابن جريج، عن مجاهد وعطاء: ﴿ وفومها ﴾ قالا: خبزها.

وقال هشيم عن يونس، عن الحسن، وحصين، عن أبي مالك ﴿ وفومها ﴾ قال: الحنطة.

وهو قول عكرمة، والسدي، والحسن البصري، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، والله أعلم، [٤]-(وقال الجوهري: الفوم الحنطة. وقال ابن زيد: الفومة السنبلة. وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة أن الفُومَ كل حبٍّ يُخْتَبَزُ قال: وقال بعضهم: هو الحِمِّص، لغة شامية، ومنه يقال لبائعه: فاميٌّ، مغير من فُومي)-[٤].

وقال البخاري: وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها فوم.

وقوله تعالى: ﴿ قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيّة مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنيء الطيب النافع.

وقوله: ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف.

قال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك، لإجماع المصاحف على ذلك.

وقال ابن عباس: ﴿ اهبطوا مصراً ﴾. قال: مصراً من الأمصار، رواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي سعيد البقال سعيد بن المرزبان، عن عكرمة، (عنه)[٣].

قال: وروي عن السدي، وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

---

(١) تفسير الطبري ٣١٢/١.
(٢) البيت في المحتسب ٨٨/١، والروض الآنف ٤٥/٢، وينسب أيضاً لأبي محجن الثقفي.
(٣) سقط من الأصل.
(٤) عن الأصل.

وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: ﴿ اهبطوا مصر ﴾، من غير إجراء ـ يعني من غير صرف ـ ثم روي عن أبي العالية، والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون.

(١-(وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العالية، وعن الأعمش أيضاً)-١).

(١-(وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون)-١) على قراءة الإجراء أيضاً. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى: ﴿قواريراً. قواريراً﴾. ثم توقف في المراد ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟

وهذا الذي قاله فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار، كما روى عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن يُسْأَلَ الله فيه؛ ولهذا قال: ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ أي ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر(٢) ولا ضرورة فيه، لم يجابوا إليه، والله أعلم.

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وضُرِبت عليهم الذلةُ والمسكنةُ ﴾. أي: وُضِعت عليهم وألزموا بها شَرْعاً وقَدراً، اي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضُرِبَ عليهم الصَّغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون(٣).

قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾، قال: هم أصحاب القِبالات(٤) يعني أصحاب الجزية.

وقال عبد الرزّاق، عن مَعْمَرٍ، عن الحَسَنِ وقتادةَ، في قوله تعالى: ﴿ وضُرِبَت عليهم ﴾، قال: يُعطُون الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغِرُونَ.

وقال الضحاك: ﴿ وضربت عليهم الذلة ﴾ قال: الذل. وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين. ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والسدّيّ: المسكنة الفاقة. وقال عطية العوفي: الخراج. وقال الضحاك: الجزية.

وقولُه تعالى: ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ قال، الضحاك: استحَقّوا الغَضَب من الله. وقال الربيع بن أنس: فحدَثَ عليهم غضب من الله. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ وباؤوا بغضب من الله ﴾.

---

(١) سقط من الأصل.
(٢) في الأصل: والشر.
(٣) في الأصل: مستذلين.
(٤) القبالات: جمع قبالة، وهي الجزية التي تفرض على الأرض، وكان الشخص الذي يتولى جمعها يسمّى قبيلاً، اي: كفيلاً بتحصيلها. انظر الخراج لأبي يوسف ١٨٩، ١٩٦، ٢١٠، ٢٢٥.

يقول: استوجبوا سخطاً، وقال ابن جرير: يعني بقوله: ﴿ وباؤوا بغضب من الله ﴾ انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باؤوا إلا موصولاً: إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بَوْءاً وبواء. ومنه قوله تعالى: ﴿ إني أُريدُ أن تبوءَ بإثمي وإثمِكَ ﴾، يعني: تنصرف متحملهما وترجع بهما، قد صارا عليك دوني. فمعنى الكلام إذاً: فرجعوا منصرفين متحمّلين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط.

وقولُه تعالى: ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾، يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب عليهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم حتى أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كِبْر أعظمُ من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق، ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: الكبر بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ الناس.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن ابن عون، عن عمرو بن سعيد، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، قال: قال ابن مسعود: كنت لا أُحجَبُ عن النَّجْوى، ولا عن كذا ولا عن كذا، قال: فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ وعنده مالك بن مرارة الرَّهاوي، فأدركته من آخر حديثه، وهو يقول: يا رسول الله، قد قُسِم لي من الجمال ما ترى، فما أحب أن أحداً من الناس فَضَلني بشراكين فما فوقهما، أفليس ذلك هو البغي؟ فقال: لا، ليس ذلك من البغي، ولكن البغي مَنْ بطر، أو قال: سَفِهَ الحقَّ وغَمط الناسَ[(١)].

يعني رَدَّ الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيلَ ما ارتكبُوه من الكفر بآياتِ الله وقَتْلِ أنبيائهم، أحلَّ الله بهم بأسَه الذي لا يُرَدّ، وكساهم ذُلاً في الدنيا موصولاً بذلِّ الآخرة جزاءً وفاقاً.

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبدالله بن مسعود، قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي، [ثم] يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، [حدثنا أبان][(٢)]، حدثنا عاصم، عن أبي وائل، عن عبدالله ـ يعني ابن مسعود ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبي، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة، ومُمَثِّل من المُمثِّلين[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿ ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدُون ﴾ وهذه عِلَّةٌ أخرى في مجازاتهم بما جُوزُوا به، أنهم كانوا يَعْصُون ويعتدُون، فالعصيان فعلُ المَناهي، والاعتداءُ المجاوَزَة في حَدِّ المأذون فيه والمأمور به. والله أعلم..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

لما بَيَّن تعالى حَالَ من خالفَ أوامره وارتكب زواجِرَه، وتَعدَّى في فِعْل ما لا إذن فيه، وانتهك المحارمَ، وما أَحَلَّ بهم من النكال، نَبَّه تعالى على أن مَنْ أحسنَ من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاءَ الحسنى، وكذلك

(١) مسند الإمام أحمد ١/٣٨٥.
(٢) مكانه في الأصل: الطيالسي.
(٣) مسند الإمام أحمد ١/٤٠٧.

الأمرُ إلى قيام الساعة؛ كُلّ من اتَّبَعَ الرسولَ النبيَّ الأميَّ فله السعادةُ الأبديةُ، ولا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هُمْ يحزنون على ما يتركونه ويُخلِّفونه، كما قال تعالى: ﴿ ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لَا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾، وكما تقولُ الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، تتنَزَّلُ عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشِرُوا بالجنةِ التي كنتمْ تُوعَدُون ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا ابن أبي عُمَر العَدَني، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، قال: قال سلمان: سألت النبي ـ ﷺ ـ عن أهلِ دين كنتُ معهم، فذكرتُ من صلاتهم وعبادَتِهم، فنزلت: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى آخر الآية.

وقال السُّدِّي: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ﴾. . . الآية: نزلت في أصحاب سَلمانَ الفارسِيّ، بينا هو يحدث النبي ـ ﷺ ـ إذْ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً. فلما فرغ سلمانُ من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ ـ: يا سلمان، هم من أهل النار. فاشتدّ ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية.

فكان إيمانُ اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى ـ عليه السلام ـ حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى، فلم يدعها ولم يتبع عيسى، كان هالكاً. وإيمان النصارى أنَّ من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد ـ ﷺ ـ فمن لم يتبع محمداً ـ ﷺ ـ منهم ويَدَع ما كان عليه منْ سنة عيسى والإنجيل ـ كان هالكاً.

وقال ابن أبي حاتم: ورُوي عن سعيد بن جبير نحوُ هذا:

قلت: وهذا لا ينافي ما رَوى عَلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾، فإنَّ هذا الذي قاله [ابن عباس][1] إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ـ ﷺ ـ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم.

واليهود من الهوادة وهي المودة أو التهود وهو التوبة، لقول موسى عليه السلام: (إنا هُدْنا إليك)، أي: تبنا ـ فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض[2].

[1]-(وقيل: لِنِسْبَتِهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام. وقال أبوعمرو بن العلاء: لأنهم يتهوّدون، أي: يتحرَّكون عند قراءة التوراة)-[1].

فلما بعث عيسى ـ ﷺ ـ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: أنصار أيضاً، كما قال عيسى عليه السلام: (من أنصاري إلى الله، قال الحواريون: نحن أنصار الله) وقيل: إنهم إنما سُمّوا بذلك من أجل أنهم نزلوا[3] أرضاً يقال لها ناصرة، قاله قتادة وابن جُرَيج، وروي عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم.

---

(١) عن الأصل.
(٢) في الأصل: بعض.
(٣) في الأصل: تركوا.

والنصارى: جمع نصران كنشاوى جمع نَشْوَانَ، وَسَكَارى جمع سَكْران، ويقال للمرأة: نصرانة، قال الشاعر(١):

نَصْرَانَةٌ لـم تَحَنَّـفِ

فلما بعث الله محمداً - ﷺ - خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقُه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون. وسميت أمة محمد - ﷺ - مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية. وأما الصابئون فقد اختلف فيهم؛ فقال سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وكذا رواه ابن أبي نجيح، عنه وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس، والسدي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك (وإسحاق بن راهويه)(٢) الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور. (٢-(ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم)-٢).

وقال هشيم، عن مُطَرِّف: كنا عند الحكم بن عُتيبة فحدَّثه رجل من البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: إنهم كالمجوس، فقال الحَكَمُ: ألم أُخْبِرْكُم بذلك؟!

وقال عبدُ الرحمن بن مَهْدِي، عن معاويةَ بن عبد الكريم: سَمِعتُ الحَسَن ذَكَرَ الصابئين، فقال: هم قوم يعبدون الملائكة.

(٢-(وقال ابن جرير(٣): حدَّثنا محمد بن عبد الأعلى حدَّثنا المعتمر بن سُلَيمان عن أبيه عن الحسن، قال: حدثني زياد أنَّ الصابئين يُصَلون إلى القبلة ويصلون الخمس قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية، فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة)-٢).

وقال أبو جَعْفَر الرازيّ: بلغني أن الصابئين يعبدون الملائكة، ويقرءون الزبور، ويصلون القبلة: وكذا قال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قَتَادَةَ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابـن وهب، أخبرني ابن أبي الزِّناد، عن أبيه، قال: الصابئُون قومٌ مما يَلي العراقَ، وهم بكُوثَى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات.

وسئل وهب بن منبه عن الصابئين، فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً، وقال ابن وهب، قال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إلّه إلا الله. وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إلّه إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي - ﷺ - وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعني في قول: لا إلّه إلا الله.

---

(١) هو أبو الأخزر الحماني، والبيت بتمامه كما في تفسير القرطبي ٣٦٩/١:

فـكـلـتـاهُـمـا خَـرَّتْ وأسْـجَـدَ رأسُـهـا   كـمـا أسْـجَـدَتْ نَـصْـرَانَـةٌ لـم تَـحَـنَّـفِ

وانظرفي الكتاب ٢٥٥/٣ - ٢٦٥، ٤١١، واللسان: نصَر هذا والشاعر يصف ناقتين خَرَّتا من الإعياء، أو نُحِرَتا فطأطأتا رءوسهما.

(٢ - ٢) عن الأصل.

(٣) تفسير الطبري ٣١٩/١.

وقال[١-] الخليل: هم قوم يُشبه دينُهم دينَ النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مَهَبِّ الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. وحكى القرطبي عن مجاهد، والحسن، وابن أبي نجيح أنهم قوم تركّب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم. قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم. قال القرطبي: والذي تَحَصَّلَ من مذهبهم - فيما ذكره بعض العلماء - أنهم يُوحِّدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فَعَّالة ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم وإخبار فخر الدين الرازي أن الصابئين قومٌ يعبدون الكواكب، بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوَّض تدبير هذا العالم إليها قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكنعانيين الذين جاوبهم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام رادًّا عليهم ومُبْطِلاً لقولهم)[-١].

وأظهر الأقوال، والله أعلم، قولُ مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه. ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابىء، أي: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول تعالى مذكراً بني إسرائيلَ ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه، ويأخذوه[٢] بقوة وهمَّة وامتثال، كما قال تعالى: ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ فالطور هو الجبل، كما فسر[٣] بآية الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس، ومجاهد، وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس، وغير واحد، وهذا ظاهر.

وفي رواية عن ابن عباس: الطور: ما أَنْبت من الجبال، وما لم يُنْبتْ فليس بطور.

وفي حديث الفتون عن ابن عباس: أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا، (فسجدوا)[٤].

وقال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سُجَّداً (فسجدوا)[٣] على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا[٥]: ما سجدةٌ أحبُّ إلى الله من سجدة كَشَفَ بها العذابَ عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قول الله تعالى: ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾.

وقال الحسن في قوله ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾: يعني التوراة.

وقال أبو العالية، والربيعُ بن أنس (بقوة) أي: بطاعة. وقال مجاهد: بقوة: بعمل بما فيه. وقال قتادة: (خذوا ما آتيناكم بقوة) القوة: الجد وإلا دفنته عليكم.

(١ - ١) المصدر السابق.

(٢) في الأصل: وأخذوه.

(٣) في الأصل: كما فسرنا به الأعراف.

(٤) عن الأصل. (٥) في الأصل: فقال. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم.

قال: فأقروا بذلك: أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة: ومعنى قوله: وإلا دفنته عليكم: وإلا أسقطته عليكم، يعني الجبل.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس (واذكروا ما فيه)، يقول: اقرءوا ما في التوراة واعملوا به.

وقوله تعالى: ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ أي: توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿ لكنتم من الخاسرين ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ولقد علمتم ﴾ يا معشر اليهود، ما حَلّ من البأس[1] بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيَّلُوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر، إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ القصة بكمالها.

وقال السدّي: أهل القرية هم أهلُ «أيلة». وكذا قال قتادة. وسنورِدُ أقوال المفسرين هناك مبسوطة، إن شاء الله وبه الثقة.

وقوله: ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا أبو حذيفة، حدَّثنا شِبْلٌ، عن أبي نَجِيح، عن مجاهد: (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال: مُسِخَتْ قلوبُهم، ولم يُمْسَخُوا قِرَدةً، وإنما هو مثل ضَرَبه الله (كمثل الحمار يحمل أسفاراً).

ورواه ابن جرير، عن المثنى، عن أبي حذيفة. وعن محمد بن عمرو الباهلي، عن أبي عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، به[2].

وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ﴾ الآية.

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين): فجعل منهم القردة والخنازير.

---

(١) في الأصل: ما حلَّ بالناس بأهل القرية.

(٢) تفسير الطبري ١/٣٣٢.

فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

وقال شيبان النحوي، عن قتادة (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين): فصار القوم قروداً تَعاوَى لها أذناب بعدما كانوا رجالاً ونساء.

وقال عطاء الخراساني: نُودوا: يا أهل القرية (كونوا قردة خاسئين)، فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم، أي بلى.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا علي بن الحسين[١]، حدَّثنا عبدالله بن محمد بن ربيعة بالمصيصة، حدَّثنا محمد بن مسلم ـ يعني الطائفي ـ عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فُواقاً[٢] ثم هلكوا. ما كان للمسخ نسل.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخَلْق في الستة الأيام[٣] التي ذكر الله في كتابه، فمسخ هؤلاء في صورة القِرَدة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء. ويحوله كما يشاء[٤].

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: (كونوا قردة خاسئين)، قال: يعني أذلة صاغرين. وروي عن مجاهد، وقتادة والربيع، وأبي مالك، ونحوه.

وقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمَة، قال: قال ابن عباس: إنّ الله إنما افتَرَضَ على بني إسرائيل اليومَ الذي افترضَ عليكم في عيدكم ـ يومَ الجمعة ـ فخالفوا إلى يوم السبت فعظَّموه، وتركوا ما أمروا به. فلما أبوا إلا لزوم يوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أيلة والطّور، يقال لها: «مدين»؛ فحرم الله عليهم في يوم السبت الحيتان صيدها وأكلها. وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شُرَّعاً[٥] إلى ساحل بَحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبت، فلم يروا حُوتاً صغيراً ولا كبيراً. حتى إذا كان يومُ السبت أتين شُرَّعاً، حتى إذا ذهب السبت ذهبت، فكانوا كذلك، حتى إذا طال عليهم الأمد وقَرِموا[٦] إلى الحيتان، عمد رجل منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فخزمه بخيط، ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتداً في الساحل فأوثقه، ثم تركه: حتى إذا كان الغد جاء فأخذه، أي: إني لم آخذه في يوم السبت ثم انطلق به فأكله. حتى إذا كان يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد الناسُ ريح الحيتان، فقال أهلِ القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صَنيعِ ذلك الرجل. قال: ففعلوا مثل ما فعل، وأكلوا سراً زماناً طويلاً، لم يعجل الله عليهم بعقوبة حتى صادوها علانية وباعوها في الأسواق. فقالت طائفة منهم من أهل البقية: ويحكم. اتقوا الله: ونهوهم عما يصنعون. فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا: (لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟ قالوا: معذرة إلى ربكم) لسخطنا أعمالهم ﴿ ولعلهم يتقون ﴾.

(١) في الأصل: الحسن. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم، وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، الترجمة ١٧٩/٦/٩٧٩.

(٢) الفواق: ما بين الحلبتين من الراحة.

(٣) في الأصل: أيام.

(٤) سقط من الأصل.

(٥) أي: على وجه الماء.

(٦) القرم: شدّة الشهوة إلى اللحم.

قال ابن عباس: فبينما هم كذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلا يرونهم قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأناً! فانظروا ما هو؟ فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم، كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة، إنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد.

قال: يقول ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الجميع منهم، قال: وهي القرية التي قال الله جلَّ ثناؤه لمحمد ﷺ: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾[١] الآية. وروى الضحاك عن ابن عباس نحواً من هذا.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾، قال: فهم أهل «أيلة»، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت ـ وَقَدْ حرم الله على اليهود أن تعمل في السبت شيئاً ـ لم يبق في البحر حُوتٌ إلا خرج، حتى يخرجن خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن مَقْل[٢] البحر، فلم يُرَ منهن شيء حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى: ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذْ يعدون في السبت إذْ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾. فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة، ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره ريحه فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جارُه، حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم! إنما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه فقال الفقهاء: لا ولكنكم صدتموه يوم فَتَحْتُم الماء فدخل، قال: وغلبوا أن ينهوا. فقال بعض الذين نهوهم لبعض: ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ (يقول): لم تعظوهم، وقدوعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نُسَاكِنكم في قرية واحدة. فقسموا القرية بجدار، ففتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً، ولعنهم داود عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفّار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم، ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطئوا عليهم تَسَوَّرَ المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردةٌ يثب بعضهم[٣] على بعض، ففتحوا عنهم، فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ وذلك حين يقول: ﴿ لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴾ فهم القردة.

قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد، رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً بل الصحيح أنه صوري لا معنوي، والله أعلم.

وقوله تعالى ﴿ فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها، وموعظة للمتقين ﴾ قال بعضهم: الضمير في فجعلناها عائد على القردة، وقيل: على الحيتان: وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية؛ حكاها ابن جرير.

(١) تفسير الطبري ١/٣٣٠ ـ ٣٣١.
(٢) أي: مكان الغوص فيه.
(٣) في الأصل: يثبت بعض.

والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم (نكالاً) أي عاقبناهم عقوبة، فجعلناهم عبرة كما قال الله عن فرعون: ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾، وقوله ﴿ لما بين يديها وما خلفها ﴾، أي: من القرى، قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى. كما قال تعالى: ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿ أوَ لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ الآية على أحد الأقوال، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها في المكان، كما قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى. وكذا قال سعيد بن جبير ﴿ لما بين يديها وما خلفها ﴾، قال: من بحضرتها من الناس يومئذ.

وروي عن إسماعيل بن أبي خالد، وقتادة، وعطية العوفي: ﴿ فجعلناها نكالاً لما بين يديها ﴾ قال: ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت.

وقال أبو العالية والربيع وعطية: (وما خلفها) لمن بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم.

وكان هؤلاء يقولون: المراد بما بين يديها وما خلفها في الزمان.

وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم؟ هذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها من القرى؛ كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير، والله أعلم.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع عن أبي العالية (فجعلناها نكالاً لما بين يديها) أي: عقوبة لما خلا من ذنوبهم.

وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة، ومجاهد، والسدي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

(١-(وحكى القرطبي عن ابن عباس والسدي والفرَّاء وابن عطية: لما بين يديها من ذنوب القوم وما خلفها لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب.

وحكى فخر الدين ثلاثة أقوال، أحدها: أن المراد بما بين يديها وما خلفهَا من تقدَّمها من القرى بما عندهم من العلم يُخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها. والثاني: المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم. والثالث: أنه جعلها تعالى عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده قال: وهذا قولُ الحسين.

قلت: وأرجح الأقوال أن المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى التي يبلغهم خَبرها ما حَلَّ بها، كما قال تعالىٰ ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى، وصَرَّفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ وقال تعالى: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم﴾ وقال: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ فجعلها عبرة ونكالاً لمن في زمانهم، وعبرة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: ﴿موعظة للمتقين﴾ -١).

(١) عن الأصل.

وقوله تعالى: ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ وموعظة للمتقين ﴾: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة.

وقال الحسن وقتادة ﴿ وموعظة للمتقين ﴾: بعدهم، فيتقون نقمة الله، ويحذرونها.

وقال السدي، وعطية العوفي ﴿ وموعظة للمتقين ﴾، قال: أمة محمد ﷺ.

قلت: أراد بالموعظة ههنا الزاجر، أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما قال الإمام أبو عبدالله بن بطة[1]:

حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، (عن[2] أبي مسلمة)، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: لا ترتَكِبوا ما ارتكبَ اليهودُ، فَتَسْتَحِلُّوا محارمَ الله بأدنى الحِيَل.

وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وَثَّقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح: والله أعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول تعالى: واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها، وإحياءِ الله المقتولَ، ونصه على من قتله منهم.

مسألة[2]-: الإبل تُنحر، والغنم تذبح، واختلفوا في البقر، فقيل. تُذْبح. وقيل: تُنْحَر. والذبحُ أولى، لنصِّ القرآن، ولقرب منحرها من مذبحها. قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافاً في حل ما ذبح مما ينحر، أو نحر ما يذبح. غير أن مالكاً كره ذلك، وقد يكره الإنسان ما لا يحرِّمه.

وقال أبو عبدالله: وكان نزول قصة البقرة على موسى عليه السلام ـ من أمر القتيل قبل نزول القسامة في التوراة، [ذكر بسط القصة]-[2].

قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدَّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حَسَّان، عن محمد بن سيرين، عن[3] عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابنُ أخيه وارثَه، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبحَ يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم: عَلاَم يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال: (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة: قالوا: أتتخذنا هزواً؟ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين). قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فَشَدَّدَ الله

---

(١) هو عبيد الله بن محمد العكبري، كان فقيهاً حنبلياً معروفاً بالصلاح، توفي سنة ٣٨٧ عن ٨٣ سنة يقول الذهبي: «وكان صاحب حديث ولكنه ضعيف من قبل حفظه، روى عن البغوي وخلق، وصنَّف كتاباً كبيراً في السنّة». انظر العبر ٣/٣٥.

(٢) عن الأصل، وانظر تهذيب التهذيب ٣٧٥/٩.

(٣) سقط من الأصل.

عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليست له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من مِلء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوهـا، فضربوه ببعضها فقام فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه. ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، فلم يُوَرَّث قاتل بعده.

ورواه ابن جرير من حديث أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، بنحو من ذلك[١]. والله أعلم: ورواه عبدٌ[٢] في تفسيره؛ أنبأنا يزيد بن هارون، به. ورواه آدم بن أبي إياس في تفسيره، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن هشام بن حسان، به:

وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: أنبأنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، في قول الله تعالى: ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾، قال: وكان رجل من بني إسرائيل، وكان غنيًّا، ولم يكن له ولد، وكان له قريب وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى عليه السلام فقال له: إن قريبي قتل وإني إلى أمر عظيم، وإني لا أجد أحداً يبين من قتله غيرك يا نبي الله. قال: فنادى موسى في الناس، قال: أنشد الله من كان عنده في هذا علم إلا لَبيَّنه لنا، فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى في الناس، قال: أنشد الله من كان عنده في هذا علم إلا لَبَيَّنه لنا، فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال له: أنت نبي الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا، فسأل ربه فأوحى الله إليه: ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ فعجبوا من ذلك، فقالوا: (أتتخذنا هزواً؟ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ قال: إنه يقول: إنها بقرة لا فارض)، يعني لا هَرِمة (ولا بكر)، يعني ولا صغيرة (عوان بين ذلك) أي: نَصَف بين البكر والهرمة (قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ قال: إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها) «أي: صاف لونها» (تسر الناظرين) أي: تعجب الناظرين. (قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال: إنه يقول: إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض) يعني. وليست بذلول تثير الأرض (ولا تسقي الحرث) يقول: ولا تعمل في الحرث (مُسَلَّمة) يعني مسلمة من العيوب (لا شية فيها) يقول: لا بياض فيها (قالوا: الآن جئت بالحق، فذبحوها وما كادوا يفعلون). قال: ولو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها، لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشُدد عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: «وإنا إن شاء الله لمهتدون»، لما هدوا إليها أبداً. فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نعتت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى، وهي القَيِّمة عليهم، فلما علمت أنه لا يزكوا لهم غيرها، أضعفت عليهم الثمن. فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها. فقال لهم موسى: إن الله قد كان خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها. واشتروها فذبحوها، فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظماً[٣] منها فيضربوا به[٤] القتيل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، فأخذ قاتله - وهو الذي كان أتى موسى فشكا إليه - فقتله الله على أسوإ عمله[٥].

وقال محمد بن جرير: حدَّثني ابن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه[٦]، عن ابن

(١) تفسير الطبري ١/٣٣٧.
(٢) في الأصل: عبده. وهو: عبد بن حميد يروي عن يزيد بن هارون، انظر تهذيب التهذيب ٦/٤٥٥.
(٣) في الأصل: عظها.
(٤) في الأصل: بها.
(٥) تفسير الطبري ١/٣٣٧ - ٣٣٨.
(٦) بعده في الأصل: عن جدّه. وقد تردّد هذا السند كثيراً في تفسير الطبري.

عباس، في قوله في شأن البقرة: وذلك أن شيخاً من بني إسرائيل على عهد موسى ـ عليه السلام ـ كان مُتكثِراً من المال، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ، لا ولد له وبنو أخيه ورثته فقالوا: ليت عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم أن تقتلوا عمكم، فترثوا ماله، وتُغْرِمُوا أهل المدينة التي لستم بها دِيَته، وذلك أنهما كانتا مدينتين، كانوا في إحداهما وكان القتيل إذا قتل فطرح بين المدينتين، قيس ما بين القتيل والقريتين فأيَّتهما كانت أقرب إليه غَرِمت الدية، وأنهم لما سَوَّل لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم أن لا يموت عَمّهم عَمَدوا إليه فقتلوه ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها. فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخي الشيخ، فقالوا: عمنا قتل على باب مدينتكم، فوالله لتغرمُنَّ لنا دية عمنا. قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه ولا علمنا له قاتلاً، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلقَ حتى أصبحنا. وإنهم عَمَدوا إلى موسى عليه السلام، فلما أتوه قالوا ـ بنو أخي الشيخ ـ: عمنا وجدناه مقتولاً على باب مدينتهم. وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء بأمر ربِّه السميع العليم إلى موسى عليه السلام، فقال: قل لهم: (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة)، فتضربوه ببعضها[١].

وقال السدي (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال: كان رجل من بني إسرائيل مكثراً من المال وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى، وقال: والله لأقتلن عمي ولآخذن ماله. ولأنكحن ابنته ولآكلن ديته. فأتاه الفتى وقد قدم تجّار في بعض أسباط بني إسرائيل، فقال: يا عم، انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم، لعلي أن أصيب منها، فإنهم إذا رأوك معي أعطوني. فخرج العم مع الفتى ليلاً، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى، ثم رجع إلى أهله. فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدري أين هو؟! فلم يجده. فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السِّبط مجتمعين عليه، فَأَخَذَهم وقال: قتلتم عمي، فَأَدُّوا إليّ دِيَتَهُ فجعل يبكي ويَحثُو التراب على رأسه، وينادي: واعمّاه. فرفعهم إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقضى عليهم بالدِّية، فقالوا له: يا رسول الله، ادع الله لنا حتى يبين لنا من صاحبه، فيؤخذ صاحب الفُرْصَة[٢]، فوالله إن ديته علينا لهينة، ولكنا نستحيي أن نُعَيَّر به، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ فقال لهم موسى عليه السلام (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قالوا: نسألك عن القتيل وعمن قتله، وتقول: اذبحوا بقرة. أَتَهْزأ بنا! (قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين). قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم. فقالوا: (ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ قال: إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك)، والفارض: الهرمة التي لا تلد والبكر التي لم تلد إلا ولداً واحداً. والعوان: النَّصَفُ التي بين ذلك، التي قد ولدت وولد ولدها (فافعلوا ما تؤمرون. قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ قال: إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين). قال: تعجب الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها) من بياض ولا سواد ولا حمرة (قالوا: الآن جئت بالحق) فطلبوها فلم يقدروا عليها.

وكان رجل من بني إسرائيل، من أبرِّ الناس بأبيه، وإن رجلاً مَرّ به معه لؤلؤ يبيعه، وكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً؟ فقال الفتى: كما أنت حتى يستيقظ أبي

---

(١) تفسير الطبري ١/٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٢) كذا في الأصل، وفي تفسير الطبري: الجريمة.

فآخذه منك بثمانين ألفاً. فقال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفاً، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفاً، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ (من ذلك النوم)(١).

(٢-حتى بلغ مائة ألف، فلما أكثر عليه قال: والله لا أشتريه منك بشيء أبداً، وأبى أن يوقظ أباه، فعوضه الله من ذلك-٢) اللؤلؤ. أن جعل له تلك البقرة، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده، فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة، فأبى، فأعطوه اثنتين فأبى فزادوه حتى بلغوا عشراً، فقالوا: والله لا نَدْرُكَ حتى نأخذها منك. فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا وجدناها عند هذا فأبى أن يعطيناها وقد أعطيناه ثمناً، فقال له موسى: أعطهم بقرتك. فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالي. فقال: صدقت. وقال للقوم: أرضوا صاحبكم: فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى، فَأَضْعَفُوا له مثل ما أعطوه وزنها، حتى أعطوه عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها وأخذ ثمنها، فذبحوها. قال: اضربوه ببعضها، فضربوه بالبَضْعة التي بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخي، قال: أقتله، فآخذ ماله، وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه(٣).

وقال سُنَيدٌ(٤): حدثنا حجاج ـ هو ابن محمد ـ عن ابن جريج، [عن مجاهد]، وحجاج، عن أبي معشر، عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ـ قالوا: إن سبطاً من بني إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحداً منهم خارجاً إلا أدخلوه، وإذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وشَرَف(٥)، فإذا لم ير شيئاً فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يُمسُوا. قال: وكان رجل من بني إسرائيل له مالٌ كثيرٌ، ولم يكن له وارث غيرُ أخيه، فطال عليه حياته فقتله ليرثه، ثم حمله فوضعه على باب المدينة، ثم كمن في مكان هو وأصحابه. قال: فَشَرَفَ رئيسُ المدينةِ على باب المدينة فنظَرَ، فلم ير شيئاً ففتح الباب، فلما رأى القتيلَ رَدَّ الباب، فناداه أَخُـو المقتولِ وأصحابه: هيهات! قتلتموه ثم تَرُدُّونَ الباب! وكان موسى لما رأى القتل كثيراً في أصحابه بني إسرائيل، كان إذا رأى القتيل بين ظهراني القوم أخذهم، فكاد يكون بين أخي المقتول وبين أهل المدينة قتال، حتى لبس الفريقان السلاح، ثم كف بعضهم عن بعض، فأتوا موسى فذكروا له شأنهم. قالوا: يا رسول الله، إن هؤلاء قتلوا قتيلاً ثم ردُّوا الباب، وقال أهل المدينة: يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور(٦)، وبنينا مدينة، كما رأيت، نعتزل شرور الناس، والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى: (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة).

وهذه السياقات كلها عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم، فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نُكَذِّب، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا

(١) عن الأصل.
(٢) سقط من الأصل.
(٣) تفسير الطبري ١/٣٣٨ ـ ٣٣٩. تعليقات ص ١٥٧.
(٤) في تفسير الطبري ١/٣٨٥: حسين، وهو حسين بن داود المصّيصي، ولقبه مسند. انظر تهذيب التهذيب ٢٤٤/٤.
(٥) شرف على الشيء شرْفاً وأشرف: علا.
(٦) في الأصل: عن الشرور.

تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم. ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضُيِّق عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس وعَبيدَةُ وغير واحد، ولكنهم شددوا فشدَّد عليهم، فقالوا: (ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) ما هذه البقرة؟ وأي شيء صفتها؟

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عَثَّام[1] بن علي، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرةٍ اكتفَوا بها، ولكنهم شَدَّدُوا فَشَدَّد الله عليهم.

إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس. وكذا قال عبيدة، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد.

وقال ابن جريج: قال لي عطاء: لو أخذوا أدنى بقرة لكفتهم. قال ابن جريج: قال رسول الله ﷺ: إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم؛ وايْم الله لو أنهم لم يستثنوا ما بينت لهم آخر الأبد.

(قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك). أي: لا كبيرة هَرِمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل، كما قاله أبو العالية، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني، ووهب بن منبه، والضحاك، والحسن، وقتادة. وقاله ابن عباس أيضاً.

وقال الضحاك، عن ابن عباس (عَوَانٌ بين ذلك) نَصَفٌ بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما يكون. وروي عن عكرمة، ومجاهد، وأبي العالية، والربيع بن أنَس، وعطاء الخراساني، والضحاك نحو ذلك.

([2]-وفي تفسير عبد بن حُمَيد، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: العَوَان هي العانس النصفُ. وعن خصيف، عن مجاهد قال: ولدت بطناً أو بطنين-[2]).

وقال السدي: العوان النَّصَف التي بين ذلك التي ولدت، وولد ولدها.

وقال هشيم، عن جويبر، عن كثير بن زياد، عن الحسن في البقرة: كانت بقرة وحشية.

وقال ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس: من لبس نعلاً صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وذلك قوله تعالى: ﴿ صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾. وكذا قال مجاهد، ووهب بن منبه أنها كانت صفراء.

وعن ابن عمر[3]: أنها كانت صفراء الظِّلف. وعن سعيد بن جُبَير: كانت صفراء القرن والظلف.

---

(١) في المخطوطة: هشام. وانظر تهذيب التهذيب ١٠٥/٧، وتفسير الطبري ٣٤٧/١.
(٢) عن الأصل.
(٣) في الأصل: أبي عمرة. والأثر في تفسير ابن أبي حاتم عن ابن عُمَر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نَصْرُ بن علي، حدثنا نوح بن قيس، أنبأنا أبو رجاء، عن الحسن في قوله: (بقرة صفراء فاقع لونها) قال: سوداء شديدة السوادِ. وهذا غريبٌ، والصحيح الأول، ولهذا أكد صفرتها بأنه (فاقع لونها).

وقال عطية العوفي (فاقع لونها): تكاد تسود من صفرتها.

وقال سعيد بن جبير (فاقع لونها). قال: صافية اللون. وروي عن أبي العالية، والربيع بن أنس، والسدِّي، والحسَن، وقتادة، نحوه.

وقال شريك[١]، عن مَغْراء، عن ابن عُمَر: (فاقع لونُها) قال: صافٍ.

وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس (فاقع لونها)، شديدة الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض.

وقال السدي (تسر الناظرين). أي: تُعْجبهم. وكذا قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس.

وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها يُخَيَّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

-[٢](ومن التوراة أنها كانت حمراء، فلعلّ هذا خَطَأ من التقريب، أو كما قال الأول: إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسوادٍ، والله أعلم)-[٢].

وقوله (إن البقر تشابه علينا). أي: لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفتها وحِلَّها لنا (وإنا إن شاء الله) إذا بينتها لنا (لمهتدون) إليها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن يحيى الأودي[٣] الصوفي، حدثنا أحمد بن داود الحداد، حدثنا سرور بن المغيرة الواسطي، ابن أخي منصور بن زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: لولا أن بني إسرائيل قالوا: (وإنا إن شاء الله لمهتدون) ما أعطوا، ولكن استثنوا.

ورواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره من وجه آخر، عن سرور بن المغيرة بن زَاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسول الله - ﷺ -: لولا أن بني إسرائيل قالوا: (وإنا إن شاء الله لمهتدون) ما أعطوا أبداً، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا، فشدد الله عليهم.

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة، كما تقدم مثله عن السدي، والله أعلم.

(قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث) أي: إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقي في السانية، بل هي مكرمة حسناء صبيحة (مسلمة) صحيحة لا عيب فيها. (لا شية فيها) أي ليس فيها لون غير لونها.

قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة (مسلمة) يقول: لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية والربيع، وقال مجاهد (مسلمة) من الشية.

---

(١) الأثر في تفسير ابن أبي حاتم، وفيه يروى شريك عن الأعمش، عن مغراء.
(٢) عن الأصل.
(٣) في الأصل: الأزدي. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم.

وقال عطاء الخراساني: (مسلمة) القوائم والخلق (لا شية فيها). قال مجاهد، لا بياض ولا سواد. وقال أبو العالية والربيع، والحسن وقتادة، ليس فيها بياض. وقال عطاء الخراساني (لا شية فيها) قال: لونها واحد بهيم. وروي عن عطية العوفي، ووهب بن منبه، وإسماعيل بن أبي خالد، نحو ذلك. وقال السدي: (لا شية فيها) من بياض ولا سواد ولا حمرة، وكل هذه الأقوال متقاربة(١- في المعنى. وقد زعم بعضهم أنَّ المعنى في قوله: (بقرةٌ لا ذلول)، ليست بمذلَّلةٍ بالعمل، ثم استأنف فقال: (تثير الأرض)، أي: يُعْمَلُ عليها بالحراثة، لكنها لا تسقي الحرث. وهذا ضعيف لأنه فَسَّرَ(٢) الذلول التي لم تُذَلَّلْ بالعمل بأنها لا تُثِيرُ الأَرْضَ ولا تسقي الحرث. كَذا قَرَّره القرطبي وغيره-١).

(قالوا: الآن جئت بالحق). قال قتادة: الآن بَيَّنْتَ لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وقبل ذلك - والله أعلم - قد جاءهم الحق.

(فذبحوها وما كادوا يفعلون). قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، (لأنهم(٣) أرادوا) أن لا يذبحوها.

يعني أنَّهم مع هذا البيان(٤)، وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غَرَضَهُم(٥) إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

وقال محمد بن كعب، ومحمد بن قيس: (فذبحوها وما كادوا يفعلون) لكثرة ثمنها.

وفي هذا نظر لأن كثرة ثمنها لم يثبت إلا من نقل بني إسرائيل، كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي، ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال (عبيدةُ(٦)، ومجاهد، ووهب بن منبه، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال(٧) كثير، وفيه اختلاف، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك.

قال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، أخبرني محمد بن سوقة، عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير. وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن اطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه.

ولم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها، والفضيحة. وفي هذا نظر، بل الصواب - والله أعلم - ما تقدم من رواية الضحاك، عن ابن عباس، على ما وجهناه. وبالله التوفيق.

---

(١) عن الأصل.
(٢) مكانها في الأصل كلمة غير واضحة. وعبارة القرطبي ١/ ٣٨٥: أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلَّلتها، والله - تعالى - قد نفى عنها الذل بقوله: ﴿لا ذلول﴾.
(٣) سقط من الأصل.
(٤) في الأصل: الشأن.
(٥) في الأصل: عزمهم.
(٦) في الأصل: عبدة. وانظر أثر عبيدة في تفسير الطبري ١/ ٣٥٥.
(٧) في الأصل: بما ذكروا فيه اختلاف.

مسئلة(١): (استدل(١- بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تمَّ تقييدُها بعد الإطلاق على صحة السَّلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد بن حنبل وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وبدليل ما ثبت في الصحيحين: لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها. كما وصف النبي - ﷺ - إبل الدِّيَة في قتل الخطأ، وشُبِّه العَدُّ بالصفات المذكورة في الحديث. وقال أبو حنيفة والثوريُّ والكوفيون: لا يصح السَّلَمُ في الحيوان، لأنه لا تنضبط أحوالُه. وحُكِي مثله عن ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وعبد الرحمن بن سَمُرَة، وغيرهم-١).

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

قال البخاري: (فادّارأتم فيها): اختلفتم. وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي حذيفة، عن شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، أنه قال في قوله تعالى: ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾: اختلفتم.

وقال عطاء الخراساني، والضحاك: اختصمتم فيها. وقال ابن جريج (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها)، قال: قال بعضهم أنتم قتلتموه.

وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾. قال مجاهد: ما تُغَيِّبُون.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عمرو بن مسلم البصري، حدَّثنا محمد بن الطفيل العبدي، حدَّثنا صدقة بن رستم، سمعت المسيب بن رافع يقول: ما عمل رجل حسنةً في سبعةِ أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديقُ ذلك في كلام الله: ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾.

(فقلنا اضربوه ببعضها). هذا البعض أيُّ شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة خاصة به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معيناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه(٢) لها فائدة تَعُودُ علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى، ولكن أبهمه. ولم يجىء من طريق صحيح عن معصوم(٣) بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله.

ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أَحمَدُ بن سِنان، حدَّثنا عَفَّان بن مُسلم، حدَّثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقر له، وكانت بقرة تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه ملء مَسْكها(٤) دنانير، فذبحوها، فضربوه - يعني القتيل - بعضو منها، فقام تَشْخُب(٥) أوداجه دماً، فسألوه فقالوا(٦): من قتلك؟ فقال: قتلني فلان.

(١) هذه المسألة عن الأصل، وانظرها في تفسير القرطبي ٣٨٥/١.
(٢) في الأصل: نفسه.
(٣) في الأصل: معصوم حدَّثنا به.
(٤) المَسْكُ: الجلد.
(٥) تشخب: تسيل.
(٦) في الأصل: فقال.

وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه ضرب ببعضها.

وفي رواية عن ابن عباس: إنهم ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، قال: قال أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القتيل ببعض لحمها قال معمر: قال قتادة: فضربوه بلحم فخذها فعاش، فقال: قتلني فلان.

وقال أبو أسامة، عن النضر بن عربي، عن عكرمة (فقلنا اضربوه ببعضها)، قال: فضرب بفخذها فقام، فقال: قتلني فلان.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وقتادة، نحو ذلك.

وقال السدّي: فَضَرَبُوه بالبَضْعة التي بين[1] الكتفين فعاش، فسألوه، فقال: قتلني ابن أخي.

وقال أبو العالية: أمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظماً من عظامها، فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتاً كما كان.

وقال عبد الرحمن بن زيد: فضربوه ببعض آرابها[2]. (وقيل: بلسانها. وقيل: بعجب ذنبها)[3].

وقوله: (كذلك يحيي الله الموتى). فضربوه فحيي. ونبَّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل: جعل تبارك وتعالى ذلك الصَّنيع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد والله تعالى قد ذكر في هذه السورة ما خلقه في إحياء الموتى، في خمسة مواضع: ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾. وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها. وقصة إبراهيم والطيور الأربعة.

ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميما، كما قال أبو داود الطيالسي:

حدَّثنا[4] شعبة، أخبرني يعلى بن عطاء، قال: سمعت وكيع بن عُدُس، يحدث عن أبي رَزِين العُقَيلي، قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: أما مررت بواد مُمْحل، ثم مررت (به) خَضِراً؟ قال: بلى. قال: كذلك النشور. أو قال: ﴿ كذلك يحيي الله الموتى ﴾[5].

وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾.

مسئلة[6]: -٦(استدل لمذهب مالك في كون قول الجريح: فلان قتلني، لوثاً[7]، بهذه القصة لأن القتيل لما حيي سُئِل عمن قتله فقال: قتلني فلان فكان ذلك مقبولاً منه، لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق ولا يُتَّهم والحالة هذه

---

(١) في الأصل: من.

(٢) أي: ببعض أعضائها، جمع إِرْبٍ وهو العضو.

(٣) عن الأصل.

(٤) في الأصل: لـ رين. وهو خطأ. انظر أسد الغابة ٦/١١٠.

(٥) منحة المعبود ٢/٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٦) هذه المسألة عن الأصل.

(٧) اللَّوثُ: أمارة تُغَلِّب على الظن صدق مُدَّعى القتل، كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل، أو يُرَى المقتول يتشحط في دمه، والمتهم نحوه أو قربه عليه آثار القتل. يقول القرطبي: وقد اختُلف في اللوث والقول به، فقال مالك: هو قولُ المقتول دمي عند فلان. والشاهد العدل لوث.

ورجحوا ذلك بحديث أنس أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها، فرضخ رأسها بين حجرين، فقيل: من فعل بك هذا أفلان، أفلان؟ حتى ذكر اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف فأمر رسول الله ﷺ أن يُرَضَّ رأسه بين حجرين وعند مالك إذا كان لوثاً حَلَفَ أولياء القتيل قسامة وخالف الجمهور في ذلك ولم يجعلوا قول القتيل ذلك لوثاً)[1].

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل، وتقريعاً[2] لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ كله (فهي كالحجارة) التي لا تلين أبداً. ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿ ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾.

قال العوفي، في تفسيره، عن ابن عباس: لما ضُرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط[3]، فقيل له: من قتلك؟ فقال: بنو أخي قتلوني. ثم قبض. فقال بنو أخيه حين قُبض: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد إذ رأوه. ثم قال الله: ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ [يعني بني أخي الشيخ][4] (فهي كالحجارة أو أشد قسوة).

فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاجَ للينها أو أشدُّ قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجَّر منها العيون الجارية بالأنهار[5]، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه. كما قال: ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً ﴾.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد أنه كان يقول: كل حَجَرٍ يتفجَّر منه الماءُ، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، لمن خشية الله، نزل بذلك القرآن.

وقال محمد بن إسحاق: حدَّثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة [أو سعيد بن جبير]، عن ابن عباس (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله). أي: وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عَمَّا تدعون إليه من الحق ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾[6].

-٧-وقال أبو علي الجُبَّائي في تفسيره: ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ هو سقوط البرد من السحاب؛ قال القاضي الباقلاني: وهذا تأويل بعيد، وتبعه في استبعاده فخر الدين الرازي، وهو كما قالا، فإن هذا خروجٌ عن ظاهر اللفظ بلا دليل. والله أعلم-٧-.

(١) المصدر السابق. (٢) في الأصل: وتعريفاً.
(٣) في الأصل: أحياناً كان يصلي.
(٤) عن تفسير الطبري ١/٣٦٢.
(٥) في الأصل: ما يتفجر منه الأنهار العيون.
(٦) سيرة ابن هشام ١/٥٣٦.
(٧) هذه المسألة عن الأصل.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا الحكم بن هشام الثقفي، حدَّثني أبو[١] طالب - يعني يحيى بن يعقوب - في قوله تعالى: ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾. قال: هو كثرة البكاء (وأن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) قال: قليل البكاء (وإن منها لما يهبط من خشية الله) قال: بكاء القلب، من غير دموع العين.

[٢]-(وقوله ﴿وإن من الحجارة لما يَتَفجَّر منه الأنهار﴾، أي: كالعيون السارحة المشاهدة تخرج من الأحجار عيانا، (وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) كحجر موسى الذي كان إذا ضربه نبع منه اثنتا عشرة عينا بإذن الله من ذلك ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾، أي: من رؤوس شواهق الجبال، وهذا كقوله: «أحدٌ جبل يحبنا ونُحبّه»[٣] وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، وهو إسناد الخضوع إلى الحجارة، كما أُسْنِدَتِ الإرادة إلى الجدار في قوله: (يريد أن يَنْقَضّ). قال فخر الدين[٤] والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة، وكما في قوله: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ وقالتا: أتيناها طائعين و ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله ﴾، ﴿تسَبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً ﴾، ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾، ﴿ أوَلم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجَّداً لله، وهم داخرون ﴾، (وقالوا لجلودهم: لم شَهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء). وفي الصحيح: «هذا أحدٌ جَبَلٌ يُحبُّنا ونُحِبُّه»[٣]. ولحنين الجذع المتواتر خبره وفي صحيح مسلم: «إني لأعرفُ حجراً كان يُسَلِّم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفُه الآن[٥]»؛ وفي صفة الحجر الأسود: «إنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة»، وغير ذلك مما في معناه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبدالله الفيجي - أو الفتحي - قال: سمعت أحمد بن عاصم الأنطاكي يقول: تكلمت بشيء من الحكمة بين يدي هذا العمود الحجر، فقطر العمود ماء، قال: وخرجنا مع يزيد بن مروان ومعنا جماعة منهم رجل في كُمِّه مِحْبَرَة، فتكلم رجل منا بشيء من الحكمة، فصاحت المحبرة صياحاً عالياً وانفلقت)-[٢].

تنبيـه

اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: «أو» ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة: كقوله تعالى: ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾، (عُذْراً أو نُذْراً). وكما قال النابغة الذبياني[٦]:

قالت: ألا لَيتما هذا الحمامُ لنا إلى حَمَامتنـا أو نِصْفُـه فَقَـدِ

---

(١) في الأصل: يحيى بن أبي طالب. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم. وفي الجرح له ١٩٨/٩: «يحيى بن يعقوب أبو طالب».
(٢) عن الأصل.
(٣) البخاري، كتاب الاعتصام ١٢٩/٩، ومسلم، كتاب الحج ٤٦٢، ومسند أحمد ٣٣٧/٢، ١٤٠/٣، ٤٢٥/٥.
(٤) انظر الفخر الرازي ١٣٠/٣.
(٥) مسلم، كتاب الفضائل ب١٧٨٢.
(٦) ديوانه ٢٤.

تريد: ونصفه، قاله ابن جرير. وقال جرير بن عطية[١]:

نَالَ الخِلافَةَ أو كانت لـه قَـدَراً ... كمـا أتى ربَّـه مُـوسى علىٰ قَـدَرِ

قال ابن جرير: يعني نال الخلافة، وكانت له قَدراً.

([٢]-وحكى القرطبيُّ قولاً أنها للتخيير، أي شبهوها بهذا أو بهذا، مثل: جالِسِ الحسنَ أو ابن سيرين. وكذا حكاه فخر الدين في تفسيره، وزاد قولاً آخر، وهو أنها للإبهام بالنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمراً، وهو يعلم أيُّهما أَكَلَ وقولاً آخر، وهو أنها بمعنى قول القائل: أكلي حلو أو حامض، أي: لا يخرج عن واحد منهما، أي: وقلوبكم صارت في قسوتها كالحجارة أو أشدَّ قسوةً منها، لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين، والله أعلم-[٢]).

وقال آخرون: «أو» ههنا بمعنى بل، فتقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾، ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾، ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾.

وقال آخرون: معنى ذلك (فهي كالحجارة أو أشد قسوة) عندكم. حكاه ابن جرير.

وقال آخرون: المراد [بذلك] الإبهام على المخاطب، كما قال أبو الأسود[٣]:

أحبُّ محمـداً حُبًّا شـديـداً ... وعبَّـاسـا وحمـزة والـوصيـا[٤]

فـإن يـك حُبّهم رشـداً أصبـه ... وليس[٥] بمخطىء إن كان غيًّا

قال ابن جرير: قالوا: ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكاً [في] أن حُبّ من سمَّى رَشَدٌ، ولكنه أبهم على من خاطبه، قال: وقد ذُكِرَ عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله. ثم انتزع بقول الله تعالى: ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلالٍ مبين ﴾ [فقال]: أَوَ كان شاكًّا من أخبر بهذا في الهادي منهم مِنَ الضَّالّ[٦]؟

وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبهم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، [إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة]، وإما أن تكون أشد منها قسوةً.

قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوةً، وبعضها أشدُّ قسوةً من الحجارة. وقد رَجَّحه ابنُ جَريرٍ مع توجه غيره.

قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ مع قوله: ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ وكقوله: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعةٍ﴾ مع قوله: ﴿ أو كظلمات في بحرٍ لجّي ﴾ الآية. أي: [إن] منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدَّثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدَّثنا محمد بن أيوب، حدَّثنا

---

(١) ديوانه ٢١١.

(٢) عن الأصل.

(٣) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣٤، وتهذيب تاريخ دمشق ١١١/٧، وتفسير الطبري ٣٦٢/١.

(٤) في الأصل: وعباساً وحمزة أو عليا.

(٥) كذا في الأصل. وفي تهذيب تاريخ دمشق: وليس بضائري.

(٦) نصّ الطبري ٣٦٢/١: «في الهادي من الضلال».

محمد بن عبدالله بن أبي الثلج، حدَّثنا علي بن حفص، حدَّثنا إبراهيم بن عبدالله بن حاطب، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: لا تُكْثِروا الكلامَ بغير ذِكْرِ الله، فإنَّ كثرة الكلامِ بغير ذِكْرِ الله قسوةُ القلب، وَإنَّ أبعد الناسِ من الله القلبُ القاسي.

رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه، عن محمد بن عبدالله بن أبي الثلج، صاحب الإمام أحمد، به. ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبدالله بن الحارث بن حاطب، به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم[١].

(وروى البزّار عن أنس مرفوعاً: أربع من الشقاء: جمود العين، وقَسَاء القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا)[٢].

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ أفتطمعون ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أن يؤمنوا لكم ﴾ أي: ينقاد[٣] لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم[٤] من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قَسَتْ قلوبُهم من بعد ذلك (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) أي: يتأولونه على غير تأويله (من بعد ما عقلوه) أي: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدَّثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبير، عن ابن عباس أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ ولمن معه من المؤمنين يُؤْيِسُهم منهم: ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ﴾ وليس قوله سمعوا التوراةَ. كلُّهم قد سَمِعها. ولكنهم الذين سألوا موسى[٥] رؤيةَ ربِّهم، فأخذتهم الصاعقةُ فيها[٦].

قال محمد بن إسحاق: فيما حدَّثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حِيلَ بيننا وبين رؤية الله تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلمك. فطلب ذلك موسى إلى ربِّه تعالى فقال: نعم، مُرْهم فَلْيتطهروا، وَلْيطهِّروا ثيابَهم وَيَصُوموا. ففعلوا، ثم خَرَجَ بهم حتى أَتوا الطور، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا فوقعوا سجوداً[٧] وكلَّمه ربه فلما سَمِعوا كلامه يأمرهم وينهاهم، حتى عَقَلُوا عنه ما سمعوا. ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل. فلما جاءوهم حرف فريق منهم ما أمرهم به [وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد

(١) تحفة الأحوذي، أبواب الزهد ٧/٩٢ - ٩٣.
(٢) كشف الأستار ٤/٧٣. وما بين القوسين عن الأصل.
(٣) في الأصل: ينقادوا.
(٤) في الأصل: شاهدوا من الآيات.
(٥) في الأصل: لموسى.
(٦) هذا الأثر بهذا اللفظ في تفسير ابن أبي حاتم. وانظر تفسير الطبري ١/٣٦٧.
(٧) سقط من الأصل. أثبتناه عن الطبري وابن أبي حاتم.

أمركم بكذا وكذا. قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عزّ وجلّ لهم](١)، فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ.

وقال السدي: (وقد كان فريقٌ منهم يَسْمَعون كلام الله ثم يحرفونه) قال: هي التوراة، حرفوها.

وهذا الذي ذكره السدِّي أعمُّ مما ذكره ابنُ عباس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابنُ جرير لظاهر السياق، فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن(٢) يكون منه، كما سمعه موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ـ وقد قال الله تعالى: ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ أي مُبلغاً إليه، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿ ثم يُحَرِّفونه من بعد ما عَقَلوه وهم يعلمون ﴾ قال: هم اليهود، وكانوا يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه.

[و] قال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم.

وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في نَصِّ كتابهم، من نعت محمد ﷺ، فحرفوه عن مواضعه.

وقال السدي: (وهم يعلمون) أي: أنهم أذنبوا.

وقال ابن وهب، قال ابن زيد في قوله: (يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم، يُحرِّفونها، يجعلون الحلالَ فيها حراماً، والحرامَ فيها حلالاً، والحقَّ فيها باطلاً، والباطل حقاً؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتابَ الله، وإذا جاءهم المبطل(٣) برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم [ما](٤) ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾.

وقوله: ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق: حدَّثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أي: بصاحِبكم رسولِ الله، ولكنه إليكم خاصة. (وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا): لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله: ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ﴾ أي: تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه [قد] أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر(٥)، ونجد في كتابنا ـ اجحدوا ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾(٦).

وقال الضحّاك، عن ابن عباس: يعني المنافقين من اليهود. كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ـ ﷺ ـ قالوا: آمنا.

---

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبري ١/٣٦٨.
(٢) في الأصل: لمن.
(٣) في الأصل: الباطل.
(٤) عن تفسير الطبري ١/٢٥٨.
(٥) في الأصل: كان يختظر.
(٦) تفسير الطبري ١/٣٧٠.

وقال السدِّيّ: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا. وكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فيما رواه ابن وهب عنه: كان رسول الله - ﷺ - قد قال: «لا يدخلن[١] علينا قصبة المدينة إلا مؤمن» فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا، واكفروا إذا رجعتم إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبُكَر، ويرجعون إليهم بعد العصر. وقرأ قول الله تعالى: ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزلَ على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾، وكانوا يقولون، إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون، ليعلموا خَبَر رسول الله - ﷺ - وأَمْره. فإذا رَجَعُوا رَجَعُوا إلى الكفر. فلما أخبر الله نبيه - ﷺ - قطع ذلك عنهم، فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون، فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم - يعني الرؤساء قالوا: ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾[٢] الآية.

وقال أبو العالية: ﴿ أَتُحدِّثونهم بما فَتَح الله عليكم ﴾: يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من نَعْتِ محمدٍ ﷺ.

وقال عبدُ الرزَّاقِ، عنْ مَعْمَرٍ، عن قتادَةَ ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ﴾، قال: كانوا يقولون: سيكون نبي. فخلا بعضهم ببعضٍ، فقالوا: ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾.

قول آخر في المراد بالفتح، قال ابن جُرَيج: حدَّثني القاسم بن أبي بَزَّة، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ أتحدِّثُونهم بما فَتَحَ الله عليكم ﴾. قال: قام النبي - ﷺ - يوم قُريظَةَ تحت حُصُونهم، فقال: أيا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت، فقالوا: من أخبر هذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا الأمر إلا منكم ﴿ أتحدِّثُونَهم بما فَتَح الله عليكم ﴾ ما حكم الله، للفتح، ليكون لهم حُجَّةً عليكم. قال ابن جُرَيجٍ، عن مُجاهد: هذا حين أرسل علياً إليهم، فآذوا محمداً ﷺ[٢].

وقال السدي: ﴿ أتحدِّثونهم بما فَتَح الله عليكم ﴾ - من العذاب - ﴿ ليحاجُوكم به عند ربكم ﴾، هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، وكانوا يُحدِّثون المؤمنينَ من العَرَب بما عُذِّبوا به. فقال بعضُهم لبعض: ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ من العذاب، ليقولوا: نحن أحبُّ إلى الله منكم، وأكرمُ على الله منكم.

وقال عطاء الخراساني ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾: بما قضى الله لكم وعليكم.

وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود، كانوا إذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم، فيحاجُوكم به عند ربكم [فيخصِمُوكم][٣].

وقوله: ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾. قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كُفْرِهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوباً عندهم. وكذا قال قتادة.

وقال الحسن ﴿ أن الله يعلم ما يسرون ﴾ قال: كان ما أَسرّوا أنهم كانوا إذا ما تولوا عن أصحاب محمد - ﷺ - وخلا بعضهم إلى بعض، تناهَوا أن يخبر أحد[٤] منهم أصحاب محمد - ﷺ - بما فتح الله عليهم

(١) في الأصل: لا يدخل.
(٢) تفسير الطبري ١/٣٧١.
(٣) سقط من الأصل، وأثبتناه عن تفسير ابن أبي حاتم.
(٤) في الأصل: أن يخبروا واحداً، والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم أيضاً.

مما في كتابهم، خشيةَ أن يحاجَّهم أصحابُ محمد ـ ﷺ ـ بما في كتابهم[١] عند ربهم. ﴿ وما يعلنون ﴾[٢] يعني: حين قالوا لأصحاب محمد ـ ﷺ ـ: آمنا. وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقتادة.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ومنهم أميون ﴾. أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد: والأُميُّون جمع أمي، وهو: الرجل الذي لا يحسن الكتابة[٣]. قاله أبو العالية، والربيع، وقتادة، وإبراهيم النَّخَعي، وغير واحد، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ أي: لا يدرون ما فيه. ولهذا في صفات النبي ـ ﷺ ـ أنه أُمِّيّ، لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿ وما كنتَ تتلُو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذاً لارتاب المبطلون ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا»[٤]. الحديث. أي: لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتابٍ ولا حسابٍ. وقال تعالى: ﴿ هو الذي بَعَث في الأمِّيِّين رسولاً منهم ﴾.

وقال ابن جرير: نَسَبت العربُ من لا يكتب ولا يَخُط من الرجال إلى ـ أُمِّه ـ في جهله بالكتاب، دون أبيه، قال: وقد رُوِي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قولٌ خلاف هذا، وهو ما حَدَّثنا به أبو كُريب، حدَّثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عُمَارة، عن أبي رَوْقٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: (ومنهم أميُّونَ)، قال: الأميُّون قوم لم يُصَدِّقوا رسولاً أرسلَه الله، ولا كتاباً أنزلَه الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سَفَلة جُهَّال: (هذا من عند الله). وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سَمّاهم أُمِّيِين، لجُحُودهم كتب الله ورسله.

ثم قال ابن جرير: وهذا التأويلُ على خلاف ما يُعرفُ من كلام العرب المستفيض بينهم. وذلك أن الأمي عند العرب: الذي لا يكتب[٣].

قلت: ثم في صحَّة هذا عن ابن عباس، بهذا الإسناد، نظر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ إلا أماني ﴾. قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: إلا أماني: إلا أحاديث.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ إلا أمانيّ ﴾ يقول: إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً. وقال مجاهد: إلا كذباً.

وقال سُنيد، عن حَجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد ﴿ ومنهم أميُّون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾. قال: أناس من يهود لم يكونُوا يعلمونَ من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمونَ بالظنِّ بغير ما في كتابِ الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانيّ يتمنونها.

---

(١) في الأصل: وعند.

(٢) يفهم من سياق النص أن هذا وما بعده من أثر الحسن. ولكني لم أجد هذه الزيادة في تفسير ابن أبي حاتم.

(٣) انظر تفسير الطبري ١/٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٤) أخرجاه في كتاب الصوم، انظر البخاري ٣/٣٥، ومسلم ٧٦١.

وعن الحسن البصري، نحوه.

وقال أبو العالية، والربيع وقتادة: إلا أمانيّ يتمنَّون على الله ما ليس لهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إلا أماني، قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب: وليسوا منهم.

قال ابنَ جرير: والأشبه بالصواب قولُ الضحاك عن ابن عباس، وقول مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب - الذي أنزل الله على موسى - شيئاً، ولكنهم يَتَخرَّصُون الكذب ويتخرَّصون الأباطيل كذباً وزُوراً. والتمني في هذا الموضع هو تخلُّق الكذب وتخرُّصه. ومنه الخبرُ المرويَ عن عثمان بن عَفَّان رضي الله عنه: «ما تغنيت ولا تمنيت». يعني ما تخرصت الباطل ولا اختلقتُ الكذب.

([١]-وقيل: المرادُ بقوله: (إلا أمانيَّ) - بالتشديد والتخفيف أيضاً - : إلا تلاوةً. فعلى هذا يكون استثناءً منقطعاً. واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إلا إذا تمنى ﴾، أي: تلا ﴿ ألقى الشيطان في أمنيّته ﴾. . الآية. وقال كعب بن مالك الشاعر[٢]:

تـمنَّـى كتـابَ الله أول لَـيْـلِهِ   وآخـره لاقَى حمـامَ المقـادِرِ

وقال آخر:

تَـمَـنَّـى كـتـاب الله آخـر لَـيْـلِهِ   تَمَنِّيَ داودَ الزَّبُورَ على رِسْـلِ-[١])

وقال محمد بن إسحاق: حدَّثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ﴾ ولا يدرون ما فيه، وهم يجحـدون نبوتك بالظن.

وقال مجاهد ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾: يَكذِبُونَ.

وقال قتادة، وأبو العالية، والربيع: يَظُنُّون الظنونَ بغير الحق.

وقوله: ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ الآية: هؤلاء صنفٌ آخر من اليهودِ، وهم الدعاةُ إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكلِ أموالِ الناسِ بالباطل.

والويلُ: الهلاكُ والدمارُ، وهي كلمة مشهورة في اللغة. وقال سفيان الثوري، عن زياد بن فَيَّاض: سمعت أبا عياض يقول: ويلٌ: صديدٌ في أصل جهنم.

وقال عطاءُ بن يسار: الويلُ: وادٍ في جهنَّمَ لَوْ سُيِّرتْ فيه الجبالُ لماعت.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُذرِيّ، عن رسول الله - ﷺ - قال: ويلٌ واد في جهنَّم يهوي فيه الكافرُ أربعينَ خريفاً قبل أن يبلغ قَعْرَهُ.

ورواه الترمذيّ عن عَبْدِ بن حُمَيدٍ، عن الحسن بن موسى، عن ابن لَهِيعَةَ، عنْ دَرّاج، به. وقال: هذا حديث غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث ابن لَهِيعَةَ[٣].

---

(١) عن الأصل.

(٢) ديوانه ٢٩٤. والنهاية: منّا.

(٣) تحفة الأحوذي، أبواب التفسير ٥/٩. ومسند أحمد ٧٥/٣.

قلت: لم ينفرد به ابن لَهِيعَةَ كما تَرَى، ولكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد ـ مرفوعاً ـ منكر، والله أعلم.

وقال ابن جَرِير: حدَّثنا المثنى، حدَّثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح العبري[١]، حدَّثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العَدَوي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾. قال: الويل جبل في النار. وهو الذي أنزل في اليهود، لأنهم حَرَّفوا التوراة، زادوا فيها ما أحبوا، ومحوا منها ما يكرهون، ومحوا اسم محمد ـ ﷺ ـ من التوراة. ولذلك غَضِب الله عليهم، فَرَفع بعضَ التوراة، فقال: ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾[٢].

وهذا غريب أيضاً جداً.

وعن ابن عباس: الويل: السَّعير من العذاب: وقال الخليل بن أحمد: الويل: شدة الشر. وقال سيبويه[٤]: ويلٌ لمن وقع في المهلكة، وويحٌ لمن أشرف عليها. وقال الأصمعي: الويل تَفجُّع، والويل تَرَحُّم. وقال غيره: الويلُ: الحُزن وقال الخليل: في معنى ويل ويحٌ، وويسٌ، وويهٌ، وويك، وويبَ. ومنهم من فَرَّق بينها. وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهن نكرة لأن فيها معنى الدعاء، ومنهم من جَوَّزَ نصبها بمعنى ألزمهم ويلاً. قلت: لكن لم يَقْرأ بذلك أحد[٣].

وعن عكرمة، عن ابن عباس، ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾. قال: هم أحبار اليهود: وكذا قال سعيد، عن قتادة: هم اليهود.

وقال سفيان الثوريّ، عن عبد الرحمن بن علقمة: سألتُ ابنَ عباسٍ عن قوله تعالى: ﴿ فويلٌ للذين يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ﴾. قال: نَزَلَت في المشركينَ وأهلِ الكتاب.

وقال السدّي: كان ناسٌ من اليهود كَتَبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العَرَبِ، ويُحدِّثُونَهم أنه من عند الله، ليأخذوا[٥] به ثمناً قليلاً.

وقال الزهري: أخبرني عُبَيد الله بن عبدالله، عن ابن عباسٍ أنه قال: يا معشَر المسلمين، كيف تَسْأَلُون أهلَ الكتابَ عن شيءٍ، وكتابُكم الذي أنزلَ الله على نبيه أحدثُ أخبار الله تقرؤونه مَحضاً لم يُشَبْ؟ وقد حَدَّثَكُم اللهَ تعالى أن أهل الكتاب قد بَدَّلوا كتاب الله وغيروه، وكَتَبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قطُّ سألكم عن الذي أُنزِلَ إليكم.

رواه البخاري من طرق عن الزهري[٦].

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها.

---

(١) كذا في أصلنا دون نقط، وفي تفسير الطبري: «إبراهيم بن عبد السلام» فقط. وفي نشرة شاكر: التستري.
(٢) تفسير الطبري ١/ ٣٧٩.
(٣) عن الأصل.
(٤) انظر الكتاب ١/ ٣٣١.
(٥) في الأصل: فياخذوا. والمثبت عن تفسير الطبري ١/ ٣٧٨.
(٦) البخاري، كتاب الشهادات ٣/ ٢٣٧.

وقوله تعالى: ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم ما يكسبون ﴾. أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكَذِبِ[١] والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السُّحتِ، كما قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿ فويل لهم ﴾ يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، وويلٌ لهم مما يكسِبُون، يقول: مما يأكلون به الناس السَّفلَة وغيرهم.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم يَنْجُون منها. فَردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً ﴾ أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع [عهد] فهو لا يُخْلِف عهده[٢]، ولكنْ هذا ما جَرَى ولا كان. ولهذا أتى بـ (أم) التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

وقال محمد بن إسحاق، عن سيف بن سُلَيمان، عن مجاهد، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّب بكلِ [ألف] سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعةُ أيامٍ معدوداتٍ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ إلى قوله: ﴿ خالدون ﴾.

ثم رواه عن مُحَمّد، عن سعيد ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس، بنحوه[٣].

وقال العَوْفي، عن ابن عباس ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾: اليهود، قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة. زاد غيرَه: هي مدَّة عبادتهم العجل. وحكاه القرطبي عن ابنُ عباس)[٤].

زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً أن ما بين طرفي جهنم مسيرةُ أربعينَ سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، التي هي ثابتة في أصل جهنم. وقال أعداء الله: إنما نُعَذَّب حتى ننتهي إلى شجرة الزقُّوم فتذهب جهنم وَتَهْلِك. فذلك قوله تعالى: ﴿ وقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾.

[٥-(وقال عَبدُ الرَّزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة)-٥]: يعني الأيام التي عبدنا فيها العجل.

وقال عكرمة: خاصَمَتِ اليهودُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قومٌ آخرون، يعنون محمداً ـ ﷺ ـ وأصحابَه. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ بيده[٦] على رؤوسهم: «بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم إليها أحد». فأنزل الله: ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ . . . الآية[٧].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه رحمه الله: حدثنا عبدالله بن جعفر، حدثنا محمد بن محمد بن صخر،

---

(١) في الأصل: الكتب.
(٢) في الأصل: وعده.
(٣) تفسير الطبري ١/٣٨٢ ـ ٣٨٣.
(٤) عن الأصل. وانظر تفسير القرطبي ٢/١٠.
(٥) سقط من الأصل. وانظر تفسير الطبري ١/٣٨١.
(٦) أي: أشار.
(٧) تفسير الطبري ١/٣٨٢.

حدثنا أبو عبد الرحمن المقرىء، حدثنا ليث بن سعد، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله - ﷺ - شاة فيها[١] سُمّ، فقال رسول الله - ﷺ -: «اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا». فقال لهم رسول الله - ﷺ -: «من أبوكم؟» قالوا: فلان. قال: «كَذَبتم، بل أبوكم فلان». قالوا: صدقت وبَرِرْت، ثم قال لهم: «هل أنتم صادِقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبناك عَرَفْتَ كَذِبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله - ﷺ -: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تَخْلُفوننا[٢] فيها. فقال لهم رسول الله - ﷺ -: «اخسئوا، والله لا نخلفُكم فيها أبداً». ثم قال لهم رسول الله - ﷺ -: «هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟» فقالوا: نعم. فقال: «ما حَمَلَكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك.

ورواه أحمد[٣]، والبخاري، والنسائي، من حديث الليث بن سعد، بنحوه.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنَّيتم، ولا كما تَشْتَهون، بل الأمر: أنه من عَمِل سيِّئةً وأحاطَتْ به خطيئتهُ، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميعُ عَمَلِه سيئاتٌ، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات - من العمل الموافق للشريعة - فهم من أهل الجنة. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سَعيدٍ - أو عكرمة - عن ابن عباس - رضي الله عنهما-: ﴿بلى من كسب سيئة﴾. أي: عمل بمثلِ أعمالكم، وكَفَر بمثل ما كفرتُم بِهِ، حتى يُحيط (به كفرهُ)[٤] فما له من حَسَنةٍ.

وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك.

قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن أبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، بنحوه.

وقال الحسن أيضاً والسدِّيُّ: (السيئة): الكبيرة من الكبائر.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد ﴿ وأحاطت به خطيئتهُ ﴾: قال: بقلبه.

وقال أبو هُرَيرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾: قالوا: أحاط به شِرْكُه.

وقال الأعمش، عن أبي رزين، عن الربيع بن خُثَيم: ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾، قال: الذي يموت على

---

(١) في الأصل: شاة خبأت سم.

(٢) في الأصل: تخلفون. المثبت عن المسند.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٤٥١، والبخاري، كتاب الطب ٧/١٨٠.

(٤) في الأصل: يحبط عمله. والمثبت عن تفسير الطبري ١/٣٨٤، وإحدى النسخ.

خطاياه قبل أن يتوب. وعن السدي، وأبي رَزِين، نحوه.

وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، في رواية عنهما، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ الكبيرة الموجبة.

وكلّ هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمران، عن قتادة[١]، عن عبد رَبِّه، عن أبي عياض، عن عبدالله بن مسعود: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إيَّاكم ومُحقَّرَاتِ الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه. وإن رسول الله ـ ﷺ ـ ضرب لهُنَّ مثلاً، كمثل قوم نَزَلوا بأرض فلاةٍ، فحضر صنيعُ القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعُود، والرجلُ يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً[٢]، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها[٣].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد، عن سعيد ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾، أي: من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يُخبِرُهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له[٤].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يُذكِّر تباركَ وتعالى بني إسرائيلَ بمـا أَمَرهم به من الأوامر، وأَخْذِه ميثاقَهم على ذلك، وأنهم تَوَلَّوا عن ذلك كلِّه، وأعرضُوا قصداً وعمداً، وهم يعرفُونه ويذكُرونه، فأمرهم أن يعبُدوه ولا يُشركوا به شيئاً. وبهذا أمر جميعَ خَلْقِهِ، ولذلك خَلَقهم، كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نُوحي إليه أنَّه لا إلَه إلا أنا فاعبدُون ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولقد بَعثنا في كلِّ أمةٍ رسولاً أن اعبُدُوا الله واجتَنِبُوا الطاغوتَ ﴾. وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمُها، وهو حَقُّ الله تعالى، أن يعبدوه وحدَه لا شريكَ له، ثم بعده حَقّ المخلوقين، وآكدُهم وأولاهم بذلك حقُّ الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى كثيراً بين حقِّه وحقِّ الوالدين، كما قال تعالى: ﴿ أن اشكر لي ولوالديكَ إليَّ المصير ﴾ وقال تعالى: ﴿ وقَضَى ربك أن لا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً ﴾. . . الآية. إلى أن قال: ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابنَ السبيل ﴾ ـ وفي الصحيحين، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «قلت: يا رسول الله، أيُّ العمل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أيّ؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[٥] ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيح: أَنَّ رَجُلاً قال: يا رسول الله، من أَبَرُّ؟ قال: أُمَّك. قال: ثم مَنْ؟ قال: أُمَّك. قال: ثم مَنْ؟ قال: أباكَ. ثم أدناك، ثمَّ أدناكَ[٦].

(١) في الأصل: عمرو بن قتادة. والمثبت عن المسند، وهو الصحيح، فسليمان بن داود هو الطيالسي أبو داود يروي عن عمران القطان، وعمران يروي عن قتادة، وقتادة يروي عن عبد ربه بن أبي يزيد. انظر التهذيب.

(٢) في الأصل: حتى جمعوا أعواداً. والمثبت عن المسند. والسواد: الشيء المجتمع كالشخص.

(٣) مسند أحمد ١/٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٤) تفسير الطبري ١/٣٨٨.

(٥) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة ١/١٤٠، ومسلم، كتاب الإيمان ٨٩ ـ ٩٠.

(٦) تحفة الأحوذي، أبواب البر ٦/٢١، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٣٦، وابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٠٧، ومسند أحمد ٥/٣، ٥.

(١-وقوله: ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾، قال الزمخشري، خَبَرٌ بمعنى الطلب، وهو آكَدُ. وقيل: كان أصلُه: أن لا تعبدوا، كما قرأها بعض السلف، فحذفت أن، فارتفع. وحُكِي عن أبيٍّ وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ أنهما قرآها: لا تعبدوا إلاّ الله. وقيل: لا تعبدون مرفوع على أنه قسم، أي: والله لا تعبدون إلا الله. ونَقَل هذا التوجيه القرطبي(٢) في تفسيره عن سيبويه، وقال: اختاره(٣) المبرد والكسائي والفرّاء)-١).

قال: ﴿ واليتامى ﴾ وهم: الصغار الذين لا كاسبَ لهم من الآباء، (١-قال أهل اللغة: اليتيم في بني آدم من الآباء، ومن البهائم من الأمّ. وحكى الماوَرْدِيّ أَنَّ اليتيمَ مُطلَقٌ في بني آدم من الأمّ أيضاً-١).

﴿ والمساكين ﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾. . . الآية(٤).

وقوله تعالى: ﴿ وقولُوا للناس حسناً ﴾ أي: كلموهم طيباً، وأليِنُوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله: ﴿ وقولوا للناسِ حسناً ﴾ فالحُسْن من القول: تَأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحلمُ، وتعفوُ، وتصفح، وتَقُول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خُلُق(٥) حسن رضيه الله.

(١-وقرأ بعضهم: ﴿ حسناً ﴾. وقرأ آخرون: حُسنَى مثل فُعلى. وأنكرها على الأخفش جماعة وقال لا يستعمل (٦-[شيء من هذا إلا بالألف واللام مثل الكبرى والفضلى]-٦) والعظمى، وعزوه إلى سيبويه، نقله القرطبي-١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخَزّاز، عن أبي عمران الجَوْني، عن عبدالله بن الصامت، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: لا تحقِرَنَّ من المعروفِ شيئاً، وإن لم تَجِدْ فالْقَ أخاك بوجهٍ منطلِق(٧).

وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذيّ ـ وصحَّحه ـ من حديثِ أبي عامرٍ الخزّاز، واسمه صالح بن رستم، به(٧).

وناسَبَ أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فَجَمَع(٨) بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناسِ بالمُتَعيِّن من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وأخبر أنهم تَوَلّوا عن ذلك كلِّه، أي: تركوه وراءَ ظُهُورهم، وأعرضوا عنه على عَمْدٍ بعد العلم به، إلا القليلَ منهم، وقد أمر تعالى هذه الأُمَّةَ بنظيرِ ذلك في سورة النساء، بقوله: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى واليتامى والمساكين، والجارِ ذي القربى،

---

(١) عن الأصل.
(٢) القرطبي ٢/١٣. وانظر كتاب سيبويه ٢/١٠٦.
(٣) نص القرطبي: وأجازه.
(٤) الآية ٣٦ من سورة النساء.
(٥) في الأصل: وهو خلق كل حسن بوصية الله. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم.
(٦) ما بين القوسين غير واضح في الأصل، وأثبتناه عن القرطبي ٢/١٦.
(٧) مسند أحمد ٥/١٧٣، ومسلم، كتاب البرّ ٢٠٢٦، وتحفة الأحوذي، أبواب الأطعمة ٥/٥٦٢ ـ ٥٦٣.
(٨) في الأصل: «بعد أن جمع».

والجار الجُنب، والصاحب بالجَنْب وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مُختالاً فَخُوراً ﴾ فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تَقُم به أمة من الأمم قبلها، ولله الحمد والمنة.

ومن النقول الغريبة ههنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره:

حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبدالله بن يوسف ـ يعني التِّنِّيسي(١) ـ حدثنا خالد ابن صبيح، عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وداعة: أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهودياً ولا نصرانياً إلا سَلَّم عليه، فقيل له: ما شأنك؟ تُسَلِّم على اليهودي والنصراني.. فقال: إن الله يقول: ﴿ وقُولُوا للناسِ حُسْناً ﴾ وهو: السلام.

قال: وروى عن عطاء الخراساني، نحوه.

قلت: وقد ثَبَتَ(٢) في السنَّةِ أنهم لا يُبدؤُون بالسلام، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقولُ تباركَ وتعالى، منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ـ ﷺ ـ بالمدينة، وما كانوا يُعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أنَّ الأوس والخزرج ـ وهمُ الأنصار ـ كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروبٌ كثيرة، وكانت يهودُ المدينةِ ثلاثَ قبائلَ: بنو قينقاع، وبنو النَّضير حلفاءُ الخزرج، وبنو قُرَيْظَةَ حلفاءُ الأوس. فكانتِ الحربُ إذا نشبتْ بينهم قاتَلَ كلُّ فريقٍ مع حُلَفائه، فيقتلُ اليهوديُّ أعداءَه. ويقتلُ اليهوديُّ الآخر من الفريقِ الآخَر، وذلك حَرامٌ عليه في دينه ونصِّ كتابه، ويخرجونهم من بيوتهم وينهَبُون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وَضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ أي: لا يقتل بعضُكم بعضاً، ولا يخرجُه من منزله، ولا يظاهر عليه، كما قال تعالى: ﴿ فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾؛ وذلك أن أهل المِلَّةِ الواحدةِ بمنزلة النَّفْسِ الواحِدَة، كما قال عليه الصلاةُ والسَّلامُ: «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتواصُلِهم بمنزلة الجَسَدِ الواحِدِ، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعَى له سَائِرُ الجَسَدِ بالحمَّى والسَّهَرِ»(٣).

(١) في الأصل: السبسي. والمثبت عن الجرح لابن أبي حاتم ٥/٢٠٥. والكلمة غير واضحة في تفسيره.
(٢) في الأصل: ثبتت السنّة.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٢٧١، والبخاري، كتاب الأدب ٨/١٢، ومسلم، كتاب البرّ ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠.

وقوله: ﴿ثم أقررتم وأنتم تشهَدُون﴾، أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصِحَّتِه وأنتم تشهَدُون به.

﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ (١-تقديره: ثم أنتم يا هؤلاء. ومنع كثيرون من النحاة حَذْفَ حرف النداء مع اسم الإشارة، وسَوَّغَه بعضُهم، وهو ظاهرُ السياق. وقيل: هؤلاء بمعنى الَّذين، معناه: ثم أنتم الذين تقتلون أنفسكم... إلى آخره. وقيل معناه: ثم أنتم اليوم هؤلاء، مبتدأ وخبر، أي: ثم صرتم بعد العهود والمواثيق على ما أنتم عليه من الصفة المُفَسَّرة بما بعده. قال الزمخشري: نُزِّلَ تغير الصفة منزلة تَغَيُّر الذات، كما يقال: دخل بغير الوجه الذي خَرَج به-١).

﴿تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم، وهو محرَّم عليكم إخراجهم﴾، قال محمد بن إسحاق بن يسار:

حدثني محمّد بن أبي محمّد، عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾... الآية، قال: أنَّبهم(٢) الله من فعلهم، وقد حُرِّم عليهم في التوراة سَفكُ دمائهم، وافترضَ عليهم فيها فدَاء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفةٌ منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج، والنضير، وقريظة وهم حُلَفاء الأوس، فكانوا إذا كان بين الأوس والخزرج حربُ خَرَجَتْ بنو قَينقاع مع الخزرج، وخرَجَتْ النضير وقريظة مع الأوس، يُظَاهِر كلُّ واحد من الفريقين حلفاءَه على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم (بينهم(٣)، وبأيديهم) التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم. والأوسُ والخزرجُ أهل شِرْكٍ يعبدون الأوثان، لا يعرفون جَنَّةً ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامةً، ولا كتاباً، ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعتِ الحربُ أوزارها افتدَوا أسراهم، تصديقاً لما في التوراة، وأخذاً به، بعضُهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في يَدَي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في يَدَي الخزرج منهم، ويُطِلُّون(٤) ما أصابوا من دمائهم، وقَتلُوا من قَتَلُوا منهم فيما بينهم، مظاهرةً لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم بذلك: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ أي: تفادونه بحكم التوراة، وتقتلونه(٥) وفي حكم التوراة أن لا يُقْتَل(٦)، ولا يُخْرج(٧) من داره، ولا يُظَاهَر عليه من يُشْرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا. ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج ـ فيما بلغني ـ نزلت هذه القصة(٨).

وقال أسباطُ، عن السدِّي: كانت قريظةُ حلفاءَ الأوس، وكانت النضير حلفاءَ الخزرج، وكانوا يَقْتَتلون في حرب سُمَير، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضيرَ وحلفاءهم، وكانت النضيرُ تقاتلُ قريظةَ وحلفاءها، ويغلبونهم، فيخربون ديارهم، ويخرجونهم منها، فإذا أُسِرَ رجلٌ من الفريقين كليهما، جَمَعوا له حتى يَفْدُوه. فتعيِّرهم العربُ بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدُونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، وحرِّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنَّا نستحي أن تُسْتَذَلَّ حلفاؤنا. فذلك حين عَيَّرَهُم الله تعالى: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾.

(١) عن الأصل.
(٢) في الأصل: أنبأهم. والمثبت عن تفسير الطبري.
(٣) في الأصل: وبين أيديهم.
(٤) أي: يهدرون.
(٥) في الأصل: «تفادونهم بحكم التوراة وتقتله» والمثبت عن تفسير الطبري.
(٦) في الأصل: أن لا يفعل.
(٧) في الأصل: وتخرجه من داره... وتظاهر عليه مَن أشرك.
(٨) تفسير الطبري ١/٣٩٧.

وقال شعبة، عن السِّدي: نزلت هذه الآية في قيس بن الخَطِيم: ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليها بالإثم والعدوان ﴾.

وقال أسباط، عن السدي، عن عبد خَيْرٍ، قال: غَزَونا مع سلمانَ بن ربيعة الباهلي بَلَنْجَرَ[١]، فحاصرنا أهلها، ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا، واشترى عبدالله بن سلام يهودية بسبعمائة، فلما مرّ برأس الجالوت نزل به، فقال له عبدالله: يا رأس الجالوت، هل لك في عَجُوز ههنا من أهل دينك، تشتريها مني؟ قال: نعم. قال: أخذتها بسبعمائة درهم. قال: فإني أَرْبحُك سبعمائةً أخرى. قال: فإني قد حلفت ألا أَنْقصُها من أربعة آلاف. قال: لا حاجة لي فيها. قال: [والله] لَتَشْتَرِيَنَّها منّي، أو لتكفُرَنَّ بدينِك الذي أنت عليه. قال: ادن مني، فدنا منه، فقرأ في أذنه التي في التوراة: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا اشتريتَه فأعتقته، ﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهـم وهو محرَّم عليكم إخراجهم ﴾، قال: أنت عبدالله بن سلام؟ قال: نعم. قال: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبدالله ألفين، ورد عليه ألفين[٢].

وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: حدثنا أبو جعفر يعني الرازي، حدثنا الربيعُ بن أنس، أخبرنا أبو العالية: أن عبدالله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادي من النساء من لم يقع عليها العرب، ولا يفادي من وقع عليها العرب، فقال عبدالله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهُنَّ كُلَّهن.

والذي أرشدَتْ إليه الآيةُ الكريمةُ، وهذا السياق، ذمُّ اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شَرْعِها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصِّحة، فلهذا لا يؤتمنون على ما[٣] فيها ولا على نقلها، ولا يُصَدِّقون فيما يكتمونه من صفة رسول الله ـ ﷺ ـ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومُهَاجَره، وغير ذلك من شؤونه، التي قد أخبرت بها الأنبياء قبله. واليهودُ ـ عليهم لعائنُ الله ـ يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فما جزاءُ من يفعلُ ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا ﴾، أي: بسبَب مخالفتهم شَرْعَ الله وأمْرَه ﴿ ويومَ القيامةِ يُرَدُّون إلى أشدِّ العذابِ ﴾ جزاء على ما كَتَموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿ وما الله بغافلٍ عما يعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾، أي: استحبُّوها على الآخرةِ واختارُوها ﴿ فلا يُخفَّف عنهم العذابُ ﴾، أي: لا يُفتَّرُ عنهم ساعةً واحدةً ﴿ ولا هم يُنصرَون ﴾ أي: وليس لهم ناصرٌ يُنقِذُهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمديّ، ولا يُجيرُهم منه.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ينعَتُ تبارك وتعالى بني إسرائيلَ بالعُتوِّ والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يَتَّبعون أهواءَهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتابَ ـ وهو التوراة ـ فَحَرَّفوها وبَدَّلوها، وخالفوا أوامرها وأَوَّلوها. وأرسل الرسلَ والنبيين من بعده الذين يحكمُون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هُدىً ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبارُ بما استُحفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداءَ ﴾... الآية، ولهذا قال: ﴿ وَقَفَّيْنا من بعده بالرسل ﴾، قال السدّي، عن أبي مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل

(١) في معجم البلدان: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب.
(٢) الخبر في تفسير ابن أبي حاتم.
(٣) في الأصل: على رسول الله بما فيها.

قريب، كما قال تعالى: ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات ـ وهي: المعجزات قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخَلْقِه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأسقامَ، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس ـ وهو جبريل عليه السلام ـ ما يدلّهم على صدقه فيما جاءهم به. فاشتدَّ تكذيبُ بني إسرائيل له وحَسَدُهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿ ولأحل لكم بعضَ الذي حُرِّم عليكم، وجئتكم بآيةٍ من ربكم ﴾... الآية. فكانت بنو إسرائيل تُعاملُ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أسوأ المعاملة، ففريقاً يُكَذِّبونه؛ وفريقاً يقتُلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبإلزامهم بأحكام التوراةِ التي قد تَصَرَّفوا في مخالفتها، فلهذا كان يشقّ ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتُلونَ ﴾.

والدليلُ على أَنَّ روح القدس هو جبريل. كما نصَّ عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك محمد بن كعب القُرَظي، وإسماعيل بن أبي خالد، والسدّي، والربيعُ بن أنس، وعطيةُ العوفي، وقتادةُ مع قوله تعالى: ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ما قال البخاري: وقال ابن أبي الزِّناد، عن أبيه، عن عُروة، عن عائشة: «إن رسول الله ـ ﷺ ـ وضع لحسان بن ثابت مِنْبراً في المسجد، فكان ينافحُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: اللهم أيِّد حسانَ بِرُوحِ القُدُس كما نافَحَ عن نَبِيِّك». وهذا من البخاريِّ تعليقٌ[١].

وقد رواه أبو داود في سُنَنه، عن لُوَين ـ والترمذي، عن علي بن حجر، وإسماعيل بن موسى الفزاري ـ ثلاثتهم عن عبد الرحمن بن أبي الزناد [عن[٢] أبيه وهشام بن عروة، كلاهما عن عُرْوَةَ، عن عائشة، به. وقال الترمذيّ: حسن صحيح، وهو حديث أبي الزناد[٢]].

وفي الصَّحيحين من حديث سفيان بن عُيَينة، عن الزُّهري، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هُرَيرة: أن عمر مَرَّ بحسان، وهو يُنشِدُ الشعر في المسجد، فلَحَظَ إليه، فقال: قد كنتُ أنشد فيه، وفيه من هو خيرٌ منك. ثم التفتَ فقال أبي هُرَيْرة، فقال: أنشُدُكَ اللهَ، أسَمِعتَ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: أَجِبْ عَنِّي، اللهم أَيِّده بِرُوحِ القُدُس؟ فقال: اللَّهُمَّ نَعَمْ[٣].

وفي بعض الروايات: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لحسّان: اهجُهم ـ أو[٤] هاجِهم ـ وجبريلُ معكَ[٥].

[٣]-(وفي شعر حسان قوله[٦]:

وَجِبْرِيلٌ رسولُ الله فِينا ورُوحُ القُدُسِ ليسَ لَه كِفَاءُ)-[٥]

---

(١) لقد جهدت أن أجد هذا التعليق في البخاري، ويقول ابن حجر في الفتح ٥٤٨/١ في كتاب الصلاة باب الشعر في المسجد: «وذكر المزّي في الأطراف أن البخاريّ أخرجه تعليقاً نحوه وأتمّ منه، لكني لم أره فيه». وانظر سنن أبي داود، كتاب الأدب ٣٠٤/٤، وتحفة الأحوذي، أبواب الأدب ١٣٧/٨.

(٢) سقط من الأصل.

(٣) البخاري، كتاب بدء الخلق ١٣٦/٤، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣.

(٤) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٣٣.

(٥) عن الأصل.

(٦) ديوانه ٧٥، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ١٩٣٨. وفي الأصل: «ليس به خفاء».

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَين المكي، عن شهر بن حوشب الأشعريِّ: أن نفراً من اليهود سألُوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقالوا: أخبرنا عن الرُّوحِ. فقال: أنشدُكم بالله وبآياته عند بني إسرائيل، هل تعلمونَ أنه جبريل؟ وهو الذي يأتيني؟ قالوا: نعم.

(١-(وفي صحيح ابن حبّان ـ أظنه عن ابن مسعود ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن رُوحَ القُدُس نَفَثَ في رَوعي أنَّ نفساً لن تموتَ حتى تستكمل رِزقَها وأَجَلها، فاتقوا الله، وأَجْمِلُوا في الطلب)-١).

أقوال أخر:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا بشر، عن أبي رَوق، عن الضحاك، عن ابن عباس (بروح القدس)، قال: هو الاسم الأعظمُ الذي كان عيسى يحيي به الموتى.

وقال ابن جَرير: حُدِّثت عن المنجاب. فذكره(٢).

قال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن جُبَير نحوُ ذلك: (١-(ونقله القرطبي عن عَبيد بن عمير أيضاً. قال: وهو الاسم الأعظم)-١).

وقال ابن أبي نَجيح: الروحُ هو حفَظَةٌ على الملائكة.

وقال أبو جَعْفر الرازي، عن الربيع بن أنس: القدسِ هو الرب تبارك وتعالى، وهو قولُ كعبٍ. وقال السدّي: القُدسُ البركةُ. وقال العَوفيّ، عن ابن عباس: القُدسُ الطهرُ.

وقال ابن جَريرٍ: حدثنا يونسُ بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ وأيدناه بروح القدُس ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً، كما جعل القرآن روحاً، كلاهما روحٌ من الله، كما قال تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ﴾(٣).

ثم قال ابن جرير: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قولُ من قال: الروحُ في هذا الموضع جبريلُ، لأن الله ـ عزّ وجلّ ـ أخبر أنه أَيَّد عيسى به، كما أخبرَ في قولِهِ: ﴿ إذ قال اللهُ يا عيسى ابن مريم اذكُرْ نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس، تكلِّم الناس في المهد وكهلاً، وإذ عَلَّمتك الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل ﴾. . . الآية. فذكر أنه أيّده به، فلو كان الروح الذي أيده به هو الإنجيل، لكان قولُه: ﴿ إذ أيدتك بروح القدس * وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ تكريرَ قولٍ لا معنى له، والله أعزُّ أن يخاطِبَ عبادَه بما لا يُفيدُهم به(٣).

قلت: ومن الدليلِ على أنّه جبريلُ ما تقدم في أول السياق؛ ولله الحمد والمنة.

وقال (١-الزمخشري ﴿ بروح القدس ﴾ بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجُودِ، ورجلُ صدقٍ، ووَصَفَها بالقُدُس كما قال: ﴿ وروح منه ﴾، ووصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة. وقيل: لأنه لم يُضَمِّنه الأصلاب ولا أرحام الطوامث. وقيل: بجبريل. وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿ وروحاً من أمرنا ﴾. وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يُحيي الموتى بذكره. وتضمن كلامُه قولاً آخر، وهو أن المراد روحُ عيسى نفسه المقدسة المطهرة.

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير الطبري ١/٤٠٤.
(٣) تفسير الطبري ١/٤٠٥.

وقال الزمخشري في قوله: ﴿ ففريقاً كذبتم، وفريقاً تقتلون ﴾: إنما لم يقل: وفريقاً قتلتم؟ لأنه أراد وصفهم بذلك في المستقبل أيضاً، لأنهم حاولوا قتل النبي محمد ـ ﷺ ـ بالسّم والسحر، وقد قال عليه الصلاة والسلام عن مَرَض موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوانُ انقطاعِ أبهري» وهذا الحديث في صحيح البخاري[1] وغيره-[1].

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْفٌ ﴾ أي: في أكِنَّة.

وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباسٍ ﴿ وقالوا قلوبنا غلفٌ ﴾، أي: لا تَفْقَهُ.

وقال العَوفي، عن ابن عباس ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾، هي: القلوبُ المطبوعُ عليها.

وقال مجاهد ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْفٌ ﴾: عليها غشاوة.

وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أي لا تَفْقَه. وقال السدّي: يقولون: عليها غلاف، وهو الغطاء.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة. ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾: هو كقوله: ﴿ وقالوا قلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه ﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله ﴿ غُلْف ﴾ قال يقول: قلبي في غلاف فلا يَخْلُص إليه ما تقول. قرأ: ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾.

وهذا هو الذي رَجَّحه ابنُ جَرير، واستشهد مما رُوي من حديث عَمْرو بن مُرّة الجَمَليِّ، عن أبي البختري، عن حُذَيفة، قال: القلوبُ أربعة. فذكر منها: وقلب أَغْلَفُ مَغْضُوبٌ عليه، وذاك قلب الكافر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن العَرْزمي، أنبأنا أبي، عن جَدّي، عن قتادة، عن الحسن في قوله: ﴿ قلوبنا غلف ﴾، قال: لم تـختـن.

هذا القولُ يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم، وأنها بعيدة من الخير.

قول آخر:

قال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْف ﴾، قال. قالوا: قلوبنا مملوءةٌ عنماً لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره.

وقال عطية العوفي: ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْفٌ ﴾، أي: أوعية للعلم.

وعلى هذا المعنى جاءت قراءةُ بعض الأنصار، فيما حكاه ابن جَرير: ﴿وقالوا قلوبنا غُلُف﴾ بضم اللام، (ونقلها -[2]الزمخشري، عن أبي عَمْرو، وحكاه القرطبي عن ابن عباس، وابن مُحَيصِن)-[2]. أي: جمع غلاف، أي

(١) البخاري، كتاب المغازي ٦/١١.
والأَبْهَرُ: عرقٌ مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٢) عن الأصل.

أوعية، بمعنى أنهم زعموا أن قلوبهم مملوءةٌ بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر. كما كانوا يَمُنُّون بعلم التوراة وقال (١-القرطبي: معناه: وقالوا قلوبُنا أوعيةٌ للعلم، فما بالها لا تفهمُ قول محمد[٢]؟! . والأولُ أولى، وهو المنصوص عن ابن عباس أنهم يقولون: نحن في غُنْيَة بما عندنا من العلم مما جاء به محمد - ﷺ - وهذا شبيه قوله: ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فَرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءُون﴾-١) ولهذا قال تعالى: ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلًا ما يؤمنون ﴾، أي: ليس الأمرُ كما ادَّعوا، بل قلوبُهم ملعونةٌ مطبوعٌ عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿ وقولهم قلوبنا غُلفٌ، بل طبع الله عليها بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلًا ﴾.

وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾، وقوله: ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلًا ﴾، فقال بعضهم: فقليلٌ من يؤمن منهم واختاره (١-فخر الدِّين الرازي، وحكاه عن قتادة، والأصمِّ، وأبي مسلم الأصفهاني-١) وقيل: فقليل إيمانهم. بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمانٌ لا ينفعهم، لأنه مغمورٌ بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ.

وقال بعضُهم: إنهم كانوا غَيْرَ مؤمنين بشيءٍ، وإنما قال: ﴿ فقليلًا ما يؤمنون ﴾ وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قَلَّما رأيتُ مثلِ هذا قطُّ. تريد: ما رأيت مثل هذا قَطُّ. وقال الكسائي: تقول العرب: مررنا بأرضٍ قَلَّما تُنْبتُ. أي: لا تنبتُ شيئاً حكاها ابن جرير، والله - تبارك وتعالى - أعلم.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ولما جاءهم ﴾ يعني اليهود ﴿ كتابٌ من عند الله ﴾ وهو: القرآن الذي أُنزل على محمدٍ - ﷺ - ﴿ مصدّقٌ لما معهم ﴾ يعني: من التوراة، وقوله: ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾، أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم؛ يقولون: إنه سيُبْعَثُ نبيٌّ في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم قال: قالوا: فينا - والله - وفيهم - يعني في الأنصار - وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم، نزلت هذه القصة يعني: ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتِحُون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ قالوا: كنا قد عَلَوناهم دهراً في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهلِ كتاب، فكانوا يقولون: إن نبياً يبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتُلُكم معه قتل عادٍ وإرم. فلما بعث الله رسولَه من قريشٍ كَفَرُوا به. يقول الله تعالى: ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[٣].

وقال الضحاك، عن ابن عَبّاس، في قوله: ﴿ وكانوا من قبل يَسْتَفْتِحُون على الذين كفروا ﴾، قال يستظهرون يقولون: نحن نُعِينُ محمداً عليهم، وليسوا كذلك، يكذبون.

وقال محمد بن إسحاق: أخبرني محمد بن أبي محمد، أخبرني عكرمةُ أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله - ﷺ - قبل مبعثه. فلما بعثَهُ الله من العرب

(١) عن الاصل.
(٢) تفسير القرطبي ٢/ ٢٥.
(٣) تفسير الطبري ١/ ٤١٠.

كفروا به، وجَحَدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن مَعْرُور، أخو بني[1] سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ـ ﷺ ـ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفُونه بصفته. فقال سَلاَم بن مِشْكَم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم! فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدِّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾، يقول: يستنصرون بخروج محمد ـ ﷺ ـ على مشركي العرب ـ يعني بذلك أهل الكتاب ـ فلما بُعِثَ محمد ـ ﷺ ـ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.

وقال أبو العالية: كانت اليهودُ تستنصر بمحمد ـ ﷺ ـ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ـ ﷺ ـ ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال الله: ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾.

وقال قتادة: ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ قال: كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي. ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾.

وقال مجاهد: ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾، «قال: هُمْ هُمْ»[2].

وقال [3-الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني صالح بن إبراهيم عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيدٍ ـ أخي بني عبد الأشهل ـ عن سَلَمة بن سلامة بن وَقْشٍ ـ وكان من أهل بدر ـ قال: كان لنا جارٌ يهوديٌّ في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ بيسير، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً عليَّ بردة مضطجعاً فيها بفناء أهلي، فذكر البعث والقيامة، والحساب والميزان، والجنة والنار، قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان، لا يَرَوْنَ بعثاً كائناً بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، تُرى هذا كائناً أن الناس يُبعَثُون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يُجزَون فيها بأعمالهم؟! فقال: نعم، والذي يُحلَفُ به لَوَدَّ لو أن له بحظه من تلك النار أعظمَ تنورٍ في الدنيا يُحمونَه ثم يُدخلونه إياه، فَيُطبقونه عليه، وأنْ ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: وما آية ذلك؟ قال: نبي يُبْعَث من نحو هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمن قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ ـ وأنا من أحدثهم سناً ـ فقال: إن يَسْتَنفِدْ هذا الغلامُ عُمرَهُ يُدْرِكه. قال: سَلَمة، فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ـ ﷺ ـ وهو بين أظهرنا، فآمنّا به وكَفَر به بغياً وحَسَداً. فقلنا: ويلك يا فلان! أليس بالذي قلت لنا؟ قال: بلى، وليس به.

تفرد به أحمد[4].

وحكى القرطبيُّ وغيرُه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ [أن]: يهود خيبر اقتتلوا في زمان الجاهلية مع

---

(١) في الأصل: وداود بن سلمة. انظر تفسير الطبري ٤١١/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٣ ـ ٣) عن الأصل.
(٤) مسند الإمام أحمد ٤٦٧/٣.

غطفان، فهزمتهم غطفان، فدعا اليهود عند ذلك فقالوا: اللهم إنا نسألك بحق النبيِّ الأميِّ الذي وعدتَنا بإخراجه في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم. قال: فنُصِروا عليهم. قال: وكذلك كانوا يصنعون، يدعون الله فيُنْصَرون على أعدائهم ومن ناوأهم، قال الله تعالى: ﴿ فلما جاءَهُم ما عرفوا ﴾، أي: من الحق وصِفَةِ محمد ـ ﷺ ـ كفروا به، فلعنةُ الله على الكافرين-[٣].

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

قال مجاهد: ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾، يهود شروا الحق بالباطل، وكتمانَ ما جاءَ به مُحَمَّد ـ ﷺ ـ بأن يبينوه.

وقال السدي: ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾، يقول: باعوا به أنفسهم. يعني بئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به [١]-(وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ـ ﷺ ـ إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، ولا حسد أعظم من هذا)-[١].

قال ابن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن يُنَزِّل الله من فَضْلِهِ على من يشاء من عباده ﴾ أي: إن الله جَعَلَه من غيرهم ﴿ فباءُوا بغضبٍ على غَضَبٍ ﴾ قال ابن عباس: فالغضبُ على الغضب، فغضبُه عليهم فيما كانوا ضَيّعوا من التوراة وهي معهم، وغَضَبٌ بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم[٢].

فقلت: ومعنى ﴿ باءوا ﴾ استوجبوا، واستحقوا، واستقروا بغضب على غضب.

قال أبو العالية: غَضِب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غَضِب بكفرهم بمحمد، وبالقرآن، عليهما السلام.

وقال السدي: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العِجْل، وأما الغضب الثاني فغَضِب عليهم حين كفروا بمحمد ـ ﷺ ـ (وعن ابنِ عباسٍ مثلُه)[١].

وقولُهُ: ﴿ وللكافرين عذابٌ مهين ﴾ لما كان كفرهم سَبَبُهُ البغيُ والحسدُ، ومنشأُ ذلك التكبر، قُوبِلُوا بالإهانة والصَّغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾. أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين وقد قال الإمام أحمد.

[حدثنا يحيى] حدثنا ابن عجلان، عن عَمْرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدّه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: يُحشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صُوَر الناس، يعلوهم كلُّ شيءٍ من الصغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنَّم، يقال له: بُولَس، فيعلوهم نار الأنيارِ يسقون من طينَةِ الخَبَالِ: عصارة أهل النار[٣].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ الْحَقُّ

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير الطبري ٤١٧/١.
(٣) مسند الإمام أحمد ١٧٩/٢.

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم ﴾، أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب: ﴿ آمنوا بما أنزل الله ﴾ على محمد ـ ﷺ ـ وصَدِّقوه واتَّبِعُوه ﴿ قالوا: نؤمن بما أنزل علينا ﴾، أي: يكفينا الإيمان بما أنزلَ علينا من التوراة والإنجيل، ولا نُقِرُّ إلا بذلك، ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ يعني بما بعده ﴿ وهو الحقُّ مصدقاً لما معهم ﴾ أي: وهم يعلَمون أن ما أُنزلَ على محمدٍ ـ ﷺ ـ الحق. مصدِّقاً: منصوب على الحال، أي: في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، والحجة قائمةٌ عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾. [ثم] قال تعالى: ﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فَلِمَ قتلتم الأنبياءَ الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعَدَم نَسْخِها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء، والآراء والشهوة، كما قال تعالى: ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تَهْوَى أنفسُكم استكبرتُم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلُون ﴾.

وقال السدّي: في هذه الآية: يُعَيِّرهم الله تعالى ﴿ قل: فلِمَ تقتلون أنبياءَ الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين ﴾.

وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد، ليهود بني إسرائيل [الذين][1] إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا: لم تقتلون ـ إن كنتم يا معشرَ اليهودِ مؤمنين بما أنزل الله عليك[2] ـ أنبياءَه وقد حَرّم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعِهم وطاعَتِهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيبٌ لهم في قولهم: (نؤمن بما أنزل علينا)، وتعيير لهم.

﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ أي: بالآياتِ الواضحاتِ والدلائلِ القاطعةِ على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله. والبيناتُ هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفَلْق البحر، وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ﴿ ثم اتخذتم العجل ﴾ أي: معبوداً من دون الله في زمان موسى وأيامه. وقوله ﴿ من بعده ﴾ أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله، كما قال تعالى: ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ﴾، ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ ولما سُقِط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضَلُّوا قالوا: لئن لم يرحَمْنا ربنا ويغفرْ لنا لنكونَنَّ من الخاسرين ﴾.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يُعَدِّد تبارك وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رَفع الطور عليهم حتى قَبلوه ثم خالفوه، ولهذا قال: ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾. وقد تقدم تفسير ذلك[3].

---

(١) عن تفسير الطبري ١/٤١٩.

(٢) في الأصل: على أنبيائه.

(٣) انظر تفسير الآية ٦٣ من هذه السورة.

﴿ وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾، قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿ وأشربوا في قلوبهم العِجْلَ ﴾ قال: أُشربوا حبه، حتى خَلَص ذلك إلى قلوبهم. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبدالله بن أبي مريم الغساني، عن خالد بن محمد الثقفي، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبي الدرداء، عن النبي - ﷺ - قال: «حُبُّك الشيء يُعْمِي ويُصِمُّ»[(١)].

ورواه أبو داود، عن حيوة بن شُريح، عن بَقِيَّة، عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي مريم[(٢)]، به.

وقال السُّدِّيُّ: أخذ موسى عليه السلام العجل فذبحه ثم حَرَقه[(٣)] بالمبرد، ثم ذَرَّاه في البحر، فلم يبق بحر يجري يومئذ إلا وقع فيه شيء [منه][(٣)]، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه. فشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب. فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدالله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عَبْدٍ[(٤)] وأبي عبد الرحمن السُّلمي، عن علي بن أبي طالب، قال: عَمَد مُوسَى إلى العِجْلِ، فوضَعَ عليه المبارد، فبرده بها، وهو على شاطىء نهر، فما شرِب أحدٌ من ذلك الماء ممن كان يعبدُ العِجْلَ إلا اصفرَّ وجهُه مثلَ الذهبِ.

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾، قال: لما أحرق العجل بُردَ ثم نسف، فَحَسَوا الماءَ حتى عادت وجوههم كالزعفران.

وحكى [(٥)]-القرطبي عن كتاب[(٦)] القُشيريّ أنه ما شَرِب منه أحدٌ مِمَّن عَبَد العجل إلاَّ جُنَّ. وهذا شيءٌ غير ما هاهنا، لأن المقصودَ من هذا السِّياق أنه ظهر النقيرُ على شفاههم ووجوههم، والمذكور هاهنا أنهم أشربوا في قلوبهم حب العجل، يعني في حال عبادتهم له، ثم أنشد قول التابعي[(٧)] في زوجته عَثْمَةَ:

تَغلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ في فُؤَادي ... فباديه مع الخافي يسيرُ
تَغلْغَلَ حيثُ لم يَبْلُغْ شَرابٌ ... ولا حُزْنٌ ولم يَبْلُغْ سُرورُ
أكادُ إذا ذكرتُ العهدَ منها ... أطيرُ لَوَ أنَّ إنساناً يطيرُ-[(٥)]

وقوله: ﴿ قل: بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾، أي: بئسما تعتَمِدُونه في قديم الدَّهرِ وحَديثِه، من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياءَ، ثم اعتمادكم في كُفْركم بمحمَّدٍ - ﷺ - وهذا أكبرُ ذنوبكم، وأشدُّ الأمورِ عليكم - إذ كفرتُم بخاتم الرسل وسيِّدِ الأنبياء والمُرسلين المبعوثِ إلى الناس أجمعين، فكيف تَدَّعونَ لأنفسِكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحةَ، من نَقْضِكم المواثيقَ، وكُفْركم بآيات الله، وعبادتكم العجل؟!.

---

(١) في الأصل: وأشربوا في قلوبهم حبه. والمثبت عن تفسير الطبري ٤٢٢/١.
(٢) مسند الإمام أحمد ١٩٤/٥. وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٣٣٤/٤.
(٣) عن تفسير الطبري. وحرقه: بَرَدَه.
(٤) في الأصل: عمارة بن عمير، والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم، وفي الجرح له ٣٦٧/٦: «عمارة بن عبدٍ سمع علياً رضي الله عنه. روى عنه أبو إسحاق الهمداني».
(٥) عن الأصل.
(٦) تفسير القرطبي ٣٢/٢.
(٧) في الأصل: «قول النابغة». وفي تفسير القرطبي: «أحد التابعين». والأبيات للتابعي الجليل عُبَيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهي في الحماسة ١٠٥/٢.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يقول الله لنبيه - ﷺ -: ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾، أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب. فأبوا ذلك على رسول الله - ﷺ - ﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ أي: لعِلْمِهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات(١).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ فتمنوا الموتَ ﴾: فَسَلُوا الموتَ.

وقال عبد الرزّاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن عبد الكريم الجزري، عن عكرمة، قوله: ﴿ فتمنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين ﴾ قال: قال ابن عباس: لو تمنى اليهود الموت لماتوا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا عَثَّام، سَمِعتُ الأعمشَ، قال: لا أظنه إلا عن المنهال، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: تَمَنَّوُا الموت لشَرِقَ أحدُهم بِرِيقه.

وهذه أسانيد صحيحه إلى ابن عباس.

وقال ابن جَريرٍ في تفسيره: وبلغنا أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: لو أن اليهود تَمنَّوُا الموتَ لماتوا ولرأوا مقاعِدَهُم من النار. ولو خَرَجَ الذين يُباهلون(٢) رسول الله - ﷺ - لرجعوا لا يجدون أهلاً، ولا مالاً، حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن رسول الله - ﷺ -.

ورواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن يزيد الرقي أبي يزيدَ، حدثنا فرات، عن عبد الكريم(٣)، به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبدالله بن بشار، حدثنا سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسنِ، قال: قول الله ما كانوا ليتمنَّوه بما قدمَتْ أيديهم. قلت: أرأيتَكَ لو أنهم أحبُّوا الموت حين قِيل لهم: ﴿ تَمَنَّوا ﴾ أتراهم كانوا ميتين؟. قال: لا، والله ما كانوا ليموتوا لو تَمَنَّوا الموتَ، وما كانوا ليتمنَّوه، وقد قال الله ما سَمِعْتَ: ﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾.

وهذا غريبٌ عن الحسن. ثم هذا الذي فَسّر به ابنُ عباس الآية هو المتعينُ، وهو الدعاءُ على أيِّ الفريقَين أكذبُ، منهم أو من المسلمين، على وجه المباهلة، ونقله ابنُ جرير عن قتادة، وأبي العاليةِ، والربيعِ بن أَنَسٍ، رَحِمَهم الله.

ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه تعالى في سورة الجُمُعة: ﴿ قل يأيها الذين هادُوا إن زَعَمتم أنَّكم أولياءُ لله من دون

(١) تفسير الطبري ١/٤٢٥، ٤٢٧، وسيرة ابن هشام ١/٥٤٢.
(٢) المباهلة: الملاعنة. وهو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالمين.
(٣) مسند الإمام أحمد ١/٢٤٨.

الناس فَتَمنَّوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنَّونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ فهم ـ عليهم لعائن الله ـ لَمَّا زَعَموا أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنةَ إلا من كان هوداً أو نصارى، دَعَوا إلى المباهلةِ والدعاءِ على أكذَبِ الطائفتين منهم، أو من المسلمين. فلما نكلوا عن ذلك عَلِم كل أحد أنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدَمُوا على ذلك، فلما تَأَخَّرُوا علم كذبهم. وهذا كما دعا رسول الله ـ ﷺ ـ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعُتُوِّهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿ فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ فلما رأوا ذلك قال بعضُ القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبيَّ لا يبقَى منكم عينٌ تطرف. فعند ذلك جَنَحُوا إلى السَّلْم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فَضَرَبها عليهم. وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ أميناً. ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ أن يقول للمشركين: ﴿ قل من كان في الضلالة فليمدُدْ له الرحمن مَدّاً ﴾، أي: من كان في الضلالة منا أو منكم، فزاده الله مما هو فيه ومَدَّ له، واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله.

فأما من فسر الآية على معنى ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابنُ جرير بعد ما قارب القولَ الأول؛ فإنه قال: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾: وهذه الآية مما احْتَجَّ الله به لنبيه ـ ﷺ ـ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مُهَاجَرِه، وفضح بها أحبارَهم وعلماءَهم؛ وذلك أن الله أمر نبيه ـ ﷺ ـ [أن يدعوهم](١) إلى قضيةٍ عادلةٍ بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريق(٢) الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى ابن مريم عليه السلام وجادلوه فيه، إلى فاصلةٍ بينه وبينهم من المباهلة. فقال لفريق من اليهود: إن كنتم محقين فتمنَّوا الموتَ، فإن ذلك غير ضارٍّ بكم، إن كنتم مُحِقِّين فيما تَدَّعُونَ من الإيمانِ وقُرْب المنزلة من الله، بل [إن](١) أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تَعَب الدنيا ونَصَبِها وكَدَر عيشها، والفوزِ بجوارِ الله في جناتِهِ، إن كان الأمرُ كما تزعمُونَ: من أن الدار الآخرة لكم خالصةً(٣) دوننا. وإن لم تعطوها عَلِمَ الناسُ أنكم المبطلون ونحن المحقُّون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم [لهم](١). فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك، لِعلمها أنها إن تمنت الموت هَلَكت، فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق النصارى.

فهذا الكلامُ منه أولُه حسنٌ، وأما آخرهُ ففيه نَظَرٌ؛ وذلك أنه لا تظهر الحجَّة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أن يتمنوا الموت، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت، وكم من صالح لا يتمنَّى الموتَ، بل يَوَدّ أن يُعَمَّر ليزداد خيراً وترتفع درجته في الجنة، كما جاء في الحديث: «خيركم من طال عمره وحَسُن عمله»(٤) وجاء في الصحيح النهي عن تَمَنّي الموتِ، وفي بعض

(١) عن تفسير الطبري ١/٤٢٤.
(٢) في الأصل: «الفريق منهم الآخر».
(٣) في الأصل: خاصة. والمثبت عن تفسير الطبري.
(٤) مسند الإمام أحمد ٤/١٨٨، ١٩٠.

ألفاظه: «لا يتَمَنَّيَنَّ أحدُكُم الموتَ لضُرٍّ نزَل به، إما محسناً فلعله أن يزداد، وإما مسيئاً فلعلَّه أن يستعتب»[١]. ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتم تعتقدون ـ أيها المسلمون ـ أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموتَ؛ فكيف تلزمونا بما لا يَلْزَمكم.

وقد تعرَّض (٢-فخر الدين الرازيّ في تفسيره لهذا السؤال، وأجاب عنه بأنَّ الرسول مأمورٌ بإبلاغ الرسالة إلى أمته بالتواتر عنه، وتَمنِّي الموتِ يحجُزُه عن ذلك، قال: ولعلهم كان يمنعهم من التمني كثرة ذنوبهم، وكانوا يقولون: إنهم يكونون في النار أياماً معدودات ولكن كل يوم كألف سنة، أو كان يمنعهم منه شدة الموت وآلامه، وسأل غيرَ ذلك من الأسئلة وأجاب عنها بأجوبة، ولم يذكر مع هذا كله قول المباهلة بالكلية، وأما القرطبي فإنه حكاه ولكن إنما عَوَّل على الأول، والله أعلم)-٢.

وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نَصَف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحبَّاؤه، وأنكم أهلُ الجنة ومن عداكم أهلُ النار، فباهلوا على ذلك وادعُوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذبَ لا محالة. فلما تيقنُوا ذلك وعَرَفوا صِدْقه نكلوا عن المباهلة لما يَعْلَمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ـ ﷺ ـ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحقَّقُونه. فَعَلِم كلُّ أحَدٍ باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وسُمِّيت (٢-هذه المباهلةُ تَمنِّياً لأن كل مُحِقٍّ يَوَدّ لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيَّما إذا كان في ذلك حجةٌ له فيها بيانُ حقه وظهورُه، وكانت المباهلة بالموت لأنَّ الحياةَ عندهم عظيمةٌ عزيزةٌ، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت)-٢.

ولهذا قال تعالى: ﴿ ولن يتمنَّوه أبداً بما قَدَّمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدَنَّهم أحرصَ الناسِ على حياة﴾، أي: (أحرَصَ الخلق على طول عُمْر، لما يعلَمُون من مآلهم السيىء وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأنَّ الدنيا سِجْنُ المؤمن وجَنَّةُ الكافر، فهم أحرصُ الخلق على حياة أي حياة يَوَدُّون لو تَأَخَّروا عن مقام الأخِرَة بكلِّ ما أمكنهم. وما يُحاذرون منه واقعٌ بهم لا محال، وَهُمْ أحرصُ من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص على العام.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾، قال: الأعاجِمُ.

ورواه الحاكم في مُستدركه من حديث الثَّوري، وقال: صحيحٌ على شرطهما، ولم يخرجاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي[٣].

وقال الحَسَنُ البصري: ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾، قال: المنافق أحرصُ الناسِ على حياةٍ، وهو أحرصُ على الحياةِ من المشركِ[٤].

﴿ يَوَدُّ أحَدُهم ﴾، أي: أحدُ اليهودِ كما يَدُلّ عليه نظم السياق.

(١) البخاري، كتاب المرضى ١٥٧/٧، ومسند الإمام أحمد ٢٦٣/٢.
(٢) عن الأصل.
(٣) المستدرك، كتاب التفسير ٢٦٣/٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

وقال أبو العالية: ﴿ يودُّ أحدهم ﴾، يعني المجوسَ، وهو يرجعُ إلى الأول.

﴿ لو يعمر ألف سنة ﴾ قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ﴿ يودُّ أحدهُم لو يُعمَّر ألف سنة ﴾ قال: هو كقول الفارسي: «زه هزارسال» يقول: عشرة آلاف سنة. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَير نفسه أيضاً(١).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق: سَمِعتُ أبي يقول، حدثنا أبو حَمْزَة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ يودُّ أحدهم لو يعمَّر ألفَ سَنَةٍ ﴾، قال: هو قول الأعاجم: «هزارسال نوروز مهرجان»(٢).

وقال مجاهد: ﴿ يَودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾، قال: حُبِّبَتْ إليهم الخطيئةُ طوالَ العمر.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّرَ ﴾ أي: ما هو بمنجيه من العذاب. وذلك أن المشرك لا يرجُو بعثاً بعد الموت، فهو يحبُّ طولَ الحياةِ، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما صنع بما عنده من العلم.

وقال العوفي، عن ابن عباس ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾، قال: هم الذين عادوا جبريل.

وقال أبو العالية، وابن عمر: فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيه منه.

وقال عبدُ الرَّحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: يهودُ أحرصُ على الحياة من هؤلاء، وقد وَدَّ هؤلاء أن يُعَمَّر أحدُهم ألفَ سنة، وليس بمزحزحه من العذاب لو عُمِّر، كما أن عُمْرَ إبليس لم ينفَعْه إذْ كان كافراً.

﴿ والله بصيرٌ بما يعملون ﴾، أي: خبير بصير بما يعمل عبادُه من خيرٍ وشرٍّ، وسيُجازي كُلَّ عاملٍ بِعَمَلِهِ.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمعَ أهلُ العلم بالتأويل جميعاً أَنَّ هذه الآيَة نزلَتْ جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذْ زعمُوا أَنَّ جبريلَ عدوٌّ لهم، وأن ميكائيل وليٌّ لهم(٣)، ثم اختلفوا في السبب الذي من أَجْلِهِ قالوا ذلك.. فقال بعضُهم: إنما كان سببَ قِيلِهم ذلك من أجلِ مناظرةٍ جَرَت بينهم وبين رسول اللَّه ـ ﷺ ـ من أَمْرِ نبوَّته. ذكر من قال ذلك:

حدَّثنا أبو كُرَيب، حدَّثنا يُونُس بن بكير، عن عبد الحميد بن بَهرام، عن شهر بن حَوشب، عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابةٌ من اليهود إلى رسول الله ـ ﷺ ـ: فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثنا عن خلالٍ نسألك عنهنّ، لا يَعلَمُهنَّ إلا نبي.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «سلوا عمَّا شئتم، ولكن اجعلوا لي ذِمَّةَ الله وما أَخَذَ يعقُوب على بنيه، لئن أنا حَدَّثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابِعُنّي على الإسلام». فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «سلوني عما شئتم».

(١) في المستدرك ٢/٢٦٣: «هو قولُ الأعاجم إذا عطس أحدهم». وانظر تفسير الطبري ١/٤٢٩.
(٢) انظر تفسير الطبري ١/٤٢٩.
(٣) في الأصل: وليّ أمرهم.

فقالوا: أَخْبِرْنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكونُ الذَّكَر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبيّ الأميّ في النوم[١] و[من][٢] وليه من الملائكة؟

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «عليكم عهدُ الله لئن أنا أنبأتكم لَتُتابِعُنّي»؟ فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: «نَشَدتكم بالَّذي أنزل التوراةَ على موسى، هل تعلمون أن إسرائيلَ: يعقوبَ مَرِض مرضاً شديداً فطال سُقْمه منه، فنذر لله نذراً لَئِن عافاه الله من سُقْمِه لَيُحَرِّمَنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبُّ الطعام إليه لحمَ الإبل وأحبُّ الشراب إليه ألبانها». فقالوا: اللَّهمَّ نعم. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللَّهُمَّ أشهدْك عليهم.

وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماءَ الرجل أبيضُ غليظٌ، وأن ماءَ المرأة أصفرُ رقيقٌ، فأيُّهما علا كان له الولدُ والشَّبَهُ بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولدُ ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل كان الولد أُنثى بإذن الله». قالوا: اللَّهمَّ نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشهد».

قال: وأنشُدُكُم بالذي أنزل التوراةَ على موسى، هل تعلمونَ أن هذا النبي الأُميَّ تنام عيناه ولا ينام قلبُه». قالوا: اللَّهمَّ نعم. قال: «اللَّهمَّ اشهد».

قالوا: أنت الآن، فحدِّثنا مَن وليُّك من الملائكة، فعندها نجامعك[٣] أو نفارقك.

قال: «فإن وليِّي جبريل، ولم يَبْعَثِ الله نبياً قط إلا وهو وليُّه».

قالوا: فعندها نفارِقُكَ، لو كان وليّك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك. قال: «فما مَنَعكم أن تصدقوه»؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ قل مَن كان عدواً لجبريل ﴾ إلى قوله: ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب[٤].

وقد رواه الإمام أحمد في مسنده، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، وعبدُ بن حُميدٍ في تفسيره، عن أحمد بن يونس، كلاهما عن عبد الحميد بن بَهرام، به[٥]. ورواه الإمام أحمد أيضاً عن الحسين بن محمد المروزي، عن عبد الحميد، بنحوه[٦].

وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار: حدَّثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَين، عن شهر بن حَوشب، فذكره مرسلاً، وزاد فيه.

قالوا: فأخبرنا عن الروح. قال: أُنشدكم بالله وبآياته عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل، وهو الذي يأتيني؟ قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو، وهو ملك إنما يأتي بالشدَّةِ وسَفْكِ الدماء، فلولا ذلك اتبعناك. فأنزل الله فيهم: ﴿ قُلْ مَن كان عدوّاً لجبريلَ فإنه نَزَّله على قَلْبِكَ بإذن الله ﴾ إلى قوله: ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾[٧].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو أحمد، حدَّثنا عبد الله بن الوليد العِجْلي، عن بكير بن شهاب، عن

(١) في الأصل: في التوراة.
(٢) عن تفسير الطبري.
(٣) في تفسير الطبري: نتابعك.
(٤) تفسير الطبري ١/٤٣٢ ـ ٤٣٣.
(٥) مسند الإمام أحمد ١/٢٧٨.
(٦) المسند ١/٢٧٣.
(٧) تفسير الطبري ١/٤٣٢ ـ ٤٣٣.

سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: أقبلت يهودُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ: فقالوا: يا أبا القاسم، إنّا نسألك عن خمسة أشياءَ، فإن أنبأتنا بهنَّ عرفنا أنك نبي واتَّبعناك. فأَخَذَ عليهم ما أخذ إسرائيل على بَنِيه إذْ قال: «الله على ما نقول وكيل». قال: «هاتوا».

قالوا: أخبرنا عن علامة النبيِّ. قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قالوا: أخبرنا كيف تُؤنِثُ المرأة وكيف يُذَكِّرُ الرَّجل؟ قال: «يلتقي الماءان فإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكرت، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثت»، قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه. قال: «كان يشتكي عِرق النَّسا، فلم يجد شيئاً يلائمُه إلا ألبانَ كذا وكذا» ـ قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل، فَحَرَّم لحومها ـ قالوا: صدقت. قالوا أخبرنا ما هذا الرعدُ؟ قال: «مَلَك من ملائكة الله، عزّ وجل، موكَّلٌ بالسحابِ بيديه ـ أو في يده ـ مِخْراقٌ[1] من نار يَزْجُرُ به السحاب، يسوقُهُ حيث أمره الله عزّ وجل». قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمعه؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت. إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا، إنه ليس من نبي إلا وله مَلَك يأتيه بالخبر، فأخبرنا مَن صاحبك؟ قال: «جبريلُ عليه السلام»، قالوا: جبريلُ ذاك [الذي][2] ينزل بالحرب والقتال والعذاب عَدُوُّنا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقَطْرِ لكنا تابعناك[3]. فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ قل مَن كان عدواً لجبريل ﴾.. إلى آخر الآية[4].

ورواه الترمذي، والنسائي من حديث عبد الله بن الوليد، به. وقال الترمذي: حسن غريب[8].

وقال سُنَيدُ في تَفْسيره، عن حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيج: أخبرني القاسم بن أبي بَزَّة أن يهودَ سألوا النبي ـ ﷺ ـ عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي. قال: جبريل. قالوا: فإنه لنا عَدُوٌّ، ولا يأتي إلا بالشدَّةِ والحَرْب والقتال. فنزلَ: ﴿ مَن كان عدوًّا لجبريل ﴾ الآية.

قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمد، ما ينزل جبريلُ إلا بشدَّةٍ وحَرْبٍ وقتالٍ، وإنه لنا عدوٌّ. فنزل: ﴿ قل مَن كان عدواً لجبريل ﴾[5]... الآية.

وقال البخاري: قوله: ﴿ مَن كان عدواً لجبريل ﴾، قال عكرمة: جَبْرَ، ومِيكَ، وسَرَافِ: عبدٌ. وإيلْ: اللهُ:

حدَّثنا عبد الله بن مُنِير، سَمِعَ عبدَ اللهِ بن بَكْرٍ، حَدَّثنا حُمَيدُ، عن أَنَس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سَلَام بمَقدَم رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ وهو في أرض يَخْتَرِفُ[6]. فأتى النَّبي ـ ﷺ ـ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلَمُهنَّ إلا نَبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طَعام أهل الجنة؟ وما يَنْزِعُ الولدَ إلى أبيه أو إلى أُمِّهِ؟ قال: «أَخْبَرَني بهنَّ جِبْريلُ آنفاً». قال: جبريلُ؟ قال: «نعم». قال: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿ مَن كانَ عدواً لجبريل فإنه نَزَّلَه على قَلْبِكَ ﴾.

أما أولُ أشراطِ الساعةِ فنارٌ تَحشُرُ الناسَ من المشرق إلى المغرب، وأما أَوَّلُ طعامٍ يأكلُه أهلُ الجَنَّة فزيادةُ

---

(١) أراد: آلة يزجر بها السحاب. وهو في الأصل: ثوبٌ يُلَفّ، ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً.

(٢) عن المسند.

(٣) في المسند: لكان.

(٤) مسند الإمام أحمد ١/٢٧٤، وتحفة الأحوذي، أبواب التفسير ٨/٥٤٢ ـ ٥٤٤.

(٥) تفسير الطبري ١/٤٣٣.

(٦) أي: يجني الثمر.

كَبِدِ الحوتِ. وإذا سَبَقَ ماءُ الرجلِ ماءَ المرأةِ نَزَعَ الولدُ، وإذا سبق ماءُ المرأة (ماءَ الرجل)[١] نَزَعتْ. قال: أشهد أن لا إِلّه إلا الله (وأشهد أنَّكَ رسول الله)[٢] يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهُت[٣]، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يَبْهَتُوني. فجاءت اليهودُ، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أيُّ رجل عبد الله بن سَلَام فيكم»؟ قالوا: خيرُنا وابنُ خيرنا، وسيدُنا وابن سيدِنا. قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام». فقالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إِلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا. فانتقَصُوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

انفرد به البخاري[٤] من هذا الوجه، وقد أخرجاه[٥] من وجه آخر، عن أنس بنحوه. وفي صحيح مسلم، عن ثوبان مولى رسول الله ـ ﷺ ـ قريبٌ من هذا السياق، كما سيأتي في موضعه إنْ شاء الله.

وحكايةُ البخاريّ عن عكرمة ما تَقدَّم هو المشهور أنَّ «إيل» هو الله. وقد رواه سفيان الثوري، عن خصيف، عن عكرمة. [ورواه عَبدُ بن حُمَيد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة] ورواه ابن جرير، عن الحسين بن يزيد الطحان، عن إسحاق بن منصور، عن قَيس، عن عاصم، عن عكرمة، أنه قال: جبريل اسمه عبد الله، وميكائيل: عبيد الله. إيل: الله[٦].

ورواه يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله. وكذا قال غير واحد من السلف، كما سيأتي قريباً.

[٧]ـوقال الإمام أحمد في أثناء حديث سَمُرة بن جُنْدَب[٨]: حدَّثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: قال لي علي بن الحسين: اسم جبريل عبد الله، واسمُ ميكائيل عُبَيدُ الله ـ[٧].

ومن الناس مَن يقول: «إيل» عبارة عن عبدٍ[٩]، والكلمة الأخرى هي اسم الله، لأن كلمة «إيل» لا تتغير في الجميع، فوزانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل. فعبد موجودة في هذا كله، واختلفت الأسماءُ المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ونحو ذلك، [و]في كلام غير العرب يقدمون المضاف [إليه على[١٠] المضاف]، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير[١١]: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرةٍ جَرَت بين عمر بن الخطاب وبينهم في أمر النبي ـ ﷺ ـ. ذكر مَن قال ذلك:

حدَّثني محمد بن المثنى، حدَّثني رِبْعِي بن عُلَيَّة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، قال: نزل عُمَر

(١) عن الأصل، وليست في البخاري.
(٢) في الأصل: وأشهد أن محمداً رسول الله.
(٣) هو جمع بَهُوتٍ، بناء مبالغة من البهت، وهو الكذب.
(٤) البخاري، كتاب التفسير ٦/٢٣.
(٥) البخاري، كتاب مناقب الأنصار ٥/٧٩ ـ ٨٠، ومسلم، كتاب الحيض ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٦) تفسير الطبري ١/٤٣٧.
(٧) عن الأصل.
(٨) مسند الإمام أحمد ٥/١٥ ـ ١٦.
(٩) مكانها في الأصل: الكلمة.
(١٠) سقط من الأصل.
(١١) تفسير الطبري ١/٤٣٣.

الرَّوحاء[١]، فرأى رجالاً يبتدرُون أحجاراً يصلّون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعُمون أنّ رسول الله - ﷺ - صلّى ههنا. قال: فكره ذلك. وقال: إنما رسولُ الله - ﷺ - أدركته الصلاة بوادٍ فَصلاَّها ثم ارتحل، فتركه.

ثم أنشأ يحدِّثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مِدْرَاسهم[٢]، فأعجب من التوراة كيف تُصَدِّق الفرقانَ، ومن الفرقان كيف يُصَدِّق التوراةَ؟ فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابنَ الخطَّاب، ما من أصحابِك أحدٌ أحبُّ إلينا منك. قلت: ولِمَ ذلك؟ قالوا: أن تغشانا وتأتينا. قلت: إني آتيكم فأعجبَ من الفرقان كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان! قال: ومَرَّ رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبُكم فَالْحَقْ به. قال: فقلت لهم عند ذلك: نَشَدْتكم بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حَقّه واستودعكم من كتابه: أتعلمون أنه رسولُ الله؟ قال: فسكتوا. فقال لهم عالِمُهم وكبيرهم: إنه قد غَلَّظ[٣] عليكم فأجيبوه. فقالوا: فأنت عالِمنا وكبيرنا فأجبه أنت. قال: أما إذْ نَشَدْتَنا بما نشَدْتَنا به فإنّا نعلم أنه رسول الله. قال: قلت: ويحكم، فَأنّى هلكتم؟! قالوا: إنّا لم نهلك. قلت: كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله، [ثُمَّ] لا تتبعونه ولا تصدّقونه؟ قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسِلْماً من الملائكة، وإنه قرن بنبوته عَدُوَّنا من الملائكة. قال قلت: ومَن عدوُّكم ومن سِلْمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. [٤-][قال قلت: وفيم عاديتُم جبريلَ، وفيم سالمتم ميكائيل؟][-٤] قالوا: إن جبريل مَلِكُ الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب، ونحو هذا. وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيفِ، ونحو هذا. قال قلت: وما منزلتهما من ربهما عزّ وجل؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال قلت: فوالذي لا إله إلا هُوَ إنَّهما والذي بينهما لعدوٌّ لمن عاداهما وسِلْمٌ لمن سالَمهما، ما ينبغي لجبريلَ أن يُسالِمَ عَدُوَّ ميكائيل، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبريل.

قال: ثم قمت فاتبعت النبي - ﷺ - فلحِقْتُهُ وهو خارجٌ من خَوْخة[٥] لبني فلان، فقال: يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نَزَلْنَ قبل؟ فقرأ عليّ: ﴿مَن كان عدوّاً لجبريلَ فإنه نَزَّله على قَلْبك بإذن الله مُصدِّقاً لما بين يديه﴾ حتى قرأ هذه الآيات. قال قلت: بأبي وأُمي يا رسول الله، والذي بعثك بالحقِّ لقد جئتُ وأنا [أريد أن][٤] أُخبرك، فأسمعَ اللطيفَ الخبيرَ قد سبقني إليك بالخَبَر.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدَّثنا أبو أُسامة، عن مجالد، أنبأنا عامر، قال: انطلق عمر إلى اليهود، فقال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى: هل تجدون محمداً في كتبكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ فقال: إن الله لم يبعث رسولاً إلا جعل له من الملائكة كِفْلاً وإن جبريل كِفْل محمَّداً، وهو الذي يأتيه، وهو عَدُوّنا من الملائكة، وميكائيلِ سلمنا؛ لو كان ميكائيل هو الذي يأتيه أسلمنا. قال: فإني أنشُدُكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى: ما منزلتُهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله. قال عمر: وإني أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيلُ ليسالم عدوَّ جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدوَّ ميكائيلَ. فبينما هو عندهم إذ مَرَّ النبي - ﷺ - فقالوا: هذا صاحبُكَ يا ابنَ الخطاب: فقام إليه عمر، فأتاه، وقد أنزل الله - عزّ وجل - عليه: ﴿مَن كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾.

---

(١) الروحاء: منزل من عمل الفُرْع، والفُرْع: قرية من نواحي المدينة على طريق مكة.
(٢) في الأصل: مدارستهم. المدراس: المكان الذي يدرس فيه كتاب الله.
(٣) في تفسير الطبري: عَظُم.
(٤) عن تفسير الطبري.
(٥) هي باب صغير كالنافذة الكبيرة، وتكون بين بيتين ينصب عليها باب.

وهذان الإسنادان يدلّان على أن الشعبي حَدَّث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر، فإنه لم يدرك زمانه والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة، قال: ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود. فلما أبصروه(١) رَحَّبوا به، فقال لهم عمر: أما والله ما جئتُ لحبُّكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئتُ لأسمع منكم. فسألهم وسألوه. فقالوا: مَن صاحبُ صاحِبكم؟ فقال لهم جبريل. فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلِعُ محمَّداً على سِرِّنا، وإذا جاء جاء الحرب والسَّنَة، ولكن [صاحبُ] صاحِبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء الخصبُ والسِّلْمُ. فقال لهم عمر: تعرفون جبريلَ وتنكِرُونَ محمداً ـ ﷺ ـ؟! ففارقهم(٢) عمر عند ذلك. وتوجَّه نحو النبي ـ ﷺ ـ ليحدِّثه حَديثَهم، فوجده قد أُنزِلَتْ عليه هذه الآية: ﴿ قل مَن كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله ﴾(٣).

ثم قال: حدَّثني المثنى، حدَّثنا آدم، حدَّثنا أبو جعفر، عن قتادة، قال: بلغنا أن عُمَرَ أقبل إلى اليهود يوماً، فذكر نحوه.

وهذا أيضاً منقطع، وكذلك رواه أسباط، عن السديّ، عن عمر، مِثلَ هذا أو نحوه، وهو منقطع أيضاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا محمد بن عمار، حدَّثنا عبد الرحمن ـ يعني الدَّشْتكي ـ، حدَّثنا أبو جعفر، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أَنَّ يهودياً أتى عُمَر بن الخطاب، فقال: إن جبريلَ الذي يَذْكُر صاحِبُكم عدوٌّ لنا. فقال عمر: ﴿مَن كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين ﴾، قال: فنزلت على لسان عمر، رضي الله عنه.

وقال ابن جرير: حدَّثني يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا هشيم، أخبرنا حُصَين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى في قوله: ﴿مَن كان عدوّاً لجبريل﴾، قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان الذي ينزل عليكم لتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمةِ والغيثِ، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنقمة، فإنه عدوٌّ لنا. قال: فنزلت هذه الآية.

حدَّثني يعقوبُ قال: حدَّثنا هُشَيم، أخبرنا عبد الملك، عن عطاء، بنحوه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ قل مَن كان عدوّاً لجبريل ﴾، قال: قالت اليهود إن جبريلَ عدونا، لأنه ينزل بالشدَّةِ [والحرب](٤) والسَّنَة، وإن ميكائيلَ ينزلُ بالرخاءِ والعافيةِ والخِصْبِ، فجبريلُ عدوُّنا. فقال الله تعالى: ﴿ مَن كان عدوّاً لجبريل ﴾.

وأما تفسيرُ الآيةِ فقولُه تعالى: ﴿ قل مَن كان عدوّاً لجبريلَ فإنه نَزَّله على قلبك بإذن الله ﴾، أي: مَن عادى جبريل فَلْيعلم أنه الروحُ الأمينُ الذي نزل بالذكر الحكيم، على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسُول من رسل الله مَلَكِي ـ عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام ـ [و]مَن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أنَّ مَن (٥-[آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من]-٥) كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يُفَرِّقوا بين الله ورسله،

(١) في الأصل، انصرفوا.
(٢) في الأصل: لقارئكم عند ذلك.
(٣) تفسير الطبري ١/٤٣٤.
(٤) عن تفسير الطبري.
(٥) سقط من الأصل.

ويقولون: نؤمنُ ببعضٍ ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ فحكم عليهم بالكفر المحقق، إذْ آمنوا ببعض الرسل وكَفَرُوا ببعضهم، وكذلك مَن عادى جبريل فإنه عدوٌّ لله، لأن جبريل لا ينزل بالآمر من تلقاءِ نفسه، وإنما ينزلُ بأمر ربِّه كما قال: ﴿وما نتنَزَّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربّك نسياً﴾ وقال تعالى: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين ﴾. وقد روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ عادَى لي وَلِيّاً فقد بارَزَني بالحَرْب[1]. ولهذا غَضِبَ الله لجبريل على مَن عاداه، فقال: ﴿ مَن كان عدوّاً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي: مِنَ الكتب المتقدمة ﴿ وهُدًى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي: هدًى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْر، وهو عليهم عمى، أولئك ينادَون من مكانٍ بعيدٍ ﴾. وقال تعالى: ﴿ ونُنَزِّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ مَن كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال، فإن الله عدوٌّ للكافرين ﴾، يقول تعالى: مَن عاداني وملائكتي ورسلي، ورسله يشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾. ﴿ وجبريل وميكال ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة، ثم عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر، لأن السياق في الانتصار لجبريل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبريلَ عدوُّهم وميكائيلَ وليُّهم، فأعلمهم أنه مَن عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً، لأنه أيضاً ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قُرن برسول الله ـ ﷺ ـ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالقَطْر والنباتِ، هذاك بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكَّلٌ بالصور للنفخ للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا قام من الليل يقول: «اللَّهُمَّ ربَّ جبريلَ وإسرافيلَ وميكائيلَ، فاطِرَ السمواتِ والأرض، عالِمَ الغيبِ والشهادةِ، أنت تحكُم بين عِبادِكَ فيما كانوا فيه يختلِفُونَ، اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تَهدِي مَنْ تشاءُ إلى صراطٍ مستقيم»[2].

وقد تقدم ما حكاه البخاري، ورواه ابن جرير، عن عكرمة أنه قال: جَبْر، وميك. وإسراف: عَبْدٌ. وإيل: الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن سنان، حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عُمَير مولى ابن عباس، عن ابن عباس. قال: إنما قولُه «جبريل» كقوله «عبد الله» و«عبد الرحمن». وقيل: جبر: عبد. وإيل: الله.

وقال محمد بن إسحاق، عن الزُّهري، عن علي بن الحسين، قال: أتدرون ما اسمُ جبريل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبيد الله. وكلّ اسم مرجعُه إلى إيل، فهو إلى الله.

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق ١٣١/٨.

(٢) مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٥٣٤، وتحفة الأحوذي، أبواب الدعوات ٣٧٢/٩ ـ ٣٧٣، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٤٣١ـ ٤٣٢.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، ويحيى بن يعمر نحو ذلك. ثم قال: حدَّثني أبي، حدَّثنا أحمد بن أبي الحَوارِي، حدَّثني عبد العزيز بن عمير قال: اسم جبريل في الملائكة خادم الله. قال: فحدَّثت به أبا سليمان الداراني، فانتفض، وقال: لهذا الحديث أحبّ إليّ من كل شيء. وكتبه في دفتر كان بين يديه.

وفي جبريل وميكائيل لغاتٌ وقراءاتٌ، تذكَرُ في كتب اللغة والقراءات، ولم نُطَوِّل كتابنا هذا بِسَرْدِ ذلك، إلا أن يَدُور فَهمُ المعنى عليه، أو يرجعُ الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة، وهو المستعان.

وقوله تعالى: ﴿ فإن الله عدوٌّ للكافرين ﴾: فيه إيقاع المظهر مكان المضمر، حيث لم يقل: فإنه عدوٌّ للكافرين. بل قال: ﴿ فإن الله عدوٌّ للكافرين ﴾، كما قال الشاعر[١]:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيء   نَغَّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وقال آخر[٢]:

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائباً   كان الغرابُ مقطَّع الأوداج

وإنما أُظهِرَ الاسمُ ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهارِه، وإعلامِهم إنَّ مَن عادى أولياء الله فقد عادى الله، ومَن عادى الله فإنَّ الله عدوٌّ له، ومَن كان اللهُ عدوَّه فقد خَسِر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث: «مَن عادى لي وليّاً فقد بارزني بالحرب»[٣]. وفي الحديث الآخر: «إني لأثأرُ لأوليائي كما يَثْأَرُ الليثُ الحَرِبُ»[٤]. وفي الحديث الصحيح: «ومَن كنتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُه»[٥].

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بيِّنات ﴾ أي: أنزلنا إليك ـ يا محمد ـ علاماتٍ واضحاتٍ على نُبوَّتك، وتلك الآياتُ هي ما حواه كتابُ الله من خفايا علومِ اليهود،

(١) عديّ بن زيد، وهو من شواهد سيبويه ٦٢/١، والخصائص ٥٣/٣.

(٢) جرير، ديوانه ٧٣.

(٣) انظر. . .

(٤) حَرِبَ الرجلُ يحرَبُ حرباً: اشتدّ غضبه.

(٥) ابن ماجه، كتاب الرهون ٨١٦.

ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عمّا تَضَمَّنته كُتُبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارُهم وعلماؤُهُم، وما حَرَّفه أوائلهم وأواخرهم وبَدَّلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة. فأطلعَ اللهُ في كتابه الذي أنزله إلى نبيِّه محمد ـ ﷺ ـ، فكان في ذلك من أمره الآياتُ البيِّناتُ لمن أنصفَ نفسه، ولم يَدعهُ إلى هلاكها الحسدُ والبغيُ، إذ كان في فطرة كلّ ذي فطرةٍ صحيحةٍ تصديقُ مَن أتى بمثل ما جاء به محمد ـ ﷺ ـ من الآيات البيِّنات التي وَصَفَتْ من غيرِ تعلّم تعلمه من بَشَرٍ، ولا أخذَ شيءٌ منه عن آدمي. كما قال الضحاك، عن ابن عباس ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بيِّنات ﴾، يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غُدوةً وعَشِيَّةً، وبين ذلك، وأنت عندهم أُميّ لا تقرأ كتاباً، وأنت تُخبِرُهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله: في ذلك لهم عبرَةٌ وبيانٌ، وعليهم حجَّةٌ لو كانوا يعلمون[١].

وقال محمد بن إسحاق: حدَّثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: قال ابن صُوريا الفِطْيُوني لرسول الله ـ ﷺ ـ: يا محمد، ما جئتَنا بشيءٍ نعرفُه، وما أنزل الله عليه من آية بيِّنة فنتبعَكَ؟! فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ ولقد أنزلنا إليك آياتٍ بيِّنات وما يكفرُ بها إلا الفاسقون ﴾.

وقال مالك بن الصَّيفِ، حين بُعث رسولُ الله ـ ﷺ ـ وذكَّرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عَهِد إليهم في محمد ـ ﷺ ـ: والله ما عَهد إلينا في محمد ـ ﷺ ـ ولا أخذ علينا ميثاقاً. فأنزل الله: ﴿ أوَ كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ﴾.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾، قال: نَعَم، ليس في الأرض عَهْدٌ يعاهدون عليه إلا نَقَضُوه وَنَبذُوه، يعاهِدُون اليومَ وينقضُون غداً.

وقال السدّي: لا يُؤمِنُونَ بما جاءَ به محمَّدٌ ـ ﷺ ـ. وقال قتادةُ: نَبَذَه فريقٌ منهم، أي: نَقَضَه فريقٌ منهم.

وقال ابنُ جَريرٍ: أصل النَّبْذِ الطرحُ والإلقاءُ: ومنه سُمِّي اللَّقِيطُ منبوذاً، ومنه سُمِّي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء؛ قال أبو الأسود الدؤلي[٢]:

نـظرتُ إلـى عـنـوانـه فـنـبـذْتُـه كَنبـذِكَ نَعْلاً أَخْلَقَتْ من نعـالكـا

قلت: فالقومُ ذَمَّهم الله بنَبْذِهم العُهُودَ التي تَقَدَّمَ الله إليهم في التمسُّكِ بها والقيامِ بحقِّها. ولهذا أعقبَهم ذلك التكذيبَ بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناسِ كافَّةً، الذي في كتبهم نعتُه وصفتُه وأخبارُه، وقد أمروا فيها باتِّباعِه ومؤازرته ومناصرته، كما قال: ﴿ الذينَ يَتَّبعون الرسول النبيَّ الأميَّ الذي يَجِدُونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾... الآية. وقال ههنا: ﴿ ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدِّق لما معهم نَبَذَ فريق من الذين أُوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾، أي: اطَّرَحَ طائفةٌ منهم كتابَ الله الذي بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ـ ﷺ ـ وراء ظهورهم، أي: [تركوها]، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلّم السحر واتباعه. ولهذا أرادوا كَيْداً برسول الله ـ ﷺ ـ وسحَرُوه في مُشْطٍ ومُشَاقة وجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَر، تحت راعوفَةِ بئر ذي أَرْوان[٣]. وكان الذي تَولّى ذلك منهم رجلٌ، يقال له: لبيد بن الأعصم ـ لعنه الله ـ فأطلع الله

(١) تفسير الطبري ١/٤٤١.
(٢) ديوانه ٤٩.
(٣) المشاقة: هي المُشَاطَةُ، وهي الشعر الذي يسقط من الرأس عند التسريح بالمشط. والجُفّ: وعاء الطلع، وهو الغشاء الذي يكون فوقه. والراعوفة: صخرة تترك في أسفل البئر إذا احتضرت تكون ثابتة هناك، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقّي عليها. ويقال لها: راعوثة، بالثاء. وبئر ذي اروان بالمدينة في بستان بني زُرَيق.

على ذلك رسولَه ـ ﷺ ـ وشفاه منه وأنقذه، كما ثَبَت ذلك مبسوطاً في الصحيحين[١] من عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ كما سيأتي بيانه إن شاء الله، وبه الثقة.

قال السدّي: ﴿ ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدّق لما معهم ﴾، قال: لما جاءهم محمد ـ ﷺ ـ عارضوه بالتوراة فخاصَمُوه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة، وأخذوا بكتاب آصَفَ[٢]، وسحر هاروتَ وماروت، فلم يوافق القرآنَ، فذلك قولُه: ﴿ كأنهم لا يعلَمُونَ ﴾[٣].

وقال قتادةُ في قوله: ﴿ كأنَّهم لا يعلَمُون ﴾، قال: إن القوم كانوا يعلَمُون، ولكنهم نَبَذُوا عِلْمَهم، وكَتَمُوه وَجَحَدوا به.

وقال العَوفيّ في تفسيره، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ وما كفر سليمانُ ولكن الشياطين كفروا ﴾: وكان حين ذهبَ مُلْكُ سليمان ارتدَّ فِئَامٌ من الجن والإنس، واتبعوا الشهواتِ، فلما أَرجَعَ اللهُ إلى سليمانَ ملكَه، وقام الناس على الدين كما كان أوانَ سُليمانَ، ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه. وتوفي سليمان ـ عليه السلامُ ـ حِدْثانَ ذلك، فظهر الإنسُ والجنُّ على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتابٌ من الله نَزَل على سليمان وأخفاه عنّا. فأخذُوا به فجعلوه ديناً. فأنزل الله: ﴿ ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدِّق لما معهم نَبَذَ فريقٌ من الذين أُوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلُوا الشياطين ﴾ أي: الشهواتِ التي كانت، وهي المعازفُ واللعبِ، وكلُّ شيءٍ يَصُدُّ عن ذكر الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشجّ، حدَّثنا أبو أُسامة، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: كان آصفُ كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظمَ، وكان يكتُب كلَّ شيءٍ بأمر سليمان، ويدفنه تحت كرسيِّه، فلما مات سليمانُ أخرجَهُ الشياطينُ، فكَتَبُوا ﷺ بين كلِّ سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل به[١]. قال: فأكفره جُهَّالُ الناس وسبُّوه، ووقَفَ علماؤهم، فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد ـ ﷺ ـ: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾.

وقال ابن جرير: حدَّثني أبو السائب سَلْمُ بن جُنادة السَّوائي، حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن المنهال عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: كان سليمان ـ عليه السلام ـ إذا أراد أن يدخلَ الخلاءَ، أو يأتي شيئاً من نسائه، أعطى الجرادة[٤] ـ وهي امرأته ـ خاتمه. فلما أراد الله أن يبتلي سليمان ـ عليه السلام ـ بالذي ابتلاه به، أعطى الجرادة[٤] ذاتَ يوم خاتَمَهُ، فجاء الشيطانُ في صورةِ سُليمان فقال لها: هاتي خاتمي. فأخذه فَلَبِسَه. فلما لَبِسَه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال: هاتي خاتمي. فقالت: كَذَبْتَ، لستَ سليمان. قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلى به. قال: فانطلقت الشياطينُ فكتَبَتْ في تلك الأيام كتباً فيها سِحرٌ وكُفرٌ، ثم دفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها فقرءوها على الناس، وقالوا: إنما كان سَليمان يغلب الناسَ بهذه الكُتب. قال: فبرىءَ الناس من سليمان ـ عليه السلام ـ وأكفروه، حتى

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق ١٤٨/٤، ومسلم كتاب السلام ١٧١٩ ـ ١٧٢٠.
(٢) آصف: كاتب سليمان عليه السلام.
(٣) تفسير الطبري ٤٤٣/١.
(٤) في الأصل: الحرارة. والمثبت عن تفسير الطبري.

بعث الله محمداً - ﷺ - وأنزل عليه: ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطينَ كفرُوا ﴾[١].

ثم قال ابن جرير: حدَّثنا ابنُ حُمَيد، حدَّثنا جرير، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن عمران - وهو ابن الحارث - قال: بينا نحن عند ابن عباس - رضي الله عنهما - إذ جاء رجلٌ فقال له: منْ أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أيِّه؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبرُ؟ قال: تركتُهم يتحدَّثون أنَّ عليّاً خارجٌ إليهم. ففزع ثم قال: ما تقول؟ لا أبا لك! لو شعَرنا ما نكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه. أما إني سأحدّثكم[٢] عن ذلك: إنه كانت الشياطينُ يسترقُون السمعَ من السماء، فيجيءُ أحدُهم بكلمةِ حَقٍّ قد سَمِعها، فإذا جُرِّبَ منه صدقٌ كَذَبَ معها سبعينَ كِذْبَةً، قال: فَتَشْرَبُها قلوب الناس. فأطلع الله عليها سليمان - عليه السلام - فدفَنها تحت كرسيِّه. فلما تُوفِّي سليمان - عليه السلام - قام شيطانُ الطريق[٣]، فقال: أفلا أدلّكم على كنزه الممنَّع الذي لا كَنْزَ له مثلُه؟ تحت الكرسيِ. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحرُه فتناسخَها الأُمم، حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق، وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿واتبعوا ما تتلُوا الشياطينُ على ملكِ سليمانَ وما كفَر سليمانُ ولكن الشياطينَ كفرُوا ﴾[٤].

ورواه الحاكمُ في مُسْتَدركِهِ، عن أبي زكريا العَنْبرِيّ، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاقَ بن إبراهيمَ، عن جَريرٍ، به[٥].

وقال السدّي في قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلُوا الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ﴾. أي: على عَهْدِ سُلَيمان. قال: كانت الشياطينُ تصعد إلى السماء، فتقعُد منها مقاعدَ للسمعِ، فيستمعونَ من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم. فَتُحَدِّثُ الكهنةُ الناسَ فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمِنَتْهم الكهنةُ كذبوا لهم. وأدخلُوا فيه غيره، فزادوا مع كُلِّ كلمة سبعينَ كَلِمَةً، فاكتتب الناسُ ذلك الحديثَ في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أن الجنَّ تعلم الغيب. فَبَعَثَ سليمانُ في الناس، فجَمَعَ تلك الكتبَ فجعلَها في صندوق، ثم دفنها تحتَ كرسيِّه. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيعُ أن يدنُوَ من الكرسي إلا احترق. وقال: لا أسمعُ أحداً يذكر أنَّ الشياطين يعلمون الغيبَ إلا ضربتُ عنقَه. فلما ماتَ سليمان - عليه السلام - وذهبت العلماءُ الذين كانوا يعرفُونَ أمر سليمان، وخَلَف بعد ذلك خَلْفٌ، تمثّل شيطانٌ في صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بني إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه[٥] أبداً؟ قالوا: نعم. قال: فاحفِرُوا تحتَ الكرسيِّ. وذهب معهم فأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: ادنُ. قال: لا، ولكنني هاهنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني. فَحَفَرُوا فوجدوا تلك الكتُبَ. فلما أخرجوها قال الشيطانُ: إن سليمان إنما كان يَضْبِطُ الإِنسَ والشياطين والطيرَ بهذا السِّحرِ. ثم طار وذهب. وفشا في الناس أن سُلَيمانَ كان ساحراً، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتبَ، فلما جاء محمد - ﷺ - خاصموه بها، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿ وما كفر سليمان، ولكِن الشياطين كفروا ﴾[٦].

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألوا محمداً - ﷺ - زماناً عن أُمور من التوراة، لا يسألونَهُ عن شيءٍ من ذلك إلاّ أنزل الله تعالى عليه ما سألوه عنه فيخصِمُهم[٧]، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلمُ بما أنزَل الله إلينا منّا.

---

(١) تفسير الطبري ١/٤٤٩.

(٢) في الأصل: سأحدثك.

(٣) في تفسير الطبري: بالطريق.

(٤) تفسير الطبري ١/٤٤٩ - ٤٥٠. والمستدرك، كتاب التفسير ٢/٢٦٥.

(٥) أي: لا ينفدُ.

(٦) تفسير الطبري ١/٤٤٤ - ٤٤٥.

(٧) يقال: خاصمتُ فلاناً فخصمتُه أَخْصِمُه - بالكسر -: أي غلبته. والمراد هنا: أنه تكون له الحجة عليهم.

وإنهم سألوه عن السِّحر وخاصَمُوه به، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلكِ سليمانَ، وما كفر سُلَيمان ولكن الشياطين كفروا، يعلِّمون الناس السحر﴾. وإن الشياطين عَمَدوا إلى كتاب فكتبُوا فيه السِّحر والكهانة. وما شاء الله من ذلك، فدَفنُوه تحت مجلس سليمان، وكان ـ عليه السلام ـ لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمانُ الدنيا استخرجوا ذلك السحر، وخَدَعوا الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتُمه ويحسُدُهُ[1] الناس عليه. فأخبرهم النبي ـ ﷺ ـ بهذا الحديث، فرجعوا من عنده وقد حزِنُوا، وأدحض الله حجتهم[2].

وقال مجاهد في قوله: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾، قال: كانت الشياطين تَسْمَعُ الوحْيَ، فما سَمِعوا من كَلِمة زادوا فيها مائتين مثلَها. فَأَرْسَلَ سليمان ـ عليه السلام ـ إلى ما كتبوا من ذلك. فلما توفي سليمانُ وجدته الشياطين فعلَّمته الناس، وهو السحرُ.

وقال سعيد بنُ جُبَير: كان سُلَيمان ـ عليه السلام ـ تتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم، فيدفنه تحت كرسيِّه في بيت خزانته، فلم تقدِر الشياطين أن يصلوا إليه، فدَنَتْ إلى الإنس، فقالوا لهم: أتدرون العلم[3] الذي كان سُلَيمانُ يُسَخِّر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه في بيت خِزَانَته وتحت كرسيِّه. فاستثارتْهُ الإنسُ واستخرجوه فعملوا به[4]. فقال أهل الحِجَا: كان سُلَيمان يعمل بهذا وهذا سحرٌ. فأنزل الله تعالى على لسان نبيِّه محمد ـ ﷺ ـ براءةَ سليمان ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ واتبعوا ما تَتْلُوا الشياطينُ على مَلكِ سليمانَ، وما كفَرَ سُلَيمانُ ولكنّ الشياطينَ كفرُوا ﴾[5].

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عَمَدتِ الشياطينُ حينَ عرفت موتَ سُلَيمانَ بن داود ـ عليه السلام ـ فكتبوا أصنافَ السِّحر: «مَن كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فَلْيَقُلْ كذا وكذا». حتى إذا صَنَّفُوا أصنافَ السِّحر جعلوه في كتاب. ثم خَتَموا بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عُنْوانه: «هذا ما كتب آصفُ بن برخيا الصديقَ للملك سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ من ذخائر كنوز العلم». ثم دفنوه تحت كرسيِّه. واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل، حتى أحدثوا ما أحدثوا. فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان مُلْكُ سليمان بن داود إلاّ بهذا. فأفشوا السحر في الناس، وتعلَّموه وعلَّموه فليس هو في أحد أكثر منه في اليهود، لعنهم الله. فلما ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ فيما نزل عليه من الله، سليمانَ بن داودَ، وعَدَّه فيمن عَدَّه من المرسلين، قال مَن كان بالمدينة من يهود: ألا تعجَبُون من محمد! يزعم أن ابن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً. وأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان، ولكن الشياطين كفروا ﴾. . . الآية[6].

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا حسين، حدَّثنا الحجاج، عن ابي بكر، عن شَهْر بن حَوْشب، قال: لما سُلِبَ سليمانُ ـ عليه السلام ـ مُلْكه، كانت الشياطين تكتُبُ السِّحرَ في غيبة سليمان. فكتبت: «مَن أراد أن يأتي كذا وكذا فَلْيستقبلِ الشمسَ، وليقل كذا كذا. ومَن أراد أن يفعل كذا وكذا فلْيَسْتَدْبر الشمسَ، وليقل كذا وكذا». فكتبته وجعلتَ عنوانه: «هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمانَ من ذخائر كنوز العلم».

(١) في الأصل: ويحشر.
(٢) تفسير الطبري ١/٤٤٥.
(٣) في الأصل: أن العلم. والمثبت عن تفسير الطبري.
(٤) في الأصل: بها.
(٥) تفسير الطبري ١/٤٤٩.
(٦) تفسير الطبري ١/٤٤٦.

ثم دفنته تحت كرسيِّه. فلما مات سليمان ـ عليه السلام ـ قام إبليس ـ لعنه الله ـ خطيباً. ثُمَّ قال: يا أيها الناس، إن سليمان لم يكن نَبيّاً، إنما كان ساحراً، فالتمِسُوا سحرَه في متاعه وبيوته. ثم دلَّهم على المكان الذي دُفِنَ فيه. فقالوا: والله لقد كان سليمانُ ساحراً! هذا سحره، بهذا تَعَبَّدَنا، وبهذا قَهَرَنا، وقال المؤمنون: بل كان نبياً مؤمناً. فلما بعث اللهُ النبيَّ ـ ﷺ ـ [جعل يذكر الأنبياء حتى[(١)] ذكر داود وسليمان، فقالت اليهود: انظروا إلى محمد يَخلِطُ الحقَّ بالباطل؛ يذكرُ سليمان مع الأنبياء، إنما كان ساحراً يركب الريح، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾[(٢)] الآية.

وقال ابن جرير: حدَّثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، قال: حدَّثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران بن حُدَيرٍ، عن أبي مِجْلَز، قال: أخذ سُليمان ـ عليه السلام ـ من كل دابة عهداً، فإذا أُصيبَ رجلٌ فسأل بذلك العهد خُلِّي عنه، فزاد الناسُ السجعَ والسحرَ، وقالوا: هذا يعمل به سليمان. فقال الله تعالى: ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا عصام بن رَوّاد، حدَّثنا آدم، حدَّثنا المسعودِيّ، عن زياد مولى ابن مُصْعَبٍ، عن الحسن: ﴿واتَّبعوا ما تَتْلُوا الشياطينُ﴾ قال: ثلثُ الشعرُ، وثلثُ السِّحرُ، وثلث الكَهَانَةُ.

وقال: حدَّثنا الحسن بن أحمد، حدَّثنا إبراهيم بن عبد الله[(٤)] بن بشار الواسطي، حدَّثني سُرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن: ﴿واتَّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾، واتبعته اليهود على ملكه. وكان السحر قبل ذلك في الأرض، لم يَزَلْ بها، ولكنه إنما اتُّبِعَ على ملك سُلَيمانَ.

فهذه نُبذةٌ من أقوال أئمة السَّلَف في هذا المقام، ولا يَخفي مُلَخَّص القصة والجمعُ بين أطرافها، وأنه لا تعارضَ بين السياقات على اللبيب الفَهِم، والله الهادي.

وقوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ أي: واتبعت اليهود ـ الذين أُوتوا الكتابَ بعد إعراضِهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم الرسول محمداً ـ ﷺ ـ ما تتلُو الشياطينُ، أي: ما تَرْويه وتخبر به وتُحَدِّثه الشياطينُ على ملك سليمان. وعَدَّاه بعلى لأنه ضُمِّن تتلو: تكذب. وقال ابن جَرير: «على» ههنا بمعنى «في»، أي: تتلوا في ملك سليمان. ونقله عن ابن جُرَيج، وابن إسحاق[(٥)].

قلت: والتضمينُ أحسنُ وأولى، والله أعلم.

وقولُ الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «لقد كان السحر قبل زمان سليمانَ بن داود» صحيحٌ لا شكَّ فيه، لأن السَّحَرَةَ كانوا في زمان موسى ـ عليه السلام ـ وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ﴾ . . . الآية، ثم ذكر القصة بعدها، وفيها: ﴿ وقتل داود جالوتَ، وآتاه الله الملك والحكمة ﴾. وقال قوم صالح ـ وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام ـ لنبيِّهم صالح: ﴿ إنما أنت من المسحَّرين ﴾: أي المسحورين على المشهور.

وقوله تعالى: ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروتَ وماروتَ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن

---

(١) عن تفسير الطبري، ومكانه في الأصل: حين.
(٢) تفسير الطبري ١/٤٥٠ ـ ٤٥١.
(٣) تفسير الطبري ١/٤٤٩.
(٤) في الأصل: عبيد الله. وأثبتنا ما في تفسير ابن أبي حاتم، ولم أجد له ترجمة في الجرح.
(٥) تفسير الطبري ١/٤٤٨. وقال بذلك الفرَّاء من قبل في معانيه ١/٦٣.

فتنة فلا نكفر، فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه ﴾ اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية، أعني التي في قوله: ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾.

(١-قال القرطبي: ما: نافيةٌ، ومعطوفة على قوله: ﴿ وما كفر سليمان ﴾، ثم قال: ﴿ ولكن الشياطين كفروا، يعلّمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ﴾، وذلك أن اليهود ـ لعنهم الله ـ كانوا يزعمون أنه نَزَل به جبريل وميكائيل، فأكذبَهم الله في ذلك، وجعل قوله: ﴿ هاروت وماروت ﴾ بدلاً من الشياطين، قال: وصحّ ذلك إما لأن الجمع يُطلَقُ على الاثنين، كما في قوله: ﴿ إنْ كان له إخوة ﴾، أو يكون لهما أتباع أو ذُكِرَا من بينهم لتمرُّدِها فتقديرُ الكلامِ عنده: (يُعلّمون الناس السحرَ ببابل هاروتَ وماروتَ)، ثم قال: وهذا أولى ما حُمِلت عليه الآية، وأصحّ، ولا يُلْتَفَتُ إلى ما(٢) سواه-١).

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وما أُنزل على الملكين ببابلَ هاروت وماروت ﴾ يقول: لم يُنزل الله السحر. وبإسناده، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿ وما أُنزل على الملكين ﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر(٣).

قال ابن جرير: فتأويلُ الآية على هذا: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السِّحرَ على الملكين، ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر ببابل هاروتَ وماروتَ. فيكون قولُه ببابل هاروت وماروت من المؤخَّر الذي معناه المقدم.

قال: فإن قال لنا قائلٌ: وكيفَ وجهُ تقديم ذلك؟

قيل: وجهُ تقديمه أن يقال: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملكِ سُلَيمانَ﴾ وما كفر سليمان، وما أنزل الله على الملكين، ولكن الشياطينَ كفروا يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ، لأن سَحرَةَ اليهود ـ فيما ذُكِرَ ـ كانت تزعُم أن الله أنزل السحرَ على لسان جبريل وميكائيل إلى سُلَيمانَ بن داود، فأكذَبَهُم الله بذلك، وأخبر نبيّه محمداً ـ ﷺ ـ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان ـ عليه السلام ـ مما نَحَلُوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلّم الناس ذلك ببابلَ، وأن الذين يُعلّمونهم ذلك رجلان، اسم أَحَدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فيكون هاروتُ وماروتُ على هذا التأويل ترجمةً عن الناس، ورداً عليهم(٤).

هذا لفظه بحروفه(٣).

وقد قال ابن أبي حاتم: حُدِّثْتُ عن عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا فُضَيل بن مرزوق، عن عَطِية ﴿ وما أُنزل على الملكين ﴾ قال: ما أَنْزَلَ الله على جبريلَ وميكائيل السِّحْرَ.

وحدَّثنا الفضل بن شاذان، حدَّثنا محمد بن عيسى، حدَّثنا يعلى ـ يعني ابن أسد ـ حدَّثنا بكر ـ يعني ابن مصعب حدَّثنا الحسن بن أبي جعفر: أن عبد الرحمن بن أبزى كان يَقْرَؤُها: ﴿ وما أنزل على المَلِكين داودَ وسليمانَ ﴾.

---

(١) عن الأصل.

(٢) تفسير الطبري ٢/٥٠.

(٣) تفسير الطبري ١/٤٥٢.

(٤) يقصد بالترجمة والردّ مصطلح البدل النحويّ.

وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: عَلِما الإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهي. رواه ابن أبي حاتم.

ثم شَرَع ابنُ جرير في رَدِّ هذا القول، وأن «ما» بمعنى الذي، وأطال القولَ في ذلك، وادَّعى أن هاروت وماروت مَلَكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأَذِن لهما في تعليم السحرِ اختباراً لعباده وامتحاناً، بعد أن بيّن لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل، وادَّعى أن هاروت وماروت مُطِيعان في تعليم ذلك، لأنهما امتثلا ما أمِرَا به.

وهذا الذي سلكه غريب جداً! وأغرب منه قول مَن زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن، (كما زَعَمه ابن حَزْمٍ)[1].

وروى ابن أبي حاتم بإسناده، عن الضحاك بن مزاحم: أنه كان يقرؤُها ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ ويقول: هما عِلْجَانِ[2] من أهل بابل.

وَوَجَّه أصحابُ هذا القولِ الإنزال بمعنى الخَلْق، لا بمعنى الإيحاء، في قوله: ﴿ وما أُنزل على الملكين ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ ﴿ويُنَزِّلُ لكم من السماءِ رِزْقاً﴾. وفي الحديث: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء»[3]. وكما يقال: أنزل الله الخير، والشر.

[1]-وحكى القرطبيّ، عن ابن عباس، وابن أَبْزَى، والضحاك، والحسن البصري: أنهم قرءُوا: ﴿ وما أنزل على المَلِكين ﴾ ـ بكسر اللام ـ قال ابن أبزى: وهما داود وسليمان. قال القرطبي: فعلى هذا تكون ما نافية أيضاً-[1].

وذهب آخرون إلى الوَقْفِ على قوله: ﴿ يُعَلِّمون الناس السحر ﴾، قال ابن جرير:

حدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا الليث، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، وسأله رجلٌ عن قولِ الله تعالى: ﴿ يُعَلِّمون الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾، قال الرجل: يعلِّمان الناس السحر، ما أنزل عليهما، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أُبالي أيّتهما كانت.

ثم روى عن يونس، عن أنس بن عياض، عن بعض أصحابه: أن القاسم قال في هذه القصة: لا أُبالي أيَّ ذلك كان، إني[4] آمنت به.

وذهب كثيرون من السلف إلى أنهما كانا مَلَكين من السماء، وأنهما أُنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده كما سنورده إن شاء الله تعالى. [5]-(وقد حكاه القرطبيّ عن علي، وابن مسعود، وابن عُمَر، وكعب الأحبار، والسدّي، والكلبي)-[5].

ذكر الحديث الوارد في ذلك ـ إن صحّ سنده ورفعه ـ وبيان الكلام عليه.

---

(١) عن الأصل.

(٢) العِلْج: الرجل من كُفّار العجم.

(٣) ابن ماجه، كتاب الطب ١١٣٨.

(٤) في تفسير الطبري ١/٤٥٤: إلا أني آمنت به.

(٥) عن الأصل. ومكانه في الطبعة السابقة.

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ في مسنده: «حدَّثنا يحيىٰ بن [أبي][1] بُكَير، حدَّثنا زهير بن محمد، عن موسى بن جُبَير، عن نافع، عن عبد الله بن عُمَر: أنه سمع نبي الله ـ ﷺ ـ يقول: إن آدم ـ عليه السلام ـ لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أيْ رَبِّ، ﴿ أتجعل فيها من يُفسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدماءَ، ونحن نُسَبِّح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون ﴾، قالوا: ربَّنا، نحن أَطْوَعُ لك من بَنِي آدمَ. قال الله تعالى للملائكة: هَلُمّوا مَلَكين من الملائكة حتى نُهبِطَهما إلى الأرض، فَنَنظُرَ كيف يَعملان؟ قالوا: رَبَّنا، هاروتَ وماروتَ. فأُهبِطَا إلى الأرض ومُثِّلت لهما الزُّهَرَة امرأةً من أحسنِ البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تَتَكَلَّما بهذه الكلمة من الإشراك. فقالا: والله لا نُشرِكُ بالله شيئاً أبداً. فذَهَبَتْ عنهما، ثم رَجَعت بصبيٍّ تحمِلُه، فسألاها نَفْسَها. فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصَّبي. فقالا: لا، والله لا نقتله أبداً. ثم ذهبت فرجعت بقَدَح خَمْرٍ تَحمِلُه، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تَشْرَبا هذا الخمر. فَشَرِبا فَسَكِرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي. فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتُما شيئاً أَبَيتُماه عَلَيَّ إلا وقد فعلتماه حين سكرتما: فَخُيِّرا بين عذابِ الدنيا وعذابِ الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا»[2].

وهكذا رواه أبو حاتم بن حِبَّان في صَحِيحه، عن الحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيىٰ بن أبي بكير، به.

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذاالوجه، ورجالُه كلُّهم ثقاتٌ من رجال الصحيحين، إلا موسى بن جُبَير هذا، وهو الأنصاري السلمي مولاهم الحَذَّاء، رَوَى عن ابن عباس، وأبي أُمامة بن سهل بن حُنَيفٍ، ونافع، وعبد الله بن كعب بن مالك. وروى عنه ابنه عبدُ السلام، وبكر بن مُضَر، وزُهَير بن محمد، وسعيد بن سلمة، وعبد الله بن لَهِيعة، وعَمْرو بن الحارث، ويحيىٰ بن أَيّوب. ورَوَى له أبو داود، وابن ماجه، وذكره ابن أبي حاتم في كتابِ الجرح والتعديل، ولم يحك فيه شيئاً من هذا ولا هذا. فهو مستور الحال، وقد تَفَرَّد به عن نافع ـ مولى ابن عمر ـ عن ابن عمر، عن النبي ﷺ. وروى له متابع من وجه آخر، عن نافع، كما قال ابن مردويه.

حدَّثنا دَعْلَجُ بن أحمد، حدَّثنا هشام[3]، حدَّثنا عبد الله بن رجاء، حدَّثنا سعيد بن سلمة، حدَّثنا موسى بن سَرْجِس، عن نافع، عن ابن عمر: سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول. فذكره بطوله.

وقال أبو جعفر بن جَرير: حدَّثنا القاسم، حدَّثنا الحسين ـ وهو سُنَيد بن داود صاحب التفسير ـ حدَّثنا الفرج بن فَضَالة، عن معاوية بن صالح، عن نافع، قال: سافرتُ مع ابن عُمَر، فلما كان من آخر الليل قال: يا نافع، انظر، طلعت الحمراء؟ قلت: لا، مرتين أو ثلاثاً. ثم قلتُ: قد طلعت. قال: لا مرحباً بها ولا أهلاً؟ قلت: سبحانَ اللهِ! نجم مُسَخَّر سامع مطيع. قال: ما قُلت لك إلا ما سمعتُ من رسول الله ـ ﷺ ـ أو قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: إن الملائكة قالت: يا رب، كيف صبرُك على بني آدم في الخطايا والذنوب؟ قال: إني ابتليتهم وعافيتُكُم. قالوا: لو كنّا مكانَهم ما عَصَيناك. قال: فاختاروا مَلَكينِ منكم. قال: فلم يأْلوا جهداً أن يختاروا، فاختاروا هاروتَ وماروتَ[4].

وهذان أيضاً غريبان جداً. وأقربُ ما في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن

---

(1) عن المسند، وانظر تهذيب التهذيب ١١/١٩٠.
(2) مسند الإمام أحمد ٤/١٣٤.
(3) في الأصل: هشام بن علي بن هشام.
(4) تفسير الطبري ١/٤٥٨.

النبي ـ ﷺ ـ، كما قال عبد الرزاق في تفسيره، عن الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب، قال: ذكرت الملائكةُ أعمالَ بني آدم، وما يأتون من الذنوب، فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت. فقيل لهما: إني مرسلكما إلى بني آدم رسلاً، فليس بيني وبينكم رسول، انزلا لا تشركا بي شيئاً، ولا تزنيا، ولا تشربا الخمر. قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه.

رواه ابن جرير من طريقين، عن عبد الرزاق، به.

ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن عصام، عن مُؤَمَّل، عن سفيان الثوري، به.

ورواه ابن جرير أيضاً: حدَّثني المثنى، حدَّثنا المعلى ـ وهو ابن أسد ـ، حدَّثنا عبد الغزيز بن المختار، عن موسى بن عقبة، حدَّثني سالم أنه سمع عبد الله يُحدِّث، عن كعب الأحبار، فذكره(١).

فهذا أصحّ وأثبت إلى عبد الله بن عُمَر من الإسنادين المتقدمين، وسالمٌ أثبتُ في أبيه من مولاه نافع. فدار الحديث ورجع إلى نقل كعبِ الأحبار، عن كُتُب بنِي إسرائيلَ، والله أعلم.

ذكر الآثار الواردة في ذلك عن الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم أجمعين:

قال ابن جرير: حدَّثني المثنى، حدَّثنا الحجاج، حدَّثنا حماد، عن خالد الحَذَّاء، عن عُمَير بن سَعِيد، [قال]: سَمِعتُ علياً ـ رضي الله عنه ـ يقولُ: كانت الزُّهَرَةُ امرأةً جميلةً من أهل فارس، وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت، فراوداها عن نفسها، فأبت عليهما إلا أن يُعَلِّماها الكلامَ الذي إذا تَكَلَّم به المتكلم يَعْرج به إلى السماء. فَعَلَّماها فتكلمت، فَعَرَجَتْ إلى السماء، فَمُسِخَت كوكباً(٢).

وهذا الإسناد جَيِّدٌ وَرجاله ثقات، وهو غريبٌ جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا الفضل بن شاذان، حدَّثنا محمد بن عيسى، حدَّثنا إبراهيم بن موسى، حدَّثنا أبو معاوية، عن [ابن](٣) أبي خالد، عن عمير بن سعيد، عن علي قال: هما ملكان من ملائكة السماء. يعني ﴿ وما أُنزل على الملكين ﴾.

ورواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه في تفسيره بسنده، عنْ مغتِّب، عن مولاه جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جَدِّه، عن علي ـ مرفوعاً. وهذا لا يثبت من هذا الوجه.

ثم رواه من طريقين آخرين، عن جابر، عن أبي الطفيل، عن علي، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: لعن الله الزُّهرَة، فإنها هي التي فَتَنت الملكين هاروت وماروت. وهذا أيضاً لا يصح، وهو منكر جداً، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدَّثني المثنى بن إبراهيم، حدَّثنا الحجاج بن منهال، (حدَّثنا حماد)(٤)، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان النَّهدي، عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا جميعاً: لما كثر سوادُ بني آدم وعصَوا، دَعَت الملائكةُ عليهم والأرضُ والجبالُ: ربنا لا تُهمِلْهُم. فأوحى الله تعالى إلى الملائكة: إني أزلتُ الشهوةَ والشيطان من قلوبكم، ولو نزلتم لفعلتم أيضاً. قال: فحدَّثوا أنفسهم أن لو ابتُلوا اعتصموا. فأوحى الله إليهم أن

(١) تفسير الطبري ١/٤٥٧.
(٢) تفسير الطبري ١/٤٥٦.
(٣) عن تفسير ابن أبي حاتم، وهو إسماعيل بن أبي خالد، انظر تهذيب التهذيب ١/٢٩١.
(٤) سقط من تفسير الطبري، ولا بدّ منه.

اختاروا مَلَكين من أفضلكم. فاختاروا هاروتَ وماروتَ. فأهبطا إلى الأرض، وأنزلت الزُّهَرَة إليهما في أحْسن صورةِ امرأةٍ من أهل فارس يسمونها بيذخت قال: فوقعا بالخطيئة. فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا: ﴿ ربنا وسعت كل شيء رَحْمَةً وعلماً ﴾، فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن في الأرض، ألا إن الله هو الغفور الرحيم. فَخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختـارا عذاب الدنيا[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبد الله بن جعفر الرقي، أخبرنا عُبَيد الله ـ يعني ابن عَمْرو ـ عن زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال بن عمرو ويونس بن خَبَّاب، عن مجاهد، قال: كنتُ نازلاً على عبد الله بن عمر في سفر، فلما كان ذاتَ ليلةٍ قال لغلامه: انظر، طلعت الحمراء، لا مَرْحباً بها ولا أهلاً، ولا حيّاها الله، هي صاحبةُ المَلَكين. قالت الملائكة يا رب، كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام، وينتهكون محارمك، ويفسدون في الأرض؟! قال: إني قد ابتليتهم، فلَعَلّ إن ابْتَليتُكُمْ بمثل الذي ابتليتهم به فعلتم كالذي يفعلون. قالوا: لا. قال: فاختاروا من خياركم اثنين. فاختاروا هاروتَ وماروتَ. فقال لهما: إني مُهبطكما إلى الأرض، وعاهدٌ إليكما ألاّ تشركا ولا تزنيا ولا تخونا. فأُهبِطا إلى الأرض وأُلقي عليهما الشَّبَق، وأُهبِطَتْ لهما الزُّهَرَةُ في أحسن صورة امرأةٍ، فتعرَّضت لهما، فأراداها عن نفسها. فقالت: إني على دين لا يصحّ لأحد أن يأتيني إلا مَن كان على مثله. قالا: وما دينُكِ؟ قالت: المجوسية، قالا: الشرك! هذا شيءٌ لَا نَقْرَبه. فمكثَتْ عنهما ما شاء الله. ثم تَعَرَّضَت لهما فأراداها عن نفسها. فقالت: ما شئتما، غير أن لي زوجاً، وأنا أكره أن يطّلع على هذا منّي فأفتَضِحَ، فإن أقررتما لي بديني، وشرطتما لي أن تَصْعَدا بي إلى السماء فعلتُ. فأقرّا لها بدينها وأتياها فيما يريان، ثم صَعِدا بها إلى السماء، فلما انتهيا بها إلى السماء اختُطِفَت منهما، وقُطِعتْ أجنحتهما، فوقعا خائفين نادِمَين يبكيان، وفي الأرض نبي يدعو بين الْجُمُعَتين، فإذا كان يوم الجمعة أُجيب. فقالا: لو أتينا فلاناً فسألناه فَطَلَبَ لنا التوبةَ! فأتياه، فقال: رحمكما الله، كيف يطلُبُ أهلُ الأرضِ لأهل السماء؟! قالا: إنّا قد ابتلينا. قال: ائتياني يوم الجمعة. فأتياه، فقال: ما أجِبتُ فيكما بشيء، ائتياني في الجمعة الثانية. فأتياه، فقال: اختارا، فقد خُيِّرتما، إن أحببتُما معافاةَ الدنيا وعذابَ الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدنيا و[أنتما] يوم القيامةِ على حكم الله، فقال أحدهما: الدُّنيا لم يمضِ منها إلا القليل. وقال الآخر: ويحك؟ إني قد أطعتك في الأمر الأول فأطعني الآن، إن عذاباً يَفْنَى ليس كعذابٍ يبقى، وإننا يوم القيامة على حكم الله، فأخاف أن يُعذّبنا. قال: لا، إني أرجو إن علم الله أنّا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة ألاّ يجمَعهما علينا. قال: فاختارا عذاب الدنيا، فَجُعِلا في بَكَراتٍ من حديدٍ في قَلِيب مملوءةٍ من نار، عَالِيَهمَا سافِلَهما.

وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر. وقد تقدَّم في رواية ابن جَرير من حديث معاوية بن صالح، عن نافع، عنه، رفعه. وهذا أثبت وأصح إسناداً. ثم هو ـ والله أعلم ـ من رواية ابن عمر، عن كعب، كما تَقدَّم بيانه من رواية سالم عن أبيه. وقوله: إن الزُّهَرَةَ نزلت في صورة امرأة حسناء ـ وكذا في المروي عن علي ـ فيه غرابةٌ جداً.

وأقربُ ما ورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا عصام بن رَوَّاد، حدَّثنا آدم، حدَّثنا أبو جعفر، حدَّثنا الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما وقع الناسُ من بعد آدم ـ عليه السلام ـ فيما وَقَعُوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: يا ربِّ، هذا العالَم الذي إنما خَلَقْتَهم لعبادتك وطاعتك، وقد وَقَعُوا فيما

(١) تفسير الطبري ١/٤٥٦.

وَقَعُوا فيه ورَكِبُوا الكفر وقَتْلَ النفس وأَكْلَ مال الحرام، والزنا والسرقة وشرب الخمر. فجعلوا يدعُون عليهم، ولا يَعذِرُوهم، فقيل: إنهم في غَيْب. فلم يعذروهم. فقيل لهم: اختاروا منكم من أَفْضَلكم مَلَكين، آمرهما وأنهاهما. فاختاروا هاروتَ وماروتَ. فأهبطا إلى الأرض، وجَعَلَ لهما شهوات بني آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يُشركا به شيئاً، ونُهيا عن قتل النفس الحرام وأكل مال الحرام، وعن الزنا والسرقة وشُرْب الخمر.

فلبثا في الأرض زماناً يحكمان بين النَاس بالحقِّ وذلك في زمان إدريس عليه السلام. وفي ذلك الزمان امرأة حُسْنُها في النساء كحُسْنِ الزُّهَرَةِ في سائر الكواكب، وإنهما أتيا عليها فَخضعا لها في القول، وأراداها على نفسها، فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها، فسألاها عن دينها، فأخرجت لهما صنماً فقالت: هذا أعبده. فقالا: لا حاجةَ لنا في عبادة هذا. فذهبا فَغَبَرَا ما شاء الله. ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، ففعلت مثلَ ذلك. فذهبا، ثم أتيا عليها فراوداها على نفسها، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبُدا الصنمَ قالت لهما: اختارا إحدى الخلالِ الثلاثِ: إما أن تَعبُدَا هذا الصنم، وإما أن تَقتُلا هذه النفسَ، وإما أن تشرَبا هذا الخمر، فقالا: كل هذا لا ينبغي، وأهونُ هذا شربُ الخمر. فشربا الخمر فأخذت فيهما، فَوَقعا على المرأةِ، فخشيا أن يخبرَ الإنسانُ عنهما فقتلاه، فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء، فلم يستطيعا، وحِيلَ بينهما وبين ذلك، وكُشِفَ الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء. فَنَظَرتِ الملائكةُ إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كلَّ العجبِ، وعَرَفوا أنه مَن كان في غَيْب فهو أقلُّ خشيةً، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض، فَنَزَل: ﴿ والملائكة يُسَبِّحون بحمد ربهم ويستغفِرون لمن في الأرض ﴾. فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فقالا: أما عذابُ الدنيا فإنه ينقطع ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له. فاختارا عذاب الدنيا، فَجُعِلا ببابل، فهما يُعَذَّبان.

وقد رواه الحاكم في مستدركه مطوّلاً عن أبي زكريا العَنْبَري، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحق بن راهَوَيه، عن حَكّام بن سَلْمٍ الرازي، وكان ثقة، عن أبي جعفر الرازي، به. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[1]. فهذا أقرب ما روي في شأن الزُّهَرَة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا مسلم، حدَّثنا القاسم بن الفضل الحُدَّاني[2]، حدَّثنا يزيدُ ـ يعني الفارسي ـ عن ابن عباس: أن أهل سماء الدنيا أشرَفُوا على أهلِ الأرض، فرأوهم يعمَلون بالمعاصي، فقالوا: يا رب، أهل الأرض يعملون بالمعاصي. فقال الله: أنتم معي، وهم غُيَّب عني. فقيل لهم: اختاروا منكم ثلاثة، فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض، على أن يحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهم شهوة الآدميين، فَأمِرُوا ألاَّ يشربوا خمراً ولا يقتلوا نفساً، ولا يزنوا، ولا يسجدوا لوثَنٍ. فاستقال منهم واحد، فأقيل. فأُهبطَ اثنان إلى الأرض، فأتتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها: مناهية[3]. فَهَوِياها جميعاً، ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها، فأراداها فقالت لهما: لا، حتى تشربا خمريَ، وتقتلا ابن جاري، وتسجدا لوثني، فقالا: لا نسجدُ. ثم شَربا من الخمر، ثم قَتَلا، ثم سَجَدا. فأشرفَ أهلُ السماء عليهما. وقالت لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرتما. فأخبراها فطارت فمسخت جَمْرة. وهي هذه الزُّهَرَةُ، وأما هما فأرسل إليهما سليمانُ بنُ داود، فَخَيَّرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذابَ الدّنيا. فهما مُناطَانِ بين السماء والأرض.

وهذا السياقُ فيه زياداتٌ وإغرابٌ ونَكَارة. والله أعلم بالصواب.

(١) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٢) في الأصل: الحراني، بالراء. انظر التهذيب ٨/٣٢٩.

(٣) في تفسير ابن أبي حاتم: مناهيد.

وقال عبد الرزّاق: قال معمر: قال قتادة والزهري، عن عبيد الله بن عبد الله ﴿ وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾: كانا مَلَكين من الملائكة، فأُهبطا ليحكما بين الناس. وذلك أن الملائكة سخروا من حُكّام(١) بني آدم، فَحَاكمت إليهما إمرأةٌ، فحافا لها. ثم ذَهَبا يَصعَدان فحِيل بينهما وبين ذلك، وخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا.

وقال مَعْمَر: قال قتادة: فكانا يُعلِّمان الناسَ السِّحرَ، فأخذ عليهما ألّا يعلِّما أحداً حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر.

وقال أسباطُ عن السدِّي أنه قال: كان من أمر هاروتَ وماروتَ أنهما طعنا على أهل الأرض في أحكامهم. فقيل لهما: إني أعطيتُ آدم عشراً من الشهوات، فبها يَعصُونَني. قال هاروت وماروت: ربنا، لو أعطيتَنا تلك الشهواتِ ثم أنزلتَنا لحَكَمْنا بالعدل. فقال لهما: انزلا، فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر، فاحكما بين الناس. فنزلا ببابل دُنْباوَند، فكانا يحكمان، حتى إذا أمسيا عَرَجا، فإذا أصبحا هَبَطا، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصِمُ زوجَها، فأعجبهما حُسْنها ـ واسمُها بالعربية «الزُّهَرَة»، وبالنَّبطية «بيذخت»، وبالفارسية «أناهيد» ـ فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبني. قال الآخر: قد أردتُ أن أذكُرَ لك فاستحْيَيتُ منك. فقال الآخر: هل لك أنْ أذكُرَها لنفسها؟ قال: نعم ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنّا لنرجُو رحمةَ الله. فلما جاءَتْ تُخاصِمُ زوجَها ذَكَرا إليها نفسها، فقالت: لا، حتى تقضيَا لي على زَوجي. فَقَضَيا لها على زوجها، ثم واعدتها خَربةً من الخَرِب يأتيانها فيها، فأتياها لذلك. فلما أراد الذي يواقعها قالت: ما أنا بالذي أفعل حتى تخبراني بأيِّ كلام تَصعَدان إلى السماء، وبأي كلام تنزلان منها؟ فأخبراها، فتكلمت فَصَعِدت، فأنساها الله ما تنزل به فَثَبَتَتْ مكانها، وجعلها الله كوكباً. فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها، فقال: هذه التي فَتَنَتْ هاروت وماروت. فلما كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يُطيقا، فعرفا الهَلَكة، فَخُيِّرا بين عذاب الدنيا من عذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا، فعلّقا ببابل، وجعلا يُكَلِّمان الناس كلامَهما، وهو السحر(٢).

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: أمّا شأنُ هاروت وماروت، فإن الملائكةَ عَجِبت من ظلم بني آدم، وقد جاءتهم الرسلُ والكتبُ والبيِّناتُ، فقال لهم ربهم تعالى: اختاروا منكم مَلَكين أُنزلهما يحكمان في الأرض بين بني آدم، فاختاروا فلم يألوا إلاّ(٣) هاروت وماروت، فقال لهما حين أنزلهما: أعجبتما من بني آدم، ومن ظلمهم ومن معصيتهم، وإنما تأتيهم الرسل والكتب من وَرَاءَ وَرَاءَ، وأنتما ليس بيني وبينكما رسولٌ، فافعلا كذا وكذا، ودَعَا كذا وكذا، فأمرهما ونهاهما، ثم نزلا على ذلك ليس أحدٌ أطوعُ لله منهما، فحكما فعدلا. فكانا يحكمان النهارَ بين بني آدم، فإذا أمسيا عَرَجا. فكانا مع الملائكة، وينزلان حين يُصبحان فيحكمان فيَعْدِلان، حتى أُنزلت عليهما الزُّهَرَةُ في أحسَنِ صورةِ امرأةٍ تُخَاصم، فقضيا عليها. فلما قامت وَجَدَ كلُّ واحدٍ منهما في نفسه، فقال أحدهما لصاحبه: وجدتَ مثل الذي وجدتُ؟ قال: نعم. فبعثا إليها أن ائتينا نَقْضِ لك. فلما رجعت قالا وقَضَيا لها، فأتتهما فكشفَا لها عن عورتهما، وإنما كانت شهوتهما في أنفسهما، ولم يكونا كبني آدمَ في شهوةِ

(١) في تفسير الطبري ١/٤٥٢: أحكام.

(٢) تفسير الطبري ١/٤٥٧.

(٣) كذا في الأصل. وفي تفسير الطبري ١/٤٥٨: «فاختاروا هاروت وماروت». وكانت العرب تقول: لا آلوك إلا كذا، أي: لا أعطيك غيره، وقال الشاعر:

أخالدُ، لا آلوك إلاّ مُهنّداً وجِلْدَ أبي عِجْلٍ وثيقَ القبائلِ

أي: لا أعطيك إلا سيفاً وترساً من جلد ثور.

النساءِ ولذتها. فلما بَلَغا ذلك [واستحلاه](١) افتُتنا، فطارت الزَّهرةُ فرجَعت حيث كانت. فلما أمسيا عَرَجا فلم يؤذَن لهما، ولم تحملهما أجنحتهما. فاستغاثا برجل من بني آدم فأتياه، فقالا: ادع لنا ربك. فقال: كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء؟ قالا: سمعنا رَبَّك يذكرك بخير في السماء. فوعدهما يوماً وغداً يدعو لهما، فدعا لهما، فاستجيب له، فخُيِّرَا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فنظر أحدهما إلى صاحبه، فقال: تعلم أن أنواع عذاب [الله] في الآخرة كذا وكذا في الخلد، وتسع مرارٍ في الدنيا(٢) مثلها؟ فأمرا أن ينزلا ببابل، فثَمّ عذابهما. وزعم أنهما معلقان في الحديد مطويان، يصفقان بأجنحتهما.

وقد رُويت(٣) قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدّي والحسن وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقَصَّها خلقٌ من المفسرين المتقدمين والمتأخرين، وحاصلُها راجعٌ - في تفصيلها - إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديثٌ مرفوعٌ صحيحٌ متصلُ الإسنادِ إلى الصَّادق المصدوقِ المعصوم الذي لا يَنطِق عن الهوى، وظاهرُ القرآنِ إجمالُ القصَّة من غير بَسْطٍ ولا إطنابٍ فيها، فنحنُ نؤمن بما وَرَد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلمُ بحقيقةِ الحال.

وقد وَرَد أثر غريب وسياقٌ عجيب في ذلك أحببنا أن نُنَبِّه عليه، قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

حدَّثنا الربيع بن سليمان، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، حدَّثني هشام بن عُروة، عن أبيه، عن عائشة زوجِ النبي - ﷺ - أنها قالت: قدمت امرأة عليَّ من أهل دُومَةِ الجَنْدلِ، جاءت رسول الله - ﷺ - بعد موته حَدَاثَةَ ذلك(٤)، تسأله عن شيءٍ(٥) دخلت فيه من أمر السحر، ولم تعمل به، قالت عائشة - رضي الله عنها - لعروة: يا ابن أُختي، فرأيتُها تبكي حين لم تَجِدْ رسول الله - ﷺ - فيشفِيَها، كانت تبكي حتى إني لأرحَمُها، وتقول: إني أخاف أن أكون قد هَلَكتُ. كان لي زوج فغاب عني، فدخلت عليَّ عجوزٌ فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلْتِ ما آمُرك به فأجعلُه يأتيكِ. فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبتُ أحدَهما ورَكِبَتِ الآخَرَ، فلم يكن كشيء(٦) حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين مُعلَّقين بأرجلهما. فقالا: ما جاء بك؟ فقلت(٧): أتعلم السِّحرَ. فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري، فارجعي. فأبيت وقلت: لا. قالا: فاذهبي إلى ذلك التُّنور، فبُولي فيه. فذهبتُ ففَزِعتُ ولم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلتِ؟ فقلت: نَعَمْ. فقالا: هل رأيتِ شيئاً؟ فقلت: لم أرَ شيئاً. فقالا: لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، [فإنك على رأس أمرك](٨)، [فأبَيْتُ](٩) وأبيت. فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه. فذهبتُ فاقشعرَرْت، ثم رَجَعت إليهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: كذبت، لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فإنك على رأس أمرك فَأَبَتْ(٨) وأبيتُ. فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور، فبولي فيه. فذهبت إليه فبُلْتُ فيه، فرأيت فارساً مُقَنّعاً(٩) بحديد خرج مني، فذهب في السماءِ وغاب حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد

(١) عن تفسير الطبري. ولفظه: «واستحلاه وافتتنا طارت».
(٢) كذا في الأصل. وفي تفسير الطبري: «ومع الدنيا سبع مرات مثلها».
(٣) في الأصل: روى.
(٤) أي: أوله.
(٥) في الأصل: أشياء. والمثبت عن الطبري.
(٦) في الأصل: لي شيء. والمثبت عن الطبري.
(٧) في الأصل: «فقلنا: نتعلم».
(٨) عن الأصل، وليس في تفسير الطبري.
(٩) في الأصل: متعلقاً.

فعلت. فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيتُ فارساً مقنعاً خرج منّي فذهب في السماء، حتى ما أراه. فقالا: صدقتِ، ذلك إيمانُك خَرَجَ منك، اذهبي. فقلت للمرأة: والله ما أعلمُ شيئاً وما قالا لي شيئاً. فقالت: بلى، لم تريدي شيئاً إلا كان، خُذي هذا القمحَ فابذُري، فبَذَرْتُ، وقلتُ: أَطْلِعي. فَأَطْلَعَتْ[(١)]، وقلت: أَحْقِلِي فَأَحْقَلَتْ[(٢)]، ثم قلت: افركي فأفركَتْ[(٣)]. ثم قلت: أَيْبِسي فَأَيْبَسَتْ[(٤)]. ثم قلت: أَطْحِني فَأَطْحَنَتْ. ثم قلت: أَخْبزي فَأَخْبَزَتْ. فلما رأيتُ أني لا أُريدُ شيئاً إلا كان، سُقِطَ في يَدِي ونَدِمتُ ـ والله ـ يا أُمَّ المؤمنين ما فعلتُ شيئاً، ولا أَفعلُه أبداً.

ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن سُلَيمان، به مُطَوَّلاً، كما تقدم. وزاد بعد قولها «ولا أفعله أبداً»: فسألت أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ حَدَاثَةَ وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ وهم يومئذ متوافرون، فما دَرَوا ما يقولون لها، وكلُّهم هاب وخافَ أن يُفتِيَها بما لا يَعلَمُه، إلا أنه قد قال لها ابن عباس ـ أو بعض مَن كان عنده ـ لو كان أبواك حَيَّين أو أحدُهما؟

قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان. قال ابن أبي الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله. ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت [نَوكَى] أهل حُمْقٍ وَتَكَلُّف بغير عِلْم[(٥)].

فهذا إسنادٌ جيِّدٌ إلى عائشةَ رضي الله عنها.

وقد استَدلَّ بهذا الأثرِ من ذَهَبَ إلى أن الساحِرَ له تمكن في قلب الأعيان، لأن هذه المرأة بَذَرت واستغلت في الحال. وقال آخرون: بل ليس له قُدْرةٌ إلا على التخييل، كما قال تعالى: ﴿ سَحَروا أعيُنَ الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ وقال تعالى: ﴿ يُخَيَّل إليه من سِحْرهم أنها تسعى ﴾. واستدلَّ به على أنَ بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق، لا بابل دُنْباوَنْد، كما قاله السدي وغيره. ثم الدليل على أنها بابلُ العِراقِ ما قال ابن أبي حاتم.

حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن صالح، حدثني ابن وهب، حدثني ابن لَهِيعة ويحيى بن أزهر، عن عمار بن سعد المرادي، عن أبي صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: إن حَبيبي ـ ﷺ ـ نهاني أن أُصلّي ببابل، فإنها ملعونة.

وقال أبو داودَ: حدثنا سُلَيمَان بن داود، حدثنا ابن وهب، حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أَزْهَرَ، عن عَمَّار بن سعد المرادي، عن أبي صالح الغِفَاري: أن علياً مَرَّ ببابل، وهو يسير، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما بَرَزَ منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ـ ﷺ ـ نهاني أن أصلّي في المقبرَةِ، ونهاني أن أصلي بأرض بابل، فإنها ملعونة.

حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا ابن وهب، أخبرني يحيى بن أَزْهَرَ وابن لَهِيعَةَ، عن الحجاج بن شداد،

---

(١) في الأصل: اطلع فطلع. والمثبت عن تفسير الطبري. وأطلع الزرعُ: بدا.

(٢) والحَقْلُ: الزرع إذا استجمع خروجُ نباته. وقيل: هو إذا ظهر ورقه واخضرّ. وقيل: إذا كثُر ورقُه. وقيل: هو الزرع ما دام أخضر، وقد أحقَلَ الزرعُ، وأحقلت الأرضُ.

(٣) في الأصل: افتركي فافترك. والفَرْكُ: دلكُ الشيء حتى ينقلع قِشْرُه عن لبّه كالجوز وأَفْرَكَ الحبُّ: حان له أن يُفْرَك. وأفرك الزرعُ: إذا بلغ أن يفرك باليد.

(٤) أيبست الأرضُ: يَبِسَ بَقْلُها.

(٥) هذه الزيادة ليست في تفسير ابن أبي حاتم، وقال المحقق: «وهذه الزيادة ذكرها البيهقي [أي في سننه ٨/١٣٧] ولم تذكر في أصل المؤلف لدينا، ولعله ذكرها المؤلف في موطن آخر من كتابه».

عن أبي صالح الغِفاري، عن علي، بمعنى حديث سليمان بن داودَ، قال: فلما «خرج» مكان «برز»(١).

وهذا الحديث حَسَنٌ عند الإمام أبي داودَ، لأنه رواه وسَكَت عنه؛ ففيه من الفقه كراهيةُ الصلاةِ بأرض بابل، كما تكره بديار ثمود الذين نَهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن الدخول إلى منازلهم، إلا أن يكونوا باكين.

قال أصحابُ الهيئة: وبُعْدُ ما بين بابل، وهي من إقليم العراق، عن البحر المحيط الغربي، ويقال له: أوْقيانُوسُ سبعون درجة، ويُسَمُّون هذا طولاً، وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسامت لخط الاستواء، اثنان وثلاثون درجة. والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿ وما يُعلِّمان مِن أحدٍ حَتَّى يقولا: إنما نَحنُ فتنةٌ فلا تكفر ﴾.

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن قيس بن عباد، عن ابن عباس، قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السِّحرَ نَهياه أشدَّ النهي، وقالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما عَلِما الخير والشر، والكفر والإيمان، فعرفا أن السِّحْرَ من الكفر.

قال: فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطانَ فَعلَّمه، فإذا تَعلم خَرَج منه النور، فنظر إليه ساطعاً في السماء، فيقول: يا حسرتاه! يا ويله! ماذا صَنع(٢)؟.

وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نَعَمْ، أُنْزِل المَلكان بالسحر، ليُعَلِّما الناسَ البلاءَ الذي أراد الله أن يَبْتلِيَ به الناس، فأخذ عليهما الميثاق ألا يعلما أحداً حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفرْ(٣). رواه ابن أبي حاتم.

وقال قتادة: كان أخذ عليهما ألا يُعلِّما أحداً حتى يقولا: إنما نحن فتنةٌ ـ أي: بلاء ابتلينا به ـ فلا تَكْفُر.

وقال السدِّي: إذا أتاهما إنسانٌ يريد السحر، وعَظَاه، وقالا له: لا تكفر، إنما نحن فتنة. فإذا أبى قالا له: ائت هذا الرماد، فَبُلْ عليه. فإذا بال عليه خَرَجٍ منه نور فَسَطع حتى يدخلَ السماء، وذلك الإيمان. وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكلِّ شيء. وذلك غَضَبُ الله. فإذا أخبرهما بذلك عَلَّماه السحر، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾... الآية.

وقال سُنَيد، عن حَجَاج، عن ابن جُرَيج في هذه الآية: لا يجترىءُ على السحر إلا كافر.

وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر(٤):

وقَـد فُـتِـنَ الـنَّـاسُ فـي دِيـنِـهِـمْ وخَـلَّى ابنُ عَـفَّـانَ شـرّاً طَـويـلا

وكذلك قولُه تعالى إخباراً عن موسى ـ عليه السلام ـ حيث قال: ﴿ إنْ هيَ إلا فِتْنَتُك ﴾، أي: ابتلاؤُك واختبارُكَ وامتحانُك. ﴿ تُضِلّ بها مَن تشاء وتَهدِي من تَشاءُ ﴾.

وقد استدلَّ بعضُهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، ويُسْتَشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار:

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٠٥.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٣) بعده في تفسير ابن كثير: «وهما يفعلان، لا يُعلّمان أحداً حتى يقولا: (إنما نحن فتنة فلا تكفر). وأخشى أن يكون قد سقط هذا من تفسير ابن كثير.
(٤) هو ابن الغريرة الضبي، والبيت في تفسير الطبري ١/٤٦٢، والكامل للمبرّد ٧٣٧.

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همّام، عن عبدالله، قال: من أتى كاهناً أو ساحراً، فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد ـ ﷺ ـ[١].

وهذا إسناد صحيح[٢]، وله شواهد أخر.

وقوله تعالى: ﴿ فيتعلَّمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾، أي: فيتعلَّم الناس من هاروتَ وماروتَ من علم السِّحْرِ ما يتصرَّفُون به فيما يتصرَّفون فيه من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفَرِّقُونَ به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف. وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه، من حديث الأعمش، عن أبي سفيان طلحة بن نافع، عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الشيطان يَضَعُ عَرْشَه على الماء، ثم يبعثُ سراياه في الناس، فأقربُهم عندَه منزلةً أعظمُهم عنده فتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقول: ما زلتُ بفلانٍ حتى تركتُه وهو يقولُ كذا وكذا. فيقول إبليسُ: لا واللهِ ما صنعتَ شيئاً. ويجيءُ أحدُهم فيقولُ: ما تركتُه حتى فرَّقت بينه وبين زوجه. قال: فيُقَرِّبه ويدنيه ويَلْتزِمه، ويقول: نِعْم أنت»[٣].

رَجَّحَ [٤]-شيخنا أبو الحجاج المِزّي فتح النون، وراجعتُه، فثَبَتَ على ذلك، والمشهور عند النحاة الكسر، واحتج به بعضهم على جواز كون فاعلِ نِعْمَ [٥] مضمراً، وهو قليل-[٤].

وسببُ التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيَّل إلى الرجلِ أو المرأة من الآخر من سُوء منظر أو خُلُق أو نحو ذلك أو عقد[٦] أو بُغْضه، أو نحو ذلك من الأسبابِ المقتضيَة للفرقة.

والمرء عبارة عن الرجل، وتأنيثه[٧] امرأة، ويثني كل منهما ولا يجمعان، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿ وما هم بضارِّين به من أحد إلا بإذن الله ﴾، قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله. وقال محمد بن إسحاق: إلا بِتَخْلِيَةِ الله بينه وبين ما أراد. وقال الحسن البصري: ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾، قال: نَعَمْ، من شاء الله سَلَّطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يُسَلِّط، ولا يستطيعون ضَرَّ أحدٍ إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى. وفي رواية عن الحسن أنه قال: لا يَضُرُّ هذا السحرُ إلا مَن دَخَلَ فيه.

وقولُه تعالى: ﴿ ويتعلَّمون ما يضُرُّهم ولا ينفعُهم ﴾ أي: يضرُّهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره.

﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق﴾، أي: ولقد عَلِم اليهودُ الذين استبدَلُوا بالسِّحر عن مُتابعةِ الرسول ـ ﷺ ـ لَمَنْ فعل فعلهم ذلك أنه ما له في الآخرة من خلاق.

قال ابن عباس، ومجاهد، والسدّي: من نصيب. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ما له في الآخرة من جهة عند الله، وقال: وقال الحسن: ليس له دين.

وقال سعيد عن قتادة: ﴿ما له في الآخرة مِن خَلاقٍ﴾، قال: وقد عَلِم أهلُ الكتاب فيما عَهِدَ الله إليهم أنَّ

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الأدب ٢/٤٤٣.
(٢) في الطبعة السابقة: وهذا إسنادٌ جيد.
(٣) مسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٦٧.
(٤) عن الأصل.
(٥) أي فتح النون من نَعم، فيكون النصّ هكذا: «نَعَم، أنت» وتكون «نعم» حرف جواب لا تلك التي للمدح.
(٦) كذا، ولا أدري ما المراد بالعقد؟
(٧) في الأصل: «عن الرجل والأنثى ما تثنيته أمرات، ويثنى. . . .».

الساحر لا خلاقَ له في الآخرة.

وقولُه تعالى: ﴿ ولبئس ما شَرَوا به أنفُسَهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا واتقَوا لمثوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون ﴾، يقول تعالى: ولبئس البديلُ ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسُلِ لو كان لهم علمٌ بما وُعِظُوا به ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبةٌ من عند الله خير ﴾، أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورُسُلِه واتقوا المحارمَ، لكان مثوبةُ اللهِ على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورَضُوا به، كما قال تعالى: ﴿ وقال الذين أوتوا العلمَ ويلكُم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعَمِلَ صالحاً ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون ﴾.

وقد يُسْتَدلّ بقوله: ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا ﴾ من ذَهَب إلى تكفير الساحر، كما هو روايةٌ عن الإمام أحمد ابن حنبل وقولُ طائفةٍ من السلف. وقيل: بل لا يكفر. ولكن حَدّه ضَرْبُ عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد[١] بن حنبل رحمهما الله.

أخبرنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أنه سمع بجالة بن عَبَدَةَ يقول: كتب أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أن اقتلوا كلَّ ساحرٍ وساحرةٍ. قال: فقتلنا ثَلاثَ سواحِر.

وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً. وهكذا صح أن حفصة أمّ المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها فَقُتِلت. قال أحمدُ بن حنبلٍ: صَحَّ عن ثلاثة من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ في قَتْلِ الساحر.

ورَوى الترمذي من حديث إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جُنْدُبٍ الأزديّ أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «حد الساحر ضَرْبُه بالسَّيف»[٢].

ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وإسماعيل بن مسلم يُضَعَّف في الحديث، والصحيح: عن الحسن عن جُندُبٍ موقوفاً[٢].

قلت: قد رواه الطبراني من وجه آخر، عن الحسن، عن جُندُب، مرفوعاً. والله أعلم.

وقد رُوِي من طرق متعدِّدة أن الوليدَ بن عقبة كان عنده ساحرٌ يلعب بين يديه، فكان يضربُ رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناسُ: سبحان الله! يحيي الموتى! ورآه رجلٌ من صالِحِي المهاجرين[٣]، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه، وذَهَب يَلْعَب لَعِبه ذلك، فاخترَطَ الرجلُ سيفه فضرب عُنُق الساحِر، وقال: إن كان ساحراً فَلْيُحْيِ نفسه. وتلا قوله تعالى: ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحر وأنتُم تُبصِرُونَ ﴾. فَغَضِب الوليدُ إذْ لم يستأذنه في ذلك، فَسَجَنه ثم أطلقه، والله أعلم.

وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثني أبو إسحاق، عن حارثة قال: كان عند بعضِ الأمراء رجلٌ يلعَبُ، فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله، فقال: أراه كان ساحراً.

وحمل الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ قصة عمر وحفصة على سحْر يكون شركاً. والله أعلم وأحكم.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) تحفة الأحوذي، أبواب الحدود ٥/٢٧.
(٣) هوجندب بن كعب الأزدي ثم الغامدي، انظر ترجمته في أسد الغابة ١/٣٦١ ـ ٣٦٢.

فصـــل

حكى أبو عبدالله الرازيّ في تفسيره[١] عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السِّحر، قال: وربما كفَّروا من اعتقد وجودَه. قال: وأما أهل السّنة فقد جوّزُوا أن يقدِرَ الساحرُ أن يطيرَ في الهواء، ويقلِبَ الإنسانَ حماراً، والحمارَ إنساناً، إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عند ما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المُعَيَّنة، فأما أن يكونَ المؤثر في ذلك هو الفَلَك والنجومُ فلا، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة، ثم استدلّ على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿ وما هم بضارِّين به من أحدٍ إلا بإذن الله ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله - ﷺ - سُحِرَ، وأنْ السحر عَمِل فيه، وبقصة تلك المرأة مع عائشة - رضي الله عنها - وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر، قال: وبما[٢] يذكر في هذا الباب من الحكايات الكثيرة، ثم قال بعد هذا:

المسألة الخامسة في أن العلم بالسِّحر ليس بقبيح ولا محظور: اتفق المحقِّقون على ذلك، لأن العلم لذاته شريف، وأيضاً لعمومِ قوله تعالى: ﴿ قل: هل يستوي الذين يعلمُون والذينَ لا يعلمون ﴾؛ ولأن السحر لو لم يعلم لما أمكَن الفرقُ بينه وبين المعجزة، والعلمُ بكون المعجزِ مُعْجزاً واجبٌ، وما يتوقَّف الواجبُ عليه فهو واجبٌ؛ فهذا يقتضي أن يكون تحصيلُ العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً؟ هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة.

وهذا الكلامُ فيه نظر من وجوه:

أحدها: قولُهُ: «العلم بالسحرِ ليس بقبيح». إن عنى به ليس بقبيح عقلاً، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا، وإن عَنَى أنه ليس بقبيح شرعاً، ففي هذه الآية الكريمة تبشيعٌ لتعلم السحر، وفي الصحيح: من أتى عرّافاً أو كاهناً، فقد كَفَر بما أنزل على محمد». وفي السنن: «من عَقَدَ عُقْدَة ونَفَثَ فيها فقد سحر»[٣].

وقوله: «ولا محظور، اتَّفق المحقّقون على ذلك». كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث؟! واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نَصَّ على هذه المسألة أئمةُ العلماءِ أو أكثرُهم، وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله السحر في عموم قوله تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ فيه نظر؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعي، وَلِم قلتَ إن هذا منه؟ ثم تَرَقِّيه إلى وجوب تَعَلّمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به، ضعيف بل فاسد؛ لأن معظم معجزات رسولنا - عليه الصلاة والسلام - هي القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجزٌ لا يتوَقَّف على علم السحرِ أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابةَ والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرّقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يَعْلَمون السحر ولا تَعَلَّموه ولا عَلَّموه، والله أعلم.

ثم قد ذكر أبو عبدالله الرازي أنّ أنواع السحر ثمانية[٤]:

الأول: سحر الكَلْدَانِيِّينَ[٥] والكُشْدَانيين، الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيِّزَةِ، وهي السيارة، وكانوا يعتقدون أنها مُدَبِّرة العالم، وأنها تأتي بالخير والشر، وهم الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل - ﷺ -،

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ٣/٢١٣ - ٢١٤.
(٢) في الأصل: وما.
(٣) سنن النسائي، كتاب التحريم ٧/١٠٣.
(٤) انظر تفسير الفخر الرازي ٣/٢٠٦ وما بعدها.
(٥) في الأصل: الكذابين. وهما طائفتان في عبدة الكواكب، كما قال الفخر الرازي.

مُبْطلاً لمقالتهم ورِاداً لمذهبهم. وقد استقصى في «كتاب السرِّ المكتوم، في مخاطبة الشمس والنجوم» المنسوب إليه فيما ذكره القاضي ابن خلكان وغيره، ويقال: إنه تاب منه. وقيل: إنه صنفه على وجه إظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد. وهذا هو المظنون به، إلا أنه ذكر فيه طرائقهم في مخاطبة كُلّ من هذه الكواكب السبعة، وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه، وما يتنسكون به.

قال: والنوعُ الثاني: سحرُ أصحاب الأوهام والنفوس القوية، ثم استدلَّ على أَنَّ الوهم له تأثير، بأنَّ الإنسان يمكنه أن يمشيَ على الجِسْر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه. قال: وكما أجمعت الأطباء على نهي المَرْعُوف[1] عن النظر إلى الأشياء الحُمْر، والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت منطبعة[2] للأوهام.

قال: وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق.

وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «العين حَقّ، ولو كان شيء سَابَقَ القدر لسَبَقَتْهُ العين»[3].

قال: فإذا عَرَفْتَ هذا، فنقول: النفسُ التي تفعلُ هذه الأفاعيلَ قد تكونُ قويّةً جداً، فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانةِ بالآلاتِ والأدواتِ، وقد تكون ضعيفةً فتحتاجُ إلى الاستعانة بهذه الآلات. وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعليةً على[4] البدنِ شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات، صارت كأنها رُوح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم. وإذا كانت ضعيفةً شديدة التعلّق بهذه الذاتِ البدنية، فحينئذٍ لا يكونُ لها تصرّفٌ البتة إلا في هذا البدن. ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والانقطاع عن الناس والرياء.

قلت: وهذا الذي يشير إليه هو التصرُّف بالحال، وهو على قسمين: تارة يكون حالاً صحيحةً شرعيةً يتصرَّفُ بها فيما أمر الله ورسولُه ـ ﷺ ـ، ويترُكُ ما نَهى الله عنه ورسوله، وهذه الأحوالُ مواهبُ من الله تعالى وكراماتٌ للصالحين من هذه الأمة، ولا يُسمَّى هذا سحراً في الشرع. وتارة تكون الحالُ فاسدةً لا يمتثّلُ صاحبُها ما أمر الله ورسولُه ـ ﷺ ـ ولا يتصرَّف بها في ذلك. فهذه حالُ الأشقياءِ المخالفين للشريعة، ولا يدلّ إعطاءُ الله إيَّاهم هذه الأحوالَ على محبته لهم، كما أن الدجّال ـ لعنه الله ـ له من الخوارقِ للعاداتِ ما دلَّتْ عليه الأحاديثُ الكثيرةُ، مع أنه مذمومٌ شرعاً لعنه الله. وكذلك من شابهه من مخالفي الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وبسط هذا يطول جداً، وليس هذا موضعه.

قال: النوع الثالث من السحر: الاستعانةُ بالأرواح الأرضيَّة، وهم الجنُّ، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة. وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار وهم الشياطينُ. قال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، لما بينهما من المناسبة والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخل والتجريد. وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير.

---

(١) في الأصل: المرفوع.
(٢) في تفسير الرازي: مطبعة.
(٣) مسلم، كتاب السلام ١٧١٩.
(٤) في الأصل: مشتغلة عن البدن. والمثبت عن تفسير الفخر الرازي ٣/٢٠٩.

النوع الرابع من السّحر: التخيلاتُ، والأخذُ بالعيونِ والشّعبذةِ، ومبناه أنّ البصرَ قد يُخطِىءُ ويشْتَغِلُ بالشيء المعيَّن دون غيره، ألا ترى أن المشعبذَ الحاذقَ يُظهِرُ عَمَلَ شيءٍ يُذهِلُ أذهانَ الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استغرقهم[١] الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه، عمل شيئاً آخر عَمَلاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهرُ لهم شيءٌ آخرُ غير ما انتظروه. فيتعجَّبون، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرفُ الخواطر إلى ضدِّ ما يريد أن يعمله، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير[٢] ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله.

قال: وكُلَّما كانت الأحوالُ التي تُفيدُ حسنَ البصرِ نوعاً من أنواع الخلل أشدّ، كان العمل أحسنَ، مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جداً، أو مظلم، فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها بكلالها، والحالة هذه.

قلت: وقد قال بعضُ المفسرين: إن سحر السَّحَرةِ بين يَدَيْ فِرعونَ إنما كانَ من باب الشعبذةِ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلما أَلقَـوْا سَحَروا أعيُنَ الناسِ واسترهبوهم وجاءُوا بسحر عظيم ﴾، وقال تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إليه من سِحْرِهم أنها تَسْعَى ﴾ قالوا: ولم تكن تَسعَى في نفسِ الأمرِ. والله أعلم.

النوع الخامس من السحر: الأعمالُ العجيبةُ التي تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس في يده بوقٌ، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد. ومنها الصور التي تُصَوِّرها الرومُ والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكيةً.

إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل[٣]: قال: وكان سحرُ سَحَرةِ فرعونَ من هذا القبيل.

قلت: يعني ما قاله بعضُ المفسرين: أنهم عَمَدوا إلى تلك الحبال والعِصِيِّ، فحشَوها زئبقاً فصارَتْ تتلوَّى بسببِ ما فيها من ذلك الزئبق، فَيُخَيَّلُ إلى الرائي أنها تسعَى باختيارها.

قال الرازي: ومن هذا البابِ تركيبُ صندوقِ الساعاتِ، ويندرج في هذا الباب علم جَرِّ الأثقال بالآلات الخفيفة.

قال: وهذا في الحقيقةِ لا ينبغي أن يُعَدَّ من باب السحر، لأنّ لها أسباباً معلومةً يقينيّةً، من اطلع عليها قدر عليها.

قلت: ومن هذا القبيل حِيَلُ النصارى على عامّتهم، بما يُرُونَهم إياه من الأنوار، كقضية قُمَامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروجُ على العوام. وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعُون شملَ أصحابهم على دينهم، فَيَرَون ذلك سائغاً لهم. وفيه شُبَهٌ للجهلة الأغبياء من متعبدي الكَرّامية[٤]، الذين يرون جَوَازَ وضعِ الأحاديثِ في الترغيب والترهيب، فيدخلون في عِدَادِ من قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيهم: «من كَذَبَ عليَّ متعمِّداً فَلْيَتَبَوأْ مقعَدَهُ من النار»[٥]. وقوله: «حدثوا عني ولا تكذبوا [عَلَيّ] فإنه من يكذب عليّ يلج النار»[٦].

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان، وهو أنه سُمِعَ صوتُ طائرٍ حزينِ الصوت ضَعيفِ الحركةِ، فإذا

---

(١) في الأصل: استقر عندهم. والمثبت عن الفخر الرازي ٣/٢١١.

(٢) في الأصل: عن. والمثبت عمّا سبق.

(٣) في الأصل: التخاييل. والمثبت عن الفخر ٣/٢١٢.

(٤) هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام، وقد بلغوا اثنتي عشرة فرقة. انظر أخبارهم في الملل والنحل للشهرستاني ١/٩٩.

(٥) البخاري، كتاب العلم ١/٣٨، ومسلم، كتاب الزهد ٢٢٩٨ ـ ٢٢٩٩.

(٦) مسند الإمام أحمد ١/٨٣، ١٢٣، ١٥٠ عن علي بن أبي طالب. والبخاري، كتاب العلم ١/٣٨.

سمعته الطيور تَرِقّ له، فتذهبُ فَتُلقِي في وَكْره من ثَمَر الزيتون، ليتبلَّغ به، فعَمَد هذا الراهبُ إلى صنعة طائر على شكله، وتوصل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع في صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم، وعلق ذلك الطائر في مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحية، فيدخل إلى داخل هذه الصورة الريح، فَيُسْمَعُ صوتها كذلك الطائر في شكله أيضاً، فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة، ولا يدرون ما سَبَبُه؟ فَفَتَنهم بذلك، وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

قال الرازي: النوع السادس من السحر: الاستعانة بخواصّ الأدوية ـ يعني في الأطعمة والدهانات ـ قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد.

قلت: يدخل في هذا القبيل كثير ممن يَدّعي الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له، من مخالطة النيران، ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

قال: النوع السابع من السحر تعليقُ القلب، وهو أن يدعى الساحرُ أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتّفق أن يكونَ السامعُ لذلك ضعيفَ العقل قليلَ التمييز، اعتقد أنه حَقٌّ، وتَعَلّق قلبُه بذلك وحَصَل في نفسه نوعٌ من الرَّهَبِ والمخافة، فإذا حصل الخوفُ ضَعُفَت القُوَى الحساسة، فحينئذ يتمكّن الساحِرُ أن يفعل ما يشاء.

قلت: هذا النمطُ يقال له التَّنَبْلَةُ، وإنما يَروجُ على الضعفاء العقول من بني آدم. وفي علم الفِرَاسَةِ ما يُرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المُتَنْبِلُ حاذقاً في علم الفراسة عُرِف مَن ينقاد له مِنَ الناس مِنْ غيرِه.

قال: النوع الثامن من السحر: السعيُ بالنميمة والتضريبُ[1] من وجوه خفيفةٍ لطيفةٍ، وذلك شائعٌ في الناس.

قلت: النميمةُ على قسمين، تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين، فهذا حرامٌ متفق عليه، فأما إذا كانت على وجه الإصلاح وائتلافِ كَلِمة المسلمين، كما جاء في الحديث: «ليس بالكَذّاب من يَنِمّ خيراً»، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب، كما جاء في الحديث: «الحرب خُدْعة»[2]، وكما فعل نُعَيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قُرَيظة، جاء إلى هؤلاءِ فنَمَى إليهم عن هؤلاء كلاماً، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخرَ، ثم لأَم بين ذلك، فتناكرتِ النفوسُ وافترقَتْ. وإنما يحذو على مثلِ هذا الذكاءُ والبصيرةُ النافذةُ. والله المستعان.

ثم قال الرازي: فهذه جملةُ الكلامِ في أقسامِ السحر وشرح أنواعه وأصنافه.

قلت: وإنما أدخَل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فَنّ السحر، للطافة مداركها؛ لأن السحر في اللغة عبارة عما لَطُف وخفي سببه. ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحراً»[3]. وسمي السَّحُور لكونه يَقَعُ خفيّاً آخر الليل. والسَّحْر: الرئة، وهي محل الغذاء، وسُمِّيت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاءِ البدنِ وغُضُونه، كما قال أبو جَهْلٍ يوم بدر لعُتبَة: انتفخ سَحْرُك. أي: انتفخت رئته من الخوف. وقالت عائشة رضي

(١) أي: الإغراء.
(٢) البخاري، كتاب الجهاد ٧٧/٤، ومسلم، كتاب الجهاد ١٣٦١ - ١٣٦٢.
(٣) البخاري، كتاب النكاح ٢٥/٧، ومسلم، كتاب الجمعة ٥٩٤.

الله عنها: توفي رسول الله ـ ﷺ ـ بين سَحْري ونَحْري. وقال تعالى: ﴿ سَحَروا أعين الناس ﴾، أي: أخفوا عنهم عملهم. والله تبارك وتعالى أعلم.

فصــل

وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن [هُبَيرة بـن] محمد بن هُبَيرة ـ رحمه الله ـ في كتابه: «الإشراف على مذاهبِ الأشراف» باباً في السحر، فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة، فإنه قال: لا حقيقة له عنده. واختلفوا فيمن يتعلّم السِّحرَ ويستعمله؛ فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يَكْفُر بذلك. ومن أصحاب أبي حَنيفة من قال: إنْ تَعَلَّمه لِيَتَّقيه أو ليجتَنِبه فلا يَكْفُر، ومن تَعَلَّمهُ مُعتَقِداً جوازَه أو أنه يَنْفَعُه كَفر. وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر. وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: إذا تعلّم السحر قلنا له: صِفْ لنا سِحْرَكَ. فإن وَصَفَ ما يُوجِبُ الكفرَ مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعةِ، وأنها تفعلُ ما يُلتَمَسُ منها، فهو كافر. وإن كان لا يوجِبُ الكفرَ فإن اعتقد إباحته فهو كافر.

قال ابن هُبَيرة: وهل يُقتَلُ بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نعم. وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا فأما إن قَتَلَ بسحره إنساناً فإنه يُقْتل عند مالك والشافعي وأحمد. وقال أبو حَنيفة: لا يُقتَلُ حتى يتكرَّرَ منه ذلك، أو يُقِرَّ بذلك في حَقّ شخص معين. وإذا قُتِل فإنه يُقْتَل حَدّاً عندهم إلا الشافعي، فإنه قال: يقتل ـ والحالة هذه ـ قصاصاً.

قال: وهل إذا تاب الساحر تُقْبَلُ توبته؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد ـ في المشهور عنهما ـ: لا تُقْبَلُ. وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: تقبَلُ. وأما ساحرُ أهلِ الكتاب فعندَ أبي حنيفة أنه يُقتَلُ، كما يقتل الساحِرُ المسلم، وقال مالك والشافعي وأحمد: لا يقتل. يعني لقصة لَبِيدِ بن أعصم.

واختلفوا في المسلمة الساحِرَةِ، فعند أبي حنيفةَ لا تُقتَلُ، ولكن تُحبَسُ. وقال الثلاثة: حكمُها حكمُ الرجلِ، والله أعلم.

وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي، قال: قَرَأ على أبي عبدالله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ عُمَرُ ابن هارون، حدثنا يونسُ، عن الزهريّ، قال: يُقتَلُ ساحِرُ المسلِمينَ ولا يُقتَلُ ساحِرُ المشركينَ، لأن رسول الله ـ ﷺ ـ سحرتْهُ امرأةٌ من اليهودِ فلم يَقتُلْها.

(١-وقد نقل القرطبي عن مالك ـ رحمه الله ـ أنه قال في الذمِّي إذا سَحَر: يُقتَلُ إن قتل بسحره. وحكى بن خُوَيزمَنْدَاد عن مالك روايتين في الذمّي إذا سَحَر، إحداهما: يُستتاب، فإن أسلم، وإلاّ قُتِل. والثانية: أنه يُقتَلُ وإن أسلم.

وأما الساحر المسلم فإن تَضَمَّن سحرُه كفراً كَفَر عند الأئمة الأربعة وغيرهم، لقوله تعالى: ﴿ وما يُعَلِّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر ﴾ لكن قال مالك: إذا ظَهَرَ عليه لم تُقْبَلْ توبتُه كالزِّنديق، فإن تاب قبل أن يَظْهَرَ عليه وجاءَنا تائباً قَبِلناه ولم نقتله، فإن قَتَلَ بسحره قُتِل. قال الشافعي: فإن قال: لم أتعمَّد القتل، فهو مخطىء تَجب عليه الدِّية.

مسألة: وهل يُسأل الساحرُ حل سحره؟ فأجازه سعيد بن المسيَّب، فيما نقله عنه البخاري. [و] قال عامر

(١ ـ ١) انظر تفسير القرطبي ٢/٤٧ ـ ٤٩.

الشعبي: لا بَأْسَ بالنُّشرة[١]، وكره ذلك الحسنُ البصريّ. وفي الصحيح عن عائشة قالت: يا رسول الله، هل نُشِرْتَ؟ فقال: أما الله فقد شفاني، وخَشِيت أن أفتح على الناس[٢] شرّاً.

وحكى القرطبي عن وَهْبٍ قال: يُؤْخَذُ سبع ورقات من سدْرٍ فَتُدَقّ بين حجرين، ثم تُضرب بالماء، ويقرأ عليها آيةُ الكرسي ويشرَبُ منها المسحورُ ثلاثَ حَسَوَاتٍ ثم يغتسل بباقيه، فإنه يُذْهِبُ ما به، وهو جيِّد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته[٣].

قلت: أنفع لما استعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله - ﷺ - في إذهاب ذلك، وهما المعوِّذتان، وفي الحديث: «لم يتعوذ المتعوِّذون بمثلها»[٤]. وكذلك قراءةُ آية الكرسي، فإنها مطردة للشيطان.

وقال أبو عبدالله القرطبي: وعندنا أن السحر حقٌّ، وله حقيقة يخلقُ الله عنده ما يشاء، خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفراييني من الشافعية حيث قالوا: إنه تمويهٌ وتخييلٌ. قال: ومن السحر ما يكونُ بخفَّةِ اليد كالشَّعْوَذَةِ، والشعوذي: البريدُ، لخفة سيره، قال ابن فارس: وليست هذه الكلمةُ من كلام أهل البادية[٧].

قال القرطبيّ: ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورُقىً من أسماء الله تعالى، وقد يكون من عهود الشياطين، ويكون أدويةً وأدخنة، وغير ذلك.

قال: وقوله عليه السلام: إن من البيان لسحراً يحتمل أن يكون مدحاً، كما تقوله طائفة - ويحتمل أن يكون ذماً للبلاغة، قال: وهذا أصح. قال: لأنها تُصوِّبُ الباطلَ حين يُوهِمُ السّامع أنه حقٌّ كما قال: فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجَّتِهِ من بعض، فاقضِيَ له...»[٥] الحديث[٦].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

نهى الله تعالى المؤمنين أن يَتَشبَّهوا بالكافرين في مَقالهم وفِعالهم، وذلك أنّ اليهود كانوا يُعَانُون من الكلام ما فيه تَوريةٌ لما يقصِدُونه من التنقص - عليهم لعائنُ الله - فإذا أرادوا أن يقولُوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يُوَرُّون بالرَّعونة، كما قال تعالى: ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مُسمَع وراعنا، ليّاً بألسنتهم، وطعناً في الدين، ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا، لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سَلَّموا إنما يقولون: السامُ عليكم. والسام هو: الموت. ولهذا أمرنا أن نَرُدّ عليهم بـ «وعليكم»[٧]. وإنه يُستجابُ لنا فيهم ولا يُسْتجابُ لهم فينا.

---

(١) النّشرة - بضم النون -: رقية يعالج بها المجنون والمريض.
(٢) البخاري، كتاب الطب ١٨٧/٧، ومسند الإمام أحمد ٩٦/٦.
(٣) تفسير القرطبي ٤٩/٢ - ٥٠.
(٤) سنن النسائي، كتاب الاستعاذة ٢٢٠/٨.
(٥) تفسير القرطبي ٤٤/٢ - ٤٦.
(٦) تفسير القرطبي ٤٥/٢.
(٧) البخاري، كتاب الأدب ١٤/٨، ومسلم، كتاب السلام ١٧٠٦.

والغرضُ: أن الله تعالى نهى المؤمنين عنها مشابَهَةِ الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تَقُولوا راعِنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، حدثنا حَسَّان بن عطية، عن أبي مُنيب الجُرَشي، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بُعِثْتُ بين يَدَيِ الساعةِ بالسيف، حتى يُعبد اللهُ وحدَه لا شريكَ له. وجُعل رِزْقِي تحتَ ظِلّ رمحي، وجُعِلت الذلَّةُ والصَّغارُ على من خالف أمرِي. ومن تَشَبَّه بقومٍ فَهُو منهم»(١).

وروى أبو داود، عن عثمان بن أبي شيبة، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، به: «من تَشَبه بقومٍ فهو منهم»(١).

ففيه دلالةٌ على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسِهِم وأعيادِهِم، وعبادتهم وغيرِ ذلك من أمورهم التي لم تُشرَعْ لنا ولم نُقَرّر عليها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبدالله بن المبارك، حدثنا مسعر، عن مَعْن وعون ـ أو أحدِهما ـ أن رَجُلاً أتى عبدالله بن مسعود، فقال: اعهَدْ إليّ. فقال: إذا سَمِعتَ الله يقولُ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فَأَرْعِها سَمْعك، فإنه خيرٌ يأمُرُ به، أو شرٌّ ينهى عنه.

وقال الأعمش، عن خيثمة، قال: ما تقرؤون في القرآن ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ فإنه في التوراة: «يأيها المساكين»(٢).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس [﴿ راعنا ﴾(٣)، أي: أرعنا سمعك].

وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ﴾. قال: كانوا يقولون للنبي ـ ﷺ ـ: أرْعِنا سمعك. وإنما ﴿ راعنا ﴾ كقولك: عاطنا(٢).

قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن أبي العالية، وأبي مالك، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، وقتادة ـ نَحْوُ ذلك.

وقال مجاهد: ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾: لا تقولوا خلافاً. في رواية: لا تقولوا: اسمع منا ونسمعُ منك.

وقال عطاء: ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾: كانت لُغة يقولها الأنصار، فنَهَى الله عنها(٤).

وقال الحسن: ﴿ لا تقولوا راعناً ﴾(٥)، قال: الراعن من القول السّخْرِيّ منه. نهاهُم الله أن يسخَروا من قول محمدٍ ـ ﷺ ـ وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روى عن ابن جُرَيج أنه قال مثله.

وقال أبو صَخْر: ﴿ لا تقولوا: راعنا، وقولوا: انظرنا واسمعوا ﴾، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أدبر ناداه

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٥٠، وسنن أبي داود، كتاب اللباس ٤٤/٤.
(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٣) سقط من الأصل. وانظر تفسير الطبري /٤٦٩.
(٤) تفسير الطبري ١/ ٤٧٠.
(٥) أي: بالتنوين، وهي قراءة الحسن، وقد وصفها الطبري ١/ ٤٧٢ بأنها مخالفة لقرّاء المسلمين فغير جائز لأحدٍ القراءةُ بها لشذوذها وخروجها من قراءة المتقدّمين والمتأخرين.

من كَانت له حاجة من المؤمنين، فيقول: أَرْعِنَا سَمْعَكَ. فأعظم الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يقال له ذلك [١].

وقال السدي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع، يدعى رفاعة بن زَيدٍ [٢]، يأتي النبي ـ ﷺ ـ فإذا لقيه فكلمه قال: «أَرْعِني سَمْعَكَ واسمع غير مُسْمَعٍ». وكان المسلمون يحسَبون أن الأنبياء كانت تفخَّم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع: غَيْرَ صاغرٍ. وهي كالتي في سورة النساء [٣]. فتقدَّم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، بنحو من هذا.

قال ابن جرير: والصوابُ من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ـ ﷺ ـ راعنا. لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه ـ ﷺ ـ نظير الذي ذكر عن النبي أنه قال: «لا تقولوا للعنبِ الكَرْمُ، ولكن قولوا: الحَبَلَة [٤]. ولا تقولوا: عَبْدِي، ولكن قولوا: فتاي. وما أشبه ذلك».

وقولهُ تعالى: ﴿ ما يَوَدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزَّلَ عليكم من خير من ربكم ﴾، يبين تعالى بذلك شدَّةَ عداوةِ الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حَذَّر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطَعَ المودَّة بينهم [وبينهم]. وينبِّهُ تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد ـ ﷺ ـ حيث يقول تعالى: ﴿ والله يختصّ بِرَحْمَتِهِ من يشاء، والله ذو الفَضْلِ العظيمِ ﴾.

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ ما ننسَخْ من آية ﴾: ما نُبَدِّلْ من آية.

وقال ابن جُرَيجٍ، عن مجاهدٍ ﴿ ما ننسَخْ من آية ﴾، أي: ما نَمْحُ من آية [٥].

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد ﴿ ما ننسَخْ من آيةٍ ﴾، قال: نُثْبت خَطَّها ونبدِّل حكمها. حَدَّث به عن أصحاب عبدالله بن مسعود [٦].

قال ابن أبي حاتم: وَرُوِي عن أبي العالية، ومحمد بن كعب القُرَظي، نحوُ ذلك.

وقال الضحاك ﴿ ما ننسخ من آية ﴾: ما نُنْسِكَ. وقال عطاء: أما ما نَنْسَخْ فما تُرِكَ من القرآن. قال ابن أبي حاتم، يعني تُرِك: لم يَنْزِلْ على محمد ـ ﷺ ـ.

وقال السدِّي: ﴿ ما ننسَخْ من آيةٍ ﴾ نسخُها: قبضُها. قال ابن أبي حاتم: يعني قبضها: رفعها، مثل قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وقوله: لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً.

وقال ابنُ جرير ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ ما ننقل من حُكْم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يُحوَّل الحلالُ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٢) في تفسير الطبري رفاعة بن زيد بن السائب. وعقب الطبري ٤٧١/١ بقوله: «هذا خطأ، إنما هو ابن التابوت، ليس ابن السائب».

(٣) الآية ٤٦ من سورة النساء.

(٤) الحبلة ـ بالباء مفتوحة، وربما سكنت ـ: الأصل أو القضيب من شجر الأعناب.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٦) تفسير الطبري ٤٧٥/١ وابن أبي حاتم.

حراماً، والحرامُ حلالاً، والمباحُ محظوراً، والمحظور مباحاً. ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخٌ ولا منسوخٌ. وأصل النسخ من نَسْخِ الكتاب، وهو نقله من نسخة [إلى](١) أخرى غيرها، فكذ لك معنى نسخ الحكم إلى غيره، إنما هو تحويله ونقل عبارته إلى غيرها. وسواء نسخ حكمها أو خطها، إذ هِيَ في كلتا حالتيها منسوخة.

وأما علماء الأصولِ فاختلفت عباراتهم في حد النَّسخ، والأمرُ في ذلك قريب، لأن معنى النسخ الشرعِيِّ معلوم عند العلماء، ولخَّص(٢) بعضهم أنه رفع الحكم بدليلٍ شرعي متأخر. فاندرج في ذلك نسخُ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ [لا] إلى بدل. وأما تفاصيل أحكامِ النسخ، وذكرُ أنواعِه وشروطِه فمبسوطٌ في فَنِّ أصول الفقه.

وقال الطبراني: حدثنا أبو شبيلٍ عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزُّهري، عن سَالِم، عن أبيـه، قال: قرأ رجلان سورةً أقرأهما رسول الله ـ ﷺ ـ فكانا يقرآن بها، فقاما ذاتَ ليلة يُصَلِّيان، فلم يقدرا منها على حرف واحد، فأصبحا غاديين على رسول الله ـ ﷺ ـ فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنها مما نُسِخَ وأُنْسِيَ، فَالْهَوْا عنها». فكان الزهريّ يقرؤهـا: ﴿ ما نُنْسَخْ من آية أو نُنْسِهَا ﴾، بضم النون خفيفةً(٣). سليمان بن أرقم ضعيف.

وقد (٤-رَوى ابنُ الأنباري عن أبيه، عن نَصْر بن داود، عن أبي عُبَيد، عن عبدالله بن صالح، عن الليث، عن يونس(٥) وعقيل، عن ابن شهاب، عن أبي أمامة بن سَهْلِ بن حُنَيف مثلَهُ مرفوعاً، ذكره القرطبي(٥)-٤).

وقولهُ تعالى: ﴿ أو ننسِها ﴾ فقرىء على وجهين: ننسأها ونُنْسِها. فأما من قرأها: نَنْسأها ـ بفتح النون والهمزة بعد السين ـ فمعناه: نُؤَخِرها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسأها ﴾ يقول: ما نبدل من آية، أو نتركها لا نُبدِّلها(٦).

وقال مجاهد عن أصحاب ابن مَسْعُود: ﴿ أو نَنْسَأْها ﴾ نثبت خطها ونبدل حكمها. وقال عُبَيْد بن عُمَير، ومجاهد، وعطاء ﴿أو ننسأها﴾: نُؤَخِّرها ونُرْجئها. وقال عطية العوفي ﴿أو ننسأها﴾: نؤخرها فلا نَنْسَخُها. وقال السدي مثله أيضاً، وكذا الربيع بن أنس. وقال الضحاك ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسأها ﴾: يعني الناسخ من المنسوخ. وقال أبو العالية ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسأها ﴾، أي: نؤخرها عندنا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادي، حدثنا خَلَف، حدثنا الخَفَّاف، عن إسماعيل ـ يعني ابن مسلم ـ عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: خَطَبنا عُمَر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ما نَنْسَخْ من آيةٍ أو ننسأها ﴾ أي: نؤخرها.

وأما على قراءة ﴿ أو نُنْسِها ﴾ فقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾، قال: وكان الله تعالى يُنسي نبيَّه ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

---

(١) في الأصل: عبارة. والمثبت عن تفسير الطبري.
(٢) في الأصل: وبحصى.
(٣) المعجم الكبير ١٢/٢٨٨.
(٤) عن الأصل.
(٥) في الأصل: «عن يونس وعبيد وعقيل». وأثبتنا نص القرطبي ٢/٦٣.
(٦) تفسير الطبري ١/٤٧٧.

وقال ابن جَرير: حدثنا سَوَّارُ بن عبدالله، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عوف، عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿ أو ننسها ﴾ قال: إن نبيكم ـ ﷺ ـ أقرىء قرآناً ثم نَسِيه[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا محمد بن الزبير الحراني، عن الحجاج ـ يعني الجَزَرِيّ ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبي ـ ﷺ ـ الوحيُ بالليل وينساه بالنهار، فأنزلَ الله عزّ وجلّ: ﴿ ما نَنْسَخْ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾.

قال أبو حاتم: قال لي أبو جعفر بن نفيل: ليس هو الحجاج بن أرطأة، هو شيخ لنا جَزَري.

وقال عُبَيد بن عمير: ﴿ أو ننسها ﴾: نرفعها من عندكم.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشيم، عن يعلى بن عطاء، عن القاسم بن ربيعة قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ: ﴿ ما نَنْسَخ من آيةٍ أو تُنْسَها ﴾ قال قلت له: فإن سعيد بن المسيِّب يقرأ ﴿ أوننسأها ﴾ قال فقال سعد: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ سنقرئك فلا تَنسى ﴾ ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾.

وكذا رواه عبد الرزاق، عن هشيم. وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي حاتم الرازي، عن آدم[2]، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، به. وقال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[3].

قال ابن أبي حاتم: ورُوِيَ عن مُحمَّد بن كعب، وقتادة، وعكرمة، نحو قول سَعِيدٍ.

قال الإمام أحمد: [حدثنا يحيى[4] بن سعيد]، حدَّثنا سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: قال عمر: عليٌّ أقضانا، وأبَيّ أقرؤنا، وإنا لنَدَعُ بعضَ ما يقول أُبَيٌّ، وأُبَيٌّ يقول: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول، فلن أدعه لشيء. والله يقول: ﴿ ما ننسخ من آية أو نُنْسِها[5] نأت بخير منهـا أو مثلها ﴾[6].

وقال البخاري: حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال عُمَر: أقرؤنـا، أبيّ، وأقضانا علي، وإنا لندَعُ من قول أبيّ، وذلك أن أبيّاً يقولُ: لا أدعُ شيئاً سَمِعتُه من رسول الله ـ ﷺ ـ. وقد قال الله: ﴿ ما نَنْسَخْ من آيةٍ أو نُنْسِهَا ﴾[7].

وقوله: ﴿ نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها ﴾ أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ نأت بخير منها ﴾، يقول: خيرٍ لكم في المنفعة، وأرفَقَ بكم.

وقال أبو العالية: ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ فلا نعمل بها ﴿ أو ننسأها ﴾ أي: نُرجِئُها عندنا، نأت بها أو نظيرها[8].

(١) تفسير الطبري ١/٤٧٦.
(٢) عن آدم: ليس في المستدرك.
(٣) المستدرك ٢/٢٢٤.
(٤) عن المسند.
(٥) في الأصل: ننساها. والمثبت ع المسند، وهو الموافق لقراءة عُمَر رضي الله عنه كما في الكشف المكي ١/٢٥٨.
(٦) مسند الإمام أحمد ٥/١١٣.
(٧) البخاري، تفسير سورة البقرة ٦/٢٣ ـ ٢٤.
وقوله: «وقد قال الله: ما ننسخ من آية أو ننسها» هو قولُ عمر، يردّ به على أُبيّ. انظر فتح الباري.
(٨) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

وقال السدّيّ: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾، [(١)يقول: نأت بخير من الذي نسخناه، أو مثل الذي تركناه.

وقال قتادة ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾](١)، يقول: آيةٌ فيها تخفيفٌ، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي.

وقولهُ: ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير. ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾. يُرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرِّفُ في خلقه بما يشاء، فله الخلقُ والأمر وهو المتصرِّف، فكما يخلقهم كما يشاء، ويُسعِدُ من يشاء، ويشقي من يشاء، ويُصِحّ من يشاء، ويُمرض من يشاء، ويُوفِّق من يشاء، ويَخْذُلُ من يشاء، كذلك يحكُم في عبادِهِ بما يشاء، فيحلّ ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء، ويُبيح ما يشاءُ، ويَحظُر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. فالطاعةُ كلُّ الطاعة في امتثالِ أمره واتباعِ رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وتَرْكِ ما عنه زَجَرُوا. وفي هذا المقام ردٌّ عظيمٌ وبيانٌ بليغٌ، لكفر اليهودِ وتزييفِ شُبَهتهِم ـ لعنهم الله ـ في دعوى استحالَةِ النَّسخِ إما عقلاً، كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تخرّصه آخرون منهم افتراء وإفكاً.

وقال الإمامُ أبو جعفر بن جرير ـ رحمه الله ـ: فتأويلُ الآيةِ: ألم تعلم ـ يا محمد ـ أن لي ملكُ السموات والأرض وسلطانُهما دونَ غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمرُ فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدّل وأغيّر من أحكامي التي أحكمُ بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقرّ فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبرُ وإنْ كان من الله تعالى خطاباً لنبيه ـ ﷺ ـ على وَجْهِ الخَبَر عن عظمته، فإنه منه تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجَحَدوا نبوة عيسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غيَّر الله من حكم التوراة. فأخبرُهم الله أنّ له ملكَ السمواتِ والأرض وسلطانَهما، وأن الخَلْقَ أهلُ مَمْلَكَتِه وطاعتِه، وعليهم السمعُ والطاعةُ لأمره ونهيِه، وأنّ له أمْرَهم بما يشاء، ونَهيَهم عَمّا يشاء، ونسخَ ما يشاءُ، وإقرارَ ما يشاء، وإنشاء(٢) ما يشاءُ من إقراره وأمره ونهيه.

قلت: الذي يحملُ اليهودَ على البحثِ في مسألة النَّسْخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء كما يفعلُ ما يريدُ، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحلَّ لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حَرَّم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أَكْلَ جميع الحيوانات، ثم نَسخ حِلَّ بعضِها، وكان نكاحُ الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها. [(٣)وأمر إبراهيم بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بِقَتْلِ مَنْ عَبَد العِجْلَ منهم، ثم رَفَعَ عنهم القتل. لئلا يستأصلهم القتل](٣). وأشياء كثيرة يطولُ ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويَصْدِفون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبةٍ لفظية، فلا تصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصودُ، كما في كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد ـ ﷺ ـ والأمر باتِّباعه، فإنه يُفِيدُ وجوبَ متابعته عليه السلام، وأنه لا يُقبلُ عَملٌ إلا على شريعته. وسواءٌ قِيلَ إن الشرائع المتقدمة مُغَيَّاة إلى بعثته عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ـ نسختها، فعلى كلّ تقديرٍ فوجوبُ اتباعِهِ مُعَيَّنٌ، لأنه جاء بكتابٍ هو آخرُ الكتبِ عَهْداً بالله تبارك وتعالى

---

(١) سقط من الأصل.

(٢) في تفسير الطبري ٤٨٣/١: «وإنساء ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه».

(٣) عن الأصل.

ففي (٢-هذا المقام بيَّن تعالى تقرير جواز النسخ، ردّاً على اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ حيث قال: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تَعْلَمْ أنَّ الله له ملكُ السموات والأرض، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾، فكما أنَّ له الملك بلا منازع كذلك له الحكم بما يشاء، ألا له الخلق والأمر. وقرر في سورة آل عمران التي نزل صدرها خِطاباً مع أهل الكتاب وُقوع النسخ عند اليهود، في قوله تعالى: ﴿كلُّ الطعام كان حِلاًّ لبني إسرائيل إلا ما حَرَّم إسرائيل على نفسه﴾. . . الآية، كما سيأتي تفسيرها، والمسلمون كلّهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وكلُّهم قال بوقوعه، وقال أبو مسلم الأصبهاني المُفَسِّر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن. وقولُه هذا ضعيفٌ ومردودٌ ومرذولٌ، وقد تعسَّف في الأجوبة عما وقع، فمِن ذلك قصة العِدَّة بأربعة أشهر وعشراً بعد الحول، لم يُجبْ على ذلك بكلام مقبولٍ، وقصة تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس لم يُجِب بشيء. ومن ذلك نسخُ مصابرة المسلم لعشر من الكفرة إلى مصابرة الاثنين، ومن ذلك نسخُ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ـ ﷺ ـ وغير ذلك، والله أعلم-٢).

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

نَهَى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كَثْرَةِ سُؤال النبي ـ ﷺ ـ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤكم، وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّل القرآن تُبْدَ لكم﴾، أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تَبَيَّن لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يُحَرَّم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: «أعظم المسلمين جُرْماً من سَأل عن شيء لم يُحَرَّم، فَحُرِّم من أجل مسألته»(١). ولما سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن الرجل يَجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكتَ سَكَتَ على مثل ذلك، فكَرِه رسول الله ـ ﷺ ـ المسائلَ وعابها. ثم أنزل الله تعالى حُكْمَ الملاعنة. ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال(٣). وفي صحيح مسلم: «ذَروني ما تَرَكْتُكم، فإنما هَلَك من قَبلكم بكثرةِ سُؤَالهم، واختلافِهم على أنبيائهم». فإذا أمرتُكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم، وإن نَهَيتُكم عن شيء فاجتَنِبُوه»(٤). وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كَتَب الحج. فقال رجل: أكُلَّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثاً. ثم قال عليه السلام: لا، ولو قلت: نعم. لَوَجَبَتْ، ولو وَجَبَتْ لما استطعتم. ثم قال: «ذروني ما تركتكم. . .»(٥) الحديث.

وهكذا قال أنس بن مالك: نُهينا أن نسأل رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجلُ من الباديةِ فَيَسْأله ونحن نسمعُ.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي

(١) البخاري، كتاب الاعتصام ١١٧/٩، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٣١.
(٢) مسند الإمام أحمد ١٩/٢، والبخاري، كتاب الطلاق ٧١/٧، ومسلم، كتاب اللعان ١١٣١.
(٣) النجار، كتاب الاعتصام ١١٧/٥ ـ ١١٨، ومسلم، كتاب الأقضية ١٣٤٠.
(٤) مسلم، كتاب الفضائل ١٨٣٠ ـ ١٨٣١.
(٥) رواه ابن جرير، انظر تفسير سورة المائدة، الآية ١٠١، ٨٢/٥.

سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتي عليَّ السنةُ أريدُ أن أسألَ رسول الله ـ ﷺ ـ عن شيءٍ فأتهيَّبُ منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب.

وقال البزّار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمَّد ـ ﷺ ـ: ما سألوه إلا عن ثنْتي عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ و ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ و ﴿ يسألونك عن اليتامى ﴾ يعني هذا وأشباهه.

وقولُه تعالى: ﴿ أم تُريدون أن تسألوا رسُولكم كما سُئِل موسى من قبلُ ﴾، أي: بل تُريدون. أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكاري، وهو يعمّ المؤمنين والكافرين، فإنه عليه السلام رسولُ الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿ يسألُك أهلُ الكتابِ أن تُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلك، فقالوا: أرنا الله جَهْرَةً، فأخذتهم الصاعقة بظُلْمهم ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيْمِلَةَ وَوَهْبُ بن زيد: يا محمد، ائتنا بكتاب تُنَزِّله علينا من السماء نقرؤُه، وفَجّرْ لنا أنهاراً نتَّبِعْك ونُصَدِّقْك. فأنزل الله من قولهم: ﴿ أم تريدون أن تَسألُوا رسولَكُم كما سُئِلَ مُوسى من قبل؟ ومن يَتَبدَّلِ الكفرَ بالإيمانِ فقد ضَلَّ سواء السبيل ﴾[1].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِل موسى من قبل ﴾، قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، لو كانت كَفَّاراتنا كفَّاراتِ بني إسرائيل؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «اللهم لا نبغيها! ثلاثاً، ما أعطاكم خَيْرٌ مما أعطى بني إسرائيلَ، كانت بَنُو إسرائيل إذا أصابَ أحدُهم الخطيئة وجدها مكتوبةً على بابه وكفَّارتَها، فإن كفَّرها كانت له خِزْياً في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزياً في الآخرة. فما أعطاكم الله خيرٌ مما أعطى بني إسرائيل». قال: ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾. وقال: الصلواتُ الخمسُ من الجُمُعةِ إلى الجُمُعةِ كفاراتٌ لما بينهن. وقال: مَن هَمَّ بسيئة فلم يعمَلْها لم يكتب عليه شيءٌ، وإن عملها كتبت سيئة واحدة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يَهلك على الله إلا هالكٌ. فأنزل الله: ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾[2].

وقال مجاهد: ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسُولَكم كما سُئِلَ موسى من قَبْلُ ﴾: أن يُريهم الله جَهرةً، قال: سألت قريشٌ محمداً ـ ﷺ ـ أن يجعل لهم الصَّفَا ذهباً. قال: نعم! وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل. فأبوا ورجعوا.

وعن السدي وقتادةَ نحو هذا، والله أعلم.

والمرادُ أن الله ذمّ من سأل الرسول ـ ﷺ ـ عن شَيء، على وجه التعنّت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيلَ موسى ـ عليه السلام ـ تعنتاً وتكذيباً وعناداً. قال الله تعالى: ﴿ ومن يتبدَّلِ الكُفرَ بالإيمان ﴾، أي: ومن يَشْترِ الكفر بالإيمان، ﴿ فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾. أي: فقد خَرَجَ عن الطريقِ المستقيم إلى الجهل والضلال. وهكذا حال الذين عَدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم

(١) تفسير الطبري ١/٤٨٣.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري ١/٤٨٤.

بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها، على وجه التعنُّتِ والكفر. كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بَدَّلُوا نعمةَ الله كفراً وأحلُّوا قومَهم دار البوار. جَهَنَّم يصلونها وبئس القَرار﴾.

وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

يُحذِّر تعالى عباده المؤمنين عن سُلُوك طَرائق الكُفَّار من أهل الكتاب، ويُعَلِّمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتَمِلُونَ عليه من الحسد للمؤمنين، مع عِلْمهم بِفَضْلِهم وفَضْلِ نبيهم. ويأمر عبادَه المؤمنين بالصَّفْح والعفوِ والاحتمال، حتى يأتيَ أمرُ الله من النصر والفتح. ويأمرهم بإقامة الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ. ويحثّهم على ذلك ويرغّبهم فيه، كما قال محمد بن إسحاق.

حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان حُيَيّ بن أخطَبَ وأبو ياسر بن أخطبَ من أشد يهودَ للعرب حَسَداً، إذْ خَصَّهُم الله برسوله - ﷺ - وكانا جاهدَين في ردّ الناس عن الإسلام[1] ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردُّونكم﴾ الآية.

وقال عبد الرزّاق، عن مَعْمرٍ، عن الزُّهريّ، في قوله تعالى: ﴿وَدّ كثيرٌ من أهل الكتاب﴾، قال: هو كعب بن الأشرف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب، عن الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، عن أبيه: أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي - ﷺ - وفيه أنزل الله: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم﴾ إلى قوله: ﴿فاعفوا واصفحوا﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أنّ رسولاً أمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جَحَدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ يقول: من بعد ما أضاء لهم الحقُّ، لم يَجْهَلُوا منه شيئاً، ولكن الحسدَ حَمَلَهم على الجُحُودِ، فعيَّرهم ووبَّخهم ولامَهم أشدّ الملامة. وشرع لنبيه - ﷺ - وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابِهِ الجزيلِ ومعونَتِهِ لهم.

وقال الربيعُ بن أنس: ﴿من عند أنفسهم﴾: من قِبَلِ أنفُسِهم. وقال أبو العالية: ﴿من بعد ما تَبَيَّن لهم الحق﴾: من بعد ما تبين أن محمداً. رسول الله يَجِدُونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً، إذ كان من غيرهم. وكذا قال قتادة والربيع والسدّي.

وَقولُه: ﴿فاعفُوا واصفَحُوا حَتَّى يأتي الله بأمره﴾، مِثْلُ قوله تعالى: ﴿ولتسمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتابَ من قبلِكُم وَمِنَ الذين أشركوا أذىً كثيراً، وإن تصبروا وتَتَّقوا فإنَّ ذلك من عَزْمِ الأمور﴾.

(١) في تفسير الطبري ٤٨٨/١ وابن أبي حاتم: بما.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ فاعفُوا واصفَحُوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ نسَخ ذلك قولُه: ﴿ فاقتُلُوا المشركين حيثُ وَجدتُموهم ﴾، وقولُه: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنُونَ بالله ولا باليوم الآخرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وهم صاغرون ﴾ فَنَسَخَ هذا عفوَه عن المشركين(١).

وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي: إنها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله: ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب، عن الزُّهري، أخبرني عُروَةُ بن الزُّبير: أن أسامة بن زَيدٍ أخبره، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابهُ يعفُون عن المشركين وأهلِ الكتاب، كما أمرهم الله، ويَصْبِرون على الأذَى، قال الله: ﴿ فاعفُوا واصفَحُوا حَتَّى يأتي الله بأمرِهِ، إنَّ الله على كل شيء قدير ﴾. وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يتأوّل من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بالقتل،فقتل الله به من قتل من صناديد قريش.

وهذا إسناده صحيح، ولم أره في شيء من الكتب الستة، (٢-[ولكن له أصلٌ في الصحيحين(٣) عن أسامة بن زيد، رضي الله عنهما]-٢).

وقولُه تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تُقَدِّموا لأنفسكم من خير تجدُوه عندَ اللهِ ﴾ يَحُثُّ تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتَعُودُ عليهم عاقبتُه يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يُمَكِّن لهم الله النصرَ في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة، ولهم سوءُ الدار ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾: يعني أنه تعالى لا يَغفلُ عن عَمَلِ عاملٍ، ولا يضيع لديه، سواءٌ كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله.

وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿ إنَّ الله بما تعملُونَ بصيرٌ ﴾: وهذا الخبرُ من الله للذين خاطبهم بهذه الآياتِ من المؤمنين، أنهم مهما فَعَلُوا من خير أو شر، سرّاً أو علانيةً، فهو به بصير، ولا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلها. وهذا الكلام وإن كان خَرَجَ مخرَج الخبرِ، فإنَّ فيه وَعداً ووعيداً وأمراً وزجراً. وذلك أنه أعْلَم القومَ أنه بصيرٌ بجميعِ أعمالهم لِيجدُّوا في طاعته ـ إذ كان ذلك مَذْخُوراً لهم عنده، حتى يُثِيبَهم عليه، كما قال: ﴿ وما تُقَدِّموا لأنفسكم من خير تَجِدُوه عند الله ﴾ ـ ولِيَحْذَرُوا مَعْصِيَته(٤).

قال: وأما قوله ﴿ بصيرٌ ﴾ فإنه مُبْصِرٌ صُرِف إلى بصير، كما صرف مُبْدِع إلى بَديع، ومُؤلمِ إلى «أليم»(٤). والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا ابن بكَير، حدثني ابن لَهِيعَةَ، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عُقبَةَ بن عامر، قال: رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يفسِّرُ في هذه الآية ﴿ سميعٌ بَصِيرٌ ﴾ يقول: بكل شيء بَصِيرٌ.

---

(١) تفسير الطبري ١/٤٩٠.

(٢) عن الأصل.

(٣) البخاري، تفسير سورة آل عمران ٦/٤٩ ـ ٥٠. وصحيح مسلم، كتاب الجهاد ١٤٢٢ ـ ١٤٢٣.

(٤) تفسير الطبري ١/٤٩١.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

يُبَيِّن تعالى اغترارَ اليهودِ والنصارى بما هُم فيه، حيث ادَّعت كلُّ طائفةٍ من اليهود والنصارى أنَّه لن يدخُلَ الجنة إلا من كان على مِلَّتها، كما أخبَرَ الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿ نحن أبناءُ الله وأحباؤه ﴾. فأكذَبَهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذِّبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادَّعوا لما كان الأمرُ كذلك، وكما تَقَدَّم من دعواهم أنه لن تَمَسَّهم النارُ إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة. وَرَدَّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادّعوها بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ ولا بَيِّنَةٍ، فقال: ﴿ تلك أمانيهم ﴾.

وقال أبو العالية: أمانيّ تمنَّوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس.

ثم قال: ﴿ قل ﴾، أي: يا محمد، ﴿ هاتوا برهانكم ﴾.

وقال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس: حُجَّتكم. وقال قتادة: بَيِّنتكم على ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾، أي: فيما تَدَّعونه.

ثم قال تعالى: ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو مُحسنٌ ﴾، أي: من أخلَصَ العملَ لله وحدَه لا شريكَ له، كما قال تعالى: ﴿ فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وَجْهِي لله ومن اتَّبَعَن ﴾... الآية.

وقال أبو العالية والربيع ﴿ بلى من أسلم وجهَه لله ﴾، يقول: من أخلَصَ لله.

وقال سَعِيد بن جُبَير ﴿ بلى من أسلم ﴾: أخلص ﴿ وجهه ﴾، قال: دينه[(١)].

﴿ وهو محسن ﴾ أي: متبعٌ فيه الرسولَ ـ ﷺ ـ. فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل. ولهذا قال ـ ﷺ ـ: «من عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدّ»[(٢)]. رواه مسلم من حديث عائشة، عنه، عليه السلام.

فعَمَلُ الرُّهبانِ ومن شابههم ـ وإن فُرِض أنهم يُخلِصُون فيه لله ـ فإنه لا يُتَقَبَّلُ منهم، حتى يكون ذلك متابعاً ـ ﷺ ـ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: ﴿ وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسَبُه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يَجِدْهُ شيئاً ﴾.

وقال [(٣-]تعالى: ﴿ وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ * عاملة ناصبة * تَصْلَى ناراً حامِيةً * تُسقَى من عينٍ آنيةٍ ﴾[-٣)]. وروي عن أمير المؤمنين عمر أنه تأولها في الرهبان ـ كما سيأتي ـ.

وأما إن كان العملُ موافقاً للشريعةِ في الصُّورة الظَّاهِرَةِ، ولكن لم يُخلِصْ عامله القصد لله ـ تعالى فهو أيضاً مردودٌ على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال تعالى: ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٢) مسلم، كتاب الأقضية ١٣٤٣ ـ ١٣٤٤.
(٣) عن الأصل.

حادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ وقال تعالى: ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشرِكْ بعبادة ربّه أحداً ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ بلى من أسلم وَجْهَهُ لله وهو مُحسِنٌ ﴾.

وقوله: ﴿ فله أجرُه عند ربّه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾، ضَمِنَ لهم تعالى على ذلك تحصيلَ الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور فـ ﴿ ـلا خوف عليهم ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما مَضَى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: ﴿ فـلا خوف عليهم ﴾ يعني في الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾، يعني لا يحزنون للموت.

وقولُه تعالى: ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، وهم يتلون الكتاب ﴾ يبين به تعالى تباغضهم وتناقضهم ومعاداتهم وتعاندهم. كما قال محمد بن إسحاق.

حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما قَدِمَ أهلُ نجرانَ من النصارى على رسولِ الله ـ ﷺ ـ أتتهم أحبارُ يهودَ، فتنازعوا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال رافع بن حُرَيْملة: ما أنتم على شيء. وكفر بعيسى والإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء. وجَحَد نُبُوَّةَ موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما[1]: ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴾. قال: إن كلاً يتلو في كتابه تصديق ما[2] كفر بـه أنْ يكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكلٌّ يكفر بما في يَدَيْ صاحبه.

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء.

وقال قتادة: ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾. قال: بلى، قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتَفَرَّقوا. ﴿ وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا.

وعنه رواية أخرى كقول أبي العالية والربيع بن أنس في تفسيره هذه الآية: ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ.

وهذا القول يقتضي أن كلاً من الطائفتين صدقت فيما رَمَت به الطائفة الأخرى. ولكن ظاهرُ سياقِ الآيـة يقتضي ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ وهم يتلُونَ الكتاب ﴾، أي: وهُمْ يعلَمون أنَّ شريعة التوراة والإنجيل، كلٌ منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكن تجاحدوا فيما بينهم كفراً وعناداً ومقابلةً للفاسِدِ بالفاسِدِ، كما تَقَدَّم عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها، والله أعلم.

وقوله: ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ يُبيِّن بهذا جَهْلَ اليهودِ والنصارى فيما تقابلوا به من

---

(١) في الأصل: قوله.
(٢) في الأصل: من كفر. والمثبت عن تفسير الطبري وابن أبي حاتم.

القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عُنِي بقوله تعالى: ﴿ الذين لا يعلَمُونَ ﴾، فقال الربيعُ بن أنسٍ وقتادةُ: ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون ﴾. قالا: قالت النصارى مثلَ قولِ اليهود قبلهم.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل.

وقال السدي: ﴿ كذلك قال الذينَ لا يعلمون ﴾ فهم العرب، قالوا: ليس محمد على شيء[1].

واختار أبو جعفرِ بن جريرٍ أنها عامَّةٌ تصلحُ للجميعِ، وليس ثَمَّ دليلٌ قاطعٌ يعيِّنُ واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿ فاللهُ يحكُم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي: إنه تعالى يجمَعُ بينهم يوم المعاد، ويَفصِلُ بينهم بقضائِهِ العَدْلِ الذي لا يجورُ فيه ولا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ. وهذا كقولِه تعالى في سورة الحجِّ: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوسَ والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شيء شهيد ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ يجمَعُ بيننا ربنا، ثم يفتح بيننا بالحق، وهو الفَتَّاحُ العليمُ ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

اختلف المفسرون في المرادِ من الذين مَنَعُوا مساجِدَ الله وسَعَوا في خَرابها على قولين:

أحدهما: ما رواه العَوفي في تفسيره، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ قال: هم النصارى. وقال مجاهد: هم النصارى، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله ﴿ وسعى في خرابها ﴾: وهو بُخْتَنَصَّر وأصحابه، خَرَّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى.

وقال سعيد، عن قتادة. قال: أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بُخْتَنَصَّر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس.

وقال السدي: كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خربه، وأمر به أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا. وروي نحوه عن الحسن البصري.

القول الثاني ما رواه ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿ ومن أظلمُ ممن مَنَع مساجد الله أن يُذْكَر فيها اسمه وسعى في خرابها ﴾ قال: هؤلاء المشركون حين حالُوا بين رسول الله ـ ﷺ ـ يوم الحُدَيبية، وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذي طُوَى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يَصُدُّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتلَ أبيه وأخيه فلا يصدُّه. فقالوا: لا يدخل علينا مَنْ قتل آباءنا يوم بدر وفينا باقٍ، وفي قوله: ﴿وسعى في خرابهـا﴾ قال: إذ قطعوا من يَعْمُرُها بذكره ويأتيها للحج والعمرة[2].

(١) تفسير الطبري ١/٤٩٦ ـ ٤٩٧.
(٢) تفسير الطبري ١/٤٩٩.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن سَلَمَة قال: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بـن جُبَير، عن ابن عباس: أن قُرَيشاً منعوا النبيَّ ـ ﷺ ـ الصلاة عند الكعبة في المسجدِ الحرامِ، فأنزل الله: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾.

ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسع في خَرابِ الكعبة. وأما الرومُ فسعَوا في تخريب بيت المقدس.

قلت: الذي يظهر ـ والله أعلم ـ القول الثاني، كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس، لأن النصارى إذْ منعت اليهود الصلاة في بيت المقدس، كان دينُهم أقومَ من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك؛ لأنهم لُعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. وأيضاً فإنه تعالى لما وَجَّه الذمّ في حق اليهود والنصارى، شَرَع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة، فأيُّ خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه واستحوذُوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشرْكهم، كما قال تعالى: ﴿وما لهم ألا يُعَذِّبهم الله وهم يصدُّون عن المسجد الحرام، وما كانوا أولياءه، إنْ أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وقال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمُروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم وفي النار هم خالدون * إنما يعمرُ مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، وقال تعالى: ﴿هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهَدْيَ معكوفاً أن يبلُغَ مَحِلَّه، ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم، فتصيبكم منهم مَعَرَّة بغير علم، ليدخلَ الله في رحمته من يشاء لو تَزَيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾، فقال تعالى: ﴿إنما يعمرُ مساجد الله من آمن بالله واليومِ الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله﴾، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأيُّ خرابٍ لها أعظمُ من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صُوَرِها فقط، إنما عمارتها بذكرِ الله فيها وإقامةِ شَرْعِهِ فيها، ورَفْعِها عن الدنَسِ والشرك.

وقوله تعالى: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ هذا خبرٌ معناه الطلبُ، أي: لا تُمَكِّنوا هؤلاء ـ إذا قَدَرْتم عليهم ـ من دخولها إلاَّ تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فَتح رسولُ الله ـ ﷺ ـ مكَّةَ أَمَرَ من العام القابـل في سنة تسع أن يُنادى برحاب مِنَى: «ألا لا يَحُجَّنَّ بعد العام مشركٌ ولا يطُوفنَّ بالبيت عُريان، ومن كان له أَجَلٌ فأجَلُه إلَى مُدَّتِه»(١). وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَس فلا يَقْربُوا المسجِدَ الحرامَ بعد عامهم هذا﴾... الآية. وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال التهيب، وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطِشُوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها أو يمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحقُّ والواجبُ إلا ذلك لولا ظلمُ الكفرة وغيرهم.

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيُظْهِرُهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يُذل المشركين لهم حتى لا يدخلَ المسجدَ الحرام أحدٌ منهم إلا خائفاً، يخاف أن يؤخذ ويعاقَب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعدَ كما تقدَّمَ من منع المشركين من دخول الحَرَم، وأوصى رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن لا يَبْقى بجزيرة العرب دينان، وأن تُجلَى اليهود والنصارى منها، ولله الحمدُ والمنة. وما ذاك إلا لتشريف أكناف

(١) البخاري، تفسير سورة التوبة ٨١/٦، ومسلم كتاب الحج ٩٨٢، ومسند الإمام أحمد ٣/١.

المسجد الحرام وتَطْهير البقعة المباركة التي بُعث فيها رسولُه إلى الناس كافَّةً بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه. وهذا هو الخزيُ لهم في الدنيا، لأنَّ الجزاء من جنس العَمَلِ، فكما صَدّوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدّوا عنه، وكما أجلَوهم من مكةِ أُجْلُوا منها ﴿ ولهم في الآخرةَ عذاب عظيم ﴾ على ما انتهكوا من حرمَةِ البيت وامتَهَنُوه من نَصْبِ الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده والطواف به عرياً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله.

وأما من فسَّرَه ببيتِ المقدس، فقال كعب الأحبار: إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خرَّبوه، فلما بعث الله محمداً ـ ﷺ ـ أنزل عليه: ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خَرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾. الآية، فليس في الأرض نصرانيٌّ يدخلُ بيتَ المقدس إلا خائفاً. وقال السدّي: فليس في الأرض رُوميّ يدخله اليوم إلا وهو خائف أن تُضْرَبَ عُنُقُه، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يُؤدِّيها. وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مسارقة.

قلت: وهذا لا ينفي أن يكون داخلاً في معنى عموم الآية، فإن النصارى لما ظلموا ببيت المقدس، بامتهانِ الصخرة التي كانت تصلي إليها اليهود، عُوقبوا شرعاً وقَدَراً بالذلَّة فيه، إلا في أحيان من الدهر امتُحِن بهم بيتُ المقدس. وكذلك اليهودُ لما عَصَوا الله فيه أيضاً أعظم من عصْيان النصارى كانت عقوبتهم أعظَمَ، والله أعلم.

وفَسَّر هؤلاء الخِزْيَ في الدنيا بخروج المهديّ عند السدّي، وعكرمة، ووائل بن داود[١]. وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون.

والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد وَرَد الحديثُ بالاستعاذة من خِزْيِ الدنيا وعذاب الآخرة، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حَابس: سمعتُ أبي يحدِّث، عن بُسْر بن أرطاة، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو: اللهم أَحْسِنْ عاقبتنا في الأمورِ كُلِّها، وأجِرْنا من خِزْيِ الدّنيا ومن عَذابِ الآخِرَة[٢].

وهذا حديث حسن، وليس هو في شيء من الكتب الستة، وليس لصحابيّه وهو بُسْر بن أرطاة ـ ويقال: ابن أبي أرطاة ـ حديث سواه، وسوى: لا تُقْطعُ الأيدي في الغَزْو[٣].

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

وهذا ـ والله أعلم ـ فيه تسليةٌ للرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة، وفارَقُوا مسجِدَهم ومُصَلاهم، وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يصلي بمكةَ إلى بيت المقدس والكعبةُ بين يديه. فلما قَدِم المدينة وُجِّه إلى بيت المقدس ستَّةَ عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صَرَفه الله إلى الكعبة بعدُ، ولهذا يقول تعالى: ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب الناسخ والمنسوخ:

---

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم، والطبري ١/٥٠١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/١٨١.

حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جُرَيج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: أول ما نُسِخَ من القرآن فيما ذُكِر لنا ـ والله أعلم ـ شأنُ القبلة. قال تعالى: ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾، فاستقبل رسول الله ـ ﷺ ـ فصلّى نحوَ بيتِ المقدس، وتَرَكَ البيتَ العتيقَ، ثم صرفه الله إلى البيتِ العتيق ونَسَخها، فقال: ﴿ ومن حيث خرجت فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾(١).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كان أولَ ما نسخ من القرآن القبلةُ: وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما هاجر إلى المدينة ـ وكان أهلُها اليهود ـ أمره الله أن يستقبلَ بيتَ المقدس. ففرِحَت اليهود، فاستقبلها رسول الله ـ ﷺ ـ بضعةَ عَشَرَ شهراً، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يُحِبّ قبلةَ إبراهيمَ، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿ قد نرىٰ تقلُّبَ وجهكَ في السماء ﴾ إلى قوله: ﴿ فولّوا وُجُوهَكم شَطْره ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿ قل: لله المشرق والمغرب ﴾، وقال: ﴿ فأينما تولوا فثمَّ وجه الله ﴾(٢).

وقال عكرمة، عن ابن عَبّاسٍ ﴿ فأينما تولُّوا فثمَّ وجهُ الله ﴾، قال: قبلةُ اللهِ أينما توجَّهتَ شرقاً أو غرباً. وقال مجاهد ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾: حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها: الكعبة.

وقال ابن أبي حاتم بعد روايته الأثر المتقدم، عن ابن عباس، في نسخ القبلة، عن عطاء، عنه: وروي عن أبي العالية، والحسن، وعطاء الخراساني، وعكرمة، وقتادة، والسدّي، وزيد بن أسلم، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرضَ التوجُّهَ إلى الكعبة، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه ـ ﷺ ـ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة، حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب، لأنهم لا يُوجِّهون وجوهَهم وجهاً من ذلك وناحيةً إلا كان جلّ ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية، لأن له تعالى المشارقَ والمغاربَ، وأنه لا يخلو منه مكانٌ، كما قال تعالى: ﴿ [ولا أدنىٰ من ذلك] ولا أكثَرَ إلا هو مَعَهُم أينما كانوا ﴾، قالوا: ثم نَسَخَ ذلك بالفرض الذي فَرَضَ عليهم التوجُّهَ إلى المسجد الحرام(٢).

هكذا قال، وفي قوله: «وإنه تعالى لا يخلو منه مكان» إن أراد عِلْمَه تعالى فصحيحٌ؛ فإن علمه تعالى محيطٌ بجميع المعلومات، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورةً في شيءٍ من خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ـ ﷺ ـ إذناً من الله أن يصلِّي التطوع حيث توجه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره وفي حال المسايفة وشدَّةِ الخوفِ.

حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابن إدريسَ، حدثنا عبد الملك ـ هو ابن أبي سليمان ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عُمَر: أنه كان يصلي حيث توجَّهت به راحلتُه. ويذكر أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يفعلُ ذلك، ويتأوَّلُ هذه الآية ﴿ فأينما تولوا فثمَّ وَجْهُ الله ﴾(٣).

ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مَرْدويه، من طُرُق، عن عبد الملك بن أبي سليمان، به. وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر، وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية(٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من هذه الطريق.

(٢) تفسير الطبري ١/٥٠٢.

(٣) تفسير الطبري ١/٥٠٣، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٤٨٦ ـ ٤٨٨، وتحفة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ٨/٢٩٢ ـ ٢٩٣، والنسائي، كتاب الصلاة ١/١٩٦، والبخاري، كتاب التقصير ٢/٥٥ ـ ٥٦.

وفي صحيح البخاري[١] من حديث نافع، عن ابن عمر: أنه كان إذا سُئِلَ عن صلاة الخوف وصَفَها. ثم قال: فإذا كان خوف أشدَّ من ذلك صَلُّوا رجالاً قياماً على أقدامهم، وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها.

قال نافع: ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي - ﷺ -.

مسألـــة

[٢]-ولم يُفَرِّق الشافعي[٣] في المشهور عنه - بين سفر المسافة وسفر العدو، فالجميع عنده يجوز التطوع فيه على الراحلة. وهو قول أبي حنيفة خلافاً لمالك وجماعة، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الإصطخري التطوع على الدابة في المصر، وحكاه أبو يوسف، عن أنس ابن مالك، واختاره أبو جعفر الطبري حتى للماشي أيضاً-[٢].

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآيةُ في قوم عُمِّيَتْ عليهم القبلةُ، فلم يَعرِفوا شَطْرها، فصلّوا على أَنْحاء مختلفة، فقال الله: لي المشارقُ والمغاربُ، فأين ولَّيتم وجوهَكم فهنالك وجهي، وهو قبلتكُمْ يُعْلِمُكم بذلك أن صلاتكم ماضية.

حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزُّبيري، حدثنا أبو الربيع السمان، عن عاصم بن عُبَيد الله، عن عبدالله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله - ﷺ - في ليلة سوداءَ مظلمةٍ، فنزلنا منزلاً فجعل الرجلُ يأخذُ الأحجارَ فيعمل مسجداً يصلي فيه. فلما أن أصبحنا نحن قد صلَّينا على غير القبلة. فقلنا: يا رسول الله، لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثَمَّ وجه الله، إن الله واسع عليم﴾ الآية.

ثم رواه عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن أبي الربيع السمان، بنحوه[٤].

ورواه الترمذي، عن محمود بن غيلان، عن وكيع. وابن ماجه، عن يحيى بن حكيم، عن أبي داود، عن أبي الربيع السمان.

ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن سعيد بن سليمان، عن أبي الربيع السمان - واسمه أشعث بن سعيد البصري - وهو ضعيف الحديث.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وليس إسناده بذاك، ولا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث يُضَعَّف في الحديث[٤].

قلت: وشيخه أيضاً ضعيف.

قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن مَعِين: لا يحتج به. وقال ابن حبان: متروك، والله أعلم.

وقد رُوي من طريقٍ أخرى، عن جابر، فقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية.

حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، حدثنا الحسن بن علي بن شبيب، حدثني أحمد بن عبدالله بن

---

(١) البخاري، تفسير سورة البقرة ٣٨/٦ - ٣٩.

(٢) عن الأصل.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٨١/٢.

(٤) عارضة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ٧٩/١١. ولفظه: «هذا حديث غريب».

الحسن؛ قال: وجدت في كتاب أبي: حدثنا عبد الملك العرزَميّ، عن عطاء، عن جابر، قال: بَعَث رسولُ الله ـ ﷺ ـ سَرِيَّةً كنتُ فيها، فأصابتنا ظلمةٌ فلم نَعرف القبلةَ، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، وهي ههنا قِبَل الشمال. [فصلّوا] وخطّوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة. فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي ـ ﷺ ـ فسكت، وأنزل الله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثَمَّ وجهُ الله﴾[١].

ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العَرْزَمي، عن عطاء، عن جابر، به.

وقال الدارقطني: قُرِىء على عبدالله بن[٢] عبد العزيز ـ وأنا أسمَعُ ـ حدثكم داود بن عَمْرو، حدثنا محمد بن يزيد الواسطي، عن محمد بن سالم، عن عطاء، عن جابر، قال: كنّا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في مَسيرٍ فأصابنا غيمٌ، فتحيَّرنا فاختلفنا في القبلة، فصلى كلّ رجلٍ منا على حِدَةٍ. وجعل أحدنا يخطّ بين يديه لنعلَمَ أمكِنَتَنا، فذكرنا ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فلم يأمرنا بالإعادة، وقال: قد أجزأَتْ صلاتُكُم.

ثم قال الدارقطني: كذا قال: عن محمد بن سالم. وقال غيره: عن محمد بن عبيد الله العَرْزمي، عن عطاء، وهما ضعيفان[٣].

ثم رواه ابن مردُويه أيضاً من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ بَعَث سَرِيَّة فأخذتهم ضبابة [فلم يهتدوا إلى القبلة]، فصلُّوا لغير القبلة. ثم استبان لهم بعد ما طَلَعَتِ الشمسُ أنهم صَلُّوا لغير القبلة. فلما جاءوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حَدَّثوه، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الآية: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تُوَلّوا فثَمَّ وجهُ الله﴾.

وهذه الأسانيد فيها ضَعْفٌ، ولعلّه يشدُّ بعضُها بعضاً. وأما إعادةُ الصلاةِ لمن تَبَيَّنَ خطؤُه فيها ففيها قولان للعلماء، وهذه دلائلُ[٤] على عدم القضاء، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي، كما حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن[٥] هشام، حدثني أبي، عن قتادة: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: إن أخاً لكم قد مات فصلّوا عليه. قالوا: نصلّي على رجل ليس بمسلم؟ قال: فنزلت: ﴿وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعينَ لله﴾ قال قتادة: فقالوا: فإنه كان لا يصلي إلى القبلة. فأنزل الله: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثَمَّ وجهُ الله﴾[٦].

وهذا غريب، والله أعلم.

وقد [٧]قيل: إنه كان يُصَلّي إلى بيت المقدس قبل أن يبلُغَه الناسخُ إلى الكعبة، كما حكاه القرطبي[٨] عن قتادة. وذكر القرطبي أنه ـ عليه السلام ـ لما مات صلّى عليه فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب،

(١) الدرّ المنثور ١/١٠٩.
(٢) في سنن الدارقطني: عبد الله بن محمد بن عبد العزيز.
(٣) سنن الدارقطني، كتاب الصلاة ١/٢٧١.
(٤) في الأصل: الدلائل.
(٥) كذا في أصلنا: معاذ بن هشام. وفي تفسير الطبري: هشام بن معاذ، وهو خطأ، وانظر تهذيب التهذيب ١٠/١٩٦.
(٦) تفسير الطبري ١/٥٠٤.
(٧) عن الأصل.
(٨) تفسير القرطبي ٢/٨ ـ ٨٢.

قال: وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه، أحدها: أنه عليه السلام شاهده حين صلى عليه طُوِيَتْ له الأرضُ. الثاني: أنه لما لم يكن عنده من لم يُصَلِّ عليه صَلَّى عليه. واختاره ابنُ العربي، قال: القرطبي: ويبعد أن يكون مَلِكٌ مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه. وقد أجاب ابن العربي عن هذا: لعلهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت. وهذا جواب جيد. الثالث: أنه عليه السلام إنما صَلَّى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك-٧.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث أبي معشر، عن محمد بن عَمْرو بن علقمة، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما بين المشرق والمغربِ قِبْلَة لأهل المدينة، وأهل الشام، وأهل العراق.

وله مناسبة ههنا، وقد أخرجه الترمِذيّ[١] وابن ماجه من حديث أبي معشر، واسمه نَجيح بن عبد الرحمن السِّندي المدني، به. ما بين المشرق والمغرب قبلة.

وقال الترمذيّ: وقد رُوِي من غير وجه عن أبي هُرَيرة. وتكلّم بعضُ أهلِ العلم في أبي مَعْشَرٍ من قِبَلِ حِفْظِه. ثم قال الترمذي: حدثني الحسن بن بكر المروزي، حدثنا المعلى بن منصور، حدثنا عبدالله بن جعفر المخرمي، عن عثمان بن محمد الأخنسي، عن سعيد المقبري، عن أبي هُرَيرة، عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: ما بين المشرق والمغرب قبلة.

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[١]. وحَكَى عن البخاري أنه قال: هذا أقوى من حديث أبي مَعْشرٍ وأصحّ. قال الترمذي: وقد رُوِي عن غير واحد من الصحابة: «ما بين المشرق والمغرب قبلة»، منهم عمر بن الخطاب، وعلي، وابن عباس. وقال ابن عُمَر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك، فما بينهما قبلةٌ، إذا استقبلتَ القبلةُ.

ثم قال ابن مَرْدُويه: حدثنا علي بن أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا يعقوب بن يوسف مولى بني هاشم، حدثنا شُعَيب بن أيوب، حدثنا ابن نُمَير، عن عُبَيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عُمَر، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ما بين المشرق والمغرب قبلةٌ.

وقد رواه الدارقطني[٢] والبيهقي، وقال: المشهورُ عن ابن عمر، عن عمر، قوله.

قال ابن جرير: ويحتمل (قوله)[٣]: فأينما تولوا وجوهَكم في دعائكم لي فهنالك وَجهي أَستَجيبُ لكم دعاءَكم، كما حَدَّثنا القاسمُ، حَدَّثنا الحُسَين، حَدَّثني حَجَّاجُ، قال: قال ابن جُرَيج: قال مُجاهِدُ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ ادعوني أَسْتَجِبْ لكم ﴾، قالوا: إلى أينَ؟ فَنَزلَتْ: ﴿ فأينما تولُّوا فثَمَّ وجهُ الله ﴾[٤].

قال ابن جَرِيرٍ: ويعني بِقَوْلِهِ: ﴿ إنَّ الله واسعٌ عليم ﴾ يَسَعُ خلقه كُلَّهم بالكفاية والجود الإفضال. وأما قوله: ﴿ عليم ﴾ فإنه يعني: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

---

(١) تحفة الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/٣١٨ ـ ٣٢٠، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٣٢٣.
(٢) سنن الدارقطني، كتاب الصلاة ١/٢٧١.
(٣) عن الأصل.
(٤) تفسير الطبري /٥٠٥.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها[١] على الردّ على النصارى ـ عليهم لعائنُ الله ـ وكذا من أشبهَهُم من اليهود ومن مشركي العرب، مِمَّن[٢] جَعَل الملائكة بناتِ الله، فأكذَبَ اللهُ جميعَهم في دعواهم وقَوْلِهم: إن لله ولداً. فقال تعالى: ﴿ سبحانه ﴾، أي: تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، ﴿ بل له ما في السموات والأرض ﴾، أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملكُ السموات والأرض ﴿ وَمَن فيهنَّ ﴾[٣]، وهو المتصرِّف فيهم، وهو خالقهم ورازقُهم، ومُقدرهم ومُسَخِّرهم، ومُسَيِّرهم ومُصَرِّفهم، كيف يشاء. والجميع عبيدٌ له وملكٌ له، فكيف يكونُ له ولدٌ منهم [والوالـد][٣] والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو ـ تبارك وتعالى ـ ليس له نظيرٌ، ولا مشارك في عظمَتِه وكبريائِه ولا صاحبةَ له، فكيف يكون له ولد تبارك؟! كما قال تعالى: ﴿ بديع السموات والأرض، أنَّى يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدّاً * تكاد السموات يتفطرنَ منه وتنشق الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً * أن دَعَوا للرحمن وَلَداً * وما ينبغي للرحمنِ أن يَتَّخِذَ ولداً * إن كلُّ من في السمواتِ والأرض إلا آتِي الرحمن عبداً * لقد أحصاهُم وعَدَّهم عدّاً * وكُلُّهم آتيه يوم القيامةِ فرداً ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هو الله أحدٌ * الله الصمدُ * لم يلد ولم يولَدْ * ولم يكن له كُفُواً أَحَدٌ ﴾.

فَقَرَّر تعالى في هذه الآياتِ الكريمة أنه السّيدُ العظيمُ، الذي لا نَظِيرَ له ولا شَبيه له، وأنَّ جميعَ الأشياء غيره مخلوقةٌ له مَرْبُوبةٌ، فكيفَ يكونُ له منها ولدٌ. ولهذا قال البخاريّ في تفسير هذه الآيةِ من البقرةِ.

حدثنا أبو اليمانِ، أخبرنا شعيب، عن عبدالله بن أبي حُسَين، حدثنا نافع بن جُبَير ـ هو ابن مُطعِم ـ عن ابن عَبّاس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: قال الله تبارك وتعالى: كَذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبُهُ إيّاي فيزعمُ أني لا أقدر أن أُعيدَه كما كان، وأما شَتْمُه إيَّاي فقوله: لي ولدٌ. فسبحاني أن أتَّخذ صاحبةً أو ولداً. انفرد به البخاريُّ من هذا الوجه[٤].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا محمد بن إسماعيل الترمذي، حدثنا إسحق بن محمد الفَرْوي، حدثنا مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: يقول الله عزّ وجلّ: كَذَبني ابن آدم ولم ينبغِ له أن يَكْذِبني، وشَتَمني ولم ينبغ له أن يشتمني، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يُعِيدَني كما بدأني. وليس أولُ الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شَتْمهُ إيَّاي فقولُه: اتخذ الله ولداً. وأنا الله الواحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وفي الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ [أنه] قال: لا أحدَ أصبرُ على أذى سَمِعه من الله؛ إنهم يجعلُونَ له ولداً، وهو يعافيهم ويرزقهم[٥].

وقوله: ﴿ كل له قانتون ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أسباطُ، عن مُطَرِّفٍ، عن عَطِيَّةَ، عن ابنِ عَبّاسٍ، قال: ﴿ قانتين ﴾ مُصَلِّين.

(١) في الأصل: قبلها.
(٢) في الأصل: من.
(٣) عن الأصل.
(٤) البخاري، تفسير سورة البقرة ٦/٢٤.
(٥) البخاري، كتاب التوحيد ٩/١٤١، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٦٠.

وقال عكرمة وأبو مالك: كلٌّ له مُقرُّون بالعبودية. وقال سعيد بن جُبَير ﴿كل له قانتونَ﴾ يقول: الإخلاص. وقال الربيع بن أنس: يقولُ: كل له قائم يوم القيامة. وقال السدي ﴿كل له قانتون﴾، يقول: [له] مطيعون يوم القيامة.

وقال خُصَيف، عن مجاهد ﴿كلٌّ له قانتون﴾ [قال]: مطيعون، كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان[1].

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿كلٌّ له قانتون﴾: مطيعونَ. يقول: طاعةُ الكافر في سجود ظِلِّه وهو كاره.

وهذا القول عن مجاهد ـ وهو اختيار ابن جَرير[2] ـ يجمَعُ الأقوالَ كلها، وهو أن القنوتَ هو الطاعةُ والاستكانةُ إلى الله، وذلك شَرْعِيّ وقَدَري، كما قالَ تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، وظلالهم بالغدوّ والآصال﴾.

وقد وَرَد حديثٌ فيه بيانُ القنوتِ في القرآن ما هو المراد به، كما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا يُونُس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بنِ الحارث: أنّ دَرّاجاً أبا السَّمْح حَدَّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْري، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: كلُّ حرفٍ من القرآنَ يُذْكَرُ فيه القنوتُ فهو الطاعةُ.

وكذا رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسى، عن ابن لَهِيعَةَ، عن دَرَّاجٍ بإسناده، مِثلَه[3].

ولكنَّ هذا الإسنادَ ضَعِيفٌ لا يُعتَمدُ عليه. ورفعُ هذا الحديثِ منكرٌ، وقد يكونُ من كلام الصحابي أو مَنْ دونه، والله أعلم. وكثيراً ما يأتي بهذا الإسنادِ تفاسيرُ فيها نَكَارَة، فلا يُغْتَرَّ بها، فإن السند ضعيف، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿بديعُ السمواتِ والأرضِ﴾، أي: خالِقُهما على غير مثالٍ سَبَق، قاله مجاهد والسدّي، وهو مقتضى اللغة. ومنه يقال للشيءِ المحدثِ: بدعة. كما جاء في الصحيح لمسلم: «فإن كل محدثةٍ بدعة»[4]. والبدعةُ على قسمين، تارةً تكونُ بدعةً شرعيةً، كقوله: «فإن كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة». وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عن جَمْعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعْمَت البدعةُ هذه.

وقال ابن جَرير: وبديع السموات والأرض: مُبدِعُهما. وإنما هو مُفْعِل فَصُرف إلى فَعيل، كما صُرِف المؤلم إلى الأليم، والمُسْمِع إلى السميع. ومعنى المبدع: المنشىء والمُحدِث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثِه أحدٌ. قال: ولذلك سُمِّي المبتدع في الدين مبتدعاً لإحداثه فيه ما لم يَسْبقه إليه غيره، وكذلك كلّ محدِثٍ فعلاً أو قولاً لم يتقدّمه فيه متقدم، فإن العربَ تُسَمِّيه مبتدعاً. ومن ذلك قول أعشى ثعلبة، في مَدْح هوذة بن علي الحَنفِي:

يُرعِي[5] إلى قَوْل سادات الرِّجال إذا أبدَوْا له الحزْمَ، أو ما شاءه ابتدَعا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٢) تفسير الطبري ٥٠٧/١.
(٣) مسند الإمام أحمد ٧٥/٣.
(٤) مسلم، كتاب الجمعة ٥٩٢.
(٥) أي: يستمع، يقال: أرعني سمعك، أي: استمع إليّ. والبيت في ديوان الأعشى من قصيدته التي أولها:
بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا واحتلّتِ الغَمْر فالجُدَّين فالفَرَعا

أي: يُحدِث ما شاء.

قال ابن جَرير: فمعنى الكلام: فسبحانَ اللهِ، أنّى يكون لله ولد، وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعُها بدلالتها عليه بالوَحْدانيّة، وتُقرُّ له بالطاعة، وهو بارئُها وخالِقُها ومُوجِدُها من غير أصْلٍ ولا مثالٍ احتذاها عليه. وهذا إعلامٌ من الله عبادَه أن مما[1] يشهد له بذلك المسيحُ، الذي أضافوا إلى الله بُنُوتَه، وإخبارٌ منه لهم أنَّ الذي ابتدَعَ السمواتِ والأرضَ من غير أصلٍ وعلى غيرِ مثالٍ، هو الذي ابتدَعَ المسيحَ من غير والدٍ بقدرته[2].

وهذا من ابن جرير ـ رَحِمَه الله ـ كلامٌ جيدٌ، وعبارة صحيحة.

وقولُه تعالى: ﴿ وإذا قَضَى أمراً فإنما يقولُ له كن فيكون ﴾، يبيِّن بذلك تعالى كمالَ قدرتِه وعَظِيمَ سُلطانه، وأنه إذا قَدَّر أمراً وأراد كونَه، فإنما يقول له: كن، أي: مرَّةً واحدة، فيكون، أي: فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وقال تعالى: ﴿ إنما قولُنا لشيءٍ إذا أردناه أن نقولَ له كُنْ فيكون ﴾ وقال تعالى: ﴿ وما أمرُنا إلا واحدةٌ كلمح بالبصر ﴾، وقال الشاعر:

إذا مـا أراد الله أمـراً فـإنّـمـا يـقـول لـه كـن قـولـةً فـيـكـون

ونَبَّه تعالى بذلك أيضاً على أنه خلق عيسى بكلمة: كُنْ، فكان كما أمَرَه الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾

قال محمد بن إسحاقَ: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمةَ أو سعيدِ بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيملة لرسول الله ـ ﷺ ـ: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فَلْيُكَلِّمْنا حتى نسْمَع كلامه. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾[3].

وقال مجاهد: ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يُكَلِّمنا الله أو تأتينا آية ﴾. قال: النصارى تقولُه.

وهو اختيارُ ابنِ جرير، قال: لأن السياق فيهم. وفي ذلك نظر.

وقال أبو العاليةِ، والربيعُ بن أنسٍ، وقتادةُ، والسدِّيُّ في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب، ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم ﴾، قالوا: هم اليهود والنصارى.

ويؤيِّدُ هذا القولَ، وأن القائلين ذلك هم مشركو العربِ، قوله تعالى: ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله. الله أعلم حيث يجعل رسالته، سيصيب الذين أجرموا صَغار عند الله وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وقالوا: لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكونَ لك جنّة من نخيل وعنَب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً. أو يكون لك بيتٌ من زخرفٍ أو ترقَى في السماءِ، ولن نُؤمِنَ لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً

---

(١) في الأصل: ممّن. والمثبت عن الطبري.
(٢) تفسير الطبري ١/٥٠٨.
(٣) تفسير الطبري ١/٥١٢.

نقرؤه، قل: سبحانَ ربِّي هل كنتُ إلا بشراً رسولاً ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا: لولا أُنْزل علينا الملائكةُ أو نَرَى ربنا لقد استكبَرُوا في أنفسهم وعَتَوا عُتُوّاً كبيراً ﴾. وقوله: ﴿ بل يريدُ كلّ امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعُتُوهم وعنادهم وسُؤَالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿ يسألك أهلُ الكتاب أن تُنَزِّل عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرِنا الله جهرةً ﴾. وقال تعالى: ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً ﴾.

وقوله: ﴿ تَشابَهَتْ قلوبُهم ﴾ أي أشبَهَتْ قلوب مُشركي العرب قُلوبَ من تقدمهم في الكفر والعناد والعتوّ، كما قال تعالى: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصَوا به بل هُم قوم طاغونَ ﴾.

وقوله: ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾، أي: قد وَضَّحْنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤالٍ آخَرَ وزيادةٍ أُخرى لمن أيقن وصَدَّق واتبع الرسل، وفَهِمَ ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى. وأما من خَتَم الله على قلبه وجَعَل على بصره غشاوةً فأولئك الذين قال الله تعالى-فيهم: ﴿ إن الذين حَقَّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون، ولو جاءتهم كلّ آية حتى يَرَوُا العذاب الأليم ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

قال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا عبدُ الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عُبَيد الله الفَزَاري عن شيبانَ النحويِّ، أخبرني قتادةُ، عن عِكْرمةَ، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: أنزلت عَلَيَّ: ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾، قال: بشيراً بالجنة، ونذيراً من النار.

وقوله: ﴿ ولا تُسأل عن أصحابِ الجحيم ﴾ قراءة أكثرهم: ﴿ ولا تُسْأَلُ ﴾ بضمِّ التاء، على الخبر. وفي قراءة أبيّ بـن كَعبٍ: ﴿ وَمَا تُسْأَلُ ﴾ وفي قراءة ابن مسعود: ﴿ ولن تُسأَلَ عن أصحاب الجحيم ﴾ نقلها ابن جرير[1].

أي: وقد [2-]حكاه القرطبي عن ابن (مسعود)[3]. [قال]: وقد ذكرنا في «التذكرة» أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا به، وأجبنا عن قوله: «إن أبي وأباك في النار»[4].

قلت: والحديثُ المرويّ في حياة أبويه ليس في شيء من الكتب الستة، ولا غيرها من المعتمدة، وإسنادُه ضعيفٌ، والله أعلم[-2]. لا نسألك عن كفر من كفر بك، ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾. وكقوله تعالى: ﴿ فذكِّر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾. . . الآية. وكقوله تعالى: ﴿ نحنُ أعلم بما يقولون، وما أنت عليهم بجبار، فَذَكِّرْ بالقرآنِ من يخافُ وَعيدِ ﴾ وأشباه ذلك من الآيات.

وقرأ آخرون[5]: ﴿ ولا تَسْأَلْ عن أصحاب الجحيم ﴾، بفتح التاء على النهي، أي: لا تَسْأَلْ عن حالهم، كما قال عبد الرزاق:

(١) تفسير الطبري ١/٥١٦.
(٢) عن الأصل.
(٣) في الأصل ابن عباس: والمثبت عن تفسير القرطبي.
(٤) تفسير القرطبي ٢/٩٣.
(٥) قرأ بها نافع، انظر الإقناع لابن الباذش ٦٠٢.

أخبرنا الثوريُّ، عن موسى بن عُبَيدة[1]، عن محمد بن كعب القُرَظي، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ليتَ شِعْرِي ما فعل أبواي، ليتَ شِعْرِي ما فعل أبواي، ليت شِعْري، ما فَعَلَ أبواي؟» فنزلت: ﴿ ولا تَسألْ عن أصحاب الجحيم ﴾، فما ذكرهما حتى توفاه الله، عزّ وجلّ[2].

ورواه ابن جَرِير، عن أبي كُرَيب، عن وَكِيعٍ، عن موسى بن عبيدة [3-](وقد تَكلّموا فيه عن محمد بن كعبٍ، بمثله)[-3].

ثم قال ابن جرير: وحدثني القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حَجّاج، عن ابن جُرَيج، أخبرني داود[1] بن أبي عاصم: أن النبي - ﷺ - قال ذات يوم: أين أبواي؟ فنزلت: ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تَسْألْ عن أصحاب الجحيم ﴾.

وهذا مرسل كالذي قبله. وقد رَدَّ ابن جرير هذا القولَ المرويّ عن محمَّدِ بن كعبٍ وغيرِه في ذلك، لاستحالة الشك من الرسول - ﷺ - في أمر أبويه. واختار القراءة الأولى. وهذا الذي سلكه هاهنا فيه نظر، لاحتمال أنّ هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يَعْلَم أمرهما، فلما عَلِم ذلك تَبَرَّأ منهما، وأخبر عنهما أنهما في النار، (كما ثبت ذلك في الصحيحين)[3] ولهذا أشباه كثيرة ونظائر، ولا يلزم ما ذكر ابن جرير. والله أعلم.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا فليح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبدالله بن عَمْرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله - ﷺ - في التوراة. فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصِفَتِه في القرآن: يأيها النبيُّ، إنا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميّين، وأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لا فَظٌّ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يَدْفع بالسيئةِ السيئةَ ولكن يعفو ويغفر، ولن يَقْبضه حتى يُقِيم به المِلّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلَه إلا الله. فيفتح به أعيُناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً[4].

انفرد بإخراجه البخاري[4]، فرواه في البيوع عن محمد بن سنان، عن فُلَيح، به. وقال: تابعه عبدُ العزيزِ ابن أبي سلمة، عن هلال. وقال سعيدٌ: عن هلال، عن عطاء، عن عبدالله بن سلام. ورواه في التفسير عن عبدالله، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء، عن عبدالله بن عَمْرو بن العاص، به. فَذَكر نحوه، فعبدُالله هذا هو ابن صالح، كما صرح به في كتاب الأدب. وزعم أبو مسعود أنه عبدالله بن رجاء.

وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية من البقرة، عن أحمد بن الحسنِ بن أيوب، عن محمد بن أحمد بن البراء، عن المعافَى بن سليمان، عن فليح، به. وزاد: قال عطاء: ثم لقِيتُ كعبَ الأحبارِ، فسألته، فما اختلفا في حَرْفٍ، إلا أن كعباً قال بلُغَتِهِ: أعيناً عُمُومي، وآذاناً صُمُومي، وقلوباً غلوفاً.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى

---

(١) في تفسير الطبري: عبده. وهو خطأ، انظر التهذيب ١٠/٣٥٦.
وفيه أيضاً: داود عن أبي عاصم. وهو خطأ، انظر التهذيب ٣/١٨٩.

(٢) تفسير الطبري ١/٥١٦.

(٣) عن الأصل.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٤، والبخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح ٦/١٦٩ - ١٧٠، وكتاب البيوع ٣/٨٧.

جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

قال ابن جَرير: يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿ ولن ترضَى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملَّتهم ﴾: وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضيةٍ عنك أبداً، فَدَعْ طَلَبَ ما يُرضِيهم ويُوافِقهم، وأقبِل على طَلَبِ رضا الله في دعائهم إلى ما بَعَثَكَ الله به من الحق[١].

وقولُه تعالى: ﴿ قل إن هُدَى الله هو الهدى ﴾، أي: قُلْ يا محمدُ: إن هُدَى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل.

قال قتادةُ في قوله: ﴿ قل إنَّ هُدَى الله هو الهدى ﴾، قال: خُصومةٌ عَلَّمَها الله محمداً - ﷺ - وأصحابه، يخاصمون بها أهل الضلالة. قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: لا تزالُ طائفةٌ من أُمّتي يقتتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله[٢].

قلت: هذا الحديث مُخَرَّج في الصحيح عن عبدالله بن عمرو[٣].

﴿ ولئن اتَّبعتَ أهواءَهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾، فيه تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ للأمة عن اتباع طرائق اليهودِ والنصارى، بعدما عَلِموا من القرآن والسنة، عياذاً بالله من ذلك، فإنّ الخطاب مع الرسولِ، والأمّة مرادَةٌ.

وقد [٤]-استدل كثير من الفقهاء[٥] بقوله تعالى: ﴿ حتى تَتَّبِعَ مِلَّتهم ﴾، حيث أفردَ المِلَّة، على أن الكُفْرَ كلَّه مِلَّةٌ واحدةٌ، لقوله: ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ فعلى هذا يتوارثُ المسلمون، والكفار[٦] كلٌّ منهم يَرِثُ قريبه سواء كان من أهلِ دينه أم لا لأنهم كلَّهم ملَّةٌ واحدة، وهذا مذهبُ الشافعي وأبي حنيفة وأحمد - في روايةٍ عنه - وقال في الرواية الأُخرى كقول مالك أنه لا يتوارثُ أهل ملَّتين شَتَّى[٧]، كما جاء في الحديث، والله أعلم-[٤].

وقوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾، قال عبد الرزاق، عن مَعْمرٍ، عن قتادة: هم اليهود والنصارى[٨]. وهو قولُ عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَمَ، واختارَه ابنُ جَريرٍ[٩].

وقال سعيد، عن قتادة: هم أصحابُ رسول الله - ﷺ -.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، وعبدالله بن عمران الأصبهاني، قالا: حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أسامة بن زيد، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب: ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال: إذا مَرّ بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذِكرِ النار تعوذ بالله من النار.

---

(١) تفسير الطبري ١/٥١٧.
(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ١٥٢٤ - ١٥٢٥.
(٤) عن الأصل.
(٥) انظر تفسير القرطبي ٢/٩٤.
(٦) في الأصل: وكل.
(٧) في الأصل: شيءُ. وانظر سنن الدارميّ كتاب الفرائض ٢/٣٧٠.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٩) تفسير الطبري ١/٥١٨.

وقال أبو العالية: قال ابنُ مسعود: والذي نفسي بيده إنّ حَقَ تلاوته أن يُحِلَّ حَلاله ويُحرِّم حَرامه، ويقرأه كما أنْزَلَه الله، ولا يُحرِّفُ الكَلِمَ عن مواضِعِه، ولا يَتأوَّلُ منه شيئاً [على] غير تأويلِه.

وكذا رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادةَ ومنصور بن المعتمر، عن ابن مسعود.

وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يُحِلّون حَلاله ويُحرِّمون حرامه، ولا يُحرِّفونه عن مواضعه.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن مسعود نحو ذلك.

وقال الحسن البصري: يعملون بمُحْكَمِه، ويؤمنون بِمُتَشابِهِه، ويَكِلُون ما أشكَلَ عليهم إلى عَالِمِه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة، أخبرنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾، قال: يتّبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾، يقول: اتَّبَعَها.

قال: ورُوِيَ عن عكرمة، وعطاء، ومجاهد، وأبي رَزِين، وإبراهيم النخَعي نحوُ ذلك.

وقال سفيان الثوري: حدثنا زُبَيد، عن مُرَّة، عن عبدالله بن مسعود، في قوله: ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾، قال: يتبعونه حق اتباعه.

(١-قال القرطبي(٢): وروى نَصْرُ بن عيسى، عن مالك، عن نافع، عن ابن عُمَر، عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿ يتلُونَهُ حَقَّ تلاوته ﴾، قال: يتّبعونه حق اتّباعه. قال: في إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب إلّا أن معناه صحيح. وقال أبو موسى الأشعري: من يتَّبع القرآن يهبط به على رياض الجنة. وعن عُمَر ابن الخطاب - رضي الله عنه -: هم الذين إذا مَرُّوا بآية رحمةٍ سألوها من الله، وإذا مَرُّوا بآية عذابٍ استعاذوا منها. قال: وقد رُوِي هذا المعنى عن النبي - ﷺ - أنه كان إذا مَرَّ بآيةِ رحمةٍ سأل، وإذا مر بآية عذابٍ تعوَّذَ-١).

وقولُه: ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ خَبَر عن ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾، أي: من أقام كتابه من أهلِ الكُتُب المنزلة على الأنبياء المتقدِّمين حق إقامته، آمن بما أرسلتُك به يا محمد، كما قال تعالى: ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزلَ إليهم من رَبِّهم لأكلوا من فوقهم ومِن تحت أرجلهم ﴾... الآية. وقال: ﴿ قل يا أهل الكتاب لستمُ على شيءٍ حتى تُقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزلَ إليكم من ربكم ﴾، أي: إذا أقمتُموها حق الإقامة، وآمنتم بها حَقَّ الإيمان، وصَدَّقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد - ﷺ - ونَعْتِه وصِفَتِه والأمر باتِّباعه ونَصْره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحقِّ واتباعِ الخيرِ في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ الذين يَتَّبعونَ الرسولَ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾... الآية. وقال تعالى: ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرُّون للأذقان سجداً. ويقولون: سُبحانَ ربنا إن كان وَعدُ ربنا لمفعولا ﴾، أي: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد - ﷺ - لَوَاقعاً. وقال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يُتلَى عليهم قالوا آمنا به، إنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مُسْلِمين. أولئك يُؤتَوْن أجرهم مرّتين بما صبروا، ويَدْرَءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾. وقال

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير القرطبي ٢/٩٥.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان ١٣٤.

تعالى: ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصيرٌ بالعباد ﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿ ومن يكفُرْ به فأولئك هم الخاسرون ﴾ كما قال تعالى: ﴿ ومن يكفُرْ به من الأحزابِ فالنارُ موعِدهُ ﴾. وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يسمَعُ بي أحد من هذه الأمة: يهوديٌ ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار».

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قد تقدَّم نظيرُ هذه الآيةِ في صَدْرِ السورة[1]، وكررت هاهنا للتأكيدِ والحثِّ على اتباع الرسولِ النبي الأمي الذي يجدُون صفته في كتبهم ونعتَه واسمه وأمره وأمته. فحذَّرهم من كتمان هذا، وكتمانِ ما أنعَمَ به عليهم، وأمرَهُم أن يذكروا نعمةَ الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسُدوا بَني عَمِّهم من العرب على ما رَزَقَهم الله مِنْ إرسالِ الرسول الخاتَمِ منهم. ولا يحمِلُهم ذلك الحسدُ على مخالفته وتكذيبه، والحَيْدَةِ عن موافَقتِه، صلواتُ الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى مُنبِّهاً على شرف إبراهيم خليله عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى جَعَله إماماً للناس يُقتَدَى به في التوحيد، حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿ وإذِ ابتلىٰ إبراهيم ربه بكلمات ﴾ أي: اذكر ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذي ينتحلون ملَّةَ إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين ـ اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختبارَه له بمَا كلَّفه به من الأوامر والنواهي ﴿ فأتمهن ﴾، أي: قام بهن كلهن، كما قال تعالى: ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾، أي: وَفَّى جميعَ ما شرع له، فعمل به صلوات الله وسلامه عليه، وقال تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ [وقال تعالى: ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قِيَماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾]، وقال تعالى: ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ بكلماتٍ ﴾، أي: بشرائعَ وأوامِرَ ونواهٍ، فإن الكلماتُ تُطلَقُ، ويُرادُ بها الكلماتُ القَدَرِيَّةُ، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿ وصدَّقَت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾. وتُطلَقُ ويُرادُ بها الشرعيَّةُ، كقوله تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾، أي: كلماته الشرعية. وهي إما خبرُ صدقٌ، وإما طلبٌ عدلٌ إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلماتٍ فأتمَّهن قال: إني جاعلك للناس إماماً ﴾، أي: جزاء على [ما] فَعَل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به، ويحتذى حذوه.

وقد اختلف في تفسير الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام. فَرُوِي عن ابن عباس

(١) هي الآية ٤٠.

ـ رضي الله عنه ـ في ذلك روايات.

فقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك. وكذا رواه أبو إسحاق السَّبِيعِيُّ، عن التميمي ـ (اسمه: أربد)[١] عن ابن عباس[٢].

وقال عبد الرزاق [أيضاً]: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات ﴾. قال: ابتلاه الله بالطهارة: خَمسٌ في الرأس، وخمسٌ في الجَسَدِ، في الرأس: قَصُّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاقُ، والسواكُ، وفَرْق الرأس. وفي الجسد: تقليمُ الأظفارِ، وحَلْقُ العانةِ، والخِتَانُ، ونَتْف الإبط، وَغَسْلُ أَثَر الغائِطِ والبول بالماء.

قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، والنَّخَعي، وأبي صالح، وأبي الجلد، نحو ذلك.

قلت: وقريبٌ من هذا ما ثبت في الصَّحيح لمسلم، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «قال رسول الله ـ ﷺ ـ: عَشْرٌ من الفطرة: قَصُّ الشارب، وإعفاءُ اللِّحية، والسِّواكُ، واستنشاقُ الماءِ، وقَصُّ الأظفار، وغَسْلُ البَرَاجم[٣]، ونَتْفُ الإبط، وحَلْقُ العانَةِ، وانتقاصُ الماء. (قال[٥] مصعب) ونسيتُ العاشرة إلا [أن] تكون المضمضة[٤].

قال وكيع: انتقاص الماء، يعني الاستنجاء».

وفي الصحيحين، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: الفطرة خمسٌ: الخِتَانُ، والاستحدادُ[٧]، وقَصُّ الشارب، وتقليمُ الأظفارِ، ونَتْفُ الإبط. ولفظه لمسلم[٦].

وقال ابن أبي حاتم: [أنبأنا] يونس بن عبد الأعلى، قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لَهِيعَةَ، عن ابن هُبَيرة، عن حَنَش بن عبدالله الصنعاني، عن ابن عباس: أنه كان يقولُ في هذه الآية: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن ﴾، قال: عَشْرٌ، ستٌ في الإنسان، وأربعٌ في المشاعر. فأما التي في الإنسان: حَلْقُ العانة، ونتف الإبط، والختان. وكان ابن هُبَيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة. [و] تقليمُ الأظفار، وقَصُّ الشارب، والسِّواك، وغسل يوم الجمعة. والأربعة التي في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة.

وقال داود ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عَبَّاس أنه قال: ما ابتُلِي [أحد][٨] بهذا الدين فقام به كُلِّه إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾. قلت له: وما الكلماتُ التي ابتلى الله إبراهيمَ بهنَّ فأتمهُنَّ؟ قال: الإسلامُ ثلاثونَ سهماً، منها عشرُ آياتٍ في براءة: ﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾ إلى آخر الآية، وعشر آيات في أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ و﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾، وعشر آيات

(١) ما بين القوسين عن الأصل، وكان فيه: اسمه زايد. ويقال فيه أيضاً: أربده، انظر تهذيب التهذيب ١٠/١٩٧.
(٢) تفسير الطبري ١/٥٢٧.
(٣) البراجم: جمع بُرْجُمة، وهي عُقَد الأصابع ومفاصلها كلّها.
(٤) عن الأصل.
(٥) مسلم، كتاب الطهارة ٢٢٣.
(٦) الاستحداد: حلق العانة.
(٧) فتح الباري، كتاب اللباس ١٠/٣٣٤، ومسلم، كتاب الطهارة ٢٢١.
(٨) عن ابن أبي حاتم في تفسيره.

في الأحزاب ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ إلى آخر الآية، فأتمهن كلهن، فكتبت له براءة. قال الله: ﴿ وإبراهيم الذي وَفَّى ﴾.

هكذا رواه الحاكم[١]، وأبو جعفر بن جَرِير، وأبو محمد بن أبي حاتم، بأسانيدهم إلى داودَ بنِ أبي هندٍ، به. وهذا لفظُ ابنِ أبي حاتم.

وقال محمد بن إسحاق، عن[٢] محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: الكلمات التي ابتُلي بهنّ[٣] إبراهيم فأتمهُنّ: فراقُ قومه - في الله - حين أُمِر بمفارقتهم. ومحاجَّته نَمْرُوذَ - في الله - حين وَقَفه على ما وَقَفَه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافُهم. وصَبْرِهِ على قَذْفِهم إياه في النار ليحرقُوه - في الله - على هَوْلِ ذلك من أمرهم، والهجرةُ بعد ذلك من وطنه وبلاده - في الله - حين أمَره بالخروج عنهم، وما أمَرَه به من الضيافة والصبر عليها، وماله، وما ابتُليَ به من ذَبْحِ ابنه حين أمَره بذبحه. فلما مَضَى على ذلك من البلاء كلِّه وأخلَصَه لله، قال الله له: ﴿ أسلم. قال: أسلمتُ لِربِّ العالمين ﴾، على ما كان من خِلاَف الناس وفِرَاقِهِمْ.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجِّ، حدثنا إسماعيلُ بن عُلَيَّة، عن أبي رَجاءٍ، عن الحسن - يعني البصريَّ -: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب فَرَضِيَ عنه، وابتلاه بالقمر فَرَضِيَ عنه، وابتلاه بالشمس فرَضِي عنه، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه، وابتلاه بالخِتَان فرضي عنه، وابتلاه بابنه فرضي عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: إي والله، ابتلاه بأمر فصَبَرَ عليه: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسنَ في ذلك، وعرف أن ربه دائم لا يزول، فوجَّه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً[٤] وما كان من المشركين. ثم ابتلاهُ بالهجرةِ فَخَرَجَ من بلاده وقومه حتى لَحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصَبَر على ذلك. وابتلاه الله بذبح ابنه والختان فصبر على ذلك[٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عمن سَمِعَ الحسن يقول في قوله: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات ﴾، قال: ابتلاهُ الله بذَبْحِ ولده، وبالنار، والكواكب، والشمس، والقمر.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا سَلْمُ بن قُتَيبة، حدثنا أبو هلال، عن الحسن ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ ﴾ قال: ابتلاه بالكوكبِ، وبالشمسِ، والقمرِ، فوجَدَهُ صابراً.

وقال العَوفِي في تفسيرِهِ، عن ابن عباس ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتَمَّهُنَّ ﴾، فمنهن: ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾، ومنهن: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾، ومنهن الآياتُ في شأن المنسَكِ والمقام الذي جُعِل لإبراهيم، والرزق الذي رُزِق ساكنو البيت، ومحمد بُعِثَ في دينهما[٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا شبابة، عن وَرْقاء، عن ابن أبي

(١) المستدرك، كتاب التفسير، سور النجم ٢/٤٧٠، وتفسير الطبري ١/٥٢٤.
(٢) في الأصل: «أنا عن».
(٣) في الأصل: «ابتلى الله إبراهيم». والمثبت عن ابن أبي حاتم.
(٤) في الأصل: مسلماً. والمثبت عن تفسير الطبري.
(٥) تفسير الطبري ١/٥٢٧.
(٦) لفظ الطبري ١/٥٢٦: «ومحمد ﷺ في ذريتهما عليهما السلام».

نَجيح، عن مجاهد، قوله تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهن ﴾، قال الله لإبراهيم: إني مُبْتَلِيك بأمرٍ فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً. قال: نعم. قال: ومن ذريتي؟ ﴿ قال: لا ينال عهدي الظالمين ﴾. قال: تجعل البيتَ مثابةً للناس. قال: نعم. قال: وأمناً. قال: نعم. قال: وتجعلنا مسلمين لك ومن ذُرِّيتنا أمةً مسلمةً لك. قال: نعم(١). قال: وترزُقُ أهله من الثمرات من آمن منهم بالله. قال: نعم.

قال ابن أبي نَجيح: سمعت من عكرمة، فعرضتُه على مجاهدٍ، فلم ينكره.

وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد.

وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾، قال: ابتلى بالآيات التي بعدها: ﴿ إني جاعلك للناس إماماً. قال: ومن ذريتي. قال: لا ينال عهدي الظالمين ﴾.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ ﴾ قال: الكلماتُ: ﴿ إني جاعِلُكَ للناس إماماً ﴾ وقولُه: ﴿ وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمناً ﴾ وقولُه: ﴿ وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمناً ﴾ وقولُه: ﴿ واتَّخِذُوا من مقامِ إبراهيمَ مُصلًّى ﴾ وقولُهُ: ﴿ وعَهدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيل ﴾... الآيةَ، وقوله: ﴿ وإذ يرفعُ إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيلُ ﴾... الآيةَ، قال: فذلك كلُّه من الكلماتِ التي ابتُلِيَ بهنَّ إبراهيمُ.

وقال السدِّي: الكلمات التي ابتلى بهنَّ إبراهيم رَبُّه: ﴿ ربنا تَقَبَّلْ منا إنك أنت السميعُ العليمُ. ربنا واجعَلْنا مسلمَينِ لك ومن ذريتنا أمة مسلمةً لك. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾.

وقال (٢-القرطبي: وفي الموطأ وغيره، عن يحيى بن سعيد أنَّه سَمِعَ سعيد بن المسيَّب يقول: إنَّ إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أوّلُ من اختَتَن، وأول من أضافَ الضَّيف، وأول من استحدَّ، وأوَّلُ من قلَّم أظفاره، وأوَّل من قَصَّ الشارب، وأوَّل من شاب، فلما رأى الشيب قال: ما هذا؟ قال: وقار. قال: يا رب، زِدني وقاراً.

وذكر ابن أبي شيبة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه قال: أوَّلُ من خَطَبَ على المنابر إبراهيم عليه السلام. قال غيره: وأوَّل من ثَرَد(٣) الثَّريد، وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأوَّل من استنجى بالماء، وأوَّل من لبس السراويل.

وروَى مُعاذ بن جَبَلٍ قال: قال رسول الله - ﷺ - إنْ أَتَّخِذْ مِنْبَراً فقد اتَّخذه أبي إبراهيم، وإنْ أَتَّخِذِ العصا فقد اتخذها أبي إبراهيم(٤).

هذا الحديث لا يثبت، والله أعلمُ ثم شرع القرطبي يتكلم على ما يتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية، خَرَّجه البَزَّار(٥) في مسنده-٢).

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله أنه يجوزُ أن يكونَ المرادُ بالكلماتِ جميعَ ما ذكر، وجائز أن يكونَ بعضَ ذلك، ولا يجوز الجزمُ بشيءٍ منها أنه المرادُ على التعيينِ إلا بحديثٍ أو إجماعٍ. قال: ولم يصحَّ في ذلك خبرٌ

---

(١) بعده في تفسير ابن أبي حاتم: «وترينا مناسكنا وتتوبُ علينا إنك أنت التوّاب الرحيم. قال: نعم. قال: وتجعل هذا البلد آمناً. قال: نعم».

(٢) عن الأصل.

(٣) في الأصل: برد البريد. والمثبت عن القرطبي.

(٤) تفسير القرطبي ٢/٩٨.

(٥) أي حديث المنبر، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار ١/٣٠٤.

بنقلِ الواحدِ ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

قال: غَيْرَ أنه قد رُوِيَ عن النبي - ﷺ - في نظير معنى ذلك خبران، أحدهما ما حدثنا به أبو كُرَيب، حدثنا رِشدين بن سعد، حدثني زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، قال: كان النبي - ﷺ - يقول: ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيمَ خَلِيلَه الذي وَفَّى؟ لأنه كان يقول كُلَّما أصبح وكلما أمسى: ﴿ سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ . . . حتى يختم الآية.

قال: والآخَرُ منهما حدثنا به أبو كُرَيب، أخبرنا الحسن بن عطية، أخبرنا إسرائيل، عن جعفر بن الزُّبير، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله - ﷺ -: ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾: أتدرون ما وفى؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: وَفَّى عمل يومه، أربع ركعات في النهار(١).

ورواه آدمُ في تفسيرِه، عن حَمّاد بن سلمة. وعَبْدِ بن حُمَيد، عن يونس بن محمد، عن حَمّاد بن سلمة، عن جعفر بن الزبير، به.

ثم شرع ابن جرير يُضَعِّف هذين الحديثين، وهو كما قال؛ فإنه لا تجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما، وضعفهما من وجوه عديدة، فإن كلاً من السندين مشتملٌ على غير واحد من الضعفاء، مع ما في متنِ الحديثِ مما يدلّ على ضعفه.

ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إن الذي قاله مجاهد، وأبو صالح، والربيع بن أنس أولى بالصوابِ من القول الذي قاله غيرهم كان مذهباً، لأنّ قولَه: ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾، وقولَه: ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين ﴾ وسائر الآيات التي هي نظير ذلك، كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم.

قلت: والذي قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذُكِرَ، أقوى من هٰذا الذي جَوَّزَه من قولِ مجاهد ومن قال مثله، لأن السياق يعطي غير ما قالوه، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينالُ عهدِي الظالمين ﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً، سَأَلَ الله أن تكونَ الأئمةُ من بعده من ذريته، فأُجيبَ إلى ذلك، وأُخبِرَ أنه سيكون من ذريّته ظالمون، وأنه لا ينالُهم عهدُ الله، ولا يكونون أئمةً فلا يُقتدَى بهم. والدليل على أنه أجيب إلى طَلِبَتِهِ قولُ الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾. فكل نبيٍّ أرسلَه الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وأما قولُه تعالى: ﴿ قال لا ينالُ عهدِي الظالمينَ ﴾ فقد اختلَفُوا في ذلك، فقال خُصَيف، عن مجاهد في قوله: ﴿ قال لا ينالَ عهدِي الظالمينَ ﴾، قال: إنه سيكون في ذريتك ظالمون.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿ قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾، قال: لا يكونُ لي إمامٌ ظالمٌ. وفي رواية: لا أجعل إماماً ظالماً يُقْتَدَى به(٢).

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ قال لا ينالُ عهدِي الظالمينَ ﴾، قال: لا يكونُ إمامٌ ظالمٌ يُقتَدَى به.

---

(١) تفسير الطبري ١/٥٢٨.
(٢) تفسير الطبري ١/٥٣٠.

وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا شريك، عن منصور، عن مجاهد، في قوله: ﴿ ومن ذريتي ﴾ قال: أما من كان منهم صالحاً فسأجعله إماماً يقتدى به. وأما من كان ظالماً فلا ولا نُعْمَةَ عَيْنٍ.

وقال سعيد بن جُبَير ﴿ لا ينالُ عهدي الظالمين ﴾: المرادُ به المشركُ، لا يكونُ إمامٌ ظالم. يقول: لا يكون إمامٌ مشركٌ.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاءٍ، قال ﴿ إني جاعِلُك للناس إماماً قال ومن ذريتي ﴾ فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً، قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره[١].

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عمرو بن ثور القيساري ـ فيما كتب إلي ـ حدثنا الفِرْيابي، حدثنا إسرائيل، حدثنا سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال الله لإبراهيم: ﴿ إني جاعلك للناس إماماً، قال: ومن ذُرِّيتي ﴾. فأبى أن يفعل، ثم قال: ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ قال: ومن ذُرِّيتي، قال لا ينالُ عهدي الظالمينَ ﴾، يخبره أنه كائن في ذُرِّيته ظالمٌ لا ينـالُ عهدَه ـ ولا ينبغي له أن يولِّيه شيئاً من أمره وإن كانوا من ذُرِّية خليله ـ ومحسنٌ سَتَنفُذُ فيه دعوتهُ، وتبلغ لهِ فيه ما أراد من مسألته[٢].

وقال العَوفي، عن ابن عباس ﴿ لا ينالُ عهدِي الظالمينَ ﴾، قال: يعني لا عَهْدَ لظالم عليك في ظلمه، أن تُطِيعه فيه[٣].

وقال ابن جرير: [حدثنا المثنى][٤]، حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرحمن بن عبدالله، عن إسرائيل، عن مسلم الأعور، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ قال: ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته فانتقضه.

ورُوِيَ عن مجاهد، وعطاء، ومُقاتل بن حَيَّان، نحوُ ذلك.

وقال الثوري، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، قال: ليس لظالم عهد[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة، في قوله: ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾، قال: لا ينال عهدُ الله في الآخرة الظالمين، فأما في الدنيا فقد ناله الظالمُ فأمِن به وأكل وعاشَ[٢].

وكذا قال إبراهيم النخَعي، وعطاء، والحسن، وعكرمة.

وقال الربيع بن أنس: عهدُ الله الذي عهد إلى عباده دينُه، يقول: لا ينال دينهُ الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾، يقول: ليس كلُّ ذريتك يا إبراهيم على الحق.

وكذا رُوي عن أبي العالية، وعطاء، ومقاتل بن حيان.

وقال جُوَيبر، عن الضحاك: لا ينال طاعتي عَدُوٌّ لي يعصيني، ولا أنحلها إلا وليّاً لي يطيعني.

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٥٣٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٣١.

(٤) عن تفسير الطبري.

و[قال] الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد، حدثنا أحمد بن عُيَيْنَة بن سعيد الأسدي، حدثنا سليم بن سعيد الدامغاني، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾، قال: لا طاعةَ إلا في المعروف.

وقال السُّدي: ﴿ لا ينال عهدِي الظالَمين ﴾، يقولُ: عهدي نُبُوَّتي.

فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية على ما نقله ابن جرير، وابن أبي حاتم، رحمهما الله تعالى.
واختار ابنُ جرير أن هذه الآية ـ وإن كانت ظاهرة في الخبر ـ أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام أنه سيُوجَدُ من ذريتك من هو ظالم لنفسِه، كما تقدَّم عن مجاهدٍ وغيرِه(١)، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾

وقال (٢-ابن خُوَيْزِمَنْداد المالكيُّ(٣): الظالمُ لا يصلحُ أن يكونَ خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا إمام صلاة ولا راوياً-٢).

قال العَوفيّ، عن ابن عباس: قوله تعالى ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ﴾ يقول: لا يقضون منه وطراً، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه.

وقال عَلِيُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابن عباس: مثابةً للناسِ، يقول: يَثُوبونَ إليه.

رواهما(٤) ابن جَرير.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا عبدالله بن رجاء، أخبرنا إسرائيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ﴾ قال: يثوبون إليه، ثم يرجعون.

قال: وروي عن أبي العالية وسعيد بن جُبَير ـ في روايةٍ ـ وعطاء، ومجاهد، والحسن، وعطية، والربيع بن أنس، والضحاك، نحو ذلك.

وقال ابن جَرير: حدثني عبد الكريم بن أبي عمير، حدثني الوليد بن مسلم قال: قال أبو عمرو ـ يعني الأوزاعي ـ حدثني عبدة بن أبي لبابة، في قوله تعالى: ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس ﴾ قال: لا ينصرفُ عنه منصرِفٌ وهو يرى أنه قد قَضَى منه وَطَراً.

وحدثني يونس، عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ﴾ قال: يثوبون إليه من البُلْدان كلها ويأتونه.

(٢-وما أحسن ما قال بعض الشعراء في هذا المعنى، أورده القرطبي(٥):

جُـعِـلَ الـبـيـتُ مـثـابـاً لَـهُـمُ   ليس منه الدَّهرَ يقضون الوطَرْ-٢)

(١) انظر تفسير الطبري ١/٥٣٢.
(٢) عن الأصل.
(٣) انظر تفسير القرطبي ٢/١٠٩.
(٤) في الأصل: رواه إبراهيم بن جرير. وهو خطأ. وانظر تفسير الطبري ١/٥٣٣ ـ ٥٣٤.
(٥) تفسير القرطبي ٢/١١٠.

وقال سعيد بن جُبَيْر ـ في الرواية الأخرى ـ وعكرمة، وقتادة، وعطاء الخراساني ﴿ مثابةً للناس ﴾ أي: مجمعاً.

﴿ وأمناً ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أي أمناً للناس.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ يقول: أمناً من العدو، وأن يُحْمَل فيه السلاح. وقد كانوا في الجاهلية يُتَخَطَّف الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسْبَون.

ورُوِي عن مجاهد، وعطاء، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس، قالوا: من دخله كان آمناً(١).

ومضمون ما فَسَّر به هؤلاءِ الأئمة هذه الآيةَ: أن الله تعالى يذكر شَرَف البيتِ، وما جعلَه موصوفاً به شرعاً وقدراً، من كونه مثابةً للناس، أي: جعله مَحَلاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تَقْضِي منه وَطَراً، ولو تَرَدَّدت إليه كلَّ عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام، في قوله: ﴿ فاجعلْ أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ إلى أن قال: ﴿ ربنا وتقبَّل دُعَاءِ ﴾. ويَصِفُه تعالى بأنه جَعَله أمناً، من دَخَله أَمِنَ، ولو كانَ قد فَعَلَ ما فَعل ثم دخله كان آمناً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه ولا يتعرَّض له. كما وصفها في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ﴾، أي: يُرْفَع عنهم بسبب تعظيمها السوءُ، كما قال ابن عباس: لو لم يحجَّ الناسُ هذا البيتَ لأطبقَ اللهُ السماءَ على الأرض. وما هذا الشرفُ إلا لشَرَفِ بانيه أَوَّلاً وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي بِبَكَّةَ مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة نُبِّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿ واتخِذُوا من مقام إبراهيمَ مصلًى ﴾. وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فقال ابن أبي حاتم.

حدثنا عُمَر بن شَبَّة النميري، حدثنا أبو خلف ـ يعني عبدالله بن عيسى ـ حدثنا داود بن أبي هند، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ واتخِذُوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال: مقام إبراهيمَ الحرمُ كلُّه. ورُوِي عن مجاهدٍ، وعطاءٍ، مِثل ذلك.

وقال: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيج، قال: سألتُ عطاءً عن ﴿ واتخِذُوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى ﴾، فقال: سَمِعتُ ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذي ذُكِر هاهنا، فمقام إبراهيم هذا الذي هو في المسجد.

ثم قال: ومقامُ إبراهيم، يَعُدّ كثيرٌ مقامَ إبراهيمَ الحجَّ كلَّه.

ثم فَسَّر لي عطاء فقال: التعريفُ، وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومنى، ورمي الجمار، والطواف بين الصفا والمروة. فقلت: أفسَّره ابن عباس؟ قال: لا. ولكن قال: مقام إبراهيم الحجُّ كله. قلتُ: أَسَمِعت ذلك لهذا أجمع؟ قال: نعم، سَمِعتُه منه.

وقال سفيان الثَّورِيُّ، عن عبدالله بن مسلم، عن سعيد بن جُبَير: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾، قال: الحَجَر مقام إبراهيم لِيَّنه الله، قد جعله رحمةً، فكان يقوم عليه، ويناوله إسماعيلُ الحجارةَ. ولو غَسَل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه[١].

[٢]-(وقال السُّدِّي: المقامُ الحجرُ الذي وَضَعَتْه زوجةُ إسماعيل تحت قَدَم إبراهيم حتى غَسلت رأسه. حكاه القرطبي[٣] وضَعَّفَه ورجَّح غيره. وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس)-[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن ابن جُرَيج، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، سَمع جابراً يحدِّث عن حجة النبي ـ ﷺ ـ قال: لما طاف النبي ـ ﷺ، قال له عُمَر: هذا مقامُ أبينا إبراهيم؟ قال: نعم. قال: أفلا نتخذه مُصَلَّى؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلَّى ﴾.

وقال عثمان بن أبي شيبة: أخبرنا أبو أسامة[٤]، عن زكريا، عن أبي إسحاقَ، عن أبي ميسرةَ قال: قال عمر قلت: يا رسول الله، هذا مقامُ خليل رَبنا؟ قال: نعم. قال: أفلا نتخذه مُصَلَّى؟ فنزلت: ﴿ واتخِذُوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾.

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا دَعْلَج بن أحمد، حدثنا غيلان بن عبد الصمد، حدثنا مسروق بن المرزبان، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عمر بن الخطاب، أنه مَرَّ بمقام إبراهيم، قال: يا رسول الله، أليس نقومُ مقامَ خليلِ رَبِّنا؟ قال: بلى. قال: أفلا نَتَّخِذُه مصلًّى؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت: ﴿ واتَّخِذُوا من مقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى ﴾.

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن محمد القَزْويني، حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، عن مالك بن أنس، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر، قال: لما وقف رسول الله ـ ﷺ ـ يوم فتح مكة عند مقام إبراهيمَ، قال له عُمَر: يا رسول الله، هذا مقامُ إبراهيمَ الذي قال الله: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾؟ قال: نعم. قال الوليد: قلت لمالك: هكذا حَدَّثك ﴿ واتخذوا ﴾؟ قال: نعم. هكذا وقع في هذه الرواية. وهو غريب.

وقد روى النسائي من حديث الوليد بن مسلم، نحوه.

وقال البخاري: باب قوله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾: مثابةً: يَثُوبون: يرجعون.

حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن حُمَيدٍ[٥]، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: وافقتُ الله في ثلاثٍ ـ أو وافقني ربي في ثلاث ـ قلت: يا رسولَ اللهِ، لو اتَّخذتَ من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾. وقلت: يا رسولَ الله يدخلُ عليك البرُّ والفاجرُ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آيةَ الحجاب. وقال: وبلغني مُعاتبة النبي ـ ﷺ ـ بعض نسائِه، فدخلت عليهن[٦] فقلت: إن انتهيتن أو لَيُبدِّلَنَّ الله رسولَه خيراً منكن، حتى أتيتُ إحدى نسائه، فقالت: يا عمر، أما في

(١) أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً.
(٢) عن الأصل.
(٣) تفسير القرطبي ٢/١١٣.
(٤) في الأصل: أبو أمامة. وهو خطأ، وأبو أُسامة هو حماد بن أُسامة. انظر تهذيب التهذيب ٣/٢.
(٥) في الأصل: عبد الحميد. وهو خطأ. وحميد بن أبي حميد الطويل. انظر ترجمته في تهذيب الكمال ٧/٣٥٥.
(٦) في الأصل: فدخلت عليهنّ بالحجاب. والمثبت نص البخاري.

رسول الله ما يعظ نساءه حتى تَعِظَهُنَّ أنت؟! فأنزل الله: ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ . . . الآية.

وقال ابن أبي مريم: أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني حميد، قال: سمعت أنساً، عن عمر رضي الله عنهما.

هكذا ساقه البخاري[١] هاهنا، وعلق الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبي مريم المصري. وقد تفرد بالرواية عنه البخاري من بين أصحاب الكتب الستة. ورَوَى عنه الباقون بواسطة، وغَرَضُه من تعليقِ هذا الطريقِ ليبيِّن فيها اتصال هذا الحديث، وإنما لم يُسنِدْه لأن يحيى بن أيوب الغافقي فيه شيء، كما قال الإمام أحمدُ فيه: هو سيىء الحفظ. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، عن حُمَيد، عن أنس، قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: وافقتُ ربي ـ عزَّ وجلَّ ـ في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿ واتخِذُوا من مقام إبراهيم مصلًى ﴾، وقلت: يا رسول الله، إن نساءكَ يدخلُ عليهنّ البرُّ والفاجرُ، فلو أمرتَهُنَّ أن يحتَجِبْنَ؟ فنزلت آيةُ الحجاب. واجتمع على رسول الله ـ ﷺ ـ نساؤُه في الغِيرة. فقلت لهن: ﴿ عَسَى رَبُّه إن طلقكنَّ أن يُبْدِله أزواجاً خيراً منكن ﴾[٢] فنزلت كذلك[٣].

ثم رواهُ أحمد، عن يحيى وابن أبي عدي، كلاهما عن حميد، عن أنس، عن عمر أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، فذكره[٤].

وقد رواه البخاري[٥] عن عَمْرو بن عَوْن. والترمذي عن أحمد بن منيع. والنسائي عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي. وابن ماجه عن محمد بن الصباح، كلهم عن هُشَيم بن بشير، به. ورواه الترمذي أيضاً عن عبد بن حُميد عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة. والنسائي عن هناد، عن يحيى بن أبي زائدة، كلاهما عن حُمَيد، وهو ابن تِيْرُوَيه الطويل، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه الإمام علي بن المديني، عن يزيد ابن زُرَيع، عن حميد، به. وقال: هذا من صحيح الحديث، وهو بصري. ورواه الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه بسند آخر، ولفظ آخر، فقال:

حدثنا عقبة بن مُكْرَم، حدثنا سعيد بن عامر، عن جُويرية بن أسماء، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر، قال: وافقتُ ربِّي في ثلاث: في الحجابِ، وفي أُسارى بدرٍ، وفي مقام إبراهيم[٦].

وقال أبو حاتم الرازي: حدثنا محمد بن عبدالله الأنصاري، حدثنا حُمَيد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافَقَنِي رَبِّي في ثلاث ـ أو وافقتُ رَبِّي ـ قلتُ: يا رسول الله، لو اتَّخذتَ من مقام إبراهيمَ مُصلًّى؟ فنزلَتْ: ﴿ واتّخِذُوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى ﴾، وقلت: يا رسولَ الله، لو حَجَبْتَ النساءَ؟ فنزلت آيةُ الحجابِ، والثالثة: لما مات عبدالله بن أُبَيٍّ جاء رسول الله ـ ﷺ ـ ليصلي عليه. قلت: يا رسولَ الله،

---

(١) فتح الباري، تفسير بسورة البقرة ١٦٨/٨.
(٢) بعده في الأصل: (مسلمات). وليست في المسند.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢٣/١ ـ ٢٤.
(٤) المسند ٢٤/١، ٣٦.
(٥) فتح الباري، كتاب الصلاة ٥٠٤/١، وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ٨٢/١١، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٣٢٢.
(٦) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٨٦٤ ـ ١٨٦٥.

تَصلِّي على هذا الكافرِ المنافِقِ! فقال: إيهاً عنك[٦] يابن الخطاب. فنزلت: ﴿ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾.

وهذا إسناد صحيح أيضاً، ولا تعارض بين هذا ولا هذا، بل الكل صحيح، ومفهوم العدد إذا عارضه منطوق قُدِّم عليه، والله أعلم.

وقال ابن جُرَيج: أخبرني جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رَمَلَ ثلاثة أشواط، ومشى أربعاً، حتى إذا فرغ عَمَد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾.

وقال ابن جَرير: حدثنا يوسف بن سليمان، حَدَّثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر قال: استلم رسول الله ـ ﷺ ـ الركنَ، فَرَمَل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم تقَدَّم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿واتخِذُوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى﴾. فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين[٧].

وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث حاتم بن إسماعيل[٨].

وروى البخاري بسنده، عن عمرو بن دينار، قال: سَمِعتُ ابن عمر يقول: قَدِمَ رسول الله ـ ﷺ ـ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين[٩].

فهذا كلُّه مما يدلُّ على أنَّ المراد بالمَقام إنما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم عليه السلام يقومُ عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدارُ أتاه إسماعيل ـ عليه السلام ـ به ليقومَ فوقه، ويناولهُ الحجارة، فيضَعُها بيده لرفع الجدار، كلّما كَمَلَ ناحيةً انتقل إلى الناحيةِ الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقفٌ عليه، كُلَّما فَرَغ من جدارٍ نقله إلى الناحية التي تليها هكذا، حتى تم جِدَاراتُ الكعبة، كما سيأتي ببيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخاري. وكانت آثار قدميه ظاهرةً فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية[١]:

وموطِئ إبراهيمَ في الصَّخرِ رَطْبَة على قَدَمَيهِ حافياً غيرَ ناعِلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً.

وقال عبدالله بن وهب: أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب: أن أنس بن مالك حدثهم، قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه عليه السلام، وأخمَص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم[٢].

وقال ابن جَرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا سَعيد، عن قتادة: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، إنما أُمِرُوا أن يُصَلّوا عنده ولم يُؤمَرُوا بمسحه. ولقد تكلفَت هذه الأمةُ شيئاً ما تكلَّفته الأممُ قبلها، ولقد ذُكِرَ لنا من رأى أثر عَقِبِه وأصابعه فيه، فما زالت هذه الأمةُ يمسحونه حتى اخلولق وانمحى[٣].

(١) إيها عنك: اسكت.
(٢) تفسير الطبري ٥٣٧/١.
(٣) مسلم، كتاب الحج ٨٨٦ ـ ٨٩٢.
(٤) فتح الباري، كتاب الحج ٦١٥/٣.
(٥) سيرة ابن هشام ٢٧٣/١.
(٦) تفسير القرطبي ١١٣/٢، وقال: حكاه القشيري.
(٧) تفسير الطبري ٥٣٧/١.

قلت: وقد كان المقامُ ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانُه معروفٌ اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلَّة هناك، وكان الخليلُ ـ عليه السلام ـ لما فَرَغَ من بناء البيت وَضَعه إلى جدارِ الكعبةِ انتهى عنده البناءِ، فتركه هناك، ولهذا ـ والله أعلم ـ أُمِر بالصلاة هناك عند فراغ الطوافِ، وناسبَ أن يكونَ عند مقام إبراهيمَ حيث انتهى بناءُ الكعبةِ فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أميرُ المؤمنينَ عُمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أحد الأئمة المهديِّينَ والخلفاءِ الراشدينَ، الذينَ أُمِرْنا باتِّباعهم، وهو أحدُ الرَّجُلين اللذَين قال فيهما رسول الله ـ ﷺ ـ: «اقتَدُوا باللَّذَين من بعدي أبي بكر وعُمَر». وهو الذي نزل القرآنُ بوفاقِهِ في الصلاة عنده، ولهذا لم ينكر ذلك أحدٌ من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيج، حدثني عطاء وغيره من أصحابنا، قالوا: أوَّل من نقله عمرُ بن الخطاب رَضِي اللهُ عنه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن حُمَيد الأعرج، عن مجاهد قال: أوَّلُ من أخَّر المقام إلى موضعه الآن عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِي الله عنه.

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي: أخبرنا أبو الفضل القطان، أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمي، حدثنا أبو ثابت، حدثنا الدراوردي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: إن المقام كان في زمان رسول الله ـ ﷺ ـ وزمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عُمَر بن الخطابِ، رضي الله عنه. وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر العَدَني قال: قال سفيان ـ وهو إمامُ المكيين في زمانه ـ: كان المقام من سُقْع[1] البيت على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فحوله عمر إلى مكانه بعد النبي ـ ﷺ ـ وبعد قوله: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾. قال: ذهب السيل به بعد تحويل عُمَر إياه من موضعه هذا، فَرَدَّهُ عُمَر إليه.

وقال سفيان: لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله. قال سفيان: لا أدري أكان لاصقاً بها أم لا؟.

فهذه الآثار متعاضدةٌ على ما ذكرناه، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه، حدثنا أبو عَمْرو[2]، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، قال: قال عمر: يا رسول الله، لو صَلَّينا خلفَ المقامِ؟ فأنزل الله: ﴿ واتخِذُوا من مقام إبراهيمَ مُصَلًّى ﴾. فكان المقامُ عند البيت، فحوله رسول الله ـ ﷺ ـ إلى موضعه هذا، قال مجاهد: قد كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن.

هذا مرسل عن مجاهد، وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق، عن حُمَيد الأعرج، عن مجاهد: أول من أَخَّر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وهذا أصح من طريق ابن مَرْدُويه، مع اعتضاد هذا بما تقدم، والله أعلم.

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ

(١) أي: ناحيته.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ الثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

قال الحسنُ البصريُّ: قولهُ: ﴿ وعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ ﴾، قال: أمرهما الله أن يُطَهِّراه من الأذى والنَّجس ولا يُصيبهُ من ذلك شيءٌ[١].

وقال ابن جُرَيج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ وعَهدنا إلى إبراهيم ﴾، أي: أمرناه. كذا قال. والظاهر أن هذا الحرف إنما عُـدِّي بإلى لأنه في معنى: تقدمنا وأوحينا.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قوله: ﴿ أن طَهِّرا بيتي للطائفين والعاكفين ﴾، قال: من الأوثان[٣].

وقال مجاهد وسعيد بن جُبَير: ﴿ طهرا بيتي للطائفين ﴾: إن ذلك من الأوثان والرِّيب وقول الزور والرجس.

قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن عُبَيد بن عمير، وأبي العالية، وسعيد بنُ جبير، ومجاهد، وعطاء، وقتادة ﴿ أن طهرا بيتي ﴾، أي: بلا إله إلا الله، من الشرك.

وأما قولهُ تعالى: ﴿ للطائفين ﴾ فالطواف بالبيت معروف. وعن سعيد بن جُبَير أنه قال في قوله تعالى ﴿ للطائفين ﴾: يعني من أتاه من غُرْبة ﴿ والعاكفين ﴾ المقيمين فيه. وهكذا رُوي عن قتادةَ، والربيع بن أنس: أنهما فَسَّرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جُبَير.

وقال يحيى القطَّان، عن عبد الملك ـ هو ابن أبي سليمان ـ عن عطاء في قوله: ﴿ والعاكفين ﴾، [قال]: من انتابه[٤] من الأمصار فأقام عنده، وقال لنا ـ ونحن مجاورون ـ: أنتم من العاكفين.

وقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاءٍ، عن ابن عبَّاسٍ، قال: إذا كانَ جالساً فَهو مِنَ العاكفينَ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمّاد بن سلمة، حدثنا ثابت، قال: قلت لعبدالله بن عُبَيد بن عمير: ما أراني إلا مُكَلِّم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يُجْنِبُون ويُحْدِثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سُئِل عنهم، فقال: هم العاكفون.

قلت: وقد ثبت في الصحيح أنّ ابن عُمَرَ كان ينام في مسجد الرسول ـ ﷺ ـ وهو عَزَب.

وأما قولُه تعالى: ﴿ والركع السجود ﴾، فقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿ والركع السجود ﴾، قال: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود. وكذا قال عطاء وقتادة.

وقال ابن جَريرٍ ـ رحمه الله ـ: فمعنى الآية: وأمَرْنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. والتطهيرُ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٢) تفسير الطبري ١/٥٣٨.
(٣) بعده في الأصل: «والريب». وانظر الأثر في تفسير ابن أبي حاتم.
(٤) في الأصل: مَن أتى. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم.

الذي أمرهما به في البيت هو تطهيرهُ من الأصنام وعبادةِ الأوثانِ فيه ومن الشرك.

ثم أورد سؤالاً فقال: فإن قيل: فهل كان قَبْلَ بناء إبراهيم عند البيتِ من ذلك الذي أُمِرَ بتطهيره شيءٌ منه؟

وأجاب بوجهين، أحدهما: أنه أمرهما بتطهيـر مما كان يعبد عنده زَمَانَ قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سُنَّة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد ﴿ أن طهرا بيتي ﴾، قال: من الأصنام التي يعبدون، التي كان المشركون يعظمونها.

قلت: وهذا الجواب مُفَرَّع على أنه كان يُعْبَدُ عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام، ويحتاجُ إثباتِ هذا إلى دليل عن المعصوم مُحَمَّدٍ.

الجواب الثاني: أنه أمرهما أن يخلصا بناءه لله وحدَه لا شريك له، فيبنياه مطهراً من الشرك والرَّيْب، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿ أفمن أَسَّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أم من أَسَّسَ بنيانه على شفا جُرُفٍ هارٍ ﴾.
قال: فكذلك قوله: ﴿ وعَهدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طَهِّرا بيتي ﴾، أي: ابنيا بيتي على طهر من الشرك بي والريب، كما قال السدي: ﴿ أن طهرا بيتي ﴾ ابنيا بيتيَ للطائفين.

وملخَّصُ هذا الجوابِ أن الله تعالى أَمَر إبراهيمَ وإسماعيلَ ـ عليهما السلام ـ أن يبنيا الكعبة على اسمه وحدَه لا شريكَ له، للطائفينَ به والعاكفين عندَه، والمصلِّين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿ وإذ بَوَّأنا لإبراهيمَ مكان البيتْ أن لا تُشْرِكْ بي شيئاً، وطَهِّر بيتي للطائفينَ والقائمين والركَّع السجود ﴾ . . . الآيات.

(١-وقد اختلف الفقهاء(٢): أَيُّما أفضل؟ الصلاةُ عند البيت أو الطواف به؟ فقال مالك: الطَّوافُ به لأهل الأمصار أفضلُ من الصلاة عنده. وقال الجمهور: الصلاةُ أفضلُ مطلقاً، وتوجيهُ كلٍّ منهما يُذْكَر في كتاب الأحكام-١).

والمرادُ من ذلك الردُّ على المشركين الذين كانوا يُشركون بالله عند بيته، المؤسَّس على عبادَتِهِ وَحْدَه لا شريك له، ثم مع ذلك يَصُدُّون أهلَه المؤمنينَ عنه، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين كفروا ويصدُّون عن سبيل الله والمسجدِ الحرام الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد، ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلمٍ نُذِقْه من عذابٍ أليمٍ ﴾.

ثم ذَكَر أنَّ البيت إنما أُسِّسَ لمن يعبدُ الله وحدَه لا شريكَ له، إمابطوافٍ أو صلاة، فذكر في سُورة الحج(٣) أجزاءها الثلاثة قيامَها وركوعَها وسُجُودَها، ولم يذكر العاكفين لأنه تَقَدَّم ﴿ سواءً العاكفُ فيه والباد ﴾. وفي هذه الآية الكريمة ذَكَر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوعِ والسجود عن القيام؛ لأنه قد عَلِم أنه لا يكونُ ركوعٌ ولا سجودٌ إلا بعد قيام. وفي ذلك أيضاً رَدٌّ على من لا يَحُجُّه من أهل الكتابين اليهود والنصارى، لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة، وغير ذلك، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مُقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له! وقد حَجّ البيتَ موسى بن عمْران وغيره من الأنبياء عليهم السلام، كما أخبر بذلك المعصومُ، الذي لا ينطق عن الهوى، ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾.

---

(١) عن الأصل.
(٢) انظر تفسير القرطبي ١١٦/٢ ـ ١١٧.
(٣) الحج، آية ٢٦.

وتقدير الكلام إذاً: ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾، أي: طهِّراه من الشرك والريب، وابنياه خالصاً لله، معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود. وتطهيرُ المساجد مأخوذٌ من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿ في بيوت أَذِنَ الله أن تُرْفَع ويُذْكَر فيها اسمُه يُسَبِّح له فيها بالغدوِّ والآصال﴾ ومن السنةِ من أحاديثَ كثيرةٍ، من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك، من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال عليه السلام: «إنما بُنِيت المساجد لما بُنِيت له»[1]. وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءاً على حِدَةٍ، ولله الحمدُ والمنة.

[2]-(وقد اختلف الناسُ في أوَّل من بنى الكعبة، فقيل: الملائكةُ قبلَ آدم. ورُوي هذا عن أبي جَعْفَرٍ الباقر مُحَمَّد بن علي بن الحسين، ذكره القرطبي[3]، وحكى لفظه، وفيه غرابةٌ. وقيل: آدم، رواه عبد الرزاق، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، وسعيد بن المسيِّب، وغيرهم أنَّ آدم بناه من خمسة أَجْبُل من حراء، وطور سيناء، وطور زيتاء، وجبلِ لبنان، والجوديّ. وهذا غريب أيضاً. ورُوِي نحوه عن ابن عباسٍ، وكعب الأحبار، وقتادة. وعن وهب بن مُنَبِّه: أوَّل من بناه شيثٌ عليه السلام. وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه عن كُتُب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدَّق ولا يكذَّب، ولا يعتمد عليها بمجرَّدها، وأما إذا صح حديثٌ في ذلك فعلى الرأسِ والعين. وقال فخر الدين الرازي: الأكثرون من أهل الأخبار على أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم، على ما روينا فيه من الأحاديث، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل ﴾. فدل على وجود القواعد قبل ذلك وفيما قاله نظر، فإنه لم يرد شيء من الأحاديث المرفوعة تدل على ما ذكره، وفي الاستدلال مما ذكره من الآية نظر، إذ لا يلزم وجودُ القواعد قبل ذلك، والله أعلم.

وقولهُ تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزُقْ أهلَه من الثمراتِ من آمنَ منهم بالله واليوم الآخر﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بَشَّار قال: حدثنا عبدُ الرحمن بن مَهْدِي، حدثنا سفيان، عن أبي الزُّبير، عن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ إبراهيمَ حَرَّم بيتَ اللهِ وأَمَّنَه، وإني حَرَّمتُ المدينة ما بين لاَبَتيها، فلا يُصَادُ صيدُها ولا يُقطعُ عِضاهُها»[4].

وهكذا رواه النسائي[5]، عن محمد بن بشار، عن بندار، به، وأخرجه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وعَمْرو الناقد، كلاهما عن أبي أحمد الزبيري، عن سفيان الثوري.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو كريب وأبو السائب قالا: حدثنا ابن إدريس (ح) وحدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عبد الرحيم الرازي، قالا جميعاً: سمعنا أشعث، عن نافع، عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن إبراهيم كان عبدَالله وخَليله، وإني عبدُالله ورسوله. وإن إبراهيم حَرَّم مكة، وإني حَرَّمت المدينة ما بين لابتيها،

---

(١) مسلم، كتاب المساجد ٣٩٧ ـ ٣٩٨، وابن ماجه، كتاب المساجد ٢٥٢.
(٢) عن الأصل.
(٣) تفسير القرطبي ٢/١٢٠.
(٤) تفسير الطبري ١/٥٤٢. واللابة: الحرَّة، وهي الأرض ذات الحجارة السود. والعضاة: شجر عظيم له شوك.
(٥) مسلم، كتاب الحج ٩٩٢.

عِضاهَها وصَيدَها، لا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير[١].

وهذه الطريقُ غريبةٌ، ليست في شيءٍ من الكُتُب الستة، وأصل الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان الناسُ إذا رَأوا أوَّل الثمر، جاءوا به إلى رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ فإذا أخذه رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: اللهمَّ بارِكْ لنا في ثَمرنا، وبارِكْ لنا في مَدينتنا، وبارك لنا في صاعِنَا، وبارِكْ لنا في مُدِّنا. اللهمَّ إنَّ إبراهيمَ عبدُك وخليلُك، وإني عبدُكَ ونبيُّكَ. وإنه دعاكَ لمكَّةَ، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاكَ لمكَّةَ، ومثلِه معه. ثم يدعو أصْغَرَ وَليدٍ له، فيُعطِيه ذلك الثمر.

وفي لفظ: بركةً مع بركةٍ[٢]. ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان. لفظ مسلم[٣].

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُريب، حدثنا قُتَيبة بن سعيد، حدثنا بَكْرُ بن مُضَرَ، عن ابن الهادِ، عن أبي بكر بن محمد، عن عبدالله بن عَمْرو بن عُثمان، عن رافع بن خَدِيج، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن إبراهيم حَرَّم مكة، وإني أُحرِّم ما بين لابتيها[٤].

انفرد بإخراجه مسلم[٤]، فرواه عن قتيبة، عن بكر بن مُضَرَ، به. ولفظه كلفظه سواء.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأبي طلحة: التمِسْ لي غلاماً من غِلْمانكم يخدُمُني. فخَرَج بي أبو طلحةَ يُرْدِفُني وراءه، فكنت أخدُمُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كلما نزل. وقال في الحديث: ثم أقْبَلَ حتى إذا بدا له أحد قال: هذا جبلٌ يُحبُّنا ونُحِبُّه. فلما أشرفَ على المدينةِ قال: اللهُمَّ إنّي أُحرِّمُ ما بين جَبَلَيْهَا، مثلما حَرَّمَ به إبراهيمُ مَكَّةَ، اللهمَّ بارك لهم في مُدِّهم وصاعهم[٥].

وفي لفظ لهما: اللهم بارِكْ لهم في مِكْيالهم، وبارِكْ لهم في صاعِهِمْ، وبارِكْ لهم في مُدِّهم. زاد البخاري: يعني أهل المدينة[٦].

ولهما أيضاً عن أنس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «[اللهم] اجعَلْ بالمدينةِ ضِعْفَي ما جَعَلْتَ بمكة من البَرَكة»[٧].

وعَن عبدالله بن زيد بن عاصم ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ: إن إبراهيم حَرَّم مَكَّةَ ودعا لها، وحَرَّمتُ المدينة كما حَرَّم إبراهيم مَكَّة، ودعوتُ لها في مُدِّها وصاعِها مثلَ ما دعا إبراهيم لمكة.

[٨-[رواه البخاري وهذا لفظه [٩] . ومسلم ولفظه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إنَّ إبراهيمَ حَرَّم مكة ودعا لأهلها وإني حَرَّمت المدينة كما حَرَّم إبراهيم مكة، وإني دعوتُ لها في صاعِها ومُدِّها بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة]-[٨].

---

(١) تفسير الطبري ٥٤٢/١.

(٢) هذا بعد قوله: «اللَّهمّ بارك لنا في مدينتنا، وفي ثمارنا، وفي مُدِّنا، وفي صاعنا، بركةً مع بركة». ثم يعطيه أصغر ما يحضره من الولدان.

(٣) مسلم، كتاب الحج ١٠٠٠.

(٤) تفسير الطبري ٥٤٣/١. ومسلم، كتاب الحج ٩٩١.

(٥) فتح الباري، كتاب الأطعمة ٥٥٤/٩، ومسلم، كتاب الحج ٩٩٣.

(٦) فتح الباري، كتاب البيوع ٣٤٧/٤، ومسلم، كتاب الحج ٩٩٤.

(٧) فتح الباري، كتاب فضائل المدينة ٩٧/٤، ومسلم، كتاب الحج ٩٩٤.

(٨) سقط من الأصل.

(٩) فتح الباري، كتاب البيوع ٣٤٦/٤، ومسلم، كتاب الحج ٩٩١.

وعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «اللهم، إنَّ إبراهيم حَرَّم مَكَّةَ فجعلها حَراماً، وإني حَرَّمتُ المدينةَ حَراماً ما بين مَأْزِمَيها(١)، أنْ لا يُهَراقَ فيها دَمٌ، ولا يُحمَلَ فيها سلاح لقتال، ولا يُخبَطَ فيها شَجَرَةٌ إلا لِعَلَفٍ، اللهمَّ باركْ لنا في مَدينَتِنا. اللهمَّ باركْ لنا في صاعِنا. اللهمَّ باركْ لنا في مُدِّنا(٢). اللهم اجعل مع البركة بركتين». الحديثَ رواه مسلم(٣).

والأحاديثُ في تحريم المدينةِ كثيرةٌ، وإنما أوردنا منها ما هو متعلِّق بتحريم إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ لمكَّةَ، لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة. (٤-وتمسَّكَ بها من ذَهَب إلى أنَّ تحريم مكَّة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل. وقيل: إنها مُحَرَّمةٌ منذ خُلِقَت مع الأرْضِ. وهنا أظهر وأقوى-٤).

وقد وردت أحاديث أُخَرُ تدلُّ على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض، كما جاء في الصحيحين، عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يوم فتح مكَّةَ: «إن هذا البلدَ حَرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حَرَام بحرمة الله إلى يوم القيامة. (٥-[وإنه لم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحد قبلي، ولم يَحِلَّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حَرَام بحرمة الله إلى يوم القيامة]-٥) لا يُعْضَد شوكه ولا يُنَفَّر صيدُه، ولا تُلْتَقط لُقَطَتُه إلا من عرَّفها، ولا يختلى خَلاَهَا». فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإِذْخر فإنه لَقَيْنِهم ولبيوتهم. فقال: إلا الإِذْخَرَ، وهذا لفظ مسلم(٦).

ولهما عن أبي هُرَيرة نحو من ذلك(٧)، ثم قال البخاري بعد ذلك: قال أبان بن صالح، عن الحسنِ بن مُسلم، عن صَفِيَّة بنت شَيبة: سَمِعتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ، مثله.

وهذا الذي عَلَّقه البخاري رواه الإمامُ أبو عبدالله بن ماجه، عن محمد بن عبدالله بن نُمَير، عن يونس بن بُكَير، عن محمد بن إسحاقَ، عن أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم بن يَنَّاق، عن صفية بنت شَيْبَةَ، قالت: سَمِعتُ النبي ـ ﷺ ـ يخطُبُ عام الفتح، فقال: يا أيها الناسُ، إن الله حَرَّم مكةَ يوم خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، فهي حَرَام إلى يوم القيامة، لا يُعْضَد شجرها ولا يُنَفَّر صيدُها، ولا يأخذ لُقَطَتَها إلا مُنْشِد. فقال العباس: إلا الإِذْخرِ؛ فإنه للبيوتِ والقبورِ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إلا الإِذْخِرُ(٨).

وعن أبي شُرَيح العَدَوِيِّ أنَّه قال لعَمْرو بن سَعِيدٍ ـ وهو يَبعَثُ البعوثَ إلى مَكَّةَ: ائذن لي ـ أيها الأميرُ ـ أن أُحدِّثك قولاً قام به رسولُ الله ـ ﷺ ـ الغَدَ من يوم الفتح، سَمِعَته أُذُنايَ وَوَعاه قَلْبِي، وأبصرَتْه عينايَ حين تَكَلَّم به، إنه حَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن مكَّةَ حَرَّمَها اللهُ ولم يُحَرِّمها الناسُ، فلا يَحِلُّ لامرىءٍ يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ أن يَسْفِكَ بها دماً، ولا يَعْضِد بها شجرةً، فإن أحدٌ تَرَخَّصَ بقتال رسول الله ـ ﷺ ـ فقولوا: إنَّ الله أَذِنَ لرسولِه ولم يأذَن لكمْ. وإنما أَذِن لي فيها ساعةً من نهار، وقد عادت حُرْمَتُها اليوم كحُرْمَتِها بالأمس فَلْيُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ. فَقِيلَ لأبي شُرَيح: ما قال لك عَمْرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شُرَيحٍ! إن الحَرَمَ لا يُعِيذُ عاصِياً، ولا فاراً بدم، ولا فاراً بِخَرْبَة.

(١) المأزِمُ: الجبل، وقيل: المضيق بين الجبلين. والأول هو الصواب هنا.
(٢) بعده في مسلم: «اللّهمّ بارك لنا في مدينتنا».
(٣) مسلم، كتاب الحج ١٠٠١ ـ ١٠٠٢.
(٤) عن الأصل.
(٥) سقط من الأصل.
(٦) مسلم، كتاب الحج ٩٨٦ ـ ٩٨٧، وفتح الباري، كتاب جزاء الصيد ٤٦/٤. والإذخر: حشيشة معروفة طيبة الريح، توجد بالحجاز.
(٧) مسلم، كتاب الحج ٩٨٨ ـ ٩٨٩، وفتح الباري، كتاب الديّات ٢٠٥/١٢.
(٨) سنن ابن ماجه، كتاب المناسك ١٠٣٨.

رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه(١).

فإذا عُلِم هذا فلا منافاةَ بين هذه الأحاديثِ الدالة على أن الله حَرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حَرَّمها، لأن إبراهيم بَلَّغ عن الله حُكْمه فيها وتحريمَه إياها، وأنها لم تَزَلْ بلداً حراماً عند الله قبل بناءِ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ لها، كما أنه قد كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ مكتوباً عند الله خاتم النبي، وإن آدم لمُنْجَدِلٌ(٢) في طِينَتِه، ومع هذا قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ ربنا وابعَث فيهم رسولاً منهم ﴾. . . الآية. وقد أجاب الله دُعاءه بما سبق في علمه وقَدَره. ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسولَ الله، أَخبِرْنا عن بَدْءِ أمرك. فقال: دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشْرَى عيسى ابنِ مَرْيَمَ، ورأَتْ أُمِّي كأنه خَرَج منها نورٌ أضاءَتْ له قصورُ الشام(٣). أي: أَخْبِرْنا عن بدء ظهور أمرك. كما سيأتي قريباً، إن شاء الله.

وأما مسألةُ تفضيل مَكَّة على المدينة ـ كما هو قولُ الجمهور ـ أو المدينة على مكة ـ كما هو مذهب مالك وأتباعه ـ فَتُذْكَرُ في موضعٍ آخر بأدلَّتِها، إن شاء الله، وبه الثقةُ.

وقولُه تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال: ﴿ ربِّ اجعَلْ هذا بلداً آمناً ﴾ أي: من الخوف، لا يَرْعَبُ أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدراً. كقوله تعالى: ﴿ ومن دَخَله كان آمناً ﴾، ﴿ أوَ لم يروا أنا جَعَلْنا حَرَماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾. إلى غير ذلك من الآيات. وقد تقدّمت الأحاديثُ في تحريم القتال فيها. وفي صحيح مسلم، عن جابر: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يحلُّ لأحدٍ أن يحمِلَ بمكة السلاح». وقال في هذه السورة: ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾. أي: اجعلِ هذه البقعة بلداً آمناً، وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء ثانياً بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سناً من إسماعيلَ بثلاثَ عشَرَة سنة، ولهذا قال في آخر الدعاء: ﴿ الحمدُ لله الذي وَهَبَ لي على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربي لسميع الدعاء ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وارزُق أهله من الثمراتِ من آمن منهم بالله واليومِ الآخرِ، قال: ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطـرهُ إلى عذابِ النارِ وبئس المصيرُ ﴾.

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبيِّ بن كعب: ﴿ قال ومن كفر فَأُمَتِّعُه قليلاً ثم أَضْطَرُّه إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ قال: هو قول الله تعالى(٤).

وهذا قولُ مجاهد، وعكرمة. وهو الذي صَوَّبه ابن جَرير رحمه الله تعالى.

وقرأ آخرون: ﴿ قال ومن كفر فَأَمْتِعْه(٥) قليلاً ثم أَضْطَرَّهُ إلى عذاب النار، وبئس المصير ﴾. فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، كما رواه أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية قال: كان ابن عباس يقول: ذلك قول إبراهيم، يسأل ربه أن من كفر فأَمْتِعْه قليلاً.

---

(١) أخرجاه في كتاب الحج، البخاري ٣/١٨، ومسلم ٩٨٧ ـ ٩٨٨. والخربة ـ بفتح فسكون، وبضم الخاء أيضاً ـ: تطلق على كل جناية.

(٢) أي: ملقى على الجدالة، وهي الأرض.

(٣) سنن الدارمي، المقدمة ٣.

(٤) تفسير الطبري ١/٥٤٤.

(٥) حكى القرطبي ٢/١١٩ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة: (فَأَمْتِعْه)، بفتح الهمز، وسكون الميم (ثم أَضطَرَّه) بوصل الألف وفتح الراء. وانظر إعراب القرآن للنحاس ١/٢٦١.

[(١)-وقال أبو جعفر، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد ﴿ ومن كفر فَأُمَتِّعُهُ قليلاً ﴾-(١)] يقول: ومن كفر فَأَرزُقُه أيضاً ﴿ ثم أضطَرُّهُ إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: لما عَزَل إبراهيم ـ عليه السلام ـ الدعوةَ عمَّن أبى الله أن يجعلَ له الولايةَ، انقطاعاً إلى اللهِ ومحبَّتِهِ، وفراقاً لمن خَالفَ أَمْرَه، وإن كانوا من ذُرِيته، حين عرف أنه كائن منهم الظالم لا يناله عهدُه، بخبر الله له بذلك ـ قال الله: ومن كفر فإني أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلا.

وقال حاتم بن إسماعيل عن حُميد الخرَّاط، عن عَمَّار الدُّهْنيّ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزُقْ أهلَه من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾، قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرُها على المؤمنين دونَ الناس، فأنزلَ اللهُ: ومن كُفر أيضاً أرزُقُهم كما أرزُقُ المؤمنين، أَأَخلُق خَلْقاً لا أرزقهم؟! أمتّعهم قليلاً، ثم أضطَرهم إلى عذاب النار وبئس المصير. ثم قرأ ابن عباس: ﴿ كُلاًّ نُمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾.

رواه ابن مَرْدُويه. وروي عن عكرمة ومجاهد، نحو ذلك أيضاً.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاعٌ في الدنيا، ثم إلينا مرجعُهم، ثم نُذيقهم العذاب الشديدَ بما كانوا يكفرون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره، إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا، إن اللهَ عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾، وقوله: ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين ﴾.

وقوله: ﴿ ثم أَضطَرُّه إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ أي: ثم أُلجئُه بعد متاعِهِ في الدنيا، وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير. ومعناه: أن الله تعالى يُنْظِرُهم ويُمْهِلُهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن من قرية أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها وإليَّ المَصير ﴾ وفي الصحيحين: لا أحد أصبر على أذى سَمِعَه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرْزُقهم ويعافيهم(٢). وفي الصحيح أيضاً: إن الله ليُمْلي للظَّالم حَتَّى إذا أَخَذه لم يُفْلِتْه. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٣).

وقرأ (٤)-بعضهم: ﴿ قال: ومن كفر فَأَمتعـهُ قليلاً ثم أضطرَّهُ إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾، جعله من تمام دعاء إبراهيم، وهي قراءة(٥) شاذّة مخالفةٌ للقرّاء السبعة، وتركيب السياق يأبى ـ والله أعلم ـ فإن الضمير في ﴿ قال ﴾ راجع إلى الله تعالى من قراءة الجمهور، والسياق يقتضيه، وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير في ﴿ قال ﴾ عائداً إلى إبراهيم، وهو خلاف نظم الكلام، والله سبحانه هو العَلَّام-(٤).

[وأما قوله تعالى]: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل: ربنا، تقبَّلْ منا إنك أنت السميع

(١) سقط من الأصل.
(٢) تقدم تخريجه عند الآية ١١٦ من هذه السورة.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة هود ٣٥٤/٨، ومسلم، كتاب البر ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨.
(٤) عن الأصل.
(٥) تقدُّم الحديث عن هذه القراءة، وكأنه هنا يستدرك وهمنا، وقد أشار إلى ذلك أبو جعفر النحاس؛ في إعراب القرآن ٢٦١/١.

العليم * ربنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذريتنا أُمَّةً مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتُبْ علينا، إنك أنت التواب الرحيم ﴾. فالقواعد: جمعُ قاعدةٍ، وهي السارية والأساس، يقولُ تعالى: واذكر ـ يا محمدُ ـ لقومِكَ بناءَ إبراهيمَ وإسماعيلَ ـ عليهما السلام ـ البيت، ورفْعَهما القواعدَ منه، وهما يقولان: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾، (١-وحكى القرطبي(٢) وغيره عن أُبيٍّ وابن مسعود أنهما كانا يقرآن: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان: ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم ﴾.

قلت: ويدلُّ على هذا قوله بعده: ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمَّةً مُسْلِمةً لك ﴾-١) الآية.

فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبي حاتم من حديث محمد ابن يزيد بن خُنَيسٍ المكي، عن وُهَيب بن الوَرْد: أنه قرأ: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا ﴾(٣) ثم يَبكي ويقول: يا خليلَ الرحمٰن، ترفع قوائمَ بيت الرحمٰن وأنت مُشْفِق ألا يُتقبَّلَ منك.

وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلصين في قوله: ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ أي: يُعطُونَ ما أعطَوا من الصدقاتِ والنفقاتِ والقرباتِ ﴿ وقلوبُهم وَجِلَة ﴾، أي: خائفة ألَّا يتقبل منهم. كما جاء به الحديث الصحيح، عن عائشة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ كما سيأتي في موضعه.

وقال بعضُ المفسِّرين: الذي كان يرفَعُ القواعدَ هو إبراهيمُ، والداعي إسماعيل. والصحيحُ أنهما كانا يرفعان ويقولان كما سيأتي بيانه.

وقد رَوَى البخاريُّ ها هنا حديثاً سنُورده ثم نُتْبِعه بآثارٍ مُتعلِّقةٍ بذلك. قال البخاريّ رَحِمه الله:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب السَّختياني، وكَثير بن كَثير بن المطَّلب بن أبي وَدَاعة ـ يزيدُ أحدُهما على الآخر ـ عن سعيد بن جُبَيرٍ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أول ما اتخذ النساء الْمِنْطَق(٤) من قِبَلِ أُمِّ إسماعيل ـ عليهما السلام ـ اتَّخذَت مِنْطقاً ليعفِّيَ أَثَرَها على سارَّةَ. ثم جاء بها إبراهيمُ وبابنها إسماعيل ـ عليهما السلامُ ـ وهي تُرضِعه، حتى وضَعَهما عند البيتِ، عند دَوحةٍ فوق زَمْزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ، وليس بها ماء. فوضعهما هنالك. ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسِقاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ منطلقاً. فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهبُ وتترُكنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت(٥): آللهُ أَمَرَك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضَيِّعنا. ثم رَجَعَت.

فانطلق إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى إذا كان عند الثَّنِيَّةِ حيث لا يرونَه، استقبل بوجهه البيتَ، ثم دعا بهؤلاء الدعواتِ، ورفع يديهِ، قال: ﴿ رَبَّنا إني أسكنتُ من ذُرِّيتي بوادٍ غير ذي زَرْعٍ عندَ بيتِكَ المحرَّم، ربنا ليقيموا الصلاةَ، فاجعل أفئدة من الناس تَهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهمْ يشكرون ﴾ وجعلت أمُّ إسماعيل تُرضِع إسماعيلَ وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ماء السِّقاء عَطِشَت وعَطِش ابنُها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال: يَتَلَبَّطُ(٦) ـ فانطلقت كراهيةَ أن تنظرَ إليه، فوجدَتِ الصَّفا أقربَ جَبَلٍ في الأرض يليها،

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير القرطبي ٢/١٢٦.
(٣) نص ابن أبي حاتم بعد الآية: «زاد ابن خُنَيس في حديثه: ثم يبكي. فقال وُهَيب: يا خليل الرحمن». . . إلخ.
(٤) المِنْطَقُ: هو ما يشدّ به الوسط.
(٥) في الأصل: قالت. والمثبت عن الصحيح، والطبعات السابقة.
(٦) أي: يتمرَّغ ويضربُ بنفسه الأرض.

فقامت عليه، ثم استقبلتِ الواديَ تنظر هل تَرَى أحداً؟ فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طَرَفَ دِرْعها، ثم سعت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوزَتِ الواديَ. ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبعَ مرات، قال ابن عباس: قال النبي - ﷺ -: فلذلك سَعْيُ الناس بينهما.

فلما أشرَفَتْ على المروةِ سَمِعت صوتاً فقالت: صَهٍ، تُريدُ نفسَها، ثم تَسَمَّعت أيضاً. فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غَوَاث[1]. فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبَحَث بعَقِبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماءُ، فجعَلَتْ تُحَوِّضُه[2]، وتقول[3] بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يَفُور بعدما تغرف - قال ابن عباس: قال النبي - ﷺ -: يرحمُ الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تَغْرِف من الماء - لكانت زمزم عيناً مَعِيناً[4].

- فشربت وأرضعت وَلَدها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافي الضَّيعةَ؛ فإن ها هنا بيتاً لله - عز وجل - يبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله - عز وجل - لا يضيعُ أهله.

وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيولُ فتأخُذُ عن يمينِه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مَرّت بهم رفقة من جُرْهُم - أو أهلُ بيتٍ من جُرْهم - مقبلين من طريق كَـدَاء. فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً[5]، فقالوا: إنّ هذا الطائر ليدور على الماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ. فأرسلوا جَرِيّاً أو جَرِيَّين[6]، فإذا هم بالماء: فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأمُّ إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أنْ ننزل عِنْدَكِ؟ قالت: نعم، ولكن لا حَقّ لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال ابن عباس: فقال النبي - ﷺ -: فألفى ذلك أُمَّ إسماعيل وهي تُحِبُّ الإنس. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فَنَزَلوا معهم. حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم، وشبَّ الغلامُ، وتعلّم العربيةَ منهم، وأَنْفَسَهم[7] وأعجبهم حينَ شَبَّ، فلما أدركَ زَوَّجوه امرأةً منهم. وماتت أم إسماعيل - عليهما السلام - فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيلُ يطالعُ تَرِكَتَه[8]. فلم يَجِدْ إسماعيلَ، فسأل امرأته عنه. فقالت: خَرَجَ يبتغي لنا. ثم سألها عن عَيْشِهم وهَيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة. وشَكَتْ إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بابه. فلما جاء إسماعيل - عليه السلام - كأنه أنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسأل عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جَهْد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيِّرْ عتبةَ بابِكَ. قال: ذاك أبي. وأمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك. فَطَلَّقها وتزوج منهم بأخرى.

---

(١) أي: إعانة.

(٢) أي: تجعله مثل الحوض.

(٣) هذا حكاية فعلها. ويتكرر إطلاق القول في الحديث على كلّ فعل. وفي فتح الباري ٤٠٢/٦: «وفي حديث علي: فجعلت تحبس الماء فقال: دعيه فإنها رواء».

(٤) أي: ظاهراً جارياً على وجه الأرض.

(٥) العائف: هو الذي يحوم على الماء ويتردَّدُ ولا يمضي عنه.

(٦) الجريّ: الرسول، لأنه يجري مجرى مرسله، أو لأنه يجري مسرعاً في حوائجه.

(٧) أي: كثرت رغبتهم فيه، أفعل تفضيل من النفاسة.

(٨) أي: يتفقّد حال ما تركه هناك.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعدُ فلم يجده. فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عَيْشِهم وَهَيْئَتِهم. فقالت: نحن بخير وَسَعةٍ. وأثنَتْ على الله عز وجل. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحمُ. قال: فما شرابُكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ـ ﷺ ـ: ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم لدعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجُك فاقرئي عليه السلامَ، ومُريه يُثبِّتُ عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل ـ عليه السلام ـ قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهَيئة ـ وأثنت عليه ـ فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشُنا؟ فأخبرته أنَّا بخير. قال: فأوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلامُ ويأمرك أن تُثبِّتَ عتبةَ بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أُمسِكَكِ.

ثم لَبِثَ عنهم ما شاء الله ـ عز وجل ـ ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي[1] نَبْلًا له تحت دَوْحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربُّك عز وجل. قال: وتُعِينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً ـ وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها ـ قال: فعند ذلك رَفَعَا القواعد من البيت. قال: فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيمُ يبني، حتى إذا ارتَفَعَ البناءُ جاء بهذا الحجر فوضعه (له)، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم ﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يَدُورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿ ربنا تَقَبَّل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[2].

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي عبد الله محمد بن حمّاد الظِّهراني. وابن جرير[3]، عن أحمد بن ثابت الرازي، كلاهما عن عبد الرزاق مختصراً.

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، حدثنا بِشْر بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد الأزرقي، حدثنا مسلم بن خالد الزنجي، عن عبد الملك بن جُرَيج، وعن كَثِير بن كثير، قال: كنت أنا وعثمان بن أبي سليمان، وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي حُسَين في ناس مع سعيد بن جُبَير، في أعلى المسجد ليلًا، فقال سعيد بنُ جُبَير: سَلُوني قبل ألَّا تَروني. فسألوه عن المقام. فأنشأ يحدِّثُهم عن ابنِ عَبَّاسٍ، فذكر الحديث بطوله.

ثم قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد. حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عَمرو، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كَثِير بن كَثِير، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما كان بينَ إبراهيمَ وبينَ أهلِه ما كان، خرجَ بإسماعيلَ وأم إسماعيلَ، ومعهم شَنَّة فيها ماء، فجعلت أُمُّ إسماعيلَ تشربُ من الشَّنَّةِ، ويَدِرُّ لبنها على صَبيِّها حتى لما فَنِي الماء قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ لعلِّي أُحِسُّ أحداً. قال: فذهَبَتْ فصَعِدَتِ الصفا، فنظَرَت، ونظَرَت هل تُحِسُّ أحداً، فلم تُحِسَّ أحداً. فلما بلغت الوادي سَعَت[4] حتى[5] أتتِ المروةَ، ففعلَتْ ذلك أشواطاً ثم قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ ما فعل ـ تعني الصبيَّ ـ فذهَبَتْ فنظرَتْ فإذا هو على حاله كأنه يَنْشَغُ[6] للموت، فلم

(١) في الأصل: يبني له بيتاً. وفي الفتح ٦/٤٠٥: [ووقع عند الحاكم من رواية إبراهيم بن نافع في هذا الحديث: «يصلح بيتاً له». وكأنه تصحيف. والذي في البخاري هو الموافق لغيرها من الروايات].
(٢) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٣٩٦ ـ ٣٩٨.
(٣) تفسير الطبري ١/٥٥٠.
(٤) في الأصل: وسعت. والمثبت عن الصحيح.
(٥) في الفتح: سعت وأتت.
(٦) النَّشْغُ: الشهيق وعلو النَّفس الصُّعَداء حتى يكاد يبلغ الغَشْي.

تُقِرُّها نفسُها، فقالت: لو ذهبتُ فنظرتُ لعلّي أحسُّ أحداً. قال: فذهبَتْ فصَعِدت الصفا، فنظرَتْ ونظرت فلم تُحِسَّ أحداً، حتى أتمّت سَبْعاً. ثم قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ ما فعل، فإذا هي بصوتٍ، فقالت: أغِثْ إن كان عندكَ خيرٌ. فإذا جبريلُ ـ عليه السلام ـ قال: فقال بِعَقِبه هكذا، وغَمَزَ عَقِبَه على الأرض. قال: فانبثق الماءُ، فَدَهِشَتْ أمُّ إسماعيلَ، فجعلت تحفر.

قال: فقال أبو القاسم ـ ﷺ ـ: لو تركَتْه لكان الماء ظاهراً. قال: فجعلت تشربُ من الماء ويَدِرُّ لبنها على صَبيها. قال: فمر ناس من جُرْهم ببطن الوادي، فإذا هم بطَيرٍ، كأنهم أنكروا ذلك، وقالوا: ما يكونُ الطيرُ إلا على ماء. فبعثوا رسولهم فَنَظَرَ، فإذا هو بالماء. فأتاهم فأخبرهم. فأتوا إليها فقالوا: يا أُمَّ إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون معك ـ أو نسكن معك ؟ ـ فبلغ ابنها ونكح فيهم امرأة.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم ـ ﷺ ـ فقال لأهله: إني مُطَّلِعٌ تَركَتِي. قال: فجاء فسَلَّم، فقال: أين إسماعيلُ؟ قالت امرأتُه: ذهب يصيد. قال: قولي له إذا جاء: غَيِّر عَتَبَةَ بيتك. فلما جاء أخبرته، قال: أنتِ ذَاكِ، فاذهبي إلى أهلك.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيمَ، فقال لأهله: إني مُطَّلع تَركَتِي. قال: فجاء فقال: أين إسماعيلُ؟ فقالت امرأته: ذَهَبَ يصيدُ. فقالت: ألا تنزل فَتَطْعَم وتشرَبَ؟ فقال: ما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحمُ، وشرابنا الماءُ. قال: اللهم بارِكْ لهم في طعامهم وشرابهم.

قال: فقال أبو القاسم ـ ﷺ ـ: بَرَكَةٌ بِدَعوةِ إبراهيمَ.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيمَ ـ ﷺ ـ فقال لأهلِهِ: إني مُطَّلع تَركَتِي. فجاء فوافق إسماعيلَ من وراء زمزمَ يصلح نَبْلاً له. فقال: يا إسماعيل، إن ربك ـ عز وجل ـ أَمَرَني أن أبني له بيتاً.[1] فقال: أَطِعْ ربَّكَ عز وجل. قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه؟ فقال: إذن أفعلُ ـ أو كما قال ـ قال: فقاما، فجعل إبراهيم يبني، وإسماعيلُ يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[2]. قال: حَتّى ارتفع البناء وضَعُفَ الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حَجَرِ المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

هكذا رواه من هذين الوجهين في كتاب الأنبياء.

والعجبُ أنَّ الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في كتابه المستدرك، عن أبي العَبّاس الأصمِّ، عن محمد بن سنان القَزَّاز، عن أبي علي عُبَيد الله بن عبد المجيد الحَنَفي، عن إبراهيم[3] بن نافع، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[4].

كذا قال، وقد رواه البخاري كما ترى، من حديث إبراهيم بن نافع، وكأن فيه اقتصاراً، فإنه لم يذكر فيه الذبح. وقد جاء في الصحيح أن قرني الكبش كانا مُعَلَّقين بالكعبة[5]، وقد جاء أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان

---

(١) في الأصل: بيتاً له. وانظر ما ذكرناه في رواية الحديث السابق.

(٢) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٣٩٨/٦ ـ ٣٩٩. وما بعده ساقط منه، ولا بُدَّ من إثباته. وانظر البخاري، مطبعة المنيرية ٢٨٨/٤.

(٣) سقط من المستدرك: إبراهيم بن نافع.

(٤) سقط من المستدرك: إبراهيم بن نافع.

(٤) المستدرك، كتاب التاريخ ٥٥١/٢ ـ ٥٥٢.

(٥) رواه الإمام أحمد عن امرأة من بني سليم ٦٨/٤، ٣٨٠/٥.

يزور أهله بمكة سريعاً. على البراق ثم يعودُ إلى أهله بالبلاد المقدَّسة، والله أعلم. والحديثُ ـ والله أعلمُ ـ إنما فيه مرفوعٌ أماكنُ صَرَّح بها ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ.

وقد وَرَدَ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا السياق ما يخالِفُ بعض هذا، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، ومحمد بن المثنى قالا: حدثنا مُؤمَّل، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن حارثة ابن مُضَرِّب، عن علي بن أبي طالب، قال: لما أُمِر إبراهيمُ ببناء البيت، خَرَج معه إسماعيل وهاجَرُ. قال: فلما قَدم مكَّة رأى على رأسه في موضعِ البيت مثلَ الغمامة، فيه مثلُ الرأس. فكلَّمه، قال: يا إبراهيمُ، ابن على ظِلِّي ـ أو قال: على قَدْري ـ ولا تَزِدْ ولا تنقُصْ. فلما بنى فَخرج، وخلَّف إسماعيل وهاجَرَ، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلى من تَكِلنا؟ قال: إلى الله. قالت: انطلق، فإنه لا يُضَيِّعنا. قال: فعطش إسماعيلُ عَطَشاً شَدِيداً، قال: فَصَعِدَت هاجر إلى الصفا، فنظرت فلم تَرَ شيئاً، حتى أتت المروة فلم نر شيئاً، ثم رجعت إلى الصفا، فنظرت فلم تر شيئاً، حتى أَتت المروةَ فلم تر شيئاً، ثم رَجَعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، حتى فعلت ذلك سبع مرات، فقالت: يا إسماعيلُ، مُتْ حيثُ لا أراك. فأتته وهو يَفْحَصُ برجله من العطش. فناداها جبريلُ فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجَرُ أمُّ ولد إبراهيم. قال: فإلى من وَكَلَكُما؟ قالت: وكلنا إلى الله. قال: وكلكما إلى كافٍ. قال: ففحص [الغلام](١) الأرض بأصبعه، فَنَبَعت زمزمُ. فجعلت تحبسُ الماءَ فقال: دعيه فإنها رَوَاء(٢).

ففي هذا السياق أنه بَنَى البيت قبل أن يفارقهما، وقد يحتمل ـ إن كان محفوظاً ـ أن يكون أَوَّلاً وضع له حَوْطاً وتحجيراً، لا أنه بناه إلى أعلاه، حتى كَبِرَ إسماعيلُ فَبَنياه معاً، كما قال الله تعالى.

ثم قال ابنُ جرير: حدثنا هَنَّاد(٣) بن السري، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك، عن خالد بن عَرْعَرَةَ: أن رجلاً قام إلى علي ـ رضي الله عنه ـ فقال: ألا تُخبِرُني عن البيت، أهو أَوَّلُ بيتٍ وُضِع في الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع في البَرَكة مقامَ إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، وإن شئت أنبأتك كيف بُنِي: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض، قال: فضاق إبراهيم بذلك ذَرْعاً، فأرسل الله السكينة ـ وهي ريح خَجوج(٤)، ولها رأسان ـ فَأَتْبَع أحدهما صاحبه، حتى انتهت إلى مكة، فتطوّت على موضع البيت كطي الحَجَفَة(٥)، وأمر إبراهيمَ أن يبني حيث تستقر السكينة. فبنى إبراهيمُ وبقي حَجَر، فذهب الغلام [يبغي شيئاً]، فقال إبراهيم: ابغني حجراً كما آمرك. قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه به، فوجده قد رُكِّب الحجرُ الأسود في مكانه. فقال: يا أَبَهْ، من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لم يتَّكل على بنائك، جاء به جبريل ـ عليه السلام ـ من السماء. فَأَتَمَّاه(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدثنا سفيان، عن بشر بن عاصم، عن سعيد بن المسيَّب، عن كعب الأحبار، قال: كان البيت غُثَاءة(٧) على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاماً، ومنه دحيت الأرض.

---

(١) عن الطبري.

(٢) تفسير الطبري ١/٥٥١.

(٤) في تفسير الطبري: عباد. وهو خطأ، انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/١١٩.

(٤) هي ريح شديدة الهبوب في غير استواء.

(٥) أي: الترس.

(٦) تفسير الطبري ١/٥٥١.

(٧) هي ما يحتمله السيل.

قال سعيد: وحدثنا علي بن أبي طالب: أن إبراهيم أقبل من أرمينية، ومعه السكينة تدله حتى تبوّأ البيت كما تَتَبَوَّأُ العنكبوت بيتاً، قال: فَكَشَفَ عن أحجارٍ لا يُطِيق الحَجَر إلا ثلاثون رجلاً. فقلتُ: يا أبا محمد، فإن الله يقول: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ قال: كان ذلك بعده.

وقال السُّدِّيّ: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أَمَرَ إبراهيم أَنْ يبنِيَ هو وإسماعيلُ؛ ابنيا بيتِيَ للطائفين والعاكفين والركع السجود، فانطلق إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتَّى أتى مكة، فقام هو وإسماعيلُ، وأخذَا المعاولَ لا يدريان أين البيت؟ فبعث الله ريحاً يقال لها: ريح الخَجُوج[١]، لها جناحان ورأسٌ في صورة حَيَّةٍ، فكشفت[٢] لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس. فذلك حين يقول تعالى: ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾. فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن. قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني، اطلب لي حجراً حسناً أضعه ها هنا. قال: يا أبت، إني كسلانُ لَغِبٌ[٣]. قال: عَلَيَّ بذلك، فانطلق يَطْلُب له حَجَراً، وجاءه جبريلُ بالحجَرِ الأسود من الهند، وكان أبيضَ ياقوتةً بيضاء مثل الثَّغَامة[٤]، وكان آدمُ هبط به من الجنة فاسودَّ من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجرٍ، فوجَدَه عند الركن، فقال: يا أبه، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك. فَبَنَيَا وهما يدعُوان الكلمات التي ابتلى[٥] إبراهيم رَبَّه، فقال: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

وفي هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم. وإنما هُدِيَ إبراهيمُ إليها وبُوِّىء لها. وقد ذهب إلى ذلك ذاهبون، كما قال الإمام عبد الرزَّاق.

أخبرنا مَعمَرٌ، عن أيوب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ وإذ يرفَعُ إبراهيمُ القواعِدَ من البيتِ ﴾، قال: القواعدُ التي كانت قواعدَ البيت قبل ذلك[٦].

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا هشام بن حسان، عن سُوَّار ـ خَتَن عطاء ـ عن عطاء بن أبي رَباح، قال: لما أهبط الله آدم من الجنة، كانت رجْلاه في الأرض ورأسُه في السماءِ، يسمعُ كلامَ أهلِ السماءِ ودعاءَهم، يأنَسُ إليهم، فهابته الملائكة، حتى شَكَتْ إلى الله في دُعائِها وفي صلاتها. فخَفَضَه الله إلى الأرض، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا ذلك إلى الله في دعائه وفي صلاته. فوُجِّه إلى مكة، فكان موضع قَدَمه قريةً، وخَطْوُه مفازة، حتى انتهى إلى مَكَّة، وأنزلَ الله ياقوتةً من ياقوتِ الجنة، فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوفُ به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى بعث الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فبناه. وذلك قول الله تعالى: ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، قال: قال آدم: إني لا أسمع أصوات الملائكة؟! قال: بخطيئتك، ولكن اهبط إلى الأرض، فابن لي بيتاً ثم احفُفْ به، كما رأيت الملائكة تحف ببيتي الذي في السماء، فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل: من حراء، وطُور زيتاء، وطورِ سينا [وجبل لبنان][٧] والجُودي.

---

(١) الريح الخجوج: هي التي تَخُجّ في هبوبها، أي: تلتوي.
(٢) في تفسير الطبري ١/٥٥٠ وابن أبي حاتم: فكنست.
(٣) اللغَبُ: التعب.
(٤) هي نبت أبيض الزهر والثمر.
(٥) في الأصل: ابتلى بهنّ إبراهيم ربه بكلمات. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم.
(٦) تفسير الطبري ١/٥٤٦.
(٧) عن تفسير الطبري.

وكان رَبَضُه من حراء. فكان هذا بناء آدم، حتى بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعدُ.

وهذا صحيحٌ إلى عطاء، ولكن في بعضه نَكَارَةٌ، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن قتادة، قال: وضع الله البيت مع آدم [حين(١)] أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند. وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فكانت الملائكة تَهابُه، فنُقِصَ إلى ستين ذراعاً؛ فحَزِن إذْ فقدَ أصوات الملائكة وتسبيحهم. فشكا ذلك إلى الله ـ عز وجل ـ فقال الله: يا آدم، إني قد أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يُطَاف حول عرشي، وتُصَلِّي عنده كما يُصَلَّى عند عرشي. فانطلق إليه آدمُ، فخرج ومُدّ له في خَطْوِه، فكان بين كل خَطْوَتين مفازةٌ. فلم تزل تلك المفاوزُ بعد ذلك. فأتى آدم البيت فطاف به، ومَنْ بعده من الأنبياء(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القُمّي، عن حفص بن حُمَيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: وُضِع البيت على أركان [الماء(٣)، على أربعة أركان]، قبل أن تُخْلَق الدنيا بألفي عام، ثم دُحِيَت الأرض من تحت البيت.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد وغيره من أهل العلم: أن الله لما بَوَّأ إبراهيم مكان البيت خرجَ إليه من الشام، وخرج معه بإسماعيل وبأمه هاجر، وإسماعيلُ طفلٌ صغيرٌ يرضَعُ، وحُملوا ـ فيما حدثني ـ على البُرَاق، ومعه جبريل يَدُلّه على موضع البيت ومعالم الحَرم. وخَرَجَ(٤) معه جبريل، فكان لا يمرُّ بقرية إلا قال: أبهذه أُمِرْتُ يا جبريل؟ فيقول جبريل: امْضِهْ. حتى قَدِمَ به مكة، وهي إذ ذاك عِضَاهُ(٥) وسَلَم وَسَمُر، وبها أناسٌ يقال لهم: «العماليق» خارجَ مكةَ وما حولها. والبيتُ يومئذٍ ربوةٌ حمراءُ مَدِرَة، فقال إبراهيمُ لجبريلَ: أها هنا أُمِرْتُ أن أضعهما؟ قال: نعم. فعَمَدَ بهما إلى موضع الحِجْر فأنزلهما فيه، وأمر هاجَرَ أمَّ إسماعيل أن تتخذ فيه عَريشاً، فقال: ﴿ ربنا إني أسكنتُ من ذُرِّيتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ﴾ إلى قوله: ﴿ لعلَّهم يشكرون ﴾.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا هشام بن حَسَّان، أخبرني حُمَيد، عن مجاهد، قال: خلق الله موضعَ هذا البيت قبلَ أن يخلق شيئاً(٦) بألفي سنة، وأركانه في الأرض السابعة.

وكذا قال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: القواعد في الأرض السابعة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، [حدثنا(٧) عَمْرو بن رافع]، حدثنا عبد الوهاب بن معاوية، عن عبد المؤمن بن خالد، عن علياءَ بن أَحْمَرَ: أن ذا القرنين قَدِم مَكَّةَ، فوَجَدَ إبراهيم وإسماعيل يبنيان قواعدَ البيت من خمسة أجبل. فقال: ما لكما ولأرضي؟ فقالا: نحن عبدان مأموران، أُمِرْنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا

---

(١) عن تفسير الطبري.

(٢) تفسير الطبري ٥٤٧/١.

(٣) مكانه في الأصل: أربعة. والمثبت عن الطبري.

(٤) في تفسير الطبري ٥٤٨/١: «فخرج وخرج معه جبريل».

(٥) في الأصل: «عضاه وسلم وسكنوا بها». والمثبت عن الطبري. والسَّلَمُ ـ محركة ـ: شجر من العضاه، وورقها: القَرَظُ الذي يدبغ به الأديم. والسَّمُر ـ بفتح فضم ـ: ضَرْبٌ من العضاه، صغار الورق، قصار الشوك، وله برمةٌ صفراء يأكلها الناس، وليس في العضاه شيءٌ أجود خشباً من السَّمُر.

(٦) في تفسير الطبري: شيئاً من الأرض.

(٧) سقط من الأصل، والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم.

بالبيِّنَة على ما تدَّعيان. فقامت خمسةُ أكبُش، فقلن: نحن نشهدُ أنَّ إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران، أُمِرا ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رَضيتُ وسَلَّمتُ. ثم مضى.

وذَكرَ الأزْرَقِي في تاريخ مكة أن ذا القَرْنَين طاف مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالبيت، وهذا يدل على تقدُّم زمانه، والله أعلم.

وقال البخاري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ وإذ يَرفعُ إبراهيمُ القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ . . . الآية ـ القواعدُ: أساسُه، واحدُها قاعدةٌ. والقواعدُ من النساءُ: واحدتها قاعدٌ.

حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبدالله: أن عبدالله بن محمد بن أبي بكر أخبرَ عبدَالله بن عُمَر، عن عائشة زَوجِ النبي ـ ﷺ ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ألم تَرَيْ أن قومك حين بَنَوا البيتَ اقتَصَرُوا عن قواعِدِ إبراهيمَ؟ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ألا تَرُدُّها على قواعدِ إبراهيم؟ قال: لولا حِدْثان قومك بالكفر. فقال عبدالله بن عمر: لئن كانت عائشةُ سَمِعَت هذا من رسول الله ـ ﷺ ـ ما أُرى رسُولَ الله ـ ﷺ ـ ترك استلامَ الرُّكنينِ اللذَين يَلِيان الحِجْر إلاّ أن البيت لم يُتَمَّم على قواعد إبراهيم عليه السلام.

وقد رواه في الحج عن القَعْنَبي، وفي أحاديث الأنبياء عن عبدالله بن يوسف: ومسلم عن يحيى بن يحيى ـ ومن حديث ابن وهب ـ والنسائي من حديث عبد الرحمن بن القاسم، كلهم عن مالك، به[١].

ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع، قال: سَمِعتُ عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن أبي قُحَافة يُحدِّثُ عبدَالله بن عُمَر، عن عائشة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: لولا أن قومَكِ حديثُو عهد بجاهلية ـ أو قال: بكفرٍ ـ لأنفقتُ كنزَ الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحِجْرَ[٢].

وقال البخاري: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن الأسود، قال: قال لي ابنُ الزبير: كانت عائشة تُسِرُّ إليك حديثاً كثيراً، فما حدَّثتْكَ في الكعبة؟ قال قلت: قالت لي: قال النبي ـ ﷺ ـ: يا عائشة، لولا قومُكِ حديثٌ عهدُهم ـ فقال ابن الزبير: بِكُفْرٍ ـ لنقضتُ الكعبةَ فجعلت لها بابين: باباً يدخل منه الناس، وباباً يخرجون. ففعله ابن الزبير.

انفرد بإخراجه البخاري، فرواه هكذا في كتاب العلْم من صحيحه[٣].

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو معاويةَ، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «لولا حَدَاثة عَهْد قومِكِ بالكفر، لنقضتُ الكعبةَ ولجعلتُها على أساس إبراهيم، فإن قريشاً حين بنت البيتَ استقصرت، ولجعلت لها خَلْفاً»[٤].

قال: وحدثنا[٥] أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كُرَيب، قالا: حدثنا ابن نُمَير، عن هشام بهذا الإسناد. انفرد به مسلم[٥].

قال: وحدثني محمد بن حاتم، حدثني ابن مهديّ، حدثنا سَليم بن حَيّان، عن سعيد ـ يعني ابن ميناءَ ـ قال: سمعتُ عبدالله بن الزُّبير يقول: حدثتني خالتي ـ يعني عائشةَ ـ قالت: قال النبي ـ ﷺ ـ يا عائشة، لولا

---

(١) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/١٦٩ ـ ١٧٠، وكتاب الحج ٣/٤٣٩، وكتاب الأنبياء ٦/٤٠٧، ومسلم، كتاب الحج ٩٦٩.
(٢) فتح الباري، كتاب العلم ١/٢٢٤.
(٣) أي: قصّرت عن تمام بنائها واقتصرت هذا القدر، لقصور النفقة بهم عن تمامها.
(٤) أي: باباً من خلفها.
(٥) مسلم، كتاب الحج ٩٦٨.

قومك حديثُ عَهْدُهم بشركٍ، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها [بابين](١) باباً شرقياً وباباً غربياً، وزدْتُ فيها ستةَ أذرع من الحِجْر؛ فإن قريشاً اقتصَرَتْها حيث بنتِ الكعبة(٢).

انفرد به أيضاً.

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدَّةٍ طويلة وقبل مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ بخَمْس سنين وقد نَقَل معهم الحجارة، وله من العمر خمسٌ وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة:

ولما بَلَغ رسولُ الله ـ ﷺ ـ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت(٣) قريشٌ لبنيان الكعبة، وكانوا يَهُمُّون بذلك لِيَسْقُفوها، ويهابون هَدْمها، وإنما كانت رَضْماً(٤) فوق القامة، فأرادوا رَفْعَها وتسقيفها، وذلك أنّ نفراً سَرَقُوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون في بِئْر في جَوْف الكعبة، وكان الذي وُجِدَ عنده الكنزُ دُوَيكَ ـ مولى بني مُلَيح بن عمرو من خُزاعة ـ فقطعَت قريش يَدَه. ويزعم الناسُ أن الذين سَرَقُوه وضعوه عند دُوَيكَ. وكان البحر قد رَمَى بسفينة إلى جُدَّة، لرجل من تجار الروم، فتحطَّمت، فأخذوا خَشَبها فأعدُّوه لتسقيفها. وكان بمكة رجل قِبْطي نجار، فَهَيَّأ لهم في أنفسهم بعضَ ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تَطْرَحُ فيها ما يُهْدَى لها كل يوم، فتَتَشرَّق(٥) على جدار الكعبة، وكانَتْ مما يهابون. [و] ذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزَأَلَّت وكَشَّت(٦) وفتحت فاها، فكانوا يهابونها. فبينا هي يوماً تَتَشرَّقُ على جدار الكعبة، كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائراً فاختطفها، فذهب بها. فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رَضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية.

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها، قام أبو وهب(٧) بن عَمْرو بن عائد بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتى رَجَع إلى موضعه. فقال: يا معشَرَ قُرَيشٍ لا تُدْخِلُوا في بُنْيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بَغِي ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

قال ابن إسحاق: والناس ينحَلُون هذا الكلام الوليدَ بن المغيرة بن عبدالله [بن عُمرَ](٨) بن مَخْزُوم.

قال: ثم إن قُرَيشاً تَجزَّأت الكعبة، فكان شقُّ الباب لبني عبد مناف وزُهْرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضمُّوا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَح وسَهْم، وكان شقّ الحِجْرِ لبني عبد الدار بن قُصَيّ، ولبني أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ، ولبني عَدِيٍّ بن كعب بن لُؤَيٍّ، وهو الحَطِيم.

---

(١) عن مسلم.
(٢) مسلم، كتاب الحج ٩٦٩ ـ ٩٧٠.
(٣) في الأصل: أجمعت. والمثبت عن السيرة.
(٤) الرضم: أن تجعل الحجارة بعضها فوق بعض من غير ملاط.
(٥) أي: تبرز للشمس.
(٦) احزألت: تهيأت للوثوب. وكشّت: صوّتت باحتكاك جلدها.
(٧) في السيرة: قال ابن إسحاق: وأبو وهب خال أبي رسول الله ﷺ، وكان شريفاً.
(٨) عن السيرة.

ثم إن الناس هابوا هَدْمها وفَرِقوا(١) منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أَبْدؤكم في هَدْمها: فأخذ المِعْول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم تُرَعْ(٢)، اللهم إنا لا نريد إلا الخير(٣). ثم هَدَم من ناحية الركنين، فربّص الناسُ تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نَهدِم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يُصِبه شيءٌ فقد رضي الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عَمَله، فهدم وهدم الناسُ معه، حتى إذا انتهى الهدمُ بهم إلى الأساس، أساس إبراهيم عليه السلام، أفضَوْا إلى حجارة خضر كالأسنة(٤) آخذ بعضها في بعض.

قال محمد بن إسحاق: فحدَّثني بعضُ من روى الحديث: أنَّ رجلاً من قريش، ممن كانَ يهدِمُها، أدخل عَتَلَةً بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تَحرَّكَ الحجر تَنَقَّضَتْ(٥) مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس.

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جَمَعت الحجارة لبنائها، كلُّ قبيلةٍ تجمَعُ على حدة، ثُمَّ بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن ـ يعني الحَجَر الأسود ـ فاختصموا فيه، كلُّ قَبيلةٍ تُريد أن ترفعَه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا(٧) وتخالفوا، وأعدوا للقتال. فقرَّبت بنو عبد الدار جَفنة مملوءة دماً، ثم تعاقَدُوا هم وبنو عَديّ بن كعب بن لُؤيٍّ على الموت، وأدخلوا أيديَهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُمُّوا لَعَقَة الدم، فمكثَتْ قُرَيْشٌ على ذلك أربع ليال أو خمساً. ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا.

فزَعم بعضُ أهل الرواية: أنَّ أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عُمَر بن مخزوم ـ وكان عامئذٍ أسنَّ قريشٍ كُلِّهم ـ فَقَال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه. ففعلوا، فكان أولَ داخلٍ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فلما رأوه قالوا: هذا الأمينُ، رَضِينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «هَلُمَّ إليَّ ثوباً. فَأُتِيَ به، فأخذ الركن ـ يعني الحَجَر الأسود ـ فوضعه فيه بيده، ثم قال: لِتَأخُذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوب، ثم ارفعُوهُ جَمِيعاً. ففعلوا، حتى إذا بَلَغُوا به موضعه، وضعه هو بيده ـ ﷺ ـ، ثمَّ بَنَى عليه».

وكانت قريشٌ تُسمِّي رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمينَ. فلما فَرَغُوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزُّبير بنُ عَبْدِ المُطّلب، فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تَهابُ بنيان الكعبة لها:

عَجِبْتُ لِمَا تَصَوَّبَتِ العُقَابُ ... إلى الثُّعبانِ وَهْيَ لها اضطرابُ
وقد كانَتْ يكونُ لها كَشِيشٌ ... وأحياناً يكونُ لها وِثابُ
إذا قُمنا إلى التأسيس شَدَّتْ ... تُهَيِّبُنا البناءَ وَقَدْ تُهابُ
فَلَمَّا أنْ خَشِينا الزَّجْرَ(٧) جاءَتْ ... عُقابٌ تَتْلَئِبُّ لها انصِبابُ
فَضَمَّتْها إليها ثم خَلَّتْ ... لنا البنيانَ ليس له حِجابُ
فَقُمْنا حاشِدِينَ إلى بِناءٍ ... لنا منه القواعدُ والتُّرابُ

---

(١) في الأصل: وخافوا منه. والمثبت عن الطبعات السابقة والسيرة.

(٢) كلمة تقال عند تسكين الرُّوع والتأنس. انظر الروض الأنف ١/١٣١.

(٣) في الأصل: إلا كلّ خير. والمثبت عن السيرة والطبعات السابقة.

(٤) الأسنة: جمع سنان، وهو الرمح، شبهت الحجارة بها في الخضرة. ويروى كالأسنمة: جمع سنام. أراد أن الحجارة تداخل بعضها في بعض كعظام السنام.

(٥) أي: اهتزّت.

(٦) يروى أيضاً: تحاوزوا ـ بالزاي ـ أي: انحازت كلّ قبيلة إلى الأخرى.

(٧) أي: العذاب. ويروى: الزَّجر: أي المنع. وتتلئبّ: تتابع في انقضاضها.

(١)[غداة نُرفِّع التأسيس منه وليس على مُسَوِّينا ثيابُ](١)
أعزَّ به المليك بني لُؤيٍّ فليس لأصله منهم ذهابُ
وقد حَشَدَتْ هُناك بنو عديٍّ ومُرَّة [قد](١) تقدَّمها كلابُ
فَبَوَّأنا المليك بذاك عزّاً وعند الله يُلتَمَسُ الثوابُ

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبةُ على عَهْدِ النبي - ﷺ - ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطيّ، ثم كُسِيت بعدُ البُرودَ، وأوَّلُ من كساها الديباجَ الحجاجُ بن يوسف(٢).

قلت: ولم تزل على بناء قريش حتى أُحْرِقت في أول إمارة عبدالله بن الزُّبير بعد سَنَة ستين. في آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزُّبير، فحينئذ نقضها ابنُ الزُّبير إلى الأرض وبناها على قواعِدِ إبراهيم عليه السلام، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض، كما سَمِعَ ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - عن رسول الله - ﷺ - ولم تزل كذلك مُدَّة إمارته حتى قَتَله الحجَّاجُ، فردَّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوان له بذلك، كما قال مسلم بن الحجاج في صحيحه.

حدثنا هَنَّاد بن السَّرِيّ، حدثنا ابنُ أبي زائِدَةَ، أخبرنا ابن أبي سُلَيمان، عن عطاء، قال: لما احترقَ البيتُ زَمَنَ يزيدَ بن معاوية حينَ غَزَاها أهلُ الشام، فكان من أمره ما كان، تركَه ابن الزُّبير حتى قَدِمَ الناسُ الموسم يريد أن [يُجرِّئَهم](٣) - أو يُحَزِّبُهم(١) - على أهل الشام، فلما صَدَر الناسُ قال: يا أيها الناسُ، أشِيرُوا عليَّ في الكعبة، أنقضُها ثم أبني بناءها أو أُصلح ما وَهَى منها؟ قال ابن عباس: فإني قد فُرِقَ(٤) إلي رَأيٌ فيها، أرى أن تُصْلِحَ ما وَهَى منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبُعِث عليها النبيُّ - ﷺ -. فقال ابن الزبير: لو كان أحدُكم(٥) احترقَ بيتُه ما رَضِي حتى يُجدِّدَه، فكيفَ ببيتِ ربكم، عَزَّ وجلَّ؛ إني مستخيرٌ ربي ثلاثاً ثم عازم على أمري. فلما مضَتْ ثلاث أجمع رأيه على أن يَنْقُضَها. فتحاماها الناسُ أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمْرٌ من السماء، حتى صَعِدَه رجلٌ، فألقى منه حجارةً، فلما لم يَرَه الناس أصابه شيء تتابعُوا، فنقضُوه حتى بَلَغُوا به الأرضَ. فجعل ابنُ الزُّبير أعمدةً فَسَتَّرَ عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه.

وقال ابن الزُّبير: إني سمعت عائشة - رضي الله عنها - تقول: إن النبي - ﷺ - قال: لولا أن الناس حديثٌ عهدُهم بكفر، وليس عندي من النفقة يُقَوِّي على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحِجْرِ خمسة أذرع، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون(٦) منه. قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر، حتى أبدى له أُسّاً(٧) نظر الناس [إليه] فَبَنَى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثماني(٨) عشرة ذراعاً، فلما زاد فيه استقصَره، فزاد في طوله عَشْرَ أذرُعٍ، وجعل له بابين أحدهما يدخلُ منه، والآخر يخرج

---

(١) سقط من الأصل. وهو في السيرة.
(٢) سيرة ابن هشام ١/١٩٢ - ١٩٩.
(٣) في الأصل: يخرجهم. والمثبت عن صحيح مسلم، ومعنى يُحرِّبهم: يغيظهم بما يرونه قد فعل بالبيت. أو معناه: يحملهم على الحرب. ورواه آخرون: يَحْزِبهم، أي: يميلهم إليه ويجعلهم حزباً له. ورواه بعضهم: يجرِّبهم، أي: يختبرهم وينظر ما عندهم من حمية وغضب لله ولبيته.
(٤) أي: كُشِف وبُيِّن.
(٥) في الأصل: أحدهم. والمثبت عن مسلم.
(٦) في الأصل: يخرج الناس منه. والمثبت عن مسلم.
(٧) في الأصل: أساساً. والمثبت نص مسلم.
(٨) في الأصل: ثمانية عشر ذراعاً. والمثبت عن مسلم.

منه. فلما قُتِل ابنُ الزبير كتبَ الحجّاج إلى عبد الملك يُخبِرُه بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وَضعَ البناء على أُسٍّ نظر إليه العُدُول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاده في طوله فأَقِرَّه. وأما ما زاد فيه من الحِجْرِ فَرُدَّه إلى بنائه، وَسُدَّ الباب الذي فتحه. فنقضه وأعاده إلى بنائه(١).

وقد رواه النسائي(٢) في سُنَنه، عن هَنَّاد، عن يحيى بن أبي زائدة، عن عبد الملك بن أبي سُليمان، عن عطاء، عن ابن الزبير، عن عائشة بالمرفوع منه. ولم يذكر القصة.

وقد كانت السنةُ إقرار ما فعله عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ لأنه هو الذي وَدّه رسول الله ـ ﷺ ـ. ولكن خشي أن تُنكِرَه قلوبُ بعضِ الناس لحداثة عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر. ولكن خفيت هذه السُّنةُ على عبد الملك، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: وَدِدنا أنا تركناه وما تَوَلَّى. كما قال مسلم:

حدثني محمد بن حاتم، حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا ابن جُرَيج، سمعت عبدالله بن عُبَيد بن عُمَير والوليدَ بـن عطاء، يُحَدِّثان عن الحارث بن عبدالله بن أبي رَبيعَة، قال عبدُالله بن عُبَيد: وَفَدَ الحارث بن عبدالله على عبد الملك بن مَرْوان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أَظُنَ أبا خُبَيبٍ ـ يعني ابن الزبير ـ سَمِعَ من عائشةَ ما كان يزعُمُ أنه سَمِعَه منها. قال الحارث: بلى، أنا سَمِعتُه منها. قال: سَمِعتَها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن قومكِ استقصروا من بُنيانِ البيت، ولولا حَدَاثَةُ عَهدِهم بالشرك أعدتُ ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بَعدِي أن يبنوه فَهَلُمّي لأُرِيَكِ ما تركوا منه. فأراها قريباً من سبعة أذرع.

هذا حديثُ عبدالله بن عُبَيد. وزاد عليه الوليدُ بن عطاء: قال النبي ـ ﷺ ـ: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً، وهل تدرين لم كانَ قومُكِ رَفَعُوا بابها؟ قالت: قُلْتُ: لا. قال: تَعَزُّزاً ألا يدخلَها إلا من أرادوا. فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلَها، يَدَعونه حتى يرتقي، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط».

قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنت سَمِعتها تقولُ هذا؟ قال: نعم. قال: فَنَكَتَ ساعة بعصاه، ثم قال: وَدِدْتُ أني تركتُه وما تَحَمَّل.

قال مسلم: وحدثناه محمد بن عَمْرو بن جبلة، حدثنا أبو عاصم (ح) وحدثنا عَبْدُ بن حُمَيد، أخبرنا عبد الرزّاق، كلاهُما عن ابن جُرَيج بهذا الإسناد، مثلَ حديث ابن بكر.

قال: وَحَدَّثني محمَّد بن حاتم، حدثنا عبدالله بن بَكرٍ السَّهمِي، حدثنا حاتم بن أبي صَغِيرَة، عن أبي قَزَعَة: أنَّ عبدَ المَلكِ بن مَرْوانَ بينما هو يطوفُ بالبيتِ إذ قال: قاتَلَ الله ابنَ الزبير! حيثُ يكذِبُ على أمّ المؤمنين، يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا عائشة، لولا حِدْثان قومك بالكفر لنقضتُ البيتَ حتى أزيد فيها من الحِجْرِ، فإنَّ قومك قَصَّرُوا في البناء. فقال الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة: لا تَقُلْ هذا يا أمير المؤمنين، فأنا سمعتُ أُمَّ المؤمنين تُحَدِّثُ هذا. قال: لو كنتُ سَمِعته قبل أن أَهْدِمَه لتركتُه على ما بَنَى ابنُ الزبير(٣).

---

(١) مسلم، كتاب الحج ٩٧٠ ـ ٩٧١.

(٢) النسائي، كتاب المناسك ٢١٨/٥.

(٣) مسلم، كتاب الحج ٩٧٠ ـ ٩٧٢.

فهذا الحديثُ كالمقطوعُ به إلى عائشةَ أمِّ المؤمنين، لأنه قد رُوي عنها من طرق صحيحةٍ متعددة عن الأسود بن يزيد، والحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير، فدل هذا على صَوَاب ما فعله ابن الزبير. فلو ترك لكان جيداً.

ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كَرِه بعضُ العلماء أن يُغيِّر عن حاله، كما ذُكِر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد ـ أو أبيه المهدي ـ: أنه سأل الإمام مالكاً عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله مَلْعَبَةً للملوك، لا يشاءُ أحد أن يَهدِمها إلا هَدَمها. فترك ذلك الرشيدُ. نقله عياضُ والنَّوَوي، ولا تزال ـ والله أعلم ـ هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخرِّبَها ذو السُّوَيقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُخَرِّب الكعبة ذو السُّوَيقَتَينِ من الحبشة»(١). أخرجاه.

وعن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «كأني به أسودَ أفحَجَ(٢)، يقلعها حجراً حجراً». رواه البخاري(١).

وقال الإمامُ أحمدُ بن حَنبلٍ في مسنده: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحَرَّاني، حدثنا محمد بن سَلَمة، عن ابن إسحاق، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ، عن عبدالله بن عَمْرٍو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «يُخَرِّب الكعبة ذو السُّوَيقَتَين من الحبشة، ويسلبها(٣) حِلْيتها ويُجَرِّدُها من كُسوتها. ولكأني أنظرُ إليه أُصيلَع أُفَيْدَع يَضرِبُ عليها بمِسْحَاته ومِعْوَله»(٤).

الفَدَع: زَيْغٌ بين القدم وعظم الساق.

وهذا ـ والله أعلم ـ إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليُحَجَّنّ البيتُ وليُعْتَمَرَنّ بعد خروج يأجُوجَ ومأجوجَ»(٥).

* * *

وقولهُ تعالى حكايةً لدعاءِ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ ربَّنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذُرِّيتنا أمةً مسلِمَةً لك وأرِنا مناسِكنا وَتُبْ عَلَينا إنَّك أنتَ التوابُ الرحيمُ ﴾.

قال ابن جرير: يعنيـان بذلك: واجعلنا مُستسلِمينِ لأمرِكَ، خاضِعَين لطاعَتِك، لا نُشرِكُ معكَ في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرَك(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيلُ بن رجاء بن حَيّان الحِصْني القرشي(٢)، حدثنا مَعْقِل بن عُبَيد الله، عن عبد الكريم: ﴿ واجعلنا مسلمين لك ﴾، قال: مخلصين لك ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلِمَةً لك ﴾ قال: مخلصة.

---

(١) فتح الباري، كتاب الحج ٣/٤٥٤، ٤٦٠، ومسلم، كتاب الفتن ٢٢٣٢.
(٢) الفَحَج: تباعد ما بين الفخذين.
(٣) قبله في الأصل: قال. وليست في المسند.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٢٢٠.
(٥) فتح الباري، كتاب الحج ٤٥٤.
(٦) تفسير الطبري ١/٥٥٣.

وقال أيضاً: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا المُقدَّمي: حدثنا سعيد بن عامر، عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية: ﴿ واجعلنا مسلمين ﴾، قال: كانا مسلمين، ولكنهما سألاه الثبات.

وقال عكرمة: ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ قال الله: قد فعلت ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ قال الله: قد فعلت.

وقال السُّدِّي: ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾: يعنيان العرب.

قال ابنُ جرير: والصواب أنه يعمُّ العرب وغيرَهم، لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾[1].

قلت: وهذا الذي قاله ابنُ جريرٍ لا يَنفيه السدّي؛ فإنَّ تخصيصَهم بذلك لا يَنفِي مَن عداهم، والسياق إنما هو في العرب. ولهذا قال بعده: ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكِّيهم ﴾... الآية. والمراد بذلك محمَّد ـ ﷺ ـ، وقد بُعث فيهم كما قال تعالى: ﴿ هو الذي بَعَث في الأميِّين رسولاً منهم ﴾ ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿ قل: يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وغير ذلك من الأدلة القاطعة.

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ كما أخبرَ الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين، في قوله: ﴿ والذين يقولون: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾. قال: ﴿ ومن ذُرِّيتي. قال: لا ينال عهدي الظالمين ﴾ وهو قوله: ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾. وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم ينتفَعُ به، أو ولد صالح يدعو له»[2].

﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ قال ابن جُرَيج، عن عطاء ﴿ وأرنا مناسِكَنا ﴾: أخرجها لنا، عَلِّمْناها.

وقال مجاهد ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾: مذابحنا. ورُوي عن عطاء أيضاً، وقتادة، نحوُ ذلك.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا عتَّاب بن بشير، عن خُصَيف، عن مجاهد، قال: قال إبراهيم: ﴿ أرنا مناسكنا ﴾. فأتاه جبريل، فأتى به إلى البيت، فقال: ارفع القواعد. فرفع القواعد وأتم البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه، فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله. ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله. ثم انطلق به نحو منًى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كَبِّر وارمه. فكبَّر ورماه. فانطلق[3] إبليسُ فقام عند الجمرة الوسطى، فلما حاذى به جبريل وإبراهيم قال له: كَبِّر وارْمِه. فَكَبَّر ورماه، [فذهب إبليس][4]. وكان الخبيث أراد أن يُدْخِل في الحجِّ شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعرُ الحرامُ. وأخذ[5] بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات. قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها: ثلاثَ مِرارٍ. قال: نعم.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١/٥٥٣.
(٢) مسلم، كتاب الوصية ١٢٥٥.
(٣) في تفسير ابن أبي حاتم: ثم انطلق.
(٤) عن تفسير ابن أبي حاتم.
(٥) في الأصل: فأخذ.

وروي عن أبي مِجْلز، وقتادةُ نحو ذلك(١).

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي العاصــم الغَنَوِيّ، عن أبي الطّفيل، عن ابن عباس، قال: إن إبراهيم لما أُرِيَ أوامرَ المناسِكِ، عَرَضَ له الشيطانُ عند المسعَى، فسابقه [فسَبَقَه](٢) إبراهيم، ثم انطلق به جبريل حتى [أتى به منى](٣)، فقال: مُناخ الناس هذا. ثم(٤) انتهى إلى جمرة العقبة فَعَرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة الوسطى، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حَصَياتٍ، حتى ذهب. ثم أتى به إلى الجمرة القُصوى، فعرَضَ له الشيطانُ، فرماه بسبع حَصَياتٍ حتى ذَهَب، فأتى به جَمْعاً. فقال: هذا المشعر، ثم أتى به عرفة. فقال: هذه عرفة. فقال له جبريل: أعرفت(٥)؟.

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوةِ إبراهيمَ لأهلِ الحَرَم، أنْ يبعث [الله] فيهم رسولاً منهم، أي من ذرية إبراهيم. وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رسولاً في الأميين إليهم، وإلى سائر الأعجمين من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمد.

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سُوَيد الكلبي، عن عبد الأعلى(٦) ابن هلال السلمي، عن العرباض بن سارية قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدِلٌ في طِينَتِهِ، وسأنبئكم بأولِ ذلك، دعوةِ أبي إبراهيمَ، وبشارةِ عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ»(٧).

وكذلك رواه ابن وهب، والليث، وكاتبه عبدالله بن صالح، عن معاوية بن صالح، وتابعه أبو بكر بن أبي مريم، عن سعيد بن سُوَيد، به.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا لقمان بن عامر: سمعت أبا أمامة قال قلت: يا رسول الله، ما كان أَوّلُ بَدْءِ أمرِكَ؟ قال: دعوة أبي إبراهيمَ، وبُشْرَى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام(٨).

والمرادُ أن أوّل من نَوّه بذكره وشهره في الناس، إبراهيم عليه السلام. ولم يزل ذكرُه في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿ إني رسول الله إليكم [مصدقاً لما بين يدي من التوراة] ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾. ولهذا قال في هذا الحديث: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم».

---

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم.
(٢) عن منحة المعبود.
(٣) في الأصل: أراه منى.
(٤) في الأصل: فلما.
(٥) منحة المعبود، كتاب الحج والعمرة ١/٢٠٧.
(٦) في المسند: عبد الله بن هلال، وهو خطأ، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٧/٣٩.
(٧) مسند الإمام أحمد ٤/١٢٧.
(٨) مسند الإمام أحمد ٥/٢٦٢.

وقوله: «ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام». قيل: كان مناماً رأته حين حملت به، وقَصَّتهُ على قومها، فشاع فيهم واشتَهر بينهم، وكان ذلك توطئة. وتخصيصُ الشام بظهور نوره إشارةٌ إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشامُ في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشقَ بالمنارةِ الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفةٌ من أُمّتي ظاهرين على الحق، لا يضرُّهم من خَذَلَهم ولا من خَالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي صحيح البخاري: «وهم بالشام»(١).

قال أبو جعفرٍ الرازيّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿ ربنا وابعَثْ فيهم رسولاً منهم ﴾: يعني أمةَ محمد ـ ﷺ ـ. فقيل له: قد استجيبت لك، وهو كائن في آخر الزمان. وكذا قال السدي وقتادة.

وقولُه تعالى: ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ والحكمة ﴾ يعني السنة، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهـم. وقيل: الفهمُ في الدين. ولا منافاة.

﴿ ويُزكِّيهم ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني طاعةَ الله، والإخلاصَ.

وقال محمد بن إسحاقَ ﴿ ويُعَلِّمهم الكتاب والحكمة ﴾ قال: يُعلِّمهم الخيرَ فيفعلوه، والشرَّ فيتَّقُوه، ويخبرهم بِرِضَاه عنهم إذا أطاعوه، وَلِيستكثروا(٢) من طاعته، ويجتَنِبُوا ما سَخِطَ من مَعْصِيَتِهِ.

وقوله: ﴿ إنك أنتَ العزيزُ الحكيمُ ﴾. أي: العزيزُ الذي لا يُعجزُه شيءٌ، وهو قادرٌ على كُلِّ شيءٍ، الحكيمُ في أفعاله وأقواله، فيضَعُ الأشياء في محالّها؛ لعلمِهِ وحكمَتِهِ وعَدْلِهِ.

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

يقول تبارك وتعالى راداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثُوه من الشركِ بالله، المخالِفِ لملَّة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جَرَّد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يَدْعُ معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتَبَرَّأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقالَ: ﴿ يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وَجَّهتُ وجهي للذي فَطَر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما كان استغفارُ إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إيَّاه فلما تَبَيَّن له أنه عدو لله تبرّأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ وقال تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حَنيفاً ولم يك من المشركيين. شاكراً لأنعُمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حَسَنَةً وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾، ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿ ومن يرغَبُ عن ملَّة إبراهيم ﴾ أي: عن طريقته ومنهجه، فيخالفها ويرغب عنها ﴿ إلا من سَفه نفسه؟ ﴾ أي: ظلم نَفْسَه بسفهه وسُوءِ تدبيره بتركه الحقَّ إلى الضلال، حيثُ خالفَ طريق من اصطُفي في الدنيا للهداية والرَّشاد، من حَداثة سنّه إلى أن

(١) فتح الباري، كتاب الاعتصام ٢٩٣/١٣، وكتاب التوحيد ٤٤٢/١٣. ومسلم، كتاب الإيمان ٢٤٧، وكتاب الإمارة ١٥٢٣ ـ ١٥٢٥.
(٢) في الأصل: وليتكثروا. والمثبت عن تفسير ابن أبي حاتم، على أن فيه: لتستكثروا، دون واو.

اتخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ـ فترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتّبع طُرُقَ الضّلالة والغيّ، فأيّ سَفَهٍ أعظمُ من هذا؟. أم أي ظُلمٍ أكبرُ من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾.

وقال أبو العاليةِ وقتادةُ: نزلت هذه الآيةُ في اليهودِ، أحدثُوا طريقاً ليست من عند الله، وخالفوا ملّة إبراهيم فيما أحدثوه.

ويشهد لصحّة هذا القول ِ قولُ الله تعالى: ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتّبعوه وهذا النبيُّ والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾، أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجابَ إلى ذلك شرعاً وقدراً.

وقوله: ﴿ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوب﴾، أي: وَصَّى بهذه الملّة، وهي الإسلام لله لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصَّوا أبناءهم بها من بعدهم (١-أو يَعودُ الضَّمِيرُ على الكلمة وهي قوله: ﴿أسلمتُ لربِّ العالمين﴾-١) كقوله: (١-﴿وجَعلَها كلمةً باقيةً في عَقِبه﴾.

وقد قرأ بعضُ السَّلَفِ: ﴿ ويعقوب ﴾، بالنصبِ عطفاً على ﴿ بَنِيه ﴾ كأنَّ إبراهيم وَصَّى بنيه وابنَ ابنهِ يعقوبَ ابن إسحاق، وكان حاضراً ذلك. وقد ادعى القُشَيْريّ ـ فيما حكاه القرطبي[٢] عنه ـ أن يعقوب إنما وُلِد بعد وفـاة إبراهيـم. ويَحتاجُ مثلُ هذا إلى دليلٍ صحيحٍ، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنّ إسحاق وُلِد له يعقوبُ في حياة الخليل وسارَّة، لأنّ البشارة وقَعَتْ بهما في قوله: ﴿ فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾. وقد قُرِىءَ بنصب ﴿ يعقوبَ ﴾ هاهنا على نزع الخافض، فلو لم يُوجَد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضاً فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذُرِّيته النبوّة والكتاب، وآتيناه أجره في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلةً ﴾، وهذا يقتضي أنه وجد في حياته. وأيضاً فإنه باني بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتبُ المتقدِّمة، وثبت في الصحيحين[٣]، من حديث أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قلتَ: يا رسول الله، أيّ مسجدٍ وُضِع أوَّلُ؟ قال: «المسجد الحرام. قلت: ثم أيٌّ؟ قال: مسجد بيت المقدس. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة»... الحديث. فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتَقَدَ أنه باني بيت المقدس ـ وإنما كان جَدَّدَه بعد خرابه وزَخْرَفَه ـ وبين إبراهيم أربعين سنةً، وهذا مما أُنْكِر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف سنين، والله أعلم. وأيضاً فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريباً، وهذا يدل على أنه هاهنا من جملة الموصين-١).

وقوله: ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾، أي: أحسنوا في حال الحياة، وألزَمُوا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه. فإنّ المرء يموتُ غالباً على ما كان عليه، ويُبعث على ما مات عليه. وقد أجرى الله الكريم عادَتَه بأن من قَصَد الخير وُفّق له ويُسِّر عليه. ومن نَوى صالحاً ثُبِّت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح. إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا بَاعٌ أو ذراع، فيسبق عليه الكتابُ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير القرطبي ٢/١٣٦.
(٣) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٠٧، ومسلم، كتاب التوحيد ٣٧٠.

بينه وبينها إلا باعٌ أو ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعملُ بعمل أهل الجنّة فيدخلها ـ لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: لَيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس[1].
وقد قال الله تعالى: ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فَسَنُيَسِّرُه لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فَسَنُيَسِّرُهُ للعُسرى ﴾.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل ـ وهو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ـ بأن يعقوبَ لما حَضرَتْه الوفاةُ وَصّى بنيه بعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، فقال لهم: ﴿ ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبدُ إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه. [2]قال النحاس والعرب تُسمّي العَمَّ أباً، نقله القرطبي[3]. وقد استدلَّ بهذه الآية من جَعَل الجدَّ أباً وحَجَب به الإخوةَ كما هو قولُ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ حكاه عنه البخاريّ، مِن طريق ابن عباس وابن الزبير. ثم قال البخاري: ولم يختلف عليه. وإليه ذهبتَ عائشة أم المؤمنين، وبه يقولُ الحسن البصري، وطاوس، وعطاء، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من علماء السلف والخلف. وقال مالك والشافعي وأحمد ـ في المشهور عنه ـ: إنه يقاسم الإخوة. وحُكِيَ ذلك عن عُمَر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت، وجماعة من السلف والخلف، واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن، ولتقريرها موضعُ آخر[2].

وقوله: ﴿ إلٰهاً واحداً ﴾. أي: نُوَحِّدُه بالألوهية، ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿ ونحن له مسلمون ﴾، أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يُرجعون ﴾ والإسلام هو ملّة الأنبياء قاطبة، وإن تنوّعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحي إليه أنّه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون ﴾. والآيات في هذا كثيرةٌ والأحاديث، فمنها قوله ـ ﷺ ـ: «نحن مَعْشَرَ الأنبياء أولاد عَلّات، ديننا واحد»[4].

وقولُه تعالى: ﴿ تلك أُمّةٌ قد خلَتْ ﴾، أي: مَضَت ﴿ لها ما كَسَبَت ولكم ما كَسَبْتُم ﴾، أي: إنَّ السلَفَ الماضِينَ من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعُكُم انتسابُكُم إليهم إذا لم تفعلُوا خيراً يعود نفعُه عليكم، فإنَّ لهم أعمالهم التي عَمِلوها ولكم أعمالكم ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾.

وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة ﴿ تلك أمةٌ قد خَلَتْ ﴾: يعني إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

---

(١) فتح الباري، كتاب القدر ٤٧٧/١١، وكتاب الجهاد ٩٠/٦، ومسلم، كتاب الإيمان ١٠٦، وكتاب القدر ٢٠٤٢.
(٢) عن الأصل.
(٣) تفسير القرطبي ١٣٨/٢.
(٤) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٤٧٧/٦ ـ ٤٧٨، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٣٧. وأولاد العلات: هم الإخوة لأب من أمهاتٍ شتى، فأما الإخوة من الأبوين فيقال لهم: أولاد الأعيان. والمعنى: أن أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف.

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(١)-(وقد جاء في الأثر(٢): مَنْ [أ] بطأ به عَمَلُه، لم يُسْرِعْ به نَسَبُه)-(١).

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال عبدالله بن صُورياً الأعورُ لرسول الله ـ ﷺ ـ: ما الهدي إلا ما نحنِ عليه، فاتَّبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾(٣).

وقولُه: ﴿ بل ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي: لا نُريدُ ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿ ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾، أي مستقيماً. قاله مُحمَّد بن كَعْبِ القُرَظي، وعيسى بن جارية.

وقال خصيف: مخلصاً. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: حاجاً. وكذا رُوي عن الحسن والضحاك، وعطية، والسدي.

وقال أبو العالية: الحنيفُ الذي يستقبلُ البيت بصلاته، ويرى أن حَجَّه [عليه] إن استطاع إليه سبيلاً.

وقال مجاهد، والربيع بن أنس: حنيفاً، أي: متبعاً. وقال أبو قلابة: الحَنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم.

وقال قتادة: الحنيفيةُ شهادةُ أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريمُ الأمهات والبنات، والخالات والعمات، وما حرم الله، عزّ وجلّ، والختان(٤).

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أُنزِلَ إليهم بواسطة رسوله محمد ـ ﷺ ـ مُفَصَّلاً، وبما أُنزل على الأنبياء المتقدِّمين مجملاً، ونصَّ على أعيانٍ من الرسل، وأجمَلَ ذِكْر بقيَّةِ الأنبياء، وألاّ يفرِّقوا بين أحَد منهم، بل يؤمنوا بهم كلِّهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿ ويريدون أن يُفرِّقوا بين الله وَرُسُلِه، ويقولُونَ نُؤمنُ بِبَعْضٍ ونكفُر بِبَعضٍ، ويُريدون أن يَتَّخِذُوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافِرُونَ حَقّاً ﴾. . . الآية.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عُمَر، أخبرنا عليّ بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرة، قال: كان أهل الكتاب يَقْرَءُون التوراةَ بالعِبْرَانيَّة، ويُفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا»(٥).

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث عثمان بن حَكِيم، عن سعيد بن يَسار، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ أكثر ما يُصَلِّي الركعتين اللتين قبل الفجر: ﴿ آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾. . . الآية،

(١) عن الأصل.
(٢) سنن أبي داود، كتاب العلم ٣/٣١٧، وابن ماجه، المقدمة ٨٢، ومسند أحمد عن أبي هريرة ٢/٢٥٢، ٤٠٧.
(٣) أخرجه الطبري ١/٥٦٤، وابن أبي حاتم في تفسيره.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٥) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/١٧٠.

والأخرى: ﴿ آمنا بالله وأشهد بأنَّا مسلمون ﴾(١).

وقال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، وَلَد كُلُّ رجلٍ منهم أُمَّةً من الناس، فَسُمُّوا الأسباط.

قال (٢-الخليل بن أحمد وغيره: الأسباطُ في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل. وقال الزمخشري في الكشافِ: الأسباطُ حَفَدة يعقوبَ وذراريّ أبنائه الاثني عشر. [و] قد نَقله فخر الدين عنه وقَرّره ولم يعارضه. وقال البخاريّ: الأسباط قبائلُ بني إسرائيل. وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله تعالى من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم إذْ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكاً، وآتاكم ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾. وقال القرطبي(٣): سُمُّوا الأسباط، من السَّبْط وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله، من السَّبَط ـ بالتحريك ـ وهو الشجر، أي: هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سَبَطَة. قال الزجاج: ويُبَيِّن لك هذا ما حدثنا [بـه] محمد بن جعفر الأنباري حدثنا أبو نُجَيد الدقاق، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، [ولوطٌ](٤) وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام. قال القرطبي: والسِّبْطُ الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحدٍ-٢).

وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقُوا بكتبه كلِّها وبرسله.

وقال سُلَيمان بن حَبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مُصْعب الصّوري، حدثنا مُؤَمّل، حدثنا عبيد الله بن أبي حُمَيد، عن أبي المُلَيح، عن مَعْقِل بن يسار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل، وليسَعْكُم القرآنُ»(٥).

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ فإن آمنوا ﴾ أي: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يُفرِّقوا بين أحد منهم ﴿ فقد اهتدوا ﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأُرْشِدُوا إليه. ﴿ وإن تولوا ﴾ أي: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويُظْفِرُك بهم ﴿ وهو السميع العليم ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: قُرِئ على يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثنا زياد بن يونس، حدثنا

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٠٢، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ٢٠.
(٢) عن الأصل.
(٣) تفسير القرطبي ٢/١٤١.
(٤) عن القرطبي.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

نافع بن أبي نُعَيم، قال: أرسلَ إليَّ بعضُ الخلفاء مُصحَفَ عثمان بن عفان ليصلِحَه. قال زياد: فقلت له: إن الناس يقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قُتِل، فوقع الدمُ على: ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾. فقال نافع: بَصُرَت عيني بالدم على هذه الآية وقد قَدُم.

وذكر [١-]القرطبي في تفسيره[٢] أنّ الخليفةَ المنصور كان قد ألزَمَ الجند بلبس طرطور طويل، ودُرّاعةٌ مكتوب عليها: ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾، وأن يَشُدَّ أحدهم السيفَ على وسطه، فدخل أبو دلامة على المنصور ـ وأبو دلامة على هذه الصفة فقال: كيفَ أنت يا أبا دُلَامة؟ قال: بَشّر يا أمير المؤمنين! قال: ولِمَ؟ قال: كيف حالُ من وجهه في وسَطِه، وسيفه عند استِه، وقد نَبَذَ كتابَ الله وراءَ ظهره! فضَحِك المنصورُ، وأمر بتغيير هذا الزِّيِّ[-١].

وقوله: ﴿ صبغةَ اللهِ ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس: دينَ اللهِ. وكذا روى عن مجاهد، وأبي العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعبدالله بن كثير، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك.

[١-]وانتصابُ ﴿ صبغة الله ﴾ إما على الإغراء[٣] كقوله: ﴿ فطرة الله ﴾، أي: ألزموا ذلك، عليكموه. وقال بعضهم: بدل من قوله: ﴿ ملَّةَ إبراهيم ﴾. وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد، انتصب على قوله: ﴿ آمنّا بالله ﴾، كقوله: ﴿ وَعْدَ الله ﴾[-١].

وقد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مَرْدُويه، من روايـة أشعث بن إسحاق عن [جعفر[٤] بن أبي المغيرة] عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس أن نبي الله قال: «إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله. فناداه ربه: يا موسى، سألوك هل يَصْبُغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبغُ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صَبْغي»، وأنزل الله على نبيه ـ ﷺ ـ: ﴿ صبغـة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾.

كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعاً، وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف، وهو أشبه، إن صح إسناده، والله أعلم.

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيَّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى درء[٥] مجادلة المشركين: ﴿قل أتحاجُّوننا في

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير القرطبي ١/١٤٣.
(٣) في الأصل: الفرار. وانظر تفسير القرطبي ١/١٤٤.
(٤) عن تفسير ابن أبي حاتم. وانظر تهذيب الكمال ٣/٢٥٩.
(٥) في الأصل: ردّ.

الله ﴾، أي: أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وتَرْكِ زواجره، ﴿ وهو ربُّنا وربكم ﴾، المتصرِّف فينا وفيكم، المستحقّ لإخلاص الإلّهيّة له وحده لا شريكَ له! ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾، أي: نحن برآء منكم، وأنتم بُرَآء منا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل، وأنا بريء مما تعملون ﴾ وقال تعالى: ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾. وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وحاجَّه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً، وَسِع ربي كلّ شيء علماً، أفلا تتذكَّرُونَ ﴾ وقال: ﴿ ألم تَرَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه ﴾... الآية.

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ ونحن له مخلِصُون ﴾، أي: نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحنُ له مخلِصُونَ، أي في العبادة والتوجه. ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيمَ ومَنْ ذُكِر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على مِلَّتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾... الآية والتي بعدها.

وقوله: ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾.

قال الحسن البصري: كانوا يقرءون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين[١] الإسلامُ، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فَشَهِد[٢] الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك.

وقوله: ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ تهديد ووعيد شديد، أي: علمه محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾، أي: قد مَضَت ﴿ لها ما كَسَبت ولكم ما كَسَبتم ﴾، أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ ولا تُسألون عما كانوا يعملون ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغترُّوا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله، الذين بُعِثُوا مُبَشِّرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرُّسُلِ، ولا سيَّما من كفر بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسولِ ربِّ العالمين إلى جَميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلواتُ الله وسلامُه عليه وعلى سائرِ أنبياءِ الله أجمعين.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

(١) في الأصل: إن الدين عند الله الإسلام. والمثبت نص ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٢) في تفسير ابن أبي حاتم: «فشهدوا لله».

(١-(قيل: المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب. قاله الزجاج. وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد. وقيل: المنافقون، قاله السُّدِّيّ والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم)-١).

قال البخاري: حدثنا أبو نُعَيم، سَمِعَ زُهَيراً، عن أبي إسحاق، عن البراء ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ صَلَّى إلى بيت المقدس ستَّة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يُعجبُه أن تكون قبلتُهُ قِبَل البيتِ، وأنه صَلَّى أَوَّلَ صلاةٍ صَلَّاها صلاة العصر، وصَلَّى معه قومٌ. فخرج رجلٌ ممن كان صَلَّى معه، فمرَّ على أهلِ المَسجدِ وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صلَّيتُ مع النبي ـ ﷺ ـ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيتِ. وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحَوَّلَ قِبَلَ البيتِ رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عَزَّ وجلَّ: ﴿ وما كان الله لِيُضِيعَ إيمانكم، إنَّ الله بالناسِ لرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

انفرد به البخاري(٢) من هذا الوجه، ورواه مُسْلِمٌ من وجه آخر.

وقال محمَّدُ بن إسحاقَ: حدثني إسماعيلُ بن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾، فقال رجال من المسلمين: وَددنْا لو عَلِمْنا علمَ من مات منا قبل أن نُصْرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ . . . إلى آخر الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ قد صلَّى نحو بيت المقدس ستة عَشَرَ أو سبعةَ عَشَر شهراً، وكان يحب أن يُوَجَّه نحو الكعبة، فأنزل الله: ﴿ قد نرى تقلُّب وَجْهكَ في السماء فلنولينَّكَ قِبْلَةً ترضاها، فَوَلِّ وجهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحرام ﴾. قال: فَوُجِّه نحو الكعبة. وقال السفهاء من الناس ـ وهم اليهود ـ: ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ فأنزل الله: ﴿ قل لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن رسول الله ـ ﷺ ـ لمَّا هاجَرَ إلى المدينة، أمرَه الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحَتِ اليهودُ، فاستقبلها رسول الله ـ ﷺ ـ بضعةَ عَشَرَ شهراً، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يُحِبّ قبلةَ إبراهيمَ، فكان يدعُو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فولوا وجوهكم شَطْره ﴾، أي: نحوه. فارتابَ من ذلك اليهودُ، وقالوا: مَا ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿ قل لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾.

وقد جاء في هذا الباب أحاديثُ كثيرةٌ، وحاصِلُ الأمر أنّه قد كانَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ أُمِرَ باستقبال الصخرة من بيتِ المَقْدِسِ، فكان بمكَّةَ يُصَلِّي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبةُ وهو مستقبلُ صخرةِ بيت المقدس. فلما هاجر إلى المَدينة تَعَذَّر الجمعُ بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس. قاله ابنُ عباس والجمهور. ثم اختلف هؤلاء: هَلْ كان الأمرُ بها بالقرآن أو بغيره؟ على قولين. وحكى القرطبيُّ من تفسيره عن عكرمة، وأبي العالية، والحسن البصري أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمقصود أن التوجُّه إلى بيت المقدس بعد مَقْدَمِه ـ عليه السلام ـ المدينة استقر على كل تقدير ومقالة واستَمرَّ الأمرُ على ذلك

(١) عن الأصل.

(٢) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/١٧١. ومسلم، كتاب المساجد ٣٧٤.

بضعة عَشَرَ شهراً، وكان يكثر الدعاءَ والابتهالَ أن يُوَجَّه إلى الكعبة، التي هي قبلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأُجيبَ إلى ذلك وأُمِرَ بالتوجُّهِ إلى البيت العتيق، [قال](١): فخطب رسولُ الله ـ ﷺ ـ الناسَ وأعلمهم بذلك. وكان أول صلاة صلاها إليها صلاةَ العصر، كما تقدم في الصحيحين من رواية البَرَاء. ووقع عند النسائي من رواية أبي سَعيدِ بن المُعَلَّى: أنها الظهرُ (١-وقال: كنتُ أنا وصاحبي أوّل من صَلَّى إلى الكعبة.

وذكر غيرُ واحد من المفسِّرين(٢) وغيرهم أنَّ تحويل القبلة نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ وقد صلّى ركعتين من الظهر، وذلك، بمسجد بني سلمة، فَسُمِّي مَسْجِدَ القِبلتين. وفي حديث نُوَيلَةَ بنت أسلم أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر، قالت: فحوَّل الرجالُ مكان النساء، والنساء مكان الرجال: ذكره الشيخ عُمَر بنُ(٣) عبد البرِّ النَّمَريُّ-١).

وأمّا أهل قُبَاء فلم يبلُغْهُمُ الخبرُ إلا في صلاة الفجر من اليوم الثاني، كما جاء في الصحيحين(٤)، عن ابن عُمَر أنه قال: بينما الناس بقُباءَ في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قد [أُنزِلَ عليه الليلةَ قرآن وقد] أُمِر أن يَسْتَقبِلَ الكعبة [فاستقبِلُوها]، وكانت وجوهُهم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة.

وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمُه إلا بعد العلم به، وإن تقدَّم نزولُه وإبلاغه، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

ولما وقع هذا حَصَلَ لبعض الناس ـ من أهل النِّفاق والريب والكَفَرةُ من اليهود ـ ارتيابٌ وزَيْغٌ عن الهدى، وتَخْبيطٌ وشكٌّ، وقالوا: ﴿ ما وَلَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ أي: ما لهؤلاء تارةً يستقبلون كذا وتارة وكذا؟ فأنزل الله جَوَابهم في قوله: ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾، أي: الحكم والتصرف والأمرُ كلّه لله، وحيثما تُوَلُّوا فثمَّ وَجهُ الله، و﴿ ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله ﴾. أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجَّهنا توجَّهْنَا، فالطاعةُ في امتثالِ أمره، ولو وَجَّهنا في كل يوم مرَّاتٍ إلى جهات متعددة، فنحن عبيدهُ وفي تصريفه وخُدَّامُه، حيثما وَجَّهَنا توجهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأُمَّته عنايةٌ عظيمةٌ؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيمَ، خليل الرحمن، وجعل تَوَجُّهَهم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرفِ بيوتِ الله في الأرضَ، إذ هي بناءُ إبراهيمَ الخليل ـ عليه السلام ـ ولهذا قال: ﴿ قل لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾.

وقد رَوى الإمام أحمد، عن علي بـن عاصم، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن عُمَر(٥) بن قيس، عن محمد بن الأشعث، عن عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يعني في أهل الكتاب ـ: إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وَضَلُّوا عنها، وعلى القبلةِ التي هَدَانا الله لها وضَلُّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين(٦).

وقولُه تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً، لتكونوا شهداءَ على الناس، ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾، يقول تعالى: إنما حَوّلناكم إلى قبلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ واخترناها لكم، لنجعلكم خيَار الأمم،

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير القرطبي ١٤٨/٢ ـ ١٤٩.
(٣) نقل ذلك القرطبي عن التمهيد لأبي عُمَر، انظر تفسير القرطبي ١٤٩/٢.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٧٤/٨ ـ ١٧٥. ومسلم، كتاب المساجد ٣٧٥.
(٥) في الأصل: عَمْرو. وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، ترجمة محمد بن أشعث ٢٠٦/٧.
(٦) مسند الإمام أحمد ١٣٤/٦ ـ ١٣٥.

لتكونوا يوم القيامة شُهَداء على الأمم، لأن الجميع مُعترفون لكم بالفضل.

والوسَطُ هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسطُ العرب نسباً وداراً، أي: خيرها. وكان رسول الله ـ ﷺ ـ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها. ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خَصَّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿ هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حَرَج، مِلَّةَ أبيكم إبراهيم، هو سَمَّاكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكم، وتكونوا شُهَداءَ على الناس ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يُدعى نوحٌ يوم القيامة فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم. فَيُدْعَى قومُه فيقال لهم: هل بَلَّغَكُم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما[(١)] أتانا من أحد. فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: مُحمَّد وأمته. قال: فذلك قوله: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾. قال: الوَسَطُ: العدل، فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ، [قال][(٢)]: ثم أشهد عليكم[(٣)].

رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش[(٤)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلِ والنبيّ، ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعَى قومُه، فيقال: هل بَلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بَلَّغتَ قومَك؟ فيقول: نعم. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعَى مُحمد وأمته، فيقال لهم: هل بَلَّغ هذا قومَه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ـ ﷺ ـ فأخبرنا أن الرسل قد بَلَّغوا، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال: عدلاً ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[(٥)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخُدْري، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾، قال: عدلاً[(٦)].

وروى الحافظ أبو بكر بن مردُويه، وابن أبي حاتم، من حديث عبد الواحد بن زياد، عن أبي مالك الأشجعي، عن المغيرة بن عُتَيبة بن نَهَّاس: حدثني مكاتب لنا، عن جابر بن عبدالله، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: أنا وأمَّتي يوم القيامة على كَوْم[(٧)] مُشرفين على الخلائق. ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منَّا. وما من نبي كَذَّبه قومه إلا ونحن نشهدُ أنه قد بلغ رسالةَ ربه، عزّ وجلّ.

وروى الحاكم في مستدركه وابن مَرْدُوَيه أيضاً ـ واللفظ له ـ من حديث مُصعَب بن ثابت، عن محمد بن كعب القُرَظي، عن جابر بن عبدالله، قال: شهد رسولُ الله ـ ﷺ ـ جنازة في بني سَلِمَة، وكنت إلى جانب

---

(١) في المسند: أو.

(٢) عن المسند. ونصّ الأصل: «يقول يشهد عليكم».

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٢/٣.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٧١/٨ ـ ١٧٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ٨٣/١١ ـ ٨٥، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٣٢.

(٥) مسند الإمام أحمد ٥٨/٣.

(٦) المسند ٩/٣.

(٧) هي المواضع العالية، واحدها: كومة.

رسول الله ـ ﷺ ـ فقال بعضهم: والله ـ يا رسول الله ـ لنعم المرءُ كان، لقد كان عفيفاً مسلماً وكان. . . وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنت بما تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «وجبت». ثم شَهِد جنازة في بني حَارثة، وكنتُ إلى جانب رسول الله ـ ﷺ ـ فقال بعضُهم: يا رسولَ الله، بئس المرءُ كان، إن كان لفظاً غليظاً، فأثنوا عليه شراً، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لبعضهم: «أنت بالذي تقول». فقال الرجل: الله أعلمُ بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وجبت».

قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك يمحمد بن كَعْب: صدقَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثم قرأ: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾.

ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا داود بن أبي الفرات، عن عبدالله بن بُرَيدة، عن أبي الأسود أنه قال: أتيتُ المدينةَ فوافقتها، وقد وقع بها مَرَضٌ، فهم يموتون موتاً ذَرِيعاً(٢). فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرّت به جنازة، فَأُثْنِيَ على صاحبها خيرٌ. فقال: وَجَبَتْ وَجَبَتْ. ثم مُرَّ بأخرى (٣-[فَأُثنِيَ على صاحبها خيرٌ، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: وَجَبَتْ. ثم مُرَّ بالثالثة]-٣) فَأُثْنى [عليها](٣) شرٌ، فقال عمر: وَجَبَتْ. فقال أبو الأسود: ما وَجَبَت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أيما مُسلِم شَهِد له أربعة بخير أدخله الله الجنة. قال فقلنا: وثلاثةٌ؟ قال: وثلاثة. قال، فقلنا: واثنان؟ قال: واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد»(٤).

وكذا رواه البخاري، والترمذي، والنسائي من حديث داود بن أبي الفرات، به(٤).

قال ابن مَردُويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، حدثنا أبو قلابة الرقاشي، حدثني أبو الوليد، حدثنا نافع ابن عُمَر، حدثني أمية بن صفوان، عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي، عن أبيه، قال: سمعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ بالنَّباوَة(٥) يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم. قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيىء، أنتم شهداء الله في الأرض».

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون(٦). ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون، وعبد الملك بن عَمْرو، وسُرَيج، عن نافع بن عمر، به(٧).

وقولُه تعالى: ﴿ وما جعلنا القِبْلَة التي كنتَ عليها إلا لنَعْلم من يَتَّبع الرسولَ ممن ينقلب على عَقِبَيْه، وإن كانت لَكبيرة إلا على الذينَ هدى الله ﴾، يقول تعالى: إنما شرعنا لك ـ يا محمدُ ـ التوجُّه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حالُ من يَتبعـك ويُطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت، مِمَن

---

(١) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٢٦٨.
(٢) الموت الذريع: السريع.
(٣) عن المسند.
(٤) مسند الإمام أحمد ١/٢١ ـ ٢٢. وفتح الباري، كتاب الشهادات ٥/٢٥٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الجنائز ٤/٢٨٠ ـ ٢٨١، والنسائي، كتاب الجنائز ٤/٥١.
(٥) موضع بالطائف.
(٦) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد ١٤١١.
(٧) مسند الإمام أحمد ٣/٤١٦، ٦/٤٦٦. ولم تقع لنا رواية أحمد عن يزيد بن هارون.

ينقلب على عَقبَيْه، أي: مَرْتَداً عن(١) دينه ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾: أي: هذه الفعلة، وهو صرفُ التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسُول، وأنَّ كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرْية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلّف عباده بما يشاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمرٌ أحدَثَ لهم شكّاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقانٌ وتصديقٌ، كما قال الله تعالى: ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول: أيُّكم زادَتْه هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مَرَض فزادتهم رجْساً إلى رجسهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل: هو للذين آمنوا هُدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْر وَهُو عليهم عَمىً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾، ولهذا كان مَنْ ثَبَتَ على تصديق الرسول ـ ﷺ ـ واتباعه في ذلك، وتوجه حيثُ أمره الله من غير شك ولا ريب، من سادات الصحابة. وقد ذَهَب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار [هم] الذين صلّوا القبلتين.

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حد ثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا يحيى، عن سُفيان، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمرَ قال: بينا الناسُ يصلّون الصبح في مسجد قُباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ـ ﷺ ـ قرآن، وقد أُمِرَ أن يستقبل الكعبة، فاستقبِلُوها، فتوجهوا إلى الكعبة(٢).

وقد رواه مسلم(٣) من وجه آخر، عن ابن عُمَر. ورواه الترمذيّ من حديثِ سفيانَ الثَّوريِّ، وعنده: أنهم كانوا رُكوعاً، فاستداروا كما هم إلى الكَعبة، وهم ركوعٌ. وكذا رواه مسلم(٣) من حديث حَمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، مثله. وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ورسوله، وانقيادهم لأوامر الله عزّ وجلّ، رضي الله عنهم أجمعين.

وقولُه: ﴿ وما كان الله لِيُضِيعَ إيمانكم ﴾ أي: صلاتُكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما يضيع ثوابها عند الله، وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السَّبيعي، عن البراء، قال: مات قوم كانوا يصلُّون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾. [ورواه الترمذي عن ابن عباسٍ، وصحّحَه](٤).

وقال ابن إسحاق: حَدّثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي: بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم باتباعه إلى القبلة الأخرى. أي: لَيُعْطِيَنَّكم أجرَهما جميعاً، ﴿ إن الله بالناس لرءُوف رحيم ﴾.

وقال الحسن البصري: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي: ما كان الله ليضيع محمداً ـ ﷺ ـ وانصرافكم معه حيث انصرف ﴿ إن الله بالناس لرءُوف رحيم ﴾.

وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى امرأةً من السبي قد فُرِّق بينها وبين ولدها، فجعلت كُلّما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها، وهي تَدُور على ولدها، فلما وجدته ضَمّته إليها وألقمته ثَدْيها. فقال

(١) في الأصل: على دينه.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٧٣/٨.
(٣) مسلم، كتاب المساجد ٣٧٥، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ٨٧/١١.
(٤) ما بين القوسين عن الأصل. وانظر عارضة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ٨٨/١١.

رسول الله ـ ﷺ ـ: «أترون هذه طارحة في النار ولدها، وهي تقدرُ على الا تطرحه؟ قالوا: لا، يا رسول الله. قال: فوالله للهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها»(١).

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كان أوَّلُ ما نَسِخَ من القرآن القبلةَ، وذلك أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثرَ أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحَت اليهودُ، فاستقبلها رسولُ الله ـ ﷺ ـ بضْعَةَ عَشَر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿ قد نرى تَقَلُّبَ وَجْهكَ في السماء ﴾ إلى قوله: ﴿ فولّوا وجوهكم شَطره ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل: لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ وقال: ﴿ فأينما تولوا فَثَم وجه الله ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلَمَ من يَتَّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾.

وروى ابن مَرْدوَيه من حديث القاسم العُمَري، عن عمه عُبَيد الله بن عمر، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: قال كان النبي ـ ﷺ ـ إذا سَلَّم من صلاته إلى بيت المقدس رَفَع رأسه إلى السماء، فأنزل الله: ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب، يَؤُمّ به جبرائيل عليه السلام.

وروى الحاكم في مستدركه، من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن يحيى بن قمطة قال: رأيت عبدالله بن عمرو جالساً في المسجد الحرام، بإزاء الميزاب، فتلا [هذه الآية] ﴿ فلنولينك قبلةً ترضاها ﴾ قال: نحو ميزَابِ الكَعْبة، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه(٢).

ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن هشيم، عن يعلى بن عطاء، به.

وهكذا قال غيره، وهو أحد قولي الشافعي ـ رحمه الله ـ: أن الغرض إصابة عين القبلة. والقول الآخر ـ وعليه الأكثرون ـ أن المراد المواجهة، كما رواه الحاكم من حديث محمد بن إسحاق، عن عُمَير(٣) بن زياد الكندي، عن علي ـ رضي الله عنه ـ ﴿ فول وجهك شطر المسجدِ الحرام ﴾ قال: شطره: قِبَلَه. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٢).

وهذا قولُ أبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم وكما تقدم في الحديث الآخر: ما بين المشرق والمغرب قبلة. -(٤)(لأهل المسجد، والمسجد قبلةٌ لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أُمتي)-(٤).

وقال أبو نُعَيم الفضل بن دكين: حدثنا زهير، عن أبي إسحاق، عن البراء أن النبي ـ ﷺ ـ صلَّى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه قبلته قبل البيت وأنه صَلَّى صَلاة العصر، وصلّى معه

(١) فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٤٢٦ ـ ٤٢٧، ومسلم، كتاب التوبة ٢١٠٩.
(٢) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٢٦٩.
(٣) في الأصل: عمارة. والمثبت عن المستدرك.
(٤) عن الأصل.

قوم، فخَرَج رجل ممن كان يصلي معه، فمرّ على أهل المسجدِ وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صَلَّيتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ قِبَلَ مكَّة، فداروا كما هم قبل البيت.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسْرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء: لما قَدِم رسولُ الله ﷺ ـ المدينة صَلَّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يحب أن يحول نحو الكعبة، فنزلت: ﴿ قد نَرَى تَقَلُّب وجهك في السماء﴾ فصرف إلى الكعبة.

وروى النسائي، عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنا نَغْدُو إلى المسجد على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فنمرُّ على المسجد فنصلي فيه، فمررنا يوماً ورسول الله ـ ﷺ ـ قاعد على المنبر، فقلت: لقد حَدث أمر، فجلستُ، فقرأ رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء، فَلَنُولِّيَنَّكَ قبلةً ترضاها ﴾ حتى فَرَغ من الآية. فقلت لصاحبي: تَعَال نَركع ركعتين قَبْل أن يَنْزل رسول الله ـ ﷺ ـ فنكونَ أول من صلى، فتوارينا فَصَلَّيناهما. ثم نزل النبي ـ ﷺ ـ فصلى للناس الظهرَ يومئذ.

وكذا رَوَى ابن مَرْدُويه، عن ابن عمر: أن أولَ صلاة صلاها رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الكعبة صلاةُ الظهر، وأنها الصلاة الوُسطى. والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاةُ العصرِ، ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر.

وقال الحافظ أبو بكرْ بن مَرْدُويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا الحُسَين بن إسحاق التُسْتَري، حدثنا رجاء بن محمد السقطي، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا إبراهيم بن جَعفر، حدثني أبي، عن جدته أم أبيه نُوَيلة بنت مسلم، قالت: صَلَّينا الظهر ـ أو العصر ـ في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلَّينا ركعتين، ثم جاء مَنْ يحدثنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قدَ استقبَلَ البيتَ الحرامَ، فتحوَّلَ النساءُ مكانَ الرجال، والرجالُ مكان النساء، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون البيتَ الحرام. فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أولئك رجالٌ يؤمنونَ بالغيبِ».

[وقال ابن مردويه أيضاً]: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا مالك بن إسماعيل النَّهدي، حدثنا قيس، عن زياد بن علاقة، عن عُمَارة بن أوس قال: بينما نحن في الصلاة نحو بيت المقدس، ونحن ركوع، إذ أتى منادٍ بالباب أن القبلة قد حُوِّلت إلى الكعبةِ. قال: فأشهدُ على إمامنا أنه انحرفَ فتحوَّل هو والرِّجال والصبيان، وهم ركوع، نحو الكعبة.

وقوله: ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أمَرَ تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شَيْء، سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قَالبُه، وقَلْبُه نحو الكعبة. وكذا في حال المسايفة في القتال يصلِّي على كل حال. وكذا من جَهِل جهة القبلة يصلي باجتهاده، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر؛ لأن الله تعالى لا يكلِّف نفساً إلا وسعها.

مسألة[1]

وقد استدلّ المالكية بهذه الآية على أن المصلِّي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده، كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة. قال المالكية: لقوله: ﴿ فَولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾، فلو نظر إلى موضع سجوده

(١) هذه المسألة عن الأصل، وانظر تفسير القرطبي ٢/١٦٠.

لاحتاج إلى أن يتكلّف ذلك بنوع من الانحناء، وهو ينافي كمال القيام. وقال بعضهم: ينظر المصلّي في قيامه إلى صدره. وقال شُرَيك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده، كما قال الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع، وآكد في الخشوع، وقد ورد به الحديث، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه، وفي حال قعوده إلى حِجْره.

وقوله: ﴿ وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلَمُون أنّه الحقّ من ربهم ﴾ أي: واليهودُ ـ الذين أنكروا استقبالكم الكعبةَ وانصرافكم عن بيت المقدسـ يعلمون أن الله تعالى سَيُوجِّهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله ـ ﷺ ـ وأمّته، وما خصه الله تعالى به وشرّفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حَسَداً وكفراً وعناداً، ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿ وما الله بغافل عما يَعْملون ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٥) ﴾

يخبر تعالى عن كُفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ـ ﷺ ـ وأنه لو أقام عليهم كلّ دليل على صحة ما جاءهم به، لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾.

وقوله: ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ـ ﷺ ـ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضاً مُسْتَمْسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، وما كان متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمْر الله تعالى. ثم حذر الله تعالى من مخالفة الحق الذي يعلَمه العالم إلى الهوىٰ؛ فإن العالم الحُجَّةُ عليه أقومُ من غيره. ولهذا قال مخاطباً للرسول، والمراد الأمة: ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١٤٧) ﴾

يخبر تعالى أنّ علماء أهل الكتاب يعرِفُون صِحَّة ما جاءهم به الرسول ـ ﷺ ـ كما يعرف أحدُهم ولده، والعربُ كانت تضرب المثلَ في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال لرجل معه صغير: ابنك هذا؟ قال: نعم يا رسول الله، أشهد به. قال: أما إنه لا يَجْني عليك ولا تَجْني عليه(١).

قال (٢-القرطبي: ويُرْوَى أن عمر قال لعبدالله بن سَلاَم: أتعرف محمداً ـ ﷺ ـ كما تعرف وَلَدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء بنَعْتِهِ فعرفتُه، وإنّي(٣) لا أدري ما كان من أمه.

(١) سنن أبي داود، كتاب الديّات ١٦٨/٤، والنسائي، كتاب القسامة ٥٣/٨، وابن ماجه، كتاب الديّات ٨٩٠، ومسند الإمام أحمد ٨١/٥.
(٢) عن الأصل.
(٣) في الأصل: «وإنني لا أدري ما كان من أمره». والمثبت عن تفسير القرطبي ١٦٣/٢ ونص الفخر الرازي: «وأما ولدي فلعل والدته خانت».

قلت: وقد يكون المراد: يعرفونه كما يعرفون أبناءهم من بين أبناء الناس كلهم)[١].

ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمي ﴿ ليكتمون الحق ﴾ أي: ليكتمون الناسَ ما في كتبهم من صفة النبي - ﷺ - ﴿ وهم يعلمون ﴾. ثم ثبَّت تعالى النبيَّ - ﷺ - وأخبر بأنّ ما جاء به النبي - ﷺ - هو الحقُّ الذي لا مِرْية فيه ولا شك، فقال: ﴿ الحق من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين ﴾.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ يعني بذلك أهلَ الأديان، يقول: لكلٍّ قبلةٌ يرضونها، وَوَجْهُ الله حيث تَوَجَّه المؤمنون[٢].

وقال أبو العالية: لليهوديِّ وجهةٌ هو مولِّيها، وللنصرانيِّ وجهةٌ هو مُولِّيها، وهَداكم أنتم أيتُها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة. ورُوِي عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدِّيِّ نحو هذا.

وقال مجاهد في الرواية الأخرى والحسن: أمَرَ كلَّ قوم أن يصلوا إلى الكعبة.

وقرأ ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وابن عامر: ﴿ ولكل وجهة هو مُوَلَّاها ﴾.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً [ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوَكم فيما آتاكم] فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾.

وقال هاهنا: ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جَميعاً إنّ الله على كل شيء قدير ﴾، أي: هو قادر على جَمْعِكُم من الأرض، وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

هذا أمرٌ ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام، من جميع أقطار الأرض.

وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مَرّاتٍ، فقيل: تأكيد، لأنه أوّلُ ناسخ وقع في الإسلام، على ما نصَّ عليه ابن عباس وغيره. وقيل: بل هو مُنَزَّل على أحوال، فالأمر الأوّل لمن هو مشاهدٌ للكعبة، والثاني لمن هو في مكةَ غائباً عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان. هكذا وجَّهه فخر الدين الرازي.

وقال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار. ورجّح هذا الجوابَ القرطبي.

وقيل: إنما كُرِّر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق، فقال أولاً: ﴿ قد نرى تَقَلُّب وجهك في السماء فلَنولِّيَنَّك قبلةً ترضاها، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما تعملون ﴾، فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته، وأمره

(١) تفسير الطبري ٢/٢٨.
(٢) عن الأصل.

بالقبلة التي كان يودُّ التوجه إليها ويرضاها. وقال في الأمر الثاني ﴿ ومن حيث خرجت فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وإنه للحقُّ من ربك، وما الله بغافل عما تعملون ﴾، فذكر أنه الحقُّ من الله، وارتقى عن المقام الأول، حيث كان موافقاً لرِضى الرسول، فبيَّن أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه. وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يحتجون باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمونَ مما في كتبهم أنه سيُصْرَف إلى قبلة إبراهيم إلى الكعبة. وكذلك مشركو العرب، انقطعت حُجَّتهم كما صرف الرسول عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة، وأعجبهم استقبال الرسول ـ ﷺ ـ إليها. وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بَسَطها فخر الدين وغيره، والله سبحانه وتعالى أعلم)

وقوله[١]: ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾، أي: أهل الكتاب، فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجُّه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها رُبَّما احتجوا بها على المسلمين. أو لئلَّا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر.

قال أبو العالية: ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجةٌ ﴾، يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صُرف محمد إلى الكعبة، وقالوا: اشتاقَ الرجلُ إلى بيت أبيه ودين قومه. وكان حجتهم على النبي ـ ﷺ ـ انصرافه إلى البيت الحرام أنْ قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، نحو هذا.

وقال هؤلاء في قوله: ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ يعني: مشركي قريش.

ووجَّه بعضهم حُجَّة الظَّلَمَة ـ وهي داحضةٌ ـ أن قالوا: إنّ هذا الرجل يزعمُ أنه على دين إبراهيم! فإن كان توجّهه إلى بيت المقدس على ملَّة إبراهيم، فلم رجع عنه؟ والجواب: أنّ الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أوّلاً لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم ـ وهي الكعبة ـ فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً، فهو ـ صلوات الله وسلامه ـ عليه ـ مطيعٌ لله في جميع أحواله، لا يخرجُ عن أمرِ الله طَرْفَةَ عين، وأمَّته تَبَعٌ له.

وقوله: ﴿ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ أي: لا تخشوا شُبَهَ الظلمة المتعنتين، وأفْرِدُوا الخشية لي؛ فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه.

وقوله: ﴿ ولأتمّ نِعْمَتي عليكُم ﴾ عَطْف علىٰ: ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ [أي ولأتم نعمتي عليكم] فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكملَ لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ أي: إلى ما ضَلَّت عنه الأمم هديناكم إليه، وخَصَصْناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرفَ الأمم وأفضلها.

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

يُذَكِّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرَّسول محمد ـ ﷺ ـ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات وَيُزَكِّيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات

---

(١) هذه الفقرة كررت في الأصل، وذكر أولاً قبل قوله السابق: «وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار».

إلى النور، ويعلمهم الكتاب، ويعلمهم الكتاب، وهو: القرآن، والحكمة، وهي: السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يُسَفَّهون بالقول الـفَريّ[1]، فانتقلوا ببركة رسالته ويُمْن سِفارته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ﴾ ... الآية. وذمّ من لم يَعرِفْ قَدْرَ هذه النعمةَ، فقال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نِعْمَةَ الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾.

قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ـ ﷺ ـ ولهذا نَدَبَ الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني.

قال عبدالله بن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أن موسى ـ عليه السلام ـ قال: يا رب، كيف أشكرك؟ قال له ربه: تذكرُني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني.

وقال الحسن البصري، وأبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس: إن الله يذكرُ مَن ذكره، ويزيدُ من شَكَره ويُعذِّب من كفره.

وقال بعضُ السلفِ في قوله تعالى: ﴿ اتقوا الله حق تُقَاته ﴾ قال: هو أن يطاع فلا يُعْصى، ويذكر فلا يُنْسَى ويُشْكَرَ فلا يُكْفَر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا عمارة الصيدلاني، حدثنا مكحول الأزدي قال: قلت لابن عُمَر: أرأيت قاتلَ النفس وشاربَ الخمر والسارق والزاني يذكر الله، وقد قال الله تعالى: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذَكَرَه (الله) بلعنَتِه حتى يسكُتَ.

وقال الحَسَنُ البصريُّ في قوله: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ قال: اذكروني فيما افترضتُ عليكم، أَذكُرْكم فيما أوجبتُ لكم على نَفْسِي.

وعن سعيد بن جُبَير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي روايةٍ: برحمتي.

وعن ابنِ عَبَّاسٍ في قوله: ﴿ اذكروني أذكركم ﴾ قال: ذِكْرُ الله إيّاكم أكثرُ من ذكركم إيَّاه.

وفي الحديث الصحيحِ: يقول الله تعالى: من ذَكَرَني في نَفْسِه ذكرتُه في نَفْسِي، ومن ذَكَرني في مَلإٍ ذكرتُه في مَلإٍ خيرٍ منه[2].

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَر، عن قتادَةَ، عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قال الله عزّ وجلّ: يا ابن آدم، إن ذكرتَني في نَفْسكَ ذكرتُكَ في نفسي، وإن ذكرتني في مَلإٍ ذكرتُكَ في مَلإٍ من الملائكة ـ أو قال: في مَلأٍ خيرٍ منهم ـ وإن دَنوتَ مِنّي شبراً دنوتُ منك ذِرَاعاً، وَإن دنوتَ مني ذِراعاً دَنوتُ منك باعاً، وإن أتيتني تَمْشِي أتيتكَ أُهَرْوِلُ»[3].

صحيح الإسناد. أخرجه البخاري من حديث قتادة[4]. وعنده قال قتادةُ: الله أقربُ بالرَّحمة.

---

(١) في الأصل: الفرا. والفريّ: المختلق.
(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد ٣٨٤/١٣. ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٦١، ٢٠٦٨.
(٣) مسند الإمام أحمد ١٣٨/٣، وبعده: «وقال قتادة: فالله ـ عزّ وجل ـ أسرعُ بالمغفرة».
(٤) فتح الباري، كتاب التوحيد ٥١١/١٣ ـ ٥١٢.

وقولُه تعالى: ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ أمر الله تعالى بشُكْره، ووعَدَ على شُكْرِه بمزيد الخير، فقال: ﴿ وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتُم لأزيدنَّكم، ولئن كفرتُم إنَّ عذابي لشديد ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن الفضيل بن فَضَالة ـ رَجُلٍ من قَيْسٍ ـ حدثنا أبو رَجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حُصَين، وعليه مِطْرَفٌ[1] من خزٍّ لم نَرَه عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من أنعم الله عليه نعمةً فإن الله يُحبُّ أن يُرَى أَثَرُ نعمتِه على خَلْقه. وقال روح مَرَّةً: على عبده»[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

لما فَرَغَ تعالى من بيان الأمر بالشكر شَرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإنَّ العبدَ إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمةٍ عليها؛ كما جاء في الحديث: «عجباً للمؤمن، لا يَقْضِي الله له قضاءً إلا كان خيراً له: إن أصابته سَرَّاء فَشَكَر، كان خيراً له؛ وإن أصابته ضرّاء فصَبَرَ كان خيراً له»[3].

وبين تعالى أن أجودَ ما يُستعان به على تَحَمُّل المصائب الصبرُ والصلاةُ، كما تقدَّم في قوله: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾. وفي الحديث كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا حَزَبَه أمر صلى[4]. والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود. كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين، الصبر لله بما أَحَبَّ وإن ثَقُل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم الله.

وقال علي بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي منادٍ: أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عُنُق[5] من الناس، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين يا بَني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: وقَبْلَ الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: الصابرون، قالوا: وما كان صبرُكم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصَبَّرْنا عن معصية الله، حتى تَوفَّانا الله. قالوا: أنتم كما قلتُم، ادخلوا الجنة، فنعم أجرُ العاملين.

قلتُ: ويشهدُ لهذا قوله تعالى: ﴿ إنما يُوَفَّى الصابرون أجرَهُم بغير حساب ﴾.

وقال سعيد بن جُبَير: الصبر اعترافُ العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاءَ ثوابِه، وقد يجزَعُ الرجل وهو مُتَجَلِّد لا يرى منه إلا الصبر.

وقولُه تعالى: ﴿ ولا تقولُوا لمن يُقتَلُ في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ﴾ يخبر تعالى أنَّ الشهداء في بَرْزَخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم[6]: إنَّ أرواح الشهداء في حَواصِلِ طيرٍ خُضْرٍ تسرَحُ في الجنة حيث

---

(١) المِطْرَفُ: الثوب الذي في طرفيه علمان.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٤٣٨.

(٣) مسلم، كتاب الزهد ٢٢٩٥.

(٤) تقدم تخريج الحديث، انظر.

(٥) أي: طائفة منهم.

(٦) مسلم، كتاب الإمارة ١٥٠٢ - ١٥٠٣.

شاءت، ثم تأوي إلى قناديلَ مُعَلَّقةٍ تحتَ العرشِ، فاطّلع عليهم ربُّك اطِّلَاعَة، فقال: ماذا تبغُون؟ فقالوا: يا ربنا، وأيُّ شيء نبغي وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثلِ هذا، فلما رأوا أنهم لا يُتْركُون من أن يُسألوا، قالوا: نريد أن تَرُدَّنا إلى الدار الدنيا، فنقاتلَ في سبيلك، حتى نُقْتَلَ فيك مرَّةً أخرى ـ لما يرون من ثواب الشهادة ـ فيقول الرب جلَّ جلاله: إني كتبتُ أنَّهم إليها لا يرجعون.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزُّهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نَسَمَةُ المؤمن طائر تَعَلَّقُ في شجر الجنة، حتى يَرْجِعَه الله إلى جَسَده يوم يبعثه»(١).

ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداءُ قد خُصِّصُوا بالذكر في القرآن، تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

أخبر تعالى أنه يبتلي عباده، أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿ ولنبلُونَّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم ﴾ فتارة بالسرّاء وتارة بالضرّاء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿ فأذاقها الله لباسَ الجُوعِ والخَوْفِ ﴾ فإنّ الجائعَ والخائفَ كلٌّ منهما يظهر ذلك عليه. ولهذا قال: ﴿ لباسَ الجُوعِ والخَوْفِ ﴾. وقالَ هاهنا: ﴿ بشيء من الخوف والجوع ﴾، أي: بقليل من ذلك ﴿ ونقص من الأموالَ ﴾ أي: ذهاب بعضها ﴿ والأنفس ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿ والثمرات ﴾ أي: لا تُغِل الحدائق والمزارع كعادتها. كما قال بعض السلف: فكانت بعضُ النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صَبَر أثابه، ومن قَنِطَ أحلَّ به عقابه. ولهذا قال: ﴿ وَبَشِّر الصابرين ﴾.

وقد حَكَى بعضُ المفسرين أنَّ المرادَ من الخوفِ هاهنا خوفُ الله، وبالجوع صيامُ رمضان. ونقصُ الأموال: الزكاة. والأنفس: الأمراض. والثمرات: الأولاد. وفي هذا نظر، والله أعلم.

ثم بيَّن تعالى مَنِ الصابرون الذين شكرهم، فقال: ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا: إنَّا لله وإنا إليه راجعون ﴾ أي: تسلَّوا بقولهم هذا عمَّا أصابهم، وعَلِمُوا أنَّهم مِلْكٌ لله يتصرَّفُ في عبيـده كيف يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثْقال ذرَّة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى بما أعطاهم على ذلك فقال: ﴿ أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ﴾، أي: ثناءٌ من الله عليهم ورحمة.

قال سعيد بن جُبَير: أي أَمَنَةٌ من العذاب ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾. قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نِعْمَ العِدْلان ونعمت العِلاوة(٢) ﴿ أولئك عليهم صَلَوات من ربهم ورحمة ﴾ فهذان العدْلان ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ فهذه العلاوة، وهي ما توضع بين العِدْلين وهي زيادة في الحمل، وكذلك هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدُوا أيضاً.

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٤٥٥.
(٢) فتح الباري، كتاب الجنائز ٣/١٧١، وانظر تفسير القرطبي ٢/١٧٧.

وقد وَرَد في ثواب الاسترجاع، وهو قولُ: ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ عند المصائب، أحاديثُ كثيرةٌ، فمن ذلك ما رواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا يونس، حدثنا ليث ـ يعني ابن سَعْدٍ ـ عن يزيد بن عبدالله بن أسامة بن الهاد، عن عمرو بنِ أبي عَمْرو، عن المطلب، عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سَلَمة يوماً من عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: لقد سَمِعتُ من رسول الله ـ ﷺ ـ قولاً سُرِرْتُ به. قال: «لا يُصِيب أحداً من المسلمين مصيبةٌ فيسترجعَ عند مصيبته، ثم يقول: اللهم أجُرْني في مصيبتي وأَخْلِفْ لي خيراً منها، إلا فُعِل ذلك به». قالت أم سلمة: فحفِظْتُ ذلك منه، فلما تُوُفي أبو سلمة استرجَعْتُ وقلت: اللهم أجُرْني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منه، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: مِنْ أين لي خيرٌ من أبي سَلَمة؟ فلما انقضت عدَّتي استأذن عليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ، وأنا أَدبغُ إهاباً لي. فغسلت يَدَيَّ من القَرَظ، وأذِنتُ له، فوضعت له وسادة أدَم حَشْوُها ليفٌ، فقعَدَ عليها، فخطبني إلى نفسي. فلما فرغ من مقالته قلت: يا[1] رسول الله، ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة فيَّ غَيْرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلتُ في السنّ، وأنا ذات عيال، فقال: «أما ما ذكرتِ من الغيرة فسوف يُذهبها الله ـ عزّ وجلّ ـ عنكِ، وأما ما ذكرت من السّنّ فقد أصابني مثلُ الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالُك عيالي». قالت: فقد سَلَّمْتُ لرسول الله ـ ﷺ ـ فتزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت أم سلمة بعدُ[2]: أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه، رسولُ الله ـ ﷺ ـ[3].

وفي صحيح مسلم عنها قالت: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما من عبد تُصيبه مصيبةٌ فيقول: ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ اللهم أجُرْني في مصيبتي وأَخْلِف لي خيراً منها، إلا آجره [الله] في مُصيبته، وأخلَفَ له خيراً منها». قالت: فلما تُوُفي أبو سَلَمة قلت كما أمرني رسول الله ـ ﷺ ـ فأخلف الله لي خَيراً منه: رسولَ الله ـ ﷺ ـ[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، وعَبَّاد بن عَبَّاد قالا: حدثنا هِشام بن أبي هشام، حدثنا عباد بن زياد، عن أمه، عن فاطمة ابنة الحسين، عن أبيها الحسين بن عليّ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها ـ وقال عباد: قَدُم عهدها ـ فيُحْدثُ لذلك استرجاعاً، إلا جَدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب[5].

ورواه ابن[6] ماجه في سُنَنه، [عن أبي بكر بن أبي شيبة]، عن وكيع، عن هشام بن زياد، عن أمه، عن فاطمةَ بنت الحسين. وقد رواه إسماعيل بن عُلَية، ويزيد بن هارون، عن هشام بن زياد[7]، عن أبيه، عن فاطمة، عن أبيها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السالحيني، أخبرنا حَمَّاد بن سلمة، عن أبي سنان قال:

---

(١) في الأصل: بأبي يا رسول الله أن لا أكون. والمثبت عن المسند.

(٢) في المسند: فقد.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٢٧ ـ ٢٨.

(٤) مسلم، كتاب الجنائز ٦٣٣.

(٥) مسند الإمام أحمد ١/٢٠١.

(٦) سنن ابن ماجه، كتاب الجنائز ٥١٠. وما بين القوسين سقط من الأصل.

(٧) في الأصل: هشام بن يزيد. وانظر سند ابن ماجه، ومسند أحمد، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/٥٨، وتهذيب الكمال، ترجمة الحسن البصري ٦/١٠٢.

دفنتُ ابناً لي، فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة ـ يعني الخولاني ـ فأخرجني، وقال لي: ألا أُبشِّرك؟ قلت: بلى. قال: حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عَازِب، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال الله: يا ملك الموت، قبضتَ ولد عبدي؟ قبضتَ قُرَّة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حَمِدَك واسترجع. فقال: ابنوا له بيتاً في الجنة، وسمُّوه بيتَ الحمد»[١].

ثم رواه عن علي بن إسحاق، عن عبدالله بن المبارك. فذكره. وهكذا رواه الترمذي[٢] عن سُوَيد بن نصر، عن ابن المبارك، به. وقال: حسن غريب. واسم أبي سنان: عيسى بن سنان.

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمانُ بن داودَ الهاشمي، أخبرنا إبراهيمُ بن سعدٍ، عن الزُّهري، عن عُروَةَ، عن عائشةَ قالت: قلتُ: أرأيت قولَ الله تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حَجَّ البيت أو اعتمر فلا جُناحَ عليه أن يَطوَّف بهما ﴾ قلت: فوالله ما على أحدٍ جناحٌ ألا يطوَّف بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي، إنها لو كانت على[٣] ما أوّلتها كانت عليه: فلا جناح عليه ألا يطوّفَ بهما، ولكنها إنما أنزلت أنّ الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهلّون لمناةَ الطاغية[٤]، التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل. وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوّفَ بالصفا والمروة. فسألوا عن ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرَّج أن نَطَّوف بالصفا والمروة في الجاهليـة. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ إن الصفا والمروةَ من شعائرِ الله ﴾ إلى قوله: ﴿ فلا جُناحَ عليه أن يَطَّوف بهما ﴾ قالت عائشة: ثم قد سنّ رسول الله ـ ﷺ ـ الطواف بهما، فليس لأحد أن يَدَع الطواف بهما[٥]. أخرجاه في الصحيحين[٦].

وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثتُ بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن هذا العلمُ، ما كنت سمعته، ولقد سمعتُ رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس ـ إلا من ذكرتْ عائشة ـ كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحَجَرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾. قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء[٧].

ورواه البخاريُّ من حديث مالك، عن هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشةَ، بنحو ما تقدم. ثم قال البخاري:

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عاصم بن سُليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة قال:

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٤١٥.
(٢) عارضة الأحوذي، أبواب الجنائز ٤/٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٣) في الأصل: كما.
(٤) مناة: صنم، كان نصبه عَمْرو بن لحيّ في جهة البحر بالمشلل مما يلي قَديداً.
(٥) مسند الإمام أحمد ٦/١٤٤
(٦) فتح الباري، كتاب الحج ٣/٤٩٧ ـ ٤٩٨، ومسلم، كتاب الحج ٩٢٨ ـ ٩٢٩.
(٧) عارضة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ١١/٨٩ ـ ٩٠، ومسلم، كتاب الحج ٩٢٩.

كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾[1].

[2-](وذكر القرطبي [3] في تفسيره عن ابن عباس قال: كانت الشياطين تتفرق بين الصفا والمروة الليل كُلّه، وكانت بينهما آلهة، فلما جاء الإسلامُ سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ عن الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية.

وقال الشعبي: كانت إسافُ على الصفا وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونهما، فتحرَّجُوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية.

قلت وذكر ابنُ إسحاق[4] في كتاب السِّيَر أن إسافاً ونائلةً كانا بَشَرين فَزَنيا داخِلَ الكعبة، فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناسُ، فلما طال عهدهما عُبِدا، ثم حُوِّلا إلى الصفا والمروة، فَنُصِبَا هنالك، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما. ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وحيث يُنِيخُ الأشعَرُونَ ركابهم بِمُفْضَى السُّيول من إسافٍ ونائل)[-2]

وفي صحيح مسلم[5] حديثُ جابر الطويلُ، وفيه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما فرَغَ من طوافِه بالبيتِ، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرَجَ من باب الصفا، وهو يقولُ: ﴿ إن الصَّفا والمروة من شعائرِ الله ﴾ ثم قال: أبدأ بما بدأ الله به، وفي رواية النسائي[6]: ابدءوا بما بدأ الله به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج، حدثنا عبدالله بن المؤمل، عن عطاء بن أبي رباح، عن صفيةَ بنتِ شيبةَ، عن حَبِيبة بنت أبي تَجْرَاة، قالت: رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعَى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدورُ به إزارُه، وهو يقول: اسعَوا فإن الله كتب عليكم السعي[7].

ثم رواه الإمام أحمد، عن عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن واصل ـ مولى أبي عُيَينة ـ عنِ موسى بن عبيدة، عن صفية بنت شيبة، أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ـ ﷺ ـ بين الصفا والمروة يقول: «كُتب عليكم السعي، فاسعوا»[8].

وقد استُدلّ بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي، ومن وافقه (ورواية[9] عن أحمد، وهو المشهور عن مالك) وقيل: إنه واجب، وليس بركن [2-]فإن تركه عمداً أو سهواً جَبَره بدم، وهو رواية عن أحمد، وبه تقول طائفة: وقيل: بل مستحب، وإليه ذهب أبو حنيفة، والثوري، والشعبيّ، وابن سيرين، ورُوِي عـن أنس، وابن عمر، وابن عباس، وحُكِي عن مالك في

(١) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٧٥/٨.
(٢) عن الأصل.
(٣) تفسير القرطبي ١٧٩/٢.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٧٦/٨.
(٥) انظر سيرة ابن هشام ٨٣/١.
(٦) مسلم، كتاب الحج ٨٢٨.
(٧) النسائي، كتاب المناسك ٢٣٦/٥.
(٨) مسند الإمام أحمد ٤٢١/٦ - ٤٢٢.
(٩) المسند ٤٣٧/٦.

العُتَبِيَّة قال القرطبي [١] : واحتجوا بقوله: ﴿ فمن تطوع خيراً ﴾-[٢]. والقول الأول أرجح، لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: لتأخذوا عني مناسككم. فكل ما فعله في حجّته تلك واجب لا بُدَّ من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم. [٢]-(وقد تقدّم قوله عليه السلام: اسعوا فإن الله كتب عليكم السَّعْيَ)-[٢].

فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي: مما شَرَع الله تعالى لإبراهيم الخليل في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس أنّ أصل ذلك مأخوذ من تَطْوافِ هاجَرَ وتَرْدادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نَفِدَ ماؤها وزادُها، حين تركهما إبراهيم ـ عليه السلام ـ هنالك ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعةَ على ولدها هنالك، ونَفِد ما عندها قامت تطلب الغَوثَ من الله ـ عزّ وجلّ ـ فلم تَزَل تَتَرَدَّدُ في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وَجِلة مضطرة فقيرة إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ حتى كَشَفَ الله كربتها، وآنسَ غُربتها، وفرَّج شدتها، وأنبع لها زمزمَ التي ماؤها «طعامُ طُعْم [٣] ، وشفاء سُقْم». فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذُلَّه وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاحِ حالِه وغُفرانِ ذَنْبِه، وأن يلتجىء إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ لِيُزيح ما هو به من النقائِصِ والعيوبِ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يُثبته عليه إلى مماته، وأن يُحوِّله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغُفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر عليها السلام.

وقوله: ﴿ فمن تطوع خيراً ﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنةً وتاسعةً ونحو ذلك.

وقيل: يطوف بينهما في حجَّةِ تطوُّع أو عُمْرةِ تطوّع. وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات. حكى ذلك الرازي، وعزى الثالث إلى الحسن البصري، والله أعلم.

وقوله: ﴿ فإن الله شاكر عليم ﴾ أي: يثيب على القليل بالكثير، ﴿ عليم ﴾ بقدر الجزاء، فلا يبخَسُ أحداً ثوابه و﴿ لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

هذا وعيدٌ شديدٌ لِمن كَتَم ما جاءت به الرسلُ من الدلالاتِ البينةِ على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه، التي أنزلها على رسله.

قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتمُوا صِفَةَ محمد ـ ﷺ ـ. ثم أخبر أنهم يلعنهم كلّ شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفرُ له كلُّ شيء، حتى الحوتُ في الماء والطيرُ في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وقد ورد في الحديث المسند من طُرُق يشد بعضها بعضاً، عن أبي هُرَيرة وغيره: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من سُئِل عن علم فكتمه أُلْجِمَ يوم القيامة بلجام من نار»؟[٤]. والذي

(١) تفسير القرطبي ٢/١٨٣.
(٢) عن الأصل.
(٣) أي: يشبع الإنسان إذا شرب ماءها.
(٤) سنن أبي داود، كتاب العلم ٣/٣٢١. وعارضة الأحوذي، أبواب العلم ١٠/١١٨، وابن ماجه، المقدمة ٩٦ ـ ٩٧، ومسند الإمام أحمد =

في الصحيح عن أبي هُرَيرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحداً شيئاً: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى ﴾ . . . الآية[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمار بن محمد، عن ليث بن أبي سُلَيم، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان أبي[٢] عُمَر، عن البراء بن عازب، قال: كنا مع النبي - ﷺ - في جنازة، فقال: «إن الكافر يُضْرَب ضَرْبةً بين عينيه، يسمعها كل دابة غير الثقلين، فتلعنه كل دابة سَمعت صوته»، فذلك قول الله تعالى: ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾، يعني دَوَابَّ الأرض.

[٣-](ورواه ابن ماجه[٤] عن محمد بن الصباح عن عمّار بن محمد، به)[-٣].

وقال عطاء بن أبي رباح: كل دابة والجن والإنس. وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض قالت البهائم: هذا من أجل عُصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة ﴿ ويلعنهم اللاعنون ﴾: يعني تلعنهم ملائكة الله، والمؤمنون.

[٤-](وقد جاء في الحديث[٥] أنَّ العالم يستغفر له كلُّ شيء حتى الحيتان في البحر، وجاء في هذه الآية أنَّ كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناسُ أجمعون، واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح أو عجمي، إما بلسان القال أو الحال، أو لو كان له عقل، أو يوم القيامة والله أعلم)[-٤].

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا ﴾ أي: رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم، وبيَّنوا للناس ما كانوا كتموه، ﴿ فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾. وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله، تابَ الله عليه.

وقد وَرَد أنَّ الأمم السالفة لم تكن التوبةُ تُقبَلُ من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نَبيِّ التوبةِ ونبيِّ الرحمة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر تعالى عمن كَفَر به، واستمرّ به الحالُ إلى مماته بأنَّ ﴿ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها ﴾ أي: في اللعنة الباقية إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿ لا يخفَّفُ عنهم العذابُ ﴾ فيها، أي: لا يُنقَصُ عَمَّا هم فيه ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي: لا يُغَيَّر عنهم ساعة واحدة، ولا يفتَّر، بل هو متواصلٌ دائمٌ، فنعوذُ بالله من ذلك.

وقال أبو العالية وقتادةُ: إن الكافرَ يوقف يوم القيامة فيلعنه اللهُ، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناسُ أجمعون.

(مسألة)

[٦-]لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عُمَر بن الخطاب - رضي الله عنه - فمن بعده من الأئمة

= ٢٦٣/٢، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥

(١) البخاري، كتاب العلم ٢١٣/١.

(٢) في الأصل: ابن عمر. وانظر ترجمته في الجرح لابن أبي حاتم ٦١٤/٣، وتهذيب الكمال ٣٦/٤.

(٣) عن الأصل.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٣٤.

(٥) عارضة الأحوذي، أبواب العلم ١٥٤/١٠ - ١٥٥، وابن ماجه في المقدمة ٨١، ٨٧، والإمام أحمد في مسنده ١٩٦/٥.

(٦) هذه المسألة عن الأصل.

يلعنون الكَفَرَةَ في القُنُوتِ وغيره، فأما الكافر المعيَّن فقد ذهبت جماعةٌ من العلماء إلى أنه لا يُلْعن، لأنا لا ندري بم يُخْتَمُ له. واستَدَلَّ بعضُهم بهذه الآية: ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كُفّار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾، وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعنة الكافر المعيّن، اختار ذلك الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي، ولكنه احتجَّ بحديثٍ ضعيف[1]. واستدلَّ غيرُهُ بقوله ـ ﷺ ـ في صحيح البخاريّ في قِصَّة الذي كان يُؤتَى به سكرانَ فيحدُّه، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يُؤتَى به. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله. قالوا: فعلّة المنع من لعنه بأنه يُحِبّ الله ورسوله، فدلَّ على أن من لا يحب الله ورسوله يُلْعَنُ والله أعلم)[2].

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

يُخبرُ تعالى عن تَفَرّده بالإلّهية، وأنه لا شريك له ولا عَديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا إلّه إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم. وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة. وفي الحديث عن شَهْرِ بن حَوْشَبٍ، عن أسماءَ بنتِ يزيدَ بن السَّكَنِ، عن رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ أنه قال: اسمُ الله الأعظمُ في هاتين الآيتين: ﴿ وإلّهكم إلّه واحد، لا إلّه إلا هُوَ الرحمن الرحيم ﴾، و﴿ الٓمٓ، الله لا إلّه إلا هو الحي القيوم ﴾[3].

ثم ذكر الدليل على تفرّده بالإلّهية بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذَرأ وبَرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ إن في خَلْق السموات والأرض ﴾ تلك في ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودَوَران فلكها، وهذه الأرضُ في انخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووِهَادها وعُمْرانها وما فيها من المنافع، ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ هذا يجيء ثم يذهب، ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿ لا الشمس يَنْبَغِي لها أن تُدرِكَ القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون ﴾ وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ أي: في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاءِ، وما عند أولئك إلى هؤلاءِ، ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب، وفَجّرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الذي خلق الأزواج

---

(١) في تفسير القرطبي ١٨٨/٢: «قال ابن العربي: والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله ولجواز قتله وقتاله، وقد روي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: اللّهمّ إن عمرو بن العاص هجاني وقد علم أني لست بشاعر فالعنه واهجه عدد ما هجاني».

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن: ١٣٣٤.

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ٦٢/١٣، وابن ماجه، كتاب الدعاء ١٢٦٧، ومسند الإمام أحمد ٤٦١/٦.

كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾. ﴿ وبَثَّ فيها من كل دابة ﴾، أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها، وصِغَرها وكِبَرها، وهو يَعلمُ ذلك كلَّه ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرَّها ومستودعها، كل في كتاب مبين ﴾. ﴿ وتصريف الرياح ﴾، أي: فتارةً تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، تارةً تأتي مُبَشِّرة بين يدي السحاب، وتارةً تسوقه، وتارةً تجمَعُه، وتارة تُفرِّقه، وتارة تُصرِّفه.

(١)-(ثم تارةً تأتي من الجنوب، وهي الشامية، وتارةً من ناحية اليمن، فتارةً صَبًا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دَبُورً، وهي غربية تَفِدُ من ناحية دُبُر الكعبة، والرياح كلها تسمى بحسب مرورها على الكعبة، وقد صَنَّفَ النَّاسُ في الرياح والمطر والأنواء كُتُباً كثيرةً، فيما يتعلَّق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا، والله أعلم)-(١).

﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾ يُسَخَّر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يُصَرِّفه تعالى ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾، أي: في هذه الأشياء دَلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار ﴾.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه: أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو سعيد الدَّشْتَكِيّ، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: أتت قريش محمداً - ﷺ - فقالوا: يا محمد، إنما نريد أن تدعو ربك أن يجعلَ لنا الصفا ذهباً، فنشتَرِيَ به الخيلَ والسلاحَ، فنؤمن بك ونقاتل معك. قال: «أوثقوا لي لئِنْ دعوتُ ربي فجعلَ لكم الصفا ذهباً لَتُؤْمِنُنَّ بي». فأوثقوا له، فدعا ربه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك عَذَّبهم عذاباً لم يُعَذِّبه أحداً من العالمين. قال محمد - ﷺ -: «ربِّ لا، بل دعني وقومي فَلأَدْعُهم يوماً بيوم». فأنزل الله هذه الآية: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ . . . الآية.

ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن جعفر بن أبي المغيرة، به. وزاد في آخره: وكيف يسألونك عن الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نَجيح، عن عطاء، قال: نزلت على النبي - ﷺ - بالمدينة: ﴿ وإلٰهكم إلٰه واحد، لا إلٰه إلا هو الرحمنُ الرحيم ﴾. فقال كفارُ قريشٍ بمكة: كيف يَسَعُ الناسَ إلٰهٌ واحدٌ؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ إلى قوله: ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾.

فبهذا يعلمونَ أنه إلٰه واحد، وأنه إلٰه كلِّ شيء، وخالق كل شيء.

وقال وكيع: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن أبي الضُّحَى قال: لما نزلَتْ: ﴿ وإلٰهكم إلٰهٌ واحدٌ ﴾ إلى آخر الآية، قال المشركون: إن كان هكذا فَلْيأتنا بآية. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إن في خَلْق السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار ﴾ إلى قوله: ﴿ يعقلون ﴾.

---

(١) عن الأصل.

ورواه آدم بن أبي إياس، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن سعيد بن مَسْرُوقٍ، والدِ سفيان، عن أبي الضحى، به.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

يذكُر تعالى حالَ المشركين به في الدنيا، وما لهُم في الدار الآخرة، حيث جَعَلُوا له أنداداً، أي: أمثالاً ونُظَراء يعبدُونهم معه ويحبُّونهم كحبِّه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضدَّ له ولا نِدَّ له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أيّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلَقك(1).

وقولُه: ﴿ والذين آمنوا أشدُّ حباً لله ﴾، ولحبِّهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدُونه وحده ويتوكَّلون عليه، ويلجئُون في جميع أمورهم إليه.

ثم تَوَعَّدَ تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال: ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ﴾، قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وأنّ جَميع الأشياء تحت قَهْرِه وغَلَبته وسلطانه ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾. كما قال: ﴿ فيومئذ لا يُعَذِّب عذابه أحدٌ، ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ يقول: لو عَلِموا ما يعاينونه هنالك، وما يَحِلّ بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرُّؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في دار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ ويقولون: ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾. والجن أيضاً تتبرأ منهم، ويتنصَّلُون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حُشِر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾. وقال تعالى: ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّةَ بينكم في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾. وقال تعالى: ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم، يرجعُ بعضُهم إلى بعض القولَ، يقول الذين استُضْعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدَدْناكم عن الهدى بعد إذْ جاءكم بل كنتم مُجْرمين * وقال الذين استُضْعِفُوا للذين استكبروا: بل مكرُ الليلِ والنهار إذْ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا، هل يُجزَون إلا ما كانوا يعملون ﴾. وقال تعالى: ﴿ وقال الشيطانُ لما قُضِيَ الأمرُ: إن الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم

(1) البخاري، تفسير سورة البقرة ١٦٣/٨، ومسلم، كتاب الإيمان ٩٠.

بمُصرِخيّ. إني كفرت بما أشركتمون من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾.

وقوله: ﴿ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي: عاينوا عذاب الله، وتقطَّعت بهم الحيَلُ وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار مَعْدِلاً ولا مَصْرِفاً.

قال عطاء عن ابن عباس ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ قال: المودة. وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نَجِيح.

وقوله: ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ﴾ أي: لو أن لنا عَوْدَة إلى الدار الدنيا حتى نَتَبَرَّأَ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نُوَحِّدُ الله وحدَه بالعبادة. وهم كاذبونَ في هذا، بل لو رُدّوا لعادوا لما نُهُوا عنه. كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿ كذلك يُريهم الله أعمالهم حَسَراتٍ عليهم وما هم بخارجيـن من النار ﴾، أي تذهب وتضمحل، كما قال الله تعالى: ﴿ وقدِمنا إلى ما عملوا من عَمَلٍ فجعلناه هباءً منثوراً ﴾. وقال تعالى: ﴿ مثلُ الذين كفروا بربِّهم أعمالُهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصفٍ ﴾ . . . الآية. وقال تعالى: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ﴾ . . . الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

لما بيَّن تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرازق لجميع خَلْقِه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباحَ لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي: مستطاباً في نفسه، غيرَ ضارّ للأبدان ولا للعقول. ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه، من تحريم البحَائر والسوائب والوصائل ونحوها، مما كان زَيّنه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حِمَار الذي في صحيح مسلم، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «يقول الله تعالى: إن كل ما أمنحهُ عباديَ فهو لهم حلال» وفيه: «وإني خلقت عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم»[1].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عيسى بن شيبة[2] المصري، حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي، حدثنا أبو عبدالله الجوزجاني ـ رفيق إبراهيم بن أدهم ـ حدثنا ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: تُليت هذه الآية عند النبي ـ ﷺ ـ: ﴿ يأيها الناس، كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾، فقام سعد بن أبي وقاص، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجابَ الدعوة، فقال: «يا سعد، أطِبْ مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليَقْذفُ اللقمةَ الحرامَ في جَوْفه ما يُتَقبَّل منه أربعينَ يوماً، وأيّما عبد نَبَتَ لحمُه من السُّحْت والرِّبا فالنارُ أولى به».

وقولهُ: ﴿ إنه لكم عدوّ مبين ﴾ تنفيرٌ عنه وتحذيرٌ منه، كما قال: ﴿ إن الشيطانَ لكم عدوّ فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حِزْبَه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾. وقال تعالى: ﴿ أفتتخذونه وذُرّيته أولياءَ من دوني وهم لكم عدوّ، بئس للظالمين بدلاً ﴾.

---

(١) مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢١٩٧. واجتالتهم: استخفتهم فجالوا معهم في الباطل.

(٢) في الأصل: سكبة. المثبت عن إحدى النسخ.

وقال قتادةُ، والسدّيُّ في قوله: ﴿ ولا تَتَّبِعُوا خطواتِ الشيطان ﴾، كلُّ معصية لله فهي من خُطُوات الشيطان.

وقال عكرمة: هي نَزَغات الشيطان. وقال مجاهد: خطاه، أو قال: خطاياه. وقال أبو مِجْلَز: هي النذور في المعاصي.

وقال الشعبي: نَذَر رجل أن ينحر ابنه، فأفتاه مسروق بِذَبح كبش. وقال: هذا من خُطُوات الشيطان.

وقال أبو الضُّحَى، عن مسروق: أُتِيَ عبدالله بن مسعود بضَرْع وملح، فجعل يأكلُ، فاعتزلَ رجلٌ من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريده. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حَرَّمتُ أن آكل ضَرْعاً أبداً. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطْعَمْ وكَفِّر عن يمينك.

رواه ابن أبي حاتم، وقال أيضاً:

حدثنا أبي، حدثنا حَسَّان بن عبدالله المصْري، عن سليمان التيمي، عن أبي رافع، قال: غضبت على امرأتي، فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتيت عبدالله بن عمر فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أُمِّ سَلَمة، وهي يومئذ أفقه امرأة في المدينة. وأتيتُ عاصماً وابن عمر فقالا مثل ذلك.

وقال عَبْدُ بن حُمَيد: حدثنا أبو نُعَيم، عن شريك، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما كان من يمين أو نذر في غَضَب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارةُ يمين.

(١- وقال سُنَيد بن داود في تفسيره: حدثنا عبادة بن عباد المهلبي، عن عاصم الأحول، عن عكرمة ـ في رجل قال لغلامه: إن لم أجلدك مائة سوط فامرأته طالقة ـ قال: لا يجلد غلامه، ولا تطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان) -١).

وقولهُ: ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ أي: إنما يأمركم عدوّكم الشيطانُ بالأفعال السيئة، وأغلظُ منها الفاحشةُ كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القولُ على الله بلا علمٍ، فيدخل في هذا كُلُّ كافرٍ وكـلُّ مُبتدعٍ أيضاً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وإذا قيل ﴾ لهؤلاء الكفرةِ من المشركين: ﴿ اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله ﴾ على رسوله، واتركُوا ما أنتم فيه من الضلالِ والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿ بل نَتَّبع ما ألفينا ﴾، أي: وَجَدنا ﴿ عليه آباءنا ﴾، أي: من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿ أوَلَوْ كان آباؤهم ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿ لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي: ليس لهم فهمٌ ولا هداية.

وروى ابن إسحاقَ عن محمد [بن أبي محمد]، عن عكرمة أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: أنها نزلت

(١) عن الأصل.

في طائفة من اليهود، دعاهم رسولُ الله - ﷺ - إلى الإسلام، فقالوا: بل نَتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا. فأنزل الله هذه الآية(١).

ثم ضَرَب لهم تعالى مثلاً، كما قال تعالى: ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ فقال: ﴿ ومثلُ الذين كفروا ﴾ أي: فيما هم فيه من الغيِّ والضلالِ والجهلِ كالدوابِّ السارحةِ التي لا تفقهُ ما يُقال لها، بل إذا نَعَق بها راعيها: أي دعاها إلى ما يُرشِدُها، لا تفقهُ ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط.

هكذا رُوِي عن ابن عباس، وأبي العالية، ومُجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني والربيع بن أنس، نحو هذا.

(٢-(وقيل: إن هذا مَثَلٌ ضَرَبه الله في دعائهم الأصنام، التي لا تَسْمَع ولا تُبْصِر ولا تَعْقِل شيئاً. اختاره ابن جرير، والأوّل أَوْلَى، لأن الأصنام لا تسمع دعاءً ولا نداءً، بل هي جمادات لا تسمع دعاء شيءٍ وتعقله، ولا تبصر، ولا بطش لها ولا حياة فيها)-٢).

وقوله: ﴿ صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ ﴾ أي: صُمّ عن سماع الحق، بكم لا يتفوّهون به، عُميٌ عن رؤية طريقِهِ ومسلَكِهِ ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ أي: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه، كما (٢-قال تعالى: ﴿ والذين كذَّبوا بآياتنا صُمٌّ وبكمٌ في الظلمات، من يَشأ الله يُضْلِلْهُ، ومن يَشأْ يجعله على صراط مستقيم ﴾)-٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾

يقول تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بالأكل من طَيّبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكُرُوه على ذلك، إن كانوا عبيده، والأكلُ من الحلالِ سببٌ لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكلَ من الحرامِ يمنعُ قبولَ الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفُضَيل بن مرزوق، عن عَديّ بن ثابت، عن أبي حازمٍ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أيها الناسُ، إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمرَ به المرسلين»، فقال: ﴿ يأيها الرسُلُ كلوا من الطيبات، واعملوا صالحاً، إني بما تعملون عليم ﴾ وقال: ﴿ يأيها الذين آمنوا، كُلُوا من طيبات ما رزقناكم ﴾. ثم ذكر الرجلَ يطيلُ السفرَ أشعثَ أغبرَ، يمدّ يَدَيه إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمهُ حرامٌ، ومشربُه حرامٌ ومَلْبَسه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ، فأنَّى يُستجابُ لذلك(٣).

ورواه مسلم في صحيحه، والترمذي من حديث فُضَيل بن مرزوق(٤).

ولما أمتنَّ تعالى عليهم برزقه، وأرشدَهم إلى الأكل من طَيِّبه، ذكر أنه لم يُحَرِّمْ عليهم من ذلك إلا الميتةَ، وهي التي تموت حَتْفَ أنفها من غير تذْكِيَةٍ، وسواءٌ كانت منخنقةً أو موقوذةً أو مُتَرَدِّيةً أو نطيحةً، أو قد عدا عليها السَّبُع.

---

(١) تفسير الطبري ١/٧٨.

(٢) عن الأصل.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٢٨.

(٤) مسلم، كتاب الزكاة ٧٠٣، وتحفة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ٣٦.

(١ وقد خصَّص الجمهور من ذلك مَيْتَةَ البحر لقوله تعالى: ﴿ أُحِلّ لكم صيدُ البحر وطعامُه متاعاً لكم وللسيَّارة ﴾، على ما سيأتي في الحديث في الصحيحين، وفي المسند، والموطأ، والسنن، قوله عليه السلام في البحر: «هو الطهورُ ماؤه، الحلّ ميتته». ورَوَى الشافعي، وأحمد، وابنُ ماجه والدارقطنيُّ من حديث ابن عُمَر مرفوعاً: «أُحلَّتْ لنا ميتتان ودمان، السمك والجراد، والكبد والطِّحال» وسيأتي تقريرُ ذلك في سورة المائدة.

ولبن الميتة وبيضُها المتصل بها نَجِسٌ عند الشافعيِّ وغيره، لأنه جزءٌ منها، وقال مالك ـ في رواية ـ: هو طاهرٌ إلا إنه نجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف، والمشهور عندهم أنها نجسة وقد أوردُوا على أنفسهم أكْلَ الصحابة من جُبنِ المجوس، فقال القرطبي في تفسيره ههنا: ما يخالط اللبن يسير، ويعفى من قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع. وقد روى ابن ماجه من حديث سيف بن هارون، عن سُليمان التَّيمي، عن أبي عثمانَ النَّهدِيِّ، عن سلمان: سُئِلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن السمن والجُبْن والفراء، فقال: «الحلال ما أحلَّ الله في كتابه، والحرامُ ما حَرَّم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عَفَا عنه»ـ١).

وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سَواء ذُكّي أو مات حَتْف أنفه، ويدخُلُ شَحْمه في حكم لحمه، إما تغليباً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي.

وحَرّم عليهم ما أُهِلَّ به لغير الله، وهو ما ذُبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك مما كانت الجاهليةُ ينحرون له. (١ـ(وذكر القرطبي(٢) عن ابن عَطِيَّة أنه نَقَل عن الحسن البصري أنه سُئِلَ عن امرأة عَمِلَتْ عُرساً لِلُعَبِها، فنحرت فيه جزوراً فقال: لا يُؤكل لأنها ذُبِحَت لصنم. وأورد القرطبي(٤) عن عائشة: أنها سُئِلت عما يذْبحه العجم في أعيادهم، فيهدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذُبِح لذلك اليوم فلا تأكلوه، وكلوا من أشجارهم ـ١).

ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿ فمن اضطُرَّ غير باغ ولا عاد ﴾ أي: في غير بَغْيٍ ولا عدوان، وهو مجاوزة الحدِّ ﴿ فلا إثمَ عليه ﴾ أي: في أكلٍ ذلك ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾.

وقال مجاهدٌ: فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عاد: قاطعاً للسبيل، أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله (٣ [فله الرخْصة ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله]ـ٣) فلا رخصة له، وإن اضطر إليه. وكذا رُوِي عن سعيد بن جُبَير.

وقال سعيد ـ في رواية عنه ـ ومقاتل بن حيان: ﴿ غير باغ ﴾: يعني غير مستحله. وقال السدِّي: غير باغ يبتغي فيه شهوته، وقال عطاء الخراساني في قوله: ﴿ غير باغ ﴾ لا يشوي من الميتةَ ليشتهيه ولا يطبخه، ولا يأكل إلا العُلْقَـة، ويحمل معه مَا يُبلِّغه الحلالَ، فإذا بلغه ألقاه.

(٤ـ[وعن ابن عباس: لا يشبع منها. وفسره السدي بالعدوان]ـ٤). وعن ابن عباس ﴿ غير باغ ولا عاد ﴾ قال: ﴿ غير باغ ﴾ في الميتة، ولا عاد في أكله. وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد في أكله: أن يتعدى

---

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير القرطبي ٢/٢٢٤.
(٣) سقط من الأصل، وانظر أثر مجاهد في تفسير الطبري ٢/٨٦ ـ ٨٧.
(٤) تفسير القرطبي ٢/٢٢٦ ـ ٢٢٧، ٢٢٩.

حلالاً إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة. . . (١-(وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: ﴿ فمن اضطرَّ ﴾، أي: أُكرِهَ على ذلك بغير اختياره)-١).

(١-مسألة

ذكر القرطبي(٢): إذا وجد المضطر ميتةً وطعام الغير بحيث لا قطع فيه، ولا أذى فإنه لا يحلّ له أكل الميتة، بل يأكل طعام الغير بلا خلاف. كذا قال، وإذا أكله والحالة هذه هل يَضْمَنُه أم لا؟ فيه قولان، هما روايتان عن مالك. ثم أورد من سنن(٣) ابن ماجه، من حديث شُعبةَ، عن أبي بشرٍ، جعفر بن أبي وحشية: سمعت عَبَّاد بن شُرَحبيل الغُبَرِيَّ قال: أصابنا عام مخمصة، فأتيت المدينة، فأتيتُ حائطاً، فأخذت سُنْبُلاً ففركتُه فأكلتُه، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبرته، فقال للرجل: ما أطعمته إذْ كان جائعاً ـ أو ساغباً ـ ولا عَلَّمته إذ كان جاهلاً! فأمره فردَّ إليه ثوبه، وأمر له بَوسْق من طعام أو نصف وَسْقٍ. إسناده صحيح قويٌّ جيد، وله شواهد كثيرة، من ذلك حديث(٤) عمرِو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جده سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الثمر المعلّق، فقال: من أصاب منه من ذي حاجةٍ غير متخذ خُبْنَةً، فلا شيء عليه. . . » الحديث)-١).

وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾: فيما أكل من اضطرار، وبَلَغنا ـ والله أعلم ـ أنه لا يزاد على ثلاث لُقَمٍ.

وقال سعيد بن جُبَير: غَفُور لما أكل من الحرام. رَحِيم إذا أَحَلَّ له الحرامَ في الاضطرار.

وقال وكيع: حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: فمن اضطُرّ فلم يأكل ولم يشربْ، ثم مات، دخل النار.

(١-(وهذا يَقْتضي أن أكل الميتة للمضطرِّ عزيمةٌ لا رخصةٌ، قاله أبو الحسن الطبري(٥) المعروف بالكِيا الهراسيّ رفيق الغزالي في الاشتغال. وهذا هو الصحيح عندنا كالإفطار للمريض في رمضان. ونحو ذلك)-١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾، يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ـ ﷺ ـ في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهَدُ له بالرسالة والنبوة، فكتَموا ذلك لئلا تذهَبَ رياستهم، وما

---

(١) عن الأصل.
(٢) سنن ابن ماجه، كتاب التجارات ٧٧٠ ـ ٧٧١.
(٣) في الأصل: «عن أبي إياس جعفر بن أبي دحية: سمعت عباد بن بشر». والتصحيح من سنن ابن ماجه، وتهذيب الكمال ٥/٥ ـ ٦، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤٧٣/٢.
(٤) مسند الإمام أحمد ١٨٠/٢، ٢٢٤، وسنن أبي داود، كتاب اللقطة ١٣٦/٢.
(٥) تفسير القرطبي ٢٣٢/٢.

كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشُوا ـ لعنهم الله ـ إن أظْهروا ذلك أن يَتْبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصُلُ لهم من ذلك، وهو نَزْرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضُوا عن الهُدَى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النَّزْرِ اليسير، فخابُوا وخَسِروا في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رَسُوله، بما نَصَبه وجَعَله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فَصَدَّقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباءُوا بغضَبٍ على غضبٍ، وذمَّهم الله في كتابه في غير موضع. من ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً ﴾، وهو عَرَضُ الحياة الدنيا، ﴿ أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾، أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمانِ الحق ناراً تَأَجّجُ في بطونهم يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يُجَرْجِرُ في بطنه نارَ جهنم[(١)].

وقوله: ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يُزَكِّيهم ولهم عذاب أليم ﴾، وذلك لأنه غضبانُ عليهم، لأنَّهم كتموا وقد[(١)] علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم، أي: يثني عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً.

وقد ذَكَر ابن أبي حاتم وابنُ مردويه هاهنا الحديث الذي رواه مسلم أيضاً من حديثَ الأعمش، عن أبي حازم، عن أبي هُريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كَذَّابٌ، وعائلٌ مستكبر»[(٢)].

ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾، أي: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول، وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿ والعذاب بالمغفرة ﴾ أي: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطَوْه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ يخبر تعالى أنَّهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجَّبُ من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، من شدة ما هم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال عياذاً بالله من ذلك.

(وقيل: معنى قوله: ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾، أي: فما أدومهم على المعاصي التي تُفْضِي بهم إلى النار).

وقولُه: ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ أي: إنما استحقوا هذا العذابَ الشديدَ لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ـ ﷺ ـ وعلى الأنبياء قبله كُتُبَه بتحقيق الحقِّ وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آياتِ الله هُزُواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلْم ونشره، فخالفوه وكذبوه. وهذا الرسولُ الخاتَمُ يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمُرُهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يُكَذِّبونه ويخالفونه ويجحَدُونه، ويكتُمون صفته، فاستهزءُوا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقُّوا العذابَ والنَّكال، ولهذا قال: ﴿ ذلك بأن الله نَزَّل الكتابَ بالحق، وإنّ الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾.

---

(١) فتح الباري، كتاب الأشربة: ٩٦/١٠، ومسلم، كتاب اللباس والزينة ١٦٣٤.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان ١٠٢ ـ ١٠٣. والعائل: الفقير.

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة؛ على جُمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي:

حدثنا عُبَيد بن هشَام الحلبي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عامر بن شُفَيّ، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن أبي ذر: أنه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ: ما الإيمان؟ فتلا عليه: ﴿ ليس البرَّ أن تولُّوا وجوهكم ﴾ إلى آخر الآية. قال: ثم سأله أيضاً، فتلاها عليه، ثم سأله. فقال: إذا عملت حَسَنة أحبَّها قلبُك(١)، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك.

وهذا منقطع؛ أنَّ مجاهداً لم يدرك أبا ذر؛ فإنه مات قديماً.

وقال المسعودي: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، قال: جاء رُجل إلى أبي ذر، فقال: ما الإيمان؟ فتلا عليه هذه الآية: ﴿ ليس البر أن تولُّوا وجوهَكُم ﴾ حتى فَرَغ منها. فقال الرجلُ: ليس عن البر سألتُكَ. فقال أبو ذر: جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فسأله عما سألتني عنه، فَقَرَأ عليه هذه الآيةَ، فأبى أن يرضى كما أبيتَ أن ترضَى فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأشار بيده: المؤمن إذا عَمِل حسنةً سَرَّته ورجا ثَوابها، وإذا عمل سيئةً أحزنته وخاف عقابها.

رواه ابن مَرْدُوَيه، وهذا أيضاً منقطع، والله أعلم.

وأما الكلامُ على تفسيرِ هذه الآيةِ فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجُّهِ إلى بيت المقدس، ثم حَوَّلهم إلى الكعبة، شَقَّ ذلك على نفوس طائفةٍ من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزلَ الله تعالى بيانَ حكْمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله ـ عزّ وجلّ ـ وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وَجَّه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى، والإيمان الكامل(١) وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب برّولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، ولهذا قال: ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر مَنْ آمن بالله واليوم الآخر ﴾... الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا: ﴿ لن ينالَ الله لحومُها ولا دماؤها ولكن ينالُه التقوى منكم ﴾.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: ليس البرّ أن تُصَلّوا ولا تعملوا. فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة، ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها(٢). ورُوِيَ عن الضحاك ومقاتل نحوُ ذلك.

وقال أبو العالية: كانت اليهودُ تُقْبل قِبَلَ المغرب، وكانت النصارى تُقبِلُ قِبَلَ المشرق، فقال الله تعالى: ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾، يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل. ورُوِي عن الحسن والربيع بن أنس مثله.

---

(١) في الأصل: فاحبها.

(٢) تفسير القرطبي ٢/٩٤.

وقال مجاهد: ولكن البرّ ما ثَبَت في القلوب من طاعة الله، عزّ وجلّ.

وقال الضحاك: ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها.

وقال الثَّوري: ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ الآية. قال: هذه أنواعُ البرِّ كلها. وصدَقَ ـ رحمه الله ـ فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عُـرىٰ الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وهو أنه لا إله إلا هو، وصدَّق بوجود الملائكة الذين هم سَفَرَةٌ بين الله ورسله، ﴿والكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآنُ المهيمنُ على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كلُّ خيرٍ، واشتمل على كُلِّ سعادةٍ في الدنيا والآخرة، ونُسِخَ به كلُّ ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلِّهم من أوَّلهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقولهُ: ﴿وآتى المال على حبه﴾ أي: أخرجه وهو مُحِبٌّ له راغبٌ فيه. نَصَّ على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جُبَير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هُريرة مرفوعاً: أفضل الصدقة أن تَصدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تأمُلُ الغِنَى، وتخشَى الفَقْرَ[١].

وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث شُعْبَة والثوري، عن منصور، عن زُبَيد، عن مُرّة، عن ابن مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿وآتى المال على حُبِّه﴾، أن تُعطِيه وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[٢].

قلت: وقد رواه وكيعٌ عن الأعمش، وسفيان عن زُبَيد، عن مرة، عن ابن مسعود، موقوفاً، وهو أصح، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حُبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعِمُكم لوجه اللهِ، لا نريد منكم جَزاءً ولا شكوراً﴾.

وقال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تُنفِقوا مما تُحِبُّون﴾، وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصةٌ﴾ نَمَط آخر أرفع من هذا، وهو أنهم آثروا بما هم مُضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له.

وقوله: ﴿ذوي القربى﴾ وهم: قرابات الرجل، وهم أولى من أُعطِيَ من الصدقَة، كما ثبت في الحديث: «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة»[٣]. فَهُم أولى الناس بك وبِبرِّك وإعطائك. وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير ما موضع من كتابهِ العزيز.

﴿واليتامى﴾ هم: الذين لا كاسِبَ لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاءُ صغارٌ دون البلوغ والقدرة على التكسب، وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن جُوَيبر، عن الضحاك، عن النزال بن سَبْرة، عن علي، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يُتم بعد حُلُم»[٤].

﴿والمساكين﴾ وهم: الذين لا يجدون ما يكفيهم في قُوتهم وكُسْوَتهم وسكناهم، فيعطون ما تُسدُّ به حاجتُهم وخلتهم. وفي الصَّحِيحَينِ عن أبي هُرَيرة أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال: ليس المسكين بالطوّاف الذي تَردّه

(١) فتح الباري، كتاب الوصايا ٥/٣٧٣، ومسلم، كتاب الزكاة ٧١٦.
(٢) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٢٧٢.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/١٧، ١٨، ٢١٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الزكاة ٣/١٦٠.
(٤) أي: بعد بلوغ.

التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتَصَدَّقَ عليه[١].

﴿وابنُ السبيل﴾، وهو: المسافرُ المجتازُ الذي قد فَرَغَت نفقتُه فيُعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يُرِيدُ سفراً في طاعة، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيفُ الذي ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْرٍ، وأبو جَعْفَرٍ الباقر، والحسن، وقتادة، والضحاك، والزهري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.

﴿ والسائلين ﴾ وهم: الذين يَتعرَّضُون للطلَب فيعطون من الزكوات والصدقات، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع وعبد الرحمن، قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحُسَين، عن أبيها ـ قال عبد الرحمن: حُسَين بن علي ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[٢]. رواه أبو داود.

﴿ وفي الرقاب ﴾ وهم: المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم.

وسيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة، إن شاء الله تعالى. وقد قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي حدثتني فاطمة بنت قيس: أنها سألت رسول الله ـ ﷺ ـ: أفي المال حقٌّ سوى الزكاة؟ قالت: فتلا عَلَيّ: ﴿وآتى المَالَ على حُبِّه﴾.

ورواه ابن مَرْدُوَيه من حديث آدم بن أبي إياس، ويحيى بن عبد الحميد، كلاهما عن شَريك، عن أبي حَمْزَةَ، عن الشعبيِّ، عن فاطمةَ بنت قيس، قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «في المال حَقٌّ سِوَى الزكاةِ»، ثم تلا: ﴿ ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمَغْرِبِ ﴾ . . . إلى قوله: ﴿ وفي الرِّقَابِ ﴾.

(٣-(وأخرجه ابن ماجه[٤] والترمذيّ، وضعّف أبا حمزة ميموناً الأعور، قال: وقد رواه بيان وإسماعيل بن سالم، عن الشعبي)-٣).

وقوله: ﴿ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾ أي: وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمأنينتها، وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي.

وقوله ﴿ وآتى الزكاة ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون المراد به زكاةَ النفس، وتخليصها من الأخلاق الذميمة الرذيلة، كقوله: ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾. وقول موسى لفرعون: ﴿ هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وويل لِّلمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة ﴾.

ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال[٥]، كما قاله سعيد بن جُبَير ومقاتل بن حيان، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة، ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس: أن في المال حقاً سوى الزكاة. والله أعلم.

---

(١) أخرجاه في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣/٣٤٠، ومسلم ٧١٩.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/٢٠١، وسنن أبي داود، كتاب الزكاة ٢/١٢٦.
(٣) عن الأصل.
(٤) ابن ماجه، كتاب الزكاة ٥٧٠، ولفظه: «ليس في المال حق سوى الزكاة»! وعارضة الأحوذي، أبواب الزكاة ٣/١٦٢.
(٥) في الأصل: الملك.

وقوله: ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ كقوله: ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ وعكس هذه الصفة النفاق، كما صَحَّ في الحديث: آية المنافق ثلاث إذا حَدَّث كَذَبَ، وإذا وَعد أَخْلَفَ، وإذا اؤتُمِنَ خان[1]. وفي الحديث الآخر: «إذا حَدَّث كَذَب، وإذا عاهَدَ غَدر، وإذا خاصَمَ فَجَر»[1].

وقوله: ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ أي: في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء. ﴿ وحين البأس ﴾ أي: في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود. وابن عباس، وأبو العالية، ومرة الهمداني، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي ومقاتل بن حيان، وأبو مالك، والضحاك، وغيرهم.

وإنما نُصب ﴿ الصابرين ﴾ على المدح والحثّ على الصبر في هذه الأحوال، لشدته وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التّكلان.

وقوله: ﴿ أولئك الذين صَدَقُوا ﴾ أي: هؤلاء الذين اتَّصفُوا بهذه الصفات هم الذين صَدَقوا في إيمانهم، [لأنهم] حققوا الإيمان القَلْبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صَدَقوا ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾، لأنهم اتقَوا المحارِمَ وفعلوا الطاعاتِ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ كتب عليكم ﴾ العدلُ في القصاص ـ أيّها المؤمنون ـ حُرّكم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوَزُوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبَبُ ذلكَ قُرَيظة والنَّضير، كانت بنو النضير قد غَزَت قُرَيظةَ في الجاهلية وقَهَروهم، فكان إذا قتل النضريُّ القُرَظيَّ لا يقتل به، بل يُفَادي بمائة وسْق من التمر، وإذا قتل القُرظيّ النضريّ قتل به، وإن فادوْه فَدَوه بمائتي وسق من التمر ضعْف دية[2] القُرَظِيّ، فأمر الله العدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم، كفراً وبغياً[3]، فقال تعالى: ﴿ كُتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى ﴾.

وذكر في نزولها ما رواه الإمام [أبو] محمد بن أبي حاتم:

حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا يحيى بن عبدالله بن بُكَير، حدثني عبدالله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَير، في قول الله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القصاصُ في القتلى ﴾، يعني إذا كان عَمْداً، الحر بالحر. وذلك أن حَيَّين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتلٌ وجراحات، حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضُهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيَّينِ يتطاولُ على الآخر في العِدَّةِ والأموالِ، فَحَلَفُوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحرّ منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، فنزل فيهم: ﴿ الحرّ بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ منها منسوخةٌ، نَسَخَتها ﴿ النفسُ بالنفسِ ﴾.

(١) أخرجاه في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/٨٩، ومسلم ٧٨.
(٢) في الأصل: دم.
(٣) في الأصل: لهواً ولعباً.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ والأنثى بالأنثى ﴾ وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجلَ بالمرأةِ، ولكن يقتلونَ الرجلَ بالرجلِ، والمرأةَ بالمرأةِ، فأنزل الله: ﴿ النفس بالنفس والعين بالعين ﴾، فجعل الأحرار في القصاص[١] سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم ﴿ في النفس، وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس، وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم وكذلك روى عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله: ﴿ النفس بالنفس ﴾.

مسألة[٢]-

ذهب أبو حنيفة[٣] أن الحرّ يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثوريّ، وابنُ أبي ليلى، وداود، وهو مرويّ عن علي وابن مسعود، وسعيد بن المسيَّب، وإبراهيم النَّخعِيّ، وقتادة والحكم. وقال البخاري، وعلي بن المديني، وإبراهيم النخعيّ، والثوريُّ ـ في رواية عنه ـ: يقتل السيد بعبده، لعموم حديث الحسن عن سَمُرة: «من قتل عبده قتلناه، ومن جَدَعه جَدَعناه، ومن خَصاه خَصَيناه»[٤].

وخالفَهُم الجمهورُ، وقالوا: لا يُقْتَل الحرُّ بالعَبْدِ، لأنَّ العبد سلعة لو قُتِلَ خطأً لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمتُه، وأنه لا يقاد بطرفه، ففي النفس من بابٍ أولى. وقد حكى أبو ثور الإجماع على أنه لا يُقادُ الحر بطرف العبد. وقد خَرَقَ هذا الإجماعَ داودُ الظاهري، لقوله عليه السَلام: «المسلمون تتكافأ دماؤهم».

مسألة

وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، كما ثبت في البخاري، عن علي قال: قال رسولَ الله ـ ﷺ ـ: «لا يُقتَلُ مسلمٌ بكافر» ولا يصحُّ حديثٌ ولا تأويلٌ يخالفُ هذا. وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل، لعموم آية المائدة.

مسألة

قال الحسن وعطاء: لا يُقتَلُ الرجلُ بالمرأةِ لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة، ولقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم». وقال الليث: إذا قتل الرجل امرأته لا يُقتل بها خاصةً.

مسألة

ومذهب الأئمة الأربعة والجمهورُ أنّ الجماعة ﴿ يقتلون ﴾ بالواحد، قال عُمَرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهلُ صنعاء لقتلتُهُم. ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع. وحُكِي عن الإمام أحمد روايةً أنّ الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا تقتل بالنفس إلا نفسٌ واحدة، وحكاه ابن المنذر، عن معاذ، وابن الزبير، وعبد الملك بن مَرْوان، والزهريّ، ومحمد بن سيرين، وحبيب بن أبي ثابت. ثم قال ابن المنذر: وهذا أصح ولا حجة لمن أباح قتل جماعةٍ بواحدة، وقد ثَبَت عن [ابن] الزبير ما ذكرنا، وإذا ختلف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فسبيله النظر-[٢].

---

(١) في الأصل: «فجعل الأحرار في القصاص والعبيد سواء». وأثبتنا لفظ الطبري ٢/١٠٥.

(٢) عن الأصل.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٢/٢٤٦.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الديّات ٤/١٧٦.

وقوله: ﴿ فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾. قال مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ فمن عفي له من أخيه شيء ﴾ فالعفو أن يَقبل الدية في العمد. وكذا رُوِي عن أبي العالية، وأبي الشعثاء، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعطاء، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حَيّان.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ فمن عُفِي له من أخيه شيء ﴾ يقول: فمن ترك له من أخيه شيء، يعني: أَخذ الديَة بعد استحقاق الدم، وذلك العَفْوُ ﴿ فاتباع بالمعروف ﴾ يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قَبِل الدية ﴿ وأداء إليه بإحسان ﴾، يعني من القاتل من غير ضَرَر ولا مَعْك، يعني المدافعة.

وروى الحاكم من حديث سفيان، عن عمرو، عن مجاهد، عن ابن عباس: ويؤدي المطلوب بإحسان[١]. وكذلك قال سعيد بن جُبَير، وأبو الشعثاء جابر بن زَيد، والحسن، وقتادةُ، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، والسدي ومقاتل بن حيان.

(٢- مسألة

قال مالك[٣] في رواية ابن القاسم عنه ـ وهو المشهور ـ وأبو حنيفة وأصحابه، والشافعي ـ في أحد قوليه ليس لوليّ الدم أن يَعفُوَ عن الدية إلا برضى القاتل. وقال الباقون: له أن يَعْفُو عليها وإن لم يرض القاتل. وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عَفوٌ، منهم الحسن، وقتادةُ والزهريُّ، وابن شُبرُمَةَ والليثُ والأوزاعيّ، وخالفهم الباقون)-٢).

وقوله: ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾، يقولُ تعالى: إنما شَرَع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمةً بكم، مما كان محتُوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، [كما قال][٤] سعيد بن منصور:

حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أخبرني مجاهد، عن ابن عباس، قال: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: ﴿ كُتِب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، فمن عفي له من أخيه شيء ﴾، فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ مما كتب على من كان قبلكم، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان.

وقد رواه غيرُ واحدٍ، عن عمرو. وأخرجه ابنُ حِبَّان في صَحِيحه، عن عمرو بن دينار، به. ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس، بنحوه.

وقال قتادةُ: ﴿ ذلك تخفيفٌ من ربكم ﴾ رَحِمَ الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تَحِلَّ لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أُمِرُوا به، وجعل لهذه الأمة القِصاص والعفو والأرش[٥].

---

(١) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٢٧٣.
(٢) عن الأصل.
(٣) انظر تفسير القرطبي ٢/٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(٤) مكانه في الأصل: أنبأنا.
(٥) تفسير الطبري ٢/١١١.

وهكذا رُوِي عن سعيد بن جُبَير، ومقاتل بن حَيّان، والربيع بن أنس، نحو هذا:

وقولُه: ﴿ فمن اعتَدَى بعد ذلك فله عذابٌ أليم ﴾ يقول تعالى: فمن قَتَل بعد أَخْذِ الديةِ أو قَبُولِها، فله عذابٌ من الله أليمٌ موجعٌ شديدٌ.

وكذا رُوِيَ عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدّيّ، ومقاتل ابن حيان: أنه هو الذي يَقتُلُ بعد أَخْذِ الدية، كما قال محمد بن إسحاق، عن الحارث بن فُضَيل، عن سفيان بن أبي العوجاء، عن أبي شُرَيح الخزاعي: أن النبي - ﷺ - قال: «من أصيب بقَتْلٍ أو خَبْل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية؛ فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جَهَنَّم خالداً فيها». رواه أحمد[1].

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرة[2]، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا أعافي رجلاً قَتَلَ بعد أخذ الدية». يعني لا أقبل منه الدية، بل أقتله.

وقولُه: ﴿ ولكم في القصاص حياةٌ ﴾ يقول تعالى: وفي شَرْعِ القصاص لكم - وهو قَتْلُ القاتِلِ - حكمةٌ عظيمةٌ لكم، وهي بقاء المُهَج وصَوْنها؛ لأنه إذا عَلِم القاتلُ أنه يقتل انكفَّ عن صنيعه، فكان في ذلك حياةُ النفوسِ. وفي الكتبِ المتقدمة: القتلُ أنفَى للقتل: فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز.

﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾، قال أبو العالية: جَعَل الله القصاصَ حياةً، فكم من رجل يريدُ أن يقتُل، فتمنعه مخافة أن يُقتل.

وكذا رُوي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وأبي مالك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.

مسألة

ذهب مالك وأبو حنيفة والأوزاعي والليث، وحماد بن أبي سليمان، إلى أنه إذا قُتِل الرجلُ أو المرأة وله أولاد كبار وصغار أنَّ للكبار أن يقتلوا القاتل، ولا يُنْتَظَرُ بلوغُ الصغار، لأن الحسن بن علي قتل عبد الرحمن بن ملجم ولم ينتظر بلوغ أولاد علي الصغار. وقال الشافعي وأحمد - في المشهور عنه - وطائفة من العلماء: بل ينتظر بلوغ الصغار، لأن لهم حقاً، وربّما عفا بعضُهم، وقد قال الله تعالى: ﴿فمن عُفي له من أخيه شيء﴾ الآية.

مسألة

إذا عفا وَلِيّ الدم عن القصاص والدية أُطْلِق القاتل في مذهب الشافعي وأحمد والجمهور. وقال مالك والليث والأوزاعي: بل يضرب مائةً ويُحبَسُ سنةً. وقال أبو ثور: إن كان مشهوراً بالشرِّ أدّبه الإمام بِحَبسِهِ. وقد استَحْسَن قول أبي ثور القرطبيُّ في تفسيره.

﴿ يا أُولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ يقول: يا أُولي العقول والأفهام والنُّهى، لعلكم تنزجرون فتتركون محارمَ الله ومآثمه، والتقوى: اسمٌ جامعٌ لفعل الطاعاتِ وتَرْكِ المنكرات.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣١/٤، وسنن أبي داود، كتاب الديّات ١٦٩/٤. والخَبْل: العرج، وفساد الأعضاء.

(٢) أخرج الإمام أحمد وأبو داود، عن جابر مرفوعاً: «لا أعفي من قتل بعد أخذه الديّة»، انظر المسند ٢٦٣/٣، وسنن أبي داود، كتاب الديّات ١٧٣/٤.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

اشتملَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين. وقد كان ذلك واجباً ـ على أصح القولين ـ قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية المواريث نُسِخَت هذه، وصارت المواريثُ المقدَّرةُ فريضةً من الله، يأخذها أهلوها حَتْماً من غير وَصِيّةٍ ولا تحمُّل مِنَّةِ الموصي، ولهذا جاء الحديثُ ـ في السنن وغيرها ـ عن عَمْرو بن خارجة قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يخطب وهو يقول: إنَّ الله قد أعْطَى كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، فلا وَصِيَّةَ لوارث(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيلُ بن إبراهيمَ بن عُلَيَّة، عن يونُس بن عُبَيد، عن محمَّد بن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورةَ البقرةِ حتى أتى هذه الآيةَ: ﴿إن تركَ خيراً الوصيةُ للوالِدَينِ والأقرَبِينَ﴾ فقال: نُسِخَتْ هذه الآيةُ.

وكذا رواه سَعيد بن مَنصُورٍ، عن هُشَيم، عن يونس، به. ورواه الحاكمُ في مستدركه وقال: صحيحٌ على شرطهما(٢).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية الأقربين، فأنزل الله آية الميراث، فبيَّن ميراث الوالدين، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جُرَيج، وعثمانُ بـن عطاءٍ [عن عطاءٍ] عن ابن عباس، في قوله: ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾: نسختها هذه الآية: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، مما قَلَّ منه أو كَثُر نصيباً مفروضاً﴾.

ثم قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن ابن عمر، وأبي موسى، وسعيد بن المسيِّب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن سيرين، وعكرمة، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، ومقاتل بـن حَيّان، وطاوس، وإبراهيم النَّخعي، وشُرَيح، والضحاك، والزهري: أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث.

والعجب من أبي عبدالله مُحَمَّد بن عمر الرازي ـ رحمه الله ـ كيف حَكى في تفسيره الكبير، عن أبي مسلم الأصفهاني: أن هذه الآية غير منسوخة، وإنما هي مُفَسَّرة بآية المواريث، ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين. من قوله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾. قال: وهو قولُ أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء. قال: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يَسار، والعلاء بن زياد.

(١) أخرجوه في كتاب الوصايا، انظر سنن أبي داود ٣/١١٤، وعارضة الأحوذي ٨/٢٧٨، وابن ماجه ٩٠٦، ومسند الإمام أحمد ٤/١٨٦، ١٨٧.

(٢) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٢٧٣.

قلت: وبه قال أيضاً سعيدُ بن جُبَير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان. ولكن على قول هؤلاء[(١)] لا يُسَمَّى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر؛ لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن «الأقربين» أعم ممن[(٢)] يرث ومن لا يرث، فَرُفِعَ حكمُ من يَرث بما عُيِّنَ له، وبَقِي الآخرُ على ما دلت عليه الآية الأولى: وهذا إنما يتأتَّى على قول بعضهم: إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت نَدْباً حتى نُسخت. فأما من يقول: إنها كانت واجبة ـ وهو الظاهر من سياق الآية ـ فيتعين أن تكون منسوخةً بآية الميراث، كما قاله أكثرُ المفسرين والمعتبرين من الفقهاء؛ فإنّ وجوب الوصية للوالدين والأقربين (الوارثين)[(٣)] منسوخ بالإجماع. بل منهيٌّ عنه للحديث المتقدم: «إن الله قد أعطى كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، فلا وصيةَ لوارثٍ». فآيةُ الميراث حكم مستقل، وَوُجُوبٌ من عند الله لأهل الفروض والعصبات، رُفِع بها حُكْمُ هذه بالكلية. بَقِيَ الأقاربُ الذين لا ميراث لهم، يُسَتَحبّ له أن يُوصي لهم من الثلث، استئناساً بآية الوصيَّةِ وشمولها، ولما ثبت في الصحيحين، عن ابن عُمَر، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصِي فيه، يَبِيتُ ليلتين إلا ووصيتُه مكتوبةٌ عنده». قال ابن عمر: ما مرت عَلَيّ ليلة منذ سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول ذلك إلا وعندي وَصِيَّتي[(٤)].

والآياتُ والأحاديثُ بالأمرِ ببِرِّ الأقارِبِ والإحسانِ إليهم، كثيرةٌ جداً.

وقال عَبْدُ بن حُمَيد في مسنده: أخبرنا عبيد الله، عن مبارك بن حسان، عن نافع قال: قالَ عَبدُالله: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: يقول الله تعالى: يا ابن آدم، ثنتان لم تَكُنْ لك واحدةٌ منهما: جَعَلْتُ لك نَصِيباً في مالك حين أَخَذْتُ بِكَظَمك، لأطهِّرَكَ به وأزكِّيك، وصَلاَةُ عبادي عليكَ بعد انقضاءِ أَجَلِكَ[(٥)].

وقولُه: ﴿ إن تَرَكَ خيراً ﴾ أي: مالاً. قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهد، وعطاء، وسَعِيد بن جُبَير، وأبو العالية، وعَطية العَوْفي، والضحاك، والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتلُ بن حَيَّانَ، وقتادةُ، وغيرهم.

ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قَلَّ المال أو كثُر كالوراثة، ومنهم من قال: إنما يُوصِي إذا ترك مالاً جزيلاً، ثم اختلفوا في مقداره، فقال ابن أبي حاتم:

حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المقري، أخبرنا سفيان، عن هشام بن عُروة، عن أبيه، قال: قيل لعلي ـ رضي الله عنه ـ: إن رجلاً من قُرَيش قد مات، وتَرك ثلاثمائة دينار أو أربعمائة، ولم يُوصِ. قال: ليس بشيء، إنما قال الله: ﴿ إن ترك خيراً ﴾.

قال: وحدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عَبْدة ـ يعني ابن سليمان ـ عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن علياً دخل على رجل من قومه يعوده، فقال له: أُوصِي؟ فقال له علي: إنما قال الله تعالى: ﴿ إن ترك خيراً الوصية ﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً، فاتركه لولدك.

وقال الحكم[(٦)] بن أبان: حدثني عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ إن ترك خيراً ﴾ قال ابن عباس: من لم يترك

(١) في الأصل: هذا.
(٢) في الأصل: عن.
(٣) عن الأصل.
(٤) فتح الباري، كتاب الوصايا ٥/٣٥٥، ومسلم، كتاب الوصية ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠.
(٥) أخرجه ابن ماجه عن صالح بن محمد، عن عبيد الله بن موسى، انظر كتاب الوصايا ٩٠٤.
والكظَم: مخرج النفس.
(٦) في الأصل: الحاكم. انظر ترجمته في تهذيب الكمال ٨٦/٧.

ستين ديناراً لم يترك خيراً، قال الحكم: قال طاوس: لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً. وقال قتادة: كان يقال ألفاً فما فوقها.

وقوله: ﴿ المعروف ﴾ أي: بالرفق والإحسان، كما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبدالله بن يسار[١]، حدثني سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قوله: ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ﴾ فقال: نَعَم، الوصية حَقّ، على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المُنكر.

والمرادُ بالمعروف: أن يُوصِيَ لأقربيه وَصِيَّةً لا تُجْحِفُ بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: «يا رسول الله، إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثُلُثَيْ مالي؟ قال: لا. قال: فبالشَّطْر؟ قال: لا. قال: فالثلث؟ قال: الثلثُ والثلثُ كثير؛ إنك أن تَذَرَ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تَذَرهم عالة يتكففون الناس»[٢].

وفي صحيح البخاري: أن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضّوا من الثلث إلى الربع؛ فإن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: الثلث، والثلث كثير[٣].

وروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد مولى بني هاشم، عن ذَيَّالُ بن عُبَيد[٤] بن حنظلة، سمعت حَنْظَلة بن حِذْيَم بن حنيفة: أن جَدَّه حَنِيفة أوصى ليتيم في حِجْره بمائةٍ من الإبل، فشقَّ ذلك على بنيه، فارتفعوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال حنيفة: إني أوصيت ليتيم بمائةٍ من الإبل، كنا نسميها المطَيَّبة. فقال النبي ـ ﷺ ـ لا، لا، لا. الصدقة: خمس، وإلا فعَشْر، وإلا فخمسَ عشرَةَ، وإلا فعشرون، وإلا فخمس وعشرون، وإلا فثلاثون، وإلا فخمسٌ وثلاثون، فإن أكثرتَ فأربعون[٥].

وذكر الحديث بطوله.

وقوله: ﴿ فمن بَدَّله بعد ما سمعه فإنما إثمُه على الذين يُبَدِّلونه ﴾ يقول تعالى: فمن بدّل الوصيةَ وحرّفها، فغيَّرَ حكمها وزاد فيها أو نَقَص ـ ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ـ ﴿ فإنما إثمُه على الذين يُبَدِّلُونه ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجرُ الميِّتِ على الله، وتَعَلَّق الإثمُ بالذين بَدَّلُوا ذلك ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ أي: قد اطلع على ما أوصى به الميتُ، وهو عليمٌ بذلِكَ، وبما بدَّله المُوصَى إليهم.

وقوله: ﴿ فمن خاف من مُوص جنَفاً أو إثماً ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي: الجَنَفُ: الخَطَأ.

وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زاد وارثاً بواسطة [أو] وسيلة، كما إذا أوصى [ببيعه الشيء] الفُلاَنيّ محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدَها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقُوّة شفقته من غير تبصر، أو متعمداً آثماً في ذلك، فللوصيّ ـ والحالةُ هذه ـ أنْ يصلح القضية، ويعدلَ في الوصية على الوجه الشرعي. ويعدلَ عن الذي أوصى به الميتُ إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود

(١) في الأصل: بن دينار.
(٢) فتح الباري، كتاب الجنائز ٣/١٦٤، ومسلم، كتاب الوصية ١٢٥٠.
(٣) فتح الباري، كتاب الوصايا ٥/٣٦٩، والحديث في صحيح مسلم أيضاً، كتاب الوصية ١٢٥٣.
(٤) الأصل: زياد بن عتبة، والمثبت عن المسند، وانظر ترجمة جدّه حنظلة بن حذيم في تهذيب الكمال ٧/٤٣٤.
(٥) مسند الإمام أحمد ٥/٦٧ ـ ٦٨.

المُوصي والطريق الشرعي. وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء. ولهذا عطف هذا فَبَيَّنَه، على النهي عن ذلك، ليعلم أنّ هذا ليس من ذلك [بسبيل]، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا العباسُ بن الوليد بن مَزْيَدٍ قراءةً، أخبرني أبي، عن الأوزاعي، قال الزُّهري: حدثني عروة، عن عائشة، عن النبي - ﷺ -: أنه قال: «يُرَدُّ مِن صَدَقة الجانف في حياته ما يُرَدّ من وَصيَّة المُجْنِف[(١)] عند موته».

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدُوَيه، من حديث العباس بن الوليد، به.

قال أبو حاتم: وقد أخطأ فيه الوليد بن مَزْيد. وهذا الكلام إنما هو عن عروة فقط. وقد رواه الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، فلم يجاوز به عروة.

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عمر بن المغيرة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: «الجَنَفُ في الوصية من الكبائر».

وهذا في رفعه أيضاً نظر. وأحسن ما ورد في هذا الباب ما قال عبد الرزاق:

حدثنا معمر، عن أشعث بن عبدالله، عن شهر بن حوشب، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الرجل ليعملُ بعملِ أهل الشر سبعينَ سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، وإن الرجل ليعمل بعَمَل أهل الخير سبعينَ سنة، فإذا أوصى خاف في وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار». قال أبو هُرَيرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة وآمراً لهم بالصيام، وهو: الإمساكُ عن الطعام والشراب والوقاع بنيَّةٍ خالصة لله - عزّ وجلّ - لما فيه من زكاة النفس وطهارتها، وتنقيتها من الأخلاق الرَّذيلة والأخلاط الرديَّة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة حسنة وَلْيَجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكملَ مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿ لكل جعلنا منكم شرْعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوَكم فيما آتاكم، فاستبقوا الخيرات ﴾ . . . الآية. ولهذا قال هاهنا: ﴿ يأيها الذين آمنوا، كُتِب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾، لأن الصوم فيه تزكية للبدن، وتضييقٌ لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين: «يا معشَرَ الشباب، مَن استطاع منكم الباءَةَ فَلْيتزوَّج، ومن لم يَستطِعْ فَعلَيه بالصوم فإنَّه له وِجاء»[(٢)]. ثم بَيَّن مقدارَ الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لئلاَّ يشقّ على النفوس فتضعُفَ عن حَمْلِه وأدائه، بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداءِ الإسلام يصومُونَ من كل شهر ثلاثةَ أيام، ثم

(١) جَنَف وأجنَف: جار.

(٢) فتح الباري، كتاب الصوم ١١٩/٤، وكتاب النكاح ١٠٦/٩ - ١٠٧ ومسلم، كتاب النكاح ١٠١٨ - ١٠١٩. والباءة: الجماع. والوِجاء: رَضّ الخُصْيتين، والمراد: أن الصوم يقطع الشهوة.

نُسِخَ ذلك بصَوم شهر رمضان، كما سيأتي بيانُه. وقد رُوِيَ أنَّ الصيام أوَّلاً كما كان عليه الأمم قبلنا، من كل شهر ثلاثة أيام، عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وعطاءٍ، وقتادةَ، والضحاكِ بن مُزاحم. وزادَ: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح ـ عليه السلام ـ إلى أن نَسَخَ الله ذلك بصيام شهر رمضان.

وقال عباد بن منصور، عن الحسن البصري: ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات ﴾ فقال: نعم، والله لقد كُتِبَ الصيامُ على كل أمة خلت كما كُتِب علينا شهراً كاملاً وأياماً معدودات: عدداً معلوماً. ورُوِي عن السدي، نحوه.

وروى ابن أبي حاتم، من حديث أبي عبد الرحمن المقري: حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني عبدالله بن الوليد، عن أبي الربيع ـ رجل من أهل المدينة ـ عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صيامُ رمضانَ كتبه الله على الأمم قبلكم»... في حديث طويل اختصر منه ذلك.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عمن حَدَّثه عن ابن عمر، قال: أُنزلَتْ: ﴿ كُتِب عليكم الصيامُ كما كُتِب على الذين من قبلكم ﴾، كتب عليهم إذا صلى أحدُهم العتمة ونامَ، حَرُمَ عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها.

قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن ابن عباس، وأبي العالية، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومقاتل بن حَيَّان، والربيع بن أنس، وعطاء الخراساني، نحو ذلك.

وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ يعني بذلك أهلَ الكتاب. ورُوِي عن الشعبي، والسدّي، وعطاء الخراساني، مثلُه.

ثم بَيَّن حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فقال: ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدَّة من أيَّام أخر ﴾ أي: المريض والمسافر لا يَصُومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يُفطِرَان ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر. وأما الصحيح المقيم الذي يُطِيق الصيام، فقد كان مخيَّراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم، فهو خيرٌ، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم من السلف، ولهذا قال تعالى: ﴿ وعلى الذين يُطِيقُونَه فديةٌ طعامُ مسكين، فَمن تَطَوَّع خيراً فهو خير له، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا المسعودي، حدثنا عمرو بن مُرَّة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: أُحِيلَتِ[١] الصلاة ثلاثةَ أحوالٍ، وأُحِيلَ الصيامُ ثلاثةَ أحوالٍ؛ فأما أحوالُ الصلاة فإن النبي ـ ﷺ ـ قدم المدينة، وهو يُصَلِّي سبعةَ عَشَر شَهراً إلى بيت المقدس، ثم إن الله ـ عزّ وجلّ ـ أنزل عليه: ﴿ قد نرى تَقَلُّبَ وجهك في السماء فلنولِّيَنَّك قبلة ترضاها ﴾... الآية. فوجَّهَهُ الله إلى مكة، هذا حولٌ.

قال: وكانوا يجتَمِعُون للصلاة ويُؤْذِنُ بها بعضُهم بعضاً، حتى نَقَسُوا[٢] أو كادوا يَنْقُسُون. ثم إنَّ رجلاً من الأنصار ـ يقال له: عبدُالله بن زيد ـ أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم ـ ولو

(١) أي: غُيِّرت ثلاثة تغييرات.
(٢) النَّقْسُ: الضربُ بالناقوس.

قلتُ: إني لم أكن نائماً لصدقتُ ـ أني بينا أنا بين النائم واليقظان، إذْ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران، فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله ـ مثنى[١] حتى فرغ من الأذان، ثم أمهل ساعة، ثم قال مثل الذي قال، غير أنه يزيد في ذلك: قد قامت الصلاة. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «علِّمها بلالاً فَلْيؤذِّنْ بها. فكان بلالٌ أوَّلَ من أذن بها». قال: وجاء عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله، إنه قد طاف بي مثلُ الذي طاف به، غير أنه سبقني، فهذان حَوْلان.

قال: وكانوا يأتونَ الصلاةَ ـ قد سبقهم النَّبيّ ـ ﷺ ـ ببعضها، فكان الرجل يُشِيرُ إلى الرجل أنْ كم[٢] صلى؟ فيقول: واحدةً أو اثنتين، فيصليهما، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم. قال: فجاء معاذ فقال: لا أجده على حال أبداً إلا كنتُ عليها، ثم قضيتُ ما سبقني. قال: فجاء وقد سَبَقه النبيّ ـ ﷺ ـ ببعضها، قال: فثَبَت معه، فلما قضى رسول الله ـ ﷺ ـ صلاته قام فقضى، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنه قد سن لكم مُعاذ، فهكذا فاصنعوا. فهذه ثلاثة أحوال».

وأما أحوالُ الصيام فإنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قَدِمَ المدينةَ، فجعلَ يصومُ من كل شهر ثلاثَةَ أيام[٣]، وصامَ عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا كُتِب عليكم الصيامُ كما كُتِب على الذين من قبلكم ﴾ إلى قوله: ﴿ وعلى الذين يُطِيقونه فدية طعامُ مِسكين ﴾ فكان مَنْ شاء صام، ومن شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه. ثم إن الله ـ عزّ وجلّ ـ أنزل الآية الأخرى: ﴿ شَهرُ رمضان الذي أُنزِلَ فيه القرآن ﴾ إلى قوله: ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فأثبت اللهُ صيامَه على المقيم[٤] الصحيح، ورخَّصَ فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعامُ للكبير الذي لا يستطيعُ الصيامَ، فهذان حَوْلان.

قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا. ثم إنَّ رَجُلاً من الأنصار يقال له: صِرْمَة، كان[٥] يعمل صائماً حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء، ثم نام فلم يأكل ولم يشرب، حتى أصبح، فأصبح صائماً، فرآه رسول الله ـ ﷺ ـ وقد جَهِدَ جَهداً شديداً، فقال: «ما لي أراك قد جَهِدْت جَهْداً شديداً؟» قال: يا رسول الله، إني عَمِلت أمسِ، فجئْتُ حين جئت، فألقيتُ نفسي فنمت، فأصبحت حين أصبحت صائماً. قال: وكان عُمرُ قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبي ـ ﷺ ـ فذكر له ذلك، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ إلى قوله: ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾[٦].

وأخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، من حديث المسعودي، به[٧].

وقد أخرجَ البخاريّ ومسلم، مِن حديث الزهـري، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يُصامُ، فلما نزل فرضُ رمضان، كان من شاء صام، ومن أشاء أفطر[٨].

وروى البخاري، عن ابن عمر وابن مسعود، مِثلَه.

---

(١) في المسند: مثنى مثنى.
(٢) في المسند: إن جاءكم صلى.
(٣) بعده في المسند: «وقال يزيد: فصام سبعة عشر شهراً من ربيع الأول إلى رمضان من كل شهر ثلاثة أيام». ثم يتّصل النصّ.
(٤) في الأصل: الصحيح المقيم. وأثبتنا لفظ المسند.
(٥) في المسند: ظل يعمل.
(٦) مسند الإمام أحمد ٥/٢٤٦ ـ ٢٤٧.
(٧) سنن أبي داود، كتاب الصلاة. ١/١٤٠ ـ ١٤١، والمستدرك، كتاب التفسير ٢/٢٧٤.
(٨) أخرجاه في كتاب الصوم، فتح الباري ٤/٢٤٤، ومسلم ٧٩٢.

وقولُه: ﴿ وعلى الذين يُطِيقونه فديةٌ طعامُ مسكين ﴾ كما قال معاذ: كان في ابتداء الأمر: من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً. وهكذا رَوَى البخاريُّ عن سلَمَةَ بن الأكوع أنَّه قال: لما نَزَلَتْ: ﴿ وعلى الذين يُطِيقُونَه فديةٌ طعامُ مِسْكِينٍ ﴾ كان من أراد أن يُفْطِرَ يَفْتَدِي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسخَتها(١).

ورُوِي أيضاً من حديث عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: هي منسوخة.

وقال السدِّيُّ، عن مُرَّةَ، عن عبدالله، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾(٢) قال، يقول: ﴿ وعلى الذين يطيقونه ﴾ أي: يَتجشَّمُونَه. قال عبدالله: فكانَ من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ﴿ فمن تطوع ﴾ قال يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿ فهو خيرٌ له وأن تَصُوموا خير لكمْ ﴾، فكانوا كذلك حتى نَسَختها: ﴿ فمنْ شَهِدَ منكم الشهرَ فَلْيَصُمْه ﴾.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا إسحاق، أخبرنا روح، حدثنا زكريا بن إسحاق، حدثنا عَمْرو بن دينار، عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ: ﴿ وعلى الذين يُطيقُونَه(٣) فدية طعامُ مسكين ﴾. قال ابن عباس: ليست منسوخةً، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً.

وهكذا رَوَى غيرُ واحد عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، نحوه.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن أشعثِ بن سَوّار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلتِ هذه الآية: ﴿ وعلى الذينِ يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يُطِيق الصَّوم ثم ضَعُفَ، فَرُخِّصَ له أن يُطعِمَ مكانَ كُلِّ يومٍ مسكيناً.

وقال الحافظ أبو بكر بن مُرْدُوَيه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا الحُسينُ(٤) بن محمد بن بَهْرام المخرمي، حدثنا وهب بن بَقيّة، حدثنا خالد بن عبدالله، عن ابن أبي ليلى، قال: دخلت على عطاء في رمضان، وهو يأكل فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية: ﴿ وعلى الذين يُطِيقُونه فديةٌ طعام مسكين ﴾، فكان من شاء صام ومن شاء أفطر (٥-[وأطعم مسكيناً، ثم نزلت هذه الآية فنسخت الأولى، إلا الكَبير الفاني إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر]-٥).

فحاصل الأمْر أنّ النسخ ثابت في حَق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه، بقوله: ﴿ فمن شهد منكم الشهر فَلْيَصُمْه ﴾ وأما الشيخُ الفاني الذي لَا يستطِيعُ الصيام فله أنْ يُفْطِرَ ولا قضاءَ عليه، لأنه ليست له حالٌ يَصِيرُ إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجبُ عليه أن يُطْعِمَ عن كلِّ يوم مسكيناً إذا كان ذا جِدَة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه إطعام، لأنه ضعيف عنه لِسِنّه، فلم يَجِبْ عليه فديةٌ كالصبي، لأن الله لا يُكَلِّف نفساً إلا وسعها، وهو أحد قولي الشافعي. والثاني - وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء - أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فَسَّره ابن عباس وغيرُه من السلف، على قراءة من قرأ: ﴿ وعلى الذين يُطَوَّقونه ﴾(٦)،

---

(١) فتح الباري، كتاب التفسير ١٨١/٨، ورواه مسلم أيضاً في الصوم ٨٠٢.

(٢) وقع في الأصل هنا ما نعتقد أنه من صنع ناسخ، وهو النص التالي: قرأ أبو جعفر ونافع وابن عباس: (فدية طعام مساكين) فصار [كذا] جماع. وقرأه الباقون: مسكين، على واحدة» ثم يستمر أثر ابن مسعود بعد ذلك.

(٣) في الأصل: تطيقونه. والمثبت عن البخاري، انظر فتح الباري ١٧٩/٨، والبحر المحيط ٣٥/٢، والقرطبي ٢٨٦/٢.

(٤) في الأصل: الحسن. وانظر ترجمته في تهذيب الكمال ٤٧١/٦.

(٥) سقط من الأصل.

(٦) في الأصل: يطيقونه. وانظر فتح الباري ١٨٠/٨.

أي: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخاري فإنه قال: «وأما الشيخُ الكبيرُ إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس ـ بعد ما كَبِرَ عاماً أو عامين ـ كلّ يوم مسكيناً خُبزاً ولحماً، وأفطر»(١).

وهذا الذي علقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، فقال:

حدثنا عُبَيد الله بن مُعاذ، حدثنا أبي، حدثنا عمران، عن أيوب بن أبي تميمة، قال: ضَعُفَ أنس عن الصوم، فَصَنَعَ جفنة من ثَريدٍ، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعَمَهُم.

ورواه عَبْدُ بن حُمَيد، عن رَوح بن عبادة، عن عمران ـ وهو ابن حُدَير ـ عن أيوب، به.

ورواه عَبدٌ أيضاً، من حديث ستة من أصحاب أنس، عن أنس ـ بمعناه.

ومما يلتحق بهذا المعنى الحاملُ والمرضعُ، إذا خافتا على أنفسهما(٢) أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويَفديان ويقضيان. وقيل: يَفدِيان فقط، ولا قضاء. وقيل: يجب القضاءُ بلا فدية. وقيل: يُفطِرَان، ولا فدية ولا قضاء. وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام، الذي أفردناه. ولله الحمدُ والمنة.

عن أنس(٣- بن مالك الكعبي أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله قد وضع عن المسافر الصومَ وشطر الصلاة وعن الحبلى والمرضع الصَّوم»(٤). رواه الخمسة، وحَسَّنَه الترمذي، وفي لفظ: «إن الله وضع شطر الصلاة ـ أو: نصف الصلاة ـ والصومَ عن المسافر والمرضع والحبلى»-٣).

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يمدحُ تعالى شهرَ الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصَّه بذلك قد(٥) ورد الحديث بأنه الشهرُ الذي كانت الكتب الإلَهية تنزل فيه على الأنبياء.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا أبو سعيدٍ مولى بني هاشم، حدثنا عِمْران أبو العوام، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة ـ يعني ابن الأسقع ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أُنزلَتْ صُحُفُ إبراهيم في أول ليلة من رمضان. وأُنزِلَتِ التوراةُ لِست [مَضين] من رمضان، والإنجيلُ لثلاثَ عَشْرَةَ خلت من رمضان، وأنزلَ الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»(٦).

وقد رُوِيَ من حديث جابر بن عبدالله، وفيه: أن الزبور أنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان، والإنجيل لثماني عشرة، والباقي كما تقدم. رواه ابن مَرْدُويَه.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٧٩/٨.
(٢) في الأصل: وولديهما.
(٣) عن الأصل.
(٤) أخرجوه في كتاب الصوم، انظر سنن أبي داود ٣١٧/٢، والنسائي ١٨٠/٤، وعارضة الأحوذي ٢٣٥/٣، وابن ماجه ٥٣٣. ومسند الإمام أحمد ٣٤٧/٤، ٢٩/٥.
(٥) في الأصل: وقد.
(٦) المسند ١٠٧/٤. وما بين القوسين عنه.

أما الصحفُ والتوراةُ والزبورُ والإنجيلُ - فنزَلَ كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملةً واحدةً، وأما القرآن فإنما نَزَلَ جملةً واحدةً إلى بيت العِزَّةِ من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ وقال: ﴿إِنَّا أنزلناه في ليلةٍ مباركةٍ﴾، ثم نزل بعدُ مفرّقاً بحسب الوقائع على رسُول الله - ﷺ -. هكذا رُوِي من غير وجه، عن ابن عباس، كما قال إسرائيل عن السّدِّي، عن محمد بن أبي المجالد، عن مِقْسَم، عن ابن عباس أنه سأله عَطِيَّة بن الأسود، فقال: وقع في قلبي الشك من قولِ الله تعالى: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وقوله: ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القَدْر ﴾، وقد[1] أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم، وصفر، وشهر ربيع. فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان، في ليلة القدر، وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام. رواه ابن أبي حاتم وابن مَرْدُوَيه، وهذا لفظه[2].

وفي رواية سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: أُنزِلَ القرآنُ في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فجُعِل في بيت العِزَّة، ثم أنزل على رسول الله - ﷺ - في عشرين سنة لجواب كلام الناس.

وفي رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال: نَزَل القرآنُ في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يُحْدِثُ لنبيه ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثَل يخاصمونه به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملةً واحدة، كذلك لِنُثَبِّتَ به فؤادَك، ورتلناه ترتيـلاً. ولا يأتونَكَ بمَثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾.

[3]-قال فخر الدين: «ويحتمل أنه كان ينزل في كلِّ ليلةٍ قدرُ ما يحتاج الناسُ إلى إنزاله إلى مثله من اللوح إلى سماء الدنيا. وتوقف: هل هذا أولى أو الأول؟ وهذا الذي جعله احتمالاً نَقَله القرطبيّ عن مقاتل بن[4] حيان، وحكى الإجماع على أنَّ القرآن نزلَ جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العزَّة في السماء الدنيا. وحكى الرازي عن سفيان بن عُيَيْنة وغيره أن المراد بقوله: ﴿ الذي أُنزِلَ فيه القرآن ﴾، أي: في فَضْلِهِ أو وُجُوبِ صومه. وهذا غريبٌ جداً-[3].

وقوله: ﴿ هُدىً للناس وبيناتٍ من الهُدَى والفرقان ﴾ هذا مدحٌ للقرآن الذي أنزله الله هُدىً لقلوب العباد، ممن آمن به وصَدَّقه واتَّبعه ﴿ وبيناتٍ ﴾ أي: ودلائل وحُجَجٌ بينةٌ واضحةٌ جليةٌ لمن فَهمها وتدبَّرها، دالةٌ على صِحَّة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال، والحرام.

وقد رُوِي عن بعض السلفِ أنه كَرِه أن يقالِ إلا «شهر رمضان» ولا يقال «رمضان»؛ قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بكار بن الريَّان، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القُرَظي، وسعيد - هو المَقْبُري - عن أبي هُرَيرة، قال: لا تقولوا رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان.

قال ابن أبي حاتم: وقد رُوِي عن مجاهد، ومحمد بن كعب نحو ذلك، ورَخَّص فيه ابن عباس، وزيد بن ثابت.

---

(١) في الأصل: وهذا أنزل.

(٢) وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ٢/١٤٥ - ١٤٦.

(٣) عن الأصل.

(٤) تفسير القرطبي ٢/٢٩٧ - ٢٩٨.

قلت: أبو معشر هو: نَجيحُ بن عبد الرحمن المدني إمامُ المغازي والسير، ولكن فيه ضَعفٌ، وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعاً، عن أبي هُرَيرة، وقد أنكره عليه الحافظ بن عدي، وهو جدير بالإنكار، فإنه متروك، وقد وُهِّم في رفع هذا الحديث، وقد انتصر البخاري[1] رحمه الله في كتابه لهذا فقال: «باب يقال رمضـــان» وساق أحاديث في ذلك منها: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»: ونحو ذلك[2].

وقوله: ﴿ فمن شَهد منكمَ الشهر فليصمه ﴾ هذا إيجاب حَتْمٍ على من شهد استهلال الشهر ـ أي كان مقيماً في البلد حين[3] دَخل شهر رمضان، وهو صحيحٌ في بدنه ـ أن يصومَ لا محالة. ونَسَخت هذه الآيةُ الإباحةَ المتقدمةَ لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويُفدي بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تَقدَّم بيانه. ولما حتَّم الصيامَ أعاد ذِكْرَ الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار، بشرط القضاء، فقال: ﴿ ومن كان مريضاً أو على سفر فعدَّةٌ من أيام أُخَرَ ﴾ معناه: ومن كان به مَرَضٍ في بدنه يَشُقّ عليه الصيام معه، أو يؤذيه، أو كان على سفر، أي: في حال سفر فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه بعدة ما أفطره في السفر من الأيام، ولهذا قال: ﴿ يُريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ أي: إنما رَخَّص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر، مع تحتّمه في حق المقيم الصحيح، تيسيراً عليكم ورحمة بكم.

وهاهنا مسائلُ تتعلَّقُ بهذه الآية:

إحداها: أنه قد ذهب طائفةٌ من السلف إلى أَنَّ من كان مُقِيماً في أَوَّل الشهر ثم سافرَ في أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه، لقوله: ﴿ فمن شهد منكم الشهر فَلْيَصُمه ﴾. وإنما يباح الإفطار لمسافر استهلَّ الشهرَ وهو مسافر.

وهذا القولُ غريب، نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المُحَلى، عن جَماعَةٍ من الصحابة والتابعين. وفيما حكاه عنهم نظر، والله أعلم. فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه خَرَج في شهر رَمَضان لغزوة الفتحِ، فَسارَ حتى بَلَغَ الكَدِيد[4]، ثم أفطر، وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبا الصحيح[5].

الثانية: ذَهَبَ آخرون من الصحابة والتابعين إلى وُجُوب الإفطارِ في السفر، لقوله: ﴿فعدَّةٌ من أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

والصحيحُ قول الجمهور أن الأمرَ في ذلك على التخيير، وليس بحَتْم، لأنهم كانوا يخرجُون مع رسول الله ـ ﷺ ـ في شهرِ رَمَضان. قال: «فَمِنَّا الصائم ومنا المفطر، فلم يعب الصائمُ على المفطر، ولا المفطرُ على الصائمِ»[6]. فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيامَ، بل الذي ثبت من فِعْلِ رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء: خرجنا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في شهر رمضان، في حَرٍّ شديد، حتى إن كان أحدُنا ليضع يده على رأسه من شدَّة الحرّ، وما فينا صائمٌ إلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وعبدُالله بن رَوَاحة»[7].

---

(١) فتح الباري، كتاب الصوم ١١٢/٤.

(٢) تعرّض لهذه المسألة السهيلي في كتابه نتائج الفكر في النحو، انظر ٣٨٣ ـ ٣٨٦.

(٣) في الأصل: حتى.

(٤) الكديد: عين جارية بينها وبين المدينة سبع مراحل، وبينها وبين مكة قريبٌ من مرحلتين.

(٥) فتح الباري، كتاب الصوم ١٨٠/٤، ومسلم، كتاب الصيام ٧٨٤.

(٦) فتح الباري، كتاب الصوم، ١٨٦/٤، ومسلم، كتاب الصيام ٧٨٧.

(٧) أخرجاه في كتاب الصوم، فتح الباري ١٨٢/٤، ومسلم ٧٩٠.

الثالثة: قالت طائفة، منهم الشافعيُّ: الصيامُ في السفر أفضلُ من الإفطار، لفعل النبي ـ ﷺ ـ كما تقدم.

وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل، أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه سُئِل عن الصوم في السفر، فقال: «من أفطر فحَسَن، ومن صام فلا جُنَاح عليه»(١). وقال في حديث آخر: «عليكم بِرُخْصَةِ الله التي رَخَّصَ لكم»(٢).

وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة: أنَّ حَمْزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسولَ الله، إني كثيرُ الصيام، أفأصومُ في السفرِ؟ فقال: إن شئتَ فَصُمْ، وإن شِئْتَ فأفطِرْ. وهو في الصَّحِيحين(٣).

وقيل: إن شَقَّ الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى رجلاً قد ظُلِّلَ عليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: صائم، فقال: ليس من البر الصيام في السفر. أخرجاه(٤). فأما إن رَغِب عن السنة، ورأى أن الفطر مكروهٌ إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيامُ، والحالة هذه، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره، عن ابن عُمَر وجابر، وغيرهما: «من لم يقبل رُخْصَةَ الله كان عليه من الإثم مثلُ جبالِ عرفة»(٥).

الرابعة: القضاءُ، هل يَجِبُ مُتَتابعاً أو يجوزُ فيه التفريق؟ فيه قولانِ: أحدُهما أنه يجب التتابعُ؛ لأن القضاءَ يَحكِي الأداءَ. والثاني: لا يَجِب التَتابعُ، بل إن شاء فَرَّق، وإن شاء تابَعَ. وهذا قول جُمهور السلفِ والخَلَفِ، وعليه ثبتت الدلائلِ. لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاءِ رمضانَ فالمراد صيام أيام عدَّةَ ما أفطر. ولهذا قال تعالى: ﴿ فعدَّةٌ من أيام أُخَر ﴾ ثم قال: ﴿ يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا أبو هلال، عن حُمَيد بن هلال العَدَوِيّ، عن أبي قتادة، عن الأعرابي الذي سَمِعَ النبيَّ ـ ﷺ ـ يقول: «إنَّ خيرَ دينكم أيسَرُهُ، إنَّ خيرَ دينكم أيسَرُهُ»(٦).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم بن هلال، حدثنا غاضِرَةُ بن عُرْوَة الفُقَيْمي، حدثني أبي عروة، قال: كنا ننتظر النبي ـ ﷺ ـ فخرج [رَجِلاً](٧) يَقْطُرُ رأسه من وضوء ـ أو غسل ـ فصلَّى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: [يا رسول الله](٧) علينا حَرَجٌ في كذا؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «[لا أيها الناس](٧) إن دين الله في يُسرٍ، ثلاثاً يقولها»(٨).

ورواه الإمام أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن إبراهيم(٩)، عن عاصم بن هلال، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: حدثنا أبو التيَّاح، سمعت أنس بن مالك

---

(١) مسلم، كتاب الصوم ٧٩٠.
(٢) مسلم، كتاب الصوم ٧٨٦.
(٣) أخرجاه في كتاب الصوم، فتح الباري ٤/١٧٩، ومسلم ٧٨٩.
(٤) أخرجاه في كتاب الصوم، فتح الباري ٤/١٨٣، ومسلم ٧٨٦.
(٥) مسند الإمام أحمد عن ابن عمر ٢/٧١، وعن عقبة بن عامر ٤/١٥٨.
(٦) مسند الإمام أحمد ٣/٤٧٩.
(٧) عن المسند. ويقال: رَجُلٌ رَجِل الشَّعر ورَجَلُه: لم يكن شديد الجعودة ولا شديد السبوطة، بل بينهما.
(٨) مسند الإمام أحمد ٥/٦٩.
(٩) في الأصل: «مسلم أبي تميمة بن إبراهيم». وانظر الجرح، ترجمة عاصم بن هلال ٦/٣٥١.

يقول: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يَسِّروا، ولا تُعَسِّروا، وسَكِّنوا ولا تُنَفِّروا»[١]. أخرجاه في الصحيحين.

وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لمعاذ وأبي موسى حين بَعَثهما إلى اليمن: «بَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وتطاوَعا ولا تختلِفا»[٢]. وفي السنن والمسانيد أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بُعِثت بالحنيفيَّة السَّمْحَة»[٣].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَردُويه في تفسيره: حدثنا عبدالله بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا أبو مسعود الجُرَيري، عن عبدالله بن شقيق، عن محْجَن بن الأدرع: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى رجلاً يصلي فتراءاه ببَصَره ساعة، فقال: «أتُراه يُصَلِّي صادقاً؟» قال قلت: يا رسول الله، هذا أكثرُ أهل المدينة صلاةً، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تُسْمِعْه فتُهلكَه». وقال: «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليُسْر، ولم يرد بهم العُسْر».

ومعنى قوله: ﴿ يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر، ولتكملوا العدة ﴾ أي: إنما أرْخَصَ لكم في الإفطارِ للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسرَ، وإنما أمركم بالقضاء لتُكمِلُوا عدّة شهركم.

وقوله: ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ أي: ولتذكُروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿ فإذا قَضَيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾ وقال: ﴿ فإذا قُضِيت الصلاةُ فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾. وقال: ﴿ فَسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فَسَبِّحه وأدبار السجود ﴾. ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح، والتحميد، والتكبير بعد الصلَوات المكتوبات.

وقال ابن عباس: ما كنًّا نعرفُ انقضاءَ صلاة رسول الله ـ ﷺ ـ إلا بالتكبير، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطرِ من هذه الآية: ﴿ ولتكملوا العِدَّة، ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾، حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وُجُوبِه في عيد الفطر، لظاهِر الأمر في قوله: ﴿ ولتكَبِّروا الله على ما هداكم ﴾، وفي مقابلَتِه مذهبُ أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه لا يُشْرَع التكبير في عيد الفطر. والباقون على استحبابه، على اختلاف في تفاصيل بعض الفُرُوع بينهم.

وقوله: ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي: إذا قُمتُم بما أمركم الله من طاعَتِه بأداء فرائِضِه، وتَرْكِ مَحارِمِه، وحِفْظِ حدوده، فلَعلَّكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جَرير، عن عَبْدَة بن أبي بَرْزَة السِّجستاني[٤]، عن الصَّلْت بن حَكِيم بن معاوية بن حيدة القُشيري، عن أبيه، عن جده، أن أعرابياً قال: يا رسول الله، أقريبٌ ربنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنُناديه؟ فسكت النبي ـ ﷺ ـ فأنزل الله: ﴿ وإذا سألك عبادي عني

(١) مسند الإمام أحمد ٣/١٣١، وفتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٥٢٤، ومسلم، كتاب الجهاد ١٣٥٩.
(٢) أخرجاه في كتاب الجهاد، فتح الباري ٦/١٦٢، ومسلم ١٣٥٩.
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/٢٦٦، ٦/١١٦، ٢٣٣.
(٤) في الأصل: السختياني. وانظر الجرح لابن أبي حاتم ٦/٩٠.

فإني قريب أجيبُ دَعوة الداع إذا دعان، (١- ﴿ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي ﴾ إذا أمرتهم أن يدعوني، فَدَعَوْني، استجبت لـهـم -١).

(١- (ورواه ابن جرير(٢)، عن محمد بن حميد الرازي، عن جرير، به) ١).

ورواه ابن مَرْدُوَيه، وأبو الشيخ الأصبهاني، من حديث محمد بن أبي حميدُ، عن جرير، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن عوف، عن الحسن، قال: سأل أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: أين رَبُّنا؟ فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ، أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ﴾(٢)... الآية.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء: أنه بلغه لما نَزَلَتْ: ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ قال الناس: لو نعلم أيَّ ساعة ندعو؟ فنزلت: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أُجِيبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعَانِ ﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثَّقَفِيّ، حدثنا خالد الحذَّاء، عن أبي عُثمان النَّهديِّ، عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: كنَّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غَزَاة، فجعَلْنا لا نصعَدُ شَرَفاً، ولا نعلو شَرَفاً، ولا نهبط وادياً إلا رَفَعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فَدَنا منا فقال: «يأيها الناسُ، أَرْبَعُوا(٣) على أنفسكم؛ فإنَّكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنما تدعُونَ سمِيعاً بصيراً، إنَّ الذي تدعونَ أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته. يا عبدالله بن قيس، ألا أعلمك كلمةً من كُنُوزِ الجنة؟ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله»(٤).

أخرجاه في الصحيحين، وبقية الجماعة من حديث أبي عثمان النَّهدي ـ واسمه عبد الرحمن بن مُلٍّ عنه ـ بنحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا شعبة، حدثنا قتادة، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: يقول الله تعالى: أنا عندَ ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا دَعَانِي(٥).

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبدالله، أخبرنا عبد الرحمن بنُ يزيد بن جابر، حدثنا إسماعيل بن عُبَيد الله، عن كريمة بنت الخشخاش المزنية، قالت: حدثنا أبو هُرَيرة: أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «قال الله: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتَحرَّكت بي شفتاه»(٦).

قلتُ: وهذا كقوله تعالى: ﴿ إن الله مع الذين اتقوا، والذين هم مُحسِنُونَ ﴾، وكقوله لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: (إنني معكما أسمع وأرى). والمرادُ من هذا أنه تعالى لا يُخَيِّبُ دعاءَ داعٍ، ولا يشغَلُه عنه شيء، بل هو سميع الدعاء. ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، كما قال الإمام أحمد:

حَدَّثنا يزيدُ، حدثنا رجل(٧) أنه سمع أبا عثمان ـ هو النَّهدِيُّ ـ يُحَدِّث عن سلمانَ ـ يعني الفارسيَّ ـ رضي

(١) عن الأصل.
(٢) تفسير الطبري ١٥٨/٢.
(٣) أي: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم.
(٤) مسند الإمام أحمد ٤٠٢/٤، وفتح الباري، كتاب الدعوات ٢١٤/١١، ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٧٦ ـ ٢٠٧٧. وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٨٧/٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٤/١٣. ومسند الإمام أحمد ٣٩٤/٤، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤١٧ ـ ٤١٨، ٤١٩.
(٥) مسند الإمام أحمد ٢١٠/٣.
(٦) مسند الإمام أحمد ٥٤٠/٢.
(٧) في المسند: «ثنا يزيد، أنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان».

الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الله تعالى ليستَحْيِ أن يَبْسُط العبدُ إليه يَدَيه يسألُه فيهما خيراً فيردَّهما خائِبَتَين».

قال يزيدُ: سَمُّوا لي هذا الرجلَ، فقالوا: جعفرُ بنُ ميمونٍ[1].

وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، مِن حديث جعفر بن ميمون ـ صاحب الأنمــاط ـ به. وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم، ولم يرفعه.

وقال الشيخُ الحافظُ أبو الحجَّاج المِزِّي ـ رحمه الله ـ في أطْرافه: وتابعه أبو همام محمد بن الزبرقان، عن سليمان[2] التيمي، عن أبي عثمان النهدي، به.

وقال الإمـام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عامر، حدثنا عَلِيّ، عن[3] أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما من مسلم يدعو الله ـ عزّ وجلّ ـ بدعوةٍ ليس فيها إثم ولا قطيعةُ رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يُعَجِّل له دعوته، وإما أن يَدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يَصْرِفَ عنه من السوءِ مثلَها». قالوا: إذاً نكثرُ. قال: «الله أكثرُ»[4].

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن منصور الكوسج: أخبرنا محمد بن يوسف، حَدَّثنا ابنُ ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جُبَير بن نُفَير، أن عُبَادة بن الصامت حدَّثهم، أنَّ النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما على ظَهْرِ الأرضِ من رجل مُسْلِم يدعو الله، عزّ وجلّ، بدعوةٍ إلا آتاه اللهُ إياها، أو كَفَّ عنه من السوء مثلها، ما لم يَدْعُ بإثم أو قَطيعة رحم»[5].

ورواه الترمذيّ، عن عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن يوسف الفِرْيابي، عن ابن ثوبان ـ وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ـ به. وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه[5].

وقال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن أبي عُبَيد ـ مولى ابن أَزْهَرَ ـ عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يُسْتَجاب لأحدكم ما لم يَعْجل، يقول: دعوتُ فلم يُستَجَبْ لي»[6].

أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به. وهذا لفظ البخاري، رحمه الله، وأثابه الجنة.

وقال مسلم أيضاً: حَدَّثني أبو الطاهر، حدثنا ابنُ وهب، أخبرني معاويةُ بن صالح، عن ربيعةَ بن يزيد، عن أبي إدريسَ الخَوْلانيّ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: لا يزال يُستجابُ للعبد ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعةِ رَحِمٍ ما لم يستعجل. قيل: يا رسولَ الله، ما الاستعجالُ؟ قال: يقول: قد دعوتُ، وقد دَعَوتُ، فلم أرَ يستجابُ لي، فَيَسْتَحِسرُ عند ذلك، ويَدَعُ الدعاء»[7].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبدُ الصمد، حدثنا أبو هلالٍ، عن قتادَةَ، عن أنس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٤٣٨، وأبو داود، كتاب الصّلاة ٢/٧٨، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٦٨، وابن ماجه، كتاب الدعاء ١٢٧١.

(٢) في المسند: «ثنا يزيد، أنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان».

(٣) في الأصل: «ابن أبي المتوكل». والتصويب عن المسند، وانظر التهذيب ٧/٣٦٦، ترجمة علي بن علي الرفاعي.

(٤) مسند الإمام أحد ٣/١٨.

(٥) مسند الإمام أحمد ٥/٣٢٩. وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٧٨.

(٦) الموطأ، كتاب القرآن ٢١٣، وفتح الباري، كتاب الدعوات ١١/١٤٠، ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٩٥.

(٧) م ـ(٧) كتاب الذكر ٢٠٩٦. واستحسر: أعيا وانقطع عن الشيء.

قال: لا يزالُ العبدُ بخيرٍ ما لم يستعجل. قالوا: وكيف يستعجِلُ؟ قال: يقول: قد دعوتُ ربي فلم يَسْتَجِبْ لي(١).

وقال الإمامُ أبو جَعفرٍ الطبريُّ في تفسيرِهِ: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابنُ وهب، حدثني أبو صخر: أن يزيد بن عبدالله بن قُسَيط حَدَّثه، عن عروة بن الزبير، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنها قالت: ما من عَبْد مؤمن يدعُو الله بدعوةٍ فتذهب، حتى تُعَجَّلَ له في الدنيا أو تُدَّخر له في الآخرة إذا هو لم يعجَلْ أو يقنَطْ. قال عروة: قلت: يا أمَّاه، كيف عَجَلَتُه وقُنوطُه؟ قالت: يقول: سألت فلم أُعْطَ، ودَعوتُ فلم أُ جَبْ.

قال ابنَ قُسَيْط: وسمعتُ سعيد بن المسيَّب يقولُ كقولِ عائشةَ سواءً.

وقال الإمام أحمد: حَدَّثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثنا بكر بن عمرو، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيِّ، عن عبدالله بن عَمْرٍو، أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: القلوبُ أوعيةٌ، وبعضُها أوعَى من بعضٍ، فإذا سألْتُمُ الله ـ أيها الناسُ ـ فاسألوه وأنتم موقنونَ بالإجابة، فإنه لا يستجِيبُ لعبد دَعَاه عن ظَهْرِ قلبٍ غافلٍ(٢).

وقال ابن مَرْدُوَيه: حدثنا محمد بن إسحاق بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن أُبَيّ بن نافع بن معديكرب ببغداد، حدثني أُبيّ بن نافع، حدثني أبي نافع بن معديكرب، قال: كنت أنا وعائشة سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن الآية: ﴿ أُجِيبُ دعوةَ الداع إذا دعانِ ﴾ قال: يا ربِ، مسألةَ عائشة. فهبط جبريلُ فقال: الله يُقرِئُكَ السلامَ، هذا عبدي الصالح، بالنية الصادقة، وقلبُه نقي، يقول: يا رب، فأقول: لبيك. فأقضي حاجته(٣).

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه.

وَرَوَى ابن مَرْدُوَيه من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: حَدَّثني جابر بن عبدالله أن النبي ـ ﷺ ـ قرأ: ﴿ وإذا سألَكَ عبادي عني فإني قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداع إذا دعان ﴾ . . . الآية. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللهم أَمَرْتَ بالدعاء، وتوكَّلْتَ بالإجابة، لبيك اللهمَّ لبيك، لبيكَ لا شريكَ لك، لبيكَ إنَّ الحمدَ والنعمةَ لك، والملك لا شريكَ لك، أشهد أنك فردٌ أحد صَمَد، لم تلد ولم تولد، ولم يكن لك كفواً أحد، وأشهد أن وعدكَ حق، ولقاءكَ حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من في القبور».

وقال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدثنا الحسن بن يحيى الأَرُزِّيُّ، ومحمد بن يحيى القُطَعِيِّ، قالا: حدثنا الحجاج بـن مِنْهال، حدثنا صالح المُرِّي، عن الحسن، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يقولُ الله تعالى: يا ابن آدم، واحدةٌ لك وواحدةٌ لي، وواحدةٌ فيما بيني وبينك؛ فأما التي لي فتعبُدُني لا تُشرِكُ بي شيئاً، وأما التي لك فما عملتَ من شيء وفَّيْتُكَهُ، وأما التي بيني وبينك فمنكَ الدعاءُ وعليّ الإجابة»(٤).

وفي ذكره تعالى هذه الآيةَ الباعثةَ على الدعاءِ، مُتَخَلِّلَةً بين أحكام الصيام، إرشادٌ إلى الاجتهادِ في الدعاءِ عند إكمالِ العِدَّة، بل وعندَ كلِّ فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده.

حدثنا أبو محمد المُلَيكي، عن عَمْرو ـ هو ابن شُعَيب بن محمد بن عبدالله بن عمرو ـ عن أبيه، عن جده

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٢١٠.
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/ ١٧٧.
(٣) انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥/ ٣٠٦.
(٤) كشف الأستار، كتاب الإيمان ١/ ١٨.

عبدالله بن عمرو، قال: سَمِعتَ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوةٌ مستجابة». فكان عبدالله بن عمرو إذ أفطر دَعَا أهله ووَلَدَه ودعا[1].

وقال أبو عبدالله محمد بنْ يزيدَ بن ماجه في سننه: حدثنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، عن إسحاق بن عبدالله المدني، عن عَبْدالله بن أبي مُلَيكة [2]-[عن عبدالله بن عَمْرو، قال قال النبي ـ ﷺ ـ: «(إن) للصائم عند فطره لَدَعْوَةً ما تُرَدّ». قال عَبْدالله بن أبي مُلَيكة]-[2] سمعتُ عبدَالله بن عَمْرو يقول إذا أفطر: اللهمَّ إني أسألُكَ برحمتِكَ التي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ أن تَغفِرَ لي[3].

وفي مُسندِ الإمام أحمدَ، وسُنَن الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثةٌ لا تُـردُّ دعوتُهم: الإمامُ العادلُ، والصائمُ حتى يفطِرَ، ودعوةُ المظلومِ يرفعُها الله دون الغَمام يوم القيامة، ويفتَحُ لها أبواب السماء، ويقول: بِعِزّتي لأنصرنَّك ولو بَعْدَ حينٍ»[4].

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

هذه رُخْصةٌ من الله تعالى للمسلمين، ورَفْعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدُهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صَلَّى العشاء حَرُم عليه الطعامُ والشرابُ والجماعُ إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مَشَقة كبيرة.

والرَّفثُ هنا هو: الجماعُ. قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، وسالم بن عبدالله، وعَمْرو بن دينار، والحسن، وقتادة، والزّهري، والضحاك، وإبراهيم النَّخعي، والسّدي، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حَيَّان.

وقوله: ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني هُنَّ سَكَنٌ لكم، وأنتم سَكَنٌ لهنّ.

وقال الربيعُ بن أنس: هن لحافٌ لكم، وأنتم لحافٌ لهن.

وحاصله أنّ الرجلَ والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويُمَاسّه ويضاجعُه، فناسب أن يُرَخِّص لهم في المجامعة في ليل رمضانَ، لئلا يشقّ ذلك عليهم، ويُحرَجُوا، قال الشاعر[5]:

إذا مـا الـضَّجيـعُ ثَنى جِيـدَهـا تَـداعَـتْ فكـانـت عليـه لِبـاسَـا

وكان السببُ في نُزولِ هذه الآية كما تَقدَّم في حديثِ معاذ الطويلِ.

(١) مسند أبي داود الطيالسي ٢٩٩.
(٢) سقط من الأصل.
(٣) سنن ابن ماجه، كتابُ الصيام ٥٥٧.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣٠٤/٢ـ ٣٠٥، ٤٤٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الصيام ٥٥٧، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ٨٨/١٣.
(٥) هو النابغة الجعدي، والبيت في تفسير الطبري ١٦٢/٢، والشعر والشعراء ٢٩٦/١.

وقال أبو إسحاق، عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب النبي ـ ﷺ ـ إذا كان الرجلُ صائماً فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإن قَيْس بن صِرْمة الأنصاري كان صائماً، وكان يومُه ذاك يعمَل في أرضه، فلما حَضَر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلقُ فأطلبُ لك. فغلبته عينُه فنام، وجاءت امرأتُه، فلما رأته نائماً قالت: خيبةٌ لك! أنمت؟ فلما انتصف النهارُ غُشِي عليه، فذكر ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فنزلت هذه الآية: ﴿ أُحلَّ لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم ﴾، إلى قوله: ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾، ففرحوا بها فرحاً شديداً(١).

ولفظُ البخاريّ هاهنا من طريق أبي إسحاق، سمعت البَرَاء قال: لما نزل صومُ رمضان كانوا لا يقرَبُون النساء، رَمَضَانَ كُلَّه، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿ عَلِمَ اللهُ أنكم كنتم تختانون أنفسكم، فتاب عليكم وعفا عنكم ﴾(٢).

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس قال: كان المسلمونَ في شهر رمضان إذا صَلَّوا العشاء حَرُم(٣) عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إنَّ أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عُمَرُ بن الخطاب، فشكَوا ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله تعالى: ﴿ عَلِمَ الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم، فتاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروهُنَّ ﴾. وكذا روى العوفي عن ابن عباس(٤).

وقال موسى بن عـقبـة، عن كُريب، عن ابن عباس، قال: إن الناس كانوا قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون، ويَحِلُّ لهم شأن النساء، فإذا نام أحدُهُم لم يطعَمْ ولم يشرَب ولا يأتـي أهلَه حتى يُفطِر من القابلة، فبلَغَنا أن عُمَر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصَوْمُ وَقَع على أهله، ثم جاء إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أشكو إلى الله وإليك الذي صنعت. قال: «وماذا صنعت؟» قال: إني سَوَّلَتْ لي نفسي، فوقعت على أهلي بعد ما نِمتُ، وأنا أريد الصوم. فزعموا أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما كنتَ خليقاً أن تفعل». فنزل الكتاب: ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قيس(٥) بن سعد، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هُرَيرة، في قول الله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائكم ﴾ . . . إلى قوله: ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾، قال: كانَ المسلمونَ قبلَ أن تنزل هذه الآيةُ إذا صَلَّوا العَشاء الآخرةَ حرم عليهم الطعامُ والشرابُ والنساءُ حتى يُفطِرُوا، وَإنَّ عُمر بن الخطاب أصاب أهله (بعد صلاة العشاء)(٦)، وإنَّ صِرْمة بن قيس الأنصاريّ غلبته عينهُ بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبَعْ من الطعام، ولم يستيقظ حتى صَلَّى رسول الله ـ ﷺ ـ العشاء، فقام فأكلَ وشَرب، فلما أصبح أتى رسول الله ـ ﷺ ـ، فأخبراه بذلك، فأنزل الله عند ذلك: ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾، يعني بالرفث: مجامعة النساء ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾ يعني: تجامعون النساء، وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿ فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ﴾ يعني: جامعوهن ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ يعني: الولد ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من

(١) تفسير الطبري ٢/١٦٤.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ٨/١٨١.
(٣) في الأصل: حرم الله.
(٤) تفسير الطبري ٢/١٦٤ ـ ١٦٥.
(٥) في الأصل: سعد بن قيس. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، ترجمة عطاء بن أبي رباح ٦/٣٣٠.
(٦) ليست في الأصل.

الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾. فكان ذلك عفواً من الله ورحمة.

وقال هُشَيم، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: قام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله، إني أردت البارحة أهلي على ما يريد الرجلُ أهله، فقالت: إنها قد نامت، فظننتها تعتلُّ، فواقعتها، فنزلَ في عُمَر: ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم ﴾.

وهكذا رواهُ شعبةُ، عن عَمْرو بن مُرّة، عن ابن أبي ليلى، به.

وقال أبو جعفر بن جَرير: حدثني المثنى، حدثنا سُوَيد، أخبرنا ابن المبارك، عن ابن لَهِيعة، حدثني موسى بن جُبير ـ مولى بني سَلِمَةَ ـ أنه سَمِعَ عبدالله بن كعب بن مالك، يُحدِّث عن أبيه، قال: كان الناسُ في رمضان إذا صام الرجل فأمسَى فنام، حُرّم عليه الطعامُ والشرابُ والنساء حتى يفطر من الغد. فرجع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من عند النبي ـ ﷺ ـ ذات ليلة وقد سَمَرَ عنده، فوجَدَ امرأته قد نامت، فأرادها، فقالت: إني قد نمت. فقال: ما نمت. ثم وقع بها. وصَنَع كعب بن مالك مثلَ ذلك. فغَدَا عمر بن الخطاب إلى النبي ـ ﷺ ـ فأخبره، فأنزل الله: ﴿ عَلِمَ الله أنكم كنتم تَخْتَانُون أنفسكم، فتاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروهنَّ ﴾. . . الآية[1].

وهكذا رُوِي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والسدي، وقتادة، وغيرهم في سَبَب نزولِ هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صَنَع كما صَنَع، وفي صِرْمة بن قيس؛ فأباح الجِمَاعَ والطعامَ والشراب في جميع الليل، رحمةً ورُخْصَةً ورفقاً.

وقولُه: ﴿ وابتَغُوا ما كتب الله لكم ﴾، قال أبو هُرَيرَةَ[2]، وابن عباس، وأنس، وشُرَيح القاضي، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والربيع بن أنس، والسدي، وزيد بن أسلم، والحكم بن عُتَيبَةَ، ومقاتل بن حيان، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغيرهم: يعني الولدَ.

وقال عبدُ الرحمنِ بنَ زيد بن أسلَمَ: ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ يعني: الجماعَ.

وقال عَمْرو بن مالك النُّكْري، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ قال: ليلة القدر. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير[3].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر: قال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم.

وقال سعيدٌ، عن قتادة: ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾. يقول: ما أَحَلَّ الله لكم.

وقال عبدُ الرزَّاق أيضاً: أخبرنا ابن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿ وابتغوا ﴾ أو: ﴿ اتبعوا ﴾؟ قال: أيتهما شئت: عليك بالقراءة الأولى.

واختار ابنُ جرير أنّ الآية أعمّ من هذا كله.

وقولهُ: ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾، أباح تعالى الأكلَ والشربَ، مع ما تَقَدَّم من إباحة الجماع في أيِّ الليل شاء الصائمُ إلى أن يتبين ضياءُ الصباح من سواد الليل.

(١) تفسير الطبري ٢/١٦٥.

(٢) في صلب النص: الزهري عن ابن عباس. والمثبت عن هامشه.

(٣) تفسير الطبري ٢/١٧٠.

وعُبِّر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورَفَع اللبس بقوله: ﴿من الفجر﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبدالله البخاري، رحمه الله تعالى.

حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا أبو غسَّان محمد بن مُطَرِّف، حدثني أبو حازم، عن سَهل بن سَعدٍ، قال: أُنزلَت: ﴿وكُلُوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ ولم يُنْزَلْ ﴿من الفجر﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصومَ، رَبَطَ أحدُهم في رِجلَيه الخيطَ الأبيضَ والخيطَ الأسودَ، فلا يزال يأكلُ حتى يتبيَّن له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: ﴿من الفَجْر﴾، فعلموا أنما يعني: الليل والنهار[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، أخبرنا حُصَين، عن الشعبي، أخبرني عَديُّ بْن حاتم قال: لَمَّا نَزَلت هذه الآية: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ عَمَدت إلى عقالين، أحدُهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادي[2]، قال: [ثم][3] جعلتُ أنظرُ إليهما، فلا يَتَبيَّن لي [الأسود من الأبيض، ولا][3] الأبيض من الأسود، فلما أصبحتُ غَدَوتُ على رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبرته بالذي صَنَعتُ. فقال: إنّ [كان][3] وسادُك إذاً لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل[4].

أخرجاه في الصحيحين[5] من غير وَجْهٍ، عن عَديّ.

ومعنى قوله: «إن وسادك إذاً لعريض» أي: إن كان يسعُ لوضع الخيط الأسود والأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياضُ النهار وسوادُ الليل. فيقتضي أن يكونَ بِعَرْضِ المشرق والمغرب.

وهكذا وقع في رواية البخاري مفسراً بهذا:

أخبرنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن حُصَين، عن الشعبي، عن عَديّ قال: أخذ عَديّ عقالاً أبيض وعقالاً أسود، حتى كان بعضُ الليل نَظَر فلم يَتَبَيَّنا. فلما أصبح قال: يا رسولَ الله، جعلت تحت وسادتي. قال لي: إن وسادك إذاً لعريض، أنْ كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك[6].

وجاء في بعض الألفاظ: إنك لعريضِ القفا. ففسره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف. بل يرجع إلى هذا؛ لأنه إذا كان وسادهُ عريضاً فقفاه أيضاً عريضٌ، والله أعلم. ويفسره رواية البخاري أيضاً.

حدثنا قتيبة، حدثنا جَريرٌ، عن مُطَرِّفٍ، عن الشعبيِّ، عن عَدِيِّ بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطَين. ثم قال: لا، بل هو[7] سواد الليل وبياض النهار[8].

وفي إباحته تعالى جوازَ الأكل إلى طلوع الفجر دليلٌ على استحباب السُّحُور؛ لأنه من باب الرُّخصَةِ، والأخذُ بها محبوبٌ، ولهذا وَرَدَتِ السنة الثابتة عن رسول الله ـ ﷺ ـ بالحث على السُّحُورِ، ففي الصحيحين،

(١) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٨٣/٨.
(٢) في الأصل: وسادتي.
(٣) عن المسند.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣٧٧/٤.
(٥) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٨٢/٨، ومسلم، كتاب الصوم ٧٦٦ ـ ٧٦٧.
(٦) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٨٢/٨.
(٧) في الأصل: هما.
(٨) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٨٢/٨.

عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تَسَحَّرُوا فإن في السَّحور بركة»(١). وفي صحيح مسلم، عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن فَصْل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحَر»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى ـ هو ابن الطباع ـ حدثنا عبد الرحمن بن زَيدٍ، عن أبيه، عن عطاء بن يَسار، عن أبي سَعيدٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «السَّحور أَكْلُهُ بَرَكَةٌ؛ فلا تَدَعُوه، ولو أَنّ أحدكم يَجْرَع جَرْعَةً من ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين»(٣).

وقد رُوِي في الترغيب في السحور أحاديثُ كثيرةٌ حتى بجرعة من ماء، تشبهاً بالآكلين. وَيُستحَبُّ تأخيره إلى قُرْبِ الفجر، كما جاء في الصحيحين، عن أنس بن مالك، عن زَيْدِ بن ثابتٍ، قال: تَسَحَّرنا مع رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ ثم قمنا إلى الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية(٤).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا ابن لَهيعة، عن سالم بن غيلان، عن سليمان بن أبي عثمان، عن عَديّ بن حاتم الحِمْصي، عن أبي ذَرّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تزال أمتي بخير ما عَجَّلوا الإفطار وأَخَّروا السحور»(٥).

وقد ورد في أحاديثَ كثيرةٍ أن رسول الله ـ ﷺ ـ سمَّاه الغَدَاء المبارك(٦). وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه من رواية حَمَّاد بن سَلَمة، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن حُذَيفة ابن اليمان قال: تسحَّرْنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ وكان النهارُ إلا أَنّ الشمسَ لم تطلُعْ(٧). وهو حَديثٌ تَفَرَّدَ به عاصمُ ابنُ أبي النَّجُودِ، قاله النسائي، وحَمَله على أنَّ المراد قربُ النهار، كما قال تعالى: ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف ﴾ أي: قاربن انقضاء العدة، فإما إمساك بمعروف أو تَرْك للفراق. وهذا الذي قاله هو المتعيَّن حملُ الحديث عليه، أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر، حتى إن بعضهم ظَنَّ طلوعَه وبعضُهم لم يتحقق ذلك. وقد رُوِيَ عن طائفةٍ كثيرةٍ من السَّلَفِ أَنَّهم تسامَحُوا في السَّحُورِ عند مقاربة الفجر. رُوِيَ مثلُ هذا عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وحُذَيفة، وأبي هُرَيرة، وابن عُمَر، وابن عباس، وزيد بن ثابت. وعن طائفة كثيرة من التابعين، منهم: محمد بن علي بن الحسين، وأبو مِجْلَز، وإبراهيم النَّخعي، وأبو الضُّحَى، وأبو وائل، وغيره من أصحاب ابن مسعود، وعطاء، والحسن، والحكم بن عُتَيبة، ومجاهد، وعروة بن الزُّبير، وأبو الشعثاء جابرُ بن زيد. وإليه ذهب الأعمش ومعمر بن راشد. وقد حَرَّرنا أسانيدَ ذلك في كتاب الصيام المفرد، ولله الحمد.

وحَكَى أبو جَعفر بن جَريرٍ في تفسيره، عن بعضهم: أَنَّه إنما يجبُ الإمساكُ من طلوعِ الشَّمسِ كما يجوزُ الإفطارُ بغروبها(٨).

---

(١) أخرجاه في كتاب الصوم، فتح الباري ٤/١٣٩، ومسلم ٧٧٠.
(٢) مسلم، كتاب الصوم ٧٧٠ ـ ٧٧١.
(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٤٤.
(٤) أخرجاه في كتاب الصوم، وفتح الباري ٤/١٣٨، ومسلم ٧٧١.
(٥) مسند الإمام أحمد ٥/١٤٧.
(٦) مسند الإمام أحمد ٤/١٣٢، وسنن أبي داود، كتاب الصوم ٢/٣٠٣.
(٧) مسند الإمام أحمد ٥/٤٠٠، والنسائي، كتاب الصيام ٤/١٤٢، وابن ماجه، كتاب الصيام ٥٤١.
(٨) تفسير الطبري ٢/١٧٦.

قلتُ: وهذا القول ما أظنّ أحداً من أهل العلم يستقرُّ له قَدَم عليه، لمخالفته نصّ القرآن في قوله: ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيامَ إلى الليل ﴾، وقد وَرَدَ في الصَّحِيحين من حديث القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يمنعكم أذانُ بلال عن سَحُوركم، فإنه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تَسْمَعوا أذان ابن أمّ مكتوم، فإنَّه لا يؤذِّنُ حتى يطلُعَ الفجرُ». لفظ البخاري[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا موسى بن داود، حدثنا محمد بن جابر، [عن عبدالله بن النعمان][٢]، عن قيس بن طَلْق، عن أبيه: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس الفجرُ المستطيلَ في الأفق، ولكنه المعترض الأحمر»[٣].

ورواه أبو داود، والترمذي ولفظهما: «كلوا واشربوا ولا يَهِيدَنَّكُمْ[٤] الساطعُ المُصْعِدُ، فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر»[٥].

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا مُحمَّد بن المثنى، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن شيخ من بني قُشير: سَمِعتُ سَمُرة بن جُنْدَب يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى ينفجر الفجر، أو يطلع الفجر».

ثم رواه من حديث شُعبَة وغيره، عن سَوادَةَ بن حَنْظَلَةَ، عن سَمُرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يمنعكم من سَحُوركم أذانُ بلالٍ ولاَ الفجرُ المستطيلَ، ولكن الفجر المستطيرِ في الأفق».

قال: وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابنُ عُلَيَة، عن عبدالله بن سَوادة القُشَيري، عن أبيه، عن سَمُرة بن جندب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يَغُرَّنَّكُم أذانُ بلال ولا هذا البياض، تعمدوا الصبح حين يستطير».

ورواه مسلم في صحيحه عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن إبراهيم ـ يعني ابن عُلَيَّة ـ مِثْلَه سواء[٦].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابنُ حُمَيد، حدثنا ابن المبارك، عن سُلَيمان التيمي، عن أبي عثمان النَّهدي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يمنعَنّ أحدكم أذانُ بلالٍ عن سحوره ـ أو قال: نِداء بلال ـ فإن بلالاً يؤذن ـ أو ينادي ـ لينبه نائمكم وليَرْجِعَ قائِمَكم[٧]، وليس الفجرُ أن يقولَ هكذا أو هكذا[٨]، حتى يقول هكذا»[٩].

ورواه من وجه آخر عن التَّيمي، به[١٠].

---

(١) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/١٠٤، ومسلم، كتاب الصيام ٧٦٨.

(٢) عن المسند، وانظر الجرح، ترجمة عبدالله بن النعمان السحيمي ٥/١٨٦.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٢٣.

(٤) أي: لا يمنعنكم.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الصوم ٢/٣٠٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الصيام ٣/٢٢٤.

(٦) مسلم، كتاب الصيام ٧٦٩ ـ ٧٧١.

(٧) معناه: أنه إنما يُؤذّن بليل ليعلمكم بأنّ الفجر ليس ببعيد فيردّ القائم المتهجّد إلى راحته، لينام غفوةً ليصبح نشيطاً، أو يوتر إن لم يكن أوتر، أو يتأهب للصبح إن احتاج إلى طهارة، أو نحو ذلك من مصالحه المترتبة على علمه بقرب الصبح.

(٨) في صحيح مسلم بعدهُ: «وصوّب يده ورفعها».

(٩) بعده في صحيح مسلم أيضا: «وفرج بين إصبعيه».

(١٠) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث سليمان التيمي به، انظر كتاب الصيام ٧٦٨ ـ ٧٦٩.

وحدثني الحسنُ بن الزبرقان النخعيُّ، حدثنا أبو أسامة، عن محمد بن أبي ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الفَجْرُ فجران، فالذي كأنه ذَنَب السِّرحان لا يُحَرِّم شيئاً، وأما المستطيرُ الذي يأخذُ الأفُقَ، فإنه يحل الصلاة ويحرّم الطعام»[1]. وهذا مرسل جيد.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُريج، عن عطاء قال: سمعتُ ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يُحِلّ ولا يَحرِّم شيئاً، ولكن الفجر الذي يستبين على رؤوس الجبال، هو الذي يُحَرِّم الشراب.

قال عطاء: فأما إذا سطع سطوعاً في السماء، وسطُوعُه في السماء طولاً، فإنه لا يُحرم به شرابٌ لصيام ولا صلاةٌ، ولا يفوتُ به حجٌّ، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال، حَرُم الشراب للصيام وفات الحج.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء، وهكذا رُوِيَ عن غيرِ واحدٍ من السلف، رَحِمهم الله.

مسألة

ومن جَعْله تعالى الفجرَ غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يُسْتَدَلُّ على أنه من أصبح جُنُباً فَلْيَغْتَسِل، وليتمّ صومه، ولا حرج عليه. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخاري ومسلم[2] من حديث عائشة وأم سَلَمة - رضي الله عنهما - أنهما قالتا: كان رسول الله - ﷺ - يصبح جُنُباً من جماع غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم. وفي حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطِرُ ولا يقضي[2]. وفي صحيح مسلم، عن عائشة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، تُدْركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم؟ فقال رسول الله - ﷺ -: «وأنا تدركني الصلاة وأنا جُنُب، فأصوم». فقال: لستَ - مثلنا - يا رسول الله - قد غفرَ الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال: «والله إني لأرجو أن أكونَ أخشاكم لله وأعلمكم بما أتَّقي».

فأما الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هُرَيرَةَ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إذا نُودِيَ للصلاة - صلاةِ الصُّبح - وأحدكم جُنُب فلا يَصُم يومئذ»[3].

فإنه حديثٌ جيد الإسناد كما ترى على شرط الشيخين، وهو في الصَّحيحين عن أبي هُرَيرة، عن الفضل ابن عَبَّاسٍ عن النبي - ﷺ -[4] وفي سنن النسائي: عنه، عن أسامةَ بن زيدٍ، والفضل بن عَبَّاسٍ، ولم يرفعه. فمن العلماء من علّل هذا الحديث بهذا، ومنهم من ذهب إليه، ويُحْكى هذا عن أبي هُرَيرة، وسالم، وعطاء، وهشام بن عروة، والحسن البصري. ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنباً نائماً فلا عليه، لحديث عائشة وأم سلمة، أو مختاراً فلا صومَ له، لحديث أبي هُرَيرة. يحكي هذا عن عُروة، وطاوس، والحسن. ومنهم من فَرّق بين الفرض فيتمه ويقضيه وأما النَّفْل فلا يضره. رواه الثوري، عن منصور، عن إبراهيم النَّخعي. وهو رواية عن الحسن البصري أيضاً، ومنهم من ادعى نَسْخ حديث أبي هريرة بحديثي عائشة وأم سلمة، ولكن لا تاريخ معه.

(١) تفسير الطبري ٢/١٧٣.
(٢) أخرجاه في كتاب الصوم، البخاري ٢٥، ومسلم ٧٨٠ - ٧٨١.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣١٤.
(٤) فتح الباري، كتاب الصوم ٤/١٤٣، ومسلم، كتاب الصيام ٧٧٩ - ٧٨٠.

وادعى ابنُ حَزْمٍ أنه منسوخ بهذه الآية الكريمة، وهو بعيدٌ أيضاً، وأبعد؛ إذ لا تاريخ، بل الظاهر من التاريخ خلافه. ومنهم من حَمَلَ حديث أبي هُرَيرة على نفي الكمال «فلا صَوْمَ له» لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز، وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ يقتضي الإفطار عند غُرُوب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين، عن أميرِ المؤمنين عُمَرَ بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا أقبلَ الليلُ من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائمُ»(١).

وعن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يزال الناسُ بخيرٍ ما عَجَّلوا الفطر». أخرجاه أيضاً(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثنا قُرَّة بن عبد الرحمن، عن الزُّهري، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة، عن النبي - ﷺ -: «يقول الله، عزّ وجلّ: ﴿ إنّ أحبَّ عبادي إليَّ أعجَلُهم فِطْراً ﴾»(٣).

ورواه الترمذي من غير وجه، عن الأوزاعي، به. وقال: هذا حديث حسن غريب(٣).

وقال أحمد أيضاً: حدَّثنا عفان، حدَّثنا عبيد الله بن إياد، سمعت إياد بن لقيط قال: سمعت ليلى امرأة بَشير بن الخَصَاصِيَّة، قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة، فمنعني بشير وقال: إن رسول الله - ﷺ - نهى عنه. وقال(٤): يفعل ذلك النصارى، ولكنْ صُوموا كما أمركم الله، وأتمّوا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليلُ فأَفْطِرُوا(٥).

وروى (٦- الحافظ ابن عساكر: حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبدالله بن يوسف، حدثنا يحيى بن حمزة، عن ثَوْرِ بن يزيدٍ، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الملك بن أبي ذر، عن أبيه: أن رسول الله - ﷺ - واصل يومين وليلة فأتاه جبريل، فقال: إن الله قد قَبِل وصالك، ولا يحلُّ لأحد بعدك، وذلك بأن الله قال: ﴿ ثم أتِمُّوا الصيام إلى الليل ﴾، فلا صيام بعد الليل. وأمرني بالوتر قبل الفجر. وهذا إسناد لا بأس به، أورده في ترجمة عبد الملك بن أبي ذر، في تاريخه -٦).

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهيُ عن الوصال، وهو أن يَصِلَ صومَ يومٍ بيوم آخَرَ، ولا يأكل بينهما شيئاً.

قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا مَعمر، عن الزُّهري، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تواصلوا». قالوا: يا رسول الله، إنك تواصِلُ. قال: «فإني لست مثلكم، إني أبِيتُ(٧) يُطْعمني ربي

(١) أخرجاه في كتاب الصوم ٤/١٩٦، ومسلم ٧٧٢ - ٧٧٣.

ومعنى أقبل الليل من هها: أي من جهة المشرق، والمراد به وجود الظلمة حسّاً. وقد صُرِّح بذلك في حديث ابن أبي أوفى، ففيه بعده: «وأشار بيده إلى المشرق» الفتح ٤/١٩٨.

(٢) أخرجاه في الصوم، فتح الباري ٤/١٩٨، ومسلم ٧٧١.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٢٣٧ - ٢٣٨، وعارضة الأحوذي، أبواب الصوم ٣/٢١٩.

(٤) في المسند: وقال عفان.

(٥) مسند الإمام أحمد ٥/٢٢٥.

(٦) عن الأصل.

(٧) في الأصل: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»، والمثبت نص المسند.

ويسقيني. قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي - ﷺ - يومين وليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال: لو تأخر الهلالُ لَزِدتُكُمْ. كالمُنَكِّل بِهِم»(١).

وأخرجاه في الصحيحين(٢)، من حديث الزهري، به. وكذلك أخرجا النَّهي عن الوِصالِ، مِن حديث أنس، وابن عمر(٣).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: نهى رسولُ الله - ﷺ - عن الوصالِ، رحمةً لهم، فقالوا: إنك تواصلُ. قال: «إني لستُ كهيئتِكم، إني يُطعِمُني رَبِّي ويسقيني»(٤).

فقد ثَبت النهيُ عنه من غير وجه، وثبت أنّه من خصائص النبي - ﷺ - وأنه كان يقوى على ذلك ويُعانُ، والأظهر أن ذلك الطعامَ والشرابَ في حَقِّه إنما كان معنوياً لا حسياً، وإلاَّ فلا يكونُ مواصلاً مع الحسِّيِّ، ولكن كما قال الشاعرُ:

لهــا أحـاديثُ مِن ذكــراكَ تَشْغَلهــا عَنِ الشَّــرابِ، وتُلْهيهــا عَن الــزادِ

وأمَّا من أحبَّ أن يُمْسكَ بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «لا تُواصِلُوا، فأيُّكم أرادَ أن يُواصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إلى السَّحَرِ». قالوا: فإنك تُواصِلُ يا رسولَ الله. قال: «إنِّي لستُ كهيئتِكم، إني أبيتُ لي مُطْعِم يُطْعِمُني، وساق يَسْقِيني». أخرجاه في الصحيحين(٥) أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا أبو إسرائيل العَبْسي، عن أبي بكر بن حفص، عن أمّ ولد حاطب بن أبي بَلْتعة: أنها مَرَّت برسول الله - ﷺ - وهو يَتَسَحَّرُ، فَدَعاها إلى الطعام. فقالت: إني صائمةٌ. قال: «وكيفَ تَصُومِينَ؟» فذكرتُ ذلك للنبي - ﷺ -، فقال: «أين أنتِ من وصالِ آل محمد، من السَّحَر إلى السَّحَر»(٦).

وقال الإمام أحمد: حَدّثنا عبد الرزاق، حَدّثنا إسرائيلُ، عن عبد الأعلى، عن محمد بن علي، عن علي: أن النبي - ﷺ - كان يواصل من السَّحَر إلى السَّحَرِ(٧).

وقد رَوَى ابنُ جرير، عن عبدالله بن الزّبير وغيره من السَّلَف، أنهم كانوا يُواصِلُون الأيام المتعدِّدَة. وحَمَله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضةً لأنفسهم(٨)، لا أنهم كانُوا يفعلونه عبادةً. والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرْشاد، أي من باب الشفقة، كما جاء في حديث عائشة: «رحمةً لهم»، فكان ابن الزبير وابنُه عامر ومن سلك سَبيلهم يَتجشَّمُون ذلك ويفعَلُونه، لأنهم كانُوا يَجدُون قُوَّةً عليه. وقد ذُكِرَ عنهم أنهم كانوا أول ما يفطِرون على السمنِ والصَّبر(٩) لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولاً. وقد رُوِيَ عن ابن الزُّبير أنَّه

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٢٨١.
(٢) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٢٧٥، ومسلم، كتاب الصوم ٧٧٤.
(٣) أخرجاه في كتاب الصوم، فتح الباري ٤/٢٠٢، ومسلم ٧٧٤، ٧٧٥ - ٧٧٦.
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصيام ٧٧٦.
(٥) فتح الباري، كتاب الصوم ٤/٢٠٢، ٢٠٨. ولم يقع لنا من رواية أبي سعيد في مسلم، وانظر ٧٧٤ - ٧٧٦.
(٦) تفسير الطبري ٢/١٧٩.
(٧) مسند الإمام أحمد ١/١٤١.
(٨) تفسير الطبري ٢/١٧٨.
(٩) الصبر - بفتح الكسر -: عصارة شجر مُرّ.

كان يُواصِلُ سبعةَ أيام، ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم.

وقال أبو العالية: إنما فَرَضَ الله الصيام بالنهار، فإذا جاء الليلُ فمن شاء أكلَ ومن شاء لَم يأكُل.

وقوله تعالى: ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرّم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً ونهاراً، حتى يقضي اعتكافه(١).

وقال الضحاك: كان الرجلُ إذا اعتكَفَ فخرَجَ من المسجد، جامَعَ إن شاء. فقال الله تعالى: ﴿ ولا تُباشِرُوهُنَّ وأنتم عاكفون في المساجد ﴾، أي: لا تَقرَبُوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ أنهم كانوا يفعلُون ذلك حتى نَزَلت هذه الآية.

قال ابن أبي حاتم: ورُوِيَ عن ابن مسعود، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادةَ، والضحاك والسُّدِّي، والربيع بن أنس، ومقاتل، قالوا: لا يَقْرَبُها وهو معتكفٌ. وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتَّفَقُ عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرمُ عليه النِّساءُ ما دامَ معتكفاً في مسجده، ولو ذَهَب إلى منزله لحاجةٍ لا بُدَّ له منها فلا يحل له أن يمكُث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يُقَبِّلَ امرأته، ولا يضمَّها إليه، ولا يشتغلَ بشيء سوى اعتكافه، ولا يَعودُ المريض، لكن يسأل عنه وهو مارٌّ في طريقه.

وللاعتكاف أحكامٌ مفصلة في بابه، منها ما هو مجمعٌ عليه بين العلماء، ومنها ما هو مختلف فيه. وقد ذكرنا قِطْعَة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

ولهذا كان الفقهاءُ المصنفون يُتْبِعون كتابَ الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداءً بالقرآن العظيم، فإنه نَبَّه على ذكر الاعتكافِ بعد ذكر الصوم. وفي ذكره تعالى الاعتكافَ بعد الصيام إرشادٌ وتنبيهٌ على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله - ﷺ -: أنه كان يعتكف العشرَ الأواخر من شهر رمضان، حتى توفاه الله، عزّ وجلّ. ثم اعتكف أزواجُه من بعده. أخرجاه(٢) من حديث عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها. وفي الصحيحين أن صَفِيَّة بنت حُيَيٍّ كانت تزور النبي - ﷺ - وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها - وكان ذلك ليلاً - فقام النبي - ﷺ - ليمشي معها حتى تبلُغَ دارها، وكان منزلُها في دار أسامةَ بن زيد في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي - ﷺ - أسرعا - وفي رواية: تواريا - أي: حياءً من النبي - ﷺ -، لكون أهْلِه معه، فقال لهما النبي - ﷺ -: «على رِسْلكما، إنها صفية بنت حُيَيٍّ». أي: لا تُسرعا، واعلما أنها صفية بنت حيي، أي: زَوْجَتي: فقالا: سبحان الله يا رسول الله! فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يجري من ابنِ آدَمَ مجرى الدم، وإني خَشِيتُ أن يَقْذِفَ في قلوبكما شيئاً، أو قال: شرّاً»(٣).

قال الشافعي، رحمه الله: أراد - عليه السلام - أنْ يُعَلِّم أمَّته التبري من التُّهمة في محلها، لئلا يَقَعا في محذورٍ وهما كانا أتقى لله أن يظنا بالنبي - ﷺ - شيئاً. والله أعلم.

ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا

(١) تفسير الطبري ٢/١٨٠.
(٢) أخرجاه في كتاب الاعتكاف، فتح الباري ٤/٢٧١، ومسلم ٨٣٠.
(٣) فتح الباري، كتاب الاعتكاف ٤/٢٨٢ - ٢٨٣، ومسلم، كتاب السلام ١٧١٢.

بأس به؛ فقد ثبت في الصحيحين، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُدْني إليّ رأسه فأرجِّلُه وأنا حائض، وكان لا يدخل البيتَ إلا لحاجةِ الإنسانِ. قالت عائشة: ولقد كان المريضُ يكون في البيت فما أسألُ عنه إلا وأنا مارّةٌ(١).

وقولُه: ﴿ تلك حدودُ الله ﴾ أي: هذا الذي بيّناه، وفرَضْناه، وحَدَّدناه من الصيام وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرّمنا، وذِكْرِ غاياته ورُخَصِه وعزائمه ـ حدودُ الله، أي: شرَّعها الله وبيَّنها بنفسه ﴿ فلا تقربوها ﴾ أي: لا تتجاوزوها أو تعتدوها.

وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله تعالى: ﴿ تلك حدود الله ﴾ أي: المباشرة في الاعتكاف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني هذه الحدود الأربعة، ويقرأ: ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ حتى بلغ: ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾، قال: وكان أبي وغيره من مَشْيَختنا يقولون هذا ويتلونه علينا.

﴿ كذلك يُبَيِّن الله آياته للناس ﴾ أي: كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يُبَيِّن سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ـ ﷺ ـ ﴿ للناس لعلهم يتَّقون ﴾، أي: يَعْرفون كيف يهتَدُونَ، وكيف يُطِيعون كما قال تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آياتٍ بيِّنات ليخرجَكم من الظلمات إلى النور﴾. . . الآية.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه في بَيِّنة، فيجحَدُ المالَ ويخاصِمُ إلى الحكام، وهو يعرف أنّ الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل حرام(٢).

وكذا رُوِي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدّي، ومقاتل بن حَيّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تُخاصمْ وأنت تعلمُ أنَّك ظالم.

وقد رُوِي في الصحيحين عن أم سلمة: أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «ألا إنما أنا بَشَر، وإنما يأتيني الخَصْمُ فلعلَّ بعضَكم أن يكون ألحَنَ بحُجَّتِه من بعض فأقضي له، فمن قَضَيتُ له بحقِّ مسلم، فإنما هي قطعة من نارٍ، فَلْيَحمِلْهَا، أو فَلْيَذَرْها»(٣).

فدلَّت هذه الآية الكريمة وهذا الحديثُ على أنّ حُكْم الحاكم لا يُغَيِّر الشيءَ في نفس الأمر، فلا يُحِلّ في نَفْس الأمر حَراماً هو حرام، ولا يُحَرِّم حلالاً هو حلالٌ، وإنما هو يُلْزِم في الظاهر، فإن طابَقَ ما في نفس الأمر فذاكَ، وإلا فللحاكم أجرُه وعلى المحتال وزرُه، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾، أي: تعلمون بُطْلانَ ما تدعونه وتُرَوِّجُون في كلامكم.

قال قتادةُ: اعلم ـ يابن آدم ـ أنّ قضاء القاضي لا يُحِل لك حراماً، ولا يُحقُّ لك باطلاً، وإنما يقضي

(١) أخرجاه في كتاب الحيض، فتح الباري ١/٤٠١، ومسلم ٢٤٤.
(٢) تفسير الطبري ٢/١٨٣.
(٣) فتح الباري كتاب الأحكام ١٣/١٥٧، ومسلم، كتاب الأقضية ١٣٣٧.

القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بَشر يخطىء ويصيب، واعلموا أنه من قُضِي له بباطل أنّ خصومته لم تَنْقَض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحق بأجودَ مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا[١].

[٢]-وقال أبو حنيفةَ: حُكْمُ الحاكم بطلاق الزوجة إذا شَهد عنده شاهدا زُورٍ في نفس الأمر، ولكنهما عدلان عنده ـ يُحِلُّها للأزواج حتى للشاهدين، ويحرِّمها على زوجها الذي حكم بطلاقها منه. وقالوا هذا كلعانِ المرأة، فإنه يُبينها من زوجها ويحرِّمها عليه، وإن كانت كاذبةً في نفس الأمر ولو علم الحاكم بكذبها لحدَّها ولما حَرَّمها على الزوج[٣].

مسألـة

قال القرطبي[٤]: أجمع أهلُ السنَّةِ على أنَّ من أكل مـالاً حراماً ولو ما يصدُقُ عليه اسمُ المال أنه يُفَسَّقُ. وقال بشرُ بن المعتمر في طائفةٍ من المعتزلة: لا يُفَسَّق إلا بأكل مائتي درهم فما زاد، ولا يُفَسَّقُ بما دون ذلك. وقال الجُبَّائي: يُفَسَّقُ بأكل دِرْهَمٍ فما فَوْقَه لا بما دُونه-[٢].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

قال العوفي، عن ابن عباس: سأل الناسُ رسولَ ـ ﷺ ـ عن الأهلة، فنزلَت هذه الآيَةَ: ﴿ يسألونك عن الأهلة قُلْ: هي مواقيت للناس ﴾ يُعَلَّمون بها حلَّ دينهم، وعدّة نسائهم، ووقتَ حَجّهم[٥].

وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: بلغنا أنَّهم قالوا: يا رسولَ الله، لِمَ خُلِقَتِ الأهلة؟ فأنزل الله: ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس ﴾. يقول: جَعَلَهَا الله مواقيتَ لصَوْم المسلمين وإفطارهم، وعِدّة نسائهم، ومَحَلّ دَيْنهم.

وكذا رُوِيَ عن عَطَاء، والضحاك، وقتادَةَ، والسدِّي، والربيع بن أَنَسٍ، نحوُ ذلك.

وقال عبد الرزاق، عن عبدِ العزيز بن أبي رَوَّادٍ، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «جعلَ الله الأهِلَّةَ مواقيتَ للناسِ، فصومُوا لرؤيتِه وأَفْطِرُوا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فَعُدُّوا ثلاثين يوماً».

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث ابن أبي رَوَّادٍ، به. وقال: كان ثقةً عابداً مجتهداً شريف النسب[٦]، فهو صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[٧].

وقال محمد بن جابر، عن قيس بن طلق، عن أبيه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: جعل الله الأهلَّة مواقيت

---

(١) تفسير الطبري ٢/١٨٤.
(٢) عن الأصل.
(٣) انظر تفسير القرطبي ٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩.
(٤) تفسير القرطبي ٢/٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٥) تفسير الطبري ٢/١٨٥ ـ ١٨٦.
(٦) في المستدرك: شريف البيت.
(٧) المستدرك، كتاب الصوم ١/٤٢٣.

للناس فإذا رأيتم الهلال فصُوموا، وإذا رأيتموه فافطروا، فإن أغمي عليكم فأكملوا العدة ثلاثين[١].

وكذا رُوِي من حديثِ أبي هُرَيرةَ، ومن كلام عَليٍّ بن أبي طالبٍ، رَضِي الله عنهُ.

وقولهُ: ﴿ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها ﴾، قال البخاري: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن البَرَاء قال: كانوا إذا أَحْرَمُوا في الجاهلية أَتَوُا البيتَ من ظَهْرِه، فأنزل اللهُ: ﴿ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البرَّ من اتَّقى وأْتوا البيوتَ من أَبْوابها ﴾[٢].

وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سَفَر لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية[٣].

وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر: كانت قُرَيشٌ تُدعَى الحُمْسَ[٤]، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصارُ وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينا رسول الله - ﷺ - في بستان إذْ خرج من بابه، وخرج معه قُطْبة بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله، إن قطبةَ بن عامر رجل تاجر، وإنه خَرَجَ معك من الباب. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلتَه ففعلتُ كما فعلتَ. فقال: إني رجلٌ أحمَسُ. قال له: فإنَّ ديني دينك. فأنزل الله: ﴿ وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البرّ من اتَّقى، وأتوا البيوتَ من أبوابها ﴾.

رواه ابن أبي حاتم. ورواه العوفي عن ابن عباس بنحوه. وكذا رُوِي عن مجاهد[٥]، والزهري، وقتادة، وإبراهيم النخَعي، والسدّي، والربيع بن أنس.

وقال الحسنُ البصريّ: كان أقوام من أهل الجاهليَّة إذا أراد أحدُهم سَفَراً وخرج من بيته يُريد سفرَه الذي خرج له، ثم بدا له بَعْدَ خُروجِه أن يُقيم ويَدَعَ سفره، لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوّرُه من قِبل ظهره، فقال الله تعالى: ﴿ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾... الآية.

وقال محمد بن كعب: كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت، فأنزل الله هذه الآية.

وقال عطاء بن أبي رباح: كان أهل يثربَ إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها، ويَرَوْنَ أن ذلك أدنى إلى البرِّ، فقال الله تعالى: ﴿ وليس البرُّ بأن تأتوا البيوتَ من ظهورها ﴾.

وقولُه: ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أي: اتقوا الله فافعلُوا ما أمركم به، واتركُوا ما نهاكم عنه ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ غداً إذا وقفتم بين يديه، فيجازيكم بأعمالكم على التمام والكمال.

نهاية المجلد الأول

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/ ٢٣.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ٨/ ١٨٣.

(٣) مسند أبي داود الطيالسي ٩٨.

(٤) الحُمْسُ: قريش وكنانة، وخزاعة، وجشم، وبنو عامر بن صعصعة، وبنو نصر بن معاوية، سمّوا بذلك لتشدّدهم في دينهم، والحماسة: الشدّة.

(٥) انظر تفسير الطبري ٢/ ١٨٧ - ١٨٩.

فهرس موضوعات الجزء الأول

مقدمة التحقيق ٧
نماذج صور المخطوط ٢٩

تفسير القرآن العظيم

مقدمة ابن كثير ٣٧
كتاب فضائل القرآن ٤٧
١ ـ كيف نزل الوحي ٤٧
٢ ـ القرآن بلسان قريش والعرب ٥٢
٣ ـ جمع القرآن ٥٤
٤ ـ كتّاب النبي ﷺ ٦٤
٥ ـ أُنزِل القرآن على سبعة أحرف ٦٤
٦ ـ تأليف القرآن ٧٥
٧ ـ عرضُ جبريلُ القرآنَ على النبي ﷺ ٧٨
٨ ـ باب القرّاء من أصحاب النبي ﷺ ٧٩
٩ ـ نزول السكينة والملائكة عند القراءة ٨٢
١٠ ـ باب ما ترك النبي ﷺ إلاّ ما بين الدفّتين ٨٤
١١ ـ باب فضل القرآن على سائر الكلام ٨٥
١٢ ـ باب الوصاة بكتاب الله ٨٦
١٣ ـ باب من لم يتغنَّ بالقرآن ٨٧

١٤ ـ باب اغتباط صاحب القرآن ٩٢
١٥ ـ باب خيركم من تعلّمَ القرآن وعلّمه ٩٤
١٦ ـ باب القراءة عن ظهر قلب ٩٦
١٧ ـ باب استذكار القرآن وتعاهده ٩٨
١٨ ـ القراءة على الدابة ١٠١
١٩ ـ باب تعليم الصبيان القرآن ١٠١
٢٠ ـ باب نسيان القرآن ١٠٢
٢١ ـ بابِ لم ير بأساً أن يقول: سورة البقرة، وسورة كذا وكذا ١٠٣
٢٢ ـ باب الترتيل في القراءة ١٠٤
٢٣ ـ مدُّ القراءة ١٠٥
٢٤ ـ الترجيع ١٠٦
٢٥ ـ باب حسن الصوت بالقراءة ١٠٦
٢٦ ـ باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره ١٠٧
٢٧ ـ باب قول المقرىء للقارىء: حسْبُك ١٠٧
٢٨ ـ باب في كم يُقرأ القرآن ١٠٨
٢٩ ـ باب البكاء عند القراءة ١١٢
٣٠ ـ باب من رايا بقراءة القرآن أو تأكّل به أو فخر به ١١٣
٣١ ـ ثم قال البخاري: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم» ١١٤
كتاب الجامع لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن وفضائله وفضل أهله ١١٧
باب ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن وطرد النسيان ١٢٠
مقدمة مفيدة ١٢٥
ـ تفسير سورة الفاتحة ١٢٩
ـ تفسير سورة البقرة [إلى الآية ١٨٩] ١٦٩

□□□